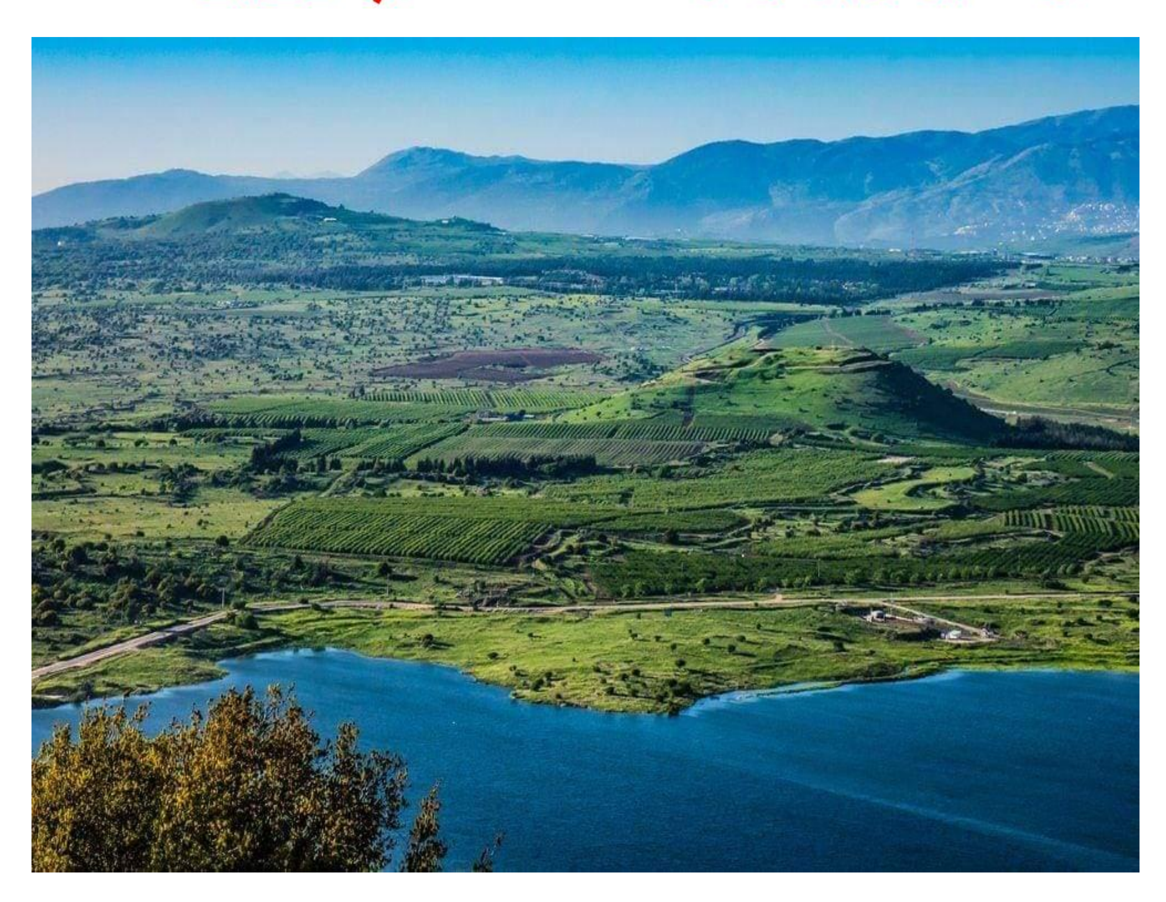


العدد المزدوج 17-18

آب 2022





الجولان السوري المحتل وسرديات النظام الأسدي

مجلة تعنى بشؤون الفكر و الثقافة والإبداع

تصدر عن رابطة الكتاب السوريين



العدد 17-18 – آب 2022

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

تصدرها رابطة الكتاب السوريين



https://www.syrianwa.net

المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة أوراق على البريد الإلكتروني:

awraq@syrianwa.net

صفحة الرابطة في موقع فيس بوك

https://www.facebook.com/Syrian-Writers-Association

فهرس العدد

الجولان السوري المحتل وسرديات الانتصار

"أقوى من النصرِ المبينِ هزيمةٌ

لا شيء يُحزِنُ بعدها أو يُفرِحُ"

أحمد إبراهيم عبدالله

أنور بدر

رئيس التحرير

صادف شهر حزيران/ يونيو 2022، مرور 55 سنة على احتلال إسرائيل للجولان السوري إثر هزيمة 1967، التي مازلنا نعيش على وقع ارتداداتها حتى الآن، باعتبارها شكّلت، وما زالت تشكّل رافعة لتبرير وحماية الاستبداد الأسدي خلال تلك السنوات الطويلة، كما كانت إحدى منتجاته أيضاً، والتي كُتب فيها الكثير خلال تلك السنوات الطويلة، دون أن نستغرق دلالات هذا الحدث ونتائجه، طالما لم نتمكن- رغم انتفاضة السوريين/ ثورتهم- من تجاوز هذه الهزيمة، ومحاسبة المسؤولين عنها، إن لم نقل إنّها تجذّرت في سلوكنا ووعينا الذي يُعيد انتاج الهزيمة تلوى الهزيمة.

تَبنى مسؤولو السلطة وقيادات حزب البعث باستثناءات قليلة سنمرّ على بعضها لاحقا، سردية انتصار النظام، وبالتالي ليس وزير الدفاع حافظ أسد من يتحمل وزر هذه الهزيمة فقط، رغم مسؤوليته المباشرة في انتاجها كما سنرى لاحقا، بل يتحمل حزب البعث وسلطته المستبدة آنذاك مسؤولية خطيرة حين ساهموا بتلفيق ديماغوجيا الانتصار وحماية مكاسب الثورة كما جاء في تعليق إذاعة دمشق: "الحمد لله! لقد استطاعت قواتنا الباسلة حماية مكاسب

الثورة أمام الزحف الإسرائيلي، الحمد لله الذي أفسد خطة العدو، وقضى على أهدافه الجهنمية، إنّ إسرائيل لن تُحقق نصراً يُذكر، طالما أنّ حكّام دمشق بخير"! وهو منطق يؤكّد أنّ النظام أهمّ من الأرض، والحكّام أهم من الوطن.

تلكؤ حزب البعث وسلطته المستبدة ككل في محاسبة وزير الدفاع حافظ أسد عن مسؤوليته حول بث البلاغ رقم 66 من إذاعة دمشق صباح العاشر من حزيران/ يونيو 1967، معلناً سقوط مدينة القنيطرة بيد القوات الإسرائيلية، يجعل تلك القيادة شريكة معه في المسؤولية التي يعتبرها بعضهم خيانة أو مؤامرة، إذ اعترف الجميع أن البيان 66 صدر قبل أن يدخل أي إسرائيلي إلى القنيطرة، وقبل أن تخاض فيها أي معركة عسكرية، إضافةً لكونه قرارٌ من وزير الدفاع بمفرده، اتخذ بشكل شخصي دون أيّ علمٍ أو تنسيقٍ مع قيادة الحزب أو الدولة، أو حتى مع رئيس الأركان اللواء أحمد سويدان أو قائد الجبهة في الجولان العقيد أحمد المير، اللذين فوجئا بالجنود وقطعات الجيش التي بدأت انسحابها الكيفي من المعركة.

الدكتور عبد الرحمن الأكتع، وزير الصحة آنذاك، كان الوحيد في القيادة السياسية والحكومة الذي طالب بمحاكمة وزير الدفاع، ليقينه بلا منطقية ما حصل ذلك اليوم، حيث كان يتفقد الوضع داخل المدينة وجاهزية مستشفى القنيطرة تحديداً في يوم 10 حزيران/ يونيو الساعة 11.30 صباحاً لحظة سماعه بلاغ سقوط المدينة قبل أن تتعرض لأي عمليات عسكرية، وهو الأمر الذي يؤكّده سفير سوريا حينها في باريس سامي الجندي في كتابه "كسرة خبز" قائلاً: "فوجئتُ لمّا رأيت على شاشة التلفزيون في باريس مندوبَ سورية في الأمم المتحدة يُعلن سقوط القنيطرة ووصول القوات الإسرائيلية إلى مشارف

دمشق، والمندوب الإسرائيلي يؤكّد أن شيئاً من ذلك لم يحصل" ص17، وللتوضيح فالسيد سامي الجندي وزير إعلام سابق في نظام البعث!

تتقاطع هذه الرواية مع رواية الرائد مصطفى خليل بريّز في كتابه "سقوط الجولان"، وبشكل خاص فيما يتعلق بتوقيت إذاعة البلاغ 66، وفيما يتعلق بالانسحاب الكيفي وليس المنظم، وهو ما دفع العسكريين والضباط إلى الفرار من أرض المعركة، متخلّين عن أسلحتهم ورتبهم وشاراتهم العسكرية، مما خَلق حالة هلع وذعر استدعت بالضرورة فرار المدنيين من المنطقة التي لم تكن للحظتها قد سقطت عسكريا.

استقال الوزير الأكتع وهاجر إلى ألمانيا، بينما تمّ اختطاف الرائد بريّز من لبنان بعد صدور كتابه، وحكم عليه بالسجن 15 سنة، دون أن يُخلى سبيله بعد انقضاء هذه المدة، إذ استمرّ قرابة ضعفها حتى وفاته في السجن.

إشكالية الاستبداد البعثي مع هزيمة حزيران أكبر بكثير من جانبها العسكري، وأكبر من قصة بلاغ سقوط القنيطرة رقم 66، فهي هزيمة للنظام العربي المتخلف الذي وقف في وجه الديمقراطية وآليات التنمية الاقتصادية والمجتمعية والسياسية، حين أمّم الحياة السياسية وحكم بقوة قانون الطوارئ ليمنع الحريات العامة والخاصة، ويستبد بالشأن العام ويفسد اقتصاد البلاد، تحت يافطة الخطر الخارجي وصمود الجبهة الداخلية في ضوء سرديات الانتصار، مما أتاح لاحقا لوزير الدفاع حافظ أسد قطف ثمار ذلك في انقلاب 1970، والذي دعاه "الحركة التصحيحية"، ليزجّ بعدها بكل رفاق المرحلة

السابقة من قيادات الحزب والدولة في سجن المزة العسكري قرابة ربع قرن من الزمن، ولم يخرج أغلبهم إلا موتى أو مشاريع موت مؤكّد.

كلُّ السرديات التي أتيح لنا أن نسمعها لاحقاً عن خفايا تلك الهزيمة، كانت روايات جاءتْ متأخرة ولم يُفسِح لها النظام المستبد أن تكتسب مصداقية وفاعلية في الوعي السوري الذي حاصره الاستبداد عموماً، فكيف الأمر مع أجيال عديدة ممن ولدوا بعد تلك الهزيمة، وعاشوا على وقع سرديّات انتصارات الأسد بطل التصحيح والتحرير، بحيث لم يُتح لأغلب السوريين معرفة حقائق ما جرى، وأثر ذلك فيما بعد وحتى الآن، مما يَمنح ملف هذا العدد مع أعمال أخرى أهمية توثيقية كبيرة للمستقبل ولتلك الأجيال، أهمية توثيقية في مواجهة مثقفي الأنظمة ومروّجي سردياتها ومؤدّلجي خطابها.

مع الإشارة إلى الأعمال الهامة لمثقفين سوريين اشتغلوا بجدّ وحفروا عميقا في الذاكرة والوجدان السوريين لنقد الهزيمة والآليات التي أنتجتها، رغم محاولات النظام تَهميش بعضهم وإغفال بعض آخر، وصولاً إلى تصفيّة آخرين كان يتوجس من دورهم كمثقفين. وربما يكون د. صادق جلال العظم أول من انبرى في كتابه "النقد الذاتي بعد الهزيمة" للتصدي لهذا الموضوع عام 1968، محاولا مساءلة البنية الثقافية والسياسية التي انتجت هذه الهزيمة، فيما جاء كتاب ياسين الحافظ "الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة" معمقا لهذه الرؤية النقدية التي حاول النظام أن يتجاهلها كلية، بدعوى انتصاره، رغم أنّ إسرائيل وحتى بعد انسحابها من مدينة القنيطرة المهدمة وأربع قرى أخرى في حرب 1973، ما زالت تحتل 1200 كم2 من مساحة سوريا.

لن نملك عبر هذا التقديم رفاهية رصد كل الأعمال الكثيرة في حقل الثقافة الإبداعية التي اشتغلت على نقد الهزيمة، لكن أغلب السوريين يتذكرون حتى الآن ما كتبه نزار قباني من قصائد "هوامش على دفتر النكسة" التي يقول من ضمنها:

أنعي لكم، يا أصدقائي، اللغة القديمة

والكتب القديمة

أنعي لكم..

كلامنا المثقوب، كالأحذية القديمة..

ومفردات العهر، والهجاء، والشتيمة

أنعي لكم.. أنعي لكم

نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة.

مع أنّ القصيدة الأهم باعتقادي، رغم أنها لم تَحظ بانتشار "هوامش" نزار قباني، كانت قصيدة بدوي الجبل "من وحي الهزيمة"، والتي كاد الشاعر أن يدفع حياته ثمنا لها، بعد اختطافه لثلاثة أيام في مدينته اللاذقية، وتعرضه لضرب مبرح خلالها، ونقتطف من هذه القصيدة الطويلة بعض الأبيات:

جَبُنَ القادةُ الكبارُ وفرّوا .... وبكى للفرارِ جيشٌ جَسورُ

لم يُعانِ الوغى لواءٌ ولا .... عانى فريقٌ أهوالَها ومُشيرُ

رتب صُنعة الدواوين ما .. شارك فيها قرّ الوغى والهجيرُ

هُزِمَ الحاكِمونَ والشّعبُ في ... الأصفاد، فالحكمُ وحدَهُ المكسورُ

هزم الحاكمون، لم يحزن الشعب ... عليهم ولا انتخى الجمهورُ

يستجيرون! والكريم لدى الغمرة .... يلقى الردى ولا يستجيرُ !

القصائد السابقة نشرت وتبناها كتابها، لكنّ هنالك نصوص كثيرة بقيت غفلاً أو بلا نَسبٍ، نذكر منها قصدية "غنت فيروز مغردة" التي لمْ يَنسبها أيّ شاعر لذاته أو ينشرها ضمن أعماله، فيما نسبتها أغلب المراجع للشاعر نزار قباني، بما فيهم الشاعر مريد البرغوثي الذي كتب ردّاً على الردّ، وقد نَسبها الصديق أحمد فاخوري لشاعر رقّي أو رقّاوي اسمه فيصل عبد الهادي البليبل الذي توفيّ في ثمانينات القرن الماضي، غير أنّ اللواء "غازي أبو عقل" من هيئة تحرير جريدة "الكلب" حينها، وقد شغل منصب مدير إدارة "التوجيه المعنوي" في الجيش السوري، والتي أصبحت لاحقا "الإدارة السياسية". وظلّ من المتابعين لتفاصيل النشاط الثقافي في سوريا، يؤكّد عكس ما ذهب إليه الجميع، فينسب القصيدة عن علم وليس مجرد تخمين، إلى الشاعر نديم محمد تولد 1908، والذي لم يأخذ شهرة القباني لكنه لا يقل عنه مكانة، حتى أن طه حسين قال عن ديوانه "آلام" في مؤتمر الأدباء العرب في بلودان: "لو لم يكن لهذا الشاعر إلاّ هذا الديوان فحريٌّ بالشعر العربي أن يضمه إلى فحوله الكبار".

نقتطف من قصيدة "غنت فيروز مغردة" بعضاً مما جاء فيها:

غنت فيروز مُغرّدةً

وجميع الناس لها تسمعْ

(الآنَ، الآنَ وليس غداً

أجراس العَودة فلتُقرَعْ)

عفواً فيروزُ ومعذرةً

أجراسُ العَودة لن تُقرعْ

خازوقٌ دُقَّ بأسفلنا

من شَرَم الشيخ إلى سَعسَعْ .

ومنَ الجولان إلى يافا

ومن الناقوره إلى ازرَعْ

خازوقٌ دُقَّ بأسفلِنا

خازوقٌ دُقَّ ولن يَطلعْ .

ويضيف أبو عقل في ملف خاص لجريدة "الكلب"، عن الشاعر علي الجندي، أن مدرساً للتاريخ هو أحمد إبراهيم عبدالله وكان مراسلا لجريدة "الكلب" في اللاذقية، كتب في الصباح التالي لذكرى هزيمة حزيران الأولى، بضعة أبيات شعريّة، تحت عنوان "عام الهزيمة"، والتي يضيف أبو عقل أن تلك الأبيات: "وُئدت في مهدها، كما وئدت قصيدة بدوي الجبل الخالدة "من وحي الهزيمة" وقصيدة نديم محمد أيضاً وأيضاً.. فهل ينبغي لي التنويه بكون الشعراء الثلاثة ولدوا في ثلاث قرى من ريف الساحل السوري؟"

تنويه اللواء غازي أبو عقل وهو من منتسبي الكلية الحربية في سوريا 1952، أي الدورة ذاتها التي ضمّت حافظ الأسد ومصطفى طلاس وآخرين، يمكن

اعتباره شهادة إضافية حول هزيمة حزيران ومأساة الجولان المستمرة. لكننا بعيدا عن ذلك الاستفهام، ننقل عن أبو عقل المقطع الذي ذكره من قصيدة "عام الهزيمة"، كوننا لم نعثر على أيّ أثر مطبوع لها أو باسم الشاعر أحمد إبراهيم عبدالله:

"قالوا مضى عامُ الهزيمة وانقضى

والشعبُ يرسِفُ في القيود ويرزحُ

فأجبتهُم عامُ الهزيمةِ راسخٌ

أنا لا أحسُ بأنه يَتزحزُح

وبعد أبيات كلها سخرية سوداء يسطع هذا البيت:

أقوى من النصرِ المبينِ هزيمةٌ

لا شيء يُحزِنُ بعدها أو يُفرِحُ".

وأعتقد أنه لن تستقيم أي كتابة أو استعادة لهزيمة حزيران بعيداً عن مسرحيته "حفلة سمر من أجل 5 حزيران" لسعد الله ونّوس، التي نُشرت أول مرة عام 1968. وحفرت عميقاً في ذاكرة السوريين، كنص تسجيلي متخم بالواقعية، لكنه كان أيضاً نصاً تجريبياً، سعى لتجاوز الخطابية السياسية باتجاه تسييس المسرح، بمعنى منحه فاعلية نقدية وثقافية في الوعي السوري، إذ أتاح للمشاهدين في الصالة أن يكونوا جزءاً من العرض، ليس كتعليق عليه فقط، بل منحهم فرصة اقتحام المنصة ليؤكّدوا هويتهم وليلعبوا فيها دورهم الذي سلبتهم إياه أنظمة الاستبداد.

وفي حوار متأخّر لونّوس عام 1979 أشار الكاتب إلى دور الهزيمة في تطور أسلوبه المسرحي وعلاقته باللّغة "حين تقوض بناؤنا الرملي صباح الخامس من حزيران، أخذت تلك العلاقة الإشكالية تتجلى تحت ضوء شرس وكثيف. ويمكن الآن أن أحدد هذه العلاقة بأنها الطموح العسير لأن أكثّف في الكلمة، أي في الكتابة شهادة على انهيارات الواقع وفعلاً نضالياً مباشراً يعبر عن هذا الواقع".

تأخر عرض المسرحية لثلاث سنوات، حتى تبرع علاء الدين كوكش الذي سبق له وأخرج مسرحية ونوس "الفيل يا ملك الزمان"، فأقدم عام 1971، على إخراج "حفلة سمر من أجل 5 حزيران" والتي عُرضت في بيروت أولاً، ليشكّل هذا العرض استدعاءً تالياً لها للمشاركة في مهرجان دمشق الثالث للفنون المسرحية في أيار/ مايو من ذات العام. وننقل ما كتبه كوكش عن ذلك العرض لاحقاً: "وقد حققت نجاحا كبيرا في المهرجان وبعده أيضاً، حيث قدمناها في عرض جماهيري لأكثر من (45) يوماً متواصلاً، وكان رقماً قياسياً بالنسبة لعرض مسرحي جاد في سورية".

لكن ونّوس كان يريد أكثر من ذلك النجاح، أو النجاح بالنسبة له كان يعني نقلة في الوعي وفي الشارع السوري تأخرت كثيراً، فكتب:

"حين عرضت المسرحية بعد منع طويل، كنت قد تهيأت للخيبة، لكن مع هذا كنت أحس مذاق المرارة يتجدد كل مساءٍ في داخلي وينتهي تصفيق الختام. ثم يخرج الناس كما يخرجون من أي عرض مسرحي، يتهامسون، أو يضحكون، أو ينثرون كلمات الإعجاب. ثم ماذا؟ لا شيء آخر. أبداً لا

شيء.. لا الصالة انفجرت في مظاهرة ولا هؤلاء الذين يرتقون درجات المسرح ينوون أن يفعلوا شيئاً إذ يلتقطهم هواء الليل البارد عندما يلفظهم الباب إلى الشارع حيث تعشش الهزيمة وتتوالد".

نعم فسوريا كانت خارج باب المسرح، وفي سوريا كانت ولا زالت، تعشش الهزيمة وتتوالد، وقد رحل سعد الله ونّوس عن عالمنا قبل أن يرى السوريين وقد خرجوا للشوارع في مظاهرات تطالب بالحرية، تأخر انفجار المظاهرات 40 عاماً، لكنّ الانفجار حدثَ، وسنبقى رغم كل الخيبات التالية نردد مقولة سعد الله ونّوس: "إنّنا محكومون بالأمل".

أوراق الملف

شكر وتنويه

نتوجه في هيئة تحرير أوراق بالشكر إلى كل الزملاء والأصدقاء الكتاب الذين ساهموا معنا في الكتابة وفي إنجاز العدد المزدوج 17-18 من مجلة "أوراق"، ونخص بالشكر الزميل محمد زعل السلوم على مساهمته الدؤوبة بالكتابة وفي إغناء ملف العدد حول الجولان السوري المحتل، كما نشكر كل المساهمين في ملف "الجولان المحتل وسرديات النظام الأسدي"، مؤكدين على أهمية هذا الملف لأجيال من السوريين لم يعرفوا غير سرديات الانتصار.

كما نشكر الكتاب والمبدعين الذين ساهموا معنا في ملفات الابداع شعراً وقصةً ونقداً أدبياً ودراسات وترجمة وحواراً وتشكيل، علما بأن كل المساهمات هي تطوعية، لغياب أي تمويل لمجلة أوراق ومن أي جهة كانت، لذلك نحن ندين بالشكر والعرفان لجميع الزملاء المشاركين في هذا العدد تقديراً لجهودهم، وننوه بشكر إضافي للأصدقاء والزملاء الذين يُصرّون رغم صعوبة الظرف العام، على المشاركة بشكل مستمر.

فنحن ندين لهؤلاء المبدعين والمثقفين بالتقدير والعرفان كمساهمين معنا وشركاء في نجاح مجلة "أوراق" ودورية صدورها، كما نشكر كالعادة أيضا كل الأصدقاء والكتاب والمثقفين الذين حالت ظروفهم دون المشاركة في هذا العدد، على أن نلتقي بكم دائما على صفحات أوراق وأعدادها القادمة.

هيئة تحرير أوراق

2022/08/15

مشاهد ومحطات جولانية

حازم نهار

كاتب وباحث ومترجم سوري، رئيس تحرير مجلة "رواق قاسيون"

ترسم المشاهد الآتية، وإن بدت شخصية الطابع أحياناً، بعض الملامح العامة لمسألة الجولان من حيث تجارب أهله، وصورة الجولان في الوعي الثقافي السياسي، فضلًا عن معاناة أهله وأحوالهم، وتقدِّم بعض الفقرات الأخرى رأيًا حول بعض المحطات أو القضايا التي تخصّ الجولانيين/ النازحين، والسوريين عموماً.

في المدرسة الابتدائية

في مدرسة يوسف العظمة الابتدائية في حيّ الميدان بدمشق، طلبني مدير المدرسة، ذهبت إليه فوجدت مجموعة من التلاميذ من شُعب وصفوف أخرى. تحدث المدير، لا أذكر ما قاله بالضبط، لكنني فهمت أن هناك إعانات مالية ستُقدَّم لنا بوصفنا نازحين. لا أذكر أنني استلمت هذه الإعانة أم لا، لكن هذا الموقف كان أول معرفة لي بانتمائي إلى منطقة تحتاج إلى مساعدة، عرفت في ما بعد أن اسمها "الجولان."

لم أكن أعرف شيئاً بالطبع عن ذلك، لكنني تذكرت هذا الموقف مرات عديدة في ما بعد، واستفهمت عنه، فعرفت أن الأمم المتحدة كانت قد خصَّصت آنذاك مساعدة لأبناء الجولان النازحين. لم أشعر بالحرج آنذاك، لكنني شعرت به قليلاً في سنوات لاحقة، وتوقعت أن يكون قد ترك انطباعاً ما عند أساتذتي وزملائي، وهم في معظمهم من أبناء دمشق، وربما كان تفوقي الدراسي، على طول الخط، هو ما منع تحوّل شعور الحرج إلى شعور بالنقص، لكن هذا لم يكن حال أغلبية أبناء الجولان الذي استمرّوا عقوداً يشعرون بأنهم يعاملون بوصفهم أقلّ قيمة من غيرهم في بلدهم.

لم يتكرّر هذا الموقف في ما بعد، ربما لأن الأمم المتحدة قد توقفت عن تقديم مساعداتها أو لأن المساعدات قد وجدت طريقها إلى جهة أخرى في سورية.

نازحون وفلسطينيون

كنا نسكن، في مرحلة الطفولة الأولى، في حارة قريبة من حيّ الميدان بدمشق، لا تبعد من ساحة الأشمر أكثر من ثلاثمئة متر، سكانها في معظمهم من السوريين النازحين واللاجئين الفلسطينيين. كانت الحارة الصغيرة والمهملة مقسومة فعلياً إلى حارتين؛ حارة النازحين وحارة الفلسطينيين، وكان بين الحارتين ما يشبه خط الفصل، كل حارة تعرف حدودها ولا تتخطاها.

لكن هذا لم يمنع أن تحدث خلافات أو مناوشات بين أهالي الحارتين، وكلها لأسباب صغيرة كما يحدث بين أيّ جيران. لكن، كان الغريب هو سيطرة الميل إلى، أو الرغبة في، إظهار تفوق الذات والتقليل من شأن الآخر بين أهالي الحارتين، مع أنهم جميعهم أبناء مأساة واحدة، ومتماثلون من حيث المستوى الاجتماعي والعادات والتقاليد. هذا يعيب على ذاك أنه نازح، وآخر يعيب على غيره كونه لاجئاً.

مشهد التنافس بين الضحايا أو مشهد استكبار الضحايا على بعضهم بعضاً يكاد يكون مشهداً ثابتاً في الأحوال المأسوية، وفي ظل فقدان الأمل، بدلاً من مشهد التعاضد والتعاون ضد المأساة المشتركة. وجدنا مثل هذا الأمر في زمن الثورة السورية، في محطات عديدة؛ في عام 2016 حدثت صدامات مسلحة بين فصائل مسلحة في دوما وحرستا ومسرابا في ريف دمشق راح ضحيتها نحو 600 قتيل خلال أيام قليلة، على الرغم من كون أبناء هذه المناطق كلها ضحايا صواريخ النظام السوري ومدافعه وبراميله، وعلى الرغم من تماثلهم في أمور عديدة، بل ووجود علاقات قربى وتزاوج في ما بينهم.

التمييز ضد النازحين

بعد هزيمة حزيران/ يونيو 1967، ومع مرور الزمن، تحولت كلمة "نازح" من صفة موقَّتة لكل من غادر الجولان قسراً إلى ما يشبه "الجنسية" أو الصفة الثابتة التي تلاحق أهالي الجولان، مع أن أربع أو خمسة أجيال على الأقل وُلدت وترعرعت خارج الجولان في مدن سورية أخرى، ولا يعرفون شيئاً عن الجولان، ولم يكونوا قد وُلدوا عند حدوث النزوح، ومن ثم تحوّلت هذه الصفة إلى تنميط ارتبطت به مجموعة من الصفات الأخرى؛ تدل الكلمة في الوعي العام، للأسف، على بشر يفتقدون إلى التحضّر، ولا يعرفون إلا حياة البداوة، وينقصهم التعليم والثقافة، وغير ذلك من الصفات الأخرى التي تلاحق السوريين النازحين داخل سورية، والسوريين اللاجئين خارج سورية، بدءاً من عام 2011 إلى اليوم.

كان التفوق الدراسي أو المهني أو الاقتصادي حامياً من مشاعر النقص التي تتولّد بالضرورة من جراء تلك الصفات وذلك التنميط، لكن أغلبية أهالي الجولان شعروا عموماً بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية في أحسن الأحوال. ربما أصلاً لا يوجد مواطن سوري درجة أولى، كلنا أبناء درجة عاشرة، وهذه حقيقة لو وعاها السوريون لوفروا على أنفسهم مشاعر الكراهية وبث مظلومياتهم في وجوه بعضهم بعضاً أو على الأقل الاقتناع بأننا جميعنا أبناء مظلوميات بطريقة أو أخرى، من دون التقليل من أهمية أو أحقية أي مظلومية.

درستُ المرحلة الإعدادية والثانوية في مدرسة كان اسمها "مدرسة تلّ الفَخَار للنازحين" في منطقة باب توما. لا أدري أي حكمة تكمن وراء وضع صفة "النازحين" في اسم المدرسة، وفي كل ما يتعلق بأبناء الجولان المحتل. هذه وحدها كفيلة بأن تنمّي شعوراً بالنقص تجاه الآخر أو شعوراً بنقص الاعتبار الذاتي أو شعوراً بالغربة عن المجتمع أو تربي عند الآخرين ممن لا ينتمون إلى مجتمع النازحين شعوراً بالاستعلاء أو الاحتقار تجاههم.

من ناحية أخرى، كيف يمكن أن يجتمع "النزوح" و"الفَخَار" في اسم واحد؟! وهل يمكن أن يكون النزوح مفخرة لأي شعب أو بلد؟! النزوح هزيمة وعار لكلِّ مواطن سوري، وليس لأهل الجولان وحدهم. الدولة الوطنية هكذا تتعامل مع النزوح، وهكذا تعمل في مناهج تعليمها وبرامجها ووسائل إعلامها، فلا تترك النزوح عاراً مرتبطاً بالنازحين وحدهم.

اليوم، تحوّل ما يزيد على نصف سكان سورية على الأقل إلى نازحين ولاجئين يعانون في أماكن نزوحهم أو لجوئهم، بدرجات متفاوتة، التمييز والتنميط، ويتعرضون لما تعرض له أهالي الجولان بعد نزوحهم. كان النازح الجولاني في سورية يخاف أحياناً أن يذكر "هويته"، تماماً كما يفعل بعض اللاجئين السوريين اليوم في بلاد اللجوء، لئلا يتعرض لآثار التنميط والتمييز.

جمعية لـ "تحرير" الجولان؟!

حاول كثيرون من أبناء الجولان المحتل أن يؤسِّسوا تنظيمات أو جمعيات مدنية تُعنى بالجولان وأهله وتراثه ومستقبله، لكن السلطة السورية واجهت هذه المحاولات بالرفض، وأحياناً بملاحقة أصحابها، واحتكرت كل ما يتعلق بقضية الجولان، وتحكّمت في طرائق التعبير عنها. صحيح أن هذا يندرج في إطار منعها لأي تنظيمات أو تجمعات مدنية مستقلة، لكن كانت لقضية الجولان خصوصية جعلتها صارمة في منع أي حراك بشأنها من أي نوع ومستوى.

كانت مفارقة أن يدعم النظام السوري "حزب الله" في لبنان، و"حركة حماس" في فلسطين في مواجهة "إسرائيل" فيما يمنع تشكيل مقاومة جولانية مثلاً، حتى لو كانت سلمية أو ذات طابع ثقافي أو فني، تحت ذرائع مختلفة كان مواليه يضعونها دائماً في باب الحكمة السياسية. دعم النظام السوري حزباً مسلحاً في لبنان، أصبح تدريجاً العامل الرئيس في عدم استقرار لبنان وعدم بناء الدولة اللبنانية، وهذا هو سبب تخوفه من

بناء حركة مقاومة جولانية يمكن أن تخرج على سيطرته، وتتحوّل إلى عنصر إزعاج وتهديد. كانت مسألة استقرار حكم النظام الهاجس الأكبر.

في الحصيلة منع النظام تشكيل وتبلور قضية جولانية على شاكلة القضية الفلسطينية، على الأقل على المستوى الشعبي الوجداني، وظلت قضية الجولان عرضة لتجهيل متعمّد، فلا يعرف السوريون، والعرب أيضاً، عنها شيئاً سوى أنها محتلة، بل إن بعض السوريين يعتقد أنها حُرِّرت في عام 1973 بعد حرب تشرين/ أكتوبر 1973، وبعضهم الآخر يعتقد أن الجولان هو فحسب القرى الخمس التي ما زال أهلها تحت الاحتلال.

"التوازن الاستراتيجي"!

كانت مسألة التوازن الاستراتيجي مع العدو الإسرائيلي أحد مرتكزات السياسة الخارجية للنظام السوري، على المستوى الإعلامي بصورة رئيسة، مثل سائر المرتكزات الأخرى؛ القومية العربية، قضية فلسطين، وحدة المسارين السوري واللبناني، محاربة الإمبريالية... إلخ. لكن هذه السياسة تمخضت عن تضخم الجانب العسكري والأمني بطريقة بدائية وفوضوية وغير مهنية، وإلى التهام الدولة والمجتمع، وعسكرة الحياة السياسية، وأدى ذلك إلى منع الحريات والسطو على الحقوق واعتقال المعارضين في الداخل السوري، وإلى الهزيمة على المستوى الخارجي أمام "إسرائيل" في كل المعارك التي حصلت بعد عام 1973، بل وعن ضمان حدود "إسرائيل" مع سورية مدة نصف قرن.

الأسوأ من هذا حصل بعد عام 2011، عندما اكتشف السوريون أن جيشهم كان يُبنى عقائدياً وعسكرياً لقمعهم وقتلهم وليس من أجل استعادة الجولان، علاوةً على ضمور الروح الوطنية فيه، وتحكم الجانب الطائفي في أدائه وسلوكه.

كانت السلطة السورية تقول إنها لن تعيد إعمار مدينة القنيطرة بعد عودتها إلى سورية في عام 1974، حتى انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود 4 حزيران/ يونيو 1967، لكن كثيراً من السوريين كانوا يقولون إن السبب في عدم بناء المدينة هو أن النظام

أبقى هذا الدمار وسيلة لتحصيل المال من دول الخليج وغيرها، فيما كان النازحون يعيشون أحوالاً قاسية، ما يدلّ على عدم القناعة بسياسات السلطة، والقطيعة مع خطابها. لكن السلطات السورية عادت وبنت مدينة صغيرة في ضواحي القنيطرة، وأطلقت عليها اسم "مدينة البعث".

"بيع الجولان"؟!

بعد الثورة السورية في آذار/ مارس 2011، وخلال مدة قصيرة، سيطرت الشعبوية على الأداء العام، وهنا كنا أمام سياسيين ومثقفين معارضين تنكروا لوعيهم، وانحدروا في خطابهم وأدائهم أو أمام "نخب" جديدة لا تمتلك مؤهلات ثقافية وسياسية كافية لأداء دور عام عقلاني على صعيدي الخطاب والممارسة، خصوصاً من الشخصيات التي أمضت ردحاً طويلاً من الزمن في كنف النظام السوري تصفِّق له وتبارك رؤيته ومواقفه أو من الشخصيات الإسلامية التي كانت تنظر إلى النظام السوري من زاوية طائفية فحسب، وكان من السهل على هذه الشخصيات الانتقال من ضفة إلى أخرى، من التقديس إلى التدنيس أو العكس. المهم أن هذه "النخب"، القديمة والجديدة، اندرجت في إطار عملية تنافس على تصفيق السوريين، ولم يكن هناك مانع لدى معظمها من تقديم رؤى شعبوية سطحية تجاه ما حصل في الماضي أو الحاضر في مقابل مزيد من تأييد الشارع لها.

وكانت قضية الجولان من بين القضايا التي تم تناولها بسطحية واختزال كريهين، على الرغم من أن الجولان وأهله كانا منسيّين تماماً، وجرى استحضاره من أجل إدانة النظام فحسب لا من أجل التفكير فيه، وفي ارتباطه بمستقبل سورية، بجدية. تعرضت قضية احتلال الجولان إلى تشويه، قصداً أو جهلاً، فاختُزلت هزيمة حزيران/ يونيو 1967 بعبارات شعبوية مضمونها الرئيس أن حافظ الأسد قد باع الجولان، وأن هناك خيانةً قد حصلت، بحكم كونه وزيراً للدفاع آنذاك.

هذه الرؤية السطحية تعفينا من المسؤولية، دولاً وشعوباً ونخباً ثقافية وسياسية، وتحصرها في أن ثمة خائناً قد "باع القضية" وقبض ثمنها. في الحقيقة، عندما نقرأ الهزيمة في اتساع نطاقها الجغرافي (مصر وسورية والأردن وفلسطين)، ومن حيث شمولها الفكر والسياسة والوعي العام، سنصل ببساطة إلى أن مقولة "حافظ الأسد باع الجولان" مقولة فارغة، وتأتي في سياق التحشيد لا التحليل أو القراءة الموضوعية، لكن هذه المقولة خطرة من حيث إنها تجعلنا نظن أن انتصارنا على "إسرائيل" كان أمراً محسوماً لولا الخيانة، وأن هزيمة "إسرائيل" مسألة بسيطة وفي اليد، ولا تحتاج إلّا إلى قادة مخلصين، مع أن هزيمة 1967 كانت هزيمة شاملة على الصعد كافة، السياسية والثقافية والمجتمعية.

هذه الرؤية البسيطة لا تجعلنا ننظر، كنخب وشعوب، في أنفسنا، ونعترف بمسؤوليتنا عن الهزيمة، لأنها تضع أسبابها في سلّة أحد الأفراد فحسب. يقيناً إن الغوغائية لا تصنع وعياً ولا انتصاراً، نعم الأنظمة الحاكمة مسؤولة عن الهزيمة من حيث إمعانها في الاستبداد، وفي تنكرها لأهمية حقوق الإنسان والديمقراطية، وفي سطوها على الثروات الوطنية، وفي تقاعسها عن بناء جيوش وطنية حديثة واحترافية، لكن الهزائم الكبرى تجد جذورها أيضاً، وأساساً، في البنى المجتمعية السائدة، وفي الوعي السياسي للنخب الحاكمة والمعارضة على حدّ سواء. يمكننا أن نكون معارضين للنظام السوري، والأنظمة المستبدة جميعها، حتى النخاع، ويمكننا في الوقت نفسه أن نحافظ على عقولنا وعقول الناس؛ فالمعارضة إن لم تكن عاقلة لن تنتج نظاماً بديلاً، ولا مصلحة للسوريين في تغيير النظام من دون تغيير الخطاب والنهج والطريقة والأداء.

الجهل بالجولان

لا شك أن جهل السوريين ببعضهم بعضاً يكاد يكون قانوناً سائداً في الحياة السورية العامة طوال نصف قرن، فرضته السلطة الحاكمة بوسائل وآليات متنوعة؛ تخويف السوريين من بعضهم بعضاً، فرض أيديولوجيا البعث بصورة قسرية على المجتمع،

وإعادة قولبة البشر ليتوافقوا معها، تصنيف السوريين وفق درجة ولائهم للسلطة، منع جميع أشكال العمل السياسي والمدني والنقابي، إعلام يركِّز على السلطة وتبجيلها ولا يعير اهتماماً للمناطق السورية وأهلها، اللعب على وتر الاختلافات القومية والمذهبية في بعض المحطات... إلخ. كل ذلك أدى شيوع النفاق تجاه السلطة في الظاهر، وإلى ازدياد التعصب للانتماءات الأولية في الباطن، ومن ثم الانعزال والتقوقع ضمنها.

لم يكن نادراً في جامعة دمشق أن يسألني بعض زملائي، من مدن وقرى سورية أخرى، في ما إذا كنت أسافر مثلهم كل أسبوع أو كل أسبوعين أو كل شهر إلى بلدتي في الجولان. كانت دعاية النظام عن تحريره مدينة القنيطرة والجولان مهيمنة عند قطاع واسع من السوريين، ولم يكن لديهم اطلاع أو معرفة بأوضاع الجولانيين في دمشق ودرعا والمدن السورية الأخرى. لكن في الحقيقة، كانت فكرة أن الآخرين يذهبون في العطل إلى "ضيعهم" مغرية جدّاً بالنسبة إليَّ.

سلَّطت السلطة السورية الضوء إعلاميّاً على خمس قرى ظل سكانها تحت الاحتلال ولم ينزحوا (قرية مجدل شمس والقرى المحيطة بها)، ويبلغ عدد سكانها نحو عشرين ألف نسمة، واختزلت الجولان بهذه القرى وأهلها، لكن هذا لم يكن محبة بأهل المجدل والقرى الأخرى، بل كان نوعاً من الاستثمار السياسي في مجال المفاوضات والعلاقات الإقليمية، وسياسة لإزعاج إسرائيل من جهة، أو ربما نوعاً من الاستثمار خارجياً في مسألة الدفاع عن "الأقليات" بسبب أقلويّةِ الفئة الحاكمة من جهة ثانية.

لو أعطت السلطة اهتماماً ببقية أهل الجولان النازحين في المدن السورية الأخرى لكان اهتمامها بالجولانيين في القرى الخمس تحت الاحتلال مفهوماً ومقدَّراً، لكن هذا لم يحصل، بل على العكس كان بقية أهل الجولان، وعددهم اليوم نحو ثمانمئة ألف نسمة عرضة للإهمال من النواحي كافة. كانت نتيجة هذا الاختزال أن أصبح بعض السوريين يعتقد بأن الجولانيين هم سكان القرى الذين ما زالوا تحت الاحتلال فحسب، وأن قضية الجولان ليست أكثر من عودة هذه القرى الخمس إلى السيادة السورية.

في الحقيقة، لم يبدأ السوريون بالتعرف إلى بعضهم بعضاً إلا بعد آذار/ مارس 2011، وأصبح لديهم اطلاع معقول على المناطق السورية وسكانها، تعرفوا مثلاً إلى وجود معاناة كردية طويلة الأمد، ومشكلة كردية تحتاج إلى التفكير في حلٍ لها، وظهرت المحافظات والمدن المغيَّبة والمهملة إلى الواجهة، مثل الرقة ودير الزور والحسكة والقنيطرة وإدلب وغيرها، ولم تعد سورية مقصورة على دمشق وحلب واللاذقية كما كان سائداً.

أحاديث الأهل

يحدِّثنا أهالينا عن طبيعة العلاقات السائدة في بلداتهم قبل الاحتلال الإسرائيلي في عام 1967. يحدِّثوننا كيف أن بلدة مثل "كفر حارب" التي تقع على الحدود السورية الفلسطينية وتطلُّ مباشرة على بحيرة طبريا، قد انقسمت بين تيارين سياسيين، وكيف تعامل البعثيون مع الناصريين عندما استلموا السلطة في آذار/ مارس 1963، وكيف جرى تعبيد شوارع البعثيين فيما بقيت شوارع الناصريين على حالها، وكيف أن الأغاني في الأعراس آنذاك كانت تنقلب ببساطة إلى مناسبات للتنافس وإثبات الوجود السياسي، وأن التيارات السائدة كانت عروبية ويسارية فيما كانت التيارات الإسلامية غائبة أو غير موجودة.

بعد احتلال الجولان في حزيران/ يونيو 1967، والنزوح إلى دمشق ودرعا، ومجيء الأسد إلى السلطة في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1970، بدأت تنحسر تدريجاً مظاهر النشاط السياسي، ليصبح الارتماء في أحضان العائلة والعشيرة والطائفة هو القاعدة السائدة، مع تزايد أعداد الذاهبين باتجاه التديّن المنغلق أو باتجاه الانتظام في تيارات سياسية إسلامية متطرفة، وكان لافتاً للانتباه أن الأبناء والأحفاد أصبحوا أكثر انغلاقاً من الناحية الدينية، وأقل ارتباطاً بالحداثة والسياسة والشأن العام من آبائهم وأجدادهم عندما كانوا في قراهم بالجولان.

في عام 1991، مع بدء المفاوضات في مؤتمر السلام في مدريد، سادت موجة من التفاؤل العام عند الجولانيين، فتابع قسم كبير من كبار السن الذين عاشوا جزءاً من حياتهم في قراهم قبل احتلالها، المفاوضات وتصريحات المسؤولين الأجانب والعرب والسوريين باهتمام شديد، ورسموا في ضوئها سيناريوهات ومراحل زمنية لعودتهم إلى قراهم، إلى درجة أنهم بدؤوا يتخيلون ماذا سيفعلون عند عودتهم إليها، وكانت تخيلاتهم للمستقبل مبنيةً على حكايا يعرفونها، وكانوا في سهراتهم العامة، في بعض اللحظات، ينفجرون ضحكاً عندما يستذكرون ذكرياتهم وقصصهم القديمة.

كان جدي متابعاً نهماً للأخبار، وكان الراديو خلال عقد التسعينيات لا يفارقه. لكنه لم يكن يتابع القنوات العربية، وكان يصفها بالكاذبة. كان يستمع إلى مونتيكارلو والبي بي سي، وحتى "إسرائيل"، ويرى أنها أقل كذباً. في سنواته الأخيرة أصيب بمرض "الداء الرئوي الانسدادي المزمن" بسبب الزمن الطويل الذي أمضاه مدخناً. دخل المشفى حيث كنت أعمل، ولازمته طوال تلك المدة. كنت أقرأ له بعض الصحف، يبتسم أحياناً، ويكتئب في أكثر الأحيان. في إحدى فترات الراحة من جهاز التنفس الاصطناعي كان يتأمل حزيناً فسألته إن كان يحتاج إلى أي شيء أو ينقصه أي شيء، فأجابني: يا جدي والله لا ينقصني شيء سوى أنني كنت أرغب في رؤية كفر حارب "بلدته" قبل الموت. كان أهلنا، وما زالوا، متعلِّقين بشدة ببلداتهم، يستذكرونها دائماً، ويقولون إنها أحلى البلاد، ويكتبون عنها قصصاً وشعراً.

التغريبة الجولانية

بعد ظهور علامات انكسار الثورة السورية أو ارتباك مساراتها، بدأت مشاعر التضامن بين السوريين تضعف أو تخفّ تدريجاً، لتحلّ بدلاً منها عناصر التنافس والتباعد والتنافر، لتبدأ جراحهم الماضية بالانفتاح على مصراعيها، وليبثّوا مظلومياتهم بطرائق غير صحيحة، فيها نوع من التسابق على الدرجة الأولى في التعرض للمظلومية على يد السلطة الحاكمة ونظام البعث، ولا مشكلة في هذا البوح لو أنه حدث في سياق

التعاضد، وبناءً على قاعدة أن جميع السوريين تعرضوا للظلم، وأن مشكلة أي سوري هي مشكلة جميع السوريين، ما يعني أنه ينبغي لنا التفكير في حلول وطنية لكل مشكلاتنا ومظلومياتنا لا في حلول جزئية أو فئوية تزيد الطين بلة، وتعود على الجميع بمزيد من تعميق مشكلاتنا.

منذ احتلال الجولان في حزيران/ يونيو 1967 وإلى اليوم، ونحن في حاجة إلى تسليط الضوء على ما يمكن تسميته "التغريبة الجولانية"، بما يجعل منه فعلاً قضية وطنية سورية، قضية يعرفها ويهتم بها السوريون كلهم، مثل جميع القضايا الأخرى المطروحة عليهم، لكن التعتيم الإعلامي السلطوي، وتجهيل السوريين بالجولان وأهله، ومنع مبادرات أهل الجولان الثقافية والفنية والإعلامية في هذا الشأن، علاوة على منع القوى السياسية من تناول قضية الجولان خارج خطاب السلطة وطرائقها في الاستثمار السياسي، قد ساهم في تحويلها إلى قضية مائعة وهلامية أو مجهولة أو هامشية أو حولها لغط كبير.

كان الجولان غائباً عن الحياة العامة في سورية طوال العام، لكنه كان يحضر زائراً، في ذكرى يوم استقلال سورية، في 17 نيسان/ أبريل من كل عام، في المدارس الثانوية التابعة لمحافظة القنيطرة "مدارس النازحين"، وفي بعض المدارس الأخرى التابعة لمحافظة السويداء، على هيئة مهرجان خطابي تقليدي أو رحلات إلى جزء الجولان الواقع تحت السيادة السورية أو على هيئة احتفال في الجهتين المتقابلتين عند خطّ الهدنة الذي يفصل بين سكان الجولان تحت الاحتلال وسكان الجانب السوري، وتستعمل فيه مكبرات الصوت للتخاطب بين الجهتين.

تحوّل هذا المهرجان/ الاحتفال إلى تقليد خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، لكن هذه الظواهر الاحتفالية، في ظل عدم وجود ما يسندها على أرض الواقع أو في ظل اقتصارها على الفعل الخطابي، تتحول، مع الزمن، إما إلى حالة استعراضية منفِّرة أو إلى طقس احتفالي لا علاقة له بالمناسبة الأساس.

تقع هضبة الجولان بين نهر اليرموك جنوباً وجبل الشيخ شمالاً، وتطلّ غرباً على بحيرة طبريا ومرج الحولة في الجليل، أما شرقاً فيُشكّل وادي الرقاد الممتد من الشمال باتجاه الجنوب حتى مصبّه في نهر اليرموك حدّاً فاصلاً بين الجولان وسهول حوران وريف دمشق. تبعد الهضبة 60 كم إلى الغرب من مدينة دمشق. وتُقدّر المساحة الإجمالية لها بـ 1860 كم2، أي ما يعادل 1 في المئة من مساحة سورية، وتمتد الهضبة على مسافة 74 كم من الشمال إلى الجنوب دون أن يتجاوز أقصى عرض لها 27 كم.

في عام 1967 احتلت إسرائيل 1260 كم2 من مساحة الهضبة بما في ذلك مدينة القنيطرة، لكن في عام 1974 أعادت إسرائيل إلى سورية مساحة 60 كم2 من الجولان تضم مدينة القنيطرة وجوارها وقرية الرفيد في إطار اتفاقية فك الاشتباك. نزح سكان الجولان من قراهم ومدنهم في إثر الاحتلال إلى داخل الأراضي السورية، وكان عدد قرى الجولان قبل الاحتلال 164 قرية و146 مزرعة. أما عدد القرى التي وقعت تحت الاحتلال فيبلغ 137 قرية و112 مزرعة. وبلغ عدد القرى التي بقيت بسكانها 6 قرى: مجدل شمس ومسعدة وبقعاتا وعين قنية والغجر وسحيتا (رُحّل سكان سحيتا في ما بعد إلى قرية مسعدة لتبقى 5 قرى).

كان عدد سكان الجولان قبل حرب حزيران/ يونيو 1967 نحو 154 ألف نسمة، هُجِّر أكثر من 131 ألف نسمة منهم، ودُمّرت قراهم، ويبلغ عددهم حالياً نحو 800 ألف نسمة يعيشون في دمشق وضواحيها ودرعا، وظلّ 8 آلاف سوري في القرى الخمس الباقية تحت الاحتلال، ويبلغ عددهم حالياً نحو 20 ألف نسمة.

نزح أهل الجولان باتجاه دمشق ودرعا بصورة رئيسة، وهم لا يملكون شيئًا، وسكنوا طوال عقود في مناطق عشوائية (الحجر الأسود، الدحاديل، نهر عيشة، بوابة الميدان، جديدة الفضل، الطبالة والدويلعة، السيدة زينب... إلخ)، وهم من أصول متنوعة بيئياً واجتماعياً (مدنية وفلاحية وبدوية) ومتعدِّدة إثنيّاً وقومياً (عرب، تركمان، شركس)؛ الجولان هو سورية مصغرة، يحتوي جميع الطوائف والإثنيات الموجودة في سورية. لم

يتلقَّ النازحون أي دعم حقيقي، وعانوا الفقر ومرارة الحياة وقسوتها، فضلاً عن غيابهم عن قراهم وبلداتهم، واستجلبت السلطة باسمهم الأموال من دول عدة، ومن الأمم المتحدة، لكن من دون أن ينعكس ذلك على حياة أهل الجولان، بل إنهم تعرضوا لتمييز طبقي مقيت.

لا تزال قضية النازحين السوريين وتغريبتهم منسيّة، وعلى الرغم من مضي نحو نصف قرن على احتلال الجولان، إلّا أنه ما زال حلم كثير من الأجيال الجديدة التي ولدت وكبرت في تلك التجمعات المكتظة الهامشية. طوال خمسة عقود، كان هناك غياب كلي لقضية النزوح والتهجير القسري من الجولان في وسائل الإعلام العربية عموماً، والسورية على وجه التحديد، مثلاً على المستوى الفني لا وجود لأفلام أو مسلسلات تناولت قضية الجولان والنازحين إلا بصورة هامشية جداً.

يُلاحظ أيضاً سعي الإعلام عموماً لتناول سكان الجولان على أسس إثنية وطائفية بدلاً من انتمائهم الوطني كأن يُقال "دروز الجولان" أو "علويّو الجولان" أو "تركمان الجولان" أو "الجولانيون من العرب السنة"... إلخ، ما خلق تدريجاً انطباعاً بأننا نتحدث عن جماعات مستقلة عن سورية. وأحياناً ساهم الإعلام، السوري والعربي والأجنبي، في إعطاء انطباع عام بأن جميع أهل الجولان هم من العرب الدروز، بينما هم يشكلون نسبة لا تزيد على 3 في المئة، بهدف تناسي أن للجولان أيضاً سكاناً طُردوا من بيوتهم، ونزحوا إلى دمشق ودرعا، وقد تعرضوا بعد انطلاق الثورة في آذار/ مارس 2011 لأضعاف مضاعفة من التنكيل والتشريد والقتل على يد السلطة الحاكمة قياساً بما لاقوه من عدوهم إسرائيل.

في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1981 قرر الكنيست الإسرائيلي ضم الجزء المحتل من الجولان الواقع غربي خط الهدنة 1974 إلى إسرائيل بشكل منفرد، وبما يتعارض مع القرارات الدولية، وبدأت السلطات الإسرائيلية تتعامل مع الجولان كأنه جزءٌ من شمال إسرائيل. في 14 شباط/ فبراير 1982، قام السوريّون في الجولان المحتل ضمن القرى

الباقية تحت الاحتلال، بإضراب عام وشامل، ورفعوا شعار (المنية ولا الهوية) رافضين (الهوية الإسرائيلية) وقرار الضم الجائر.

الجولان والثورة السورية

مع انطلاق الثورة السورية في آذار/ مارس 2011، لم أكن متفائلاً بمستقبلها على طول الخط، حتى في مرحلة أوجها وسموّها، على الرغم من فرحي بها، والتزامي توجهاتها الأولى، إلى درجة أن بعضهم أطلق عليَّ اسم "بومة المعارضة". كان السبب الرئيس للتشاؤم هو الجولان؛ لم تلمع في رأسي إلا صورة الجولان وتأثيرها في كل حدث يمكن أن تمرّ به سورية، حتى لو كان الجولان غائباً عن المشهد الإعلامي. كان رأيي باختصار: الجولان هو الغائب الحاضر، وهو الذي سيحدِّد مصير أو مسار الثورة السورية بمعنى ما في الحصيلة، وربما ندفع فاتورة صمتنا عن مأساة الجولان طوال نصف قرن من رصيد الثورة السورية.

في أوائل عام 2016 ظهرت فكرة بناء مركز دراسات سوري يهتمّ بالبحث في القضية السورية من جوانبها المختلفة، وكُلِّفت بتأسيسه وإدارته، فاخترت له اسم "حرمون"، وهو اسم آخر لـ "جبل الشيخ" الواقع في شمال هضبة الجولان، ويطلّ على الجولان وشمال فلسطين والأردن، وعلى جنوب لبنان، وعلى ودمشق، وكان الاسم مستهجنًا في أوساط المعارضة السورية التي كانت شأنها شأن النظام السوري من زاوية عدم الاهتمام بقضية الجولان أرضاً وسكاناً، لكنها تزيد عليه في غياب إدراكها لعلاقته الوثيقة بالمعادلات الاستراتيجية التي تحكم الوضع السوري ومسار الثورة السورية.

كانت أول ندوة أُنظِّمها في المركز بعنوان "الجولان المنسي" بمناسبة مرور مئة عام على وعد بلفور الذي كان مقدمة للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 2017، ودعوت إليها عدداً من السياسيين والمثقفين السوريين والفلسطينيين واللبنانيين، فضلاً عن دعوة عدد من الناشطين والمناضلين الجولانيين من مجدل شمس، وقد لاقت الندوة اعتراضات كثيرة من العديد من "المعارضين" و"الثوريين"

السوريين الذين كانوا "مستنفرين" لإسقاط النظام السوري، ولا يريدون أي قضية أخرى تشوِّش عليهم بحسب زعمهم، وفي ما يأتي بعض ما كتبته آنذاك في سياق الردّ على تلك الانتقادات، وفي سياق تناول خطاب المعارضات السورية ومواقفها وأدائها:

لا شك أن الجولان حاضرٌ في صلب الموقف الأميركي الإسرائيلي من النظام السوري والثورة السورية، ومن ثم لا بدّ من قراءة هذا الموقف بتمعن، وتحليل أسبابه وآثاره جيداً، لوضع تصور إلى مستقبل سورية في ظل تحليل مهم وصحيح أغفلته المعارضة السورية؛ التحليل الذي يقول إن من مصلحة أميركا وإسرائيل استمرار الصراع في سورية، وإن أميركا لن تتدخل لمصلحة الثورة السورية والشعب السوري، وإن الوضع السوري متروك للتفسخ والتشظي.

تشير مقولة "ليس وقتها" المستخدمة ضدّ أي عمل يهدف إلى إبراز قضية الجولان إلى عدم إدراك كنه السياسات الإقليمية والدولية، فعاجلاً أم آجلاً سيكون نقاش وضع الجولان ومستقبل أهله على مائدة النقاش بالتزامن مع أي مبادرة حقيقية لحلّ الصراع في سورية، هذا إن لم يكن موضوع الجولان مطروحاً في الغرف المغلقة، خصوصاً من النظام السوري، خلال السنوات الماضية؛ فمن يعتقد أن الصمت عن موضوع الجولان وحقوق أهله ومعاناتهم أفضل كي لا نستنفر أو نستفز إسرائيل ضدنا واهمٌ، ويتعامل مع إسرائيل وكأنها طفل صغير يمكن خداعه، وهي ليست كذلك بشكل أكيد. من جانب آخر، ستكون إسرائيل ضدنا دائماً وأبداً، وعلى طول الخط، وهي حاضرة في خلفية المشهد منذ اليوم الأول للثورة السورية، على الرغم من ظهورها بمظهر المراقب خلال السنوات الخمس الأولى بعد عام 2011.

في هذا السياق أيضاً، لا بدّ من استنكار تفكير "الجكارة" عند بعض المعارضين السوريين الذين، بحكم اشمئزازهم من النظام السوري وخطابه الإعلامي السياسي (وهذا صحيح)، أصبحوا ينتحلون خطاباً سياسياً عصابياً يتنكر لقضية الجولان ولمسألة الاحتلال، بل وصلت الوقاحة والسذاجة في آن معاً لدى عدد محدود منهم بالطبع إلى

الاعتقاد أنهم يمكن أن يحصلوا على مرادهم بإسقاط النظام السوري عبر تقديم أوراق اعتمادهم لدى إسرائيل.

إذا كانت الثورة السورية تطرح نفسها بديلاً للنظام السوري فيفترض بها الاهتمام بجميع القضايا التي انخرط فيها النظام السوري على مدى نصف قرن، ومنها قضية الجولان؛ فأحد أهم عوامل بقاء النظام السوري هو سياسته الخارجية التي بناها عبر نصف قرن، والتي حولته إلى نظام أخطبوطي يبيع ويشتري مع الجميع وضد الجميع، ومن ثمّ من المهم السعي لنزع أوراق "قوته" بوسائل وأدوات سياسية. الندوة أيضاً محاولة لتشريح خطاب "الممانعة والمقاومة" الدارج، وفضح متاجرته بقضيتي الجولان وفلسطين، فمن يريد أن يسقط النظام السوري عليه أن يسقط خطابه وثقافته وممارساته أيضاً، وعليه السعي لبناء خطاب سياسي وطني جديد وممارسة سياسية وطنية مغايرة.

كان على المعارضة السورية أن تحاول الدفع في اتجاه إعادة بناء القضية الوطنية السورية، وإظهار التلازم الضروري بين تحرير الأرض وتحرير الإنسان، وتأكيد أنه من دون حرية المواطن وكرامته لا يمكن استرجاع شبر واحد من الأرض المحتلة، وهذه الرؤية في صلب توجهات الثورة السورية عندما انطلقت. بمعنى آخر، إن بناء سورية الجديدة والدولة السورية الجديدة يستلزمان إعادة بناء جميع قضايانا على أسس صحيحة، ومنها قضية الجولان، وهذه هي طريقة رجال الدولة في التفكير بعيداً من الانفعالات والغوغائيات؛ فالمعارضة لم تفعل شيئاً ولم تقدم أي رؤية حول مجموعة من القضايا المهمة، خصوصاً تلك التي تتعلق بالسياسة الخارجية المستقبلية: قضية الجولان، العلاقات السورية اللبنانية المستقبلية... إلخ.

لا يعرف المنتقدون لأي عمل يتعلّق بالجولان أن موقف أكثرية أهل الجولان الذين ما زالوا في قراهم الخمس تحت الاحتلال الإسرائيلي (نحو 20 ألف مواطن سوري) من الثورة السورية هو موقف إيجابي، وأنهم خرجوا في تظاهرات مؤيدة للثورة وضد الاحتلال الإسرائيلي في الوقت نفسه، ولو كان لدينا معارضة تتقن السياسة حقاً، وقنوات فضائية

عربية تهتم حقاً لأمر سورية، لسلطوا الضوء على مشاركة هؤلاء في الثورة السورية واحتفوا بهم.

بعض الانتقادات كانت تدلِّل على عدم معرفة/ أو جهل أصحابها بالجولان وأهله: يعتقد هؤلاء أن قضية الجولان تختزل في أوضاع 20 ألف مواطن سوري تحت الاحتلال الإسرائيلي، ولا يعرفون، كما ذكرت سابقاً، أن عدد سكان الجولان اليوم نحو 800 ألف مواطن سوري، كانوا يقيمون في دمشق وأريافها: الحجر الأسود، جديدة الفضل، خان الشيح، الست زينب، الطبالة، مخيم درعا للنازحين.... إلخ، وهؤلاء تعرضوا خلال نصف قرن للإهمال والفقر والعيش في بيوت الصفيح، فضلاً عن فقدان بيوتهم وأملاكهم في الجولان؛ والأنكى أنهم تعرضوا –منذ انطلاق الثورة السورية وإلى اليوم– للاعتقال والتعذيب والقتل والتشريد أضعافاً مضاعفة، ومن حقهم علينا التوقف عند تضحياتهم ودورهم في الثورة السورية.

كان متوقعاً ألّا تثمر رؤية المعارضات السورية ونشاطها عن شيء مهم ومؤثر على المستويات كافة، والغريب أنها استمرّت طوال ما يزيد على عشر سنوات تحرث الحرث ذاته، وبالطريقة نفسها، ولم تنبت بين يديها شتلة واحدة، ولا تزال شخصياتها غير مقتنعة بعد بأنها في حاجة إلى إعادة النظر في خطابها ورؤيتها وأدائها، وإلى القراءة والتفكير، وإلى إعادة تأهيل مترافقة بكثير من التواضع.

الجولان والقضية الفلسطينية

عندما يشتد بؤس الواقع ومرارته، يندفع الضحايا ليأكلوا لحم ضحايا آخرين، وليصطنعوا معارك وهمية تكون نتيجتها خسارة الضحايا لبعضهم بعضاً، ولقضاياهم العادلة كلها. من الأمثلة على ذلك ردة فعل بعض سوريي الثورة السورية تجاه القضية الفلسطينية والفلسطينيين، إذ بنوا مواقفهم استناداً إلى منطق ردة الفعل أو "الجكارة" أو النظر بزاوية واحدة، فبحكم أن نظام الاستبداد والقتل قد تاجر كثيراً بالقضية، وغطى عوراته بها، ذهب بعضنا في اتجاه رمي القضية الفلسطينية وراء الظهر أو على الأقل استنكار

تعاطف بعضنا مع المأساة الفلسطينية، أو ربما الدخول في مفاضلة بين قضايا المنطقة أو الذهاب باتجاه الاستهانة بوحشية إسرائيل مقارنة بوحشية النظام السوري، وهذه كلها مواقف ورؤى سطحية وانفعالية خاطئة.

نحن السوريين نستنكر عدم تعاطف كثير من العرب مع القضية السورية أو مع مأساتنا السورية، فلا يجوز أن نكون في موقع غير المتعاطف مع القضية الفلسطينية والفلسطينيين مهما كانت قساوة الواقع الذي نعيشه. بدلاً من رمي القضية الفلسطينية والتنكر لها، يُفترض بنا إعادة بناء وعينا لها، ووضعها في الإطار الصحيح، بما يُبعدنا عن المتاجرة بها أو التغطية على القضايا الأخرى الملحّة، وهو أيضاً عمل مطلوب منا أيضاً تجاه القضية السورية ذاتها، خاصة بعد متاجرة كثير من الدول بها كما حصل تماماً مع القضية الفلسطينية. وهنا أقول ينبغي لنا تثبيت النقاط الآتية في السياق هذا:

1- الفلسطينيون المقيمون في سورية هم سوريون، ولا أحد يستطيع نزع هذه الصفة عنهم، وما يصدق على أي شريحة سورية، إيجاباً أو سلباً، يصدق عليهم، وهذه ليست منة أو فضيلة من أحد، بل هي إحدى حقائق الواقع والتاريخ.

2- إن القضية المركزية بالنسبة إلينا كسوريين هي الديمقراطية وحقوق الإنسان؛ أي بناء الدولة الوطنية الديمقراطية الحديثة على أنقاض نظام الاستبداد والقتل، ولا نستطيع -اليوم- أن نقدِّم لفلسطين وأهلها أكثر من التضامن والتعاطف على المستوى الشعبي، والتشارك في الأعمال الثقافية والسياسية والإنسانية التي تفيد السوريين والفلسطينيين معاً.

3- في اعتقادي إن القضية المركزية اليوم بالنسبة إلى الفلسطينيين هي إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية بصورة ديمقراطية (أو ما يشبهها)، وتجاوز المنظمات الجهادية و"المقاومة"، والقوى "اليسارية" و"القومية" الفلسطينية السائدة؛ فهي لم تقدم ما يفيد القضية الفلسطينية، فضلاً عن وعيها المفوَّت والأيديولوجي المعيق، وتجاوز القيادة

الفلسطينية الحالية ووعيها، لأنها أقل كثيراً من متطلبات النضال الفلسطيني، ما يجعل قضيتهم المركزية فعلاً هي إعادة بناء "الوطنية الفلسطينية" على أسس ديمقراطية وحديثة، بالتزامن مع مقاومة الاحتلال الإسرائيلي سياسياً وثقافياً وفنياً، وإعادة بناء منظور ديمقراطي وحديث مغاير لفكرة "المقاومة" بمعناها السائد.

4- يُفترض ألّا تدفعنا الآلام التي عايشناها من الاحتلالات في سورية، خصوصا الاحتلالين الإيراني والروسي، للتقليل من بشاعة الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، ويفترض أيضاً ألّا ننسى وجود أرض سورية محتلة (الجولان) من إسرائيل نفسها، ما يضعنا، شئنا أم أبينا، في سياق عمل مشترك مع الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي، على أن هذا الأمر يحتاج إلى إنجاز الأولويات سابقة الذكر بالنسبة إلى السوريين والفلسطينيين معاً.

هل توجد هوية جولانية؟

عندما نتحدث عن الجولان بصورة عامة، فإننا نتحدث عن وحدة جغرافية سكانية وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي، لكن يصعب القول إن هناك ثقافةً جولانيةً مشتركةً بين سكانه؛ فهم متنوعون بصورة شديدة، وهذا أمر طبيعي بالطبع في أي منطقة، وربما كانت مسألة الاحتلال والنزوح هي ما تجمعهم. مع هذه الحال يصبح التنوع بلا معنى أو قيمة أو ربما يكون مصدراً للفرقة والانقسام والتنابذ، خصوصاً أن هذا التنوع يرتكز على الانتماءات الدينية والطائفية والإثنية والعشائرية؛ فالتنوع يكون مصدر غنىً وثراء في ظل وجود المشتركات أو العناصر الجامعة. الجولان في هذه الحالة يشبه سورية كلها؛ لم تُخلق هوية وطنية سورية في مرحلة ما بعد الاستقلال، ولا ثقافة سورية عامة، ولذلك كان التنوع المرتكز على الانتماءات الأولية مصدراً للشقاق والخلاف، خلال مرحلة ما بعد عام 2011.

يوجد في الجولان بشر من الأديان كلها، من الإسلام والمسيحية، ومن الطوائف كافة، من السنة والشيعة والعلويين والدروز وغيرهم، ومن القوميات جميعها، من العرب والكرد

والتركمان والشركس، وعشائر ممتدة لها جذور أو فروع في الجزيرة العربية والعراق، وهناك فلاحون وبدو وأبناء مدينة. لا يمكن الحديث عن هوية جولانية أو هوية جولانية سورية في ظلِّ استمرار تحكم الانتماءات الأولية وغياب المشتركات الواعية.

لا تكفي الجغرافيا، ولا تكفي قضية الاحتلال أيضاً، لتشكيل هوية ثقافية ديمقراطية تؤمن بالمشتركات والتنوع في آن معاً. تكاد كلمة "نازح" أن تكون الكلمة الوحيدة التي تربط بين أهالي الجولان.

يحتاج الجولان إلى نخبة ثقافية سياسية من أبنائه وبناته، عابرة للقوميات والأديان والطوائف والعشائر، تساهم في بناء هوية جولانية تشتق وجودها من الهوية الوطنية السورية، أي بناء ثقافة جولانية ديمقراطية وحديثة مفتوحة على المستقبل وغير غارقة في الماضي، وهي ذاتها حاجة سورية كلها. ولعل من أولى مهمات هذه النخبة أن تجعل من مسألة احتلال الجولان قضية سورية تهمّ جميع السوريين وليس أبناء الجولان فحسب.

بين دمشق والجولان

وُلِدتُ ودرست وعشت في دمشق. حياتي وذاكرتي مرتبطتان بدمشق. لم أعرف الجولان، ولم أتنفس هواءه، ولا لعبت في حواريه، ولا درست في مدارسه، وشبكة علاقاتي الاجتماعية ممتدة إلى جميع أنحاء سورية. ما دامت الحالة هكذا، فهل القول "إني أكثر ارتباطاً بدمشق من الجولان على المستوى الروحي" فيه شكلٌ من التجاوز أو التنكر للجولان؟

أنا أشعر بالانتماء إلى دمشق أكثر من الجولان، وليس في هذا أي مشكلة، بل هو أمر طبيعي، لكن في الحصيلة أنا أنتمي إلى سورية كلها. تعلَّقت بدمشق، وبسورية كلها، وسيكون لأبنائي الحق، كل الحق بأني يحبوا أي شيء من دون إرغام أو إقحام، خاصة أن مدة حياتهم خارج سورية أطول من المدة التي عاشوها فيها.

ماذا يمثِّل الجولان بالنسبة إليَّ إذاً وأنا أحد النازحين من أبنائه الذين وُلدوا بعيداً عنه؟ الجولان أرض سورية يحتلها عدو اسمه إسرائيل، وحق سوري عام سلبه هذا العدو، وحق شخصي لي ولأهلي ولأبنائي ولأبناء أبنائي، ولأهل الجولان كلهم، وللسوريين جميعهم، وهذا الحق لا يسقط بالتقادم، وينبغي لي أن أساند أيَّ خطوة تهدف إلى استعادة الجولان بالوسائل المشروعة كافة التي أقرتها الإنسانية في تاريخها ومواثيقها.

هذا مهمٌ بالنسبة إلى السوريين اللاجئين اليوم الذين يطرحون على أنفسهم أسئلة من هذا النوع يومياً؛ هل ننسى سورية؟ هل نربي أولادنا على الانتماء إلى أماكن وجودهم الحالية خارج سورية؟ ماذا لو طال أمد الصراع السوري أكثر؟ الانتماء مسألة معقدة، وفيها الكثير من العاطفة والتجربة الشخصية، ومن المهم أن تُتاح له الحرية الكاملة لينمو ويتبلور، لكن تبقى مسألة الحقوق التي لا ينبغي لنا نسيانها أو إدارة الظهر لها.

جولان الصغير

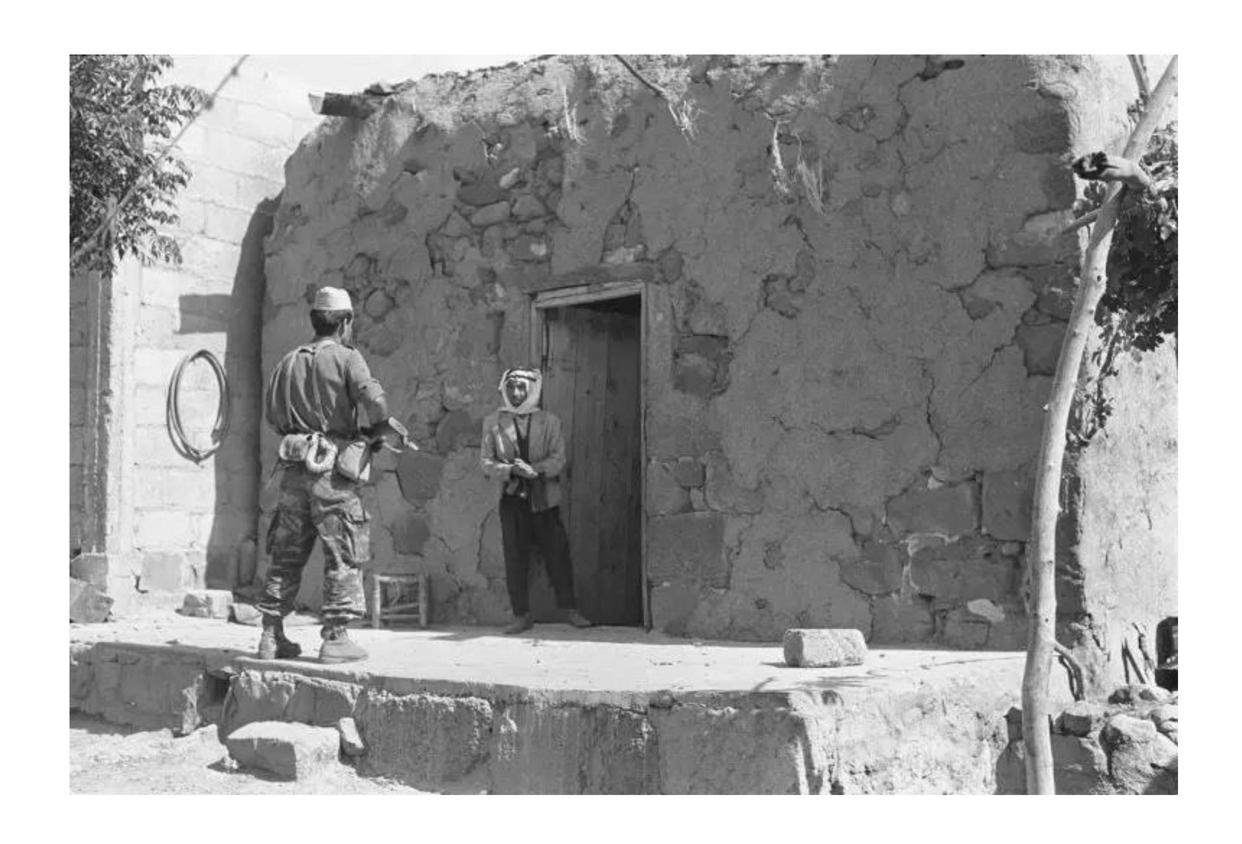
يحتار الأهل دائماً في اختيار أسماء مواليدهم. جاءنا مولودنا الثالث، آخر العنقود، في عام 2017، ونحن خارج سورية قسراً. اخترنا له قبل ولادته أسماء عديدة، لكن عند ولادته جاء اسمه معه كما يقولون. فجأة برز اسم "جولان" في ساحة الاختيار. أصرّت زوجتي وولداي على اسم "جولان" بدعم من صديقة وقريبة من العائلة.

رفضت في البداية استناداً إلى عدم رغبتي في تحميل الأبناء قضايا أو أسماء كبيرة يصبحون أسرى لها، وإلى قناعتي بأن خدمة القضايا الكبيرة لا تكون بالأسماء والشعارات أو في الأحرى لاشمئزازي من اللافتات والشعارات والأسماء الكبيرة، لكنني رضخت أخيراً نزولاً عند رغبتهم.

بعد ولادته، وارتباطه بالاسم أو ارتباط الاسم به، تحولت مشاعري إلى عشق تجاه الاسم.

في إجازة عائلية، عند شاطئ بحيرة قريبة من مدينة بوردو الفرنسية، كان جولان، وعمره آنذاك سنتان، يركض بعيداً وزوجتي تركض خلفه وتناديه باسمه، لفت الاسم انتباه أحد الموجودين بالقرب من الشاطئ، اقترب من زوجتي، كان يتحدث العربية بطريقة "مكسَّرة" قليلاً، عبَّر عن إعجابه بالاسم، وعن رغبته في التعرف إلى زوجتي وأولادي الثلاثة.

في اليوم التالي، وجدوه ينتظرهم عند البحيرة، وعندما رآهم من بعيد أخذ ينادي بصوتٍ عالٍ "جولان.. جولان". عندما اقترب منهم حاول من جديد أن يدير حديثًا، وظهرت رغبته في معرفة تفاصيل كثيرة عنهم، فاستهجنوا، سألوه من أين أنت، فأجابهم أنا "جاركم"، أصرّت زوجتي فأجابها "أنا من إسرائيل"، أرادوا المغادرة مباشرة لكنه أراد استفزازهم بقوله "الجولان لنا.. لماذا تسمّون ابنكم جولان؟". بعد جدال بسيط، غادرت زوجتي وأولادي. جاؤوا وأخبروني بما حدث. كانوا يتحدثون وكأن الكهرباء قد صعقتهم.



أنا والجولان

محمد زعل السلوم

شاعر وكاتب ومترجم سوري له أكثر من 18 كتابا مطبوعا بين الشعر والرواية والدراسات.

كان تكليفي من قبل إدارة جريدة أوراق في رابطة الكتاب السوريين بتقديم موضوع أختاره عن الجولان بمثابة جائزة عظيمة في الذكرى الخامسة والخمسين من تسليم الجولان. ربما لأنني جولاني باحث في التاريخ الجولاني وربما لأنني أبحث عن جولاني الخاص وجولان السوريين.

ربما لأن قراءتي للجولان عاطفية أكثر بل وأكثر حميمية فذات مرة طلبت من صديق تركي متخصص بالوثائق العثمانية البحث في عدد من الأسماء الجولانية التي أعرفها كما أعرف نفسي لأجده يستخرج لي أسماء من شرق وشمال وجنوب سوريا، فاستنتجت ربما كنوع من النرجسية وربما كنظرة واقعية متمسكاً بمَثل والدي رحمه الله والذي أحفظه عنه "أقتل الأرض بباخنها" بمعنى أهل مكة أعرف بشعابها.

لذلك فسأقرأ جولاني على طريقتي والتي ربما تختلف حتى عن أقرب المناطق لها وهي تتوسط بلاد الشام، فقراءة الجولان بتنوعه الديموغرافي والاثني والطائفي مثير وجاذب بشكل يستحق الكثير من الدراسات والأبحاث وإن حاول كيان الاحتلال الإسرائيلي ونظام الأسد إظهار أن الجولان أرض بلا شعب، وهو في الحقيقة تاريخ عميق ومتجذر لا يهدأ، بل هو يغلي على مدى قرون طويلة بلا توقف.

جولاني الخاص بي هذا أقرأه بطريقة مختلفة عن ابن دمشق وريفها ودرعا والحولة وصفد وجبل عامل وشمالي الأردن، أقرأه برجاله ونسائه وأطفاله وشيوخه، أقرأ الجولان بليالي السمر الطويلة في تجمعاتنا تجمعات النازحين أو عشوائيات البعث كما لقبها الدكتور إياس غالب الرشيد، باجتماعاتنا بالصلحات التي كان يقوم بها والدي وقبله

جدي، بولائم الضيوف وفوارد الأعراس والجنائز، بالمكتبات التي كانت تحترق شيئاً فشيئاً عندما نفقد ابن جولان حقيقي عاش تلك البلاد وتنفسها قبل أن ينزح لمكان غير مكانه وأرض غير أرضه وحتى يُدفن في بقعة غير بقعته. كم كنت أندم على عدم توفر الكاميرات آنذاك والتسجيل لتلك الأصوات التي كانت تملؤ دواويننا بروح القهوة والهال والتغني بالحاضر الغائب في ذاكرتنا أي الجولان. لم أكن أنتمي فحسب لقرية أبي وجدي وأقاربي مويسة، بل كنت أسمع أصوات الحمة وفيق ومجدل شمس وبريقة والخشنية والرزانية والبطيحة وواسط والدلوة وقرحتا والغادرية والعليقة والرفيد وصيدا الجولان، كنت أنصت بكامل وجداني وروحي لتلك الأرواح العظيمة لتلك البهجة التي ترتسم على عيونهم وشفاههم وهم يتلذذون بنطق اسم وطنهم المقدس، بل وكيف يضفون طابع وهالة القدسية على ذكرياتهم وكأنهم يفتحون قلوبهم للحياة ويشربون ماء وطنهم، تلك اللحظة بالذات التي يذكرون اسم الجولان فيها، ليقولوا لي وهم يتحسرون "ليتك لحقتها، لشعرت وعرفت قيمة ما نقول وما نصف"، كنت في الحقيقة اغبطهم على عمق ذاك الانتماء، وقد حفرت وجوههم وأيديهم آثار الزمن حتى كانوا وهم يتغنون بالهابانيرا خاصتهم أن صحتهم اكتسبوها من بلادهم لا من أرض التعثير والجحاوير ونهر قليط دمشق. حتى دمشق لم يحبوها وقد عوملوا فيها معاملة الغرباء المتطفلين، فيما تمعّن النظام تهميشهم ما استطاع لذلك سبيلا. لكنها الجولان التي رسمت عليها الصهيونية منذ تأسيسها للاستيلاء عليها وعقدت عشرات المؤتمرات للوصول لقمة جبل الشيخ فيها وعلى مدار حوالي القرن من الزمن قبل تسلم مفاتيحها من الخائن الكبير حافظ الأسد.

ربما لأني جولاني، أشعر بمرارة من عاشوا الجولان وأشعر بمرارة من ماتوا وهم ينهضون كل صباح ليقولوا صباحك جولان وكأنه يقول اليوم يوم خير وتصبحون على جولان وكأن أجمل الأحلام الجلوس تحت شجرة تعتلي تلة جولانية، كانت صدورهم تلهج باسم الجولان فتسمع المسنين يقولون "تذكر أيام البلاد"، "بايام البلاد كان كيت وكيت"، "تذكر الناعورة وشلون كانت النسوان تروي لجانا الجيش واحتل تلولنا وحط حارس وعسكري

عكل نبعة ليهججون الناس" "تذكر الجيش شلون قوّم الأخ على أخوه وصارت الناس تدعي الله يكسركم يا خونة" "تذكر شلون الجيش عوّفنا بلادنا وجماعة بعصية بعصية"، نعم لقد عافوا بلادهم منذ حكم البعث عام 1963، وهو يفرض على الناس أحكامه العرفية بل كان عسكري يسوق قرية برجالها ونسائها لمعتقل جماعي. كانت نية البعث واضحة من بداياتها وهي "تسليم الجولان" كيف لا والبعث في منطلقاته تتقاطع مع الصهيونية وحتى منظريه ومفكريه اليساريين من الغرب هم ذاتهم منظري الصهيونية ومنطلقاته الفكرية التي لا يمكن بلعها حتى مع كأس ماء من مياه طبرية، بل مجرد عصيدة لا يمكن هضمها وتلبك معوي لا يمكن استيعابه.

هذا البعث الآثم سلم الجولان حتى أحد كلابه بُعيد الهزيمة ونكسة حزيران قالها بفمه الملآن حتى لو أخذوا دير الزور المهم يبقى البعث، هذا الفصيل السافل والفاشل تاريخياً والأكثر إجراماً وعربدة، وحسب المنطق المنهجي عليه السقوط الذاتي، وهو جالب الدمار لسوريا والعالم العربي.

نعم جولاني عندما أقرأه فسأقرأه بأحاديث أبنائه الشرعيين ومالكي أراضيه الحقيقيين، من حفروا ترابه وزرعوا أرضه وانتظروا فصول خيراته وتغنوا به في أعراسهم وعاشوا برده وحرّه، وتزوجوا وأنجبوا فيه وعمروا منازلهم واستقروا على أرضه لقرون.

أقرأ الجولان بزغاريد نسائه التي لازالت لليوم ربما تستوطن وديانه ونداه وضبابه الذي يحمل أرواح أهله، جولاني أنا هو ضحكات أطفاله وعصي شيوخه وهي تنقر حجارته، تلامذة مدارسه وهم يقطعون طرقات الطين للوصول للقنيطرة لاستكمال دراساتهم والتفوق على أنفسهم وطموحاتهم تفوق خيالات العالم.

أقرأ الجولان بشعبه الذي عاش لياليه ونهاراته، رياحه وقطع وديانه وتلاله، بسينما القنيطرة حاضرة الجولان وحكاية والدي عن ذاك الفيلم الهندي نهاية الخمسينات لماسح أحذية يتحول لبطل أسطوري، لرقصات الشركس ودبكات البدو والتركمان ومجوز النصيرية وهيبة الدروز وبساطة الفلاحين وتواضع الملاكين، لصراعاته بين التقليديين

والشباب الجديد المتعلم المثقف الراغب بمجتمع مدني جديد، بصراعات أحزابه، بتأثره بالانقلابات العسكرية بدمشق، بمقاومته لجيوش غورو وخضوع دمشق للانتداب الفرنسي بعد ميسلون، بهجيج ابنائه ونزوحهم مراراً وتكراراً، لكنهم كانوا يعودون، لمحورية الجولان في الحرب العالمية الثانية ومحور الهجوم المضاد للديغوليين لاكتساح الفيشيين على خط القنيطرة دمشق، الجولان الذي دافع عنه جوفنيل المندوب السامي الفرنسي ضد الوكالة اليهودية وطالب اليهود بالاستثمار الزراعي شرق الفرات في سوريا والابتعاد عن الجولان، الجولان الذي تصارع عليه الفرنسيون والانكليز وتنازعوا حدوده فيما كانت مستوطنة الدان في تل القاضي مركز الاستخبارات الصهيونية لمراقبة حياة أبناء الجولان و كانت تخشى أبناء الجولان بالمقابل امبراطوريتين هما الفرنسيين والانكليز وتحسب حسابهم، الجولان هذا الذي تم تفكيك بنيته الاجتماعية على مراحل حتى النزوح الكبير عام 67، وتهميش مجتمعاته بحيث لا تقوم لهم قائمة ولا يفكرون حتى بتأسيس مقاومة، وإشغالهم بإعمار منازلهم حول دمشق وريفها ولف بلوك كما يقول النازحين وتصبح عشوائياتهم قد تجاوزت الخمسين في أربع محافظات سورية.

هذا الجولان المشتت والمقزّم وهو يتسع سوريا بأكملها بخيراته وعطاء أهله، عدا قيمته الزراعية والسياحية والمائية والتاريخية والأثرية وموقعه الجغرافي الاستراتيجي في قلب بلاد الشام. عدا كل هذا فثروته الأساسية هو الانسان السوري فيه والذي أكد على مر العصور وحدته وتلاحمه وهو بكل بساطة سوريا المصغرة، ففيه كل الطوائف والإثنيات على بقعته الصغيرة التي لا تشكل أكثر من واحد بالمائة من المساحة الجغرافية السورية. إلا أنه نموذجي لأقصى الحدود للتنوع والتسامح والنجاح لوطن مصغر عن وطن كبير، فمن أهلي في الجولان عرفت قيمة الجولان الحقيقية بقيمة أهله وهم الذين اعتادوا الظلم، إلا أنهم أسسوا بدمشق وريفها ودرعا وحمص نموذج النازح الناجح المهجر الذي بتعب ذراعه صنع منزله ودرس وتعلم وتفوق على نفسه وإمكاناته وهو المتأخر اقتصادياً عن بقية السوريين نصف قرن على الأقل لخسارته لأرضه، وبعد الثورة هذا الجولاني نموذج يحتذى لبقية اللاجئين من أبناء وطنه، للإصرار والعزيمة

وروح التمرد والتوق للحرية، فلم يكن غريباً عليه أن يرتكب النظام بتجمعاته أكبر المجازر السورية في جديدة الفضل وعرطوز والذيابية والحسينية والحجر الأسود وحي التضامن وغيرها الكثير الكثير من المجازر.

راهن وايزمن مؤسس الكيان الصهيوني على نسيان الأبناء مآسي آبائهم وبالتالي نسيان أرضهم، الحقيقة أن رهانه خاسر، فأنا على سبيل المثال ومنذ 2010 اطلعت على ما لا يَقلُّ عن عشرين ألف وثيقة لدى أهلي وناسي بعضها يعود للعهد العثماني ووثقت تاريخي وتاريخ وطني المصغر ولازلت أتمتع بروح الكبار الذين رحلوا وكذلك سأعلم جيل الثورة معنى الجولان في القلب السوري.



إتفاقية بوليه–نيوكامب 1920 وتعديلاتها 1923 و1926 والحدود حتى الثلاثينيات

أشرف النمر

كاتب وباحث من الجولان لاجئ في برلين

إتفاقية بوليه–نيوكامب 1920 الفرنسية البريطانية

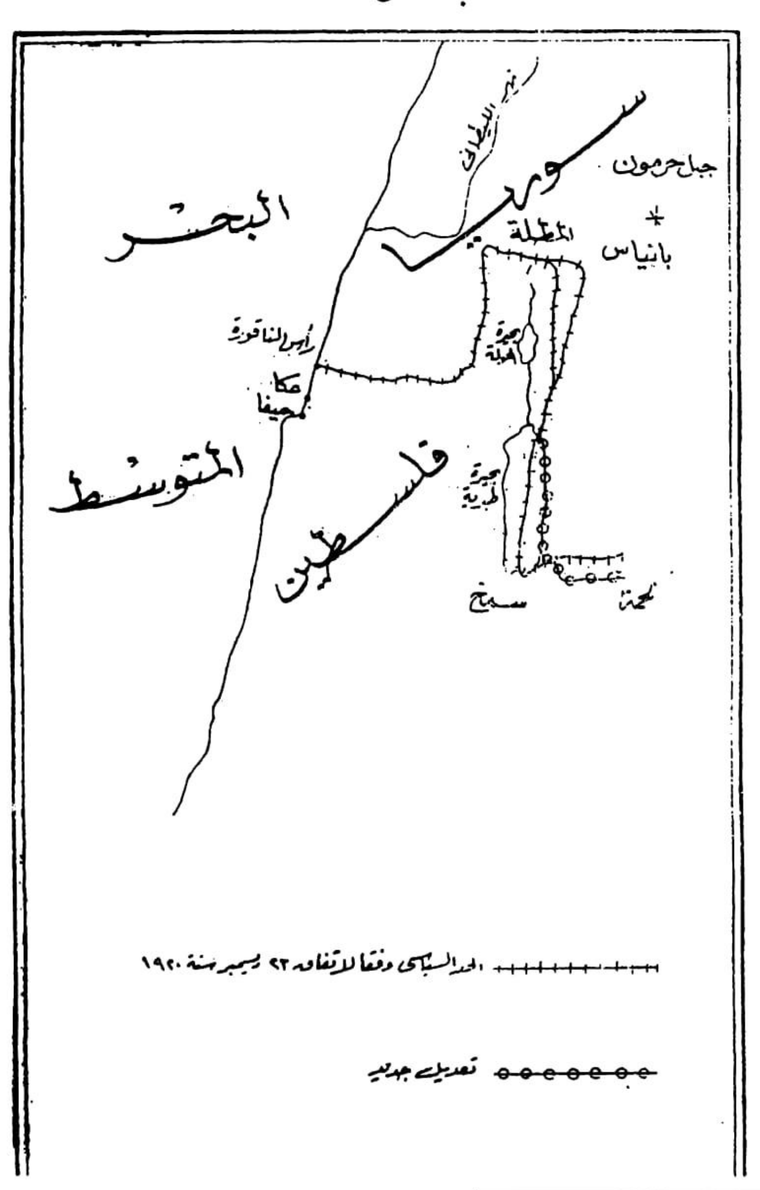
عمد غورو إلى تقسيم سوريا إلى أربع مناطق مستقلة عن بعضها وهي: دولة دمشق ودولة حلب ودولة جبل الدروز ودولة بلاد العلويين، ووضع على رأس أعماله جميع المساعي التي بذلتها اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، وأمل المؤتمر أن تستجيب الحكومة الفرنسية لمصالح الشعب اليهودي وتفي بها.

في ذلك الوقت باشرت اللجنة المشتركة الفرنسية البريطانية عملها حيث قامت بعدة جولات ميدانية للمنطقة الحدودية المشتركة بين لبنان وسوريا من جهة وبين فلسطين من جهة أخرى، فيما عاد وتقدم الكولونيل نيو كامب باقتراحات للحكومة البريطانية ضمنها تصوراته حول الحدود المشتركة الشمالية لفلسطين وضرورة تأمين أقصى ما يمكن من المنافع والمكاسب لصالح المنطقة البريطانية وتحديدا الموارد المائية.

حاولت لجنة بوليه – نيو كامب خلال عملها لتخطيط المنطقة الحدودية عدم الفصل بين القرى والمناطق التابعة لها، منعا لوقوع أي ضرر للمواطنين، لهذا عمد البريطانيون إلى ضم أكبر عدد من القرى للحيلولة دون سيطرة الفرنسيين على مساحات من الأرض بحجة وقوعها ضمن الأراضي التابعة للقرى، خاصة بعد أن أبلغت بريطانيا فرنسا موافقتها عن تنازلها عن منطقة الجولان لصالح الانتداب الفرنسي، علماً أن الجولان وخلال الاتفاق الفرنسي البريطاني الموقع بين الطرفين في باريس بتاريخ 23 كانون أول (ديسمبر) 1920 كان قد منح لبريطانيا.

أنهت لجنة بوليه نيو كامب أعمالها في 3 شباط (فبراير) من عام 1922، ورفعت تقريرها مرفقة معه ثلاثة خرائط تعتمد مقياس الرسم 50،000 / 1 حول نقاط حدودية تكون صالحة لاعتمادها كأساس لترسيم الحدود على الأرض بين لبنان وسوريا وفلسطين.

خريطة تعديل الحدود اللبنانية ـ السورية ـ الفلسطينية
حسب اتفاق ١٩٢٠(١)



(١) د. محمد محمود ديب: حدود فلسطين، دراسة تحليلة لوثائق الانتداب، ص ١٧.

بعد فترة قامت وزارة الخارجية الفرنسية بإرسال نسخة موقعة عن الاتفاقية إلى السفير البريطاني في باريس لتعلمه أن الحكومة الفرنسية توافق على مضمون هذه الاتفاقية، وتبلغه أن الحكومة الفرنسية سترسل نسخة عن الاتفاقية للمفوض السامي في سوريا ولبنان ليصبح هذا الاتفاق نافذا اعتبارا من العاشر من آذار (مارس) عام 1923، كما أنها سترسل نسخة من التقرير موقعة من الكولونيل بوليه إلى عصبة الأمم من قبل الحكومة الفرنسية.

بلغ مسار الحدود بعد إنجاز عملية التخطيط هذه حوالي 177 كم بدأ من رأس الناقورة حتى بانياس في الجولان بطول 78 كلم، ومن بانياس إلى منطقة الحمة على الحدود الأردنية السورية الفلسطينية المشتركة بطول 79 كلم، ووضعت في أماكن بارزة شملت 71 علامة حدودية حجرية ارتفاع كل منها 1.5م وتبعد كل واحدة عن الأخرى مسافة تقريبية بحدود 2 كلم، وبعد نيلها موافقة عصبة الأمم أصبحت هذه الحدود تسمى الحدود الدولية بين فلسطين وسوريا ولبنان.

العلامات الحدودية التي تفصل بين المنطقتين:

1- العلامة الأولى: بعد أن بدأت الحدود عند منطقة رأس الناقورة على البحر المتوسط وضعت العلامة الأولى على بعد خمسين متراً شمال مركز البوليس الفلسطيني، ويستمر الخط، ليصل إلى:

2 - العلامة الثانية: موجودة عند خربة دنيان، ويستمر خط الحدود على رأس القمم، ليصل إلى:

3- العلامة الثالثة: موجودة على مسافة 400 متر جنوب غرب قرية لبونة، ويستمر الخط فوق القمم، ليصل إلى حيث يجري:

4- العلامة الرابعة: موجودة على مسافة كلم إلى شرق الجنوب الشرقي لقرية لبونة خط الحدود في مجرى وادي تالويج، ويتجه الخط عبر وادي لا يحمل اسماً حتى يصل

إلى وادي قطية، ثم يتجه إلى شرق الشمال الشرقي لمسافة 2 كم ويسير بعد ذلك بالقرب من رافد صغير على يسار وادي قطية آتيا من الشرق، ليصل إلى:

5 – العلامة الخامسة: موجودة عند الطرف الجنوبي الغربي من الأرض الزراعية لوادي قطية، ويتجه الخط مستقيماً، ليصل إلى:

6 – العلامة السادسة: موجودة على قمة وادي الدلم، ليتجه الخط بخط مستقيم طوله 700 متر إلى جنوب الجنوب الشرقي، ليصل إلى:

7 – العلامة السابعة: موجودة عند التقاء وادي الدلم مع رافد صغير من جهة الشمال، ثم يستمر ويتجه بعد ذلك غرب الجنوب الغربي لمسافة 400 متر بعدها يتجه الخط إلى شمال الشمال الغربي لمسافة 1 كم، ليصل إلى:

8 – العلامة الثامنة: موجودة على مسافة كيلومترين ونصف إلى الشرق من علما الشعب، على طريق علما الشعب وقرية يورديث ويتجه الخط نحو الشمال على مسافة أمتار من يورديث في الجنوب ومسافة أمتار من بركة الريشة، ليصل إلى:

9– العلامة التاسعة: موجودة على مسافة 700متر جنوب شرق خربة بلاط عند مفترق طرق راميا علما الشعب وراميا تربيخا، ويتجه الخط مستقيماً ليصل إلى:

10 – العلامة العاشرة: موجودة على مسافة 600 متر جنوبي جنوب شرق العلامة السابقة ويستمر الخط بين وادي تربيخا في الجنوب وحوض راميه في الشمال، ليصل إلى:

11– العلامة الحادية عشرة: موجودة على مسافة كيلومتر إلى جنوب شرقي رامية ويسير الخط عشرة مستقيماً ليصل إلى:

12 – العلامة الثانية: موجودة على مسافة سبعمائة متر وإلى الغرب من عيتا الشعب على رأس عشرة ثم يتجه الخط جنوباً، ليصل إلى:

13- العلامة الثالثة: موجودة على تل الراهب، ثم يسير بخط مستقيم حتى التقاء وادي وول عشرة مع وادي مجهول الاسم وتقع هذه النقطة بين المنصورة في الغرب والسلوقية في الشرق، ليصل إلى نقطة:

14- العلامة الرابعة عشر: موجودة على مسافة 600 متر من عيون قطمون ثم يسير مستقيماً، ليصل إلى:

15- العلامة الخامسة عشر: موجودة في مجرى وادي بيدية، ويواصل سيره مستقيماً ليصل إلى:

16- العلامة السادسة عشر: موجودة على نقطة التقاء بين وادي بيدية مع وادي حلال ويتابع مستقيماً، ليصل إلى:

17 - العلامة السابعة عشر: موجودة على القمة الغربية لحرمون، ويتابع الخط مستقيماً، ليصل إلى:

18 - العلامة الثامنة عشر: موجودة على القمة الشرقية لحرمون، ويتابع الخط مستقيماً، ليصل إلى:

19- العلامة التاسعة: موجودة على مسافة 2100 متر على هضبة جنوب شرقي قرية يارون، ويستمر الخط بسيره المستقيم، ليصل إلى:

20 - العلامة العشرون: موجودة على مسافة 2000 متر شرق قرية يارون وعلى مسافة تقارب الكيلومتر جنوب البركة وعلى نتوء صخري ثم يواصل مستقيماً ليصل إلى :

21 - العلامة الحادية والعشرون: موجودة على قمة جبل القاضي، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

22 – العلامة الثانية والعشرون: موجودة على مسافة 600 متر شمال خربة أوبا و 1000 متر جنوب البركة على حافة وادي، ثم يواصل مستقيماً ليصل إلى:

23 – العلامة الثالثة والعشرون: موجودة على قمة جبل الغابية، وعلى مسافة 600 متر جنوب الدير، ويواصل الخط مستقيماً ليصل إلى:

24 – العلامة الرابعة والعشرون: موجودة شرق جبل الغابية وعلى نتوء صخري، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

25 – العلامة الخامسة والعشرون: موجودة على مسافة 600 متر غربي قرية المالكية وشرقي ضفة مجرى تالويج ويتابع الخط شمالاً ليصل إلى:

26 – العلامة السادسة والعشرون: موجودة عند نقطة التقاء المجاري مع الممر القادم من قرية قَدَس إلى قرية عيترون في الأراضي اللبنانية، ويسير الخط مستقيماً ليصل إلى:

27– العلامة السابعة والعشرون: موجودة إلى مسافة 700 متر شمال غرب قرية خلة غزيلة، بالقرب من شجرة كبيرة تابعة لخربة منافر، ويواصل الخط مستقيماً ليصل إلى:

28 – العلامة الثامنة والعشرون: موجودة شمال قَدَس عند تقاطع الطريق القادم من قَدَس مع ميس مع وادي العتبة ثم يسير مع مجاري وادي العتبة، ليصل إلى:

29 – العلامة التاسعة والعشرون: موجودة عند التقاء وادي العتبة. مستقيماً ليصل إلى:

30 – العلامة الثلاثون: موجودة شرقاً على حافة مرج طوفة. ويسير الخط مستقيماً ليصل إلى:

31 – العلامة الحادية والثلاثون: موجودة شرقي قرية ميس الجبل وعلى مسافة 800 متر على نتوء صغير ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

32 – العلامة الثانية والثلاثون: موجودة شمال غربي قرية المنارة على مسافة 300 متر، عند ملتقى الطريق القادم من ميس الجبل إلى هونين مع الطريق القادم من خربة المنارة إلى حولا، ويسير الخط إلى شمالي شمال الغرب ليصل إلى:

33- العلامة الثالثة والثلاثون: موجودة عند مثلثات الشيخ عباد، ويسير مستقيماً ليصل إلى:

34- العلامة الرابعة والثلاثون: موجودة على مسافة 1 كم غربي قرية هونين في وادي هونين ويظل يسير ليصل إلى :

35-العلامة الخامسة والثلاثون: موجودة على مسافة 1300 متر شمال قرية هونين، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

36-العلامة السادسة والثلاثون: موجودة على طريق قرية المروج، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

37 – العلامة السابعة والثلاثون: موجودة عند جبل العديسة على مسافة 300 متر إلى الشرق من آخر منزل في القرية، جنوبي الطريق القادم من العديسة إلى المطلة، ثم يتجه من جنب جبل العديسة الذي يمر على مسافة 1400 متر إلى الشمال الغربي وشمال جبل أرياك، ويلتف إلى الجنوب الشرقي حتى ملتقى الطرق القادمة بين جديدة مرجعيون والخيام والمتجهة إلى كفر كلا، ثم يتجه نحو الجسر الموجود على مسافة 200 متر من الشمال الشرقي من المطلة، ثم يتبع الطريق بين المطلة وبانياس بشكل مستقيم ليصل الخط إلى:

38 – العلامة الثامنة والثلاثون: الموجودة على مسافة 900 متر من شمال الشمال الشرقي من قرية آبل، ومن هذه العلامة إلى تل القاضي تبقى هذه المنطقة ضمن الأراضي الفلسطينية، والحدود تكون موازية لطريق المطلة بانياس وعلى مسافة 100

متر حيث تمر على جسر روماني قديم فوق نهر الحاصباني، ومن تل القاضي لتصل إلى العلامة التاسعة والثلاثون.

عند انتهاء العلامة الحدودية 38 تكون الحدود اللبنانية الفلسطينية قد انتهت وعليه النقطة الحدودية 39 تبدأ الحدود السورية الفلسطينية.

39-العلامة التاسعة والثلاثون: موجودة إلى الجنوب من نقطة التقاء الطريق مع قناة الري وعلى مسافة 1 كم غرب قرية بانياس، وكل الطريق من طرف العديسة إلى بانياس الذي يبقى داخل الأراضي السورية، ثم يستمر الخط مع قناة الري ليصل إلى:

40 - العلامة أربعون: موجودة على المنحدرات الجنوبية لتل الله ثم يستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

41- العلامة الحادية والأربعون: موجودة على الضفة اليسرى لنهر بانياس وعلى مسافة 900 متر جنوب غرب بانياس، ويستمر الخط في سيره على مرتفعات الضفة الشمالية للنهر ليصل إلى:

42 - العلامة الثانية والأربعون: موجودة على مسافة 700 متر إلى شمال شمالي شرق تل العزيزيات على طول المرتفعات للضفة الشمالية لنهر بانياس، ويستمر مستقيماً ليصل إلى:

43- العلامة الثالثة والأربعون: موجودة على قمة تل عزيزيات، ويستمر مستقيماً ليصل إلى:

44- العلامة الرابعة والأربعون: موجودة على التقاطع طريق مودحد بانياس ومجرى عين فيت المتجه إلى ابن يعقوب، ومن خط الحدود من ارتفاع 180 متر عن سطح البحر والذي يبقى ضمن الأراضي الفلسطينية للاستفادة من الارتفاعات لإنشاء قناة مائية، ويستمر الخط مستقيماً من علامة إلى علامة، ليصل إلى:

45 – العلامة الخامسة والأربعون: موجودة على مسافة 1400 متر إلى الشرق من تل الشيخ، على خط القمم شمال مجرى وادي الزعتر، ويستمر ليصل إلى:

46 – العلامة السادسة والأربعون: موجودة مباشرة إلى الغرب من البيت المنعزل المسمى البرجيات ويستمر ليصل إلى:

47 – العلامة السابعة والأربعون: موجودة عند تبدل الانحدار على مسافة 1800 متر إلى الشرق من عين الشيخ محمود وإلى شمال مجرى وادي حمر الولا ويستمر ليصل إلى:

48– العلامة الثامنة والأربعون: موجودة عند شجرة تدعى خربة دهيتين ويستمر الخط ليصل إلى:

49– العلامة التاسعة والأربعون: موجودة مباشرة إلى الغرب من مطحنة الصيادة ويستمر ليصل إلى.

50– العلامة الخمسون: موجودة على مسافة 600 متر شرق الشجرة القريبة من مصب وادي فاجر ويستمر الخط ليصل إلى:

51 – العلامة الحادية والخمسون: موجودة مباشرة إلى الغرب من طاحونة جليبينة ويستمر الخط ليصل إلى:

52– العلامة الثانية والخمسون: موجودة مباشرة إلى الغرب من المنزل الواقع على مسافة 1200 متر شمال جسر بنات يعقوب ويستمر الخط ليصل إلى:

53– العلامة الثالثة والخمسون: موجودة مباشرة على مسافة 20 متر من مركز الحدود السوري عند جسر بنات يعقوب ويستمر الخط ليصل إلى:

54– العلامة الرابعة والخمسون: موجودة على مسافة 350 متر إلى الشرق من مطحنة مدمرة تقع على مسافة 900 متر شمال جسر بنات يعقوب، ويستمر الخط ليصل إلى:

55- العلامة الخامسة والخمسون: موجودة على مسافة 20 متر غرب مكان يسمى علمين، ويستمر الخط ليصل إلى:

56- العلامة السادسة والخمسون: موجودة إلى الشرق وعند أعلى منحدر وادي الشيخ ويستمر ليصل إلى:

57-العلامة السابعة والخمسون: موجودة على مسافة 400 متر وإلى الشمال الشرقي من مكان يدعى الرفيت (الرفيد) ويستمر الخط ليصل إلى:

58- العلامة الثامنة والخمسون: موجودة على مسافة 20 متر إلى الغرب من الرفيت، ويستمر الخط ليصل إلى:

59 - العلامة التاسعة والخمسون: موجودة على قمة صغيرة وعلى مسافة 2300 متر إلى الجنوب من الرفيت ومسافة 400 متر شرقي نهر الأردن ويستمر الخط ليصل إلى:

60 - العلامة الستون: موجودة على مسافة 20 متر من قلعة الكساب، ومن العلامة 60 تمر الحدود على مسافة 50 متراً بموازاة نهر الأردن على الضفة الشرقية حتى مصب النهر عند بحيرة طبريا، ومن النقطة وحتى عيون مصيفير الكبريتية تمر الحدود وعلى مسافة 10 أمتار بموازاة الشاطئ الشرقي لبحيرة الحولة ويتبع الحد أي تغير وبمستوى الماء نتيجة إنشاء سدود جنوبي البحيرة وعلى مجرى نهر الأردن، ويستمر الخط ليصل 60 إلى :

61- العلامة الحادية والستون: موجودة عند عيون مصيفير، ومنها يتجه الخط ليصل إلى:

62 - العلامة الثانية والستون: موجودة على مسافة 1200 متر إلى شرقي العلامة السابقة على أحد المنحدرات، ويستمر الخط ليصل إلى:

63 – العلامة الثالثة والستون: موجودة على قمة قرين جرادة إلى الجنوب الغربي من بير شكوم، ويسير الخط بشكل مستقيم ليصل إلى:

64- العلامة الرابعة والستون: موجودة على قمة إلى الشرق من بقايا قلعة الحصن وإلى الغرب من فلك، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

65- العلامة الخامسة والستون: موجودة على قمة جبل خالص، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

66- العلامة السادسة والستون: موجودة على مسافة 200 متر أسفل عين رجل (عين رجال) وغرب قرية كفر حارب، ثم يستمر خط الحدود متبعاً خطاً حددته المنحدرات البيضاء من منحدرات هضبة الجولان، ويستمر الخط ليصل إلى:

67 – العلامة السابعة والستون: موجودة على مسافة 250 م جنوب شرق عين شريرة، ويستمر الخط مستقيماً إلى:

68- العلامة الثامنة والستون: موجودة على مسافة 750متراً جنوب شرق عين شريرة، ويستمر مستقيماً إلى:

69- العلامة التاسعة والستون: موجودة مباشرة شرق خربة التوافيق، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

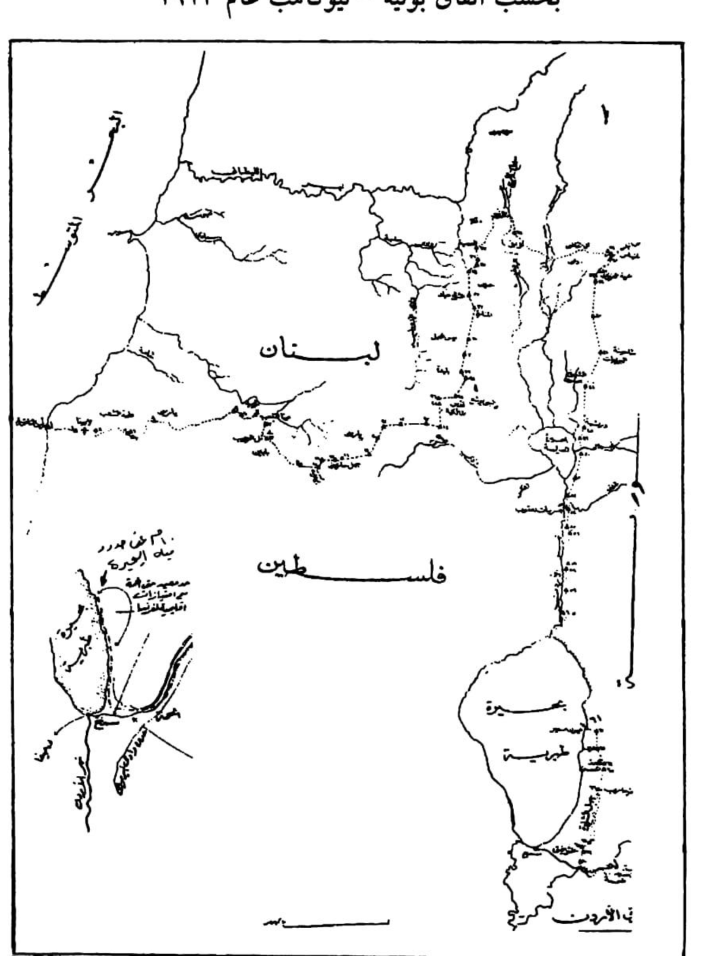
70 – العلامة السبعون: موجودة على مسافة 500 متراً على كتف الجبل وإلى شمال الشمال الغربي للكيلومتر رقم 91،750 من خط حديد درعا . حيفا، ويستمر الخط مستقيماً ليصل إلى:

71 – العلامة الحادية والسبعون: موجودة على مسافة 50 متراً من النقطة السابقة من خط الحديد، ويواصل الخط سيره بشكل مواز لخط السكة الحديدية وعلى مسافة 50 متراً منه حتى يصل إلى طريق سمخ الحمة، ويستمر الخط حتى يقطع طريق المنحدرات الواقعة على مسافة 100 متر شمال غرب مركز شرطة الحمة، ويواصل

سيره على الطرف الأعلى من المنحدرات شمالي سكة الحديد حتى يصل إلى الجسر الذي يقع على مسافة 500 متراً شرق محطة الحمة.

على الرغم من أن هذه الاتفاقية قد سلخت بعض المناطق السورية التابعة للجولان وضمتها إلى فلسطين، إلا أنها حفظت بعض الحقوق للمواطنين السوريين في هذه المناطق، ومنها الحفاظ على حق المواطنين السوريين باستخدام مياه نهر الأردن وكذلك حقهم بوصول بضائعهم إلى مرسى وميناء بحيرة طبريا، وحق المواطنين السوريين في الصيد والملاحة في بحيرتي الحولة وطبريا، وأيضاً على جزء من محطة نهر الأردن بين البحيرتين بشكل متساو مع المواطنين الفلسطينيين، كما تخضع سكة حديد سمخ للاستخدام المشترك للسلطتين الفرنسية والبريطانية.

خريطة ترسيم الحدود اللبنانية – السورية – الفلسطينية
بحسب اتفاق بوليه – نيوكامب عام ١٩٢٣(١)



(١) د. محمد محمود ديب: حدود فلسطين، دراسة تحليلة لوثائق الانتداب، ص ٥٦-٥٧.

الجدير ذكره أنه بحسب اتفاق بوليه نيو كامب لم تصل الحدود الشمالية لفلسطين إلى نقطة تعلو أكثر من 800 م، مما يعني أن جبل حرمون يقع ضمن النفوذ الفرنسي في الأراضي اللبنانية والسورية اعتباراً حتى هذا الارتفاع وحتى منحدره الجنوبي من جهة شمالي فلسطين. مع العلم أن حدود سوريا مع لبنان في هذه المنطقة تبدأ من شمال عين التنور وتتجه باتجاه الشمال الشرقي في منطقة وادي المغر حتى تصل إلى جبل السماق ثم جبل الروس على ارتفاع 1530م شرقي منطقة كفر شوبا ليواصل خط الحدود انحداره وصعوده جنوب جبل حوراتا ليصل إلى شرق ضهور عين الجوز إلى ارتفاع 2300 م، ويستمر خط الحدود حتى يصل إلى أعلى قمة في جبل حرمون المسماة قصر شبيب إلى ارتفاع 2814 م، لتتجه الحدود شمالاً حتى جبل الخرشونة وبعدها إلى قرنة السفحة ليواصل بعدها نحو حرمون الشرقي.

حصلت متغيرات حدودية كبيرة بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني بالنسبة لما كان عليه الوضع بعد اتفاق باريس 1920 فتم تعديل الحدود الشمالية والشمالية الشرقية لفلسطين، فقد تنازل البريطانيون عن القسم الشمالي الغربي من الجولان مقابل تنازل الفرنسيين عن حقوقهم والأملاك السورية على شواطئ طبريا وعلى مصادر مياه نهر الأردن في منطقة دان وبانياس والجزء الأسفل من نهر اليرموك.

وفي منطقة تل القاضي أو تل دان رفض البريطانيون مرور خط الحدود على هذا التل على الرغم من كونه مركزاً مناسباً وبارزاً كعلامة حدودية وأصروا على مرور الخط الحدودي إلى شماله ليحافظوا على جميع المصادر المائية في هذا التل ضمن الحدود الفلسطينية على الرغم من امتلاك هذا التل من قبل إحدى العائلات اللبنانية.

أما في بانياس فقد عمد البريطانيون لاتباع الأسلوب نفسه، فعلى الرغم من أن الحدود الأساسية كانت تمر على مسافة عشرات الأمتار من آبار بانياس، فقد تراجع الفرنسيون عن الاتفاق وأصروا على بسط سيطرتهم على هذه المنطقة لما تشكله استراتيجية من شبكة الطرق فكان الاتفاق على أساس الطرق للفرنسيين والماء للبريطانيين، وكان

إصرارهم هذا ناتجاً بسبب مرور طريق الساحل – الجولان في تلك النواحي فيما رفض البريطانيون ذلك الادعاء معلنين أن الطريق تمر في منطقة خربة أدوير التي تبعد قليلاً شمالي بانياس وهي تكفي لتأمين المواصلات المطلوبة للجولان، وعلى الأثر توصل الطرفان لاتفاق أبقى منطقة أبار بانياس ضمن النفوذ الفرنسي على أن يكون ضمن ذلك حق للبريطانيين في إعادة طرح القضية للنقاش ومن المعلوم أن فرنسا عادت وتنازلت لبريطانيا بموجب اتفاق حسن الجوار الموقع في 23 حزيران (يونيو) 1923 عن مساحة كبيرة من منطقة الحولة اللبنانية وذلك بعد توقيع معاهدة لوزان مع تركيا لتثبيت الحدود الدولية بين منطقتي الانتداب الفرنسي والبريطاني، في حين حصلت فرنسا من هذه الصفقة على منح إحدى الشركات الفرنسية امتياز تجفيف مناطق المستنقعات في منطقة الحولة.

في هذه الأثناء عاد المفوض السامي وأنشأ مجالس تمثيلية لدول دمشق وحلب وبلاد العلويين مضمناً هذه الدول بعض الحقوق السياسية والادارية، فيما عمد إلى حرمان دولة جبل الدروز من هذه الحقوق بسبب المشاكل الأمنية التي تسود منطقتهم كذلك رفضهم التعامل مع الفرنسيين، وبعد محاولات فاشلة لإقامة الوحدة بين الدول السورية عمدت فرنسا في 5 كانون الأول (ديسمبر) 1924 إلى توحيد دولتي دمشق وحلب فيما أبقت دولتي جبل الدروز وبلاد العلويين منفصلتين مانعة تحقيق الوحدة.

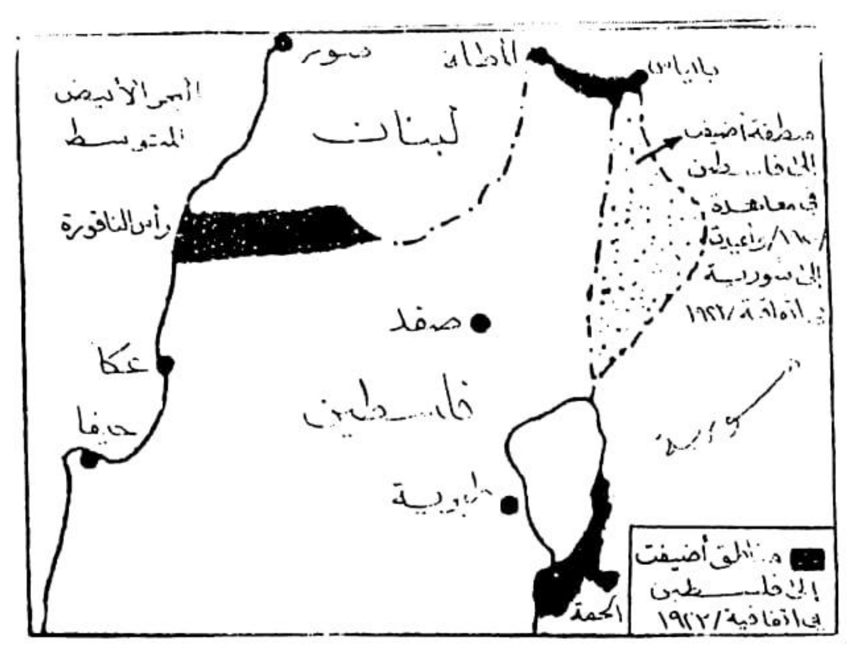
الجدير ذكره أن وفداً من رجال دمشق كان قد وصل لمقابلة المفوض السامي ساراي في 17 كانون الثاني (يناير) 1925 وتقدم منه بعدة مطالب منها:

1- إعادة ضم شمل سوريا لما كانت قبل الحرب العالمية الأولى بما في ذلك الأقضية اللبنانية الأربعة أي حاصبيا وراشيا ومرجعيون والبقاع.

2 – انتخاب جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد.

الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا 1926 على حدود الجولان مع لبنان وفلسطين والأردن:

مناطق أضيفت إلى فلسطين عام 1920 وأعيدت إلى سورية عام 1923 ، وأخرى أضيفت إلى فلسطين من سورية عام 1923 .



أرسل الجنرال ويغان عضو المجلس الأعلى للحرب والمفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان وقائد جيش الشرق رسالة إلى قنصل فرنسا في فلسطين بتاريخ 13 حزيران (يونيو) 1924، يطالبه فيها إبلاغ الكولونيل كيش رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، أن يتوخى وضع الأمور في نصابها خاصة بعد التصريحات التي أطلقها بعد لقائه السيد ريفيه المفوض السامي بالوكالة حيث صرح أن فرنسا لن تتبع أية سياسة معادية للصهيونية . . . وأنها لن تقف سداً في وجه التوسع الصهيوني في سوريا، وشاكراً المفوض للفت نظر الكولونيل إلى أن فرنسا لن ترضى أبدا بتأسيس اتحاد صهيوني في سوريا .

عاد الجنرال ويغان وأرسل برقية إلى رئيس الوزراء الفرنسي وزير الخارجية بتاريخ 8 تموز (يوليو) 1924 يحيطه علماً بزيارة الكولونيل كيش والسيد ريفيه المفوض السامي بالوكالة، وما وجده مناسباً حيال الصهيونية، ومن خلال نص الرسالة يتبين أن الجنرال

ويغان كان يحاول منع التوسع الصهيوني داخل منطقة النفوذ الفرنسي، كما أظهر لرئيس الحكومة موقف الكولونيل كيش بعد مقابلته السفير المفوض الفرنسي في فلسطين حيث حاول كيش توضيح الفرق بين الصهيونية السياسية والصهيونية الروحية من وجهة نظره، فأوضح كيش أن الصهيونية الروحية لا يستطيع أي حائط أن يصدها، في حين ذكره السفير المفوض الفرنسي أن سلطات الانتداب الفرنسي ترفض إنشاء اتحاد صهيوني في سوريا، وارتكز رفضه على اعتبارات محددة منها: أن هناك بعض العناصر الصهيونية تحاول خلق نوع من الإمبريالية الصهيونية مضادة لسوريا، فبدلاً من أن تعمل على جذب اليهود إلى فلسطين، أخذت تطالب بضم جميع الأراضي التي يقطنها يهود إلى فلسطين، وأرفق مع الرسالة خريطة مطبوعة عام 1917 تحدد فيها الصهيونية حدود دولتها المزمع إنشاؤها عند الخط الحديدي بين بيروت ودمشق وتضم فيما الجولان وجبل الشيخ .

من جهة ثانية تطرق ويغان إلى التنازل الذي حصل نتيجة لاتفاق بوليه نيو كامب عن منطقة المطلة لفلسطين، حتى أخذت أصوات صهيونية تتعالى وتطالب بضم جبل حرمون وجنوب البقاع إلى فلسطين.

وتحدث عن أنباء تفيد عن قيام بعض الصهيونيين بمحاولات لشراء أراضي في جنوب دولتي جبل لبنان ودمشق إلى حد وجد نفسه مضطراً للعمل لإصدار نص تشريعي يمنع شراء الأجانب للعقارات في مناطق معينة، وعليه أكد أنه مضطر ليكون حذراً حيال إنشاء اتحاد فدرالي في سوريا قد يساعد على تحقيق أهداف الصهيونية السياسية تحت ستار الصهيونية الروحية.

واصلت الصهيونية محاولاتها لتعديل الحدود المشتركة مع لبنان وسوريا، وقد نشرت مجلة (The Palestine weekly) مقالاً بعنوان تصحيح الحدود بتاريخ 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1925، تتحدث عن ورود برقية من لندن تتضمن عزم الحكومتين الفرنسية والبريطانية إجراء تصحيح للحدود بين فلسطين وسوريا ولبنان لأن الخبراء

العسكريين يرون أن هذه الحدود غير مناسبة من الوجهة الإستراتيجية وتحديداً عند مرجعيون، وتحدث التقرير عن طرح مشروع لتوسيع منطقة النفوذ البريطاني في فلسطين لتشمل سهل العيون والمناطق المحيطة به من جهة الغرب ليكون نهر الليطاني الحدود من الجهة الشمالية الغربية.

كان من أسباب إعادة إجراء التعديلات على اتفاقية بوليه- نيو كامب بروز مشاكل أمام لجنة تحديد الحدود الفرنسية- البريطانية على الطبيعة، تمثلت هذه المشاكل بشطر بعض القرى والمناطق إلى قسمين يتبعان لانتدابين مختلفين، حتى بلغ عدد القرى المشطورة على طول الحدود السورية- اللبنانية- الفلسطينية حوالي 22 قرية، وهذا يتناقض مع مبدأ الحفاظ على ترابط القرى ويشكل أمراً خطيراً على حياة السكان المدنيين، ومن هذه القرى: المزيرعة، بانياس، برقيات لوطيان، جرابة، دريبات، الدربشية، عين فيت، عين التينة، عين ميمون، قَدَس، الرفيد، جالا بينا، خربة البادية، خربة المنارة، خربة السمان، ميس الجبل، مغر شبانة، صلحة، سعسع، شوكة، تل العزيزيات، يارون، لهذا أوصت لجنة الحد الحدودي الانتدابين الفرنسي والبريطاني إجراء تبادل لبعض المناطق وإضافة شروط جديدة للاتفاقيات السابقة لتحسين العلاقة بين الطرفين.

أمام الظروف المستجدة ولضرورة معالجة المسائل الحدودية الناتجة عن اتفاق بوليه- نيو كامب، تم تشكيل لجنة من الكولونيل سيمز من الجانب البريطاني والمسيو فيرشير عن الجانب الفرنسي وانكبت اللجنة طيلة عام 1925 على تقييم الأوضاع ودراستها، وتوصلت في النهاية إلى اتفاقية حسن الجوار بين فلسطين البريطانية وسوريا ولبنان الفرنسيتين، وتم توقيع الاتفاقية من الجانب البريطاني المندوب السامي البريطاني في فلسطين بلومر وعن الجانب الفرنسي المفوض الفرنسي في سوريا ولبنان دي جوفينيل وذلك في 2 شباط (فبراير) 1926.

هذا وقد ورد في المادة 10 من نص الاتفاق على منح جنسية السكان في المناطق التي تغيرت السيادة عليها بحسب سيادة الدولة التي يتبعون لها وذلك وفقا للمواد 30 – 36 من معاهدة لوزان.

أمام تصاعد الأحداث واستمرارا العنف في سوريا استدعت فرنسا المفوض ساراي فيما كلفت دوجوفنيل (عضو مجلس شيوخ فرنسي) للقيام بمهمة المفوض السامي ولمدة ستة أشهر، لدى وصوله إلى لبنان طلب من الهيئات السياسية والدينية اللبنانيين رأيها بخصوص وضع دستور جديد للبلاد، فما كان من الزعماء المسلمين إلا الرفض للمشاركة بهذه المشاورات ومطالبين بالوحدة مع سوريا. وفي هذا الوقت كانت قد تشكلت في دمشق حكومة جديدة حاولت التوفيق بين مطالب السوريين والمفوض السامي، ووضعت لنفسها برنامجاً مكوناً من عدة نقاط:

1 – دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور للبلاد على قاعدة السيادة الوطنية.

2 – مواصلة تحقيق الوحدة (ضم بلاد العلويين وجبل الدروز إلى دمشق وحلب).

استمرت المفاوضات بين الطرفين لمدة أسبوعين وتوصل الطرفان إلى اتفاق وقع على أثره المفوض الفرنسي على وثيقتين:

الأولى: تضم برنامج الحكومة.

الثانية: تتعلق حول تغيير هذه البنود.

محاولات التوسع الصهيوني بين الأعوام 1926 –1928

على الرغم من أن اتفاق بوليه– نيو كامب لعام 1923 حرص على عدم فصل القرى عن خراجها لإفساح المجال أمام المواطنين لاستغلال أراضيهم الزراعية دون عناء، إلا أنه اتضح أن الخط الحدودي فصل بعض القرى عن خراجها، لهذا عمدت سلطات الانتدابين إلى تأليف لجنة عهدت إليها دراسة المشاكل وإيجاد الحلول المناسبة لها وذلك عام 1925، وفي عام 1926 وبعد أن أنهت اللجنة عملها وخرجت باتفاق

القدس كما ورد سابقاً، سمح للمواطنين بالتنقل وعبور الحدود فيما لو اقتضى الأمر للوصول لأرضهم، كما سمح لهم باستخدام الموارد المائية لأي طرف ضمن حدود الطرف الأخر، كما سمحت للمواطنين السوريين بالصيد في بحيرتي الحولة وطبرية ونهر الأردن.

من جهة أخرى تشبث الفرنسيون بإبقاء المنطقتين السوريتين جبل الدروز وبلاد العلويين منفصلتين عن دولة دمشق ودولة حلب، وكذلك الحفاظ على سلامة أراضي الجمهورية اللبنانية في المقابل عمدت السلطات الفرنسية إلى تشكيل لجنة تأسيسية للإعداد لوضع دستور للدولة السورية كما سبق أن فعلت في لبنان، وعقدت اللجنة أولى جلساتها في 9 حزيران (يونيو) 1928 وبعد فترة من الاجتماعات اتفقت اللجنة على صيغة الدستور للدولة الموعودة وينص على جعل سوريا جمهورية برلمانية لها سلطة تنفيذية، لكن المفوض السامي أجل الموافقة على الدستور مما أثار موجة من الاحتجاجات منذ مطلع عام 1930 ورافق ذلك سفر المفوض السامي إلى فرنسا والذى أصدر في 14 أيار (مايو) 1930 مرسومين، نص الأول على حل الجمعية التأسيسية، أما الثاني فتضمن الموافقة على دستور البلاد الجديد، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) تم توقيع معاهدة سورية فرنسية لمدة 25 سنة من تاريخ دخول سورية عصبة الأمم. كما حددت أربع سنوات كفترة تجريبية وإذا سارت الأمور على ما يرام أدخلت فرنسا سوريا عصبة الأمم.

منذ مطلع الثلاثينات من القرن العشرين وأمام سرعة ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بدأت تلوح في الواقع مشكلة كانت تقلق بال القادة اليهود وتمثلت بنقص واضح بالموارد المائية لفلسطين مما سوف يسبب بإحباط الجهود الهادفة لتوسيع الاستيطان اليهودي في فلسطين فكان لابد من التطلع إلى مياه نهر الأردن لسد العجز المائي في ذلك الوقت لتأمين استمرارية الاستيطان والمطالبة بالحقوق المائية في وقت لاحق من مياه نهر الليطاني.

لا بد من الاشارة إلى أن الأوضاع السياسية والعسكرية حافظت على بعض الهدوء والبساطة في العلاقة بين الانتدابين البريطاني والفرنسي فيما كانت الحدود شبه مفتوحة بين البلدين، حتى أنه في بداية الثلاثينيات حصل قحط في جنوب سوريا نتج عنه انتقال آلاف السوريين للعمل في فلسطين دون أن يسبب ذلك أية مشاكل قانونية حدودية، وذلك على الرغم من بداية تأزم الأوضاع الداخلية الفلسطينية بين العرب واليهود.

أصدر السير جون هوب سمبسون في العام 1930 تقريراً حول الحولة والحاجة الضرورية للسيطرة عليها عبر استصلاحها، علماً أن الحولة هي المنطقة الفاصلة بين سوريا وفلسطين، وتضم بعض القرى العربية مثلثة الشكل بمساحة حوالي 70 كم مربع، مياهها تتجه نحو بحيرة طبريا جنوباً وتضم إلى جانب بحيرة الحولة العديد من المستنقعات، وقد قال عن المنطقة إنها قابلة للري وتصبح أرضها مهمة، ويبلغ عدد سكانها بين أربعة أو خمسة آلاف نسمة وهم من الفلاحين ويعملون لدى ملاك غائبون.

المراسيم والتعديلات الحدودية بين لبنان وسوريا وفلسطين بدءاً من عام 1930

أصدر المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسوريا غورو مرسوما يحدد فيه خط القمم على سلسلة لبنان الشرقية كحدود فاصلة بين لبنان وسوريا في العديد من المناطق بين البلدين، مع تحديد بعض الأمور العملية للعلاقة بين الطرفين.

مع الإشارة هنا أن المفوض البريطاني آرثر جرانفيل واكهوب قد منح عام 1934 امتياز تجفيف بحيرة الحولة لشركة تحسين الأراضي اليهودية وبرر واكهوب عمله هذا لوفد اللجنة التنفيذية في الأول من كانون الأول (ديسمبر) 1934 بأن شركة تحسين الأراضي اليهودية تملك أموالاً أكثر من أصحاب الامتياز السابقين، وبمنحه امتياز تجفيف الحولة لهذه الشركة يكون قد ساعد بشكل كبير الخطى في تثبيت مطالب اليهود في فلسطين تمهيداً لتأسيس الوطن القومي، علماً أن الشركة لم تلتزم بكافة

القوانين المتبعة بل عمدت إلى طرد العديد من الفلاحين العرب من أرضهم مما زاد في عدد الفلاحين المغتصبة حقوقهم.

أدت سياسة الانحياز والتفرقة التي اعتمدتها بريطانيا تجاه المواطنين العرب في فلسطين إلى ازدياد الغضب الشعبي وبدأت ملامح ثورة شعبية تظهر معبرة عن التململ، في حين أخذت بالتصاعد التدريجي حتى وصلت إلى مرحلة الانفجار عام 1936، وأدت هذه الثورة لنتائج سلبية ضد الوجود البريطاني وخاصة في ظل تصاعد الأعمال العسكرية، في هذا الوقت عمد العرب لنجدة إخوانهم في فلسطين وباشروا بإرسال المساعدات المدنية والعسكرية مما حدا بالبريطانيين لوضع أسلاك شائكة بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني في سوريا ولبنان وفلسطين منعاً للتواصل المدني والعسكري بين العرب، في حين لم يتقيد البريطانيون خلال مدهم الأسلاك الشائكة حرفياً بالاتفاقات المعقودة مع الفرنسيين، فعلى سبيل المثال كان الشريط الحدودي يمر في منطقة البصة بطرفها الغربي أي أن القرية كانت بكاملها تقريبا تقع خارج الانتداب البريطاني وفي منطقة النفوذ الفرنسي بحسب اتفاق عام 1923، ولكن الترسيم البريطاني للحدود عام 1935 أدخلها ضمن نفوذه، فيما عادت سلطات الانتداب البريطاني عام 1936 وأخرجتها من منطقة نفوذها، وفي عام 1949 وبعد الهدنة سيطر عليها اليهود وأدخلت في فلسطين.

من الملاحظ أنه وبعد أن وضعت بريطانيا الشريط الشائك للفصل بين الانتدابين لحصر فلسطين ومنع تقديم المساعدة الخارجية للحد من تصاعد أعمال المقاومة، شقت بريطانيا طريقا حدودية لزيادة الرقابة تبدأ من رأس الناقورة وتنتهي عند سهل الحولة، بينما عمد الفرنسيون من جهتهم إلى شق طريق بين الناقورة ومرجعيون مما أثار غضب البريطانيون واليهود على هذه الطريق فيما برر الفرنسيون حاجتهم إلى هذه الطريق المستحدثة لموقعها الاستراتيجي، عندها عمدت السلطات البريطانية لشراء المرتفعات اللبنانية المواجهة لتلك الطريق من أصحابها دون علم السلطات الفرنسية وهكذا تم

شراء ما تبقى من منطقة المنارة من قبل شخص يهودي لمنع إثارة الريبة والشك لدى الفرنسيين ولكن المالك اليهودي الجديد عاد وتنازل عنها للهاغانا وليس للسلطات البريطانية، علماً أن السلطات البريطانية كانت تنوي جعلها مركزا اقتصاديا آمناً بسبب الهدوء الذي يسود هذه المنطقة من فلسطين خلافاً لبقية المناطق الفلسطينية التي تأثرت بثورة عام 1936، وهكذا برزت معالم الحدود السياسية وأخذت صورتها الواضحة لتظهر الحدود الفاصلة لمنطقتي النفوذ البريطاني في فلسطين والفرنسي في سوريا ولبنان .

كما تجددت الخلافات بين الطرفين اللبناني والسوري لتحديد بعض النقاط الحدودية بين البلدين، حيث تم تعيين القاضي العقاري اللبناني رفيق غزاوي والمهندس زاره بغداسيان لرئاسة اللجنة عن الطرف اللبناني على أن يستعينا بأهل الخبرة من أهالي المناطق المجاورة للأراضي المختلف على حدودها، على أن تباشر اللجنة أعمالها بالاشتراك مع اللجنة السورية للقيام بالأعمال المناسبة والمطلوبة منها.

المراجع:

1- مصطفى الجوني، ترسيم الحدود اللبنانية السورية الفلسطينية وأبعادها السياسية والعسكرية والإقتصادية 1920-2000، دار المحجة البيضاء، 2007، بيروت، لبنان.

2- د. محي الدين السفرجلاني، تاريخ الثورة السورية، دار اليقظة، بيروت لبنان 1961.

3- د. عادل محمود رياض، الفكر الإسرائيلي وحدود الدولة، دار النهضة العربية، بيروت لينان، 1989.

4- إبراهيم عبد الكريم، حدود فلسطين مع سورية ولبنان، دار المنارة، بيروت لبنان، 1998-1999.

5- موشي برافر، حدود أرض إسرائيل في الماضي والحاضر والمستقبل الجوانب السياسية والجغرافية، ترجمة بدر عقيلي، ط1، دار الجليل للنشر والأبحاث الفلسطينية، عمان الأردن، 1990.

انقاذ أراضي البطيحة في الجولان (1934-1935)

ريم دياب

صحفية تعمل على توثيق الصراع السوري الإسرائيلي مقيمة في أمستردام.

لم تتوقف الأطماع الإسرائيلية في الجولان منذ القرن التاسع عشر، وكانت تركز في أطماعها على الأراضي الأكثر خصوبة في بلاد الشام على الإطلاق وخاصة أراضي البطيحة عند مياه طبرية وأراضي الحولة السورية أيضاً، خاصة وأن أبناء الجولان يملكون معظمها، مع ذلك رغم الانتداب الفرنسي والذي كان إلى حد ما يميل للحركة الوطنية السورية بخصوص الجولان بسبب صراعه مع الانتداب الإنكليزي، فهب السوريون لتأسيس شركة لمنع بيع أراضي البطيحة للوكالة اليهودية ودعم ملاكيها الكبار وسميت الشركة الزراعية لإنقاذ أراضي البطيحة، وقد تشكلت لجنة من خيرة أبناء سوريا لدراستها اقتصادياً وقيمتها المائية والزراعية، وتبعها فيما بعد محكمة القنيطرة في عصر زعيم الاستقلال شكري القوتلي لمنع بيع سوريين لأراضي الحولة بالمقابل، وبعد فترة الانقلابات أسست سوريا "الحرس الوطني السوري" وضمّ سوريّين وفلسطينيّين للدفاع عن أراضي الجولان من الأطماع الصهيونية وهنا أعرض عن الأرشيف الفلسطيني الحرص السوري الفلسطيني على عربية أراضي البطيحة.

1.مشروع أراضي البطيحة

الاقتصاديات العربية 1 تموز 1935

عاد وفد الشركة الزراعية لإنقاذ أراضي البطيحة من رحلته في فلسطين. وقد صرح أحد أعضائه بأن البلاد الفلسطينية قد اكتتبت حتى اليوم بثلاثة عشر ألف سهم من أصل عشرين ألف سهم خصصت لها. أما الثلاثون ألف سهم التي خصت بسوريا فقد اكتتب بجزء كبير منها وستغطى الأسهم الباقية منها خلال شهر حزيران الحالي لأن الشركة اتفقت مع آل اليوسف أصحاب أراضي البطيحة ودائنيهم أن يكتتبوا لقاء

حصصهم في الأرض وديونهم بأسهم في المشروع. وبذلك تغطى جميع أسهم الشركة وتبدأ الشركة بإنفاذ مشروعها اعتباراً من الموسم الزراعي المقبل.

2.مشروع البطيحة

الاقتصاديات العربية 15 آب 1935

منذ مدة والصحف تردد خبراً مفاده أن شركة البطيحة الصهيونية والتي كانت المفوضية العليا رفضت الموافقة على تسجيل أراضي البطيحة باسمها، وقد عادت إلى ميدان العمل من جديد وإنها اتفقت مع أصحاب البطيحة على استئجار الأرض لمدة عشر سنوات، بعد رفض الموافقة على البيع القطعي، وأن 200 ألف ليرة عثمانية قد أودعت لاسم المالكين في أحد المصارف ريثما تتم معاملة الإيجار والمعلوم أن شركة البطيحة الوطنية التي كادت تغطي معظم اسهمها لم ترتبط بعقد رسمي مع أصحاب الأرض حتى الآن.

3.طلبات مؤتمر العشائر

الاقتصاديات العربية 15 تشرين الأول 1935

عقد في بلدة الخالصة في الجولان مؤتمر بدوي عام ضم مندوبين عن العشائر الرحّل في الأراضي السورية برئاسة الأمير فاعور، وقد قرر المؤتمرون رفع عريضة بمطالبهم إلى المفوض السامي نلخص أهم ما ورد فيها بما يلي:

إن سكان أراضي البطيحة والحولة والجولان هم بمثابة عشيرة واحدة مرتبطة بوحدة العادات والتقاليد والتبادل الزراعي فلاحة ورعياً. وأهل الجولان الذين يقطنون الجبال لهم حقوق قديمة في سهول الحولة والبطيحة لرعي مواشيهم في السنين القاحلة وفي فصول الشتاء ولولا التجائهم إلى هذه السهول في تلك الأوقات لهلكت مواشيهم بأسرها وعليها مدار حياتهم.

إن حكومة فلسطين سلمت الشركات الاستعمارية اليهودية القسم الأعظم من أراضيهم ومراعيهم هناك بعد أن جففوها بجهودهم، ثم يطلب المؤتمرون السعي لدى حكومة فلسطين بالعدول عن قرارها القاضي بإعطائهم 15 ألف دونم فقط من أصل 25 ألف دونم جففوها بأيديهم. وإعادتها بكاملها إليهم. ثم يبدون تخوفهم من وصول هذه الشركات إلى بقية أراضيهم في البطيحة والجولان فيقترحون استحلال هذه الأراضي من أصحابها آل اليوسف وبيعها للفلاحين أهلها بالتقسيط.

4.مشروع البطيحة

الدفاع 4 آب 1935

استاءت الهيئات الوطنية في دمشق وسوريا من محاولات آل اليوسف الفاشلة لعرقلة سير مشروع البطيحة الوطني واتفاقهم مع شركة أخرى لم تؤلف إلا لمعاكسة الوطنيين في أعمالهم، أما الغاية التي أُلّفت لأجلها الشركة فظاهرها استرهان أراضي البطيحة واستثمارها تسديداً لديون آل اليوسف. ولكن هذه الحيلة لم تغب على الوطنيين الذين عرفوا فيها أنها وسيلة من الوسائل لوضع اليد على هذه الأراضي إلى أن يتمكنوا من إزالة الخطر القانوني المانع من بيعها للصهيونيين وبعد ذلك يبيعونها إليهم والذي يؤيد هذا عدم قبول آل اليوسف عقد أي اتفاقية مع شركة مشروع البطيحة الوطنية التي تقدمت إليهم بشروط أحسن من شروط اليهود. ولكن الوطنيين المخلصين في دمشق سيقضون على هذه المناورات الفاشلة.

5.أراضي البطيحة

الدفاع 10 أيار 1934

قابل أحد محرري مكتب الأخبار الدمشقي بعض الزوار الفلسطينيين وسأله عن رأيه في الشركة المزمع انشاؤها فأجاب بما يلي:

على الحكومة السورية أن تسرع في تأليفها وتعمل على مُعاضدتها بمختلف الوسائل الفعالة وإلا ظلت أراضي البطيحة متروكة مهملة من قبل أبناء هذه البلاد فيتناولها الصهيونيون لقمة سائغة كما حدث في قضية "وادي الكبد" فلقد عرضته الحكومة على الأهلين بعد أن أقيمت في سبيل اقتنائه جملة صعاب فأما عجز الأهلون عن الاحتفاظ به لم تجد الحكومة الفلسطينية مندوحة من بيعه للصهيونيين وقد يكون هذا نصيب أراضي البطيحة إذا لم يسرع السوريون حكومة وشعباً بتشكيل شركة الإنقاذ والمؤازرة الكلامية في مثل هذا الموطن لا تغني شيئاً لا سيما بعد أن اتصل بي بأن دعاة الصهيونية أخذوا يتذرعون بمختلف الوسائل لدى المراجع الإيجابية العليا لتملك هذه الأراضي.

6.وفد شركة البطيحة في مكتب الشباب

الأوقات العربية 18 أيار 1935

وكذلك زار المكتب حضرة الوطني المخلص محمد بك النحاس مدير شركة انقاذ أراضي البطيحة والجولان والمهندس الزراعي الأستاذ الحسامي فاستقبلهما رئيسه واعضائه وتحادثوا في شؤون زراعية كثيرة أهمها إنشاء المدرسة الزراعية ومشروع أراضي البطيحة. وودّعوا كما استقّبلوا.

7.تقرير فني عن استثمار البطيحة والجولان

الاقتصاديات العربية 15 أيار 1935 و1 حزيران 1935

"أنشأت الصحف، مؤخراً، تذكر مشروع استثمار أراضي البطيحة والجولان وتحض على تشجيعه والاشتراك به. وقد ورد على إدارة هذه المجلة تقرير فني عنه، جمع من المعلومات القيمة ما يجدر بالقراء الاطلاع عليه. والواضع لهذا التقرير لجنة مؤلفة من أرباب الخبرة والفن من كبار الملاكين والزراع والمهندسين الزراعيين وهم السادة: وصفي زكريا، وتوفيق المالكي، ونوري ايبش وأمين الدالاتي.

لذلك رأينا أن ننشره على صفحات (الاقتصاديات العربية) لتطلع عليه جمهرة القراء ولينسج على منواله الخبراء الزراعيون في دراسة مثل هذه المشاريع العمرانية والحيوية. وإلى القراء نص التقرير مع خريطة وضعناها خصيصاً لهذا المشروع".

بحث البطيحة:

البطيحة قرية كبيرة عظيمة الشأن كثيرة الغلال لا نظير لها بين قرى سوريا وفلسطين قاطبة في اتساع المساحة وحرارة الإقليم وطيب الأديم وغزارة الماء وجودته وحسن الموقع وقربه. فهي قد جمعت أجلّ الشروط وأفضل المزايا الصالحة للاستغلال والاستثمار الزراعيين المنتجين للأرباح الطائلة فيما إذا مهدت سبل العمل فيها وحسنت إدارتها. وهي ليست قرية واحدة بل تتألف من سبع عشرة قرية صغيرة ذات جبال وأودية وسهول وأوعار وعيون وأنهار وينابيع ايراد عديدة سيأتي ذكرها.

أولاً: الموقع الجغرافي

قرية البطيحة في ناحية الزوية من أعمال قضاء درعا في حوران، تقع في منتهى الحدود السورية. وعلى الساحل الشرقي من بحيرة طبرية. يصل إليها القاصد من دمشق بالسيارة عن طريق القنيطرة فالجوخدار ففيق في طريق لم تُعبّد بعد القنيطرة، وهذه الطريق طويلة بعيدة (145 كم) وكان الأحرى أن يفتح إلى البطيحة طريق مختصرة من شماليها طولها ثلاثة عشرة كيلومتراً تربطها بالطريق الممتدة من القنيطرة إلى جسر بنات يعقوب فيصبح بعدها إذ ذاك عن دمشق مئة وكيلومترين تقطعها السيارات بساعتين أو ثلاث. ولما كان جسر بنات يعقوب الواقع على التخوم الفلسطينية قريباً من الحدود اللبنانية، كما أن طبريا تناوح البطيحة ولا تبعد عنها في البحيرة أكثر من ساعة، أصبحت البطيحة في الفصل المشترك لحدود البلاد السورية واللبنانية والفلسطينية أي في موقع جغرافي بديع يجعل لمنتجاتها ومحاصيلها منافذ قريبة وسهلة المنال جداً.

ثانياً: الحدود

يحدّ البطيحة من الجنوب قرية النقيب الفلسطينية، ومن الشرق قرى الجولان العائدة لآل اليوسف والمعروضة للبيع مع البطيحة، ومن الشمال قرية الويسية والجعاتين العائدتان لأهلهما، ومن الغرب نهر الشريعة وبحيرة طبريا.

ثالثاً: الإقليم

إنّ مستوى بحيرة طبريا منخفض عن مستوى البحر، وهو في البطيحة الواقعة في شمالي البحيرة 186 متراً وفي منتهاها الجنوبي (210 أمتار). فهذا الانخفاض الهائل جعل البطيحة داخلة في إقليم الغور المعروف في الأبحاث الجغرافية بشدة حرّه بالنسبة لبقية أقاليم سورية. ودرجة الحرارة المتوسطة السنوية في البطيحة لابد أن تضارع هذه الدرجة التي حسبت في بلدة طبريا بأنها 25.90، كما أن معدل كمية الأمطار السنوية فيها يضارع معدل كمية الأمطار في طبريا المقدر بنحو 487 مليمتراً.

وجو البطيحة يُعد رطباً بحكم مجاورتها لبحيرة طبريا. فإقليمها إذن حار رطب تصل درجة الحرارة العظمى فيه في الصيف إلى 45 في الظل ولا تهبط الدرجة الصغرى في الشتاء إلى أقل من 4-5، لهذا يكون صيفها شديد الحر وشتاؤها دافئاً. ينبت من جراء ذلك فيها خلال الشتاء معظم أنواع الزروع والخضراوات وأثمار الأشجار فلا تعرف صبارة القر ولا تخشى وطأة الصقيع وتنمو وتنضج قبل أوانها في بقية المناطق السورية والفلسطينية، أو تتأخر في الخريف إلى ما بعد ذلك الأوان. والرياح السائدة في البطيحة هي الغربية التي كثيراً ما تهب خلال الصيف وتخفف شدة الحر، بعكس الشرقية فإنها تزيده.

رابعاً: نبذة تاريخية

قلنا إن البطيحة ليست قرية واحدة بل تتألف من سبع عشرة خربة رومانية أو قرية صغيرة قديمة، منتشرة من شمالي البطيحة إلى جنوبها. واسماؤها الرفيد والمساكبة والدكة وقلعة القصب وتل الأعور ودردارة وغزيل والمحجار والقصير والحسينية والجبيلية وقطوع الشيخ علي والمسعدية والدوكة وكفر عاقب والسيبة والكرسي. وثمة

قنوات سيأتي ذكرها احتفرها الأقدمون وجروا فيها مياه الشريعة، وكانوا يروون بها كل أراضي البطيحة الشاسعة. وكثرة هذه القرى القديمة وانتشارها وامتداد القنوات التي ذكرناها، وظهور بعض قطع أثرية كتيجان وقواعد أعمدة وعتبات منقوشة في موقع البناء الذي يدعى "الحاصل" فضلاً عن الأطلال الظاهرة فيه وفي غيره... كل ذلك يدل على ما كانت عليه أراضي البطيحة في القرون الغابرة من العمران والازدهار. وإن الأقدمين كانوا يقدرونها قدرها ويحسنون استغلال أراضيها الخصبة وارووائها بمياه الشريعة الفياضة.

خامساً: السكان والأيدي العاملة

يقطن أرض البطيحة في يومنا أعراب من سكان بيوت الشعر ينتسبون لقبيلة تدعى التلاوية ذات أفناد "حمائل" شتى، يقيمون حول الخرب الرومانية التي ذكرناها وقد اختص بكل واحدة منها فند من القبيلة.

وعدد الأعراب المذكورين يقدر بألفين ما برحوا في جلفة البداوة وجهلها وخمولها بحكم انعزالهم في بطيحتهم الحارة منذ أمد بعيد وهم يستثمرون أراضي البطيحة بصفة كونهم مزارعين عند ملاكيها آل اليوسف. وقد تقاسموها على أنها 240 فداناً. وهم لفقرهم وعجزهم لا يشدون أكثر من ثلثي هذا المقدار ولا يكترثون بمياه الري إلا قليلاً ولا يعتمدون إلا على الأمطار لذلك ظل نحو نصف أراضيها لاسيما الجنوبية منها بوراً ومرعى لجواميسهم وبقية مواشيهم ومواشي غيرهم ممن يهبطون البطيحة ويشتون فيها. ومادامت حال هؤلاء على ما وصفناه فلا عجب أن تكون هذه الأراضي الجليلة القدر في حالتها الحاضرة من التأخر والبوار اللذين يرثى لهما. ولعل الصعوبة الوحيدة التي ستقف في وجه هذا المشروع هي حالة هؤلاء الأعراب التي ذكرناها لاسيما كسلهم وإعراضهم عن السعي والعمل والاكتفاء بالقوت اليسير والرزق الضئيل. على أنه لما كانت اليد العاملة في البطيحة الآن هي منهم دون غيرهم وأجرتها ضئيلة بالنسبة لبقية الأماكن، وحيث أن جلب فلاحين أو عمال من بقية المناطق إلى البطيحة ذات الإقليم

الرطب الحار ليس بالأمر السهل، لهذين السببين يجدر بالشركة المرجو تأليفها أن تعتمد على هؤلاء في زراعة الأنحاء البعيدة وفي الحفر والنقب والعزق وغيرها من الأعمال المؤقتة التي تجري بالمياومة في الأراضي السقوية التي ستختصها لنفسها فتنتفع هي من أقسامهم التي يستنتجونها والأيدي العاملة التي يقدمونها وينتفعون هم من الأموال التي ستبذلها في سبيل التأسيس والاستثمار، وهذا على أن تهتم في أمر هؤلاء وتسعى لإرشاد كبارهم وتعليم صغارهم بالقدر الكافي، لعلهم يتحضرون تدريجياً وتتبدل أطوارهم يوماً بعد يوم.

أما بساتين الخضراوات والأشجار وبقية الأعمال الدقيقة فهي لا يمكن الركون فيها على أولئك الأعراب مطلقاً. ولابد من السعي لجلب بستانيّين مع عائلاتهم من المناطق التي اشتهرت بإتقان تلك الأعمال واستخدامهم بصفة أجراء ومرابعين في مساعي الشركة حسب الأصول المتعارف عليها في زراعة البساتين المباشرة، على أن يتم تهيئة مساكن مناسبة لتلك العائلات ويعنى بصحة أفرادها كما يعمل في مستوطنات الصهيونيين المؤسسة حول بحيرة طبريا التي استأنس ابناؤها بالإقليم والبيئة على توالي السنين ودوام الاعتناء.

سادساً: الوضع الطبغرافي والمساحة

تتألف أراضي البطيحة من قسم سهلي وقسم جبلي، ويزعم ملّاكوها أن مساحة القسمين تبلغ 53.980 دونماً، (الفدان المصري يعادل نحو خمسة دونمات إلا قليلاً، فتكون المساحة المذكورة أعلاه معادلة لعشرة آلاف وخمسمائة فدان مصري) استناداً على المسح الذي أجراه الرسام توفيق طارق بيك وقيده على الخريطة التي لم نتوصل إلى أصلها، فلم نتمكن من التثبت مما ذكر، على أن قسم الجبل يؤلف بلا ريب ثلثي المساحة المذكورة وقسم السهل ثلثها.

سابعاً: تحديد قسم الجبل ووصفه

يتألف قسم الجبل من هضاب وحزون منبسطة أو منحدرة انحداراً خفيفاً متصلة بالسهل المذكور آنفاً وترتفع تدريجياً من الغرب إلى الشرق وتتخللها بعض أودية تفصل بعض بقاعها عن بعض، وهي بركانية التشكل تكثر فيها الصخور والأحجار البازلتية السوداء كثرة هائلة في بعض المواقع. وتربتها طينية رملية مندمجة حمراء أو سوداء تصلح في أماكنها القليلة الأحجار لكل أنواع الزروع. في أماكنها الكثيرة الأحجار لغرس بعض الأشّجار المثمرة كالعنب واللوز والفستق والتين والزيتون وغير المثمرة كالسنديان والبطم. على أنّ من أهم أعمال الإصلاح في هذا القسم الجبلي هو رفع وجمع هذه الأحجار بالتدريج وعاماً فعاماً لتزداد بذلك مساحة الأرض الصالحة لمختلف الزراعات. وإذا صحت المساحة العامة المذكورة آنفاً تكون مساحة هذا القسم الجبلي المفروض أنه ثلثاها 35 ألف دونماً ونيف، وإذا أخرج منها نحو نصفها أو أكثر من الأراضي الصخرية الحجرية المعطلة يبقى نحو 15 ألف دونم، ثلثها قابل للري وثلثاها بعل لا سبيل لإروائه، كالأراضي التي تدعى حمرة غزيل والجبلية وكنف التحتا والسيبة مع التنويه بأن القسم المعطل بسبب وفرة الأحجار والصخور يمكن غرس أشجار الحراج في كثير من أرجائه فضلاً عن أنّ بين تلك الأحجار والصخور ينبت العشب الصالح لرعي الغنم والماعز، كما أن أراضي البعل التي ذكرنا أسماءها خصبة تنتج حبوباً غاية في الجودة وثقل الوزن.

ثامناً: تحديد قسم السهل

أما قسم السهل الذي هو بيت القصيد في المشروع فيبدو للناظر إليه من علٍ، أي من هضاب الجولان كمنبسط هلالي الشكل يستطيل من الشمال إلى الجنوب بين ساحل بحيرة طبرية في الغرب وحضيض هضاب الجولان وأوديته في الشرق. ويقدر طوله بنحو 12 كيلو متراً ومتوسط عرضه بكيلو متر ونصف، ويتخلل هذا السهل جداول وأودية عديدة تجعل مساحته 18 ألف دونم، كلها قابلة للري من قناتي الشيدة والعفريتية اللتين سيأتي ذكرهما: الأولى تروي ثلثه الشمالي والثانية تروي ثلثيه الأوسط والجنوبي.

وتربته مؤلفة من فتات صخور البازلت ورواسبها وهي طينية رملية مندمجة في أنحائه الشرقية. ورملية طينية خفيفة في أنحائه الغربية، وتزداد هذه الخفة كلما اقترب من شاطئ البحيرة. ويكثر فيها من الأنجم والأشواك الخرينيبة والعاقول والسوس والصفلين، ومن الأعشاب النجيل والرزين، ومن الأشجار السدر والدفلى والغار. وهذه النباتات الضارة وإن كانت تدل على الخصب وطيب الأديم، لكنها تدل خاصة على الإهمال وضعف العناية بالحراثة وتنظيف الأراضي.

وتربة هذا السهل وإن لم يتيسر حتى الآن تحليلها الطبيعي والكيماوي لكنها لدى التدقيق والإمعان تظهر شديدة الخصب قوية الانبات بشكل يندر وجوده في بقاع سورية. فمن أجلِ الأدلة على ذلك، أولاً: إن هذه التربة بركانية مؤلفة من رواسب صخور البازلت المعروفة بوفرة موادها المخصبة، ثانياً: الدورة الزراعية السقيمة المنهكة للقوى التي يتبعها أهل البطيحة، فهم ما برحوا منذ عشرات من السنين يستغلون من رقاع الأرض المبعثرة هنا وهناك التي اقتصروا عليها وانتقوها ثلاثة مواسم متتالية بعضها وراء بعض على الرغم من أن حراثتهم ضعيفة لا تنفذ في الأرض أكثر من 5–6 سنتمترات، وأنهم لا يكترثون بإزالة الأعشاب والأشواك الضارة ولا يسبتون الأرض ولا يريحونها أبداً. فهم إذا حصدوا القمح يعقبونه بالذرة التشرينية، وإذا قطفوا الذرة التشرينية يعقبونها بالذرة الصيفية، وإذا قطفوا هذه بذورا وراءها القمح وهكذا دواليك. ولا يخفى ما للقمح وخصوصاً الذرة من الأثر في إنهاك قوى التربة واستنفاد موادها الغذائية.

ثالثاً: مابرحوا منذ أن تعلموا زراعة الخضراوات ونخص بالذكر منها البندورة والباذنجان والخيار يزرعونها دون تسميد وهم يجهلون استعمال السماد أو لا يرون به حاجة، ويبيعون أسمدتهم المتراكمة منذ عشرات من السنين في مزارب المواشي إلى الصهيونيين، ولا يعتنون بإزالة الأعشاب والأشواك. على الرغم من هذه النقائض فإن الخضراوات المذكورة التي لا يمكن استنباتها في أية أرض في سورية وغيرها، دون سماد، تنبت في البطيحة وتجود جودة تذهل الألباب.

ومن أدلة خصب الأرض ما ذكر لنا بعض القائمين بإدارة البطيحة أن القطن المصري الذي زرعوه للتجربة جاد جودة، وغل غلة، فاقتا حالاته في مصر. وجربوا أيضاً قصب السكر فنما وتضخم أكثر مما يكون في سواحل لبنان. وكذلك الباmياء فإنها تعلو وتعرض حتى يكاد يظنها الرائي شجرة خروع. ومثلها الشوندر والبطاطا والفصفصة والبطيخ الأحمر والأصفر وغيرها.

تاسعاً: الري

أما الري فالبطيحة لا نظير لها في أقطار سورية بكثرة قنواتها وجداولها وفي غزارة مياه هذه القنوات والجداول وفي غناء هذه المياه بالمواد الخصبة، ففي البطيحة:

1.نهر الشريعة أحد أنهار سورية العظيمة التي قدرت كمية مياهه فيما قيل، في موسم القيظ عند مصبه في بحيرة الحولة خلال الثانية الواحد باثني عشر متراً مكعباً، وفي موسم الفيض بستين متراً مكعباً، أي ما يعادل ضعفي كمية مياه نهر بردى عند وصوله إلى الهامة. فنهر الشريعة بعد خروجه من بحيرة الحولة ومروره من تحت جسر بنات يعقوب سائراً من الشمال إلى الجنوب يجتاز وادياً سحيقاً محصوراً بين هضاب مرتفعة، الشرقية منها إلى سورية والغربية إلى فلسطين. وقد بنى الأقدمون في ضفته اليسرى في أراضي الرفيد في نقطة عالية من مستوى سهل البطيحة سداً وشقو قناة كبيرة سموها (العفريتية) يبلغ عرضها الآن نحو 125 سنتمتراً وعمقها 30-40 سنتيمتراً تجري في سفح الهضاب الشرقية المذكورة مسافة ثم تنحرف نحو الشرق وتسير في المنبسطات الجبلية المحيطة بسهل البطيحة من شمالي أراضي تل الأعور وشرقي أم عجاج، ثم تنحرف نحو الجنوب فتجتاز وادي الصفا ثم تمر من شرقي قريتي غزيل والحسينية إلى ما يقرب من نصف السهل ثم تضيع فيبلغ طولها بهذا التقدير زهاء عشرة كيلومترات. وتدل آثار هذه القناة على أنها كانت تصل إلى آخر الحدود الجنوبية للسهل المذكور وتروي جله إذا لم نقل كله.

فهي في حالتها الحاضرة أي في صغر سدها وقلة عرضها وعمقها وامتلاء قاعها بالطمي والأحجار ونقص العناية بكريها وسد شقوقها تروي نحو ألفي دونم وتنتج الخضراوات والشتول التي اشتهرت بها البطيحة. فلو أنفق على هذه القناة المبالغ الكافية ورفع سدها، وعرّضت، وشيّد جدارها الغربي وأحّكم لمنع تسرب الماء، ومهّد قاعها ونظّف وعُملت لها الجسور في أودية الصفا والدالية وزبيد، إذا تمّ ذلك يمكن أن تروي نحو 12 ألف دونم قليلها في جزء من الجبل وكثيرها في الجزء الأوسط والجزء الجنوبي من السهل حتى آخر الحدود القبلية من البطيحة، أي أنها تعود لما كانت عليه في العصور الغابرة تروي وتشبع معظم السهل، مادام موردها من نهر الشريعة العظيم تأخذ منها الكمية التي تعوزها. أما الجزء الشمالي من السهل فله قناة خاصة قديمة ذكرت في المادة الثانية.

2.في البطيحة قناة ثانية شقها الأقدمون من نهر الشريعة أيضاً تدعى (قناة الشيدة) أوطأ من القناة الأولى تنحدر جنوباً نحو الجزء الشمالي من السهل فتروي مساحة تقدر في يومنا بألفي دونم. ويمكن إذا أصلح مجراها المتشعث إصلاحاً حسناً وعرّضت وعمّقت أو رفع مجراها إلى مستوى أعلى من مستواها الحالي، إن توفر على العفريتية إرواء جزء كبير من أرض السهل الممتد من شرقي المسعدية إلى ما بين وادي زبيد ووادي الصفا. فتبقى مياه العفريتية محفوظة وموفرة إلى الأراضي الجنوبية البعيدة كما قدمنا وحينئذ تبلغ مساحة ما ترويه قناة الشيدة 6 آلاف دونم.

3.في البطيحة أودية عديدة تنحدر من جبال الجولان وهضابه وتفيض بالمياه شتاءاً فمنها ما ينقطع في الصيف ومنها ما يظل جارياً ويستفاد منه بسقي الأراضي كوادي الصفا ووادي الدالية. فقد شقوا من وادي الصفا أربع قنوات: اثنتين في أرض القراعنة وتسميان قناة الرش الفوقا وقناة الرش التحتا، واثنتين في أرض الديابات وتسميان قناتي البساتين، وتروي الأربع قسم الجبل بما يقدر بألف وخمسمائة دونم.

4.في البطيحة عيون كثيرة تنبجس من حضيض الهضاب المحيطة بها يشرب الأهلون بعضها ويروون مساحةً من حواكيرهم وحقولهم تُقدر بخمسمائة دونم كما هي الحال في قناة الباشا التي تأتي من عين المسمار وتروي بستان البرتقال الواقع غربي بناء الحاصل.

5.وهناك أيضاً مكان لشق قناة ثالثة من الشريعة أعلى من العفريتية يؤتى بها لتركب أرض الرفيد ومرج الديابات وغيرهما في قسم الجبل، فإذا تم تحقيق ذلك يمكن إرواء مساحة تقدر بألفي دونم، على ما تقدم فيكون مجموع أراضي السقي كلها 22 ألف دونم، ومما يذكر من عجيب أمر مياه الشريعة الآتية في هذه الأقنية أنها تحمل في طيها عصارة النباتات المهترئة في بحيرة الحولة التي تمر بها رواسب أودية الجولان المجاورة لها فضلاً عن تحللها بشمس تلك الأنحاء الشديدة الوهج، فهي في خصائصها هذه من أجود وأنفع مياه الري، وكذلك المياه في وادي الصفا وغيره.

هذا وبعد أن أوضحنا حالة التربة والمياه يمكن أن نلخص عوامل الخصب وبواعثه في أراضي البطيحة بالأمور الآتية:

1. شدة حر الاقليم وخلوه من الظواهر الجوية الضارة.

2. كثرة القنوات والجداول وتشعبها وغزارة مياهها الآتية من نهر الشريعة وغيره وغناء هذه المياه بالرواسب.

3. زكاء التربة ومقدرتها على الانبات في شكل يكاد يحسب منقطع النظير.

عاشراً: مقايسة بين أراضي البطيحة وأشهر سهول سورية وفلسطين

لا يخفى أن أخصب أراضي سورية وفلسطين وأزكاها تربة هي في سهول العمق والغاب والروج والبقيعة والغوطة والحولة وغور بيسان وغور الكبد وأمثالهما من الأغوار. فأرض البطيحة تفوق الأراضي المذكورة كلها بسبب المزايا الثلاث العالية التي ذكرنا وجودها فيها، يضاف إليها مزيتا الموقع الجغرافي ورخص اليد العاملة. وهذه المزايا غير متوفرة

بكاملها في أية أرض من الأراضي المذكورة. وإن وجد بالفرض بعضها لا يوجد البعض الآخر. فإذا افترض أن أراضي العمق والروج والغاب والبقيعة والغوطة زكية التربة قوية الانبات بقدر البطيحة نجد مستواها أعلى من مستوى البحر واقليمها أبرد من اقليم البطيحة وجوها معرض دائماً للأنواء والتقلبات الضارة بنمو النباتات ونضجها. وهي تحت رحمة الأمطار في الغالب لا غزارة في مياهها ولا دسامة. وموقعها الجغرافي بعيد عن المنافذ التجارية الكبيرة وأجرة اليد العاملة أغلى وإذا افترض أن أراضي الحولة والأغوار ذات موقع جغرافي وإقليم وتربة معادلة لما في البطيحة، فمن أين لهذا وتلك، نهر الشريعة وغزارة مياهه المتوفران في البطيحة؟ لهذا يمكننا أن نجهر بأن البطيحة منجم ذهب لا نظير له في البلاد السورية والفلسطينية بالمزايا والخصائص المطلوبة للاستغلال والاستثمار الزراعيين الموجبين للأرباح الطائلة.

إحدى عشر: الزروع

إذا عرفنا المزايا العالية التي خصتها القدرة بسهل البطيحة تبين أنه بالإمكان أن يزرع فيها معظم المحاصيل التي تنبت وتجود في الأقاليم المعتدلة والأقاليم الحارة. فمن الحبوب: القمح والشعير والذرة الصفراء والبيضاء. ومن القطاني: الحمص والترمس والعدس واللوبياء. ومن نباتات العلف: الفصفصة والبرسيم والحلبة والبيقية والشوندر العلفي. ومن النباتات الليفية القطن والكتان والقنب. ومن النباتات السكرية: قصب السكر والشوندر السكري. ومن النباتات الزيتية: السمسم وفستق العبيد والخروع. ومن النباتات الصباغية: النيلة والحنة والخشخاش والعصفر... كل هذه يمكن استنباتها وفاقاً لدورة زراعية تنظم حسب الشروط الاقتصادية والاعتبارات الفنية.

إثنا عشر: الخضراوات

أما صلاحية أرض البطيحة للبستنة الخضرية لاسيما للخضراوات المبكرة التي تأتي قبل أوانها فيما يستدعي العجب. ويكفي أن نذكر كمثال، أن جميع شتول البندورة والباذنجان التي تغرس في بساتين دمشق وغوطتها يؤتى بها من البطيحة كل سنة منذ

أواسط نيسان فتربو وتطعم قبل الشتول المولدة في دمشق بأسابيع. ونذكر أيضاً أنه في شهر أيار وحزيران لسنة 1934 دخل إلى جيوب مزارعي البطيحة الذين أشرنا لجهلهم أمور البستنة وكسلهم وضعفهم، ألفا ليرة عثمانية ذهبية من ثمن البندورة التي أطعموها إلى أهالي دمشق وبيروت وحيفا وغيرها من مدن سورية وفلسطين خلال الشهرين المذكورين اللذين لم يكن فيهما أثر للبندورة فيما سوى البطيحة. ففي البطيحة إذن يمكن الحصول على ربح جزيل بزراعة بعض أنواع هي بحسب الترتيب والمكانة: البندورة، والخيار، والبامياء، والباذنجان، والكوسى، والفاصولياء، والبطاطا، والفول، والبطيخ، والملفوف والقرنبيط. وكل منها ينبت قبل أوانه أو يتأخر لبعد أوانه في بقية المناطق السورية والفلسطينية بشهر ونصف أو شهرين ويباع بأسعار عالية. ولا تستطيع المحاصيل الباكورية أو المتأخرة التي ترد من القطر المصري وبعض أنحاء فلسطين أن تزاحم محاصيل البطيحة بسبب قرب المسافة والطراوة والجودة، تلك المزايا المتوفرة في محاصيل البطيحة أكثر من غيرها.

الثالث عشر: الأشجار

أما الأشجار ففي البطيحة مجال واسع وامكان نادر المثال لاستنبات أجود الأثمار والفواكه التي تحصل عادة في الأقاليم الحارة، كأشجار الحمضية على اختلاف أنواعها وأصنافها مثل: البرتقال والليمون الحلو والليمون الحامض واليوسفي والكباد، وكأشجار القشطة والزبدة والجوافة والمانكا والموز والبلح، هذا عدا أشجار الأقاليم المعتدلة والحارة كالمشمش والسفرجل والدراقن والخوخ والإكيدنيا والرمان.

وعدا الأشجار التي يمكن زراعتها في أراضي القسم الجبلي ذات الأحجار البركانية كاللوز والعنب والتين والزيتون والبطم الذي يطعم عليه الفستق الحلبي. وعدا الأشجار غير المثمرة الصالحة للخشب والحطب التي يمكن غرسها في قسم السهل في الأراضي الرطبة (كالكازوارينا) و(الاوكاليبتس) اللذين يجدان هنا أحسن موطن لهما.

الرابع عشر: الادارة الحالية في البطيحة ووارداها

كان آل اليوسف ملاكو البطيحة، يديرون أمورها بواسطة وكيل لهم دأبه جباية الأقسام وهي ثلث الغلال الناتجة لدى الأعراب التلاوية مهما كثرت أو قلت. ثم منذ عهد قريب أجروها كلها لمدة ثلاث سنوات تنتهي في غاية أيلول 1934. وكان بدل الإيجار في السنة الأولى (900) ليرة عثمانية وفي كل من السنتين الثانية والثالثة (1100) ليرة. وقد سار المستأجر الحالي على سنة وكيل الملاكين أي اقتصر على جباية الأقسام فحسب، فلم يقم بزراعة مباشرة على حسابه كما أن الملاكين أنفسهم لم يقوموا في السنين التي مضت بأية زراعة من هذا القبيل، سوى تجربة صغيرة لزراعة القطن المصري. وهناك بستانان للبرتقال غرسوهما قبل الحرب العامة بزمن: أحدهما كان غربي تل الأعور، دثر بالكلية، والثاني لايزال قائماً غربي بناء الحاصل تقرب مساحته من عشر دونمات لكنه في حالة غير مرضية. وهناك بضعة أشخاص من أعراب التلاوية غرسوا لأنفسهم بساتين صغيرة في أماكن مختلفة ربما لا يتجاوز عدد أشجارها الثلاثمائة من البرتقال وغيره لا تختلف عن حالة اولئك الأعراب التي وصفناها سابقاً.

الخامس عشر: طراز الإدارة الزراعية الجديدة وأهدافها

إنّ اتساع المساحة في قسمي السهل والجبل يحول دون استثمارها بأجمعها من قبل الشركة. لهذا نرى أن تختص الشركة لنفسها بجل قسم السهل إنْ لم يكن كله، وتؤجر البقية منه وقسم الجبل بأجمعه- ماخلا بعض قطع تخصصها لزرع الأشجار المثمرة وغير المثمرة- إلى المزارعين من أعراب التلاوية على أن تضعهم تحت إرشادها وتسير أعمالهم وفقاً لتعاليمها.

والهدف الأساسي التي يجب أن تتجه إليه أنظار الشركة فيما تختص لنفسها من قسم السهل هو زراعة الخضراوات الباكورية والمتأخرة وزراعة الأشجار المثمرة، أو بعبارة أخرى البستنة الواسعة المستندة على استغلال محاصيل من أجود الأنواع والأصناف وأطيبها تأتي قبل أوانها وتباع بأسعار عالية لا تدع مجالاً لمزاحمة بقية الأماكن.

لهذا على الشركة أن تضع نصب عينيها من السنة الأولى اقتطاع مساحة عشرة آلاف دونم من قسم السهل وزراعتها مباشرة بعمالها ووسائلها من مختلف الخضراوات والزروع الشتوية والصيفية المذكورة آنفاً.

وكذلك غرس مساحة لا تقل عن أربعة آلاف دونم خلال ثمان سنوات متوالية أي في كل سنة خمسمائة دونم من أشجار الحمضية يُضاف إليها من كل أنواع الأشجار التي تقدم ذكرها في المادة 13 عدد كاف، فيبلغ مجموع مساحات عمل الشركة المباشر في ختام السنين الثماني الأولى إلى أربعة عشر ألف دونم تزيده إذا شاءت وتمكنت فيما بعد، على أن يقسم المجموع، مع ما يلحقه من بقية أراضي السقي والبعلية في السهل والجبل المؤجرة إلى الفلاحين، إلى ثلاث مناطق متساوية تجعل الإدارة المركزية في المتوسطة منها ويجعل في كل من المنطقتين الثانية والثالثة فرع يحوي ما يحتاجه من المباني والعمال والدواب والأدوات. ويعهد إلى إدارة المناطق الثلاث إلى نظار الزراعة يكونون مسؤولين تجاه المدير المقيم في المركز يتلقون منه الأوامر والخطط وينفذونها تحت إرشاده وإشرافه مستعينين على ذلك بعدد كاف من الأجراء والمرابعين وشواة الماء والسواس والحراس وغيرهم من العمال الذين يؤتى بهم من خارج البطيحة- فيزرع كل ناظر في منطقته في كل سنة نحو 1600 دونم من مختلف الخضراوات منها مثلاً 400 بندورة و150 باذنجاناً و200 بطاطا و100 خياراً وكوسى و550 فولاً أخضر و100 من بقية أنواع الخضراوات. ويزرع أيضاً نحو 1730 دونماً من مختلف الزروع منها مثلاً 1000 قمحاً و300 شعيراً و430 قطاني وفصفصة. كل ذلك وفاقاً لدورة زراعية متناسبة مع الشرائط الاقليمية والاقتصادية. ويغرس نحو 166 دونماً من أشجار الحمضية يضيف إليها ما يمكن أن يغرس أيضاً في أطراف المقاسم المخصصة للزراعة الحضرية من مختلف الأشجار المثمرة التي تقدم ذكر اسمائها. وتقتطع المنطقة المركزية من أصل مساحتها نحو 200 دونم تخصصها للمشاتل لتهيئة الغراس المثمرة وغير المثمرة اللازمة لأراضي البطيحة والجولان في السنين الآتية. ويمكن أن تزاد مساحة هذه المشاتل في المستقبل إذا احتيج إلى ذلك أو أمكن بيع منتجاتها في الخارج.

ولما كان الأعراب التلاويون المزارعون لدى الشركة فقراء ضعفاء كما قدمنا، ولا يملكون البذار والبقر الكافيين، لابد في السنين الأولى من إقراضهم ما يحتاجونه من ذلك ريثما يتقوون وتتحسن زراعتهم وتكثر محاصيلهم التي يرجع ثلثها للشركة حسب الأصول المتبعة.

السادس عشر: تربية المواشي

من أكبر ينابيع الإيراد في مشروع البطيحة تربية المواشي من غنم وماعز وبقر وذلك لسعة أبوارها وأوعارها وزكاء الكلاء الذي ينبت فيها. لهذا ينبغي أن يكون لدى إدارة الشركة حينما تتيسر الأسباب الإدارية والاقتصادية قطعان عظيمة لا تقل عن 4000 إلى 5000 رأس من الغنم والماعز تعهد بإدارتها إلى رعاة أمناء أكفاء فتشتي هذه القطعان في أودية البطيحة الدافئة وتصعد عند حلول الربيع والصيف إلى أراضي الجولان العائدة للشركة أيضاً، وذلك بالنظر إلى أن الغنم يتعذر عليها العيش في حر البطيحة بخلاف الماعز الذي لا يكترث بالحر. أما الجاموس المنتشر في يومنا بكثرة في البطيحة ومياهها فينبغي رفعه وإخلاء البطيحة منه بتاتاً بالنظر لإضراره بالأشجار والخضراوات وقنوات المياه. واستبداله بالبقر الحلوب بعد أن ينتخب منه عرق صالح للعيش والنمو في إقليم البطيحة فيربى تربية فنية ويغذى بنباتات العلف التي تزرع له خاصة ويستدر منه حليب يقلب إلى زبدة وجبنة في معمل خاص لدى إدارة البطيحة ويشحن إلى كل الجهات. وكذلك يعمل في تربية الغنم والماعز والدجاج في انتخاب السروق الصالحة منها.

السابع عشر: السمك

تمتاز شواطئ البطيحة على سائر شواطئ بحيرة طبريا بأن صيد السمك فيها أسهل ومقداره أغزر. لذلك تقصدها قوارب الصيادين من طبريا على الدوام ويشحن سمكها إلى دمشق وخاصة إلى حيفا ويافا وتل أبيب والقدس، فيربح تجاره كل سنة أرباحاً طائلة. وفي طبريا عائلة تدعى بيت الخوري تضمن صيد السمك من آل اليوسف بمبلغ

200 جنيه فلسطيني. وكان هذا المبلغ قبلاً أربعمائة، هؤلاء يصطادون السمك بقواربهم ويوردونه إلى مستودعاته في طبريا ويوزعونه على الباعة أو يشحنونه إلى المدن المذكورة، فمن جملة الأعمال الواجبة على الشركة أن تتسلم إدارة السمك وتستثمرها بنفسها بمشاركة أبناء الخوري في بادئ الأمر ريثما تلم بحذافير هذه الحرفة جيداً، ويؤمل أن تنسال من ذلك ريعاً سنوياً يقدر بألفي ليرة ذهبية.

الثامن عشر : الدكاكين

في البطيحة نحو خمسة دكاكين متفرقة في القرى العديدة التي ذكرنا أسماءها في المادة الرابعة، يبيع فيها تجارها البضائع اللازمة للأعراب والفلاحين ديناً وبأضعاف أثمانها الحقيقية، ويؤجر ملاكو البطيحة هذه الدكاكين بمبلغ سنوي لا يتجاوز 5-6 ليرات لكل منها. فإذا ما سُدّت هذه الدكاكين وأنشئ بدلاً منها مخزن عام يتولى إدارته موظف من قبل الشركة وبيعت بضائعه بأسعار معتدلة، تحصل بذلك رحمة كبرى لأهل البطيحة الرازحين تحت الديون الثقيلة التي يحمّلهم إياها أصحاب الدكاكين ويحصل للشركة أيضاً وارد سنوي ربما أناف على الألف ليرة.

التاسع عشر : المشتى

شواطئ البطيحة رملية خالية من الصخور والأحجار وقليلة العمق، ويزداد هذا العمق تدريجاً بعد مسافة لا تقل عن مشي متر كما هي الحال في بعض الشواطئ الرملية في حيفا وبيروت وغيرهما.

لذلك فهي صالحة للسياحة والرياضة البدنية على رمالها، ولشواطئها مناظر جميلة تطل على البحيرة وسواحلها المقابلة والجبال التي اكتنفتها من الغرب والشرق فضلاً عن ذكرياتها التاريخية ودفئها النادر الوجود في فصل الشتاء. لذلك يمكن في المستقبل انشاء حمامات بحرية واتخاذ بناء "الحاصل" الموجود حالياً، الذي يجب استبدال مركز الإدارة بغيره، فندقاً يرتاده الهاربون من برد وصقيع المدن في أطراف سورية، والأجانب

السائحون فيقضون فيه أياماً جميلة على النحو الذي يجريه الفلسطينيون في أريحا القريبة من بحيرة لوط والأوروبيون في سواحل فرنسا الجنوبية.

العشرون: الرمل

إن جودة الرمل الذي يكثر في شواطئ البطيحة وصلاحه للمزج بالشمينتو حمل مجلس بلدية طبريا على أن يقر ويشرط على البنائين وجوب استعمال رمل البطيحة دون غيره، ولذلك يباع الرمل من شواطئ البطيحة بكثرة ويستدر منه ملاكوها ريعاً قدره 120 ليرة ذهبية يمكن أن يزداد إذا حسن التدبير وهذا من جملة الموارد في هذا المشروع.

الحادي والعشرين: العين الكبريتية

في البطيحة عند الحد الجنوبي الأقصى المجاور لفلسطين عين معدنية حارة تدعى المزفرة، يمكن أن تحلل كيماوياً حتى إذا كانت محتوياتها تضارع مياه الحمة في وادي اليرموك أو مياه طبريا المعدنية من حيث النفع الصحي ينشأ عليها حمام يحصل منه وارد غير يسير.

الثاني والعشرون: الطرق

لابد قبل الشروع في استثمار أراضي البطيحة من فتح وتعبيد الطرق الذاهبة منها شمالاً إلى قرب جسر بنات يعقوب، وطولها كما ذكرنا 13 كيلو متراً، ليتسنى تقصير المسافة بينها وبين دمشق وإيصال السيارة إليها لنقل المحاصيل، وهذا الفتح يتم كما لا يخفى بإدارة الحكومة المحلية ومعونة أهالي القرى المجاورة وإشراف إدارة الأشغال العامة. وهذا العمل بقدر ما هو جليل وحيوي بالنسبة للبطيحة هو بسيط لا يستدعي كثيراً من النفقات، ثم لما كانت أراضي البطيحة نفسها خالية من الطرق والجسور ويتعذر التجول فيها على السيارات وعجلات النقل والمكنات الزراعية كان من أجل الأعمال الرئيسية عند الشروع في الاستثمار هو فتح الطرق في داخلها وتعبيدها وإشادة جسور على الجداول والقنوات الكثيرة فيها تسهيلاً لمرور السيارات وعجلات النقل. وهذه الأعمال

تقوم بها الشركة بأموالها وأيدي عمالها يشرف على ذلك مهندس رياضي خاص تستخدمه لهذه الغاية وغيرها من أعمال التأسيس والبناء كما سيذكر في المادة التالية.

الثالثة والعشرين: الإدارة

ولابد من الإشارة إلى أنّ كل هذه الموارد التي ذكرت لا يمكن الاستفادة منها مالم تؤسس في البطيحة (دائرة) منتظمة على نسق الجفتلكات التي يملكها كبار الموسرين أو المزارع الواسعة التي تملكها الشركات العقارية في القطر المصري وغيره من الأقطار الأوروبية والأمريكية، فيوضع فيها موظفون حائزون شروط الخبرة والأمانة والنشاط واحتمال شظف العيش في إقليم البطيحة الحار على أن يتقاضوا رواتب تناسب الجهود ومشاق الحياة التي تنتظرهم. فمثل هذه الدائرة الكبيرة تحتاج:

أولاً: إلى مدير يكون مهندساً زراعياً قديراً له خدمات وتجارب سابقة في دوائر زراعية واسعة، وإلمام كاف في الأحوال والعادات المحلية، وخبرة في كيفية تيسير أعمال الموظفين والمستخدمين والعمال وترتيبها لاسيما في مداراة الأعراب والفلاحين.

ثانياً: إلى محاسب قدير عارف بمسك الدفاتر على الطريقة المزدوجة على أن يتولى كتابة الرسائل أيضاً.

ثالثاً: إلى خازن يحفظ الأسس والمنتجات والأشياء المنقولة ويسهر على ضبط الداخل والخارج.

رابعاً: إلى مهندس رياضي لمسح الحقول والمقاسم وتخطيطها ورسم مصوراتها والإشراف على إشادة الأبنية وتعبيد الطرق وبناء الجسور وإصلاح القنوات، وهذا المهندس الرياضي يمكن الاستغناء عنه في السنة الثانية أو الثالثة حينما تنتهي الأعمال المطلوبة منه.

خامساً: إلى أربعة نظار من الزراعيين الفنيين والزراعيين العمليين يعهد إلى كل منهم بإدارة قسم من أعمال المزرعة حسب كفاءته تحت إشراف المدير.

سادساً: إلى اثنين من أهل الاختصاص أحدهما لزراعة المشاتل وتربية الأغراس وتطعيمها، والثاني لزراعة الأشجار المثمرة وخدمتها وتقليمها...الخ، ويزاد عدد هؤلاء وغيرهم من الأخصائيين ببقية الفروع والصناعات عند اللزوم.

سابعاً: لما كانت الشركة ستسير حراثتها وزراعتها ونقلياتها بالوسائط الميكانيكية لابد لها أيضاً من ميكانيكي قدير وسائقين للسيارات والسواحب يشتغلان تحت إشراف الميكانيكي، وحداد لإصلاح وأعمال أدوات الحديد، ونجار لأعمال النجارة.

ثامناً: إلى طاه ومعاون له وخادمين، فالمجموع تسعة عشر موظفاً ومستخدماً ذكرت في الجدول المربوط في ذيله. أما البساتين والحقول التي قلنا أنّ مساحتها ينبغي أن تصل إلى أربعة عشر ألف دونماً فهي تحتاج من العمال الأعراب إلى سبعين أجيراً وستين مرابعاً وستة رؤساء مرابعين وثلاثة شواة للماء وخمسة سواس للبقر والخيل واثني عشر حارساً، فالمجموع مئة وستون عاملاً ذكرت أجورهم في الجدول المربوط في ذيله، وهذا غير العمال المؤقتين الذين يؤخذون من أعراب التلاوية ويستخدمون بمياومات مقننة حسب اللزوم وعند كل موسم وعمل زراعي.

الرابعة والعشرون: المباني

إن العمال والأشخاص والحيوانات والمكنات والأدوات التي عددناها تحتاج لمبان عديدة ينتخب لها بادئ بدء مركز متوسط بين أنحاء المزرعة غير المركز الحالي المسمى (الحاصل) الذي تراءى لنا عدم مناسبته، وتشاد فيه (دائرة) تحتوي على دور ومكاتب لسكنى المدير والموظفين والمستخدمين وقيامهم بأعمالهم الرسمية تكون مستوفية الشروط الصحية والسعة حسب حاجة إقليم البطيحة الحار، وتحتوي أيضاً على مستودعات وسقائف واصطبلات ومرائب وزرائب وأماكن للبستانيين والعمال الأغراب وغيرها مما تحتاجه مثل هذه المزرعة الجسيمة. وتجهز هذه المباني بالأثاث والفرش الكافيين ويؤتى إليها بالماء القراح من إحدى العيون المجاورة، وتنور إن أمكن بالكهرباء الذي يستخرج من محرك يديره الميكانيكي الموجود في إدارة البطيحة وإشادة هذه المباني

لا تحتاج لنفقات باهظة بالنظر لكثرة الأحجار والرمال الموجودة في البطيحة، وهذا غير المباني التي يجب أن تشاد على نسبة مصغرة في مراكز المنطقتين الأولى والثانية كما قدمناه في المادة (15).

المادة الخامسة والعشرون: الآلات والأدوات

لابد لمثل هذه المزرعة الجسيمة التي يجب أن تسير حراثتها وزراعتها بالوسائط الميكانيكية من مجموعة كاملة من الآلات والأدوات والمكنات اللازمة لجميع الأعمال الزراعية كالسواحب (التركتورات) والمحاريث الافرنجية والعربية والأمشاط والمعازق والمباذر ومكنات الحصاد والدراس وسيارات وعجلات النقل وسكك الحديد الزراعية والأدوات البستانية والآلات الهندسية وآلات الحدادة والنجارة وغيرها من قطع التبديل اللازمة لها.

المادة السادسة والعشرون: الطعام

لما كان المذكورون آنفاً لا يستطيعون جلهم إن لم نقل كلهم أن يستجلب عائلته إلى البطيحة لفقدان المدارس ولصعوبة تحمل النساء والأولاد إقليم البطيحة لاسيما في فصل الصيف ولا يمكن أن يضيع كل منهم أوقات عمله باستحضار المآكل وطبخها كان من الضروري ومن منفعة الشركة أن يطعموا من حسابها ويخدموا، لذلك وضعنا في المادة (23) في عداد المستخدمين طاهياً ومعاوناً وخادمين، ولما كانت الخضراوات متوفرة في البطيحة فيرجى ألا يزيد مصروف الطعام اليومي للشخص عن خمسة وعشرين قرشاً سورياً والمصروف السنوي للجميع. عن أربعمائة ليرة. ومهما يكن عند حساب ميزانية المشروع وتقدير ما يلزمه من المؤونة لابد من إضافة ما يكفي للضيوف والزوار الذين كثيراً ما يتوافدون إلى البطيحة، ويضطر القائمون بإدارتها إلى إطعامهم كما هي العادة في القرى والمزارع.

المادة السابعة والعشرون: الحالة الصحية

إذا عرفنا حر إقليم البطيحة ووفرة رطوبة جوها التي تنشأ من أبخرة بحيرة طبريا ومن الجداول والقنوات والمناقع الكثيرة في أراضيها، إذا عرفنا ذلك بطل عجبنا من أن مناخ البطيحة لا تستسيغه كل الأبدان المعتادة على الأقاليم المرتفعة الجيدة الهواء. وثمة ما يدعو لتفشي حمى الملاريا أحياناً لوجود وادٍ عميق يدعى وادي (الزاكية) تفيض مياهه في الشتاء من جراء طغيان مياه البحيرة عليه وتفترش الأراضي الممتدة في ضفتيه وهي أجود أراضي قسم السهل الذي حمدنا خصائصه فيحدث مستنقعات واسعة يلجأ إليها السمك في كثرة فيتهافت عليها صيادوه ويستدرون منه أرباحاً تدعوهم لتمني بقاء هذه المستنقعات وعدم زوالها، لذلك يجدر بالشركة المرجو تأليفها أن تعتني بالحالة الصحية وذلك بإزالة المستنقعات المذكورة بتاتاً بأن تعمد إلى إقامة جدران حجرية أي سدود تحول دون فيضان مياه وادي الزاكية على ضفتيه، ولو كره ذلك الصيادون، فتكسب صحة موظفيها وعمالها وسكان البطيحة وزوارها أجمعين وتكسب أيضاً مساحات واسعة من السهل المذكور التي تصبح بعد جفافها من أجود أماكن الزرع والغرس. هذا ولابد للشركة أن توظف طبيباً من الأطباء المقيمين في القنيطرة باعتبارها أقرب بلدة كما يوافي البطيحة في الأسبوع مرة ويداوي مرضى الموظفين والمستخدمين والعمال ويلاحظ الحالة الصحية العامة. ولابد لها أيضاً من أن توجد صيدلية صغيرة في مركز الدائرة تحوي أهم العقاقير اللازمة لمداواة هؤلاء الأشخاص ومثلهم حيوانات الشركة ومواشيها عند الحاجة.

المادة الثامنة والعشرون: بحث الجولان

الجولان نجد متسع ينحدر من جنوبي قضاء القنيطرة نحو ناحية الزوية فيه هضاب متموجة تتخللها أودية ضيقة أو متسعة وكلها بركاني التشكل ذو صخور بازلتية سوداء. وهو في جملته كثير الأوعار والأحجار وقليل الأماكن المتسعة للزراعة بالنسبة لعظم مساحته. وهذه الأماكن عبارة عن قطع مبعثرة بين سلاسل الصخور وركام الأحجار تختلف سعتها من 4 أو 5 دونمات إلى 40 أو 50 دونماً ومعدل كمية أمطارها زهاء

400 مليمتر، وتربة الجميع طينية رملية سوداء مندمجة، ولوفرة أحجارها تعسر فلاحتها لاسيما استعمال المكنات الحديثة فيها. على أن هذه الأماكن خصبة تصلح في جملتها لزراعة الحبوب الشتوية التي تجود فيها ولزراعة الذرة البيضاء في الأماكن التي يمكن تطويقها قبل البذر من مياه العيون التي تدعى بالربيعية وتنقطع في الصيف. والدورة الزراعية هنا ثنائية في الشتاء القمح والشعير والعدس والحمص وفي الصيف الذرة البيضاء وأحياناً الذرة الصفراء، والأراضي الوعريّة تصلح لزراعة الأشجار المثمرة كالزيتون واللوز والعنب، وقد جربت زراعة البطيخ فنجحت.

وأكبر مزيّة للجولان هو أن الكلاء يجود فيه جودة منقطع النظير، نخص بالذكر منه النفل ذو الزهر الأحمر الذكي الرائحة لذلك كان الجولان ومابرح ملجأ لمواشي بلاد حوران قاطبة مع بعض أنحاء دمشق، يقصده أصحابها وأصحاب قطعان الغنم من التجار في فصل الربيع فيرعون أغنامهم وأبقارهم فيه لقاء أجر معلوم، ينقدونه لملتزمي الربيعية من آل اليوسف. وهو التزام كان لا يقل فيما مضى عن 500-600 ليرة عثمانية في السنة. وإذا تم تأليف الشركة يكون الجولان ميداناً واسعاً لتربية مواشيها التي تشتي في البطيحة وتربع وتصيف في الجولان ويخصص لها أحسن المرابع وأوسعها. وقسم الجولان العائد لآل اليوسف والمعروض للبيع مع البطيحة واسع المساحة يقدر طوله من الشرق إلى الغرب ب18 كم وعرضه من الجنوب إلى الشمال ب12 كم، فتبلغ مساحته 216 ألف دونم، فيه ضياع عديدة نذكر منها أم الدنانير والجوخدار والشعبانية والمنصورة وخراب انجيل وقنيطرة الخراب وخوخة وزيتا وكنف الفوقا وكنف التحتا وشقيف والصباحية ودير عزيز وقصيبة ومجدوليا وجديدة والصفيرة والبجورية والجرنية والرزانية وصيدا وأبوتينة وخسفين. ويلحق بهذه الأسماء ضياع قصيرين، العائدة لأحد آل اليوسف وهي: النوانية ووحشرة وصلبة ودير قروح ودير مفضل والنخيلية وكفر شب.

وأجلّ هذه القرى قدراً وأعظمها مساحة خسفين ثم الجوخدار "إلا أن الجوخدار هذه قد انتقلت منذ بضعة سنوات إلى إدارة أملاك الدولة" ثم أم الدنانير ثم خوخة وزيتة ثم الشقيف ومجدوليا ثم الصفيرة ثم الجرنية ثم الرزانية، وما بقي فيها من درجة واحدة.

وإذا خرجت الجوخدار من الحساب وهي 26 ألف دونم لا يزيد مجموع مساحة بقية الضياع "بما فيها ضياع قصيرين" على مئة وتسعين ألف دونم، ثلاثون منها في خسفين والباقي في البقية التي كل منها تتراوح مساحته من ألفين إلى أربعة آلاف دونم. وهذا إذا أضيف إلى الرقم 53980 دونم الذي نسب للبطيحة يبلغ مجموع المساحة في الجولان والبطيحة معاً 243980 دونم بين صالح وطالح وعامر وغامر. فأين هذا الرقم مما أشيع عن وجود 300 ألف دونم؟ هذا السؤال لا يحل غموضه إلا المسح الحقيقي الذي لابد من اجرائه حينما تصح العزائم على اتمام هذا المشروع.

قلنا إن مياه الجولان أراضي بعلية ليس فيها من مياه الري إلا بعض العيون التي تجف في أواخر الربيع. على أن هناك مياهاً تنحدر من أعالي الجولان نحو أراضي خسفين يمكن أن تروي 500-600 دونم فيها. ثم إن في أم الدنانير مساحة قليلة تروى من عين القرية نفسها. وكذا الحال في الشعبانية والمنصورة وقصيرين، وفي قرية صيدا عين تُدعى المكحلة يمكن تحويلها من مصبها في وادي الرقاد وجعلها تروي 300-400 دونم في القرية المذكورة. فمجموع الأراضي السقويّة إذن ألف دونم.

هذا ونصف الأراضي الصالحة للزراعة في الجولان ما برحت منذ سنين، وربما منذ قرون بوراً من الإهمال وانصراف الملاكين والمزارعين إلى الاستفادة من ريع الكلأ أكثر من زراعة الحبوب وغرس الأشجار، وحصة ملاكي قرى الجولان من المحاصيل هي 33 بالمئة يدخل في ضمنها العشر للحكومة. وقد كان هؤلاء الملاك يؤجرون حصتهم، فكان مثلاً ايجار خسفين وحدها في سنة 1927 "750 ليرة عثمانية" وأم الدنانير 220 وخوخة وزيتة 300 والشقيف 120 ومجدوليا 60 وهلم جراً فيكون مجموع وارد قرى الجولان 1520-1600 ليرة إذا أضيف إليه التزام الربيعية المقدر ب600 ليرة يبلغ

المجموع كله 2100-2200 ليرة عثمانية. وقد هبط هذا الوارد في السنين الأخيرة إلى النصف بسبب الأزمات الزراعية المتوالية.

وجميع أهل الجولان أعراب من سكان بيوت الشعر إلا بعض الفلاحين الحورانيي الأصل المقيمين في قرية خسفين. والأعراب المذكورين ينتسبون لقبائل وأفناد متفرقة. وهم يعنون بتربية المواشي أكثر من عنايتهم بالحرث والزرع، ويعيشون حياة يسودها الجهل المطبق والخمول والبؤس. لذلك هم بحاجة قصوى لمن يحسن ادارتهم ويسدد خطواتهم ويمدهم في السنين الأولى بالتقاوي من بذار ودواب كيما يتمكنوا من السير حسب المطلوب.

وإذا تم تأليف الشركة وشرع باستثمار الجولان تحتاج قراه إلى مدير يجعل مركزه في خسفين ويكون إما مرتبطاً بمدير البطيحة أو مستقلاً في أعماله وهذا هو الأرجح لتعذر الاتصال بين الجهتين وعظم الأعمال المطلوبة من الفريقين. وشرط هذا المدير أن يكون مهندساً زراعياً مجرباً وخبيراً بأطوار الفلاحين والأعراب وأساليب مداراتهم، ويوضع تحت إمرته كاتب وخادم وعدد كاف من النظار والحراس لاسيما في موسم البيادر. ويطلب من هذا المدير أن يلم بحالة القرى المسلمة إليه ويسعى لتزييد المساحات المزروعة منها وأن لا يترك أبواراً ولا فدناً معطلة فيها. ويبذل قصارى جهده في تسيير أعمال الفلاحين حسب الأساليب القويمة وفي تزييد غلاتهم وتكثير أقسامهم. وأن يكثر من غرس الأشجار والكروم في الأماكن الصالحة لها ويحفظها، ومن زرع الزروع الصيفية التي تظهر التجارب امكان وفائدة تكثيرها، وأن يهتم بتربية المواشي الخاصة بالشركة وأن يحمي لها الأماكن التي تنبت الكلأ، ويمكنها من الرعي دون غيرها، وأن ينظر إلى جباية رسوم المرعى من القطعان الغريبة التي تأتي إلى الجولان في فصل الربيع، ويحفظ حقوق الشركة من الضياع.

فإذا قام مدير قسم الجولان بهذه الأعمال وازدادت المساحات المزروعة وضبط الدخل والخرج تفيض واردات الجولان فيضاً يصعب تقديره من الآن لعدم اطلاعنا على

المساحة العامة الحقيقية لاسيما مساحة الأراضي الصالحة للاستثمار ومقدار الفدن التي ستسير والأيدي العاملة التي ستنكب على العمل، لكنها لا تقل حتماً عن أربعة آلاف ليرة ذهبية بعد طرح النفقات السنوية الدائمة المذكورة في جدولها الخاص.

المادة التاسعة والعشرون: الرأسمال المقدر لاستثمار البطيحة

يقسم الرأسمال اللازم لمشروع استثمار البطيحة في السنة الأولى إلى قسمين: الأول (رأس المال الثابت) الخاص بما تحتاج إليه أعمال التأسيس والتشييد. وهو يصرف دفعة واحدة ولا يعاد في السنين التالية بعد أن يكون قد تمّ، والثاني (رأس المال المتحول) الخاص بما تحتاج إليه أعمال الاستثمار الزراعي. ومن هذا ما يعاد صرفه كله في كل سنة ومنها ما لا يعاد إلا قليلاً.

فمن القسم الأول الثابت ثمن الأراضي وهذا لم ندخله في نطاق بحثنا وتقديرنا، ومنه نفقات إشادة الأبنية التي تقدم ذكرها في المادة (24)، ونفقات إصلاح وترميم القنوات وتعبيد الطرق وإنشاء الجسور التي سبق ذكرها في المادتين (9) و(22).

أما القسم الثاني المتحول فنخص بالذكر من مفرداته أثمان الآلات والأدوات والمكنات الزراعية التي سبق ذكرها في المادة (25)، ونفقات الزراعة الحضرية والزراعة الكبيرة المتنوعة المطلوب اجراؤها في مساحة 10 آلاف دونم وفيها أثمان البزور وأجور العمال المؤقتين للعزق وإبادة الأعشاب والحصاد وغيرها، ومنها ثمن حيوانات الجر والنقل من خيل وبقر وحمير لتشغيل المساحة المذكورة آنفاً مع ثمن العلف للحيوانات المذكورة، ومنها نفقات غرس الأشجار المثمرة وغير المثمرة لاسيما الحمضية منها وإحداث المشاتل. وسيقوم مستخدمو الشركة بحراثة الأرض وتهيئتها على أن يصرف جلّ الاعتماد المخصص لذلك في السنين الأولى في شراء الغراس المطعمة وغير المطعمة من الخارج ريثما تنمو المشاتل المتصور إحداثها وتستطيع تقديم ما يلزم منها. وهذا الاعتماد لابد من تكرار وضعه خلال السنين الثماني الأولى إلى أن يكون الغرس قد تقدم وانتشر ومن بعدها ينقص تدريجياً إلى أن يقف عند حدود الحاجة التي يظهرها

المستقبل، ومنها التقاوي التي تقرض إلى الفلاحين لاشتراء ما يعوزهم من البذار والحيوانات ثم تسترد منهم، ومنها رواتب الموظفين والمستخدمين وأجور العمال الدائمين وغيرها. هذا ولاحتمال حدوث نفقات غير ملحوظة وضع اعتماد باسم مبلغ احتياطي فتم بذلك مجموع الاعتمادات المقدرة لرأس المال الثابت والمتحول بمبلغ 30 ألف ليرة عثمانية.

ولما كانت أثمان الآلات والمكنات. وأثمان الحيوانات. وتقاوي الفلاحين، والنفقات غير الملحوظة ليس لغيرها حاجة في السنين التالية فضلاً عن الوفر الملحوظ حصوله من بقية المواد، لوحظ أن اعتمادات السنين التالية المذكورة ستكون أقل من الأولى بثلاثة آلاف ليرة فتبلغ 17 ألف ليرة وتقف عند هذا الحد ويبلغ أخيراً مجموعها خلال السنين الأربع الأولى 81 ألف والسنين الثماني الأولى 149 ألف ليرة عثمانية ذهبية.

المادة الثلاثون: الواردات المقدرة

إذا تم صرف الاعتمادات المذكورة في سبلها، وحصل التوفيق في انتقاء الموظفين والمستخدمين الأكفاء وفي استجلاب العمال المذكورين في المادة (15) واستخدامهم كما ينبغي ومهدت سبل العمل في ترميم القنوات وإصلاح وإحضار الأرضين وإشادة الأبنية وإعداد الأدوات والحاجات، وحسنت الإدارة وضبط الدخل والخرج يرجى أن يستغل من أرض البطيحة في السنة الأولى 30 ألف ليرة عثمانية، معظمها من أثمان الخضراوات الباكورية والمتأخرة، ثم من أثمان الحبوب المتنوعة وبعضها من ريع الأقسام المأخوذة من الفلاحين المزارعين وريع السمك والدكاكين وغيرها. وفي السنة الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة يتضاعف وفي الأعمال الزراعية فيزداد، من جراء ذلك، الوارد على ما يقل عن ألفي ليرة في كل سنة فيبلغ في السنة الثانية 32 ألف وفي الثالثة 34 ألف وفي الرابعة 36 ألف أي يبلغ مجموع واردات السنين الأربع 132 ألف إذا طرحت منها النفقات المذكورة آنفاً يصبح الصافي 11 ألف ليرة.

وفي السنة الخامسة يكون الموز تقدم بالإثمار والطرح شوطاً، والأشجار الحمضية وغيرها بدأت وبشرت فيزداد الوارد المقدر للسنة الرابعة نحو ألف ليرة فيبلغ في الخامسة 37 ألف وفي السادسة يتضاعف الإثمار والطرح فيزداد الوارد ألفي ليرة ويبلغ 39 ألف ليرة وفي السابعة يزداد 3000 ويبلغ 42 ألف وفي الثامنة يزداد 4 آلاف ويبلغ 46000 أنّ مجموع واردات السنين الثماني الأولى تصير 296000 إذا طرحت منها النفقات المذكورة آنفاً يصبح الصافي 147000 ليرة.

وهذا الرقم الأخير المحسوب على أقل تقدير لابد من ازدياده واطراده في السنين التي تلي الثامنة بنسبة ما يجنى من الأشجار والخضراوات الباكورية والأثمار والحبوب المختلفة والأقسام المأخوذة من الفلاحين وريع السمك والدكاكين وغيرها من ينابيع الإيراد التي تقد ذكرها.

المادة الحادية والثلاثين: رأس المال والوارد المقدران لاستثمار الجولان

يذكر في بحث الجولان من الرأسمال الثابت نفقات بناء (دائرة) في قرية خسفين تحتوي على غرف لسكنى المدير والمحاسب والخادم ومبيت الزوار واصطبل ومستودع. ولما كانت أراضي الجولان ستؤجر إلى الفلاحين حسب الطرائق المحلية ولا يجري فيها من قبل الشركة زراعة مباشرة إلا إذا احتيج لعمل بعض التجارب أو غرس بعض أشجار تستمد حينئذ وسائلها من إدارة البطيحة. فلا يذكر في رأس المال المتحول سوى أجور الحراس الذين يستخدمون لمراقبة الزروع والغلال خلال أشهر الحصاد والدراس الثلاثة في قرى الجولان التي عددناها وعند عدم كفاءتهم يزاد عددهم في المستقبل، وتقاوي إلى فلاحي القرى المذكورة كما يشترون ما يعوزهم من البذار والحيوانات، وثم راحلة إلى المدير وبدل الأعشار، وضريبة الأرض ورواتب المدير والمحاسب ونفقاتهم المتفرقة فيبلغ بذلك رأس المال المقدر في السنة الأولى 3400 ليرة عثمانية، ولما كانت اعتمادات هذا المبلغ لا تتكرر في السنين التالية كالتقاوي واعتمادات البناء وثمن الراحلة، يصبح رأسمال السنين التالية 1100 ليرة عثمانية مقابل ريع صاف قدرناه

بأربعة آلاف ليرة عثمانية يرجى ازدياده واطراده بنسبة اتساع المساحات المزروعة وتحسن الإدارة.

8.إنقاذ أراضي البطيحة والجولان

مرآة الشرق 5 كانون الأول 1934

هي أرض واسعة خصبة واقعة على الحدود بين سوريا وفلسطين تحيطها بحيرة طبريا والأردن، لا تقل مساحتها عن ثلاثمائة ألف دونم، وقد جاء على لسان أحد كبار موظفي المفوضية في بيروت أن الصهيونيين يسعون لحمل وزارة المستعمرات في لندن على تعديل الحدود السورية الفلسطينية لغاية إدخال هذه الأراضي وما جاورها ضمن الحدود الفلسطينية لتدخل في جوف الوطن القومي اليهودي.

وللحيلولة دون ذلك قام مؤخراً نفر من أغنياء السوريين المخلصين ألفوا شركة لمشترى هذه الأراضي واستعمارها قبل أن يذهب شبر منها لليهود، برأسمال قدره خمسة وعشرون ألف جنيه مقسم إلى 25 ألف سهم، اشترى منها السوريون 4 آلاف سهم وعرضوا باقي الأسهم للبيع لأبناء البلاد من الوطنيين في سوريا وفلسطين الذين يغارون على ملك آبائهم وتراث أجدادهم من أن تغرز فيها براثن الصهيونية.

لا ينفع أيها الفلسطيني الصياح والعويل ولا يجدي الاحتجاج شيئاً وهناك الآن مجال واسع لكل فلسطيني يدعوه الواجب لأن يشترك في مشروع اخواننا السوريين إذا كان حقيقة يغار على أراضي الوطن ويؤلمه أن يرى العرب المديونين من أصحابها يطردون منها غداً بعد عجزهم عن تسديد ديونهم لبقائهم فيها.

هناك 21 ألف سهم مطروحة للبيع لكم أيها الفلسطينيين الذين لا تزالون تتشكون من ظلم الصهيونية وامتلاكها لأغنى الأراضي في بلادكم. لكم أيها الفلسطينيين الذين لا تزالون تعربون عن آلامكم وتوجعكم لإخوانكم الذين طردوا من وادي الحوارث ليهيموا على وجوههم مشتتين تحت كل الكوكب.

فإذا كنتم تغارون على المزارعين من إخوانكم في أراضي البطيحة وتريدون أن يبقوا فيها وترون في بقائهم فيها خيراً من انتقالها إلى أراضي الصهيونيين فليس أمامكم إلا طريق واحد وهو الاشتراك في هذا المشروع الحيوي الذي قام به فريق من اخوانكم في سوريا لاشتراء هذه الأراضي وبقاءه ملكاً للأمة العربية. واعلموا أنه كلما كثر عدد المساهمين زال الخوف من إمكان انتقالها إلى أعداء الوطن في المستقبل. لأنه يخشى إذا امتلك الأسهم الباقية نفر قليل ألا يتوصل أصحاب المشروع إلى الغاية التي يصبون إليها من وراء مشروعهم وهي بقاء هذه الأراضي ملكا مضموناً للأمة لا تستطيع أيدي الخصوم الظالمين أن تصل إليها.

أثبتوا الآن أيها الفلسطينيين غيرتكم الوطنية بالفعل ولا يكلفكم ذلك غير بضعة جنيهات تحيون بها مئات من العائلات العربية واقعة الآن تحت خطر الاغتراب والفقر والشقاء. وتنقذون بهذه الجنيهات القليلة أراضي واسعة المساحة إذا استُثمرت تشغل ألوفاً من العمال العاطلين ويعتاش من إيراداتها ألوف العائلات العربية ولا ينفع أن يترك هذا الأمر لمروءة أبناء البلاد وحماستهم وغيرتهم ليشترك من شاء منهم في المشروع فإن الحوادث علمتنا أنّ الواحد منّا لا يعمل منفرداً ولو كان في داخله مئة دافع يدفعه إلى العمل الطيب. فوجب أن يكون هناك دافع خارجي يدفع الأفراد ويحثهم على الإقدام على العمل وينشطهم إليه. وهذا الدافع هو لجنة تؤلف في فلسطين تكون مهمتها حمل الأفراد على الاكتتاب بالمشروع وبيان حسناته وفوائده ولا أرى للقيام بهذا الغرض خيراً من الوطني المخلص المجد الذي يعمل عمله بهدوء وسكينة بلا طنطنة ولا ضجيج، ذاك الذي يعمل لأجل العمل وليس للشهرة وكسب الطيب وأعني به مدير البنك العربي أحمد حلمي باشا فباستطاعته تأليف مثل هذه اللجنة اليوم لنكون صلة بين المكتتبين في فلسطين ولجنة المشروع في الشام وهو أهل بإذن الله.

القدس – أحد القراء

خاتمة:

رغم عدم تنفيذ تلك المشاريع في أراضي البطيحة إلا أنها منعت الوكالة اليهودية وأوقفتها حتى هزيمة 1967، وهذا دليل مستوى الوعي السوري والأمانة والإخلاص للوطنية السورية والاهتمام بالحفاظ على أبناء تلك المنطقة والأمل بتطوير أراضي هي إحدى أخصب بقاع العالم. وأعبر هنا عن مدى حزني لضياع الكثير من الأحلام السورية حتى يومنا هذا رغم الأصوات المخلصة والجميلة في التاريخ السوري.



شهادات من تاريخ الجولان

محي الدين الظاهر الكبيريت – الجوخدار

معاصر أحداث تلك الفترة

1. حول تشكيل "الحرس الوطني السوري"

بعد نكبة فلسطين وضياعها. حيث كانت مهمة جيش الانقاذ ومن ضمنه الجيش السوري الاحتفاظ بمرتفعات وجبال الجليل الاعلى. ولكنه فشل بها وانسحب إلى حدود الانتداب المرسومة. وبقي بينه وبين الجيش الصهيوني بعض المناطق المحرمة والمنزوعة السلاح. هذه المناطق لم يستطع الصهاينة احتلالها، ومنها غرب نهر الاردن (الشريعة). وأشهرها أرض عرب الشمالنة ومنطقة الحمة بفضل الحرس الوطني السوري.

وكان عرب الشمالنة يزرعون أرضهم ويرعون مواشيهم بهذه الارض غرب الشريعة ويتواصلون مع الجولان عبر جسر اريك وكان يرابط لحراسة المناطق المحرره مخافر من شجعان الحرس الوطني المؤلف من عرب فلسطين وأبناء الجولان البواسل من شمالنة وزناغرة ومواسى وقديرين ونعيم وفضل وتلاوية. ينتشرون مع ظلام الليل بشكل مخافر صغيرة وكانوا كالشوكة في حلق مستوطنات اليهود ويعتبر الحرس الوطني من عداد الجيش السوري باسم عرب الشمالنة. وأنشئت منه الكتيبة 68 التي كانت تضم أشجع شباب فلسطين مهمتها العمل خلف خطوط العدو والاستطلاع وعلى رأسهم الشهيد علي خربوش من عرابة الذي قضَّ مضاجع الإسرائيليين 9 سنين من العمل داخل فلسطين، حتى الصحف الاسرائيلية عبرت عن فرحتها باستشهاده تحت عنوان (جنرال الجواسيس قتل الأمس). وكانت اسرائيل قد وضعت جائزة لمن يدلي بمعلومات عنه.

وفي عام 1951 أعلن العدو تحويل نهر الأردن واختار منطقة عرب الشمالنة المحرمة. وأهلها لم يزالوا باقون فيها. وتصدى الحرس الوطني السوري له بكل بسالة. وساندهم الجيش السوري وبقيت المعركة أسبوع. إلى أن تدخل مجلس الأمن وأوقفها وخرجت اسرائيل مهزومة ب200 قتيل وجريح وخسارة الحرس الوطني 9 شهداء و43 جريح. واستشهد الضابط السوري أسعد عمير، والضابطين الفلسطينيين واصف الجيوسي وجواد عبد الرحيم. وبعد معركة عرب الشمالنة بفترة حاول اليهود التسلل إلى حاصل كنف وتصدى لهم الحرس الوطني وأجبرهم على الفرار. وحاولت اسرائيل احتلال الحمة عن طريق سمخ. وتصدى لهم الحرس الوطني بقيادة الضابط الفلسطيني رشيد جربوع دون الرجوع للقيادة لمفاجئته بالعدوان. وقتل ضابط إسرائيلي ودمر آلياتهم وعادوا يجرون اذيال الخيبة. ومنح رشيد جربوع وساماً. ومنحته شركة استثمار الحمة بعض الأسهم هدية لشجاعته. وبعدها حاول العدو السيطرة على المناطق المحرمة قرب تل النيرب فتصدى لهم الحرس الوطني بقيادة الضباط إبراهيم توفيق وحسن الصالح وأجبروهم على الرجوع.



كان الحرس الوطني يحرس حدود الجولان من العصابات الإسرائيلية ويزرع الرعب في قلوبهم ويلقبونه عرب الجولان عيون الصقر تيمنناً بالهجانة السورية ويسمى بالسجلات العسكريه عرب الشمالنة. وبعد النكسة 1967 وذهاب أرض الجولان. سرحوا أفراده لعدم وجود مناطق محرمة ومنزوعة السلاح بعدها، وخيروهم بين جيش التحرير

الفلسطيني والجيش الشعبي السوري. فتحية لمن خدم بالحرس الوطني والرحمة لمن توفي منهم وعافى من بقي، لقد أدوا الامانة الوطنية على أكمل وجه.

وزارة الدفاع السورية وتأسيس الحرس الوطني السوري أو عرب الشمالنة ودوره:

أما حسب وزارة الدفاع السورية ووثائقها حول الأحداث التي أدت لتأسيس الحرس الوطني السوري:

عقدت الهدنة السورية – الإسرائيلية في 20 تموز 1949، وقضت بنودها بانسحاب وحدات الجيش السوري من الأراضي الفلسطينية التي احتلّتها أثناء الحرب، وبأن تصبح هذه الأراضي "مناطق مجردة" لا يحق لأي من الطرفين إدخال عسكريين من جيشه إليها أو ضمها لأراضيه.

وظلت هذه المناطق، طيلة عام 1951، هدفاً لاعتداءات الإسرائيليين عليها: ففي 25 آذار 1951 فتح اليهود النار باتجاه الخطوط السورية في القطاع المحيط بمستعمرة «مشمَا هَايَردِن» ومزرعة الخوري من الجانب الإسرائيلي، وطالت الرمايات مخفري (الجمرك) و(جسر بنات يعقوب) السوريين.

وفي 30 آذار من العام نفسه عزّزَ اليهود حشودهم في منطقة بحيرة الحولة، ومنعوا السكان العرب الذين يقطنون المنطقة المجردّة فيها من زراعة أراضيهم، ثم في 4 نيسان من العام نفسه دخلت قوة عسكرية إسرائيلية يزيد عدد أفرادها على مائة جندي إلى المنطقة المجردة، واحتلت قرية (السمرة) العربية ودمّرتها، بينما بقيت المستعمرة اليهودية المجاورة لها (هاؤون) سليمة في مكانها.

وبينما كانت لجنة الهدنة في سبيلها لمعالجة هذا الحادث وصلت أخبار عن محاولة دخول سيارتين إسرائيليتين تقلاّن جنوداً إلى موقع (الحمة)، الذي يقع في مكان تلاقي الحدود السورية مع الحدود الأردنية من جهة، والحدود الفلسطينية من جهة ثانية. وقد حاولت السيارتان التملص من المخفر السوري الموجود في مدخل البلدة فتظاهر قائدهما

بأن السيارتين ضلّتا الطريق، وطلب مهلة لا تزيد على دقيقتين للعودة إلى ما بعد خط الحدود، فسمح له الضابط السوري رئيس المخفر بذلك، ولكنه سمعه يقول لأفراد السيارة الثانية بأن ينسحبوا إلى مسافة 50م ويحموا تراجعه لأنه سيقوم بإطلاق النار على رجال المخفر السوري ثم الانسحاب. وصدف أن قائد المخفر السوري كان من الضباط الفلسطينيين الذين يجيدون اللغة العبرية (الملازم رشيد جربوع) فأشار لجنده بإطلاق النار على أفراد السيارة الثانية فسقط من ركابها سبعة قتلى وجريح وأسير تم تسليمهم جميعاً إلى لجنة مراقبة الهدنة.

وفي «1951/4/5، في الساعة السادسة عشر والنصف قصفت ثماني طائرات إسرائيلية منطقة الحمّة، وتصدّت لها الأسلحة المضادة».

وخلال شهر نيسان من عام 1951 كانت القوات الإسرائيلية تهاجم سكان المنطقة المجردة العرب الذين كانوا يقطنون سهل الحولة، في النقيب، والغنّامة، والبكّارة، والجسر، فتُصادر أغنامهم وأبقارهم وتدمّر بيوتهم وتطردهم من ديارهم... وبما أن السكان كانوا أضعف من أن يتمكنوا من صدّ هذه الهجمات الصهيونية فقد جرى إدخال ثلاث فصائل من الجند، برتبائهم وضباطهم، من ملاك كتيبة الاستطلاع، وفوج المشاة الأول، والفوج السادس عشر باللباس المدني حيث اختلط الجند بالسكان المدنيين، وخاض الطرفان معاً معركة حامية ضد الصهاينة، هي «معركة تل الشمالنة» أواخر شهر نيسان 1951. وقد أسفرت هذه المعركة عن مصرع ما يزيد على مائة جندي ومستوطن صهيوني مقابل سقوط تسعة شهداء أحدهم ضابط من الجانب السوري(الملازم الأول أسعد عميّر) بالإضافة إلى إصابة عدد من الجرحى، وقد تمّ تكريمهم بوسام جرحى الحرب «نظراً لإصابتهم أثناء قيامهم بالواجب في منطقة العمليات الحربية».(شهداء معركة الشمالنة هم: الملازم الأول أسعد عمير، الرقيب صالح الحاج عبد الله، المجند يونس أسعد العيسى، المجند عبد صالح عيسى شعبان، المجند علي بن محسن محسن وجميعهم من فوج المشاة الأول، الوكيل زازو كاوه،

المجند طه كلاس، المجند محمد حداد ديب، المجند أحمد عيسى حسن من كتيبة الاستطلاع، وقد منح هؤلاء جميعاً الوسام الحربي من الدرجة الأولى بعد الاستشهاد).

وقد تتابعت حوادث الاعتداء على المنطقة المجردة وسكانها وكانت غايتها، حسبما ظهر بعدئذ، هي إلهاء القوات السورية بالمناوشات على خط الهدنة بينما كانت الجرّافات وآليات الشفط الإسرائيلية تقوم بتجفيف سهل الحولة، ونظراً لأن تجفيف هذا السهل يغير من طبيعة الأرض في المنطقة المجردة ويزيل حاجزاً طبيعياً بعرض 8 كيلو مترات تقريباً، لذا فقد تقدّمت الحكومة السورية بشكوى عاجلة إلى مجلس الأمن الدولي، وفي 8 أيار 1951 «اتخذ مجلس الأمن قراراً أدان فيه إسرائيل لإقدامها على تجفيف بعض أقسام بحيرة الحولة وتغيير مجرى نهر الأردن، مما أدى إلى أعمال حربية في المنطقة المجردة من السلاح الواقعة بينها وبين سورية، وقد دعا مجلس الأمن إسرائيل في قراره هذا للكف عن الأعمال التي باشرت بها». ولكن إسرائيل كانت قد انتهت من الأعمال التي تريد القيام بها في المنطقة!

وعادت المناطق الحدودية للتفجر في أوائل عام 1953 بسبب محاولة إسرائيل تحويل مجرى نهر الأردن، فأرسل الرئيس آيزنهاور إلى المنطقة خبيراً في المياه، وهو المستر إيريك جونستون، الذين قدّم مشروعاً لتقاسم مياه نهر الأردن بين سورية والأردن وإسرائيل، ولكنّ هذا المشروع كان يعني ضمناً الاعتراف واقعياً بدولة إسرائيل وهذا ما رفضته الدولتان العربيتان، بينما تابعت إسرائيل عملية تحويل مياهه.

وبتاريخ «27 تشرين الأول 1953 أرغم مجلس الأمن إسرائيل على وقف الأعمال التي باشرتها في الضفة الغربية من نهر الأردن في المنطقة المجرّدة، وحتى يبت المجلس في الشكوى التي قدّمتها سورية بهذا الخصوص، وقد عهد المجلس إلى رئيس أركان هيئة مراقبة الهدنة بالسهر على تنفيذ هذا التعهد».

وقد كانت هذه الاصطدامات مقدمة للتفكير بإنشاء (الحرس الوطني) من سكان المنطقة، ويقول اللواء أمين أبو عساف في ذلك: «بعد أن تكررت حوادث العدوان

الصهيوني على المنطقة المجردة، واتضحت خطتهم (أي خطة اليهود) القاضية بالاستيلاء على هذه المناطق والتمركز بها عسكرياً، وبعد طرد سكانها العرب، قررت رئاسة الأركان العامة الدفاع عن هذه الأراضي بشتى الطرق والأساليب للمحافظة عليها دون اللجوء إلى اصطدام يشترك فيه الجيش بشكل صريح. لذلك وسعياً وراء تنفيذ هذه الخطة لجأت قيادة القطاع بموافقة السلطات المسؤولة ومؤازرتها على تسليح السكان العرب في المناطق المجردة بأسلحة فردية وأوتوماتيكية تختلف نوعاً ما عن الأسلحة المستخدمة في الجيش».

واستمرت المناوشات بين الجانبين السوري والإسرائيلي بقية عام 1953، وطيلة عام 1954. «وكانت في أغلب الأحيان إذا لم نقل دائماً، في صالح الجيش السوري، فقد استطاع هذا الجيش دائماً تعطيل العمل في تحويل مجرى نهر الأردن، وأن يفرض سيطرته على المنطقة المجردة، وخاصة منطقة الحمّة التي فشلت عدة محاولات إسرائيلية للسيطرة عليها. وكانت فصيلة كاملة من رجال الجيش السوري، بإمرة ضابط تابع لرئاسة الأركان مباشرة، تقيم بصفة مدنيين مع السكان الأصليين، في هذا الموقع لمنع إسرائيل من احتلاله كما فعلت في بقية أجزاء المنطقة المجرّدة».



معركة بحيرة طبريا (1955/12/11)

ويضيف أرشيف وزارة الدفاع السورية أنه في عام 1955 عدلت إسرائيل عن سياسية الاصطدام الجبهوي إلى سياسة الكمائن والإغارات الليلية، حيث نصبت كميناً في تشرين الأول 1955، على طريق مخفر الجمرك – علمين، ذهب ضحيته الملازم أول أشرف حمدي وعدة شهداء.

وفي يوم 11 كانون الأول 1955 اقترب زورق يهودي مسلح، أثناء ساعات النهار، من الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا، فأطلقت عليه مخافر المراقبة السورية النار، فأصيب بعض بحارته وتراجع إلى قاعدته. و "اعتبر الحادث منتهياً عند هذا الحد، فقد اعتاد اليهود أن يغامروا في الاقتراب من الشاطئ، واعتادوا أن يتلقوا تحية المراكز السورية فينطووا على أنفسهم ويعودوا من حيث أتوا".

ولكن الوضع كان يختلف في ذلك اليوم، لأن الإسرائيليين كانوا يفتشون عن عذر يبررون فيه اعتداءاتهم على المخافر السورية في الحاصل والمسعودية والدوكا والكرسي ونقيب، ولذا تعمدوا التحرّش بهذه المخافر نهاراً لكي ينتقموا من أهلها وحَرَسها ليلاً!

وكانت مهمة المخافر السورية القائمة على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية المراقبة وإبلاغ المخافر العليا في تل ناقص 69، وتل النيرَب، موقع سكوفيا عن تحركات الصهاينة، وفي حال وقوع اعتداء صهيوني على نطاق واسع كان على هذه المخافر مشاغلة القوات المعادية ريثما تتدخل قوات المخافر الرئيسية (العليا). ومعنى هذا أن مهمة هذه القوات كانت مهمة مراقبة وإعاقة أكثر من أن تكون مهمة تصدٍّ وقتال.

بدأ الهجوم على هذه المخافر عبر المحورين: المحور الأول على شكل إنزال بزوارق من البحيرة، والمحور الثاني بقوة برية انطلقت من مستعمرة عين جيف، وهذه القوة بحجم كتيبة من لواء «جولاني»، معززة بسرية من قوات المغاوير المدربّة على القتال الليلي، وعدد من الأدلاء المدنيين الذين يعرفون المنطقة. وكان أول عمل قامت به القوة المهاجمة هو قطع أسلاك الهاتف التي تصل المخافر الأمامية بالمخافر العليا.

وأما المدافعون فكانوا لا يزيدون على سرية واحدة من المشاة هي السرية الثانية من الفوج الخامس بإمرة الملازم الأول سعيد قزيز، الذي كان مقره في تل ناقص69، ويعاونه ضابط مجند هو الملازم بشير صفدي.

وكان هناك سرية أخرى من الفوج نفسه، مقرها في سكوفيا بإمرة الملازم أول ممدوح قرة شوللي. وإذا استثنينا مركز القيادة التعبوية للفوج، ومركز قيادة السرية الأولى (في سكوفيا) ومركز قيادة السرية الثانية (في تل ناقص 69)، فإن كل مخفر من المخافر السورية الأمامية الموجودة في منطقة البطيحة (الحاصل، المسعودية، الدوكا، الكرسي، نقيب) لم يكن يحوي أكثر من جماعة مشاة ورشاش وأربعة أو خمسة من المدنيين بإمرة رقيب أو مساعد.



محمد إبراهيم الصالح وتمر الماضي
وسليمان الأحمد

لهذا لم تستغرق المعركة أكثر من أربع ساعات وانتهت إلى استشهاد أغلب العناصر الذين كانوا في المخافر الأمامية، وحوالي ثلث من كانوا في مركز قيادة السرية (تل ناقص 69) بمن فيهم ضابطان مجندان وقائد الموقع الملازم الأول (الشهيد) سعيد قزيز. وفي صبيحة المعركة صرح ناطق عسكري سوري بالبيان التالي: «في الساعة 22,30 من تاريخ1955/12/11» قام الصهاينة بهجوم مركّز واسع النطاق على طول الشاطئ الشرقي السوري لبحيرة طبريا، تتألف عناصره من قطعات مغاوير تقدر بفوجين من مصب نهر الشريعة في البحيرة، ومن مستعمرة عين جيف، تدعمها كوكبة مصفحات وتساند المجموعة نيران مدفعية الميدان والزوارق الحربية، استطاعت هذه القوة بعد قتال عنيف دام أربع ساعات الاستيلاء على المخافر الأربعة المتمركزة على الشاطئ للمراقبة والإنذار.

وبعد أن استشهد معظم العسكريين أمام تلك القوة الكبيرة، حاول الإسرائيليون بعد استيلائهم على مخافر المراقبة الهجوم على المرتفعات ومراكز المقاومة المحيطة بالشاطئ، فركزوا نيرانهم واندفعوا بكامل قوتهم تدعمهم المصفحات للاستيلاء على أحد مراكز المقاومة الرئيسية فدار قتال عنيف استمر ساعتين، ثم انسحب الصهاينة إثر فشلهم من المخافر السورية كلها، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. لقد ضربت مخافر مراقبتنا بحاميتها الضئيلة أروع مثل في البطولة والتضحية، وكانت خسائرنا خمسة وعشرين شهيداً منهم ثلاثة ضباط، وثمانية وعشرين مفقوداً. لقد قامت عشر سيارات إسعاف إسرائيلية منذ الساعة الثانية عشرة حتى الرابعة صباحاً بنقل الجرحى والقتلى الصهاينة من منطقة القتال إلى مستعمرة عين جيف الإسرائيلي».

ولقد قامت القيادة العسكرية السورية بعد المعركة بسحب السرية الثانية من الفوج الخامس، التي تلقت الصدمة، فجمعتها في مركز قيادة الفوج في بلدة (فيق)، واسندت قيادتها إلى ضابط كفؤ استكمل نواقصها (النقيب إحسان هندي)، وتابع تدريبها لمدة شهرين انتشرت بعدهما في موقع (كفر حارب)، حيث ثأرت لقتلاها حين نجحت في

صدّ وحدة إسرائيلية كانت تحاول التقدم في وادي (قلعة الحصن) باتجاه مركز القيادة في بلدة فيق خلال الشهر الرابع من عام 1956. ولم يكن مكان هذه المعركة يبعد بأكثر من بضعة كيلو مترات عن المكان الذي دارت فيه قبل بضعة أشهر معركة طبريا.

أدان مجلس الأمن في 19 كانون الثاني 1956 بصراحة تامة العدوان الذي شنته إسرائيل في 11 كانون الأول 1955 على المراكز السورية قرب بحيرة طبريا، وقد اعتبر عملها هذا خرقاً فاضحاً لنصوص الهدنة، ومتناقضاً تناقضاً تاماً مع التزامات إسرائيل بموجب نصوص هيئة الأمم المتحدة. ونثبت فيما يلي: نص هذا القرار لأهميته (بعد اختصار الحيثيات):

«إن مجلس الأمن:

أ . يعتبر أن ما تضعه سورية من عراقيل في وجه صيادي الأسماك اليهود في بحيرة طبريا لا يبرر العدوان اليهودي.

ب . يذكّر المجلس أنه سبق أن شجب الأعمال الإسرائيلية التي قامت بها خارقة بذلك نصوص اتفاقيات الهدنة، وأنه سبق له أن طلب من إسرائيل اتخاذ التدابير اللازمة بمنع تكرار وقوع مثل هذا الحادث.

ج . يشجب المجلس العدوان الذي قام به اليهود في الحادي عشر من كانون الأول 1955، ويعتبره خرقاً فاضحاً لنصوص اتفاقية الهدنة والتزامات إسرائيل بموجب ميثاق الأمم المتحدة.

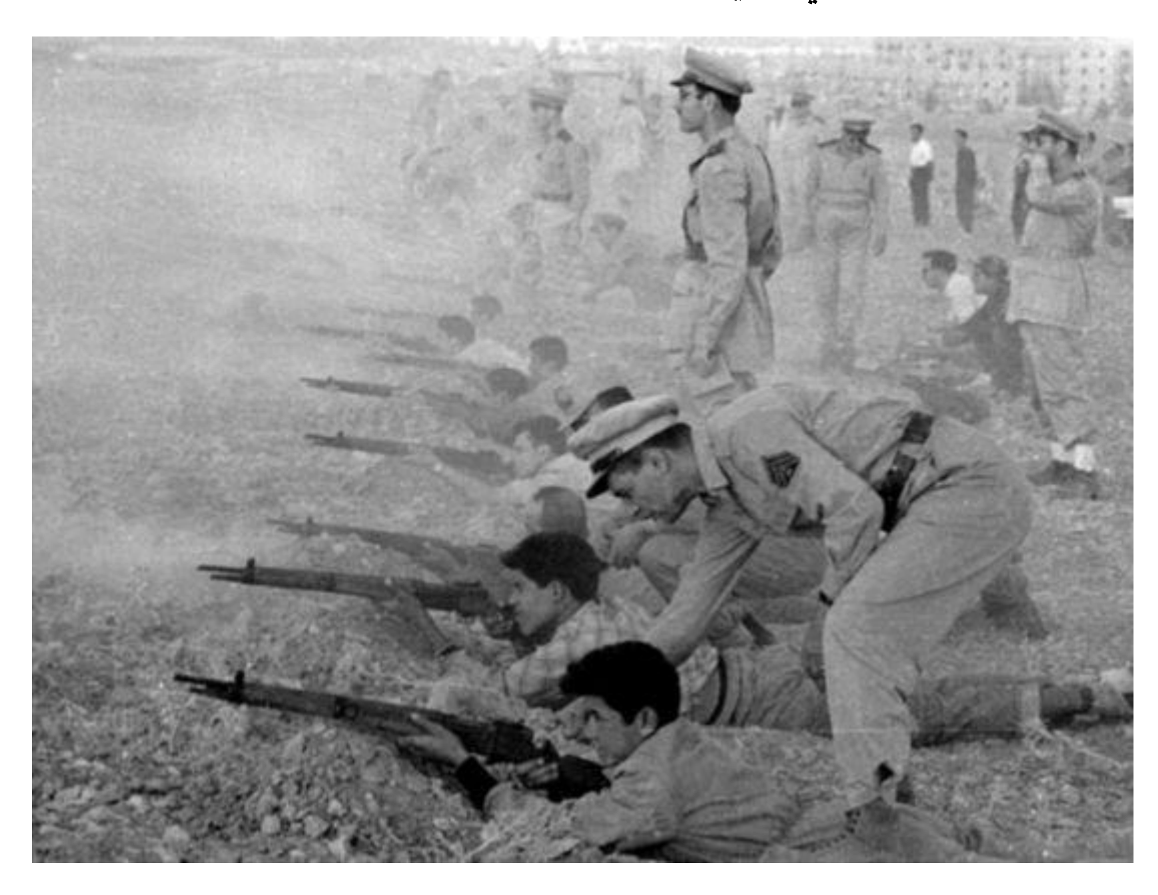
د . يعبر المجلس عن قلقه الشديد من جراء خرق إسرائيل لالتزاماتها.

هـ . يدعو المجلس إسرائيل لكي تتمسك بهذه الالتزامات وإلا فإن المجلس سيضطر لاتخاذ تدابير أخرى في المستقبل وفق ميثاق الأمم المتحدة لتوطيد وإعادة السلم في المنطقة.

و . يدعو المجلس الجانبين إلى احترام التزاماتهما بموجب المادة الخامسة من اتفاقيات الهدنة على الحدود والمنطقة المجردة من السلاح.

ز . يدعو المجلس الجانبين إلى التعاون مع كبير المراقبين الدوليين لتبادل الأسرى في أسرع وقت ممكن».

وفي أيلول 1957 «وقع اشتباك بين أهالي قرية التوفيق وجماعة إسرائيلية مسلحة، ونجم عن ذلك قَتْل وجرح عدد من الإسرائيليين، وكانت نتيجة ذلك منع الإسرائيليين من حفر قناة عبر أراضي القرية».



2. جسر بنات يعقوب حيث سقط خالي شهيداً

يقع جسر بنات يعقوب على نهر الاردن.. على بعد قرابة كيلو متر من جنوب بحيرة الحولة، التي تم تجفيفها. وقد حمل هذا المكان إسماً قديماً هو مخاضة يعقوب. نسبة

الى نبي الله يعقوب (بنو إسرائيل) عليه السلام. والذي عبر نهر الأردن من هذه المخاضة هو وبناته عند عبورهم لفلسطين، وأيضاً وهو في طريقه لزيارة خاله (لابان) شمال سورية.

- ومكان الجسر اختاره الناصر صلاح الدين الايوبي محرر القدس، لربط طرق القوافل القادمة من فلسطين إلى دمشق.

- وقام بتجديده الملك الظاهر بيبرس، ويرجح البعض أن الجسر وخان مجاور له من الجهة الشرقية، قد أعيد بناءهما منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أو جرى ترميمهما من جديد. ثم جُدّد بناء الجسر أواخر القرن السادس عشر بسبب ضيق مجرى نهر الأردن في هذه المنطقة، لدخوله منطقة جبلية. وتم بنائه كل مرة توافقاً مع حركة المياه وارتفاع منسوبها لنهر الأردن. وقد كان الجسر حتى عام 1948م، الوصلة الوحيدة بين الجولان والجليل الأعلى.

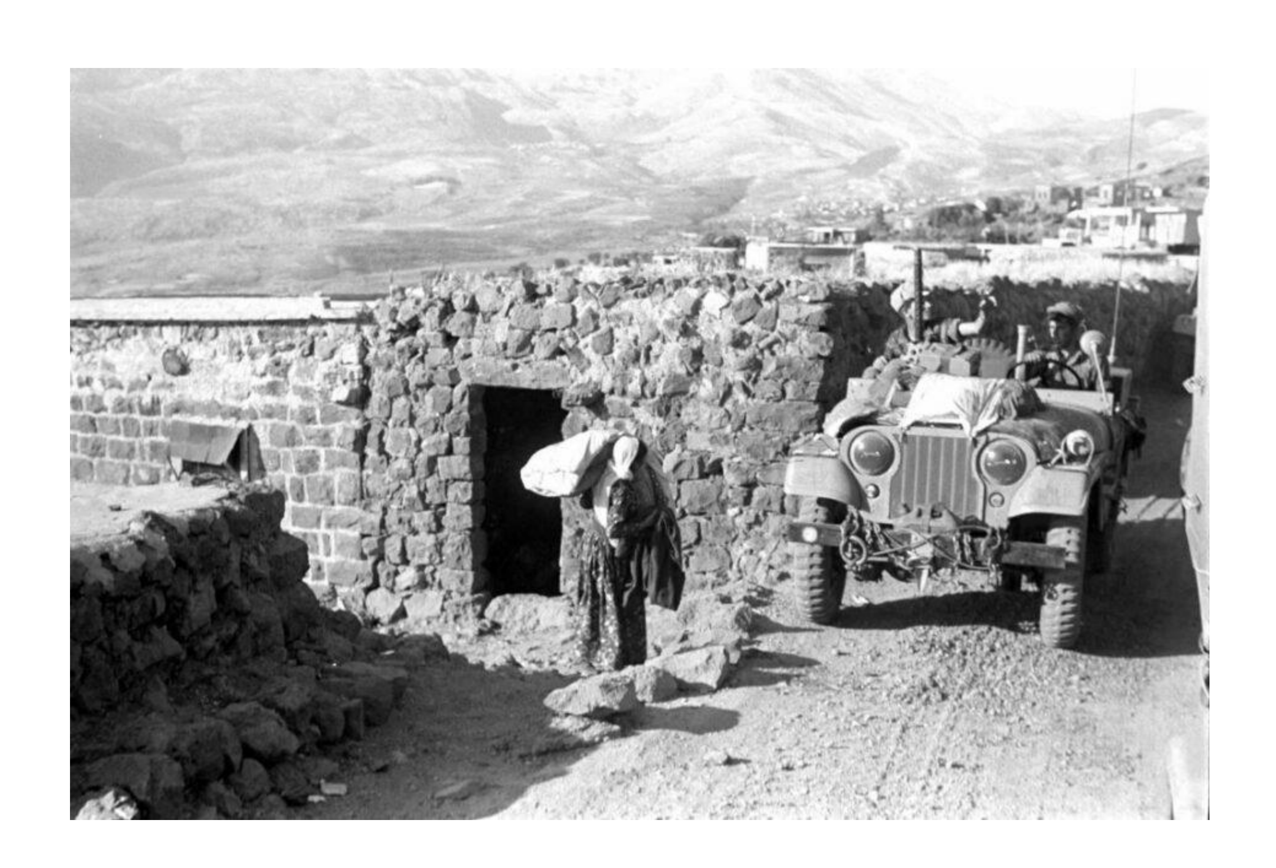
- قام الرحالة الألماني الدكتور أولريخ كاسبر سيتزين، الذي زار الجولان في شهر كانون الثاني 1805م بادئاً رحلته إلى جبل الشيخ ومنابع الاردن، وسائر مناطق الجولان. منتحلاً شخصية طبيب يدعى (موسى الحكيم) فكان أول أوروبي يزور الجولان منذ الحروب الصليبية. وقام بزيارة الأقاليم الواقعة شرقي بحيرة طبريا ووادي الأردن ... وكتب واصفاً جسر بنات يعقوب:

الجسر بحالة جيدة جداً. وهو عريض وله ثلاثة أقواس. ويقدر عرض النهر ب35 خطوة. مع أن الجسر أكبر منه بنصف هذه المسافة يعني 50 خطوة. وفي النهاية الغربية للجسر طاحونة ماء، وخان للمسافرين يقع في الجهة المقابلة على الضفة العليا.. على بعد 100 خطوة من الجسر.

- والخان مشيد بأكمله من الحجارة البازلتية إلا الواجهة. ولكنه من الداخل يكاد يكون مهدماً، والتهديم قد حصل من قبل الكتيبة الفرنسية التي أرسلها نابليون لمطاردة كتيبة عثمانية عام 1799م بعد غزوه لمصر.

– وفي ذلك الخان التقى الرحالة سيتزن بعدد من جنود متسلم صفدي، الذي أستأجر الجسر من باشا دمشق لتقاضي أجرة المرور عليه، ويؤكد سيتزن أن هذا الجسر والخان بني في عصور قديمة.

– وبعد نكبة فلسطين وحرب 1948-1949 أي الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، استخدم الجسر لتبادل الأسرى بين السوريين واليهود بعد معركة تل الفخار وتل العزيزيات بإشراف وترتيب الصليب الأحمر الدولي. وخلال هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ م استشهد على بعد أمتار من الجسر، خالي الشهيد ظاهر أحمد الزامل من بلدة الرفيد النعيمية. وكان يصد طيران العدو بمدفع رشاش 14,5 وبقي جثمانه مسجى هناك دفاعاً عن أرضه الجولان وعلى أمل تحرير فلسطين الغالية.



حرب 1948 ونتائجها على جبهة الجولان

اسماعيل عمر

صحفي وكاتب سوري

بعد إعلان بن غوريون قيام دولة إسرائيل من الكنيست مساء 14 أيار (مايو) 1948، كان الرد العربي على هذا الإعلان عبور القوات العربية نحو فلسطين لتحريرها من اليهود وذلك ابتداءً من الفترة نفسها التي أعلنت فيه الدولة اليهودية، حاولت القوات السورية الوصول إلى الحدود الأردنية الفلسطينية المشتركة قرب سمخ، بينما تحركت القوات اللبنانية جنوباً نحو المالكية وقَدَس، أما القوات العربية الأخرى فقد تحركت نحو مواقع أخرى من فلسطين.

بالإشارة إلى الخطة العربية التي كانت قد وضعت سابقاً من قبل جامعة الدول العربية، كان على الجيش المصري الوصول إلى تل أبيب من الجنوب، والجيش الأردني الوصول إلى حيفا من الشمال الشرقي والشرق، ولكن حصل تعديل في الخطة نتيجة إصرار الملك عبد الله (ملك شرقي الأردن) لتزعم قيادة العمليات العسكرية لبسط سيطرته على الموقف والخروج من المعركة المنتصر الأول وقائداً للأمة العربية دون منازع، وعليه هاجم الفيلق العربي القدس دون التقيد بالاتفاقات السابقة، كما هاجم السوريون عيمك هابردين (سمخ) من جهة الشرق بدلا من الانطلاق من المطلة نحو الجنوب من الجهة الشمالية.

في المقابل حاولت القوات اليهودية منع الجيش اللبناني من تحقيق مهمته للسيطرة على المالكية، فتقدمت لاحتلالها قبل أن يتمكن من بسط سيطرته عليها ، لكن الجيش اللبناني شن هجوما مضاداً استطاع خلاله استعادة قرية المالكية، فيما عادت القوات اليهودية مجدداً وسيطرت على المالكية بعد إخراجها وحدات الجيش اللبناني منها بتاريخ 19 أيار (مايو)، لكن عادت واستطاعت وحدات مشتركة من الجيش اللبناني وجيش

الإنقاذ العربي من استعادة المالكية من اليهود، وحررت رمات نفتالي وقَدَس، وهكذا أصبحت الطريق نحو سهل الحولة والجنوب مفتوحة.

من جهته استطاع الجيش السوري احتلال سمخ على الضفة الجنوبية لبحيرة طبريا، واستمر الجيش السوري بتقدمه ولم يكن أمام القوات اليهودية سوى القيام بهجوم مضاد لإيقاف تقدم السوريين، لهذا شنت هذه القوات هجوماً على الجيش السوري في منطقة جسر بنات يعقوب لكن الهجوم الإسرائيلي فشل، وحاول السوريون استغلال الموقف وعبور نهر الأردن في محاولة لاحتلال مستعمرة مشمار هابردين لتأمين الاتصال بقوات الجيش اللبناني وجيش الإنقاذ في قرية المالكية، وقد استطاع السوريون السيطرة على مشمار هابردين وإقامة رأس جسر عبر نهر الأردن نحو فلسطين.

اقترح بيغن بتاريخ 24 أيار (مايو) 1948 تكليف ايغال الون مهمة ضرب الجيش السوري عند عيمك هابردين من الشمال والشرق فور تسلم القوات اليهودية العتاد والذخائر القادمة من الخارج، فيما ركز على ضرورة إخراج لبنان من المعركة لأنه الحلقة الضعيفة في عقد الحلف العربي، كما أن سلطة المسلمين فيه ضعيفة ويمكن تقويضها، ومن ثم إنشاء دولة مسيحية يكون نهر الليطاني حدها الجنوبي ويعقد حلفاً معها.

من جهة أخرى أعلن الرئيس اللبناني بشارة الخوري في تصريح نقلته صحيفة الحياة في عددها 629 الصادر بتاريخ 28 أيار (مايو) 1948 وجاء فيه: «أن أعز أمانينا أن تخفق ألوية النصر في فلسطين»، فيما أعلن أوبري ايبان أن الحكومة الإسرائيلية تسيطر على الجليل الغربي بما في ذلك المستوطنات الممتدة حتى الحدود اللبنانية، كما أعلن مناحيم بيغن أن الدولة الصهيونية أسست على جزء من وطننا ممهدا بذلك للمطالبة بتحقيق الأطماع اليهودية خارج فلسطين.

لا بد من الاشارة إلى أن الكونت برنادوت موفد الأمم المتحدة حاول حل المشكلة الفلسطينية من خلال إيجاد حل وسط مقبول من الأطراف كافة، فاجتمع مع ممثلين

من كل فريق في جزيرة رودس لمدة أسبوع، وبنهاية الاجتماعات في 27 حزيران (يونيو) 1948 قدم اقتراحاته لمختلف الأطراف معتبراً هذه الاقتراحات أساساً مقبولاً للحل وحاول إيجاد توازناً وحلولاً مقبولة من الأطراف المتصارعة، فاقترح إعطاء منطقة النقب للدولة العربية في مقابل إعطاء الدولة اليهودية منطقة الجليل الغربي، ولكن الطرفين رفضا هذه الاقتراحات.

كان من حصيلة معارك الأيام الأولى من الحرب وقبل إعلان الهدنة الأولى أن سيطرت القوات العربية على القسم الأكبر من فلسطين . . . فسيطر الجيش السوري مع جيش الإنقاذ العربي على الجليل حتى جنوب طبريا ما عدا مستعمرات الجليل الشرقي.

فيما أعلنت الحكومة اللبنانية بتاريخ 3 آب (أغسطس) 1948: "أن لبنان دخل المعركة بكل جارحة من جوارحه وخاض حرب الإنقاذ . . . ولكنه كأشقائه العرب يقبل بوقف القتال ويستجيب لطلب الوسيط الدولي لإجراء مفاوضات مع اليهود".

الجدير ذكره أنه في الفترة التي تلت الهدنة الأولى وبعد أن وصلت الأسلحة والذخائر المنتظرة لليهود اختل ميزان القوى لصالح اليهود، كما اعتمد اليهود على أسلوب قتالي برهن عن نجاحه بعد استعماله على جبهات عدة ويقضي بنقل المعارك فجأة من جبهة إلى أخرى خاصة وأن الجيوش العربية كانت لا تأتمر بقيادة أركان واحدة، وفيما كانت القوات اليهودية تقاتل الجيش المصري على الجبهة الجنوبية نقلت فجأة عملياتها العسكرية إلى الجبهة الشمالية لتنفيذ عملية حيرام العسكرية لضرب الجيش اللبناني والتي ترتب عنها سقوط منطقة الجليل إضافة لبعض القرى اللبنانية.

من المعلوم أن التخاذل العربي والصراع الشخصي بين القادة العرب للسيطرة على قيادة الجيوش العربية فيما بينهم ساهم بإضعاف قوتهم وانهيار جبهتهم، ففي 30 تشرين أول (أكتوبر) 1948 تبلغ القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي من المقدم شوكت شقير رغبة لبنان بالانسحاب من المالكية وقَدَس وبليدا تجنيباً للمناطق الحدودية القتال، وبالفعل

انسحب القاوقجي بجيش الإنقاذ من القرى الثلاث باتجاه مناطق أخرى وحاول أن يبلغ وزير الدفاع السوري حسني الزعيم بهذه التطورات لكنه فوجئ بأن الوزير الزعيم كان بدوره قد أعطى أوامره إلى الجيش السوري بالانسحاب من الجبهة الحدودية مما سمح لليهود ببسط سيطرتهم على هذه المناطق الاستراتيجية.

في المقابل وافق العرب على وقف إطلاق النار بسبب الخسائر المرتفعة واختلال ميزان القوى لصالح قوات العدو خاصة بعد أن استطاعت هذه القوات من بسط سيطرتها على أجزاء كبيرة من فلسطين تفوق تلك التي كانت قد منحتهم إياها الأمم المتحدة من خلال قرار تقسيم فلسطين، يضاف إلى ذلك، بعد سيطرة اليهود على بعض القرى اللبنانية بعد اختراقهم الحدود الدولية كرسوا سيطرتهم على مناطق كان لبنان يطالب بها قبل الحرب فيما أصبح الآن يطالب بما فقده خلال هذه الفترة، لهذا عملت على تدمير مناطق القرى السبع تباعاً وطردت سكانها كما استولت على كامل سهل الحولة.

من الواضح أن اليهود قد استغلوا الأوضاع السياسية اعتباراً من 15 أيار (مايو) 1948 وباشروا بتنفيذ مخططاتهم وأطماعهم تجاه لبنان فعملوا على اقتطاع الأراضي تباعا واحتلوا عشرات القرى بهدف مقايضتها وتحقيق أطماعهم في المياه اللبنانية. كما حاولوا من خلال بسط سيطرتهم على العديد من المناطق. وتحقيق استراتيجية سياسية وعسكرية واقتصادية، فالسيطرة على أرض ماكير (الجولان وحوران) تسهم بالسيطرة على مياه اليرموك والأراضي الزراعية الخصبة فيما السيطرة على أرض نفتالي (الجليل) توسع الأرض الزراعية وتجعل بالإمكان السيطرة على مياه الأردن والليطاني، وكذلك السيطرة على الجولان تجعل من المستحيل قيام القوات السورية بهجوم على فلسطين. والسيطرة على منطقة الجليل تضمن لهم مواقع أقوى في الجليل وتفصل المناطق اللبنانية عن المناطق السورية.

في وقت لاحق عبر بن غوريون عقب انتهاء الحرب عن أهمية موقع الجليل والشريط اللبناني في استراتيجية الاستيطان اليهودي عندما قال أنّنا لا نبغي جليلاً خالياً ومقفراً

بقدر ما نريد جليلاً مستوطناً على طول شاطئ البحر حتى رأس الناقورة وعلى امتداد الحدود اللبنانية وفي ضواحي صفد أيضاً لأن للاستيطان هذا أهمية عسكرية.

التطورات السياسية بعد حرب العام 1948

في المقابل وصلت برقية إلى الخارجية البريطانية من السفارة البريطانية في دمشق تناولت خلاصة حديث ساسون المستشار الشرقي لدولة إسرائيل حول موضوع الصراع العربي اليهودي، ومما ورد في البرقية:

– ليس صحيحاً أن اليهود سيهاجموا الولايات العربية الدول العربية.

– لا ينوي اليهود إحضار كما يتداول ما يقارب 13 أو 14 مليون يهودي لتوطينهم في فلسطين، ولكن العدد المقدر هو مليون وبضعة مئات من الالاف فقط، خاصة وأن الدولة اليهودية غير قادرة على تأمين الحماية لهم، ولكن فيما لو رغب بعض اليهود البارعين والحرفيين المتخصصين في الهجرة إلى فلسطين لن يشكل أحد عائقاً في سبيل وصولهم إلى فلسطين.

–لن تطالب دولة إسرائيل بالمزيد من الأراضي العربية، ولكنها تتمنى أن تتعاون مع العرب في التنمية الاقتصادية المشتركة.

–ليس صحيحاً أن الدولة اليهودية تتمنى الارتباط بأية قوة أجنبية، أو أن يكون للسياسات الروسية أو البريطانية أية تأثيرات جانبية على السيادة في الشرق الأوسط، وما هذه الأقوال عن دور روسي أو بريطاني ليست سوى ادعاءات بعض الأطراف العربية وبريطانيا في المنطقة.

– ليس صحيحا أن اليهود يريدون عرب ضعفاء بقدر ما يريدون عرباً قادرين على الارتباط باليهود عبر اتفاقات سياسية وعسكرية واقتصادية وتجارية وجمركية، وهذا ما أراد موشي شارتوك (شاريت) الوصول إليه من المفاوضات.

– ليس صحيحاً أن اليهود يحرضون العالم ضد العرب، كما أن كل ما نشر عن اللاجئين في الصحف العربية والبريطانية غير صحيح ويؤثر سلباً على هذه القضية.

– أظهر ساسون الكثير من الأسف لأن الوسيط الدولي بانش قد أمضى عشرة أسابيع دون أن يصل إلى أي تقدم عملي، وأرجع السبب إلى دور الزعماء العرب السلبي من الأزمة وهذا إن دل على شئ إنما يدل على نظرة تطرف لدى العرب، فمشكلة اللاجئين لا يمكن أن تترك إلى الوسيط الدولي فقط وإنما العمل المشترك للوصول إلى نتائج أكثر جدية لحلها.

جرياً على عادتهما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا إيجاد حلول للمشاكل وبشكل يتلاءم مع مصالحهما، وعلى هذا الأساس قاما بإرسال روبرت ماكلينتوك مدير مكتب الشؤون السياسية الخاصة في وزارة الخارجية الأمريكية والسيد جون تروتبيك رئيس المكتب البريطاني للشرق الأوسط في القاهرة لإجراء محادثات غير رسمية مع موفد الأمم المتحدة الكونت برنادوت في جزيرة رودوس وكانت وجهات النظر متطابقة بين الأطراف الثلاثة، وخرج المجتمعون باقتراح يقضي بضرورة تعديل قرار تقسيم فلسطين.

عاد وقدم الوسيط الدولي الكونت برنادوت بتاريخ 16 أيلول (سبتمبر) 1948 في تقريره الذي رفعه للجمعية العامة للأمم المتحدة عن فشل تقدم العمل بقرارات الأمم المتحدة بسبب وجود العديد من الصعاب أولها عدم وجود اتفاقية محددة: بين الأطراف المتنازعين، بالإضافة إلى عدم تنفيذ التوصيات الصادرة عن الجمعية العامة وخاصة القرار الصادر بتاريخ 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 والقاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ولإبقاء صحراء النقب ضمن الأراضي العربية.

في ظل هذه الأوضاع نقل السفير البريطاني عن رئيسي الجمهورية (بشارة الخوري) والحكومة اللبنانيين (رياض الصلح) رأيهما حول القضية الفلسطينية خاصة بعد اجتماع القمة العربية حول المشكلة الفلسطينيين، فأشارا إلى أن قرار اللجنة السياسية بإنشاء

حكومة عربية في فلسطين الهدف منه فهم التناقضات العربية من المشكلة والحد منها، وأضافا كذلك أن الهدف ليس منع الاعتراف الدولي بإسرائيل وإنما منع أية دولة عربية من الاعتراف بإسرائيل، ومنع السيطرة على مناطق الضفة الغربية من قبل حكومة شرق الأردن.

مع انتهاء حرب العام 1948 كان الكونت برنادوت موفد الأمم المتحدة قد أوصى بضرورة عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم، كما أن الأمم المتحدة قد تناولت الموضوع في كثير من جلساتها واتخذت العديد من القرارات ولكن كان ينقص هذه القرارات التنفيذ، ومن هذه القرارات تبني الجمعية العامة 11 كانون أول (ديسمبر) 1948 قرار رقم 194 حول اللاجئين وحق العودة، وكذلك تبنت الموافقة على اللجنة التي سبق وتم تشكيلها يوم 9 كانون الأول (ديسمبر) 1948 والتي دعيت لجنة التوفيق والمؤلفة من تركيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية على أن يكون مقرها لوزان وتوكل إليها مهمة تقريب وجهات النظر بين العرب والإسرائيليين.

النتائج الكارثية على أبناء الجولان

أصبحت إسرائيل على حدود الجولان وهذه المرة ليس تحت غطاء الانتداب البريطاني والتنافس الاستعماري الفرنسي البريطاني.

لم يعد بإمكان ملاكي أراضي الحولة الوصول لأراضيهم والمطالبة بها وقد حرمتهم قبل ذلك سلطات الانتداب البريطاني لتسهل عمليات القضم لصالح الاستيطان اليهودي بل ونشرت مستوطناتها حتى قبل حرب 1948.

أدت هذه الحرب لاستقبال عشرات آلاف اللاجئين الفلسطينيين من الشمال الفلسطيني إلى قرى الجولان المتاخمة ومدينة القنيطرة.

سهل وزير الدفاع السوري حسني الزعيم تقدم القوات اليهودية ليسيطر على الجليل والحولة.

قاوم أبناء الجولان وشاركوا في حرب 1948 بفعالية ومن خلال حرب شعبية حتى قبل 1948 وتلخصت بما يلي:

في تاريخ 14 /1 /1946 أقدم 15 صهيوني مسلح من مستعمرة الدردارة بمهاجمة ثلاثة رجال من الدرك السوري بينما كانوا نائمين وأوثقوهم وكموا أفواههم كما تسللت دبابات انكليزية الى وادي العسل في الجولان بتاريخ 10 /6 /1946 بقصد الوصول الى بانياس وفي 28 /12 /1946 تجاوز مستوطنون من مستعمرة كفر صلد اليهودية خط الحدود وقاموا بتعزيل اراضي العقدة السورية توطئة لاستثمارها بعد ان قامت حكومة فلسطين البريطانية عام 1942 بالتعدي على الاراضي السورية وتسجيل هذه الاراضي باسم اليهود دون وجه حق ودون أن تدافع سلطات الاحتلال الفرنسية يومها عن حق المواطنين السوريين، وقد أدت هذه الحوادث وغيرها وخصوصا بعد صدور قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني عام 1947، أدت الى شعور أبناء الجولان أكثر من غيرهم بالخطر الصهيوني كما تدل على ذلك وثيقة محفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق وتتحدث عن دور خاص لأبناء الجولان في انقاذ الاراضي الفلسطينية بسبب الوضع الجغرافي للجولان ومتاخمة أراضيه لأراضي فلسطين المقدسة مباشرة حسب تعبير قائمقام الجولان في ذلك الوقت الذي ارسل رسالة الى محافظ دمشق في 1947/12/1 يخبره فيها أن وجوه واصحاب الرأي في قضاء الجولان وعلى رأسهم النائب الأمير فاعور الفاعور اجتمعوا معه حيث بحثوا فتح مراكز للتطوع للقتال في فلسطين.

وقد فتح مركز للتطوع فورا في نادي المحاربين القدماء حيث سجل في ظرف ساعتين أكثر من 300 متطوع من عرب الفضل والشراكسة حسب نص الوثيقة التي تذكر أن الكثيرين سجلوا أنهم يقتنون سلاحهم.

معركة الخصاص الثالثة

ولم ينتظر أبناء الجولان تشكيل جيش الانقاذ فقد بدؤوا بمقارعة عصابات الصهاينة بعد أيام من الاجتماع المذكور وتشير وثيقة مؤرخة بتاريخ 1947/12/22 أي قبل تشكيل جيش الانقاذ بثمانية أيام إلى أن مجموعة من عرب الفضل كمنت لعصابة صهيونية في بيت الأمير فاعور في قرية الخصاص الواقعة في سهل الحولة وقتلت ستة من عصابات الصهاينة وأحرقت سيارتهم وعلى اثر ذلك أتت ثماني عشرة سيارة للصهاينة لنجدة السيارة الأولى فهب أهالي قرية الزوق وقطعوا الطريق على السيارات وتبادلوا مع اليهود اطلاق الرصاص لمدة ثلاث ساعات قبل تدخل قوى الحدود وتذكر الوثيقة مقتل عدد كبير من الصهاينة ووصول نجدات كبيرة من بيت جن للاشتراك مع عشائر الفضل في حركات الحدود.

وتواصلت المعارك بين أبناء الجولان المتطوعين لقتال الصهاينة في الأيام التالية لهذه الحادثة وقد ذكرت وثيقة مؤرخة بتاريخ 1948/1/12 أن المجاهدين العرب هاجموا سيارة تقل أفرادا من العصابات الصهيونية المسلحة كانت تتجه إلى مستوطنة كفر حلط اليهودية وذلك قرب المداخل المتاخمة للحدود السورية عند بانياس، وتبادل الطرفان اطلاق النار لمدة ثلاث ساعات مما أسفر عن قتل سبعة صهاينة وواحد من العرب السوريين، وتذكر الوثيقة أن المصفحات البريطانية قصفت مواقع المجاهدين العرب في الأراضي السورية ولا يزال تجمع المجاهدين يزداد ويستعد لتنفيذ عمليات في الحولة.

وفي 1948/1/18 حصل اشتباك بين المجاهدين العرب والمستوطنين اليهود قرب مستوطنة دان الكائنة على الحدود السورية قرب تل القاضي، وقد اصيب مواطن سوري من قرية شوقا الفوقا في الجولان، وقد قام المستوطنون جراء هذه العمليات بالانتقام من أبقار المواطنين السوريين وقتل عدداً منهم، ومن ذلك ما ترويه وثيقة أرسلها قائم مقام

الجولان إلى محافظ دمشق يخبره فيها أن مستوطني دان قتلوا عشرة أبقار لمواطنين سوريين قرب جسر وادي العسل غرب بانياس.

معركة عين زاغة

في عام 1948 قاد الشيخ "عدنان السلوم" شيخ العجارمة ثلة من المجاهدين للدفاع عن "فلسطين" فهاجم مستوطنة "عين زاغة" في منطقة "الحولة" بالجولان وتسمى آنذاك "بالكبانية" أي المستوطنة- فقتل ثلاثة مستوطنين وخلف عدداً من الإصابات بين صفوفهم بعد أن تمكن من الوصول إلى بوابة المستعمرة المحصنة تحصينا عسكريا فأصيب خلال العملية وتم نقله بسيارة قائد الجيش آنذاك "سامي الحناوي" إلى مدينة "دمشق" ومكث فيها أكثر من ثلاثة أشهر.



الأمير فاعور الفاعور أمام عمرة الفاعور في واسط بالجولان ومن الغنائم التي غنمها مجاهدي الجولان من المستوطنين الصهاينة والقوات الانكليزية

ومن أبناء الجولان الذين اشتهروا بمواقفهم الوطنية والبطولية نايف رعد العجرمي "أبو رعد" وكان يعمل سائقا لدى الجيش الانكليزي بفلسطين وعندما علم عام 1948 بتآمر الانكليز لإعلان قيام الكيان الصهيوني، قام بسلب شاحنتين محملتين بالأسلحة والذخائر وزن كل واحدة منهما 10 أطنان وقطرهما مع بعضهما البعض وأدخلهما إلى الجولان وأوصلهما لقرية واسط، والتقى بالأمير فاعور الفاعور وقال الأمير لأبو رعد: الله حي خالي (خال الأمير فاعور هو الشيخ زعل السلوم وعند البدو تعني أن كل أفراد العجارمة هم أخواله)،ويكمل الأمير فاعور (الحَذيّة يا خالي –بفتح الحاء والتشديد على الياء وتعني الحذية أنه يطلب الغنيمة التي حصل عليها أبو رعد) فقال له البطل أبو رعد: "ابشر فأنت من يستحق الغنيمة التي أتيت بها من أعداء الأمة ."

ولم يقتصر جهاد أبناء الجولان على المناطق الحدودية بل تجاوزه إلى داخل فلسطين التي استشهد فيها العشرات منهم في نابلس وعارة وحيفا وبلاطة والقدس وطبريا.



الشيخ عدنان السلوم بطل معركة عين زاغة والتي اصيب فيها بجروح بليغة

المناطق المنزوعة السلاح بعد اتفاقية الهدنة 1949

حسين عبد الرزاق

باحث سوري من الجولان لاجئ في السويد

في هذا الوقت حافظ السوريون على سيطرتهم السياسية على المناطق المنزوعة السلاح، والتي قسمت إلى ثلاثة مناطق شمالية ووسطى وجنوبية بمساحة تعادل 66.5 كم مربع، بينما سيطر الإسرائيليون عمليا على مساحة 44 كلم مربع فيما سيطر السوريون على مساحة 18.5 كم مربع.

كان بن غوريون يؤكد أن السلام مع العرب آت لا ريب خاصة بعد اقتناعهم بالأمر الواقع، ودعا الجميع في إسرائيل للعمل لتقوية الدولة وكان على قناعة تامة بمشاركة بعض المخلصين له كموشي دايان وشيمون بيريز بأن الحدود اليهودية لفلسطين لم تكتمل، وأنه من الممكن الاستفادة من الوضع المتوتر مع دول الجوار لتوسيعها علماً أن هذه الحدود الحالية أبعد ما تكون عن الحدود الآمنة لأرض فلسطين.

التطورات العسكرية والسياسية والمشاريع المائية بعد اتفاقيتي الهدنة

ابتداءً من عام 1949 وحتى عام 1955 كانت العلاقات السورية الإسرائيلية في حالة غير ثابتة، فمرت بحالة توتر أمني استعملت فيها القوة العسكرية، وفي حالات أخرى تميزت بعدم المجابهة واستعمال القوة العسكرية بالعمل السياسي القائم على مفاوضات مباشرة للتوصل لاتفاقيات وتسوية، إلا أن هذا الأمر لم يمنع حدوث انتكاسات خاصة مع انتصار الثورة المصرية وانتشار الفكر الثوري العربي مع بروز أفكار الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

الجدير ذكره أنه منذ أوائل الخمسينيات من القرن العشرين اشتدت وطأة المشكلة المائية بسبب تزايد الحاجة للمياه من نهر الأردن في مقابل ظهور مشاريع أمريكية لاستثمار مياه النهر بين العرب وإسرائيل وعلى الرغم من تضارب مصالح الطرفين، فإسرائيل

كانت بحاجة للمياه لتطوير وزيادة المساحات المستثمرة في النقب لتكون جاهزة للاستيطان اليهودي، فيما اعتبر العرب أن النمو السكاني الإسرائيلي يهدد أمنهم ويتعارض مع مخططاتهم لاستثمار مياه نهر الأردن، كما شعر كل من لبنان وسوريا والأردن بخطر التسلط المائي الإسرائيلي والذي سيحرمهم من حصتهم المائية كما سيزيد من ملوحة مياه بحيرة طبريا.

واجهت الدول العربية في هذه الفترة دراسات المشاريع المائية الصهيونية بعدم الجدية والحزم وتقدمت بعض الدول العربية بمشاريع ضعيفة مقابل الاقتراحات الصهيونية، فطلبت الحكومة الأردنية من مردوخ ماكدونالد في عام 1950 وضع مشروع مائي لاستغلال نهر الأردن ورافده اليرموك ومياه بعض الأودية والينابيع لاستغلالها للري، فتقدم ماكدونالد بثلاثة اقتراحات لتخزين مياه نهر اليرموك عبر تحويلها إلى بحيرة طبريا لتخزينها ومن ثم إنشاء خزان لنهر اليرموك عند باتورا، ودراسة إمكانية إنشاء خزان على نهر الأردن عند نقطة التقائه مع نهر اليرموك.

في أثناء ذلك بدأت إسرائيل باحتلال بعض القرى العربية في المناطق المنزوعة السلاح على طول نهر الأردن ضمن الأراضي العربية وذلك اعتباراً من شهر آذار (مارس) 1951، وعمدت إلى طرد سكان هذه المناطق، فعملت الحكومة السورية على إسكانهم في الجولان ومن ثم تقدمت سوريا بشكوى إلى مجلس الأمن الدولي الذي أدان الاعتداءات الإسرائيلية وأمر بإعادة السكان إلى أرضهم، هدفت إسرائيل من العمل البدء بتنفيذ خطتها للاستيلاء على المياه العربية، ففي 19 آذار (مارس) 1951 بدأت إسرائيل مشروع تجفيف بحيرة الحولة، فعادت وتقدمت سوريا بشكوى إلى لجنة الهدنة التي سارعت وعقدت اجتماعاً لبحث القضية وقررت اللجنة إحالة القضية إلى رئيس لجنة مشتركة لدراستها وإصدار ما هو مناسب، ولكن قبل إصداره تقريره عاد اليهود لمباشرة عملهم بتجفيف البحيرة بعد فترة من التوقف.

ومن المعلوم أن مشروع التجفيف للبحيرة كان قد منح عام 1934 لشركة تنمية أرض فلسطين (Palestine land development) اليهودية، إلا أن هذه الشركة لم يكن بوسعها العمل إلا إذا تمت السيطرة على بعض أراضي المنطقة المجردة من السلاح في الأراضي التي يملكها عرباً. من الملاحظ هنا أن إسرائيل واعتباراً من عام 1951 كانت قد امتنعت عن حضور اجتماعات لجنة الهدنة السورية الإسرائيلية كما رفضت السماح للمراقبين الدوليين المخولين الإشراف على الهدنة من دخول المناطق المنزوعة السلاح لمراقبة النشاط الإسرائيلي فيها، فيما صرح هيتشيسون قائد المراقبين الدوليين أن إسرائيل هي المسؤولة عن توتير الوضع على الحدود السورية – الإسرائيلية بسبب ممارساتها واعتداءاتها المتكررة في محاولة للسيطرة على هذه المناطق التي تفصل بين البلدين تابعت إسرائيل اعتداءاتها على المناطق المجردة من السلاح للسيطرة عليها، ففي 26 آذار (مارس) 1951 أقدمت إسرائيل على نفي سكان قريتي البقارة والغنام التابعتين للمنطقتين المجردتين الشمالية والوسطى إلى داخل إسرائيل، وسيطرت على مزرعة الخوري بعد احتلالها.

دفعت إسرائيل قواتها للتقدم داخل المنطقة الجنوبية المنزوعة السلاح بدءاً من 27 آذار (مارس) 1951، واعتباراً من 30 آذار (مارس) سيطرت إسرائيل على هذه المنطقة من سوريا. كما واصلت القوات الإسرائيلية عدوانها على المناطق المجردة من السلاح ففي 31 آذار (مارس) سيطرت القوات الإسرائيلية على مزيد من الأراضي وطردت 800 فلسطيني من أرضهم نحو سوريا.

في هذه الأثناء أصدرت الحكومة السورية تعليماتها إلى القوات السورية بعدم الرد على هذا الاعتداء، كما تطلب من حكومة صاحبة الجلالة التي كانت حريصة على حفظ السلم في الشرق الأوسط استعمال كل تأثيرها لدى الحكومة الإسرائيلية لوضع حد لهذه الاعتداءات، كما أجرت الحكومة السورية اتصالات مماثلة مع البعثتين الفرنسية والأمريكية في دمشق، علماً أن هذه المسألة تعود للجنة الهدنة السورية – الإسرائيلية.

لكن وجهة النظر السورية تؤكد أن هذه اللجنة أصبحت عديمة التأثير ما لم يتم الضغط على الحكومة الإسرائيلية بواسطة القوى الغربية.

مع بداية شهر نيسان (أبريل) 1951 بدأت أسباب الحوادث تتبدل ويعود ذلك إلى أن إسرائيل وضعت موضع التنفيذ مخططا لتحويل مياه نهر الأردن الذي ينحدر من الشمال إلى الجنوب عبر بحيرة طبريا وذلك من خلال تحويل جزء من مياهه عبر أنابيب نحو صحراء النقب لزيادة الرقعة الزراعية، علماً أن هذه الأعمال كان مخططاً أن يتم إنجازها في المنطقة المنزوعة السلاح أو التي سيطرت عليها إسرائيل عام 1948، في حين ادعى السوريون أن هذه الأعمال تشكل خرقاً لوقف إطلاق النار واتفاقيات الهدنة وطالبت إسرائيل بوقف الأعمال.

في هذه الأثناء عقد اجتماع للجنة الهدنة في 3 نيسان (أبريل) 1951 حيث توصل المجتمعون إلى مشروع اتفاق نص على ما يلي:

1-عودة الحياة الطبيعية المدنية للمناطق المجردة من السلاح كما كانت عليه قبل بدء الأعمال العسكرية.

2 - عودة السكان العرب الذين طردتهم إسرائيل إلى أملاكهم فوراً.

3 - إخلاء المناطق المجردة من الأسلحة والعسكريين الذين أدخلوا مع بدء الأحداث .

4 - إجراء مباحثات بين السوريين والإسرائيليين خلال مدة شهر على أن تتوقف أعمال التجفيف.

رفضت إسرائيل المقترحات مباشرة، وأبدت رغبتها بمواصلة أعمال التجفيف في البحيرة وطرد السكان العرب من المنطقة، وأعربت عن استعدادها لشراء ما بقي للعرب من أملاك في هذه المناطق، وهدفت إسرائيل من تجفيف بحيرة الحولة بالإضافة إلى

السيطرة على المياه، إنشاء مستعمرات لتكون حاجزاً دفاعياً أمام الخطوط الحدودية السورية/ الإسرائيلية.

خلال ليلة 5 – 6 نيسان (أبريل) 1951 عمد اليهود إلى قصف القرى العربية ضمن المنطقة المجردة من السلاح، وسيطروا سيطرة تامة على هذه المناطق التي تقع غرب نهر الأردن ومن بحيرة الحولة شمالاً حتى جسر بنات يعقوب جنوباً، عندها تقدمت سوريا بشكوى إلى مجلس الأمن، وفي جلستيه الأولى والثانية بتاريخ 2 و8 أيار (مايو) 1951، ناقش مضمون الشكوى وأصدر قراره في الجلسة رقم 546 بتاريخ 8 أيار (مايو) القاضي "بوقف إطلاق النار في المنطقة المجردة من السلاح"، وفي رسالة وصلت إلى الخارجية البريطانية من سفيرها في دمشق نقل عن الملحق العسكري البريطاني الذي زار الجبهة بأن ذخائر الجنود السوريين قد اقترب من النفاذ، كما أنه لا يدري كيف سيكون للجنة الهدنة إعادة بسط سلطتها على هذه المناطق في الأيام القليلة القادمة، ونقل بعد لقائه رئيس الحكومة السورية وجهة النظر السورية حول المنطقة المنزوعة السلاح منتقداً فشل لجنة الهدنة من عدم تثبيت الحدود المرسومة على الخرائط على أرض الواقع، وطالما أن هذه هي الحال فسيكون من المستحيل لبعثة الهدنة أن تمنع العرب واليهود من التسلل داخل المناطق.

أما الحل الواقعي الوحيد هو إزالة هذه المناطق وأن يتم تحديد حدوداً مؤقتة على طول مجرى المياه الأساسي من قمة بحيرة الحولة إلى أسفل بحيرة طبريا، وسيكون بالطبع ضرورياً لهذه الخطة عدم تجفيف بحيرة الحولة للحفاظ على الفاصل الطبيعي بين الطرفين والحد من الخلاف، ولدى سؤال السفير رئيس الحكومة السورية عما إذا كان يعتقد أن هذا الحل قد يكون مقبولاً من الجانب الإسرائيلي، أجاب رئيس الحكومة: بأنه لا يدري، لكن برأيه فإن العرض كان عادلاً، أثناء ذلك وردت إلى الخارجية البريطانية اقتراحات لتعديل الحدود بين سوريا وفلسطين كما تناقلت هذه الوثيقة مواقف كل من سوريا وإسرائيل فيما لو تم عرض هذه التعديلات الحدودية، في حين عاد مجلس الأمن

للاجتماع مجدداً لمواصلة درس القضية أيام 16 و18 أيار (مايو) حيث أصدر المجلس في جلسته رقم 547 تاريخ 18 أيار (مايو) قراره رقم 93 الذي طالب فيه إسرائيل بوقف أعمال شركة تحسين الأراضي الفلسطينية في الحولة على أن يتوصل رئيس لجنة الهدنة إلى اتفاق بهذا الشأن مع سوريا وهذا يعني أنه إذا لم توافق سوريا على أعمال التجفيف فعلى إسرائيل أن تتوقف، كما طالب القرار كل من حكومتي سوريا وإسرائيل الالتزام الكامل باتفاقية الهدنة العامة الموقعة في 20 تموز (يوليو) 1949، كما طلب المجلس من رئيس فريق المراقبين في الهدنة وبالتشاور والتعاون مع المجتمع المحلي بإيجاد وضع يخوله وضع الترتيبات الضرورية لاستعادة الحياة الطبيعية للسكان المدنيين ولاستعادة مسؤوليات الادارة المباشرة للمنطقة "المنزوعة السلاح"، لكن الجنرال رايلي كبير المراقبين في لجنة الهدنة ابتعد عن مضمون القرار حين أصدر قراراً سمح فيه لليهود بمواصلة أعمالهم، وهكذا وجدت إسرائيل نفسها غير ملزمة بحضور اجتماعات لجنة الهدنة حتى لا تتقيد بقرارات اللجنة وحتى يتسنى لها تحقيق مرادها من تجفيف البحيرة.

تعقيباً على ذلك ذكر السفير البريطاني في دمشق أن الأوضاع أصبحت أصعب في سوريا وأن الكره للأجانب ارتفعت وتيرته وهذا يعود إلى الموقف الغربي من مشكلة الحولة المتنازع عليها مع إسرائيل والتي لم تحل حتى الآن، مع العلم أن الأوضاع لا تسير نحو الحرب في هذا الوقت، فعلى العكس من ذلك فالطائرات العراقية قد عادت إلى بغداد والقوات السورية تنسحب عن الجبهة السورية، إلا أن ذلك لا ينفي أن المشكلة بالنسبة للسوريين هي أمن قومي كذلك يعتقدون أنهم مهددين بخطر الاحتلال عاجلاً أم آجلاً من قبل القوات الإسرائيلية، كما أنهم لا يثقون في أي حال من الأحوال بضماناتنا حيث يتم تشبيه هذه الضمانات بتلك التي أعطيت لبولندا قبل الحرب.

يضاف إلى ذلك الخوف من المستقبل خاصة في ظل استمرار تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين وحاجة إسرائيل إلى المزيد من الأراضي لإسكانهم، لهذا ولإخماد هذا

الخوف لابد من الحد من الهجرة أو ضبطها حسب قولهم لإعادة الطمأنينة إلى نفوسهم ولإفساح المجال أمام إعادة مناقشة المسألة بشكل نهائي، لهذا يجب على القوى الغربية الضغط على إسرائيل لإعادة فتح الباب أمام السلام في الشرق الأوسط.

وفي رسالة ثانية تناولت جلسة بين السفير البريطاني ووزير الخارجية السوري، نقل السفير عن وزير الخارجية النظرة غير الجدية السورية للضمانات الغربية ومنها التزام الحكومة الأمريكية بالدفاع عن الشرق الأوسط، وقد رجوته أن يأخذ الضمان الذي أعطي دون أي ضغوط، وأن يأخذه بجدية، أضف أنني لم أصدق أن إسرائيل ككل لديها أطماع عدوانية، وقد عبر سعادته عن وجهة نظره أن إسرائيل لا يمكنها البقاء اقتصادياً ضمن الحدود الحالية، ولكنني اقترحت بأنها قد تعيش كدولة اصطناعية بصناعات عالية وامدادها برؤوس أموال واستثمارات كبيرة، ولطالما اعترضت سوريا على منح إسرائيل قروض كبيرة ولكن هذه الأموال فقط كانت الكفيلة بجعل إسرائيل قادرة على الاستمرار ضمن حدودها الحالية، دون الحاجة إلى تمديد حدودها، كما أن عدم التشجيع السوري والمقاطعة العربية لإسرائيل كانا يزيدان من خطر سعي إسرائيل لبدائل أخرى لضمان استمرارها.

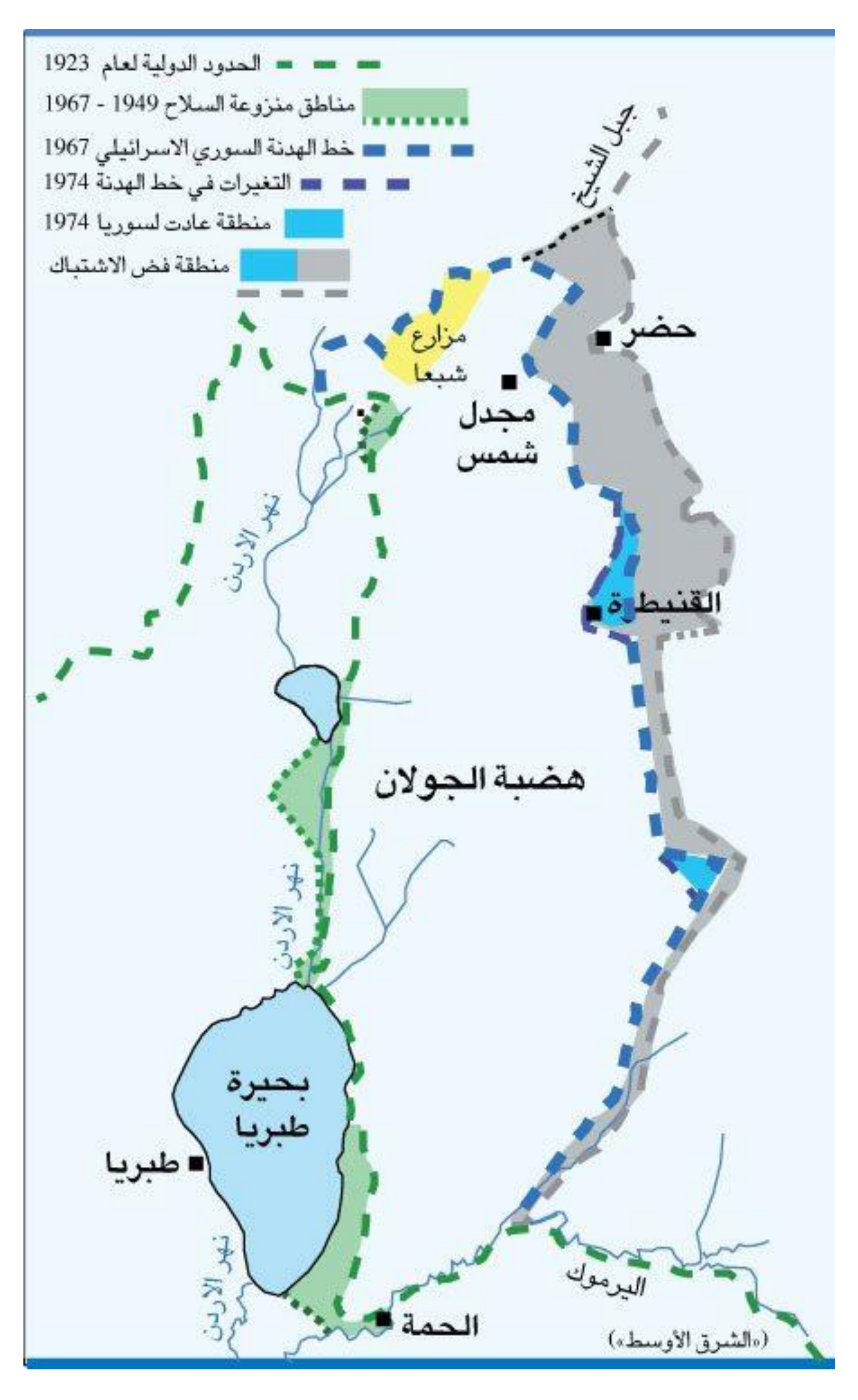
الجدير ذكره أن أحد القائمين بالأعمال في السفارة الأمريكية في سوريا كتب في عام 1951 يصف صورة الوضع الداخلي في سوريا نتيجة تأزم الأمور بين سوريا وإسرائيل من خلال ما كتبه في سجل السنتين الأخيرتين ويدل على أن سوريا بكل تياراتها وفئاتها تضع كافة إمكاناتها للحصول على السلاح مهما كان الثمن، والغاية من هذا السلاح أولاً وأخيراً الحفاظ على أمنها بصدّ أي هجوم إسرائيلي، في حين أن حفاظها على أمنها ضد عدوان شيوعي ليس إلا أمرا ثانويا فقط.

في هذه الأثناء أعلن رئيس الأركان الإسرائيلي موشي دايان للإذاعة الإسرائيلية يوم 12 شباط (فبراير) 1952 أن على الشعب الإسرائيلي أن يكون مستعداً للحرب، فيما تعتمد إسرائيل على جيشها لحسم المعركة مع أعدائها في سبيل تحقيق الإمبراطورية

الإسرائيلية، فيما أعلن مناحيم بيغن زعيم حزب حيروت عن قناعته بضرورة قيام إسرائيل بضربة عسكرية ضد العمق العربي لإنجاز هدفين:

الأول: القضاء على القوة العربية.

والثاني: توسيع رقعة أرض إسرائيل.



اتفاقية الهدنة السورية – الإسرائيلية عام 1949

وحدود الجولان بعد الحرب العربية الإسرائيلية الأولى

علاء كريم

صحفي سوري وناشط من الجولان مقيم في برلين

كانت اتفاقية الهدنة السورية الاسرائيلية الأولى في التاريخ بينهما، وتكمن أهمية عرضها هنا لتبيان قضية النزاع السوري الإسرائيلي على حدود الجولان بعد حرب 1948 ونشوء قضية المناطق المنزوعة السلاح وصراع المياه العربي الإسرائيلي، وإن لم يكن الأول إلا أنه رفع سوية التوتر الحدودي وهو ثمن كبير آخر سيدفعه أبناء الجولان تباعاً حتى هزيمة 1967.

التطور الديبلوماسي:

أعلن رئيس الحكومة السورية مساء 20 آذار مارس 1949 وبعد لقائه السفير البريطاني موافقة الحكومة السورية على قرار مجلس الأمن والشروع بإجراء مفاوضات مع الإسرائيليين بشأن الهدنة، لكنه لم يحدد موعد ومكان المفاوضات مع تأكيده لرفض إجرائها في رودوس معللاً السبب ببعد المسافة وعائق الاتصال بالوفد المفاوض.

بدأت المفاوضات السورية . الإسرائيلية في 12 أيار مايو، وأعلنت الحكومة السورية في تقرير مفصل عن نجاح سير المفاوضات الجارية، وفي ظل استمرار سيطرة القوات السورية على بعض المناطق التي خلال الحرب السابقة ورفضها العودة إلى حدود ما قبل 15 تموز (يوليو) 1948، على اعتبار أنها أراض تابعة للدولة العربية وليست للدولة اليهودية، استمرت المطالبة الإسرائيلية بانسحاب القوات السورية من الأراضي التي سيطرت عليها، كما اقترحت الحكومة السورية ضرورة استمرار المفاوضات للوصول إلى اتفاق هدنة وعدم وضع احتمال قطع هذه المفاوضات، آخذة بعين الاعتبار قرار مجلس الأمن الدولي بضرورة التوصل إلى اتفاق ما.

تحفظت الولايات المتحدة الأمريكية على الطلب المقدم من الإسرائيليين بتاريخ 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 للحصول على الأطراف الغربية من الجولان وضمها إلى الدولة اليهودية، كما رفضت إسرائيل أي مطلب لتعديل حدودها على اعتبار أنها ذات صفة قانونية خاصة بعد أن رفض العرب قرارات مجلس الأمن الدولي حول تقسيم فلسطين، وشنوا حرباً عدوانية ضدها، وبنهاية الحرب كانت الدولة التي نشأت، وهكذا تم الاستنتاج مما ورد أن إسرائيل لن ترجع إلى حدود عام 1947، وإلا فإن ذلك سيعتبر مكافأة للعرب ويشجعهم لتكرار اعتداءاتهم ثانية وثالثة ضد دولة إسرائيل.

نص الاتفاقية:

استجابة لقرار مجلس الأمن الصادر بتاريخ 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 الذي دعا الطرفين السوري والإسرائيلي إلى التفاوض للوصول إلى هدنة دائمة، وبعدما دخلا في مفاوضات اتفق الطرفان على النصوص التالية:

المادة الأولى:

يتعهد الجانبان من الآن وصاعداً بالتقيد بشكل تام بالأمر الصادر عن مجلس الأمن بعدم اللجوء إلى القوة العسكرية لتسوية قضية فلسطين . . . . يقر الجانبان بأن العمل بغير هدنة دائمة بين القوات المسلحة للجانبين أمر غير مرغوب فيه لحل النزاع حول قضية فلسطين.

المادة الثانية:

يعترف الجانبان بأنه يجب أن لا يمس أي شرط من شروط هذا الاتفاق بحقوق ومطالب ومواقف أي من الفريقين في التسوية السلمية النهائية لمشكلة فلسطين، وإنما شروط هذا الاتفاق قد أمليت لاعتبارات عسكرية وليست سياسية.

المادة الثالثة:

بناء لما ورد سابقاً وعلى قرار مجلس الأمن الصادر بتاريخ 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 تم التوقيع على هدنة عامة بين قوات الطرفين البرية والجوية والبحرية . . . كما يمنع عبور خط الهدنة المحدد في المادة الخامسة من هذا الاتفاق أو اجتيازه لأي غاية. كما يمنع دخول أجواء الفريق الأخر أو المرور في المياه ضمن مسافة ثلاثة أميال من ساحل الفريق الأخر . . .

المادة الرابعة:

يعرف الخط المحدد في المادة الخامسة من هذا الاتفاق بخط الهدنة . . . والغاية من خط الهدنة هو تحديد الخط الذي لا يجوز أن تتجاوزه قوات الطرفين . . .

المادة الخامسة:

يكون خط الهدنة هو ذلك المبين في الخريطة المرفقة بهذا الاتفاق. ويتبع خط الهدنة خطاً يسير بالوسط بين خطي المهادنة، كما حددتها هيئة الرقابة الدولية على الهدنة للقوات السورية والإسرائيلية، ويتبع خط الهدنة في أماكن أخرى الخط الدولي للحدود القائمة فلسطين وسوريا . . . وحين لا يتفق خط الهدنة مع الحد الدولي تعتبر هذه المنطقة منزوعة من السلاح لحين الوصول إلى تسوية نهائية للقضية ولا يسمح فيها بأي وجود عسكري أو شبه عسكري للطرفين . . .

يتم انسحاب القوات المسلحة من المنطقة المنزوعة السلاح وفقاً لجدول رقم (2) المرفق بهذا الاتفاق . . .

جرى التوقيع في التل رقم 232 بالقرب من كيبوتس بالجليل الأعلى "محانايم"* بتاريخ 20 تموز/ يوليو 1949، بحضور النائب الشخصي للوسيط الدولي في فلسطين ورئيس لجنة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة.

التوقيع (عن الحكومة السورية):

العقيد فوزي سلو

المقدم محمد ناصر

النقيب عفيف البزري

التوقيع (عن الحكومة الإسرائيلية):

المقدم موردخاي مكليف

المقدم يهوشوا بيلمان

المقدم شبطاي روزين

الملحق: خط الهدنة السوري – الإسرائيلي

–يبدأ الخط من النقطة 208.7–294.2 حيث تلتقي الحدود اللبنانية – السورية – الفلسطينية ويتجه شرقاً إلى النقطة 212.8–294.7.

– من النقطة 212.8–294.7 باتجاه الجنوب باتباع وادي العسل إلى مقام الشيخ المخفي.

– خط من مقام الشيخ المخفي إلى مقام النبي هدى.

– خط من مقام النبي هدى إلى النقطة 212.7–290.4. النقطة 212.7–290.4 إلى النقطة 212.4– 290.2 ثم يتجه الخط الحدودي – من جنوباً إلى النقطة 211.0–.276.8

– من النقطة 211.0–276.8 إلى وادي الصمادي عند النقطة 210.9–276.7.

– من النقطة 210.9–276.7 يتجه الخط غرباً مع وادي الصمادي إلى منطقة تقاطع الطريق عند النقطة 210.3–276.5.

– باتجاه الجنوب باتباع الطريق إلى النقطة 209.9–272.6 متجنبا الدردارة من جهة الشرق.

- نحو الغرب إلى النقطة 209.7-272.6 الواقعة على ساحل بحيرة الحولة. يتجه نحو الجنوب حتى مصب نهر الأردن عند النقطة 209.2-271.7. يتجه نحو الشمال الغربي متبعاً خط الساحل الغربي للبحيرة (الحولة) إلى النقطة 272.9-208.5.

- من النقطة 208.5-272.7 إلى النقطة 205.2-269.1. يتجه بخط من النقطة 205.2- 269.1إلى النقطة 208.8- 265.0على نهر الأردن. يتجه الخط جنوباً باتباع نهر الأردن حتى النقطة 208.7-260.0.

- من النقطة 208.7-260.0 إلى النقطة 208.5-258.2. خط يتجه من النقطة 208.5-258.2 إلى النقطة 207.0-257.0. خط يتجه من النقطة 207.0-257.0 إلى النقطة 207.4-256.0. - من النقطة 207.4-256.0 باتجاه الجنوب متبعا الحدود السورية الفلسطينية إلى العلامة 61 عند النقطة 210.6-246.3.

- من العلامة الحدودية 61 باتباع الحدود السورية الفلسطينية إلى العلامة 62. العلامة الحدودية 62 باتباع خط الحدود السورية الفلسطينية حتى العلامة 66، عند النقطة 211.7-240.1.

- من العلامة الحدودية 66 خطا إلى نقطة على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا عند النقطة 209.6-239.0 يتجه الخط جنوباً باتباع ساحل بحيرة طبريا من النقطة 209.6- 239.0إلى النقطة 206.3-234.8 من النقطة 206.3-234.8 ويتجه جنوباً إلى منعطف الطريق عند النقطة -206.3 233.4، ثم يتجه إلى الجنوب الشرقي باتباع الطرف الغربي لسكة الحديد والجهة الغربية للطريق إلى المعقل عند النقطة 207.7-233.4.

- من المعقل عند النقطة 207.7- 233.4يتجه خطاً باتباع الطريق إلى نهر اليرموك على الحدود عند النقطة 209.5-.232.2

في رسالة من المفوضية البريطانية في تل أبيب إلى الخارجية البريطانية، يرسل المفوض نسخة عن اتفاق الهدنة السوري . الإسرائيلي كما يخبرهم أن هذا الاتفاق مشابه في العديد من نقاطه وبنوده للاتفاق الأردني – الإسرائيلي، وأضاف أنه ورد في المادة الخامسة والملحقين الأول والثاني انسحاب القوات السورية من بعض المناطق وجعلها منزوعة السلاح وتدمير التحصينات وذلك تحديداً شرق بحيرة (Meron) الحولة في مهلة 12 أسبوعاً، وكانت تهدف إسرائيل من هذه الاتفاقية إلى بسط سيادتها على هذه المناطق من فلسطين حالما تخليها القوات السورية، كما أرادت إرجاع القوات السورية إلى خارج الحدود الدولية لفلسطين.

من جهتها حافظت القوات السورية على الأراضي الواقعة في الغرب من الحدود الدولية لعام 1923 وطالبت أن يكون خط الحدود هو خط الهدنة لعام 1949، بينما أصر الإسرائيليون أن يكون خط الهدنة مطابقاً لخط الحدود لعام 1923 وفي نهاية الأمر تم التوصل إلى حل وسط يقضي بجعل المناطق الواقعة بين خطي الهدنة 1949 والحدود 1923 مناطق منزوعة السلاح مع إبقائها تحت السلطة السياسية السورية ولكن هذا الحل لم يكن حلاً جذرياً للمشكلة مما يهدد بحصول العديد الاشتباكات والصراعات العسكرية في وقت لاحق، وحولت اتفاقية الهدنة هذه المناطق إلى مناطق منزوعة السلاح لا يسمح فيها بأي نشاط عسكري أو شبه عسكري قبل التسوية النهائية.

*- كتاب "ترسيم الحدود اللبنانية السورية الفلسطينية وأبعادها السياسية والعسكرية والاقتصادية 1920- 2000". تأليف: مصطفى الجوني، دار المحجة البيضاء، ط1 عام 2007، بيروت لبنان، ص 472- 481 قسم الملاحق الوثائقية.

العدوان الإسرائيلي عام 1967 وتسليم الجولان

ذياب المفلح

كاتب سوري من الجولان مقيم في كندا

استمرت المناوشات وعمليات الكر والفر بين إسرائيل وجيرانها العرب حتى شهر حزيران (يونيو) 1967 عندما شنت القوات العسكرية الإسرائيلية عدوانها على دول الجوار سوريا الأردن ومصر والتي كانت لها نتائج خطيرة على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

شكلت مرتفعات الجولان مشكلة لإسرائيل بسبب التهديد السوري للمستوطنات الإسرائيلية في وادي الحولة والجليل الأسفل ويضاف إلى ذلك خوف الإسرائيليين من قيام سوريا بتحويل مجرى نهر بانياس عن نهر الأردن لهذا عمدت إسرائيل فور سيطرتها على الجولان إلى بناء المستوطنات لاستغلال الجولان ولما لمرتفعاته من فوائد استراتيجية وعسكرية.

الجولان هضبة جبلية معدل ارتفاعها يصل لحد 1000 متر، بمساحة تقريبية بحدود 1850 كم مربع، تقع جنوب سوريا بطول 65 كلم وعرض يتراوح بين 12 – 25 كم، وخلال حرب عام 1967 استولت إسرائيل على 1250 كم مربع منها. هذا وتقع منطقة الحمة في الجزء الجنوبي الغربي من الجولان عند نقطة التقاء الحدود السورية – الأردنية – الفلسطينية، وتتألف من مدينة سياحية وأراضي زراعية وبعض القرى التابعة لها مثل التوافيق والحاوي والروض الأحمر وروض القطف والبرج، وكانت تحت السيطرة السورية الكاملة مع الممر المؤدي إلى وادي اليرموك حتى حرب عام 1967.

ويلاحظ مما تقدم أن المناطق المنزوعة السلاح الثلاث بين القوات السورية والإسرائيلية كانت حتى بداية العمليات العسكرية على النحو التالي:

- المنطقة الشمالية تقدر مساحتها بحولي 7.5 كلم مربع بطول 5 كلم وعرض يصل لحدود 1.5 كلم كان ثلثها يتبع لسوريا خاصة في القسم الشمالي منها، أما في جنوبها فسيطرة القوات السورية كانت تمر بتل العزيزيات حتى جنوب قرية الدرباشية.

- المنطقة الوسطى غربي نهر الأردن سيطرت سوريا على هامش بسيط مما جعل نهر الأردن الحدود بين الطرفين، إلا أن السوريين اجتازوا بعض الأحيان خطوط الهدنة كما سيطروا على شاطئ بحيرة طبريا الشرقي الخاص بفلسطين والبالغ عرضه 10 م وحددوا مياهه مجالاً إقليمياً سورياً يصل لحد 250 م داخل البحيرة، هذا وقد سيطر السوريون على مساحة 34 كم مربع في هذه المنطقة.

- المنطقة الجنوبية سيطر السوريون على منطقة صغيرة شمالي قرية النقيب، ومنطقة صغيرة جانب منطقة كفر حارب، ومساحة ثالثة صغيرة غربي قرية التوافيق العليا كذلك على قرية الحمة وكل ضفة نهر اليرموك ومساحتها 30 كم مربع.

قامت القوات الإسرائيلية صبيحة الخامس من حزيران (يونيو) 1967 بهجوم عسكري على مصر وسوريا والأردن وما تبقى من فلسطين تحت السيادة العربية، واستمر العدوان لمدة ستة أيام تمكنت خلاله إسرائيل من تغيير الوضع الجغرافي والعسكري وإيجاد واقع جديد في المنطقة.

عندما اختارت إسرائيل فرض السيطرة على سيناء والقدس لم تترك على الحدود السورية قوة عسكرية كبيرة ووضعت خطة قبلت فيها إسرائيل غزواً سورياً لسهل الحولة وخسارة للناصرة، ومنذ ذلك الوقت لم يتوغل السوريون إلا قليلاً داخل فلسطين المحتلة. لكن بعد سيطرة إسرائيل على سيناء والقدس ركزت هجومها على سوريا، بعد إصدار الأسد وزير الدفاع آنذاك وعبر إذاعة دمشق البيان 66 وكانت بمثابة فتح الطريق والضوء الأخضر لتسليم الجولان لإسرائيل، ففي 9 حزيران (يونيو) تقدمت القوات الإسرائيلية شمال بحيرة طبريا وفي يوم 10 حزيران (يونيو) سيطر المشاة الإسرائيليون على القنيطرة ومسعدة، أما في جنوب بحيرة طبريا فتقدمت القوات الإسرائيلية حتى بتونيا.

مساء يوم العاشر من حزيران (يونيو) أصبحت الطريق إلى دمشق مفتوحة فعمد السوريون إلى تسليم الشعب في دمشق السلاح تمهيدا لحرب شوارع ضد القوات الإسرائيلية، عندها أعلنت إسرائيل قبولها وقف إطلاق النار، وقد حصلت على ما تريده بالمقابل من مياه وأراضي خصبة وتوسع استيطاني ومرتفعات استراتيجية تحمي عمقها.

أصدر مجلس الأمن الدولي خلال جلسات متتالية قراراً بوقف إطلاق النار اعتباراً من 6 و 7 و 9 حزيران (يونيو)، ففي 6 حزيران (يونيو) أعلن الأردن قبوله رسمياً وقف إطلاق النار، فيما قبلته مصر يوم 8 حزيران (يونيو) وتبعتها سوريا يوم 9 حزيران (يونيو) وعلى الرغم من قبول إسرائيل وقف إطلاق النار مساء 9 حزيران (يونيو) إلا أنها واصلت عملياتها العسكرية ضد سوريا للاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الجولان ذات القيمة الاستراتيجية من الناحية العسكرية والجغرافية.



نكبة أهل الجولان 1967 بشهادات الإسرائيليين وأرشيفهم

ملحم أبو صالح

موثق لصور الجولان وتاريخ تلك الصور، عاصر تلك الأحداث، ويقيم في بلدته مجدل شمس.

هنا سأعرض 13 لقطة تكشف حقيقة النزوح وفعلياً الترحيل لأبناء الجولان وحقيقة البيان 66 بلسان قادة الجيش الإسرائيلي.

البيان 66 صانع الحلم الإسرائيلي:

"كان بمثابة إنجاز كبير السيطرة على سلسلة المواقع السورية غربي الجولان المطلة على الحولة وطبرية"

أما دخول القنيطرة والسيطرة على خط الجولان الداخلي الممتد من الحرمون حتى الحمة فكان حلما ومعجزة لما تحقق لولا البيان رقم 66..." شهادة (إسحاق رابين في كتاب مذكراته)

البيان 66 هو إعلان القيادة السورية عن سقوط القنيطرة قبل سقوطها ب 17 ساعة على الاقل بحسب كتاب سقوط الجولان لخليل مصطفى.



رابين وحاشيته في بانياس الجولان 13 حزيران 67 (داني أغمون/بيتمونا)

توقف الزمن:

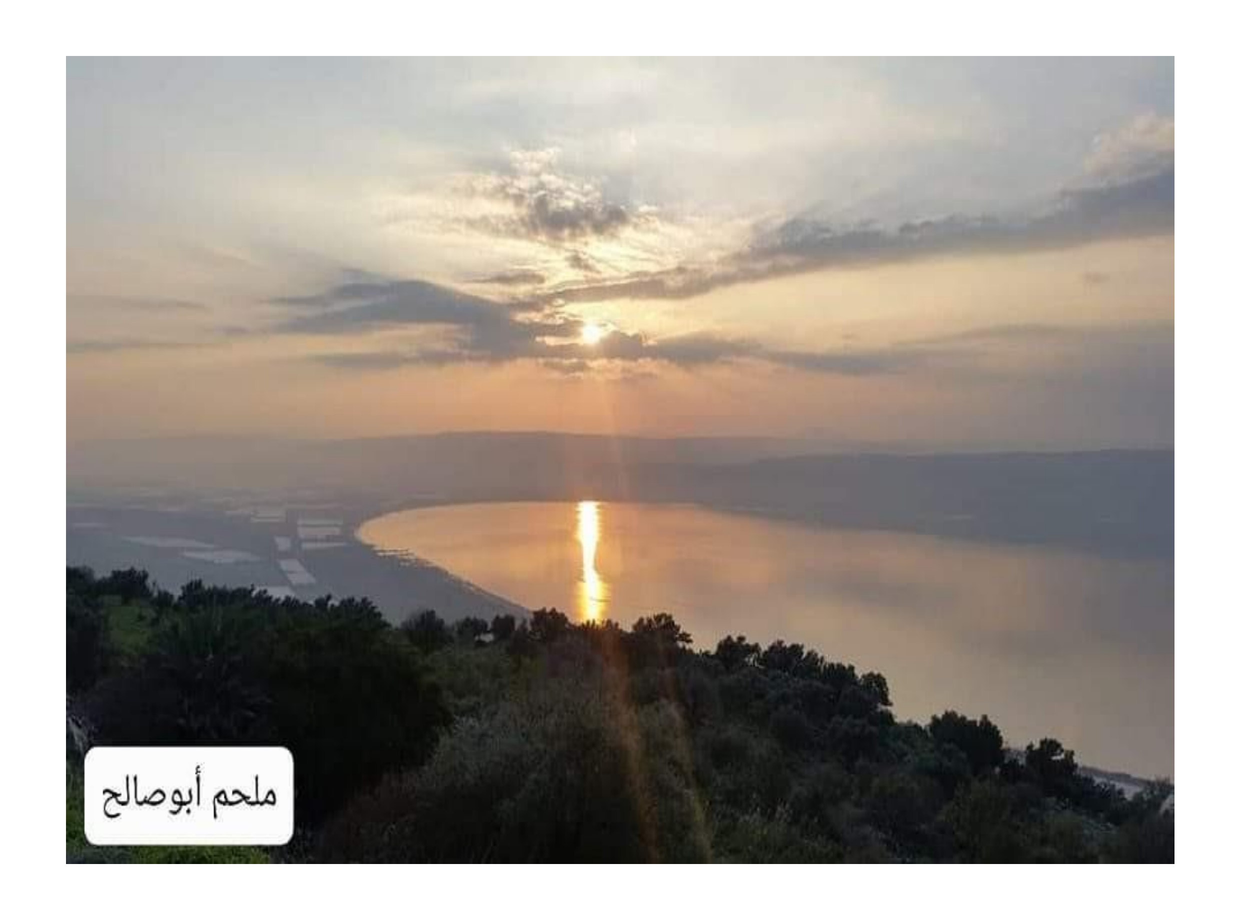
وإذا وجدت "فقد توقف فيها الزمن" وكأننا على الهامش .. (كما تصف مجدل شمس في الصورة)



صيف 1967 بيادر مجدل شمس (أرشيف ككال)

هضبة التسعة خطوط ماجينو:

"إن سورية تسيطر على سلسلة من التلال الصخرية الشديدة الانحدار، تمتد لمسافة أربعين ميلاً (70 كم)، وتشرف على سهول مكشوفة للنيران، وعلى جوانب التلال خطوط دفاعية مستقلة بعضها فوق بعض، وكل خط منها تحميه ثلاث طبقات من الألغام، وأسلاك شائكة واستحكامات منيعة، وللوصول الى الطبقة العليا يجب عبور تسعة خطوط (ماجينو مصغرة)، (الخط الشهير لفرنسا على حدود المانيا)".



تل الفخار:

"لو قاتل كل العرب كما حارب جنود موقع تل الفخار، لما صمدت إسرائيل يوم واحد".

شهادة (إسحاق رابين في كتاب مذكراته)



"رابين يتفقد موقع تل الفخار بعد انتهاء الحرب، لاكتشاف ما هو السر وعن قرب"

1-2 كلم جنوب غربي بانياس على خط نفط التابلاين - حزيران 67

(تصوير داني أغمون)

الجولان منجم الذهب:

"إن كل شبر من تلك الأرض يساوي منجما من الذهب لكثرة ما يغل من الحبوب"

شهادة الجنرال السويدي (كارل فون هورن)



حصاد الارز في سهل البطيحة، وصولا إلى قرية النقيب ومنطقة الكرسي، شمالي شرقي وشرقي بحيرة طبرية.

(بعدسة نفتالي اوفنهايم 1943) (أرشيف بيتمونا)

قبر سليمان ناصيف في الحمة:

"من يؤذي قبري من بني الإنسان، يؤذيه ربي في هوة النيران"

نص محفور على مدفن مؤسس منتجع الحمة سليمان بك ناصيف ابن بلدة الشويفات وصاحب امتياز استثمار الحمة ل99 سنة تنتهي ب 2025، وريثته وابنته الوحيدة السيدة وداد ناصيف رفضت الخروج من الحمة في حزيران 67 فتم نقلها إلى القنيطرة فرفضت العبور إلى شرقي خط النار واجبروها مرة ثانية وعمرها حوالي 73، منحها الأهالي لقب "ختيارة القنيطرة" لشدة بأسها وإصرارها..



الحمة السورية – حزيران 1967 بعد التهجير وقبل الهدم

(أرشيف ككال)

التهجير في صورة

"وقد سافرت الى الجولان برفقة زوجتي، مباشرة بعد حرب الأيام الستة، وهذه إحدى صور التهجير وأضفت الألوان لاحقاً..." عوديد كيرش



الغلطة الإسرائيلية؟!

"كانت غلطة كبيرة إبقاء دروز الجولان في قراهم وعدم تهجيرهم، معظمهم جواسيس لسوريا ويسعون ضد أمن اسرائيل حتى يومنا هذا..."



قرية مسعدة الجولانية – 11 حزيران 1967

(أرشيف الجيش الإسرائيلي)

رفض النزوح فأردوه قتيلاً

"جميع أهالي قرية عين الزيوان تم تهجيرهم بحيث لم يبق أحد في منتصف حزيران 67، وخاصة بعد قتل والد المختار (المرحوم جعفر صالح لِشة)، وهو مسن اعترض على دخول جنود الاحتلال لبيته فأردوه قتيلا..."



استيطان عين زيوان شباط 1968

(بعدسة مئير شامير)

المغادرة الطوعية؟!

"لقد جمعناهم (من تبقى من سكان الجولان بعد الحرب)بعد توضيح الأوامر لهم (ترحيل) وسمحنا لهم بجمع بعض أغراضهم، ومشياً على الأقدام وأحياناً في شاحناتنا نحو القنيطرة، حيث نسلمهم للصليب الأحمر وبعدها إلى شرقي خط وقف النار بعد التوقيع على استمارة تنص على أنهم يغادرون بمحض إرادتهم وبدون عودة لقراهم...". "واستمرت عمليات التجميع والنقل خارج الجولان من حزيران ونهاية الحرب حتى أواخر أيلول 67" ، 3 أشهر ونصف بعد نهاية الحرب. والشهادة أعلاه تتطابق مع تحقيق لمعهد عكيفوت، المتخصص بوثائق الصراع العربي الإسرائيلي

تحقيق عن وثائق تقارير الصليب الأحمر الدولي ونشر قبل أشهر من الذكرى 55 لنكبة أبناء الجولان.



صور تذكارية قبل الترحيل؟!

"عساكر ومدنيين اسرائيليين بصورة تذكارية مع أسرى مدنيين في القنيطرة" قبيل الترحيل...(أرشيف جامعة هارفارد../نشر موقع ناعموش)

هدم البيوت على أصحابها إن رفضوا النزوح

" في إحدى الحالات فجرت فرقة الهندسة العسكرية بيتاً على رؤوس أصحابه، و كل ساكني المبنى قتلوا..". (أفيشاي كاتس قائد كتيبة الهندسة 602 أثناء نكبة حزيران 1967...) ويستطرد: "تلقينا أوامر بعد انتهاء الحرب بهدم الجولان، فوراً وكل شيء..."

"الفرق الهندسية خرجت صباح كل يوم من مقرها في بانياس الجولان، لزرع الألغام وهدم القرى..." "كل لغم بوزن 10 كغ كان كافياً لهدم أي بيت سوري في الجولان وبسهولة. كان هدماً كلياً وتاماً"..



بيوت بانياس بعد الهدم

(بعدسة مئير شامير حزيران 67)

سلب ونهب القنيطرة:

"بعد عدة أيام من نهاية الحرب، سافرت في باص عسكري مع عائلات ضباط يخدمون مع أبي، الى الجولان وكنت ابن 7 سنوات، في القنيطرة شاهدت بأم عيني كيف يتم سلب ونهب البيوت ومقتنياتها...أجهزة تلفاز، وكنت لا أعرف ما هو بالضبط وشاهدته أول مرة بحياتي، غسالات، راديوهات، وملابس، وكله من أجل مجد وفخار إسرائيل..."

هو طبعاً ضد تلك الاعمال وهذه الشهادات تجدها موثقة في العقدين الأخيرين بعيداً عن أعين الرقابة الرسمية التي لطالما وصفت الجولان أنه خالي من السكان والحياة.

"كان التجول (بهدف النهب والسلب) في الجولان بعد الحرب متعة كبيرة...وأصدقائي طلبوا مني مكوى ملابس أو عدة قهوة وأدوات نحاسية وسجاجيد وغسالات...واستطعت لاحقاً جلب جرارين زراعيين أصبحا ملكاً مشتركاً للكيبوتس"



نهب القنيطرة حزيران 67 (بعدسة مئير شامير)

إعتراف رسمي ... إن لم ترحل نقوم بنقلك مرغماً

"منذ 11 حزيران 67 بدأ الحكم العسكري بمعالجة شؤون السكان الباقين ضمن المنطقة المحتلة، وخاصة بالأقليات الدرزية والشركسية وكذلك ترحيل باقي السكان..."



"سيدة عجوز تصعد إلى شاحنة الجيش في الجولان" (بحسب توصيف أرشيف ككال).

وواضح أنها ترحيل طبعاً. حزيران 67

شيء من الذاكرة

هايل أبو جبل

جولاني عاصر الأحداث وشارك بها.

في أواخر شهر ايار عام ١٩٦٧، ساد التوتر على الجبهة السورية الاسرائيلية وبدت بوادر الحرب وشيكة، وأصبح إبعاد أُسر العسكريين وإعادتهم إلى مدنهم وقراهم هو الشغل الشاغل للجميع.

كنت اعمل سائق سيارة ركاب ذات عشرة مقاعد تستوعب الأسرة مع بعض الحاجيات الضرورية للأيام المعدودة التي سوف تقضيها قبل أن تعود إلى منطقة الجبهة لتشارك باحتفالات النصر !!

في الثالث من حزيران أوصلت عائلة إلى قرية مشقيتا في ريف اللاذقية الشمالي رائع الجمال الطبيعي، وهي تبعد عن مدينة اللاذقية إلى الشمال ثم الشرق أكثر من عشرين كيلو متراً. كما عرفت أن بلدة مشقيتا هي مسقط رأس العلامة الاقتصادي السوري الدكتور عارف دليلة، له التحية.

عدت الى القنيطرة في مثل هذا اليوم عصراً لأنقل أسرة ثانية الى قرية "بكا" في محافظة السويداء، ولأبيتَ عند صديق لي يعمل مصوراً اسمه اسماعيل خزعل.

عدّت من السويداء في صبيحة الخامس من حزيران، وقبل وصولي الى القنيطرة بدأ العدوان على جمهورية مصر العربية.

عملت طيلة ذلك اليوم بنقل عائلات من القرى القريبة من مجدل شمس بعض تلك العائلات الى القنيطرة وبعضها إلى مجدل شمس كونها بعيدة عن التجمعات العسكرية ولا تتعرض للغارات والقصف الاسرائيلي.

لم تكن الحرب على الجبهة السورية حربا بالمعنى الحقيقي للحرب أي أنه لم تكن هناك اشتباكات ومواجهات بين فرق عسكرية إنما اقتصرت على قصف مدفعي متقطع من المدفعية السورية ليرد عليها الاسرائيليون بغارات جوية.

في العاشر من حزيران أعلن حافظ الأسد، وزير الدفاع يومها، بيانه الشهير رقم "٦٦" الذي أعلن فيه سقوط القنيطرة قبل سقوطها الفعلي بكثير، الأمر الذي برر الانسحاب الكيفي ودون أي مواجهة مع القوات الغازية. هذا الأمر أثار الاستغراب إذ كنا نتوقع، حسب الاعلام العربي، هزيمة اسرائيل وتحرير فلسطين.

وقد طالت الهزيمة الجبهتين المصرية والاردنية، لكن على الجبهة السورية (حسب رأي النظام) كان الأمر عبارة عن خسارة معركة، ولكن بالمفهوم الاستراتيجي وحسب فهم النظام للصراع فقد فشلت اسرائيل فشلاً ذريعاً لأن هدفها كان اسقاط النظام في دمشق !!!!

لا زالت اسرائيل تجر أذيال الخيبة، ولا زال النظام صامداً حتى الآن!!

في ذكرى معركة تل الفخار

في العاشر من حزيران عام ١٩٦٧، تمت السيطرة الاسرائيلية على مرتفعات الجولان بعدما احتلت تلك القوات كامل سيناء المصرية والضفة الغربية قبل ذلك.

كانت نتائج الحرب هزيمة مدوية للجيوش العربية على كافة الجبهات وعلى الجبهة السورية لم تكن هناك مواجهات قتالية بين القوات وكما يعلم الجميع فقد أعلن سقوط القنيطرة وبالتالي كل الجبهة قبل أن يدخلها العدو بدون قتال.

رغم هذا لا بد من إنصاف اولئك الأبطال والذين قاتلوا هنا وهناك وبكل البسالة والشجاعة والشرف.

على سبيل المثال لا بد من التطرق الى الملحمة البطولية التي خاضها موقع تل الفخار والذي استبسل المقاتلون المتحصنون به في الدفاع عن موقعهم وكبدوا العدو المهاجم الكثير من الخسائر في الاشخاص والعتاد.

الرواية الاولى عن تلك الملحمة جاءت على لسان النقيب صلاح حلاوة الذي كان مسؤولاً عن الموقع المكلف بإسناد تل الفخار وانسحب مع جنوده بعد التأكد من سقوط التل.

بعد عدة ساعات من السير الليلي وصلت تلك المجموعة الى مجدل شمس، وكان من بينهم اضافة الى النقيب صلاح حلاوة المساعد الاول زيد ابو ترابة وهو صديق لنا.

بعد ان ارتاح الجنود قليلا وتناولوا العشاء الذي أُعد لهم روى النقيب للجنود وبحضورنا أنه كان على اتصال دائم مع الملازم أول أسعد إلى أن سكت الملازم أول، لكن صوت الانفجارات بقيت مسموعة عبر جهاز الهاتف وهذه شهادة من ضابط مكلف بدعم تل الفخار يجب أن تدون في السجل العسكري لصالح اولئك الأبطال الذين قاموا بدورهم بكل شرف وإخلاص.

قال النقيب حلاوة ايضاً أنّهم عجزوا عن تقديم الإسناد لتل الفخار لأن الطيران الإسرائيلي استفرد بهم ولم يكن هناك من يساعدهم على التصدي للطيران المعادي.

علمنا فيما بعد أنّ باقي جنود الموقع الذي كان مكلفا بإسناد تل الفخار انسحبوا عن طريق لبنان لاعتقادهم أنّ القنيطرة قد سقطت ومنهم الضابط النقيب يوسف مداح.

أما قائد تل الفخار فهو الشهيد البطل أسعد بدران له ولكل الشهداء الأبطال الرحمة وليكن ذكرهم مخلدا.

توقيع اتفاق فصل القوات بين سوريا وإسرائيل

ووساطة كسنجر لإعادة جيب أكتوبر

عامر عبد الله

كاتب سوري من الجولان مقيم في النرويج

مفاوضات فصل القوات بين سوريا وإسرائيل

عقب انتهاء الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة وبناء لاقتراح الرئيس المصري أنور السادات لعقد مؤتمر دولي في جنيف برعاية الأمم المتحدة وبحضور الدول الكبرى لإيجاد حل للقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي وذلك يوم 16 تشرين أول (أكتوبر)1973 أمام مجلس الشعب المصري، انعقد المؤتمر في جنيف بتاريخ 21 كانون الأول (ديسمبر) 1973 بحضور مصر والأردن وإسرائيل والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وبغياب سوريا التي رفضت المشاركة، غير أن أعمال المؤتمر عادت وتوقفت بسبب المشاكل والصعاب التي واجهت المؤتمرين وخاصة بين مصر وإسرائيل حين تم طرح موضوع فصل القوات، فعلقت الأعمال لحين إيجاد حل لهذه المشكلة التي عادت وانتهت بتوقيع اتفاق فصل القوات بين الطرفين بتاريخ 18 كانون الثاني (يناير) 1974.

الجدير ذكره أن وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر كان يقوم في ذلك الحين بجولات مكوكية بين الدول المتنازعة للتخفيف من الاحتقان السياسي والعسكري بين سوريا وإسرائيل المنذر بتجدد الصراع العسكري، وهدف من جولاته الوصول إلى اتفاق لفصل القوات بين الطرفين في منطقة الجولان السوري مشابه لما توصل إليه المصريين والإسرائيليين في سيناء، وفي الرابع من آذار (مارس) 1974 جرت اشتباكات عنيفة بين السوريين والإسرائيليين على خط الحدود الجديد بين الطرفين في الجولان مما

استدعى تدخلا دبلوماسيا أمريكيا كان بنتيجته انتداب سوريا وإسرائيل ممثلين عنهما إلى واشنطن بعد صدور دعوة من الرئيس الأمريكي بتاريخ 7 آذار (مارس) 1974 لبحث موضوع فصل القوات، في 8 آذار (مارس) أعلن الرئيس السوري حافظ الأسد في خطاب له بأن الحرب مع إسرائيل لم تنته ما لم تحرر كامل الأراضي العربية ومذكراً الإسرائيليين الذين يدّعون بأن الجولان جزء من إسرائيل أن فلسطين ليست جزء من العالم العربي وحسب بل هي الجزء الأساسي من جنوب سورية.

استمر التعنت الإسرائيلي والتصلب السوري حيال موضوع فصل القوات وذلك حين أصر الإسرائيليون على الانسحاب فقط من جيب أكتوبر دون الانسحاب من الجولان، في المقابل أصر السوريون على شرطين أساسيين:

الأول: أن تكون المنطقة الفاصلة بين الطرفين بحدود تسمح بعدم حصول إطلاق نار بين الجانبين.

الثاني: أن يكون الفصل مرفقاً بتعهد إسرائيلي للانسحاب من كامل الأراضي المحتلة.

نتيجة للضغوط الأمريكية على إسرائيل عمدت إسرائيل للتخفيف من تصلبها في مواقفها حيث ذكرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية أن هنري كيسنجر سيقدم مشروعا للطرفين يقضي بانسحاب إسرائيل من جيب أكتوبر ثم من منطقة جبل الشيخ وجزء صغير من الجولان.

قبيل سفر وزير الدفاع الإسرائيلي إلى واشنطن أعلن أحد المسؤولين الإسرائيليين أن وزير الدفاع سيطرح على الأمريكيين مشروعاً من عدة نقاط، وهي على النحو التالي:

- الانسحاب من جميع المناطق المحتلة عام 1973.
- الانسحاب من مدينة القنيطرة في الجولان والمحتلة عام 1967.
- تخفيض القوات بشكل يضمن عدم قصف المستوطنات الإسرائيلية في الجولان.

– وضع قوات طوارئ تابعة للأمم المتحدة في المناطق التي تنسحب منها إسرائيل ووضع هذه المناطق تحت السيطرة المدنية السورية.

عاد وكرر المسؤولون الإسرائيليون عشية سفر دايان إلى واشنطن أن الخطة المطروحة للنقاش تتمحور حول النقاط التالية:

–انسحاب إسرائيل مسافة 15 كلم من جيب أكتوبر يعاد منها 10 كم للسوريين مع وجود قوات عسكرية سورية محدودة فيها.

– وضع قوات طوارئ دولية في الكيلومترات الخمسة المتبقية.

– تبقي القوات الإسرائيلية على بعض من قواتها في المنطقة المتبقية من جيب أكتوبر.

– تخفيض عديد قوات الطرفين ضمن مسافة 20 كم على طرفي خط 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1973 أي خط قبل الحرب.

– تبادل الأسرى بين الطرفين.

قضية جيب أكتوبر:

من الملاحظ هنا أن وفداً عسكرياً سورياً غادر إلى واشنطن بعد عودة دايان وكان برئاسة اللواء حكمت الشهابي رئيس الاستخبارات العسكرية آنذاك لاطلاع المسؤولين الأمريكيين على وجهة النظر السورية، وبعد أن وصل الوفد إلى واشنطن في 11 نيسان (أبريل) 1974 بدأ مشاوراته مع وزير الخارجية كيسنجر، خلال المباحثات قدم السوريون اقتراحاتهم الرامية إلى انسحاب إسرائيلي من كامل الجيب المحتل والمعروف «بجيب أكتوبر» ومن نصف مساحة الجولان المحتل عام 1967 كذلك ترفض سوريا أي تواجد لقوات الطوارئ الدولية في المنطقة المحررة وتأمل بإنشاء منطقة محرمة يرابط فيها مراقبون دوليون، في المقابل أعلن كيسنجر عن تفاؤله بإمكانية التوصل إلى حل بين الطرفين خاصة وأنه سيقوم بجولة في المنطقة لتقريب وجهات النظر بين السوريين والإسرائيليين.

في هذه الأثناء تقدمت إسرائيل، حول موضوع فصل القوات مع سوريا، بمشروع يقضي بانسحاب جزئي من جيب أكتوبر مع قبولها بتواجد محدود للقوات الدولية، لكن سوريا رفضت هذا العرض وتقدمت بمشروع مقابل يقضي بما يلي:

- انسحاب القوات الإسرائيلية من القنيطرة وثلاثة تلال محيطة بها هي تل الفرس وتل أبو الندى وتل العزيزيات.

-الانسحاب من جيب أكتوبر المحتل عام 1973.

- التعهد بالانسحاب الكامل من جميع الأراضي العربية المحتلة حسب جدول زمني محدد.

وساطة كسينجر لحل قضية جيب أكتوبر ومطلب عودة النازحين السوريين لأراضيهم

مع وصول هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية إلى المنطقة وإزاء التوتر القائم بين السوريين والإسرائيليين تقدم كيسنجر بمشروع اعتبره حلا وسط، تضمن هذا المشروع أفكارا من المشروعين السوري والإسرائيلي على النحو التالي:

- انسحاب إسرائيلي من جيب أكتوبر ومساحته 525 كم مربع مع انسحاب إسرائيل ميل واحد من الأراضي التي احتلتها عام 1967 ومن مدينة القنيطرة.

- خفض عدد القوات من الجانبين ورسم جديد يفصل بين القوات.

- مرابطة قوات من الأمم المتحدة في المنطقة العازلة.

- تبادل الأسرى وعودة النازحين السوريين إلى أراضيهم.

عارض المشروع الطرفان السوري والإسرائيلي، حيث أكد الرئيس السوري حافظ الأسد على الأسس السورية الثابتة للحل، فيما طالبت إسرائيل بوقف العمليات أولاً وتهربت عن الرد حول نقطة مدينة القنيطرة وإجلاء 17 مستعمرة في الجولان.

عاد الإسرائيليون وتقدموا بمشروع إلى كيسنجر نص على ما يلي:

-الانسحاب من القاطع الشرقي من القنيطرة وضمها للمنطقة العازلة.

- عودة السكان إلى المناطق التي سينسحب منها الإسرائيليون غرب خط عام 1967 (الجولان المحرر).

- الانسحاب من كامل جيب أكتوبر المحتل عام 1973 مقابل احتفاظ إسرائيل بالتلال الثلاث المحيطة بالقنيطرة.

-تنسحب إسرائيل من مركزين على جبل الشيخ لصالح القوات الدولية.

- تبادل الأسرى.

- انسحاب إسرائيلي من منطقة القنيطرة مع مساحة صغيرة غرب خط 6 يونيو 1967 وإطلاق الإدارة المدنية السورية في هذه المنطقة مع اعتبار مدينة القنيطرة من ضمن المنطقة العازلة التي يحرم على سوريا إدخال قوات عسكرية إليها.

- انسحاب إسرائيل من الحميدية والبطمية والرفيد مقابل تخلي سوريا عن مطالبتها بانسحاب إسرائيلي من التلال الثلاث تل الفرس وتل أبو الندى وتل العزيزيات المشرفة على مدينة القنيطرة وكذلك بعدم مطالبتها بإحدى المستعمرات.

رفض السوريون هذا الاقتراح فعاد وتقدم كيسنجر بمشروع أخر ويقضي ب:

- انسحاب إسرائيلي من جيب أكتوبر.

-قبول إسرائيل التخلي عن مركزين من المراكز الأربعة على جبل الشيخ للقوات الدولية.

اتفاق فصل القوات بين سوريا وإسرائيل

توصلت سوريا وإسرائيل إلى اتفاق لفصل القوات بين الطرفين في منطقة الجولان بعد مناقشات كيسنجر وترؤسه مفاوضات شاقة، فقد أعلن الرئيس الأمريكي نيكسون إنجاز اتفاقية فصل القوات وأعقب ذلك بيان رسمي إسرائيلي يعلن قبول إسرائيل بالاتفاقية.

. . . "تم توقيع الاتفاقية يوم 31 أيار (مايو) 1974 عند الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين بتوقيت دمشق المحلي تحت رعاية الأمم المتحدة ومشاركة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وتوقف القتال بين القوات السورية والإسرائيلية في الجولان عند الساعة الرابعة عشرة والربع، أي بعد نصف ساعة من توقيع الاتفاق في جنيف".

أوردت صحيفة البعث السورية نص الاتفاق على النحو التالي: تراعي سوريا وإسرائيل مراعاة دقيقة وقف إطلاق النار بينهما في البر والبحر والجو، وتمتنعان عن كل الأعمال العسكرية ضد بعضهما البعض منذ توقيع هذه الوثيقة طبقاً لقرار مجلس الأمن الدولي للأمم المتحدة رقم 338 المؤرخ بتاريخ 22 تشرين الأول (أكتوبر) 1973.

تفصل القوات العسكرية السورية والإسرائيلية وفقا للمبادئ التالية:

أ – تكون كل القوات العسكرية الإسرائيلية غرب الخط المسمى بخط (أ) على الخارطة المرفقة بهذا الاتفاق باستثناء منطقة القنيطرة حيث تكون غربي هذا.

ب – تكون كل الأراضي شرقي الخط (أ) تحت الادارة السورية ويعود المدنيون السوريون إلى هذه الأراضي .

ج – تكون كل القوات السورية شرقي الخط المسمى بخط (ب) على الخارطة المرفقة.

د – تكون المنطقة بين الخطين (أ) و(ب) على الخارطة المرفقة منطقة فصل وترابط في هذه المنطقة قوة مراقبين دوليين تابعة للأمم المتحدة ومنشأة وفقا للبروتوكول المرفق مع الاتفاقية .

هـ – تكون هناك منطقتان متساويتان لتحديد الأسلحة والقوات واحدة غرب الخط (أ) وواحدة شرق الخط (ب) حسبما اتفق عليه.

و – يسمح لسلاحي جو البلدين بالعمل حتى خط كل منهما بدون تدخل من الجانب الآخر .

ز- في غضون 48 ساعة بعد توقيع هذا الاتفاق يصار إلى الإفراج عن جميع الأسرى والجرحى الذين يحتفظ بهم كل من الجانبين .

ح - هذا الإتفاق ليس اتفاق سلام بل هو خطوة نحو سلام عادل ودائم استناداً إلى قرار مجلس الأمن رقم 338 الصادر بتاريخ 22 تشرين الأول (أكتوبر) 1973.

بدأ الطرفان تنفيذ الاتفاق اعتباراً من 6 حزيران (يونيو)1974 حيث تم تبادل الأسرى، وفي اليوم التالي بدأ الإسرائيليون الانسحاب من جيب سعسع كما تم الاتفاق عليه مسبقاً، علماً أن الانسحاب تقرر أن يتم على أربع مراحل وبنهايته تكون إسرائيل قد انسحبت من 663 كم مربعا هي إجمالي مساحة جيب أكتوبر ومدينة القنيطرة والرفيد و21 موقعاً استراتيجياً محصناً، كما تم الاتفاق على أن يكون الوضع بعد تنفيذ المراحل الأربع يوم 26 حزيران (يونيو) كما يلي:

- تمركز قوة دولية من 1250 رجلاً في المنطقة العازلة بين الخطين (أ و ب) مع إخلاء إسرائيل ثلاثة مراصد على قمم جبل الشيخ.

- عودة 50 ألف سوري إلى المنطقة ويعهد بحفظ الأمن إلى الشرطة السورية المسلحة بأسلحة خفيفة من السلاح.

- إقامة منطقتين إلى جانب المنطقة العازلة تكون محدودة القوة العسكرية بعرض 10 كم.

- إقامة منطقتين إلى جانب المنطقتين السابقتين وأيضاً بعرض 10 كم وتضم كمية أكبر اعتباراً من تاريخ انتهاء فصل القوات أصبح على الأرض منطقة فاصلة بين القوات السورية والإسرائيلية وهي منطقة منزوعة السلاح لكنها تخضع مدنياً للسلطة السورية، وتعتبر هذه المنطقة التي يتراوح عرضها بين 0.2 كم و 2.5 كم نهاية السيادة السورية والخط الغربي نهاية السيادة الإسرائيلية.

أما الخط الحدودي فأصبح كالآتي:

ابتدأ من جنوب نهر اليرموك وعلى مسافة 1 كم من مكان التقائه بوادي روكد (رقاد) يتجه الخط الحدودي نحو الشمال الشرقي حتى رأس تل أبو الغيتر على مسافة كم جنوب شرقي هضبة مجشيم، ويمتد هذا الخط على طول 5 كلم على منحدرات الضفة الشرقية لوادي روكد بشكل يضع هذا الوادي ومصبه في نهر الأردن داخل فلسطين المحتلة (إسرائيل)، ينتقل الخط الحدودي عند مصب وادي (نوب) ليقطع وادي روكد (رقاد) ليصل إلى تل أبو الغيتر حيث يسير الخط عند المنحدرات الغربية للوادي لتكون ضفتي نهر اليرموك ضمن الأراضي السورية، يستمر خط الحدود من وادي روكد نحو الشمال الشرقي حتى قرية البطمية التي تقع على مسافة 1.5 كلم شرقي الوادي، ويستمر الخط صعوداً ليصل إلى أقصى نقطة نحو الشرق ويقطع طريق القنيطرة – درعا، وخلال مسار الخط بين هاتين المنطقتين يقطع مناطق وعرة هي تل عكاشة والمنحدرات الشرقية لتل السقف الكبير وجبل (حزاك) حيث يصل إلى قمته، ينحرف خط الحدود جنوب شرقي القنيطرة على مسافة 1 كم شرق قرية صرمان (القحطانية) نحو الغرب ليتجه شمالاً حيث يمر بالأطراف الشمالية ليدخل منطقة جفعاتي (بقعاتا) ماراً أمام قرية جباتا الخشب ليعود وينحرف الخط مجدداً على مسافة 3 كم غرب جباتا الخشب نحو الغرب ليصل إلى أسفل منحدرات جبل الشيخ الجنوبية الشرقية بالقرب من قرية مجدل شمس، يستمر بسيره نحو الشمال الغربي وعلى بعد حوالي 1 كم شمال شرق البلدة (مجدل شمس) ليتجه نحو الشمال الشرقي ويستمر بصعوده نحو الأعلى بشكل خط مباشر فوق الصخور إلى أعلى نقطة في هذه المنطقة حيث يمر من الجبل متسبيه شلجم (٢٢٢٤م) وقبل الوصول إلى القمة ينحرف الخط انحرافا حادا نحو الشمال الغربي جنوب الجبل ليسير نحو المنحدرات الغربية ليصل إلى الحدود اللبنانية.

نتائج هذا الاتفاق المخزي:

- لم يعد كافة أبناء الجولان الذي نزحوا عام 1967 لأراضيهم فالغالبية العظمى بقيت في عشوائيات دمشق وريفها ودرعا وحمص.

- عاد فقط فئتين من أبناء الجولان هما الفئة التي تخص مدينة القنيطرة ومحيطها ولهم سبع سنوات نازحين وفئة أبناء المناطق التي احتلتها اسرائيل بعد حرب 1973 واستمر نزوحهم حوالي سبعة إلى ثمانية أشهر.

- كان هذا الاتفاق الأخير بين سوريا واسرائيل في القرن العشرين.

- هذا الاتفاق فرض حالة اللاحرب واللاسلم حسب مشروع كسينجر.

- لم تخرج طلقة سورية واحدة بعد هذا الاتفاق وكانت حرب تشرين 1973 هزيمة سورية إضافية، فهي لم تحرر الجولان ورسخت الاحتلال وشجعت اسرائيل فيما بعد على قرار ضم الجولان.



حرب تشرين التكريسية 1973

سعد عبد القادر

باحث وناشط سوري من الجولان لاجئ في فنلندا

استمرت الجهود العربية المشتركة لبلورة عمل عسكري مشترك لاستعادة الأرض المسلوبة خلال حرب عام 1948 وحرب الأيام الستة عام 1967، ولهذا واصلت الحكومتين السورية والمصرية استكمال استعداداتهما للمعركة المرتقبة وتحضير القوات العسكرية للحظة الحسم، في حين استمر تدفق السلاح السوفياتي لكلا الدولتين، ففي نيسان (أبريل) 1973 تسلمت مصر أول دفعة من صواريخ السكود المتوسطة المدى وأخرى أرض جو مما ساهم بتعزيز اتخاذ قرار الحرب لدى الرئيس المصري أنور السادات الذي أقنع بدوره الرئيس السوري حافظ الأسد بضرورة وضع خطة عسكرية مشتركة للهجوم الذي سوف يأخذ شكل هجمات متزامنة على كل من الحدود الشمالية والجنوبية لفلسطين المحتلة (إسرائيل)، وعليه عملت الدولتان (مصر والاتحاد السوفياتي) على تزويد سوريا بصواريخ أرض جو مضادة للطائرات لتأمين الغطاء الجوي لدمشق وحمايتها من الطائرات الإسرائيلية العسكرية.

إزاء التعنت الإسرائيلي الرافض لفكرة الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة وفي ظل تطورات دولية متعددة ومختلفة شن الجيشان السوري والمصري يوم 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1973 حربا مشتركة ضد إسرائيل على الجبهة الشمالية (الجولان) والجبهة الجنوبية (قناة السويس)، وحققت المفاجأة العسكرية للضربات الأولى إنجازات عسكرية هامة.

بينما كان مجلس الوزراء الإسرائيلي منعقداً لمتابعة آخر التطورات المستجدة بدأت المعلومات تتوارد بعد الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت وتفيد

عن بدء الحرب، فيما كانت إسرائيل تحتفل بيوم كيبور (عيد الغفران)، خلال المعارك الأولى استطاعت القوات السورية التقدم على كافة محاور الجولان حيث تم تحرير الجزء الأكبر منه خلال الأيام الأولى واقتلعت القوات السورية العدد الأكبر من المستوطنات الإسرائيلية وخاصة ما هو موجود جنوب الجولان، كذلك استطاعوا في هذه المنطقة التوسع إلى خطوط ما قبل عام 1967 وتعمقوا في أطراف أرض فلسطين المحتلة عام 1948 حيث استطاع الجنود السوريون بالفعل الاستحمام في بحيرة طبريا ودخلوا بلدة خشيبة، أما في شمال الجولان توغلت القوات السورية داخل الجولان كما احتلت مرصد جبل الشيخ.

ومن المفارقة الغريبة أن الرئيس المصري السادات أعرب يوم 7 تشرين الأول (أكتوبر) لهنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي عن تمسك مصر بالتوصل إلى سلام في الشرق الأوسط وليس إلى تسوية جزئية، وكذلك بأن مصر لا تعتزم تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة، واستخلص كيسنجر بعد اطلاعه على رسالة السادات بأن مصر لا تنوي استئناف عملياتها الهجومية ضد إسرائيل متجاوزة الأرض التي حررتها، ويعتبر الأستاذ أمين هويدي أن هذه الرسالة كانت عملاً غير مسبوق لإخطار العدو لنواياه المستقبلية حول الأوضاع المستجدة دون الالتفات إلى رأي حليفه الذي يقاتل في الشمال مما أفسح المجال أمام إسرائيل بتوجيه آلتها العسكرية ضد سوريا دون تركيز الضغط على الجبهة الجنوبية، والجدير ذكره أن القوات السورية واصلت تقدمها فوصلت إلى تل أبو خنزير غرب القنيطرة كما حاصرت القنيطرة نفسها ، في اليوم الثالث للمعارك استطاعت إسرائيل تحويل سير المعارك لصالحها خاصة بعد أن استخدمت إسرائيل قواتها الجوية بشكل كثيف على الرغم من الخسائر التي تكبدتّها، وبعد حشد قواتها بدأت هجومها المضاد مستهدفة فك الحصار عن القنيطرة واحتلال تل فرس الاستراتيجي القريب من القنيطرة.

أمام فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي صباح يوم 9 تشرين (أول أكتوبر) اليوم الرابع بسبب المقاومة العنيدة السورية، عمدت إسرائيل ليل 9-10 تشرين أول (أكتوبر) إلى قصف المدن السورية، فيما تحولت القنيطرة إلى مسرح قتال وحشي بين الطرفين وذلك لاعتبارين سوري يرى أن القنيطرة عاصمة إقليم سوري، وإسرائيلي يعتبرها موقعا حيويا للدفاع عن الجولان، أما في الجنوب والوسط فقد استطاعت القوات الإسرائيلية رد القوات السورية إلى خارج خط وقف إطلاق النار لعام 1967 باستثناء تل الفرس وتل عكاشة الذين بقيا تحت السيطرة السورية.

مع حلول اليوم الخامس للمعارك (10 تشرين أول أكتوبر) أصبح وضع القوات السورية صعب، فالخسائر مرتفعة والوضع العسكري متدهور فعمدت سوريا إلى حشد الفرقة المدرعة الثالثة المولجة حماية دمشق والمكونة من 500 دبابة في الميدان وأصبحت دمشق مكشوفة عسكرياً ووجه القائد العام للقوات المسلحة السورية نداء إلى نظيره المصري يطالبه فيه المساعدة للتصدي للعدوان الذي يستهدف دمشق وحمص لكن ذلك كان أمراً صعباً في ذلك الوقت، فاتصل السوريون بالعراقيين ووافقوا في بادئ الأمر ولكنهم عادوا واعتذروا بحجة عدم توفر الوقت الكافي لقاذفاتهم للقيام بالعمل العسكري المحدد والعودة إلى قواعدهم، كما شهد هذا اليوم فك الطوق عن القنيطرة.

الجدير ذكره أنه خلال مساء هذا اليوم وعند الساعة الثامنة عقدت قيادة الأركان الإسرائيلية اجتماعاً لاتخاذ قرار حول الوضع على الجبهة الشمالية: إما تعزيز المواقع على الخط الأرجواني (خط وقف إطلاق النار لعام 1967) أو مواصلة الهجوم نحو سوريا، ولدى دخول دايان وزير الدفاع الإسرائيلي إلى الاجتماع عمد رئيس الأركان إلى عرض وجهتي النظر أمامه وكان دايان يعتبر أن استمرار الهجوم والتوسع داخل سوريا سوف يجبر الاتحاد السوفياتي على التدخل للدفاع عن دمشق، إلا أن بن اليعازر رئيس الأركان أيد الاقتراح الثاني "على اعتبار التقدم إلى مسافة 12 ميل عن دمشق

يفسح المجال للقوات الإسرائيلية ببناء خط دفاعي قادرة منه على تهديد دمشق بالمدفعية".

وخلال هذه الفترة ولمدة ثلاثة أيام 7،8، 9 تشرين أول (أكتوبر) واجهت القوات السورية الضغط الإسرائيلي بعد أن ركزت إسرائيل عملياتها العسكرية ضد سوريا على جبهة الجولان، وبعد انسحاب القوات السورية إلى خطوط عام 1967 وإزاء الضغط الإسرائيلي أدركت سوريا حقيقة الموقف المصري الذي أوقف التوسع والضغط على إسرائيل في سيناء مما سمح لإسرائيل باستفراد سوريا وبأن السوريين يقاتلون وحدهم.

مع نهاية اليوم الخامس (10 تشرين أول أكتوبر) وللمرة الأولى من بداية المعارك أصبح لدى قادة وجنود العدو الإسرائيلي بعض الوقت للتفكير ومراجعة حساباتهم وذلك على الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدوها على الجبهة الشمالية، ومن المعلوم أنه مع بداية اليوم السادس من الحرب (11 – 10 – 1973) كانت القوات الإسرائيلية قد أعادت القوات السورية إلى خط وقف النار السابق وتواصل خرقها للأراضي السورية بعد اختراقها خط الدفاع الذي أقامه السوريون، فيما فشلت القوات الإسرائيلية من استعادة مرصد جبل الشيخ، ومن أهم العوامل التي أثرت على القيادة العسكرية الإسرائيلية لتركيز هجومها على الجبهة الشمالية دون الجبهة الجنوبية في تلك الأثناء عدة اعتبارات:

–العمق الذي وصل إليه الجيش السوري خلال عملية تحرير الجولان.

– خوف إسرائيل من تحرير سوريا لمدينة القنيطرة وما يشكله ذلك من دفع معنوي للقوات السورية.

– الأخذ بعين الاعتبار فيما لو تم تحرير الجولان من قبل السوريين مقدار الخطر الذي سيتعرض له سهل الحولة الحيوي والعمق الإسرائيلي.

– فيما لو قدر للعمل العسكري الإسرائيلي المضاد النجاح، فإن إسرائيل تهدف إلى تحقيق تحطيم معنويات السوريين بعد اقترابها من دمشق وإنزال ضربة قاسمة بالجيش السوري ترغمه على طلب وقف القتال والخروج من المعركة خاصة بعد شعور السوريين بالخطر على دمشق.

في هذا الوقت بدأت المساعدات العربية اللوجستية والعسكرية بالوصول إلى سوريا لدعم الخطوط العسكرية المتقدمة أمام الهجوم الإسرائيلي المضاد، حيث وصلت قوات عراقية وأردنية ومغربية وكويتية وسعودية كان لها الأثر الكبير بثبات الموقف السوري على الجبهة الشمالية.

خلال اليوم السابع استمرت القوات الإسرائيلية بالتوسع داخل الجولان السوري (خرق الأراضي السورية لما بعد وقف النار عام 1967) وعلى محاذاة الطريق المؤدي إلى دمشق.

تمكنت القوات الإسرائيلية خلال اليوم الثامن من توسيع الخرق داخل الأراضي السورية على المحورين الشرقي والشمالي الشرقي ولكن التقدم كان بطيئاً، ومع وصول التعزيزات العربية إلى سوريا تهددت ميمنة القوات الإسرائيلية المتقدمة إلى دمشق مما أجبرها على التخفيف من وطأة الهجوم ورافق ذلك إعادة تفعيل الهجوم المصري على الجبهة الجنوبية لأسباب مختلفة مما ساهم من تخفيف الضغط على القوات السورية، وبذلك نجت دمشق نظريا من الخطر الإسرائيلي، ومع عودة بدء الهجوم المصري تحولت العمليات الإسرائيلية إلى عمليات محدودة وبطيئة على الجبهة السورية.

مع حلول اليوم السادس عشرة (21 – 10 – 1973) هاجمت القوات الإسرائيلية النقاط الاستراتيجية على جبل الشيخ وذلك منذ الصباح الباكر، وسيطرت على أجزاء مهمة من هذا الجبل وعند المساء خفت حدة المعارك خاصة بعد إعلان وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن الدولي تحت رقم 338، برعاية الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، إلا أن إسرائيل لم تلتزم وقف إطلاق النار بشكل كامل واستمرت

خلال اليومين السابع والثامن عشرة محاولات السيطرة على بعض المناطق من جبل الشيخ، وفي 24 تشرين أول (أكتوبر) أبلغت سوريا الأمين العام للأمم المتحدة موافقتها على وقف إطلاق النار، وهكذا مع انتهاء العمليات العسكرية كانت إسرائيل قد استعادت الجولان وجبل الشيخ إضافة لمركزين سوريين على جبل الشيخ وخرقت الأراضي السورية حتى مشارف قرية سعسع، وأصبحت تسيطر على منطقة بطول 23 كم حتى سعسع وحوالي 25 كم عرضاً من قرية بيت جن في الشمال مرورا بتل شمس على الطريق المؤدي إلى دمشق وتل زعتر وتل المال في الجنوب، وتقدر المساحة تلك التي سيطرت عليها إسرائيل بحوالي 600 كلم مربعا.

ومن المعلوم أن إسرائيل لم تلتزم وقف إطلاق النار رقم 338 الصادر بتاريخ 22 – 10 – 1973 وخاصة على الجبهة الجنوبية، لهذا أصدر مجلس الأمن الدولي تباعاً – القرارين 339 تاريخ 23 – 10 – 1973، و340 تاريخ 24 – 10 – 1973 لتأكيد وقف إطلاق النار، وفي 26 – 10 – 1973 أصدر مجلس الأمن قراره رقم 341 وحدد فيه آلية لتنفيذ قراره السابق رقم 338 عبر إرسال قوات تابعة للأمم المتحدة للفصل بين القوات المتصارعة وذلك لمدة ستة أشهر، كما تحدث القرار عن نقاط ومهام وتمويل هذه القوة، في هذه الأثناء بدأت تظهر بوادر الدعوة لعقد مؤتمر في جنيف ولدى انعقاده لم تحضره سوريا إلا أن هذا المؤتمر ساهم ببلورة اتفاق فصل القوات بين مصر وإسرائيل.

بعد التقيد بوقف إطلاق النار في منطقة الجولان لم يكن وضع القوات العسكرية على الأرض مطابقاً لما كان عليه قبل بدء المعارك يوم 6 تشرين الأول (أكتوبر)1973، على الرغم من استطاعة القوات الإسرائيلية رد القوات السورية عن مختلف المناطق التي حررت في الجولان وذلك لخرقها الأراضي السورية بعد الهجوم المعاكس الذي شنته يوم 11 – 10 – 1973 بعد إعادة فرض سيطرتها على معظم الجولان، فيما استطاعت القوات العربية المشتركة من إعادة شن هجوم مضاد ضد القوات الإسرائيلية

انتزعت بعض المواقع والأراضي من الإسرائيليين مما سبب تشابكا وتداخلا في الأراضي والمواقع، وكانت النتيجة النهائية خط متعرج مع برودة ملحوظة على مختلف المحاور خاصة بعد أن ركز الإسرائيليون هجماتهم على الجبهة الجنوبية (المصرية) لتحقيق خرق عسكري ما على هذه الجبهة، ومن ثم استمرت حرب الاستنزاف حتى الوصول إلى اتفاق فصل القوات.

على الرغم من أجواء الفرح التي عمت العالم العربي بعد انتهاء الحرب، إلا أن الخيبة أصابت السوريين الذين اعتبروا أن الرئيس السادات قد ضللهم وكذب عليهم، حسب دعاية نظام الأسد، فهم اعتقدوا أن المعركة ذات التنسيق المشترك ستخاض في الوقت نفسه إلا أن السادات ترك السوريون يواجهون الإسرائيليين بمفردهم في الوقت العصيب ولم يتحرك ثانية إلا في وقت متأخر نسبيا، حتى أنهم خسروا تلك النتائج الإيجابية التي كسبوها مع بدء المعارك والتي كانت قد ساعدت السوريين خلال التحركات السياسية التي رافقت الحرب، وخلال المفاوضات اللاحقة .

استناداً لما تقدم فقد زعم نظام الأسد وجود محاولات للسادات إخفائه معلومات المفاوضات التي أجراها مع إسرائيل قبل الحرب وبإشراف الولايات المتحدة الأمريكية محاولة تضليل وخروج عن الإجماع العربي، هكذا كانت الحرب ذات توجهين مختلفين لحلفين لديهما وجهتي نظر مختلفتين: مصرية تريد تحقيق عمل عسكري يساهم في بلورة مبادرة سلمية أخذها سراً على عاتقه، وسورية دعائية تهدف إلى إحراج موقف الدولتين العظميين لإيجاد حل سلمي وعادل لكل الأطراف في سبيل إيجاد حل نهائي للمشكلة الفلسطينية الشماعة الدائمة لحاكم دمشق.

قراءة لحرب كرسي الأسد حرب تشرين التكريسية:

- تمكن حافظ الأسد ببيانه 66 في حرب 1967 من تسليم الجولان وكانت حرب 1973 فرصة لتثبيت حكمه طوال ثلاث عقود أخرى.

- لم تكن حروب الأسد سوى مسرحيات تبدأ بالخطب الرنانة وتنتهي بالانسحاب الكيفي والهزيمة، وحتى اليوم لم تصدر دراسة فعلية حول قرارات الأسد الغبية في الحروب ولا في تمثيليات السلام. وأخطائه في قراراته وتكتيكات الجيش السوري في حرب 1973 رغم نجاح القوات السورية في البداية، كما لم تقم لجنة لمحاسبة المسؤول الرئيسي عن فشل عام 1973 كما لم تكن عام 1967 قبلها.

- لم يكن نظام دمشق يسعى فعلياً لتحرير الجولان ولا إعادة النازحين إلى قراهم وبلداتهم.

- طالما أثبت نظام الأسد أنه فاشل في الحرب والسلام.

- توصل حافظ الأسد لاتفاقية فصل القوات المذلة ولم تخرج بعدها طلقة واحدة من سوريا في الجولان السوري المحتل.



ضم الجولان

ضرار حسان

باحث سوري من محافظة القنيطرة، لاجئ في مدريد.

استغلت إسرائيل الظروف الدولية والإقليمية بهدف تمرير قانون إسرائيلي يسمح بضم هضبة الجولان السورية المحتلة منذ عام 1967 إلى الدولة الإسرائيلية، فبعد صيف عام 1981 المتوتر مع سوريا حول أزمة الصواريخ التي نصبتها سوريا داخل الأراضي اللبنانية في سهل البقاع وارتفاع وتيرة التوتر إلى حد المجابهة، وإزاء ضغط الأزمة العمالية في بولندا بين حركة النقابات العمالية والحكومة البولندية وانشغال العالم والرأي العالم العالمي بهذه الأزمة عمدت إسرائيل إلى إصدار قرار الضم بتاريخ 14 كانون الأول (ديسمبر) 1981، وكانت إسرائيل قد مهدت لصدور هذا القرار بتشجيع الجماعات اليهودية بجمع تواقيع لعريضة من برلمانيين إسرائيليين خلال شهر حزيران (يونيو) 1979، تطالب بأن يكون الجولان جزء لا يتجزأ من إسرائيل، وفي تموز (يوليو) 1980 صدر قانون يُسمَح بموجبه لوزير الداخلية منح الجنسية الإسرائيلية لسكان المناطق المحتلة عام 1967، وفي تموز (يوليو) 1981 أعلن بيغن برنامج حكومته الثانية مؤكدا من أن إسرائيل لن تتخلى عن الجولان ولن تزيل أية مستوطنة أقيمت فيها، والحكومة هي التي تقرر الملائم لتطبيق القانون والحكم والإدارة الإسرائيلية.

في المقابل وبعد خروج رئيس الحكومة الإسرائيلية بيغن من المستشفى بسبب بعض الكسور التي تعرض لها، دعا بعض الوزراء لحضور جلسة وزارية مصغرة في منزله أحيطت بسرية وحضرها نائب رئيس الوزراء ووزراء الخارجية اسحق شامير والدفاع أرئيل شارون والعدل موشي نسيم حيث أعلن نسيم أن الحكومة الإسرائيلية قررت ضم الجولان، وأنها قررت أن يتم ذلك بسرعة هائلة لم يسبق لها مثيل، كما أعلن أن الحكومة ستطرح على الكنيست مشروع قانون مسمى "قانون تطبيق التشريع الإسرائيلي في هضبة الجولان".

عاد وعقد مجلس الأمن الدولي جلسة غير رسمية بناء لطلب سوريا لدرس مستجدات الوضع الراهن والاستماع إلى مندوبي بعض الدول حول الأزمة، فطالب المندوب السوري ضياء الله فتال منح إسرائيل مهلة أسبوع للتراجع عن قرارها قبل الطلب لاتخاذ إجراءات عقابية ضدها. في هذه الأثناء أرجأ مجلس الأمن إصدار أي قرار حول المشكلة، فيما انعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة واتخذت قراراً أدانت فيه إسرائيل على تغيير الطابع المادي والتكوين السكاني والهيكل التأسيسي والوضع القانوني الخاص بالجولان السوري المحتل، ونص القرار على أن كافة الإجراءات المتخذة تعتبر باطلة وانتهاكاً لاتفاقية جنيف الموقعة في 12 آب (أغسطس) 1949، كما ندد القرار بشدة بمحاولات إسرائيل فرض الجنسية الإسرائيلية على السكان العرب بالقوة.

عاد وأصدر مجلس الأمن قراراً حمل الرقم 497 تاريخ 17 كانون الأول (ديسمبر) 1981 يقضي ببطلان ضم الجولان إلى إسرائيل، ونص القرار على ما يلي:

إن مجلس الأمن إذ يؤكد أن اكتساب الأراضي بالقوة أمر مرفوض بموجب ميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي والقرارات الصريحة لمجلس الأمن يقرر:

أولاً: إن القرارات التي اتخذتها إسرائيل بحق الجولان السوري المحتل تعتبر باطلة وكأنها لم تكن.

ثانياً: يطلب إلى إسرائيل الدولة المحتلة إلغاء قرارها دون إبطاء.

ثالثاً: بقاء سريان اتفاقية جنيف على الأراضي السورية المحتلة عام 1967.

رابعاً: يدعو الأمين العام للأمم المتحدة لتقديم تقرير بعد أسبوعين حول تطور الأوضاع في المنطقة وفي حال عدم امتثال إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة سوف يتم البحث باتخاذ الإجراءات المناسبة.

عادت الجمعية العامة للأمم المتحدة وتبنت قراراً تطالب فيه إسرائيل بالتراجع عن قانون ضم الجولان، فيما وقفت الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب إسرائيل لمنع صدور

قرار يؤدي إلى فرض العقوبات على إسرائيل، فيما أعرب مسؤول أمريكي عن اعتقاده أن إسرائيل ستستغل الأحداث الراهنة في بولندا للقيام بعملية اجتياح لجنوب لبنان وأن الولايات المتحدة تأكدت من ذلك بعد عملية ضم الجولان وهدفهم من هذه العملية الوصول إلى نهر الليطاني.

في المقابل أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي شارون أن عدم تجديد اتفاقية التعاون الاستراتيجي من قبل الولايات المتحدة سيزيد الشكوك حول التزامات واشنطن الدولية، كما أعرب عن دهشته من تفاجئ مصر والولايات المتحدة من خطوة ضم الجولان مبرراً هذا الاستغراب بأن إسرائيل سبقت وأبلغت مصر أنها لن تنسحب من هضبة الجولان لأهميتها الاستراتيجية.

عاد وأعلن وزير الدفاع الإسرائيلي بتاريخ 26 كانون الأول (ديسمبر) 1981، أن الجولان ليس عملاً وحيداً وإنما هناك إجراءات أخرى لمناطق محتلة قد تتبعها، وأضاف أن إسرائيل أجبرت على ضم الجولان للتصدي للضغوطات الأمريكية الرامية لفرض انسحاب إسرائيلي من الجولان.

أمام استمرار التعنت الإسرائيلي وعدم تنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي ودعم الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل، هددت دمشق بأنها ستوقع على اتفاق التعاون الاستراتيجي مع الاتحاد السوفياتي لمجابهة ما قد تتعرض له من أخطار محتملة، كما أعلنت أنها تعتبر قرار ضم الجولان لاغ وباطل وطالبت إسرائيل بالتخلي عنه وشددت على ضرورة تقيد مجلس الأمن الدولي بتنفيذ القرار رقم 497، وإلا فعليه الاجتماع كما تقرر سابقاً بتاريخ 5 كانون الثاني (يناير) 1982 لاتخاذ العقوبات اللازمة بحق إسرائيل بما يتناسب مع المادة 41 من ميثاق الأمم المتحدة، والتي تنص على ما يلي:

- عدم تقديم أي عون عسكري وتعليق كافة المعونات العسكرية.
- قطع العلاقات الاقتصادية والمالية والتجارية.

- الامتناع عن تقديم أي عون فني أو التعامل معها تحت أي شكل من الأشكال.

- قطع العلاقات الدبلوماسية.

في هذا الوقت استمرت الأزمة واستمر الدعم الأمريكي لإسرائيل، فقد أبلغت جين كيرك باتريك مندوبة الولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة المندوب السوري (فتال) أن واشنطن سوف تمنع صدور أي قرار يتضمن عقوبات ضد إسرائيل بناء للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ولو اقتضى ذلك استعمالها حق النقض (الفيتو)، فيما أعلن كلوفيس مقصود ممثل جامعة الدول العربية في الأمم المتحدة أن إسرائيل بدأت بتحويل نقاطها العسكرية في الجولان إلى ما يسمى حدوداً دولية.

توقعت المخابرات الإسرائيلية مزيداً من التدهور الأمني والصدام العسكري بين السوريين والإسرائيليين خلال العام 1982، كما توقعوا أعمالاً عدوانية في ردة فعل على قانون ضم الجولان إلى إسرائيل وأعلنت حالة التأهب في الجيش الإسرائيلي لمواجهة التطورات الطارئة.

أمام هذه التطورات التي اعتبرتها القيادة السورية استفزازية وتمهد لعدوان أكبر على المنطقة، بدأ وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام زيارة إلى موسكو لإجراء مباحثات مع المسؤولين في موسكو حول الأوضاع السائدة، فالتقى أندريه غروميكو وزير الخارجية السوفياتي وتشاورا بخصوص تطوير مشروع معاهدة الصداقة التي وقعت في تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1980، في المقابل استخدمت الولايات المتحدة حق النقض (الفيتو) على مشروع قرار عربي معدل قدم إلى مجلس الأمن الدولي يدعو لاتخاذ عقوبات متنوعة ضد إسرائيل لضمها الجولان السوري، بعد هذه التطورات عقد مجلس الأمن الدولي مجدداً جلسة بتاريخ 28 كانون الثاني (يناير) 1982 بناءً على طلب مجموعة الدول العربية ناقش خلالها الأمور الإجرائية لنقل الشكوى العربية من مجلس الأمن إلى الجمعية العامة للنظر فيها، وبالفعل وافقت الجمعية العامة وللمرة الأولى منذ قبولها إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة عام 1949، اعتبار إسرائيل دولة

غير محبة للسلام ويتناقض سلوكها مع ميثاق الأمم المتحدة وقرارات الجمعية العامة التي قبلت على أساسها إسرائيل عضواً فيها.

ردت إسرائيل على القرار في اليوم التالي مستتكرة ما وصفته قراراً ظالماً وغير منطقي وغير متوازن وما الدعوة لعزل إسرائيل دولياً إلا في إطار الجهد المستمر من قبل العرب لتقويض كيانها واعتبار القرار من القرارات المناهضة لإسرائيل التي سبق وتم التصويت عليها في السابق.

منذ اللحظة الأولى التي عمدت خلالها إسرائيل إلى ضم الجولان بدأت بممارسة مختلف أنواع أساليب الضغط والإرهاب لجعل المواطنين العرب يقبلون الهوية والجنسية الإسرائيليتين، ولكن أبى هؤلاء الخضوع للإرادة الإسرائيلية على الرغم من استمرار إسرائيل ببسط سيطرتها على الجولان.

مراجع:

1-مصطفى الجوني، ترسيم الحدود اللبنانية السورية الفلسطينية وأبعادها السياسية والعسكرية والاقتصادية 1920-2000، دار المحجة البيضاء، ط1، بيروت لبنان، 2007.

2-عبد المنعم حسكير، الجولان مفتاح السلام في الشرق الأوسط، ص218، ط1، مكتبة بيسان، بيروت لبنان، 1999.

3-صحيفة السفير: 6-2-1982، العدد 2790.

أوراق الشعر

قصائد*

فرج بيرقدار

شاعر سوري، ورئيس رابطة الكتاب السوريين، نشر عدة مجموعات شعرية، وحصل على العديد من الجوائز العالمية.

يتدانى

دمعُكَ لا لونَ لَهْ

ودماؤكَ بيضاءُ فوق ثلوجِ الحقيقة

مَنْ سيراها؟!

تقول أغانيكَ في الليل

أنّكَ كنتَ جباناً

فإمَّا تعالى إلهُك فاذهبْ إليهِ

ودعْ لي إلهي الذي يتدانى

على مَهَلِ كالندى

لا ألوهةَ ما فوق باطنِ هذا الترابْ

فإلهي من الأرض مثلي

ومثلُ إلهي أنا

لا حضور لنا إن حضرنا

وليس لنا من غيابْ.

ستوكهولم 2017

أخوه الفرات

كلّ ما فاتَ

لا لم يفُتْ يا صديقي

وليس له من رُفاتْ

الأناجيلُ أجمل مما تقولُ

القصائدُ أيضاً

وأيضاً صبايا دمشقَ

وقرآنُ أمي

وتوراةُ سيدة من يهود العراق

تحنُّ إلى أن يكون البكاءُ على رِسْلِهِ

في الأغاني

وفي ما مضى أو سيأتي

وإن شئتَ بينَ ضفاف قتيلٍ نسميهِ دِجلة

يبكي

ونبكي

ويبكي عليهِ أخوه الفراتْ.

شبيهي

وله التنائي عن ظنون الشوكِ

حين الياسمينُ..

وله الشكوكُ

إذا اليقينُ..

وله طيورٌ يستبدُّ بها الفضاءُ

له قيود لا ترنُّ

ولا يراها غيرهُ

وله سجونُ:

أيامه،

وبلاده،

ورحيله،

وتقلب الأهواء،

والذكرى،

وأسماء الفصول،

وما يكون ولا يكونُ.

النوارس

كبناتِ أفكار البحار

هي النوارسُ

غير أني يا صحارانا

وأمَّ رمالنا

وخلاصةَ الأهواء والأديانْ

لا أشتهي منها سوى معنى الشراعِ

وقد أجذِّف في الرمالِ

وربما أستلُّ مئذنة من التاريخ

أطعنني بها

كي لا أنامْ.

وَتَرٌ على أوجاع روحك يا غريبُ

عنيتُني

وخجلتُ من نفسي

وواسيتُ النوارسَ

واشتهيتُ لو انني

ما كنتُ أشبُهها بترحالي

ولا كانت جنازاتُ الهوى

حلباً وشامْ.

من كان يمشي في الأمامِ

هوَ الإمامُ

ومن مشى في نومهِ

كان المسرنِمَ

والطيور بغير أجنحةٍ

كلامٌ في كلامْ.

ستوكهولم 2018

غصص

المكانُ

قليلٌ قليلُ

والزمانُ

ثقيلُ ثقيلُ

لكأنَّ السجونَ بلا أملٍ

والسجودَ بلا طائلٍ

ويطولُ

كيف للكون أن يتردَّى

إلى ذلك الدرك، قلتُ

وسوف أقولُ

غصَّ بحرٌ بأطفالنا

واكتوى الملحُ بالجرحِ

يا ملحُ أنتَ القتيلُ

كم لكَ الشوك يا وردَنا

كمْ لكِ اللهُ يا سورِيا

كم لكَ الحُبُّ يا مستحيلُ.

*** ستوكهولم 2018**



قوموا اسمعوا همسي!

وحيد نادر

شاعرٌ ومترجم وأستاذ جامعيّ من أصل سوريّ يعيش في ألمانيا.

بكائيّة على صدر مظفّر النّواب

قوموا اسمعوا همسي، غَدي أمسي، وبَعدَ العرسِ أَدعوكُم لعرسي، فصوتي صارَ معراجي إلى قدسي،

وصَمتي كالمَدى يجتاحُ صوتي يُستباحْ

أوَ ليسَ صوتي عريَ وجهي ما استبيح لكي أبوحَ، ففاض روحي واستراحْ؟

ماضٍ غَدي، صمتي صدى صوتي وصوتي ما تُكذّبه الجِراحْ

وطني كَما الأَمواج ترعاهُ السّمومُ من الرّياحْ

سَكِرٌ فلا الأقداح تُبكيني، ولا قمَري يُشاركُني سحوري في مَخاضاتِ الصّباحْ

الأَرضُ جسمي مَن يودّ عناقَها؟

فأَنا الذي خرّشتُ في ليلِ السّكوتِ مَسامِعَ الربّانْ

وأَنا الذي خَربَشتُ فوقَ جنوبنا بدمِ الشّمالِ قَصائِدَ الأَديانْ

وأَنا الذي عَربَشتُ فَوقَ ذراكَ يا صنّين، كَي أَصلَ السّماواتِ الطّباقَ بربّها عَريان أرفعُ مثل أوجاعي الأذانْ

إنّ البليَّة أَن تُصدِّقَ رقصَهم، فالميّتونَ الرَّاقصونَ بلا أَمانْ

منْ وحَّمَ الحُبلى، شيوخُ النفط أم فقه الوليّ القهرمان؟

من (أمْركَ) الدنيا و (روَّسَ) في الشآم سقامَها، والحربُ دينٌ للطوائف والرّعاة من الطغاة تصهينوا كالأمريكان.

وأراني أعرفُ باكياً مثل النبيّ وأحمر الرّمانِ: ماذا يرتجون برقصهم ورجولةِ الألفاظ في أفواهِهم غيرَ المهانة في الهوانِ المستبيحِ الحنجراتِ على نشيدٍ أقحوانْ!

أو كمّ أفواهِ العبادِ بصفعةٍ من كهربا (شبّيحةٍ) ومزاجُها كالمخبرينَ عداوة، لو تنتهك زمناً يباركُها الزّمان

أيرقّعونَ هزيمةً بهزيمةٍ، أم يملؤونَ السّوقَ نصراً باهتاً، وهْماً يفرّخُ ذلّهُ في القلبِ يغتصبُ الفخارَ بزهرة التّفاح في أرض الجُولانْ؟

ما أرحمَ الأعراب في أعدائهمْ: لهمُ السّلامةُ والحمامةُ والبداية والنّهايةُ والحفاوة والحنانْ

ما أقذرَ الأعراب في أبنائهم وبناتهم: لهمُ الطّوارئُ والسّجونُ، لهمْ "طَراميش" العيونِ، لهمُ العصا، لهمُ "الكلبشةُ" والأسى ولهمْ جهنّمُ في الحياةِ وفي الممات وفي التّراب وفي السّماوات الخصيفِ على الجنان

ما أقبحَ الأعرابَ في أسلافهم/ أخلافهم وورودِهم ومياهِهم وقعودهِم وقيامِهم في كلّ حينٍ أو مكان

ما أجبنَ الأعرابَ إن هُزموا وإن نُصروا وإن صلّوا وإن كَفروا وإن صاموا وإن فطروا على خزيٍ ألمّ بهم وهان

أَعزاؤهُمْ في أنّ كلباً أو جباناً صار يفرحُ أن يُقالَ لهُ: جبانْ؟

هل كلّ معجزةِ المليك وراثةٌ للحكم تبقيه الزّعيمَ الفهلويّ بلا منافس أو رهان؟

أم أَنَّ مأثرةَ اللّصوص حظوظُهم في أنّهم ولدوا لصوصاً كالبعير فخارُه في ضرع ناقتِه الأتان؟

أو إنّ مكرمةَ الكلاب أصولُها ووفاؤُها للبهلوان؟

حكّامنا كخرابنا أو موتنا، (لا ينحنوا يوماً سوى للقتلِ) أو للنشر بالمنشار مذعورينَ في جسد الشّعوب كقاتلٍ أعماهُ لون الدمّ فاختار العمى في حكمه كالأخطبوط تشبّثاً بفريسة ملّت مواتاً فارتقت في ظلّ سيّدها المهانِ تسربتْ كالماء من أيدي الدّمار ولم تخن، فالطيرُ يهجرُ عشّه والسنديانُ جذوره في شوقه للسنديانْ!

فبكى الأميرُ وتاه يجمعُ كالسّجيع سعالَهُ، من ذا يُصدِّق دمعَهُ، لو راحَ يَبكي كلّ ماء الذلّ معبودُ القيانْ؟

مازال فينا –إن ولدنا– مَن سيوأد كالنموّ عويلهُ، صحراؤنا الكروانُ لقّحها عويلٌ في انعطافِ الأمنيات على الصهيلْ

صحراؤنا عطشتْ وما خانتْ، فخانتها المواسمُ والحقولُ السّمر في أيدي بنيها والرّياحُ السّاهرات على الجليلْ

حنِثتْ رياحٌ فيها نفطٌ لا يخون سوى النّخيلْ،

مثل الطغاة الرمّ يذروها الجفافُ فضاؤها قفرٌ وقلبي يابسٌ كحياتها والمستحيلْ.

أفلا نُهاجِر صَوبَ حلمٍ مولعٍ بالأَنبياءِ ونَجمةٍ ترخي ضَفائِرها وتحبو صوبَ أضواء تَدقّ الهمَّ بالنعناع تعجنُ (أخرقاً) ورثَ الرئاسةَ عن أبيه النِّمس مُلْكاً كالمخاط يسيلُ يبقى في الجحور وليس يرقى؟

كم لَستُ أَدري إن تَنائينا، وكم أَمشي إِليكُم عسرَ دربٍ أوحشته مسافةٌ وسلاهُ برقٌ فيه رُقّ القلب يحيا في الحبيبِ ولا يملّ كموجةٍ يغويها دفقٌ فيه هقَّ الحبّ مقموعاً يدقُّ برأس حلاّجٍ تقطّع مثل ماء النبع حيّاً إذ رأى في مصر نخلَتَهُ فأبكتهُ دمشقُ تصوّفاً ينبي وفي بغداد تبكيه الجزائرُ أهلَها في القدس: هل في العين بين الدمعِ والأشواق فرقُ؟



فراغ كأنما اللهب

مضر حمكو

شاعر وكاتب سوري من الحسكة

وأنا أنازع نفسي على الفراغ

نسيت أن أملأ قِدرَ الفرح

فنام العالم جائعاً

نسيت أن أسأل أمي:

أينا سيموت واقفاً أكثر

أنا أم اختي الشجرة

انتظرني أيها الطوفان أخيط فتق النهر في رأسي

كي ألحق بك

انتظرني حيث لا بحر هناك

*****

كالنحل جال رهيفا في خاطر الزهر

كأجنحة الفراش تمحو دمع المصابيح

كارتعاش شفاه المنتظرات العائدين من الغياب

كالبحر لفّ قلبه في حلم غيمة

هدية للسماء

كذرف السماء لقلبه

سنذهب غدا خفيفين إلى الوجود

ونغني له الحب

*****

عرفت أنه تكلم بلسان الغيم

حين تبلل قلبها

كأن ريق السماء صار الكلام

أقلبها الذي سال أم الندى؟

أم السماء صارت الأرض وانداحت

كواكبها

كل ما كانت تعرفه أن الجهات بلل

من شرق الجسد أشرقت شمس

من غرب القلب ظهر قوس قزح

تركض لتجمع مطر أطيافه عن أرضها

تصيح بالريح توقفي

تصيح به لا تتبدد

*****

عرف أنها تكلمت بلسان النار

حين تطاير قلبه في سماوات اللهب

أهذا الموقد العظيم سماؤها

كل أعضائه صارت دخان

كل الأمداء جياد تجره إلى الحريق

يصيح بها لا تتوقفي حتى يبلغ الرماد

آخر كواكبي

لا يعرف إن كان مابه النار أم الماء

لكنه يصيح بالريح انثريني

إلى آخر البدد.

حارث الريح*

فواز قادري

شاعر سوري مقيم في ألمانيا، وله العديد من الإصدارات الشعرية.

حارث الريح 1

كأنني أحرث الريح

أكتبكِ دوامة إثر أخرى

عصف بلد وراء بلد

أغنية الخبز وفاكهة الليلك

ولد كسير ولد موجة

حفنة تراب لعرق وردة مقطوفة

مطر دمعة غيم شارد

سيرة امرأة بمثاقيل الدنيا

أمومة ونزيف في شارع غريب.

أوقفت الحلم ومضيتُ.

حارث الريح 2

لا تعتبي على الريح

عبرت قرب شبّاكك ذات نهار

هزّت الستائر وأفاقت النوم

أخذت الغبار الخفيف وأنفاس الضوء

تركت المساء في حيرة

وتركت الحديقة غيمة مثقلة بالطيور

مرت قرب بابكِ

قرعت وتوارت خلف أقرب ليل

لم تقل شيئاً لوردة ذابلة في الأصيص

مرت على الشام ونادمت امرأة مثل موّال حزين

لم يكتب الشاعر الكثير لنساء دمشق

كانت البيوت أخفض من السماء

الأسطح بلا حمام ولا أجنحة

كتب الشام مبهرة كأسطورة

ورنين اساور التاريخ في يديها

كتب الطفل الغريب يمشي دون وعي

رأسه في الأعلى

وعيناه تبحثان عن أعين النساء بين النجوم.

حارث الريح 3

حصدت الريح وأنا في طريقي إليك

قارة قارتان مدن بلاد بعيدة

شوارع برائحة الغرباء ورائحة الجوع

رصيف 2و4 قطار 108

اتجاه ضياعي القديم

قطار 5 اتجاه ديسبورج

"فهد" بكرم بالغ

يشعل نار فرن البيتزا

لضيوف ثقلاء من علم الغيب

أم "لارا" تلعن ضياعنا المارق

وتأخذ الوجل والخوف من وجوهنا

تبتسم وفي عينيها ألف دمعة:

"سأذهب إل البلد

قبل أن يجف تراب الوالدة"

ستسافر وطفة الطيبة

وتترك عندك وردتيها أيها الأب الجميل

أيتها السماء الكسيحة

رصيف خامس وصيف متورّط بالمطر

أذهب إلى "زكريا" رفيق تيه طفولتي العتيق

أي مدينة أي جرح وخيبة؟

منذ الولادة وأنا أمطر

وتجمع أمي من خلفي السيول

أقول: اين أمك يا اخي اليتيم؟

"جواهر" حمالة أبنائك سيدة البيت

رفيقة دربك ايها الشقي

إسراء نجمة حياتك الاخيرة

"نور" صبية قمر عائلتك البعيد

ياسمين ضحكة الليل والصباح

فرح حسام القريب من القلب

الأولاد: "سما حسون"

كركرة الطفولة والشغب

محمد الجميل مثل أيّل جبلي

آلاء تفاحة قلب العاشق

ونورس طائر يحب الأسر

يفرفحُ بين ذراعيها

ويكتب سماء حرة في العينين

يأخذ من يديها

سنابل هشة لطيور الهوى

نصر صديق يقترب من القلب

في ليلة سابقة جمّعت يا "إبراهيم!"

القصائد الساهرة معنا يا صديقي

فرشتها تحت وسادتي

وبدلت ألف ليلة بألف نهار

طارت الأحلام ونامت الحرب في بيوت الناس الفارغة

طيّرتُ آخر فراشة سجينة

في عز الليل.

حارث الريح 4

أعود وتشغل مكاني الريح

قصبة أرتجف وتنكرني الجهات

طرقات مسكينة ليس لها صاحب

بيوت وجع وضحكات تستورد الدمع

وهذا الولد الشقي كسر "عين" الليل

بحبة فرح واحدة

عدّل من سخونة رأس الصباح

أعود وأشغل الريح أحرثها

فمن يزرع الزلّ والنخيل؟

من يعتذر للأشجار عن قتلى العصافير؟

يأخذني في نزهة قصيدةً برّية الأجنحة

بريئة المعاني فصيحة الحب

كبرت وتأخرت على أم

يغسلها دمع الخوف والذكريات..

وأنا قرب قلبها

تطعنني أغنية كردية حزينة.

حارث الريح 5

حارث الريح الخبير

لكِ يستعيد بشاشة الفصول

سأسرقكِ من نفسك

حتى إذا ما صحوتِ

لن تجدي من الريح

غير أثرٍ متسللٍ نهمٍ

كشف كل كنوزكِ وتركَكِ وحيدةً للمساء

شبحكِ أنا

هذا الظل ظلي من ضوئكِ البعيد

يسرقكِ ويغلقُ الصباحَ خلفي

من يدكِ تسحبكِ الأغنية

ويطيش حجر الأيام

تسرقكِ مني الريحُ

من شتاء الفصول المتواصل

من خطوات بطيئة على رصيف غريب

من أعين البكاء والفزع

حناجر أسرى تعول

خيط ناعم يدور حولك

وينسج لك خيمةَ المستحيل.

*** قصائد من مخطوطة "حارث الريح".**



* فلافل....؟!

محمود باكير

كاتب وشاعر ومحامي سوري، أصدر مجلة الكواكبي سنة 2011

الفلافل في إدلب ليست مجرد طعام عابر...

أو تراث...

الفلافل هنا... أيديولوجيا...

بل عقيدة...

متطرفة... يأكلها الغلاة...

كمن يأكل آلهة فقدت رسائلها....

كتبها.... أو تراتيل السماء....

....

.....

ترنيمة...

قرب الكنائس...

أو آية تتلى...

على مساءات النحيب...

أو كالحنين...

....

....

شيء يشبه...

"القومية"

التي تنام تحت الجلد الهش...

وتستيقظ...

في أفران الحروب القوية...

أو شيء...

يشبه النشيد الوطني...

أو العلم.....

....

....

أينما وليت وجهك... ثمة رائحة...

رائحة حريفة... من روحها....

ترسم الفضاء...

والشجر الأليف...

وتدخل من تخاريم الشوارع...

والشبابيك المشرعة...

والجهات....

....

......

الفلافل هنا... وطن...

تركه أصحابه... فوق الأرصفة...

ليأكله العسس...

....

....

وطن...

للمقيم وللغريب...

وللجموع الهائمة....

بلا رمز أو فرس....

....

....

تعرفهم من ملامحهم...

ومن طريقة اللف...

والاكسسوارات....

ومن طريقة...

"القض والانقضاض"....

....

....

الفلافل في إدلب...

ملح الناس الذي يدوم...

وينجب الوفاء...

ويراكم الخيانات...

ويغسل الخطيئة....

بزيت الغواية...

حتى ينضج صدرها العاري...

كالمفخخات.....

....

....

الفلافل...

غطاء الفقير...

سماء الغريب...

ومخدة المتعب...

واستراحة المنهكين....

والرعاة...

....

....

الفلافل هنا...

مثل كل العقائد...

لها طغاتها...

مستبديها...

ولها ما لها من الطبقات الرثة والرعاع....

ولها طقس من الخيانة...

والترفع والعنصرية....

كمن يتورط في قصيدة...

في امرأة...

أو غلام....

....

.....

الفلافل هنا...

طقس يشبه العرس...

تحت شرفة....

و فوق غيمة....

أو قرب "كشة" من حمام..

....

......

في إدلب...

الفلافل.... الآن...

الآن هنا...

"نشيدنا الوطني"....

المترفع عن فقرنا... عن ذلنا...

عن ملحنا... عن جرحنا....

وعن كل شيء...

....

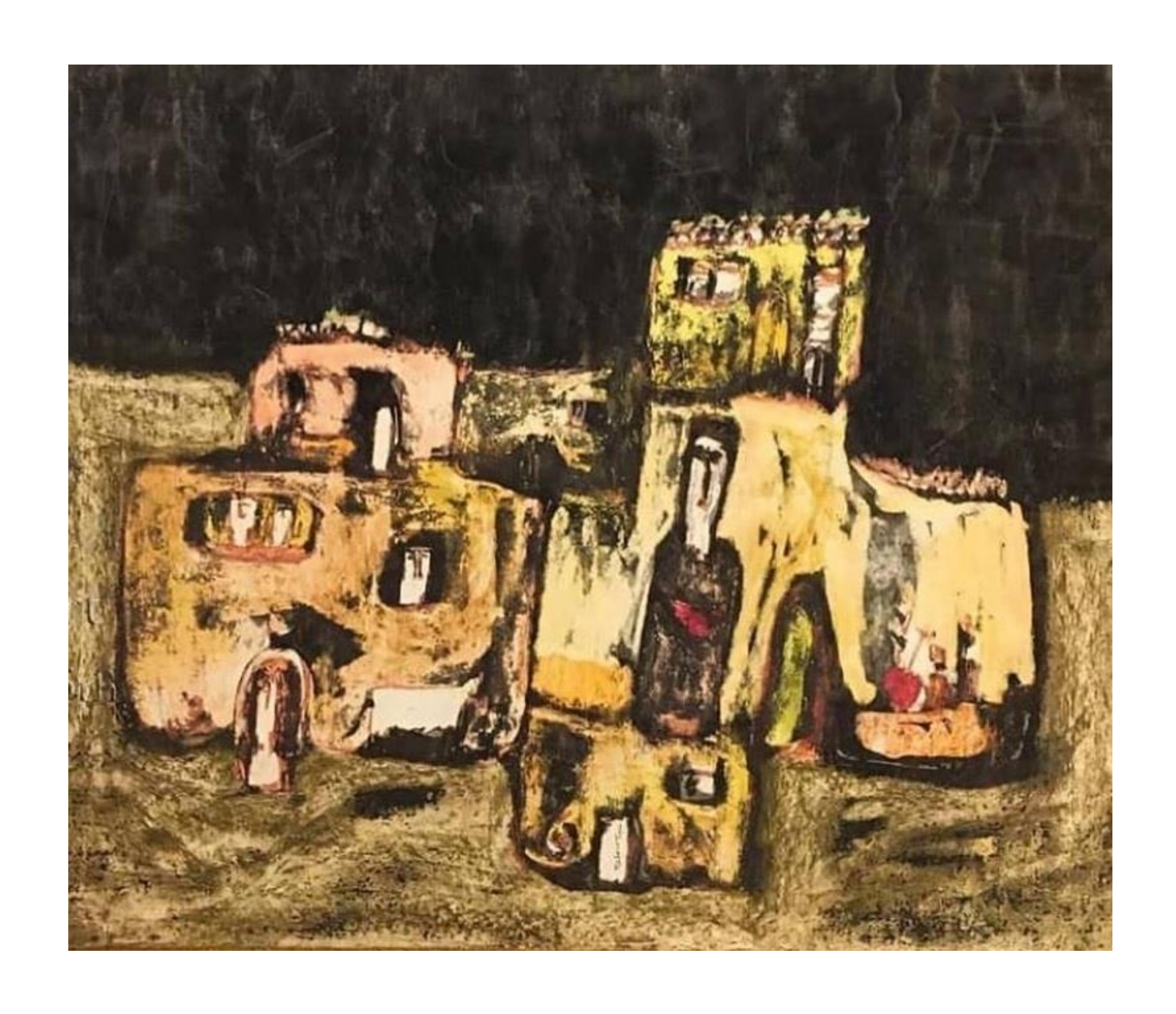
.....

الفلافل... في إدلب....

أغنية الصباح....

التي ينشدها الفقير ....

ويخجلُ من فضيحتها... الطغاة.........؟!



أوراق القصة

بلا رحمة

حسام عتال

كاتب وقاص سوري

- أريد مقابلة مارك زوكربيرغ.

سألتها، في صوتي لهجة صارمة، ظهري منتصب، عيوني مسددة للأمام؛ كما تعلمت في إحدى محاضرات التنمية الذاتية "كيف تتصرف بثقة".

- هل لديك موعد معه؟

- لا.

- آسفة، لا يمكن مقابلته بلا موعد.

- الأمر هام جداً.

- لا يمكن. جدوله مليء.

غرفة السكرتيرة واسعة، مضيئة لدرجة مزعجة، صامتة كقلم الرصاص، سقفها عال، نوافذها عريضة تطل على وسط المدينة بعماراتها الشاهقة. حيطانها بيضاء خالية سوى من شعار FB أزرق كبير نافر من الجدار الخلفي.

طاولة مكتب السكرتيرة صغيرة تتوسط الغرفة كقارب في بحر. سطحها زجاجي سميك عليه شاشة كمبيوتر عريضة، أمامها كيبورد له لوحة لمسية مربعة.

السكرتيرة منمنمة الجسد، البعض قد يقول "قطعتها صغيرة". ترتدي فستاناً أصفر بدون أكمام، حافته فوق الركبة. على عنقها النحيل سلسلة فيها خاتم ذهبي. شعرها الأشقر يقارب كتفيها دون أن يلمسهما.

– ماذا لو أخبرتك أنه أمر حياة أو موت؟

لوت شفتيها وقالت: يمكن أن أرسل خلف أحد أفراد قسم الأمن (سكيورتي) إن شئت!

– وحده مارك يستطيع حل المشكلة.

– أي مشكلة؟ ردت وهي تشبك ذراعيها، عيناها كقطعتي جليد. يبدو أنها قد تعلمت من نفس محاضرة التنمية الذاتية.

– هل تدرين، أنتِ تذكرينني بروث.

– روث؟

– من مسلسل أوزارك.

– أوزارك؟

– نعم. مسلسل النتفلكس عن الرجل الذي ينقل عائلته من شيكاغو لولاية ميزوري لكي يغسل أموال مافيا المخدرات —

نظرت للسقف كما تفعل المراهقات عندما يظهرن ضجراً: هل تعتقد أني غبية؟ أعرف تماماً مسلسل أوزارك.

أعادت نظرتها تجاهي: لم شبهتني بروث؟

– الشعر... ربما... قصدتها كإطراء. أنا أحب روث!

استعادت عيناها بعض الدفء: آاااه.

– هل تتابعينه؟

– في القسم الثاني.

– الحلقة؟

– الرابعة.

– أليست روث رائعة؟

– أفضّل مارتي... الهادئ أبداً.

– هل تدرين ماذا سيحل بعمر ناڤارو.

– إياك أن تقول، وإلا أطلقت عليك النار.

– تحبين إطلاق النار؟

– أعترف، مذنبة. قالت وقد طأطأت رأسها.

– عندك رخصة حمل سلاح؟

نظرت خلفها، لاح طيف ابتسامة على شفتيها. سحبت شنطة يدها الڤينيتا الحمراء من درج المكتب، فتحتها ببطء بفرجة كافية لكي أرى ما بداخلها، ثم أغلقتها وأودعتها الدرج. ابتسامتها الآن أوسع.

– سميث واسون، موديل ١٩، ماسورة فضية، ويد من خشب الجوزالمحفور... قطعة فنية حقاً!

– لاحظتَ كل ذلك من نظرة واحدة؟

– أعشق الأسلحة الفردية.

– وأنتَ ماذا تفضّلْ من الاسلحة؟

خَطَوْتُ حول المكتب واقتربت منها، رفعت رجل بنطالي حيث كان سلاحي في حزامه، أسفل الساق.

– غلوك ٢٦. آاه أنتم الرجال... مملّين.

– قصدك عمليين. نحمل الأفضل، ولو لم يكن الأجمل.

– الأفضل؟ أنت تراهن على ذلك؟

– سّمي رهانك.

– لاحقاً... أي حقل رماية تستخدم؟

– الواقع في تقاطع جفرسون مع ماديسون.

– عندي اشتراك فيه.

– متى ينتهي عملك؟

– الخامسة.

– نلتقي هناك السادسة.

– السابعة. علي التقاط كتاب من المكتبة قبل أن تغلق. اتفقنا؟... مممم... بشأن مارك، ربما استطعت أنتِ مساعدتي؟

– ظننت أن مارك وحده يستطيع حل "مشكلتك".

- حملة السلاح يحلون المشاكل أسرع... روث!

- ها ها ها، من المتكلم... مارتي؟

- بدون تطويل، الموضوع يتعلق بصديقة لي محجوزة في البرزخ.

- البرزخ؟

- نعم. بين النار والجنة.

- .... و —

- هناك من يمنعون عنها الرحمة، أخشى أن تنقلب في النار.

- ... و—

- أنا في سباق مع الوقت.

- لكن... لكن... ما علاقة الأمر بمارك؟

- مانعي الرحمة، يفعلون ذلك على الفيسبوك.

- ... الفيسبوك يحتوي على —

- يجب أن تمحى كل بوستات منع الرحمة... يجب حذف كل ناشريها...

- هناك قواعد لمحو البوستات، لا نستطيع —

- أنت لا تدركين مدى خطورة هذه المنشورات... هناك آلاف —

- ما أدراك؟ هل عددتها؟

- يمكنكِ أن تتحققي بنفسك.

- ممنوع. هناك قسم خاص لمراقبة المنشورات المحظورة.

- ولكنها غير محظورة.

- لا أستطيع.

- يمكنك البحث عن عبارة معينة... ببراءة... للتسلية وتمضية الوقت.

نظرت إلي، جبينها المقطب لاح بين اللوم والعتب.

- روث! رجاء.

- مارتي! أوكي... ولكن لا تتوقع مني أي تعليق.

- لن أفعل. ابحثي عن "شيرين – لا يجوز – الترحم".

ضربت مفاتيح الكيبورد بالبحث. تحولت الشاشة رمادية. بدأت نقاط سوداء ونقاط زرقاء بالظهور، حامت النقاط حول الشاشة ثم بدأت بالتجمع وكأنها أسراب طيور الستارلنغ تتموج في السماء، تعلو، تنخفض، تنقبض، ثم تمتد. بعد ثوان، استقرت على شكلٍ كقطرة ماء، عاليها ضيق مبوّز رأسه أسود النقاط، وأسفلها محدب واسع كجعبةٍ انتفخت بالنقاط الزرقاء.

- كل البوستات المحتوية على كلمات البحث هنا.

أشرتُ إلى المنطقة الضيقة المبوّزة: ما هذه؟

- هذه أولى المنشورات.

ثم أضافت مشيرة إلى المنطقة الواسعة الممتدة: هنا المنشورات المكررة... المنقولة.

- منقولة؟

- نعم، هذا نموذج نَقْلي.

- نقلي؟.

- منشور رئيس، مكرر ثم مكرر ثم مكرر —

- فهمت. هل يمكنك التركيز على المنشورات الأولى؟

رسمت مربعاً حول المنطقة الضيقة المبوزة، عادت الشاشة رمادية، ظهرت النقاط مرة أخرى مبرغلة، ثم تجمعت بشكل قرص في وسطه نقطة سوداء حولها دائرة من النقاط الأصغر، زرقاء غامقة. أشارت إلى النقطة الكبيرة المركزية السوداء: المنشور الأول.

- والدائرة؟

- أول تكريرات... شير.

- لماذا دائرة؟

- لأنها خرجت بتتابع... كل عشر ثوان.

- المنشور تكرر شير كل عشر ثوان تقريباً؟

- لا.

- أنتِ قلتِ ذلك.

- كل عشر ثوان. بالضبط!

- بالضبط؟

- نعم.

- غريب.

- أبداً.

- ماذا تعنين؟

- بوت.

- بوت؟

- برنامج آلي.

- وأين تكرر، في أي مكان نُشِرْ؟

- أنت طمّاع فعلاً.

- لم تُسَمِّ رهانكِ بعد.

- سيكون غالياً.

- هذا إن غلبتِني.

- واثق من نفسك!

- أنا مارتي، دوماً منتصر... رغم الصعاب.

- ها ها ها.

رسمت مربعاً آخر ثم نقرت أحد الأزرار. تراجعت النقاط ثم تحولت لشكل كرة أرضية، دارت مرتين بسرعة ثم أبطأت. بدأت تفاصيل الأرض تكبر وتتضح.

انتابني شعورُ من في مركبة فضائية تخرق غلاف الجو، وتسرع في هبوطها للأرض. استقرت في مركز مدينة مينسك في بيلاروسيا.

نظرتْ خلفها، وضعتْ سبابتها على شفتيها علامة الصمت.

- ماذا عن الدائرة المحيطة؟

أشارت لنفس المكان الذي خرج منه أول منشور، سبابة يدها ما زالت على شفتيها.

- وبعد؟

رسمت مربعاً يضم جزءاً أكبر من إحداثيات نقاط البداية. صغُرت الدائرة واصبحت بحجم الخاتم، منها خرجت خطوط مستقيمة وأخرى منحنية، وصَلَت الخطوط الدائرة مع نقاط أخرى، امتدت كشبكة عنكبوت لتشمل الشرق الأوسط وشمال افريقيا. خطوط أقل اتجهت لأوروبا وشمال أمريكا.

- هذه مجموعات.

- أي مجموعات؟

- لا أستطيع التصريح بأسمائها.

- لا داعي للتصريح... يمكنني، صدفة وبدون قصد، أن أرى ماعلى الشاشة.

رفعت كتفيها كمن يتظاهر بعدم المبالاة. جمعت النقاط وأسقطتها في تطبيق بشكل سلة. انتفخت السلة، ثم انفتحت ليخرج منها فقاعات مختلفة الحجم، عليها أسماء مجموعات.

- سأعُدْ للعشرة... واحد... اثنان....

قرأتُ أسماء أكبر الفقاعات، الأصغر صعبة القراءة لصغر خطها: "معاً لمحاربة الإرهاب الإسلاموي"، "التطرف الديني في مصر والمشرق"، "علمانيون ضد التعصب الإسلامي"...

- تسعة... عشرة...

عادت الفقاعات إلى السلة وكأن بداخلها كائناً اسطورياً شفطها بنهم. تداعت خطوط الشبكة العنكبوتية وانصهرت النقاط لتعود بشكل القطرة الأول، تترجرج قليلاً كأنها من الندى على ورقة شجر، يحركها الهواء قبل جفافها.

- كم مرة نُقِل هذا المنشور.

أشارت إلى رقم على الشاشة (٣٤٤،٦٧٠)، الرقم الفردي يدور بسرعة كعداد سرعة سيارة فيراري عند انطلاقها في سباق. الرقم الزوجي يدور بسرعة أقل، ولكن بوتيرة مواظبة.

التقت أعيننا في سكون. حدقتاها رماديتان كأنهما رفضتا الالتزام بلون واضح. هزت رأسها بتساؤل ممزوج بصبغة اعتذار. همست: آسفة!

قررت أن لا أضيّع لحظة ضعفها، مهما كانت زهيدة؛ شيء آخر تعلمته من محاضرات التنمية الذاتية.

- بحث آخر؟

- استوفيتَ حظك.

- رجاءً.

- واحد فقط؟

- نعم.

رمشْتُ بالموافقة.

- ابحثي عن "شيرين - الله - يرحمها".

هذه المرة، الشاشة الرمادية ومضت بنقاط مضيئة من مختلف أطياف الألوان. سبحت كأنها في فراغ هلامي، كما تبدو النجوم والكواكب في صور المجرات البعيدة في الناشيونال جيوغرافيك. سحب متراكمة بعضها فوق بعض، تتموج بخفة، تستقر لحظات، ثم تتمايل من جديد.

- أين البداية؟

- لا بداية.

- كيف؟

- كلها بداية.

- ليس من علاقة بينها؟

- لا.

- كل منشور مستقل؟

- نعم.

- ألم يُكرر بعضها؟ ألم يَنْقُل أحدهم عن الآخر.

- ربما مرة أو اثنتين، على الأكثر.

- ألا يمكن تصنيفها بشكل ما؟

- لا. عشوائية بامتياز.

بدون أن أطلب منها، وكأنها حدست ما بذهني، جرّت نتيجة البحث الأول فاحتل نصف الشاشة الأيمن، صورة القطرة الزرقاء بأطرافها الحادة، ترتعش وكأن بعض نقاطها تُسبِبُ خدشاً مهيّجاً لجاراتها. في الطرف المقابل صورة الغيمة بأطياف ألوانها، ترقرقت كصفحة ماء يلفحها نسيم الصباح.

تضخمت حيرتي! من أتى أولاً، القطرات أم الغيم؟ كيف تتكون القطرات؟ هل تتجسد من تكاثف الغيم؟ أم أن جموع القطرات هي التي تخلق الغيم؟ وماذا يحل بالغيم بعد أن تهطل قطراته؟ هل يذهب لمستقر آخر، خِفيَةً، يستجدي قطرات أخرى، يشحدها، يضمها بشوق؟ أم أنه ينعدم ليبقى طيف ذكرى في قلوب من مشوا فيه، أو رقصوا، أو تعانقوا وهو يسربلهم كالحنين القديم.

التقت أعيننا مرة أخرى وكأن حبلاً سرياً قد مُدّ بينهما. لم استطع قراءة ايحائها هذه المرة. هل هي راضية، حزينة، متهربة، مذنبة؟ هل هي متعاطفة؟

لاحَظَتْ شرودي، سألتني: هل تحب السوشي؟

لم أجب. صاحت: مارتي!!!

- عفواً، سرحت قليلاً... روث.

- ها ها ها. ها أنت قد عدت.

- نعم.

- سألتك إن كنت تحب السوشي؟

- التونة الصفراء، أتخلى عن إصبع قدمي الصغير لأجلها.

- ها ها ها. أتخلى عن إصبعي لأيل الأوناجي —

لمعت حدقتا عينيها، قالت: اسمع، أعرف مطعماً صغيراً يطل على بحيرة ميتشغان، يقدم سوشي خيالي. الشيف ياباني، يعمل وحيداً. ليس لديه طاولات في المكان، مطعمه أشبه بكوخ. فقط طاولة تحضيرالسوشي، أمامها رف خشبي ومقاعد عالية. يقدم الطعام بيده. العشاء هناك هو ثمن الرهان بيننا، إن أحببت.

- أحببت.

- السابعة في نادي الرماية، والخاسر يدفع ثمن السوشي.

- الخاسرة.

- ها ها ها.

أثبتت "روث" جدارتها في إطلاق النار. يصعب التركيز على هدف الرماية عندما تقف بجوارك امرأة شعرها الأشقر لا يلمس كتفيها العاريين. بشرتهما شفافة تظهر أوردتها الزرقاء التي تتفرع بشبكة من العروق، تصغر وتصغر حتى تنتهي بشعيرات دقيقة متعرجة، كنسيج حريري ناعم.

في المطعم راقبْنا سوياً الشيف الياباني بوجهه الخالي من أي تعبير، يُقطّع شرائح السمك النيء بسكينه الوا-بوتشو، يكسو به كتل الرز اللزج، ثم يصفّها بعناية في طبق مستطيل من السيراميك الأسود، يزينه بباقة من مخلل اللفت الوردي يتوسطها عجين الواسابي الأخضر.

راقبْناه و"روث" تخبرني عما لم أشهده على شاشة الكمبيوتر. عن مصادر الريع، عن الدعايات، وعن التسويق. كيف تُشجع خوارزميات الفيسبوك المشتركين على النقل والتكرار. كيف تتمحور الدراسات والبحوث على وسائل توجيه انتباه المشتركين لما هو مربح – الدعايات التي تتعزز بالنقل والتكرار. كيف تتراكم حلقات المال. كيف تتحوّل السحب إلى قطرات.

يدي على خدي، مذهولاً، أتساءل، يا ترى أيّهم أكثر عجباً: أبحاث الفيسبوك السلوكية، فنُّ صنع السوشي، أم سنا جيد "روث" حيث يلتقي عنقها النحيل مع ترقوتي كتفيها العاجيتين. بقيت في ترددي حتى وضع الشيف أمامنا طبق السوشي، قائلا: إرشايمازه.

تناولنا القطع، كلاً مع حصتها من هريس الصوي والوسابي. تناولناها بخشوع العابدين. تناولناها بالترتيب الذي اختاره الشيف، هو وحده يعرف التسلسل الأجود. أغمضت "روث" جفنيها كمن يصلي وهي تمضغ الطعام، وكأن رحمة كونية قد غمرتها. رحمة هطلت من غيمة زخّت ماءً مقدساً، غيمةُ يوم عاصف بكت دموعاً رحيمة فوق بحيرة ميشيغان العظيمة.

اسكانابا – ميتشغان – ١١-٥-٢٠٢٢

ظل الأصابع

لبانة غزلان

كاتبة سورية وقاصة وناشطة في مجال حقوق الانسان.

مع تسلل خيوط الضوء الأولى، يجر عربته إلى مكانها في سوق الخضار، رب العمل في انتظاره، وقد اشترى البضاعة. يرتب عصام ذو الأحد عشر عاماً خضاره على البسطة الصغيرة، مستمعاً لتوصيات "أبي توفيق" التي يحفظها عن ظهر قلب، وبلا اهتمام يسجل نشرة أسعار اليوم على ورقة كي لا ينساها. لم يسبق له أن ناقش "أبا توفيق" في أسعاره، فما شأنه بذلك إن كانت أجرة يومه لن تتغير، كسيف إكسكاليبور المثبت في صخرة، تمر عليه الأيام برتابة قاتلة، ولا وجود لآرثر ينتشله من وضعه التعيس ذاك، بعد فقدانه عائلته ومنزل طفولته، ونزوحه إلى مكانه الجديد، وحيداً غريباً.

ينهي أبو توفيق موال الصباح –كما يحب عصام تسميته – بوجوب بيع البضاعة كاملة، وإلا فإنه لن يتمكن من دفع أجرته لهذا اليوم، فيستشيط عصام غضباً، ويصيح في وجه رب عمله: لكن من سيشتري بهذا السعر يا أبا توفيق؟ دون النظر في عينيه، يجيبه أبو توفيق بصرامة من يخفي جرحاً: فليشترِ من يملك المال، سأبيع كما اشتريت، لا أحتمل مزيداً من الخسارات. ويغادر مودعاً.

بلّل عصام خضاره بالماء، مستقبلاً تحيات الباعة في هذا الصباح البائس من مطلعه، وسرعان ما غرق السوق الشعبي بالازدحام والضجة، ليمضي

النهار دون مبيع جيد، وقد أعياه الجدال مع الزبائن على سعر هذا وذاك، وكأنه هو من رفع سعر الدولار، أو سقى الزرع بماء الذهب فسبب ارتفاع تكلفته، أو ربما أشعل دون قصد حرائق حقول القمح. والمسكين لم يفعل أياً من ذلك، لكن الناس التي سامت بضاعته أنزلت عليه التهم بزخم، كما الماء الذي يرشه على خضاره بكثافة ليبقيه نضراً، ويحميه من حر النهار، ليعود إلى منزله بمعدة خاوية وبلا مال.

توالت الأيام المريرة على عصام، حيث بدأت أجرته بالتقلص والتضاؤل يوماً بعد يوم، بالتزامن مع شيء آخر ازداد حجماً، وهو ظل أصابعه. الظل الذي يعرفه يتشكل من حجب جسم ما للضوء، فيظهر له ظل معتم بشكل الجسم نفسه وبحجمه أو أكبر بقليل، أما ظل أصابعه النحلية الهزيلة هذه، فيبدو غريباً، ويفوق حجم يده بأضعافٍ، والأغرب أنه يزداد بمبالغة كلما قرقعت معدته طلباً للطعام، كما أنه لا يظهر في الأماكن المشمسة فقط بل في الظليلة والمعتمة أيضاً، كحال غرفته المتواضعة ذات المصباح المعطل، فكثيراً ما استيقظ ليلاً، على صوت معدته الخاوية، ولاحظ ظل أصابعه شاخصاً رغم العتمة.

وكعادته في عدم الاكتراث، لم يُعرْ أمر ظل أصابعه هذا اهتماماً كبيراً، برغم فضوله حوله، منشغلاً عنه بالعمل الجاد علّه يوفق ببيعٍ وفير، فيسد رمقه، ويخفف عنه قساوة هذا العالم. وذات يوم وهو عائد من سوق الخضار، يجر عربته بجهد مضنٍ، استوقفه مشهد الشوكولا الملونة الشهية بردائها الأحمر، في واجهة أحد (المولات)، كثيراً ما أثارت اهتمامه هذه الأسواق بواجهاتها الزجاجية، وبضائعها المغلفة المرتبة في رفوف تغطي ثلاثة أو أربعة طوابق،

على عكس سوق الخضار، الذي يستوي فيه الجميع، وتنشر بضاعته بعشوائية على عربات مصفوفة تغطي مساحة السوق، وتتجاوزه نحو الشارع العام بغوغائية واضحة. وبينما كان يتأمل أصابع الشوكولا اللذيذة تلك بشهية، كأي طفل آخر، امتد ظل أصابعه ليحجب الضوء عن كامل واجهة المبنى وازداد، ازداد، ازداد حتى غطى طوابقه الثلاثة العالية، خفق قلب عصام ذعراً، وهرع مهرولاً إلى غرفته، ناشداً أن لا يمر بهذا المول أو غيره في المستقبل.

لم ينم جيداً تلك الليلة، وفي الصباح أسرع لعمله المعتاد، متناسياً أمر ظل الأصابع هذا في زحمة السوق وأصوات الباعة، ورائحة خضار الأمس التالفة، وكاد يظن أن ما حصل معه في الأمس محض خيال، إلى أن حضرت أمامه سيدة برفقة ابنها الصغير، تعاين الخضروات، وتسأل عن سعر البصل، فيجيبها وعينيه مركزة على الطفل، الذي يتناول بنهم البوظة سائحة من الحرارة، ويلف لسانه حول العبوة، لتلقف سيل الشوكولا المحشوة بمكسرات وحلوى مجففة، وإذا بظل أصابعه يلف العبوة ويتحرك مع حركة يد الطفل إلى فمه، نظر إلى يده مذعوراً، فوجدها تضع البصل في كيس وتغلقه، وتناوله للسيدة غير المنتبهة، إلا أن عينا الطفل الصغير أحست بظل أصابعه، فأمسك بطرف رداء أمه يشد انتباهها إلى الظل. شحب وجه عصام، وجمد الدم في عروقه. فأسرع في التخلص من السيدة، التي جاءها اتصال وغادرت على الفور. بينما بقيت عينا الطفل المندهش معلقة على عصام إلى أن ابتعد.

تنفس عصام الصعداء، وارتخى على كرسيه المعدني خلف البسطة، شرب رشفة ماء، ونظر بقلق حوله، متسائلاً عن سبب ظهور هذا الظل، دون أن يجد دماغه الصغير سبباً مقنعاً، فيتناسى الأمر، ويعود لجدال زبون جديد، إلى أن انتهى هذا اليوم الشاق، وكالعادة، لم يوفق في بيع الكمية كاملة، فالأسواق الفقيرة للمدينة في ركود، وأغلب مرتاديها يسومون البضائع ولا يشترون، بات كل شيء يفوق قدرة الناس على الشراء، حتى الليمون الذي كان يبيعه بكثرة ذبل على العربة، وجف عصيره من حرارة الشمس ولم يشتره أحد. وهكذا تتالت الأيام، والظل يظهر ويغيب في حالات عديدة لا يجد لها عصام أي تبرير، ويحمد الله على ازدحام السوق واكتظاظه بالباعة، وانشغال الناس بأمور الحياة اليومية، والجدال حول غلاء الأسعار، بدلاً من الانتباه لظل أصابعه.

إلى أن أحرجه ظل أصابعه مرةً جديدة، حين قدمت سيدة أربعينية ترتدي عقداً ثميناً، وقد صار سوق الخضار مقصداً حتى للأغنياء وميسوري الدخل، وبينما هي تعاين الخضار لتتأكد من جودته، وجد ظل أصابعه يطوق عنقها، ويمسك بالعقد ويهزه محاولاً افلاته. ارتعدت أوصال عصام، وازرق ووجهه، وبدأت يداه بالارتعاش، خوفاً من أن تلحظ السيدة ظل أصابعه، وتتهمه بمحاولة سرقتها، وضع يديه خلف ظهره، والظل لم يتحرك، رفعهما للأعلى والظل لم يتحرك، نظر حوله علّه يجد شيئاً آخر يشد انتباه الظل، فيترك العقد وشأنه، لكن جل ما رآه، وجوه متعبة ومثقلة بالهموم. فشلت جميع محاولاته لإبعاد ظل أصابعه عن العقد، ولم يترك له سوى فرصة صرف السيدة، قبل وقوع المصيبة، فنهرها بغضب وحسرة: ليس لدينا شيء للبيع كل

هذه الخضار مباعة، نظرت له بامتعاضٍ، ورحلت تتمتم بشتائم عدة لم يلقِ لها بالاً.

لملم بضاعته مسرعاً، وعاد إلى منزله أبكر من المعتاد، فور وصوله غرفته، رمى كل ما يحمله أرضاً، وضع يديه أمام وجهه بحنقٍ واضح، تأملهما بحسرة، قبل أن يصرخ فيهما: ما الذي تريدان مني فعله؟ كيف لأعضاء في جسد عصام أن تخذله، إن كان لابد من قطعكما فسأفعلها بلا تردد، أتسمعان؟ أمسك سكيناً بيد، واضعاً حرفه على الأخرى، بخجلٍ يستدرك عجزه عن قطع الاثنتين معاً، فيهدأ انفعاله، ويفكر إن قطع إحداهما فكيف سيجر العربة في الغد، ألا يكفيه أنه يتيم ويعمل أجيراً.

تسقط السكين من يده، ويصيح باكياً أباه، كيف أمكنه أن يكون قاسياً هكذا! كيف استطاع تركه وحيداً! وإن كان عليه تركه، فلمَ أسماه عصام؟ فحمّله فوق الهجر، ما لا طاقة لطفلٍ بسنه على حمله، ثقل الاسم والنسب لأب عصامي عزيز النفس، في عالم يتوج اللصوص ويجعلهم أسياداً. أسئلة كثيرة أرهقت رأس عصام، قبل أن تقاطع قرقعة معدته الخالية من الطعام انفعاله الحاد، فتُسقِط عنه كل ثوابته الأخلاقية، معدة جوفاء ملتصقة بظهره لشدة الجوع، كانت أقوى من كل ما تربى عليه. ليرتمي بلا حراك على الأرض ويغفو مستنزفاً.

في الصباح لام نفسه على تحميل والده، ذنب برميل سقط دون إرادة منه، فحصد العائلة والمنزل ونصف الحارة، وأفلته وحده من الموت دون قصد. لبس حذاءه المهترئ وانطلق إلى عمله بوجهٍ كالحٍ، يوم بائس آخر، لا حركة

في السوق، وجوه الباعة لم تعد توحي بشيء، حتى بالتعب، قلوبهم صماء بكماء كأحجار البازلت، وأحاديث يتناقلونها هنا وهناك، عن عقوبة جديدة، حكم قيصري أو قانون لقيصر، شيء من هذا القبيل تناهي إلى مسامعه، ولم يعره أي اهتمام، منتظراً انصراف "أبو توفيق" بالسلامة، ليبدأ روتين يومه في الانتظار العبثي لشيء مبهم، زبون ربما، أو كارثة تحيل السوق إلى رماد، أي شيء قد يكسر ثقل هذا اليأس المطبق.

وما هي إلا ساعات قليلة، حتى سمع صوت جمهرة تصدح من بعيد، تشق عباب الصمت، مر الجمع الغفير من أمام السوق رافعين لافتات، لم يتيقن مما كتب عليها، لكنه أيقن وقعها في نفوس الباعة، فوجوههم قد اختلفت كلياً، ربما بدت أكثر راحة وابتهالاً وهم يطالعون المسير المهيب لشباب يصرخون ويهتفون سلمية، سلمية....

شارداً كالأخرين في هذا الموكب، يقاطعه جاره، وهو شاب يكبره بقليل، وتجمعه بعصام علاقة سطحية لكنها ودودة بالعموم، فعصام يتحاشى قدر الإمكان الاختلاط بالأخرين، سائلاً عن رحيله الباكر بالأمس. وجد عصام في داخله حاجة ملحة للحديث لشخص ما عن كل ما يعانيه، ولكن كيف لهشام وهو ابن المنطقة أن يصدقه، ربما سيتهمه بالشروع بالسرقة، أو أن نواياه ستقوده في نهاية المطاف لفعلها، فيحشد ضده كل من في السوق، كما فعل يوماً، حين اتهم على العلن أهل المناطق المجاورة بالإرهاب، واستحث حمية كل من يسمعه زبائناً أم باعة، لتحليل دمائهم، مطلقاً الشتائم هنا وهناك، والجماعة من حوله تتخبط بين المؤيد والمعارض، يذكر عصام جيداً الرعب الذي انتابه وهو يراقب بقلق ملامح هشام الحادة، متظاهراً بأنه منشغل

في ترتيب خضاره، مستشعراً الخطر في كونه غريباً عن المنطقة، ويفكر بالهرب قبل أن يتأزم الوضع أكثر، لولا تدخل أبو يوسف، الملقب بمختار السوق، وهو رجل ستيني معروف، لفض الجمع، والاستشهاد بأمثلة حية لمكارم أهالي الجوار ومحاسنهم، موبخاً هشام بصوته الرخيم الهادئ كصوت الحق، لتهدأ نفوس الجموع الهائجة، ويعود السوق إلى طبيعته.

ومن يومها وعصام يشعر بالأمان طالما أن أبا يوسف مختار للسوق، ويتحاشى التفكير بفكرة رحيله أو موته لا سمح الله، فمن سيحمل راية الفكر المعتدل إلى هذه السوق المشحونة بالغضب من بعده، يصيح به "هشام" من جديد ويقطع سلسلة أفكاره تلك: ما بك يا "عصام"، هل كل شيء على ما يرام؟ يرد عصام بعد أن قرر عدم الافصاح عما في داخله باقتضاب ويقول: لا شيء كل الأمور بخير، لكنني دهشت لمشهد الموكب، لينفجر "هشام" ضحكاً مؤكداً، أنهم مخربون يسيرون إلى حتفهم، وسترى، ثم يكمل بنبرة أقل ثقة، وأكثر حزناً: في هذه البلاد تأخذ حقك بالسلاح فقط.

يثير المنحى الذي توجه له حوار هشام قلق عصام، وهو لا يريد الانخراط في أي سجال سياسي، يكفيه مشكلة ظل أصابعه التي لا يعرف لها حلاً، فيعلق بعبارة (الله يهدي البال) المتداولة، ثم يتظاهر بالانشغال برش خضاره بالماء، لينصرف "هشام" مودعاً.

يعود عصام إلى نفسه، فيجد أن مشهد مرور الشباب الهاتفين، قد ترك في نفسه هو الآخر أثراً طيباً، رغم أنه لا يبالي بما يدور حوله، لكنه في لحظة

ما شعر بأن حنجرته ستنطق بشعار ما من شعاراتهم. تردد بعد أن راقت له فكرة صراخه بشعار ما، ثم ما لبث أن ساوره القلق وعاد للتفكير بمصيبته.

لم يبع شيئاً هذا اليوم، وعاد إلى منزله خائباً كالعادة، ليحمل له طريق العودة، شاباً أرعناً يرمي بنصف شطيرة كاملة في حاوية على قارعة الطريق، متابعاً سيره بلا مسؤولية تذكر، قرقعت معدة عصام معلنة حالة الجوع المستمر منذ أشهر، نظر حوله مستطلعاً. كان الشارع خالٍ إلا من القطط، سارع لالتقاط الشطيرة من القمامة، قبل أن تسبقه القطط إليها، وصل الحاوية، وقبل أن يهم في التقاط الكيس، صوت داخلي أنبه: أستأكل من القمامة الآن يا عصام؟ أهذا ما آلت إليه حالك؟. أوشك أن يعرض عن الأمر، ليمسك ظل أصابعه بالكيس، ويرميه إلى حيث القطط. عندها أصدرت معدة عصام نفيراً جعل أوصاله تترعد، فجرى مسرعاً، وانتزع الشطيرة من فم القطة، نظر حوله من جديد لشدة حرجه، لم يشاهد أحداً وضعها على العربة، وهرول مسرعاً إلى الغرفة.

في الغرفة تناولها بنهم وسرعة رادعاً أي محاولة له للتفكير، وبعد أن انتهى تساءل كيف يمكن لأحد أن يرمي طعاماً بهذه البرودة، وغيره لا يجد ما يسد به رمقه، هذه الدنيا غير عادلة أبداً، تقلب في موضعه ثم جلس باستقامة، مدركاً انتصار معدته على مبادئه من جديد، ليصرخ فيها مهدداً: ستكون هذه آخر مرة أتناول فيها شيئا من القمامة، أتسمعين؟ لقد كان الشارع اليوم خالياً لكني لا أحتمل أن يراني أحد وأنا أفتش عن طعام لك في الحاويات. وغفى على زعمه هذا حتى الصباح.

مرت الأيام اللاحقة برتابة شديدة، لا جديد فيها سوى أن عصام اعتاد الأكل من القمامة، رغم تهديده معدته، حتى ظل أصابعه لم يعد جديداً فقد اعتاده هو الآخر، لم يعد يعرف نفسه القديمة، تائه في صمت مطبق، كصمت المدينة من حوله، لا شيء يحرك المياه الراكدة، ويشغل الشارع بمن فيهم باعة سوق الخضار، سوى حراك الشباب الثوري وهتافاتهم. يمرون كل يوم في الساعة نفسها من أمام سوق الخضار، وقد أصبح خالياً من الزبائن حتى من أولئك الذين يسومون ولا يشترون، صارخين هاتفين رافعين لافتات، يزداد عددهم يوما بعد يوم.

وفي أحد الأيام لحظ عصام تغيّب جاره هشام، غير المعتاد عن السوق، تاركاً عربته خالية من البضائع، تساءل أين يكون يا ترى في مثل هذه الساعة؟ ثم جلس على كرسيه، يرقب مع رفاقه الباعة ثقل النهار، تصله أطراف حديث من هنا وهناك، عن شح في الأدوية ومواد التموين حتى حليب الأطفال أصبح سعره خيالياً، يسمع شكوى رفاقه في كل مكان ويكتفي بالنظر إلى وجوههم المتعبة، منتظراً قدوم موكب الهاتفين، وها هو صوتهم يعلو ويعلو كلما اقتربوا، ينتفض الباعة عن كراسيهم لمراقبة الشباب النابض بالحياة يصرخون ويلوحون، ويملؤون المكان صخباً، متجهين إلى الساحة العامة.

راقب "عصام" المشهد في كل مرة، منقلاً نظره بين وجوه رفاقه الباعة ووجوه شباب الموكب الهاتف، يرى في عيون الشباب الهاتفين إصراراً ينبعث ألقاً، وفي صوتهم إيقاعاً يبعث سلاماً، يحيي جثث الشوارع الميتة من جديد، لم تكن القضايا الكبرى محور اهتمام عصام، والحرب الدائرة في البلاد لم تكن حربه، وكذلك رفاقه الباعة، إلا أنه لا يستطيع نكران الأمل الذي يضفيه

الموكب على وجوههم البائسة، كالسحر يفك عقد حواجبهم، لتنبثق ابتسامة هنا او هناك على وجه بخجل، ينظر لنفسه وكأنه غير معني بالأمر ويتساءل: ما الذي يمنع الباعة عن الصراخ والهتاف في الموكب أيضاً، عوضاً عن الجلوس، والشكوى طوال اليوم؟ سيحرس بضاعتهم ريثما يعودون، ليضحك ساخراً من فكرة الحراسة، وبالكاد هناك زبون أو اثنان في السوق، يسرقه من شروده هذا يدان تلوحان له من قلب الجموع، لم يتقين من هوية اليدين، لكن شيئاً داخله يشير إلى أنهما يدا هشام، غير مصدق لحدسه البسيط.

فما الذي قد يدفع شخصاً كهشام للتظاهر والهتاف، وقد حذره من مصير هؤلاء الوخم منذ أيام، يترك دهشته من تبدل موقف "هشام" لينصرف إلى معدته التي بدأت تتخبط باضطراب، لم يكن سببه الجوع هذه المرة، يبدو أنه قد تناول شيئا فاسداً بالأمس، يحاول أن يتصبر على ألمه ريثما يمر الجمع، وتصبح الحركة متاحة ليتوجه إلى غرفته، لكن الألم يفوق قدرته على الاحتمال، فينخرط في صفوف الجموع المتقدمة إلى الساحة، علّه يجد مخرجاً هنا أو هنالك يوصله لبيته، فينفض عن الجمع.

في موكب الرتل الصارخ بصوت واحد، يصرخ هو ألم معدته، ويصرخون هم ألم شعب مقهور على مدى نصف قرن، يصرخ ويصرخون بصوت واحد وقلب واحد، يحس عصام لأول مرة بالانعتاق من كل شيء، حتى من معدته التي تصر على إحراجه دائماً، يسير صارخا هاتفاً، متناسياً المفارق التي توصله إلى غرفته البائسة.

تصل الجموع إلى الساحة فيصطفون وسطها، وتتوجه أنظارهم نحو الصورة الكبيرة المعلقة على المبنى الحكومي، وبصوت واحد وحركة واحدة يرفعون أيديهم، منتصبة في وجه الصورة، يصرخ "عصام" بصوت أعلى من الجميع ويرفع يده بالحركة نفسها، فينطلق ظل أصابعه، ليغطي الساحة كاملة، حتى يواجه وجه ذلك الشاخص في الصورة، ليهلل الشارع المتخم بالبؤس لصاحب اليد الكبيرة التي غطى ظلها الساحة، ووقف منتصباً في وجه الطاغية. ينظر عصام لظل أصابعه هذه المرة ولا يهرع لإخفائه، ولا ترتعد أوصاله خوفاً، بل على العكس تماماً تعتريه نشوة كما لو أنه ولد اليوم وفي هذه اللحظة بالذات، تمر أمام عينيه صورة غرفته البائسة، وذكرى والديه وأخوته، حاويات القمامة التي فتشها بحثا عن الطعام، صوت معدته التي التصقت بظهره، صور مدرسته في حارتهم البسيطة، وصور رفاقه يهرولون إلى الدرس، ومع كل صورة يتذكرها يكبر ظل يده أكثر.

كبر وكبر وكبر، حتى مزق صورة الشاخص أعلاه وحملتها ريح المدينة الجبلية إلى مكان بعيد جداً، ومنذ ذلك اليوم لم يعد يظهر لعصام ظل أصابعه مطلقاً.



جدول التفقّد

حسان العوض

طبيب وكاتب سوري مقيم في السعودية، صدرت لي مجموعتان قصصيتان:

"أشجار بحاجة إلى قطع" 2013، "مرات أولى" 2018.

الغياب

1- أبو ريحة:

بسبب رائحة فمه الكريهة، خاصة في الحصة الصباحية، كان أحمد يجلس في المقعد الأخير، على الرغم من أنه ليس طويلاً.. أحمد أول طالب في الصف يستعمل فرشاة ومعجون الأسنان، على حد علمي، ولكن من دون جدوى.. عندما كان يتحدث معي، كنت أتنفس من فمي متجنباً دخول الهواء أنفي...

لم يعد أحمد يستعمل فرشاة الأسنان، ليس لأنه عالج رائحة فمه الكريهة، ولكن لأن الهواء فسدت رائحته في الصف والمدرسة والقرية كلها.

2- شترو:

يسكن أبو شترو وحيداً في غرفته الوحيدة التي يتكون منها بيته الواقع على طريقنا المؤدي إلى المدرسة، حيث نجده كل صباح جالساً على الشرفة، يشرب المتّة، ويستمع إلى المسجلة التي تبث بصوت عال شريطاً من أغاني المطربة الشعبية فريحة العبدالله.. عندما نقترب من بيته، نبتعد إلى الطرف الثاني من الطريق.. خالد ابن جيراننا في الحارة، وزميلي في الصف، يبتعد

حتى يكاد يلتصق بالجدران، وهو يسترق النظر إلى عكاز أبو شترو، وطرفه السفلي الأيسر الذي فقده من تحت الركبة، في حرب تشرين "التحريرية" حسبما سمعنا من أهالينا.

تزوج أبو شترو وطلّق من دون أن ينجب ولداً ليسميّه شترو. ولكن خالد ابن الجيران نال هذا اللقب بجدارة، ففي إحدى المرات التي كان يمشي فيها الحيط الحيط، سقطت قذيفة على الحائط فأوقعته على رجلي خالد فهشّمهما إلى درجة أرغمت الأطباء في المشفى الميداني على بترهما من فوق الركبة.

3- عمر الأعمى:

عمر اسمه، والأعمى كنيته الحقيقية التي تعود إلى جده الذي فقد بصره بسبب انفجار إصبع ديناميت في وجهه عندما كان يعمل في مقلع حجري.. أما لقب عمر فهو الأحول، إذ كان يضع على عينيه نظارة طبية سميكة تخفّف من حوله وتقوي نظره الضعيف أيضاً.. وحده عمر مَن يرتدي نظارة مِن بين طلاب الصف، وكان عندما يغضب منّا، يخلع نظارته ليخيفنا بعينيه اللتين تنظر كل واحدة منهما باتجاه...

كان عمر يراقب أباه الخبير بصناعة المتفجرات عندما انفجرت قنبلة يدوية مزقت أصابع الأب، وأخذت من عينيّ الابن ما كان متبقياً فيهما من بصر وحركة، بالإضافة إلى النظارة الطبية التي استبدلها عمر بنظارة شمسية...

عمر اسمه، والأعمى كنيته الحقيقة، ولقبه الجديد أيضاً.

4- الأستاذ عبد السلام:

كان الأستاذ عبد السلام مدمناً على تدخين السجائر، فلم يكن يكتفي بالتدخين في الفرص، بل كان يدخن أيضاً في الحصص أثناء إعطائه دروس اللغة العربية.. لم يكن يدخن، بل كان يشرب الدخان ويلتهمه...

كان الجميع يتوقع أن يصاب بسرطان الرئة الذي تحذر منه وزارة الصحة على علب التبغ، ولكن الأستاذ عبد السلام أصيب بسرطان المثانة.. بعد أن بدأ العلاج الكيماوي صار شعر رأسه يتساقط، ويتغيب عن دوامه في المدرسة، إلى أن فصل نهائياً من عمله، ليس بسبب غيابه المتكرر، وإنما بسبب قصيدة نشرها في إحدى المجلات، وقد أهداها لي، مما تسبب بملاحقته من قبل فرع أمني داهم عناصره المدرسة أكثر من مرة...

لم يعد الأستاذ عبد السلام يغادر القرية بسبب الحواجز الموجودة على مخارجها، وبالتالي لم يعد يستطيع الاستمرار في العلاج الذي كان يتلقاه في مشفى المدينة، ومع ذلك، لم تسؤ صحته، بل تحسنت، وعاد الشَعر يظهر على رأسه، على الرغم من عدم توقفه عن التدخين؛ ربما بسبب الشِعر الذي صار يكتبه كثيراً.

5- الأستاذ ياسر:

يدرس الأستاذ ياسر مواد الاجتماعيات بعشق ينتقل عفوياً إلى الطلاب. ففي "تاريخ الدولة العباسية" عندما يتحدث عن أحد الخلفاء، نشعر أننا نشاهد مسلسلاً تاريخياً. وفي "جغرافيا القطر العربي السوري" عندما يتحدث عن

إحدى المحافظات، نشعر أننا نقوم برحلة سياحية إليها، شبيهة بتلك الرحلات التي تقوم بها المدرسة مرة أو اثنتين في العام. إلا أنه في مادة "التربية الوطنية" يصاب بانقباض، عندما تحين حصتها الأسبوعية، والطلاسم الواردة في كتابها تزداد غموضاً بشرحه.. لكن، وبعد أن تغيرت رائحة الهواء، زال هذا الانقباض، إذ أنه لم يعد يدرّس ما هو وراد في منهاجها، وإنما جعل "التربية الوطنية" خليطاً من "جغرافيا القطر العربي السوري" و "تاريخه"...

في الدرس الوحيد الذي حضرته، تحدّث الأستاذ ياسر عن محافظة إدلب التي قدّمت الأديبين حسيب كيالي وتاج الدين الموسى. وذكر العديد من مدنها مثل: سرمين التي تنتسب إليها إحدى عائلات القرية، وسراقب التي تنتسب إليها عائلة من القرية المجاورة، وسلقين التي تنتسب إليها عائلة من المدينة عريقة بصناعة الحلويات، ومعرة النعمان مدينة أبي العلاء المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، وخان شيخون وبنش وكفرنبل.

6- الآنسة أم أنبوبة:

نناديها بالآنسة على الرغم من أنها متزوجة منذ سنوات؛ إذ يتوجب علينا أن نناديها بالسيدة، حسبما فهمت من مادة اللغة الانكليزية.. لم نلقبها بأم أنبوبة لأنها تدرسنا العلوم، خاصة أن أنابيب الاختبار لم نرها إلا مرسومة في الكتاب، ولكن لأنها ذهبت إلى العاصمة منذ عدة أشهر، للعلاج عند طبيب اختصاصي بالعقم، وصلت شهرته إلى قريتنا النائية. ثم عادت حاملة بتقنية أطفال الأنابيب الغامضة.. قبيل انقطاعها لإجازة الأمومة، علمنا أنها حامل

ببنت اضطرت إلى ولادتها باكراً في القرية بسبب الحصار المفروض عليها. لكن البنت كانت هشّة، لم تتحمل الهواء البارد القاسي والفاسد؛ فانكسرت كأنبوب من الزجاج.

7- أبو زكّور:

في الأسبوع الأول من الفصل الأول توفي أبو محمود، أقدم مستخدمي المدرسة، بسبب جلطة قلبية.. في الأسبوع الثاني توفي المستخدم أبو نجيب بنفس السبب.. في الأسبوع الثالث أُدخل المستخدم الثالث أبو زكّور مشفى المدينة بسبب آلام مبرحة في صدره، أثبتت الفحوصات التي أجريت له أن القلب سليم وبريء من هذه الآلام التي ظلت تعاوده مراراً وتكراراً حتى وصف له أحد الأطباء النفسيين حبوباً مهدئة...

بعد أن انقطعت الأدوية عن القرية، فيما انقطع عنها من أشياء، رجعت الآلام تنهش أبا زكّور، بضراوة أكبر، وبتنوع مختلف؛ فمرة يفيق على ألم شديد في يده، ومرات يفاجئه ألم في رجله يجعله عاجزاً عن المشي.. حيناً يمغصه بطنه بألم طاعن كسكين، وأحياناً تؤلمه عينه حتى يتمنى اقتلاعها...

صدره فقط، ما عاد يتسبب له بأية آلام.

8- عبّود الأحدب:

....

9- نيلز:

....

10- السيدة ملعقة:

11- ....

12- ......

......

الحضور

......

6- ....

5- الشيخ المودرن:

4- عزّو الدرويش والدرويش عزّو:

....

3- ابراهيموفيتش:

زميلي ابراهيم أمهر طلاب الصف في لعبة كرة القدم، وعندما ننقسم في حصة الرياضة إلى فريقين، فإن الفريق الذي سيفوز عادة هو الذي يلعب معه ابراهيم المبدع في تسجيل الأهداف، خاصة برأسه الذي لا يخطئ المرمى أنّى كان...

ابراهيم، أصل والده من العاصمة، وأصل أمه من المدينة، ولكنهما استقرا في قريتنا منذ زواجهما، لذلك يعتبر ابنهما الكبير ابراهيم حياته شبيهة بحياة اللاعب العالمي ابراهيموفيتش، فهو كما أخبرنا ابراهيم مراراً، بوسني الأب،

كرواتي الأم، سويدي الجنسية، احترف كرة القدم بعد حصوله على الصف التاسع، وهو حاليا يلعب مع فريق فرنسي.. ابراهيم سيفعل مثله، فبعد أن يحصل على الشهادة الإعدادية، سيحترف في المدينة مع نادي الكرامة مبدئياً، حتى يتاح له الانتقال للعب مع أحد أندية العاصمة، وسيستقر أخيراً مع برشلونة أو ريال مدريد، لا فرق، المهم أن يكون الفريق إسبانياً، أو أندلسياً كما يحب أن يقول ابراهيم...

ابراهيم الذي وصل مؤخراً، لن يصل إلى الصف التاسع، لأن كرة من حديد ونار نطحت رأسه فأودت به.. عندما وصل، لم يكن حزيناً لأنه لن يصبح مشهوراً مثل ابراهيموفيتش، ولكن لأنه لم ينل قدراً من الشهرة كتلك الفتاة التي نطحتها كرة مماثلة في مدينة أخرى...

هنا.. وبعد أن تعرّف ابراهيم، الذي صار صديقي، على تلك الفتاة.. أعتقد أنه صار يحبها.

2- حمزة:

طالما أخبرني صديقي حمزة عن أبيه الذي كان في مثل عمرينا عندما قرر أن يتكنّى بأبي حمزة بعد أن شاهد فيلم "الرسالة" لذلك كان حمزة يحتفظ بنسخة منه، وفي كل مرة أزوره في بيته، لا بد أن نشاهد الفيلم الذي ينتهي بالنسبة إلينا بمقتل حمزة عم الرسول، على يد حبشيّ، برمح انطلق غدراً، بتحريض من هند...

لم يكن صديقي حمزة يخشى الموت لأنه كان على قناعة بأن الرصاصة سريعة جداً، وما إن تطلقها بندقية حتى يفارق المصاب بها الحياة قبل أن

يشعر بأية ألم؛ لكنه فوجئ عندما أدرك أن بعض البنادق مزودة برماح، وما فاجأه أكثر أن حامل البندقية ذات الرمح الذي طعنه أكثر من مرة لم يكن حبشياً...

بعد أن وصل حمزة.. عرّفته على أكثر من حمزة.

1-القاشوش:

كنت صاحب أجمل صوت في الصف بحسب معلمة الموسيقى التي كانت تطلب مني أن أغني لها من أغاني عبدالحليم حافظ. أما بحسب زميلنا "بوظو" الذي يحلم أن يصبح في المستقبل مذيعاً رياضياً يعلّق على مباريات كرة القدم؛ فأنا صاحب الحنجرة الذهبية؛ ولذلك كنت أُحمل على الأكتاف في المسيرات التي كانت تهتف بروح الأب الخالد وابنه القائد.. وقتها لم يصورني أحد إلا مصور الجريدة المحلية التي نشرت صورتي في اليوم التالي.

عندما انقلبت المسيرات إلى مظاهرات تلعن روح الأب وابنه؛ حُملت أيضاً على الأكتاف.. أعتقد أنه ما من جوال في القرية إلا ولي فيه مقطع فيديو أشدو فيه، وقد تسببت أناشيدي هذه باعتقال عدد من شبان القرية الذين ضبطوا على الحواجز وهم يحتفظون بها على جوالاتهم.

لا أعرف كيف خُطفت من القرية.. كل ما أذكره أني تلقيت ضربة على مؤخرة رأسي لم أصحُ بعدها إلا مرة واحدة وأخيرة على ألم طاعن في عنقي.. فتحت عينيّ بصعوبة فرأيت جندياً يقهقه وهو يحمل ما اقتطعه من عنقي.. لم يكن ذهباً يلمع بل لحماً ودماً يسيل.

شاهد من الحاضر

أحمد خميس

كاتب وناقد سوري، يعيش حاليا في ألمانيا، صدر له ثلاث روايات:

"خنادق الحبّ"، "قيامة اليتامى" و"مسرح العمى".

استيقظتُ في تمام الثالثة والنصف، كان ضرسي يؤلمني لدرجة أنه خطر على بالي اقتلاعه بأية وسيلة، فتحتُ النافذة علّي استنشق بعض الهواء البارد، كان هدوء الثلج يخيّم على كل شيء، مانحاً الليل ضوءً فريداً رغم الظلام المطبق على الشرفات.

الأتراك لا يتركون مجالاً للضوء بأن يتلاعب بجيوبهم كيفما ما يشاء.

اعتمرتُ قبعة من الصوف أسود لونها، لبستُ على عجل قفازي ومعطفي الجلدي الطويل. وخرجتُ أحرثُ الثلج المتكدّس في الحديقة المقابلة لبيتي.

وضعتُ عود قرنفل صغير على سنّي الأمر الذي ساهم بتخفيف آلامي قليلاً.

كنتُ أحسبني بمفردي في (الشهيدلك) هذه الحديقة المطلة على نافذتي، وهي واحدة من ثلاث مئة حديقة في مدينة شانلي أورفا.

على يساري مباشرة كان ثمة رجل سبعيني يحمل مجرفة وفأساً، ينبش الثلج ويكوّمه بالجوار.

حاولتُ عدم استراق النظر إليه لكنني لم أفلح بذلك لاسيما وأني رحتُ اسمع نحيبه الذي بدا مخيفاً في أوله، التفتُ إليه بكليتي؛ كان جاثياً على ركبتيه

في عالم لا يرى فيه سواه، وجعل يضرب رأسه بشدة بكلتا يديه كأنما يحاول اقتلاع رأسه بما فيها.

بصراحة شعرتُ ببعض القلق، أخرجتُ هاتفي ورحت أستذكر رقم الشرطة ثلاثياً كان أم رباعياً، شيء ما بداخلي قال لي إن هذا الرجل يخفي سرّاً، ربما ارتكب جريمة ما، وها هو يخفي الجثة بدفنها في الحديقة.

لا أدري لماذا شعرتُ بحماقتي وسذاجة تلك الفكرة إلا أنها راودتني فعلاً!

يتصرف العاملون بميدان الصحة النفسية بأساليب تشبه أساليب المحققين ورجال الأمن أحياناً، يبنون تصوّراتهم على أسسٍ سطحية تحتمل كثيراً من التأويلات، يفسّرون الأمور بناءً على خبراتهم بالتعامل مع أناس مرّوا بتجارب مؤلمة الأمر الذي ينعكس على محاكماتهم للمواقف التي يمرّون بها فيحبكون قصصاً وروايات بأجزاء من الثانية ومن ثم يحطمونها وينسجون حكايات أخرى.

تراجعتُ عما كنتُ أفكر فيه حينما انتقل الرجل إلى مكان آخر من الحديقة وراح يحرث أيضاً دون أن يحمل الجثة التي كنت أتصورها.

ربما كان مستمتعاً بالثلج خطرت على بالي هذه الفكرة أيضاً.

(ربما) هذه الاحتمالية التي لا ينبثق عنها يقين جازم ترافقني دائماً، استخدمها حتى في حواراتي مع نفسي، ورسائلي الغرامية، وتغطيتي لملفات مرضايَ، وتشخيصي لحالاتهم؛ والسبب أني أتعامل مع إرادة بشرية لا تخضع لقوانين ثابتة.

من الباب الآخر للحديقة دخلتْ سيدة مسنة هي الأخرى رفقة شاب كأنه ابنها واحتضنا ذلك الرجل وتحدثا إليه قليلاً.

كان التعب مرسوماً في كل خلية من خلايا جسده، وملامح وجهه تشي بحزن أقل ما يمكنني القول عنه .. فظيعاً.

تسللت إليهم، وقفت بالقرب منهم، كانوا يتحدثون العربية! لهجة وسط سوريا (حماة على الأغلب).

-أتحتاجون للمساعدة يا خالتي؟ قلتُ وقد شعرتُ بتطفلي.

لم تجبني، زمّتْ شفتيها بحسرةٍ أكثر منها تعجب واستهجان.

-أنا غسان طبيب نفسي أعمل في العيادات المهاجرة الخاصة باللاجئين.

– آه تذكرتك يا بني .. نعم رأيتك هناك أكثر من مرة.

– آمل لو أتمكن من تقديم بعض المساعدة، تقدّمتُ نحوها وأعطيتها بطاقتي التي تتضمن اسمي ورقمَ هاتفي، وبريدي الإلكتروني.

مشيتُ سالكاً الطريق المؤدية إلى بيتي حينما بدأت تثلج ثانية وبشكل أكثر غزارة هذه المرة.

لم أعد أشعر بألم أسناني، فإشارات الاستفهام التي كانت تملأ جمجمتي منعت دخول شيء آخر إلى رأسي.

صباح اليوم التالي وما إن لبستُ، ومشطتُ شعري وبينما أن واقف أراقب انعكاسي في المرآة لمحت صورة ذلك الرجل الأشيب وعينيه المتعبتين

وملامحه التي تروي حكايات ألم مريرة. لمحته بمرآتي بالقرب مني يطلب النجدة من أحدهم، أظنه أنا.

وصلتُ المستوصف وكعادتي تشاجرتُ مع المدير الذي لا زال يصر على إبقاء عيادتي في قبو البناء المكون من ثلاثة أدوار بحجة الحفاظ على خصوصية الحالات والمراجعين.

ورغم أنني شرحتُ له ألف مرة أن السراديب، والأقبية تعيد مرضاي إلى أزمنة يهربون منها، إلى ذكريات أودت بهم إلى ما هم عليه الآن لكنه كان سميناً غبيّاً لا ينصتُ إلا لنفسه حاله كحال كل مدراء الأقسام الذين عملتُ معهم داخل سوريا وخارجها.

أنهيتُ عراكي الصباحي معه ونزلتُ إلى قبوي وطلبتُ من أم ياسر الدمشقية تزويدي بالنسكافيه كالعادة.

في تمام الحادية عشر إلا خمس دقائق تماماً سمعتُ جلبة في بهو القبو وصراخ رجل يشعر بالخوف أكثر من كونه غاضباً.

خرجتُ على عجالة، اقتربتُ منه، أحسستُ بالسعادة رغم كل شيء وهو شعور لم أعتد عليه في استقبال مرضاي.

لطالما تمنيت بأن تختفي هذه الأمراض حتى وإن أصبحتُ عاطلاً عن العمل نتيجة ذلك.

إنه رجل الحديقة وزوجته وابنه، تحدّثتُ إليه، وسألتُ عائلته الابتعاد.

كان يصرخ أن أخرجوني من هنا.

طلبتُ إلى أم ياسر أن تجلب لي مفتاح الباب الخلفي للعيادات والذي يفضي إلى مقهى صغير خال من الزبائن أغلب الأوقات.

اصطحبته إلى هناك، جلستُ، فجلس قبالتي.

كان جميلاً رغم ما فعلت به السنين، أنيقاً دون ثياب باهظة الثمن، حزينة عيناه رغم خلوهما من بريق دمع سيبكيه بعد قليل حسبما خيّل إلي.

- أنا الدكتور غسان يا عم، نحن في مأمن هنا، ثق بي.

نظر إلي وابتسم.

- مأمن!!

كان ينبغي أن أقول: نعم بكل تأكيد لكنني قلت ربما.

- وأنا أبو عبدالله من مدينة حماة.

- أتشرّف بلقائك يا عمي.

- حدثني أهلي بأنك طبيب نفسي وبأنني أحتاج إلى شخص مثلك لكي يريحني مما أنا فيه.

- سأبذل قصارى جهدي لكي تتخلص من هذه الأحمال التي تثقل كاهليك يا أبا عبدالله.

خاطبته باسمه محاولاً كسر جبال الجليد بيني وبينه.

خشيتُ من أن أقول له إنني رأيتك فجر اليوم وأنت تحفر أرض الحديقة.

لكنه فاجأني بأن قال:

أعتقد أننا التقينا قبل بضعة ساعات من الآن.

في الحديقة أجبته وقد بدأتُ أشعر أنه اطمأن لي أكثر.

حدثني عما يعانيه وعن مشاكله الجسدية التي تترافق مع مجموعة أعراض تتراوح بين الاكتئاب والقلق.

كنتُ أدون ملاحظاتي على كف يدي محاولاً انتهاز الفرصة لسؤاله عن السبب الذي دفعه للخروج من بيته في تلك الليلة الباردة والقيام بحفر أرضية الحديقة. لكنه فاجأني إذ قال إن لديه بعض الأشياء التي يرغب باطلاعي عليها.

أجبته بلهفة:

- بكل تأكيد تسعدني رؤية ذلك.

- إنها في بيتي يا دكتور بإمكانك زيارتي مساء إن شئت.

- عظيم... أشكرك على ثقتك بي يا أبا عبدالله ...

وغادر بعد أن ألقى عليّ التحية بكثير من الاحترام، صافحني يداً بيد.

كانت يده خشنة وكبيرة.

في المساء وبعد أن اتصلت بابنه الذي كان ينتظرني أمام الحديقة توجهنا نحو بيتهم وشعور بالفضول والقلق يسيطر علي.

اقتحام هذه الكهوف لهؤلاء الرجال الذين انقرض الكثير منهم الآن ليس بالأمر البسيط.

أبو عبدالله رجل من زمن آخر، كان يحاول البقاء قوياً رغم الانهيارات الكبيرة في عينيه.

استقبلني من على الباب، كان يرتدي گلابية أبيض لونها رافعاً أكمامها قليلاً كما يحلو للسوريين فعله أحياناً.

كان متزناً وابتسامة لم أرها على وجهه في المرة الماضية تزيده وقاراً وهيبة.

- كيف حالك يا أبا عبدالله؟

نظر إلي وصمت لثوان وقال.

- تعال معي يا غسان ونهض سالكاً ممراً ضيقاً ينتهي بغرفة ذات باب خشبي أبيض.

دخلنا الغرفة المظلمة، وقفت قبالته. كانت گلابيته وشعره الأشيب يضيئان المكان بنور ليس بي عزم لوصفه.

جواد كالصافنات أملحاً يقف أمامي خلته مجنّحاً، سيطير ويحلق في البعيد لاحقاً بسلالته هناك حيث سليمان وأحصنته لكنه أعادني إليه لحظة إشعاله المصباح الكهربائي الأبيض متنحيّاً عني بضع خطوات.

احتجت لثوان حتى تتكيف حدقاتي مع الضوء، تمكنتُ من رؤية ما يرغب لي أن أراه.

وقفتُ مذهولاً وريح باردة خفيفة كخناجر من جليد راحت تهشّم عواطفي.

على الجدران حولي رسومات غريبة فهمت وما فهمت منها شيئاً.

رسمها ببخاخات على ما يبدو دون أطر وألوان غير الأسود والخلفية البيضاء.

شيء أشبه بالگرافيتي.

جثث مكدّسة فوق بعضها البعض، تلال وجبال وحقول من الموتى وغيوم تمطر رصاصاً والأرض مزروعة بالبنادق والحراب.

نظرتُ إليه، حاولت سؤاله عن هذا الذي أراه لكنني لم أستطع.

جلسَ على الأرض وأمسك جبهته بيده اليسرى.

في العام 1982 اقتحموا حي الحاضر.

كانت الجثث كبيادر القمح ليس لها آخر يا غسان.

نسوة يحتضن أطفالهن، شباب يظنون بأن أجسادهم ستمنع الرصاص من اختراق أجساد أمهاتهم.

قتلوا المدينة كلها... حتى القطط والكلاب الضالة لم تنجو من موتهم وحقدهم.

بأعجوبة بقيتُ على قيد الحياة، كنتُ أتنفس بصعوبة وسط تلك الأجساد الباردة.

منذ ست وثلاثين سنة يا بني وأنا أحفر لهم قبوراً ولم أتمكن من دفنهم إلى الآن.

كثيرة جداً، كثيرة هي الجثث.

الغمام والجولان يسكن وجوه جداتي

سلام محمد

كاتبة وسينارست سورية

أنا من نسل نسوة متشحات بالسواد والصبر، مترعات بالحزن الشفيف والكبرياء. جدّات يروينَ حكايات مبهرة عن الغيلان والفرسان، وقصص الحب اليتيمة.

"حبابتي"/ جدتي (ترفة) توقفت ذاكرتها بعد 1967، إثر صدمة النزوح، وأسر الصهاينة لولديها. تناديني كلما رأتني باسم مريم. كلما زرتها كانت ترنو إلي بعينين مخضبتين بالكحل والخذلان، تهذي بأسماء نساء ورجال عاشوا في أزمنة بعيدة في الجولان. كانت تلتهم أذني بصوتها العميق الآتي من كتاب مهترئ. تروي لي قصصاً حزينة وغريبة عن مريم الجميلة، التي تزوجت من فارس مغوار اسمه عبدالله. ماتت مريم وهي تنجب ابنتها الأولى، التي أطلق عليها زوجها اسم مريم، أيضاً. أخبرتني ترفة عن أسطورة قديمة تقول إن الفاتنات حين يمتن تسكن وجوههن الغمام. لذلك ظل عبدالله لسنوات طويلة يلهث خلف الغيم كي يقبض على وجه زوجته مريم، إلى أن وافته المنية بعد أن رماه حصانه فوق أعلى تلة في الجولان، تحت الغيم مباشرة، كان اسم تلك التلة "تلة ابو الندى".

بقي عبدالله ممدداً تحت الغيم ليومين، مخضباً بالندى ومبتسماً، إلى أن وجد جثته راع شاب، فحملها إلى أهله، وتم دفنه قرب مريم، التي ما عشق سواها،

ولا استطاع يوماً أن يتحرر من سطوة هذا العشق المدمّر الذي جعل منه حكاية تتناقلها الجدات في ليالي كانون الباردة.

حكاية مريم وعبدالله ليست الأولى، وبالطبع لن تكون الأخيرة التي تحتفي بها ذاكرة ترفة، التي لا تعرف سوى وجوه نساء ورجال عاصرتهم قبل النكسة، وراحت بعدها في دمشق تسقط وجوههم على كل من حولها من أبناء وأحفاد وجيران.

بعد تحرر ولديها من الأسر، لم تستعد ترفة ذاكرتها، فتغريبتها المرة جعلتها تغرق أكثر في هلوسات عن البلاد البعيدة، وكل من أحبته وعرفته هناك. كانت لا تقوى على الخروج من بيتها في دمشق، ولا تعرف اتجاهات الشوارع وأرقام البيوت، حتى وجوه الناس بدت لها محايدة وصلفة. ظلت لسنوات طويلة حبيسة دارها، ترحب بالزوار، وتناديهم بأسماء من عرفت في الجولان، وتخبرهم عن قصصهم وحكاياتهم إلى أن ماتت.

كنتُ في السابعة عشرة من عمري حين قالوا إن ترفة، زوجة الشيخ موسى، قد تاهت. خرجت من بيتها صباحاً لأن صديقتها نزهة كانت تناديها للخروج معاً إلى عين الماء، تاهت جدتي ترفة، ولم تعرف طريق العودة أبداً. كانت تسير في حارات غريبة، وترنو بعينيها إلى طرقات لم تألفها يوماً، سيارات وإشارات مرور، ونسوة يتمتمن بأدعية كلما رأينها، ورجال يسألونها "وين بيتك يا حجة؟ وين ساكنة؟ من وين إنتي يا حجة؟". كانت كلها اسئلة مريبة وصعبة جداً على عجوز تجري وراء الغيم، تحاول الوصول إلى عين ميمون لتلتقي بنزهة "يا ولدي عين ميمون من هين؟ ما شفتم بيت نزهة؟".

لم يفهم الدمشقيون من أسئلة ترفة سوى أنها عجوز خرفة، أو مجنونة تائهة، المسكينة أمضت ساعات طويلة تحارب بكل قوتها هذا الفضاء الغريب حولها قبل أن يجدها شاب من الذين تطوعوا للبحث عنها ويعيدها إلى البيت.

عادت جدتي ترفة بثقب في القلب، حزينة مهزومة، ربما أدركت للمرة الأولى بعد 35 عاماً من النزوح أنها فقدت بيتها وموطنها الأصلي، وأنها باتت تعيش في مكان مخيف وغريب وشامت. بعدها بأشهر قليلة، دب المرض في أوصالها، وتوفيت وهي كسيرة الروح والقلب.

عندما زرتها قبل وفاتها كانت تجلس في الحوش، تجدل ضفائرها الطويلة وتغني بصوت ساحر "يا محمد خذيت قليبي والأسود غزاه الشيب.. لا تروح وخلك قريب برد القلوب اتدفيها".

جلست أستمع إليها وأنا مشدوهة بجمال الخزامة الفضية المتدلية من أنف شامخ كالسيف، خلاخيل القدمين والخواتم الكثيرة في أصابع يديها، مفتاح صندوق الزفاف الذي شبكته بين ضفائرها تحت عصابة مذهبة.. صمتت لبرهة ونظرت إلي بعينين فيهما حزن سحيق، ثم مدت يداً مخضبة بالحناء ولمست وجنتي وهمست "إن أحببت شاعراً تزوجيه، لكن لا تقرئي قصائده لامرأة، بل أغلقي عليها في صندوق عرسك وأخفي المفتاح هنا مثلي، بين ضفائرك. وبعد أن تنجبي طفلتك الأولى ترفة، أطلقي القصائد للريح".

كانت هذه آخر مرة أرى فيها ترفة. حزنت كثيراً على رحيلها، وواستني حبابتي يمنى بأنها ارتاحت، فلقد أكلت قلبها النيران لسنوات طويلة.

يمنى التي تزوجت من رجل من خارج قريتها "راوية" لم تكن على أية حال قادرة على أن تحب هذا الغريب الذي نقلها إلى القنيطرة المدينة في الستينيات بحكم عمله هناك. كان يخرج في الصباح الباكر تاركاً إياها وحيدة بين أربعة جدران، إلى أن أنجبت ولدها هجرس، وقررت العودة به إلى راوية، قريتنا، بعد أن داهمها نفور عظيم من ذلك الزوج الذي لم يفهم يوماً حاجتها إلى الأهل والهضاب والبراري. تطلقت يمنى. وبعد النزوح بقليل، تزوجت من رجل قريب لها، وسكنت قرب بيت جدي في إحدى عشوائيات دمشق، تصنع القهوة المرة، والزلابية، وتربي كثيراً من الأحفاد، وتزرع فوق سطح بيتها النعناع، والريحان.

أخبرتني يمنى عن حكاية غريبة لرجل يدعى شامان، كان تتوسط جبينه شامة سوداء كبيرة تلمع في الظلام. كان من نسل رجل ذي كرامات متعددة، لكنه كان آخر ايامه زاهداً وحبيس بيته الحجري الأسود، يقرأ القرآن، وينقل ما تعلمه من أسرار لحفيده اليتيم. بعد وفاة جده، ترك شامان البيت الحجري، وهام على وجهه في رحلة طويلة، كان ينام في الغابات وبين الأحراش، وعند الشلالات وينابيع الماء في الجولان. التقى بكثير من الرعيان والفلاحين الذين كانوا يرأفون بحاله، ويقدمون له الطعام. كان صامتاً وحزيناً كبئر عميقة، لم يقل اسمه لأحد، ولم يتعرف عليه أحد. أقاربه في راوية أيضاً لم يعرفوا عنه شيئاً بعد اختفائه، أحدهم قال إن ضبعاً افترسه، وقال آخر إن ثمة دورية شاهدته فأودعته مشفى المجانين في دمشق. لكن يمنى كانت حينها متأكدة أن شامان بخير، وأنه كان يبحث عن أجوبة لأسئلته الكثيرة التي لم يتسنَّ لجده الإجابة عليها. مرت شهور طويلة قبل أن يعود شامان إلى القرية. كان

مختلفاً، حليق الذقن والشعر، ويرتدي بنطالاً أنيقاً وقميصاً، وبرفقته زوجته الجميلة ثريا التي تزوجها في قرية تسمى سكيك. ثريا التي آمنت بشامان ونبوءاته راحت تخبر النسوة أن زوجها كان يصحو على كوابيس مرعبة عن جراد مخيف سيغزو البلاد مُحيلاً كل شيء إلى خراب وعدم. لم يصدقها أحد، فلم تعد تتكلم عن كوابيس زوجها بعد أن نالتها سخرية النساء. اعتكف شامان في بيت جده القديم، وكان يهيم صباحاً في البراري، يكلم الأشجار والأنهار، ويقطف الخبيز والهندباء، ثم يعود إلى ثريا التي كانت تهتم به كطفل صغير، تستمع إلى هلوساته عن الجراد والدماء، تطعمه بيديها، ثم تغني له إلى أن ينام.

استيقظ شامان صبيحة أحد أيام حزيران 1967، وراح يدق أبواب بيوت راوية داعياً الناس إلى الهرب من الدماء والجراد. لم يصدقه أحد، سخر منه كثيرون، شتمه بعضهم، ورثى آخرون لحاله، لكن يمنى صدقته، وحاولت أن تغادر معه قبل أن يمنعها والدها ناعتاً إياه بالمهبول. لملم شامان أشياءه القليلة، وغادر مع ثريا بعيداً قبل أيام من النكسة، حيث داهم الصهاينة راوية، وهجروا سكانها في 17 من حزيران 1967. أخبرتني يمنى بعدها أنها شاهدت ثريا صدفة في الشام. وعندما سألتها عن شامان، قالت إنه قد توفي بعد سقوط راوية بفترة وجيزة، وأنها تعيش مع ولديها في الحجر الأسود في دمشق.

كانت هذه الحكايات تلهب مخيلتي وأنا طفلة تعيش بين جدات كثيرات، وارفات، بديعات، وسمراوات، بوشوم خضراء تتمدد كبراري الجولان في وجوههن الغضة. كنت أعرف أنّ بعضها حقيقي، وبعضها الآخر من مخيلة عذبة تتدفق مع كل فنجان قهوة مرة وسيجارة تتن تتلذذ بها جداتي البهيات

وهنّ يَنفثن مع الدخان حزنهنَ العجائبي على بلاد جميلة، بلاد كالحكايات، متخيلة وشهية، بعيدة وعصية، عذبة وصادمة، ولفرط جمالها، لا يمكن أن تكون بعد فقدانها متوازناً أبداً، بل يداهمك في كل لحظة نزوح واغتراب ألم دفين ينغرس عميقاً كسكين في الخاصرة والذاكرة معاً، تاركاً إياك في مواجهة فظة مع حقيقة صادمة مفادها أنك غريب، لا تملك سوى بطاقة تموين ولقب نازح أصبح ملتصقاً بك إلى الأبد.



أوراق النصوص

أدونيس فائزاً

موفق قره حسن

كاتب سوري

ها هو الآن شاعر المنفى، والسجون، والغربة، والاغتراب، الشاعر المهاجر، والمتحدّث الرسميّ باسم الشعب، وهموم الشعب، وقضاياه، الشاعر أدونيس قدّس الله سرّه، بجلالة قدره يستلقي تحت شجرة الحكمة في قريته الوادعة في سوريا، بعد أن أزاح بوذا من تحتها، ليحتسي البابونج، ويتأمل عاملات النمل، وهنّ يثقبن الأرض كي يبنين بيوتهنّ ويدافعن عن وجودهن من خلال هذا الخرم الصغير، أدونيس الذي وصل إلى أعلى درجات الإنسانية، لم يعد يحتمل عقله أن يفكّر في قضية الإنسان وحدها، فانتقل إلى الحشرات، والحيوانات، والجمادات، والماورائيات، حتى إنّه بدأ بتنظيم مهرجان ثقافي داخل المدينة الفاضلة، والذي سيلقي هو بنفسه، كلمته الافتتاحية.

يرنّ الهاتف الأحمر، والذي لم يكن أحمر عندما اشتراه، إنما طلاه بهذا اللون كي يتناسب مع لفحته الحمراء، والهاتف هذا ما هو إلا نبذة قليلة عن الأشياء التي طلاها بلون الدم؛ أي اللون الأحمر، ولا أدري بالفعل لماذا هذا الارتياح الذهنيّ والبصريّ لهذا اللون الدموي عند شاعر كبير؛ وحساس من العيار الثقيل كأدونيس، وهو الذي يشكّل منذ ولادته أعلى مستويات سحب دوائي لمنتج الهيستامين المضاد للحساسية؟.

- ألو مرحبا منزل الشاعر أدونيس؟

- (يعدّل من جلسته بعد أن سمع كلمة شاعر وبابتسامته المعتادة): أيوه اتفضلي مين معي؟

- أنا كاترينا عم حاكيك من ستوكهولم حضرتك مرشح لجائزة نوبل لهذا العام، وأنا عم حاكيك هلق لأدعوك شخصياً بالنيابة عن الحاج نوبل لأن متل ما بتعرف عطاك عمرو من زمان

- الله يرحمو

- الله؟!

- قصدي لروحو السلام .. خلص ولا يهمك مدام، بكون عندك بأقرب وقت

- باي

- باي.

ينزل السماعة من يده بعد أن هشَّ؛ وبشَّ؛ وطار فرحاً فارتطم رأسه بسقف الغرفة، ووقع على ظلّه كما الطيور تقع دائما على أشكالها، ويبدو لنا من خلال الكاميرا التي زرعناها داخل حياته لنتلصص على يوميات شاعر فذ، وقامة كبيرة، وصاحب كعب عالٍ في المعترك الثقافي كأدونيس؛ بأنه متوترٌ بعض الشيء، وبالأخص أنَّ المدام كاترينا لم تلمّح له إن كانوا سيبعثون له تذكرة الطائرة؛ أو ثمنها، أم أنّ هذه الرحلة سيتحمّل مصاريفها شخصيّاً، ولكن الطمعة كبيرة، والطبّة أكبر، والجائزة بتستاهل شوية تضحية، وهل (التركتور) صافف قدام البيت، صرلو فترة منبيعو ومنطرقا سفرة .. أخ بس لو كان خط

الهوب هوب شغال ع ستوكهولم بس يلا ع ستوكهولم بدنا نروح لنداوي القلب المجروح.

وبالفعل أدونيس ما كذّب خبر، هرع إلى الخزانة، وأخرج الثياب التي سيرتديها في الحفل، ولمّع حذاءه، ورتق جوربه، وبعثر شعره، ووقف أمام المرآة، وبدأ بالبروفات كي يكون مستعداً دائماً لأي سؤال قد يطرح عليه في ستوكهولم من حركات الرأس .. إلى الأصابع .. إلى اليد التي ستوضع على الجبين، والخد، حتى الساق التي سترمى بعناية فوق أختها الساق، وهو يجلس بين الجمهور الغفير، تدرّب أيضاً على ردة الفعل التي سيفتعلها عند سماع اسمه الفائز بالجائزة، ودعوته إلى المنصّة، ليس هذا وحسب؛ بل بدأ بتمارين الليونة كي يقفز برشاقة على درجات المنصة، ولم ينسَ تمارين الصوت كي يشدو بخطابه الرنان صاحب الوقع البروليتاري على الآذان، لأنّه فقير، ومشرّد، وقروي، ومكافح، ولا مكان له، ولا عنوان، ولا أحد يستحق الجائزة غيره؛ فهو المثال الأكبر؛ والنموذج الأهم للتطور الدماغي البشري.

مضت الأيام، وما زال شاعرنا على حاله كل يوم يقوم بنفس الأعمال، تمارين .. وبروفات، كي يصل إلى أعلى نسبة أداء داخلي، وخارجي ملموس، ومحسوس أمام الحضور .. حتى أتى الصوت الذي قلب حياته رأساً على عقب، فبدّل سعادته الغامرة إلى أحزان .. وأشجان .. وصار إلى شاعر تعِس لا يكاد ينبس ببنت شفه؛ حتى يبكي .. لا يكاد يتحرك قيد أنملة؛ حتى تلمع حبات الألماس بين أهدابه، الصوت الذي خاطبه فيه والده بأن هذا (التركتور) هو ميراث العائلة الوحيد، وبأنّ ريعه كان يذهب إلى الأعمال الخيرية فكيف يجرؤ على بيعه؟

وما أحبط شاعرنا ليس أنّه لن يستطيع بيعه بسبب تلك الأمور سالفة الذكر، ولأنّ العصب الإنساني قد لمع عليه، فهو لم يكترث بهذا كله، فعندما أخرج أوراق (التركتور) ليبيعه، وجلس على بازاره؛ وقبل الشروع بالتوقيع على عقد البيع، تبين بأن هذا التركتور ليس من ممتلكات أدونيس الشخصية، إنما له حق الانتفاع به فقط.

نسي أدونيس الفكرة، وعاد إلى الأرض يفلحها، ويسقيها يعزقها، ويبذرها، وكلّما كانت فكرة الجائزة تخطر على باله كان يصرفها عنه بلعب الشدّة، و ليس بالتأمل كما عودنا، لأنّ التأمل سوف يعيد التفكير بها رغماً عن أنف أبيه –لروحه السلام – وها هي مظاهر الحياة البائسة تنال من شاعرنا المحبط الحزين، والمكفهر، شاعرنا الذي أحالته الفاجعة إلى ربع أوقية من الدم؛ والماء، والعظام التي تصدر أنينها كما لو أنّها سيمفونية الكدر المشؤوم، والمحموم بالوجع.

أدونيس الذي عكف عن الكتابة بمختلف أطيافها، ويده التي لم تمسك يوماً إلا الأقلام ها هي قد تشقّقت بفعل الكريك والشوكة والأظمة، وتلت الشهور الشهور، وما هي إلا أيام قليلة تفصل الشاعر عن حلمه بأن يذكر اسمه هناك في ستوكهولم كفائز، إلا أن الحلم بعيد، وستوكهولم ليست في بانياس ليذهب إليها رَمَلاً، ولا مع جاره في سيارة (الزيل) بعد تبويسة شوارب، : إنها ستوكهولم يا أدونيس .. ستوكهولم .. فماذا أنت فاعل؟

ترررن تررررن / تررررن تررررن

– الو أدونيس؟

– أيوا مين معي؟

– نحنا من اتحاد الأحباب في إلك مكافأة مالية.

أغلق السماعة عندما سماع هذه الكلمات، وكما لو كان ميتاً؛ ودبّت فيه الحياة، وبلمح البرق ذهب، وبلمح البرق عاد حاجزاً على أول طائرة منطلقة إلى ستوكهولم، ووضّب حقيبته، وتأكّد بأنّه وضع الكلمة التي سيلقيها بين الأوراق الثبوتية، وانطلق أدونيس إلى تحقيق ذاته؛ وحلمه باستلام الجائزة، وطارت الطيارة، والحبايب طاروا.

– جميلة هي السويد من فوق أليس كذلك؟

– يهز أدونيس رأسه فاغراً فمه، وبعينين براقتين وبابتسامة بلهاء أجاب: بلا

– أين نحن منها يا أدونيس؟، ولماذا لسنا مثلها يا أدونيس؟

– ضحك من سؤالي ضحكاً غيّر مسار الطائرة فكادت أن ترتطم بجبل لو لم يكن السائق شوفيراً ماهراً، وانحرف قليلاً في اللحظة الأخيرة.

هبطت الطائرة التي تقله، واتجه مباشرة نحو الحفل فلم ينتبه إلى الشوارع، ونظافتها .. ولا إلى مظاهر الحياة برمتها، ودخل شاعرنا، وجلس في المقعد المخصّص له، وأخذ وضعيته التأمّليّة ذاتها التي اعتدنا عليها، وبدأ الحفل الكبير وبدأ توزيع الجوائز، ونادت مقدّمة الحفل على اسم أدونيس لفوزه بجائزة نوبل، ولكن ليس للشعر بل للسلام، كونه قد رشّح أكثر من مرّة لهذه الجائزة أي جائزة الشعر، ولكنها جائزة نوبل في نهاية الأمر .. للسلام كانت أم للشعر أم للقرود السود.

نعم فاز أدونيس، وكما تدرّب فعل، لا زيادة، ولا نقصان، تأكّد عدّة مراتٍ من الخطاب الذي سيلقيه إن كان في جيبه قبل وصوله إلى المنصّة، صافح المقدّمة، واللجنة، واستلم الجائزة بيد، وحيّا الجمهور بيد .. بعد أن انحنى له عدة مرات، وسط التصفيق اللامنتهي، والأضواء، وأصوت الكاميرات؛ وهي تنهال بآلاف الصور، والموسيقا الحماسية، كل شيء مدروس من أجل هذه اللحظة التاريخية المنشودة، كل شيء يرغمك على الخشوع لولا ..

لولا أن تبرّز عصفور صغير كان يقف على غصن شجرة الحكمة التي اتخذها أدونيس موقعاً له للتأمل في قريته الوادعة في سوريا، إلا أنه بالغ بالتأمل هذه المرّة .. وباغته النعاس فلم يستطع الفكاك من شركه، ونام حالماً بالجائزة فأيقظه العصفور من رؤياه بفعلته الرعناء التي فعلها فوق شاعرنا العظيم، ولكن هيهات ألّا يجد شاعرنا فلسفة لهذا الشيء، فنسب هذا الفعل إلى الرزقة القادمة لا محالة، والتي هي جائزة نوبل حسب تصوراته، ودراسته، وتوقعاته لمجريات الأمور.

9/ 4/ 2020



مجزرة حماة وبلقيس نزار وانتفاضة الجولان شباط 1982

أربعون عاماً على ثلاث مواجع سورية

سليم عوض

مؤرخ سوري من الجولان مقيم في استوكهولم

ثلاثة آلام سورية اجتمعت في وقت واحد عام 1982، ولمجرم واحد هو نظام الأسد ومشغليه، فبين مجزرة حماة التي بدأت في 2 شباط وإضراب الجولان الشهير الرافض لقرارات وإجراءات الضم الإسرائيلي وذكرى قصيدة بلقيس لنزار قباني إثر تفجير السفارة العراقية في بيروت في 15 ديسمبر 1981 والتي خلفت 61 قتيلاً، لتقتل قلب شاعر المرأة والعرب السوري نزار قباني بفراق محبوبته وزوجته العراقية بلقيس الراوي وقد كانت تعمل بتلك السفارة وأنجبت ولديه زينب وعمر، وللمفارقة تجتمع الآلام الثلاثة في الأرشيف الفلسطيني، ولكن لكل منها لغتها حسب توجهات الحزب الشيوعي في فلسطين المغتصبة، أو بالأحرى عكست أجواء تلك المرحلة، فبين نقل رواية النظام عن مجزرته التي ارتكبها في حماة والتي خلفت حوالي 40 ألف ضحية مدنية من أطفال وشيوخ ورجال وشبان، والتي هي ذات لغة النظام بعد الثورة السورية الثانية على نظام الأسد، وتحميله ما يسميهم "المسلحين" هذا القتل الجماعي، وبين رسالة الشاعر الفلسطيني سميح القاسم لنزار قباني بعد قتل بلقيسه، وبين زيارة الصحفي والناشط الفلسطيني نظير مجلي للجولان في تضامنه مع أبنائها في اليوم الثامن لإضرابهم وحربهم للحفاظ على هويتهم...

لا بواكي على حماة من نظام الأسد الإجرامي:

في 26 شباط 1982 نشرت صحيفة الاتحاد التابعة للحزب الشيوعي الإسرائيلي الناطقة بالعربية وللجناح العربي في فلسطين المغتصبة ما أذاعه راديو دمشق تحت عنوان "الهدوء يعود إلى مدينة حماة السورية" لتقول: "دمشق – أذاع راديو دمشق يوم الإثنين الماضي برقية أرسلها فرع حزب البعث في مدينة حماة شرح فيها حقيقة الأحداث التي جرت في المدينة منذ بداية شباط الجاري. وقالت الرسالة إن مجموعات «الإخوان المسلمين» شنت في الثالث من الشهر الجاري هجوماً دموياً على بيوت أعضاء الحزب والمحلات العامة. وإنّها في أثناء هجومها ارتكبت الجرائم البشعة كالتمثيل بالجثث وإبادة عائلات بأكملها دون رأفة بالأطفال أو بالنساء أو بالشيوخ.

كما حاولت مجموعات «الإخوان المسلمين» المسلحة شل الحياة في المدينة حين أحرقت الحوانيت والأبنية العامة وقتلت بعض الخبراء والاطباء، الذين تحتاج إليهم سورية في وقفتها الصامدة في مواجهة الإمبريالية والاحتلال الإسرائيلي.

وأشار راديو دمشق كذلك إلى أن قوات الأمن تمكنت من تطويق هذه المجموعات والإجهاز عليها. وأن الحياة تعود إلى طبيعتها في مدينة حماة.

ومن الجدير بالذكر أن الصحافة السورية كانت قد اتهمت الإمبريالية الأمريكية والصهيونية بتحريك هذه المجموعات لتتمكن من اختراق الجبهة الداخلية في سورية وإجبار النظام السوري على الانضمام إلى مسيرة «كامب ديفيد» الخيانيّة".

وضمن برقيات أذاعت ذات الصحيفة المذكورة أعلاه خبرين من دمشق هما:

– دمشق. اتهمت صحيفة البعث السورية، الناطقة بلسان حزب البعث السوري الحاكم، يوم الجمعة الماضي، خبراء الاستراتيجية في وزارة الحرب الأمريكية بأنهم وراء الاغتيال والأعمال التخريبية التي تجري في سورية، وذلك في معرض تعليقها على حادث الانفجار الذي حدث يوم الخميس الماضي في مبنى وزارة الإعلام السورية، والذي يضم مكاتب صحيفة «البعث» ذاتها. ويذكر أن الصحيفة صدرت صباح اليوم التالي للانفجار كالمعتاد.

هذا واشارت صحيفة تشرين السورية، في الوقت نفسه، بقيام القوى الوطنية والتقدمية العربية بتعبئة طاقاتها في خدمة سورية. وامتدحت تنديد مختلف أجنحة الثورة الفلسطينية بمحاولات عملاء الامبريالية التي تستهدف المساس بسورية.

بالبريد غير العادي إلى نزار قباني من سميح القاسم:

في عددها الصادر في السادس من شباط الجاري نشرت مجلة «المستقبل» التي تصدر في باريس «قصيدة بلقيس». وهي. كما قالت – أحدث وأروع قصائد الشاعر الكبير نزار قباني التي يبكي فيها زوجته «بلقيس» التي قتلت في حادث الانفجار المروع الذي وقع في دار السفارة العراقية في بيروت (حيث كانت تعمل) مؤخراً وأدى إلى وقوع عشرات القتلى والجرحى.

وقد جاء في نهاية القصيدة:

بلقيس أسألك السماح، فربما

كانت حياتك فدية لحياتي

إني لأعرف جيداً

أن الذين تورطوا في القتل، كان مرادهم

أن يقتلوا كلماتي!!

وفي بداية الشهر الجاري كان زميلنا الشاعر سميح القاسم في باريس (لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي) فبعث إلى نزار . عبر «المستقبل» (عدد ١٣ شباط)، الرسالة المؤثرة التالية:

الهمم القعساء كلها، لم تستطع أن تفتح خط البريد بينك وبيني .. حقاً، لكنها استطاعت أن تقتل بلقيس.

بلا بريد؟ لا بأس، فإذا كانت مخزونات النفط بحاجة إلى أجنبي ينقب عنها، فإن مخزونات الدم والدموع الجوفية تعرف كيف تتفجر، وكيف تفرض نفسها على مجاريها.

وها أنا ذا أكتب إليك من حاضرة العروبة باريس، ولا باس.

حين قرأت رسالتك إلى اللاشيء .. رسالتك المكتوبة بدم بلقيس ودموعك، لم أجد من أكلّمه سوى العجوز الفرنسية، صاحبة الفندق الذي أقيم فيه بانتظار رحيل آخر في الرحيل الممتد ثلاثة عقود في زمن الشلل والصمم والموت...

كان على العجوز الطيبة المقحمة إقحاماً في عذابنا، كان عليها أن تبدأ البكاء لأشاركها فيما بعد، حذراً من أن يضبطني متلبسا بالألم، جمل من جمالنا السائبة في مدن العالم:

أخي وحبيبي ..

يتملكني الآن شوق حارق إلى يد زوجتي .. أمسك بها برعب، وأغمض عيني لننفجر معاً، بلا دوي وبلا ظهور.

الآن أوثر الخفاء، وماذا أقول لك؟ هل أعترف بخجلي من أن لي بلقيسي، أما أنت فبلا بلقيس؟

يقيناً، سيعترض خط الهاتف بيني وبينك رادع رسولي يصيح: «كفى! للقضية ثمن. وكم من بلقيس ذهبت فداء لفلسطين!»

أجل، هكذا سيفح ذلك الصوت. ولن تصدقه أنت أما أنا. فلسطين. فسأبصق في وجهه رغم حراسه المدججين بالصوت وبكواتم الصوت وإنني لأطلب أن تسجلوا في محاضركم:

أنا فلسطين، لا أريد دم بلقيس. لا أريد الدم المهدور عبثاً على خريطة العالم.

أنا فلسطين، أريد بلقيس لتعد لزوجها نزار قباني قهوة الصباح .. أريد الأمومة لزينب ولعمر. أريد السهرة العائلية تحت الياسمينة وعلى شرفة المنزل الدمشقي.

أنا فلسطين، أريد الإضاءة الجيدة والفرح في الكاظمية. أريد جميع الطرق سالكة، في بيروت، ومن «المحيط الى الخليج»!

أنا فلسطين، أريد الجامعات والجيوش العصرية ورياض الأطفال ..

أريد الحدائق العامة ومعاهد الموسيقى والصناعات الثقيلة. أريد تحيات الود والألفة، القصائد، الشوارع المعبدة، المكتبات. اللافتات الجميلة، الزراعة الحديثة.

أنا فلسطين، أريد حرية الإنسان العربي وكرامة الأبجدية. بهذا أكون. لا أريد أن أكون بغير هذا ولا أستطيع أن أكون!

أخي وحبيبي،

لا تصدق أنبياء الكذب. لا تصدق الدجالين مرتزقة الطبول والكلمات الكبيرة. لا تصدق الإرادات الملكية السامية والمراسيم المبذولة جزافاً كقشور البزر، من شرفات قصور الرياسة وأقبية الأوصياء المخروقين حتى العظم.

لا تصدق أيها القابع في الربذة، بين رياح الليل ولوعة الإيمان وجثة حبيبتك.

أمس، حدثني أخوة قادمون من بيداء العرب أنهم كانوا يحتسون القهوة على رصيف بيروتي. فجأة سقطت على أقدامهم جثة ما. لم يشاهدوا القناص، طبعاً، لكنهم أزاحوا الجثة بأطراف أحذيتهم وواصلوا احتساء قهوتهم اللذيذة.

. كيف، أيها الأخوة؟ ..

. « كيف؟ .. هكذا. القتل مسألة مألوفة .. عادة يومية .. ظاهرة لا تستحق انتباهاً خاصاً. كيف؟ هكذا ..)).

وواصلنا احتساء كؤوس السم والحقارة في باريس، حاضرة العروبة! ..

أخي وحبيبي، هل أعزيك؟ أيُ عزاء هو هذا؟ وما جدوى العزاء أصلاً؟

التعزية. في اعتقادي الناشئ عن سوء طوية لا يوصف. هي ضرب فظٌّ من الشماتة .. وأنّها لتجوز بنا ولا تجوز لنا .. من نحن حتى نجرؤ على الشماتة؟.

لا أعزيك. لا أحاول تعزيتك.

كل ما أريد قوله هو أننا: نوال وأنا وطفلانا محمد ووضاح نحبك بلا بريد، وسنحبك إلى يوم عبوتنا الناسفة .. آنذاك سنكون بريد الموت، وسنحمل قصيدتك إلى بلقيس!

باريس 9-2-1982

أربعون عاماً على ذكرى حرب الهوية في الجولان السوري المحتل

. «لو قطعونا إرباً إرباً، لن نركع ولن نتخلى عن قوميتنا العربية السورية ..»

بهذه الكلمات حدد المناضلون الأربعة أبناء هضبة الجولان السورية المحتلة، المعتقلون بأمر إداري من وزير الحربية، موقفهم من مؤامرة فرض الجنسية الإسرائيلية والقانون الإسرائيلي وموبقاته عليهم.

. «لو قطعونا إرباً إرباً». – قالوا. فرافقتنا كلماتهم طول الطريق إلى الجولان.

اعتلينا المرتفعات ومشاعرنا ممزقة إرباً إرباً .. نحو أولئك الناس.

إنهم لا يزيدون عن 13 ألف انسان معظمهم من النساء والشيوخ والأطفال. يعيشون في أربع قرى صغيرة يتمسكون بها جسداً وروحاً. سوريو القومية والأصل. ويرفضون الاحتلال. فما الذي يريدونه منهم. يسمونهم «متطرفين» و«مغامرين» و«محرضين». ويتهمونهم «بإرهاب (!) مؤيّدي إسرائيل» فيعتقلون عدداً منهم ويمنعون العلاج الطبي عن مرضاهم وينهبون أرضهم

وماءهم ثم يزعمون أنهم «مخربون» و«مثيرو النعرات الطائفية!» و «مخالفون للقانون» والخ ... ويهددونهم بالطرد والتشريد والويل والثبور ..

فمن هو المذنب. من المخرب. من المحرض. ومن هو مخالف القانون؟!.

أرض محتلة. هل تذكر؟ هل تنسى؟

دخلنا الجولان من بوابته الجنوبية فوق رأس بحيرة طبرية. من أول خطوة جاء الجواب: هذي أرض محتلة. من يذكر؟ من ينسى؟ أرض عربية سورية احتلت بقوة العسكرة والعدوان. أليس كذلك؟

وتأتي الخطوة الثانية والثالثة والثامنة والألف .. هنا كانت قرية عربية سورية هدموها. حرثوها ومحوا آثارها. لكن أشجار الصبّار تشق طريقها بين الصخور السوداء وتعلن ليل نهار أنها: سورية. لا بولونية ولا أمريكية ولا مغربية. هنا بيت عربي صامد ومحطمة أبوابه. لكنه باقٍ صامت، صامد، ليدلك: هنا كانت قريــة عربية، وهنا عشرة بيوت سوداء، معظمها مهدوم محروق، لكنها بقيت لتعلن: رحل أهلي وأصحابي لكن جدراني بقيت عربية.

أشجار السرو والزيتون والصبر والليمون، حتى ولو زالت الحروف العربية وهدمت المآذن والكنائس وكل البيوت، فإنها تعلن يومياً، للزهر والنحل والزوار وللمستوطنين الأجانب: عربية. سورية. وهل يمكن التزوير!!

وجاء دور الإنسان

"الدرب طويل جداً. لكنك لا تعرف فيه طعم الملل. الأرض مليئة بالناس. مستوطنون ومستوطنات. جنود ومعسكرات. باصات في خدمة «جيش الدفاع» .. ودبابات. وشارات عبرية منتشرة . موشافية ويهودية وكتسرين

و«نفح» و«اورطال» و مروم هجولان»! 33 مستوطنة يهودية. ولا ذكر للعربية في الشارات. وبعد جهد جهيد نجد شارة تدلك على طريق وعرة حكرة – «مسعدة» – منها تعرف مجدل شمس وعين قنيا وبقعاتا.

بركة مسعدة اسمها بالعربية بركة ران. فصارت بالعبرية «برخات رام» وعلى أصحابها فُرض الحرمان:

ممنوع الشرب. ممنوع الري. وكل من يخالف يعاقب!

105 قرى هدمت. و120 ألف نسمة شُرّدوا! كل الأرض وكل الماء نهبت واليوم جاء دور الانسان. الغالبية الصهيونية في الكنيست قررت: الجولان جزء من أرض إسرائيل (15- 12 - 1981). والاحتلال، الذي يتوهم بأن مصائر البشر تقرر في كنيست إسرائيل، جاء ليطبق «القانون» على أبناء الجولان.

. «لو قطعونا إرباً إرباً ..» قال المعتقلون. وهنا كل إنسان يقول مثلهم.

15 عاما وخمسة آلاف عام

الاضراب مفتوح وعام. والهدف واضح لكل أصحاب الجولان: «نرفض الجنسية الاسرائيلية. نرفض تطبيق القانون الإسرائيلي المدني علينا. نطلب وقف حملة التنكيل والإرهاب علينا. نطالب بإطلاق سراح المعتقلين».

هذا ما يقوله الجميع هنا بلا استثناء. وعن هذه المطالب. «لن نتراجع لو قطعونا إرباً إرباً».

وهناك من يضيف: « .. ولو اعتقلونا جميعاً .. رجالاً ونساءً وأطفالاً». ويضيف آخر: «ولو منعوا عنا الأكل والشرب». ويتابع ثالث: «لقد جاء الربيع. والأرض خيرة والحمد لله. نأكل الدردار (عشب معروف في المنطقة) والعِلت إن نفد المخزون وانقطعت المعونة» .. ويؤكد رابع وهو رجل دين. «كلنا إخوة في الكفاح. ليس بيننا زعماء يساعد بعضنا بعضاً، ونتقاسم اللقمة سوية وخصوصاً مع العمال. فهؤلاء تحملوا القسط الاكبر من عبء الإضراب».

ويتكلم آخر بالمنطق: «الصهيونية تعتبر كل يهودي في أي مكان في العالم مواطناً في دولة اسرائيل وله الحق في الحصول على الجنسية الإسرائيلية. والحجة: أن اليهود عاشوا هنا قبل 5 آلاف عام. فأي منطق هو هذا؟! إذا كانوا متمسكين «بقوميّتهم» بعد خمسة آلاف عام فكيف يطالبوننا بالتخلي عن قوميّتنا بعد 15 عاماً من الاحتلال .. علما بأننا لم نرحل ولم نقطع أية صلة بقوميّتنا العربية؟».

لكن .. أين هو المنطق من حكام بلادنا وأين هي الانسانية والانسان؟!

– من لا يقبل بالجنسية الاسرائيلية يعتبر متمرداً؟ ويخسر حقه في العمل وفي العلاج الطبي وفي العلم وحتى في مجرد السير في الشارع والعيش في البيت بهدوء وأمان ..

– سلمان محمد عماشة من بقعانا يوم الجمعة الماضي أخذ والدته، في حالة صعبة، إلى المستشفى. وفي الطريق لاحقته سيارة الاحتلال وأوقفته، بعد

حين نزل الجنود، وبلا مقدمات انهالوا عليه بالضرب والشتم والإهانة. و«التهمة» الخطيرة أنه لم يتح لسيارة «الأمن» بأن تجتازه!

- الشيخ رفيق علي إبراهيم من مجدل شمس - يوم الخميس الأسبق دعي إلى مركز الشرطة، وبلا مقدمات: ضرب وشتم وإهانة.

و«التهمة». تهديد مواطنين لأنهم كسروا الإضراب!!.

- حوالي نصف السكان لا يحملون بطاقة عضوية الهستدروت، وقد تلقى هؤلاء العلاج طول الوقت في عيادات صندوق المرضى الهستدروتي مقابل مبلغ من المال. اليوم - يُمنعون من تلقي العلاج بأي شكل من الأشكال .

- كل الذين لا يحملون الجنسية الاسرائيلية بمنعون من تسجيل المواليد والوفيات ومن تجديد رخص السيارات وتصادر سياراتهم إذا كانت موديل الأعوام 80 - 81 - 1982.

- 25 شاباً في ال 16 من العمر رفضوا قبول الهوية المدنية الإسرائيلية فسجلت عليهم مخالفات وحكم كل منهم بدفع غرامة 16 ألف ليرة.

- المرضى المزمنون بالقلب أو السكري وغيرهم . لا يعطى لهم الدواء. والحجة: نقص دائم في الأدوية.

- المضربون وصلتهم أوامر فصل من العمل.

- من ادخر شيئاً من المال في البنك، حجز ادخاره بأمر من ضريبة الدخل (600 شخص).

– وكل هذه الاجراءات تزداد قسوة مع استمرار الاضراب و«تبشرنا» هاآرتس (22 – 2) بأن الاحتلال سيشدد إجراءاته لقمع الإضراب ..

لكن ..

«يستطيع الاحتلال أن يحرمنا هويتنا. يستطيع أن ينهب أرضنا وماءنا وأن يغلق مدارسنا ويمنع عنا العلاج. يستطيع أن يضعنا في غيتو كما فعل النازيون. يستطيع أن يحوّل قرانا إلى معتقلات يستطيع أن يهدمها ويحرثها فوقنا. فعنده من القوة والأجهزة والأسلحة والوحشية ما يكفي لفعل كل ذلك. لكن الاحتلال، بكل ما يملك من قوة وأدوات ومن دعم إمبريالي ورجعي، لن يستطيع تزوير إرادتنا وقوميّتنا وجنسيتا، لن يستطيع».

هكذا يرد أهالي الجولان. ويقررون استمرار الاضراب.

كانت جولتنا في اليوم الثامن للإضراب. وفى كل قرية من القرى الأربع وجدنا الناس مجتمعين في الساحة جاهزين لمواجهة كل موقف. استقبلونا بأروع ما يكون الاستقبال ووجدنا أنفسنا، نحن المتضامنين معهم، نستمد منهم المعنويات العالية والقوة على الاستمرار في النضال. فهم يعطون دروساً في الوقفة الموحدة الصامدة وقوة الاحتمال وفي الوعي ووضوح الرؤية واختيار أســـاليب النضال.

لا تراجع – يؤكدون . فقد بلغ السيل الزبى. وبانتظام يثير الإعجاب والاعتزاز يضعون لنا برنامج العمل وخطة التجوال: كنا أربعة: طبيب ومندوب عن عصبة حقوق الإنسان والمواطن وممثل عن بلدية الناصرة –وكاتب هذه السطور. للطبيب جهزوا عيادة عالج فيها المرضى من المسنين والأطفال

والحالات المستعجلة. ولمندوب العصبة نظموا جولة في القرى الأربع اطلع خلالها على حقيقة الأوضاع في هذه القرى. ولنا قدموا تقريراً مختصراً واضحاً وتحليلاً عميقاً مؤثراً جعلنا جولانيّين مئة بالمئة في مواجهة الاحتلال.

وحين عدنا من الجولان لم يستطع أيٌّ منا إلا أن يعمل على تجنيد الآخرين في معركة التضامن مع أحرار الجولان ودعم صمودهم بكل ما يملك من قوة وممكنات. أجل، إنّ دعم صمود أحرار الجولان الأسطوري هو واجب كل إنسان يعتز بإنسانيته. هو واجب كل ذي ضمير حي. فنحن نشهد حرباً عدوانية همجية تشنها حكومة ذات جيش «مغوار» مدجّج بكل أسلحة القتل والدمار على 13 ألف إنسان أعزل معظمهم من النساء والمسنين والأطفال كل «ذنبهم» أنهم يرفضون التخلي عن جنسيتهم. فهل يقبل أي منا أن يقف «حيادياً» مكتوف الأيدي إزاء هذا الحال؟ !

خاتمة:

هذه الأيام وفي الذكرى الأربعين للبواكي السورية الثلاث، من مجزرة حماة إلى حرب الهوية الجولانية إلى مرثية بلقيس النزارية والتي ربما، وأقصد هذه القصيدة، عبّرت عن تلك المراثي لحال السوريين أمس واليوم، وللمفارقة أن قتلة بلقيس هم أنفسهم من قتل ميشيل ساورا الصحفي والمفكر الفرنسي الذي كشف مجزرة حماة بتفاصيلها للعالم الغربي بكتابه "سوريا الدولة المتوحشة"، وأقصد حزب الدعوة الشيعي بعد اختطافه في بيروت عام 1984 وتصفيته، مما يؤكد أنه ذات النظام هو المسؤول، والأنكى أن هذا النظام وجد في إضراب الجولان فرصته لتغطية مجزرة حماة المروعة، وكأن النظام العنصري

الصهيوني أراد رمي طوق نجاة لحليفه التاريخي حافظ الأسد ولاستكمال مسرحية الصراع العربي الإسرائيلي. فضلاً عن نظام الملالي في طهران الذي خلصه من ساورا، وأختم بشيء من كلمات نزار في بلقيس وكأنها حماة والجولان:

بلقيس يا وجعي

ويا وجع القصيدة حين تلمسها الأنامل

هل يا ترى من بعد شعرك سوف ترتفع السنابل؟

يا نينوى الخضراء

يا غجريتي الشقراء

يا أمواج دجلة

تلبسُ في الربيع بساقها

أحلى الخلاخل

قتلوك يا بلقيس

أيَّة أمّة عربية تلك التي تغتال أصوات البلابل؟

أين السموأل؟

والمهلهل؟

والغطاريف الأوائل؟

الكرسي: حكاية دُرّة جولانية

قاسم الحسين

محامي سوري مقيم في بروكسل

عندما نبدأ بالحديث عن دُرر الجولان سوف يخطر ببالنا ناحية البطيحة، ذلك السهل المنبطح من مرتفعات هضبة الجولان باتجاه منخفضات بحيرة طبريا والحولة ونهر الأردن، ما يقارب عشرون قرية منتشرة في السهل الخصيب الفسيح بمناخ دافئ شتاء حار نسبيا في فصل الصيف.

هناك تتجمع الأودية مثل وادي السمك وادي حوا وغيرها. وبانحدار شديد لتصب في بحيرة طبريا مشكلة النهر البارد لترسم الطبيعة لوحة تسبح باسم الخالق المبدع.

وعند التقاء النهر بالبحيرة تكونت قرية الكرسي.

في عام (2000) زار البابا يوحنا بولس السادس قرية الكرسي العربية في الجولان المحتل، وأقام فيها قداس حضره الآلاف من المؤمنين حول العالم، وشاهده الملايين عبر الشاشات. فالمكانة الكبيرة لهذه القرية الصغيرة في قلوب المؤمنين تجعلنا جميعا نتجه للدراسة حول هذا الموقع جغرافياً وتاريخياً ودينياً وديمغرافياً.

موقع الكرسي

تشرف الكرسي على بحيرة طبريا فتحدها البحيرة من جهة الغرب ومن الشمال قرية الدوكة ومن الجنوب قرية النقيب ومن الشرق قرى وادي السمك الشهير.

تقسم أراضي قرية الكرسي إلى خمسة أقسام هي: جبل القلّومة وجبل العريف –بالراء المهملة– (مصيف أهل القرية بسبب ارتفاعها) والسيبة (وفيها نبع ماء غزير يسمى عين السيبة دائم الجريان) والنجيلة وعويصة.

وفي القرية نبع ماء عذب يسمى (عين المفخوتة).

وكما يوجد في المنطقة الجنوبية وضمن أراضي الكرسي عين ماء كبريتية كان يقصدها الزوار للاستشفاء. وهي قديمة وأثرية وكانت مخدمة ويقصدها الزوار من كافة أنحاء سوريا، وكانت الكرسي مقصد للحجاج المسيحيين قبل عام 1967.

تنخفض القرية (200 م) عن سطح البحر. وتمتاز المنطقة بأمطار غزيرة ما يقارب (450 مم) سنوياً.

الكرسي عبر التاريخ

إن تاريخ هذه البلدة أصيل ومُغرق في القدم من أصالة الجولان والمناطق المحيطة به من حوران الأبية ودمشق التاريخ.

يرجع تاريخ الكرسي إلى العهود اليونانية والبيزنطية والإسلامية القديمة ما يدل على ذلك الكم الهائل من الآثار الواضحة للعيان من بقايا سور القلعة

وأديرة وكنائس وطرقات مرصوفة وحمامات وألواح رخامية منقوشة وآثار مرفأ قديم للقوارب.

عند ياقوت الحموي (الكرسي) موقع في طبريا يقال إن المسيح جمع الحواريين بها وأنفذهم منها إلى النواحي، وفيها موقع الكرسي وزعموا أنه جلس عليه السلام.

كما أن معجزة السيد المسيح عليه السلام بطرد الشياطين كانت في هذا الموقع.

ويرجع الباحثين إلى أن جرف صخري في المنطقة يشبه الكرسي (المقعد) حيث يرجعون الى أصل الكلمة بالآرامية (كورسا). وإن هذا الجرف الصخري الذي اجتمع فيه السيد المسيح مع الحواريين يقع على جبل القلومة في قرية الكرسي.

إن ما يصفه سكان القرية لهذا الموقع كشهود عيان سور أثري بطول يبلغ 150م مع عرض يصل إلى 125م،وسماكة جدار السور تبلغ متراً، ويتخلل هذا السور قنطرة وأعمدة عند المدخل.

النشاط الاقتصادي في القرية

إن انحدار الأودية باتجاه منخفضات البطيحة محملة بالتربة اللّحقية الخصبة ومناخ المنطقة الدافئ شتاءً الحار نسبياً في فصل الصيف كل هذه العوامل ساعدت على ازدهار الزراعة.

من أشهر الزراعات: الخضار البواكير (البندورة والخيار) والموز والبطيخ حيث كانت هذه القرية بالإضافة الى قرى البطيحة الاخرى تغرق أسواق الهال

في دمشق بمنتجاتها مما انعكس على تحسن الحالة المعيشية لسكان المنطقة، بالإضافة إلى زراعة كافة أنواع الخضار الأخرى والحبوب بأنواعها البقوليات.

من النباتات الطبيعية التي تنبت في هذه المنطقة أشجار السدر والرُّبّيض والخوخ البري.

صيد الأسماك

كما اشتهرت قرية الكرسي بصيد الأسماك من بحيرة طبريا، ومن أنواع الأسماك: المشط الطبراني الشهير ذو المذاق الرائع، وسمك السردين والقشري والبوري والبلبوط.

قرية الكرسي وبحيرة طبريا

كانت بحيرة طبريا تشكل لسكان الكرسي بالإضافة الى كونها مورداً للرزق، حالة من العشق والوداد بين شاطئ البحيرة وسكان الكرسي كانوا يقيمون هناك أفراحهم ومناسباتهم السعيدة.

من تقاليد السكان أن يتم استحمام العريس قبل عرسه بيوم على شاطئ البحيرة قد تكون هذه العادة متوارثة من أسلافهم قبل آلاف السنين. ويبدو أنها مأخوذة من عصر الحواريين وكون طبريا ونهر الأردن مقدسان في الديانة المسيحية وعنها أخذت عادة التعميد المسيحي.

فيجتمع شباب القرية في منزل والد العريس وبعراضة شعبية يُؤخذ العريس محمولاً على الأكتاف الى البحيرة، وهناك يتم تغسيل العريس من قبل الأقارب والأصدقاء في جو من المرح والغناء والموسيقى حيث يرافقهم الة (المجوز والشبابة) وحتى عند طهور الطفل يقوم شيخ البلد بتغطيسه بمياه طبرية.

من الأغاني المشهورة (شفتها تسري جو الشط الشط ... مدري هي فريخة سمك مدري هي فريخة بط ... وان كان مشي الغزلان قمز ونط ... ما حيد عن عشرتك يا نور عينيا).

السكان

يبلغ عدد سكان بلدة الكرسي ما يقارب (500) نسمة حتى عام 1967، وقد اشتهروا كما كل القرى الجولانية بالنخوة والكرم وإغاثة الملهوف حيث كانت هذه القرية ملجأ لكثير من الضعفاء الذين اضطهدوا من قبل الاقطاعيين في قراهم.

كما استقبلت القرية الكثير من الأسر الفلسطينية بعام النكبة (1948) فأكرمتهم وكأنهم أبنائها. ونتيجة قرب القرية من حدود فلسطين كان لسكانها الكثير من البطولات في صد العدوان الإسرائيلي المتكرر.

ودور الأهالي في معركة تل النيرب في مساعدة الجيش كبيرٌ جداً، حيث كان الكثير من أهالي الكرسي في صفوف الحرس الوطني السوري ومسلحين. يذودون عن حمى وطنهم وكرامتهم. من شهداء هذه المعركة الشهيد البطل أحمد الفهد والشهيد البطل علي الهبل والشهيد البطل خليل السودي. ومن داريا الشهيد الملازم محمود دباس.

ومن القصص المشهورة ما يرويه أهالي المنطقة عن الحجة (وردة أم علي) التي كانت طول فترة المعركة تنقل الماء إلى الجنود وإلى شباب القرية المرابطين معهم تحت القصف حاملة دلو الماء على رأسها بقامتها الطويلة

دون أن تنحني. كانت تتنقل بين الخنادق والحفر تسقي العطشى وتضمد الجراح لتصبح (الحجة وردة) أيقونة من أيقونات القرية.

من أهم العائلات في هذه القرية: آل هلال والعبدلله والموسى.

من وجهاء هذه القرية المختار (حسين الجاسم) الذي كان ذائع الصيت في كل منطقة الزوية بالإضافة إلى كونه اشتهر بأنه طبيب عربي يجبر الكسور ويداوي الجروح حتى ذاع صيته وشهرته ووصل إلى الجيش البريطاني والفرنسي حيث عالج الكثير من الكسور المستعصية لجنودهم. معتبراً الطب مهمة إنسانية قبل كل شيء حتى مع الأعداء.

كما شارك في الاجتماعات التي حضَّت على الثورة السورية الكبرى في السويداء كأحد وجهاء منطقة الزاوية والقنيطرة. وقد تابع مسيرته العطرة ابنة (كريم الحسين الجاسم) شيخاً كريماً لبلدة الكرسي. ومن وجهاء قرية الكرسي مصطفى الحسين وموسى الحمدان وسعد العلي وعطية الحسن والمختار خليل الموسى رحمهم الله جميعاً.

لقد نزح أهالي الكرسي كما إخوتهم في عموم الجولان إلى دمشق وأريافها وإلى قرى محافظة درعا.

وكان لهم دوراً كبيراً في الثورة السورية ضد نظام الأسد الظالم، وكانوا هم من الأعمدة الأساسية للثورة في ريف دمشق الجنوبي. حيث استشهد من أهالي الكرسي أكثر من (100) شهيد في المعارك ضد النظام أو كمدنيين جراء قصف البراميل، وقد قضى عدداً منهم في مجزرة تجمع الذيابية للنازحين.

نذكر منهم (زكريا رشيد وإبراهيم حسين الشهير بلوفا ومحمد أيوب حسين ويعقوب حسين وعبد لله عبد الخالق وموسى عمر موسى وخالد عبد لله موسى وحمدي حسن محمد وسعد الخالد وأحمد سعد الخالد وعدي موسى ومحمد رشيد ومنعم رشيد ورحمة عبد لله عصمان ومحمد صالح عقيل وعمر موسى حمدان وجهاد حسين وعرسان حسين وأشرف العلي ووليد العلي ومازن العلي ومحمد العلي وبلال بخيت وحسن وائل الأحمد وآلاء حمدان وزهير السعيد وعبدو عقيل وبشار محمد حسين .....وآخرين ....)

وأخيراً هناك أعداد كبيرة من المعتقلين من أبناء هذه القرية الشماء في سجون النظام. كنا ومازلنا نطلب لهم الحرية، الت ستشرق عليهم يوماً ما شمسها هم وباقي إخوتهم في كل محافظات سوريا دون استثناء.



الجولان أرض المشتى

الشهيد قتيبة عمر المزعل

خطوط القلب الجنوبيّة

المنصوص عليها في سجايا الروح

المنبثقة من تفاصيل الألم

وجع الانتهاء

والمدى سماءٌ نقيّة

وشهيد ينزغُ دماً تحت المطر

ليشكّل سُحنة الروح

وتنزف الأحلام

خطوط القلب الجنوبية

ستُضفي عليك الجراح ألوانها

ولكن ،، سجايا الروح باقيةٌ لا تُباع

جنوبيةُ الهوى ،، جولانيةُ الدم

الجنوب ،، أرض المُشتهى

كوّة الضوء الوحيد

تتجعّد ،، تتقشّر

ويتناثر شهدائها على المدى

يطفون مجداً فوق الدم

*****

آخــر ما كتب الشهيد على صفحته في الفيسبوك

أنا وحمزة الخطيب وغياث مطر

كلّ صباح

يستيقظ حمزة الخطيب وغياث مطر في دمي

يتقاسمان قهوتي

ويهمسان في أذني

لن تغارنا السعادة

لقد نلنا الشهادة

===

هذا طريق واضح ومعبد بخطانا

منذ التقينا ثلاثتنا

حمزة وغياث وأنا

صار الوطن أكبر !!

صار الحلم أكبر !!

نصوص من صفحة الشهيد على صفحته في الفيسبوك

رثاء صديق شهيد:

مازلت أنكر عيناي التي سالت دموعها على وجنتيك

مازلت أنكر شفتاي التي قبلت جبينك

مازلت أنكر أنفي الذي تخدر بعبيرك وشذاك

مازلت أنكر صوتي الذي تلا صلاة لروحك

مازلت أنكر يدي التي احتضنتك ودفنتك بقرب إخوتك الشهداء

أبو مالك إلى جنان الخلد

====

لن أخون أنثاي ولا حتى البندقية

وتنغرس كلماتكِ في قلبي يا جميلة

لستُ جواباً يبحث عن سؤالٍ أو حقيقة

لستُ آيةً تتنزل عليكِ لتحل بكِ السكينة

أنا رجلٌ أزحت نسائي عن سريري واعتنقت البندقية

ثم التقيتك يا جميلة

وانغرست همسات روحكِ في روحي البريئة

فسقطت في حلمٍ كنت أنتِ فيه حبيبتي ولأميرة

فعذراً ليس ذنبي يا جميلة

أنا بعد اليوم

لن أخون أنثاي ولا حتى البندقية

======

إيقاعات من وسط الحصار

في الجنوب الدمشقي

لم تعد غريباً عني ...

ها أنا أعرفك

وأنت تعرفني

لكم أحبك يا وطني !!!

=====

صباح الحب لمن يستحق الحب ...

صباح الحنين لمن يستحق الحنين ..

صباح الحرية لمن يدرك معنى الحرية ويستحقها

======

ولكم أن تفترشوا جسدي ....

=======

في العام الماضي

أقسمنا صباح العيد أمام قبور شهدائنا

وعاهدناهم:

أن نمضي على طريقهم

واليوم ايضا نجدد عهدنا ...

النصر أو الشهادة ...

=====

لم يكن نهاري جميلاً يوم التقينا ..

كنتِ أنتِ الجميلة !!!

====

أحدثكِ ...

وأعرف أن الريح تخذلني

وأن شعاع الشمس مثل نجوم الليل تخذلني

=====

فيا وردةً من ماءٍ

يا عصفورةً من نارٍ

خذي قلبي إليكِ واحتويني

====

اعتذر منكِ

فأنا أحتاجُ قلبي لكي أحبكِ

=====

لم أعد أحتاج قلبي

فقد أتعبني حمله معي أينما ذهبت ...

أتعبني حمله معي في كل حلم

======

هذا الصباحُ لا يُذكرني بكِ

وهذه القهوةُ أيضاً لا تُذكرني بكِ

ولفافةُ تبغي لا تُذكرني بنفسي

=====

لن أبوح لكِ بشوقي الجارف لكل شيءٍ

بما في ذلك ما أملك من الكلمات ...

لن أحدثكِ عن مدى احتياجي لكِ

في هذه اللحظةِ

وفي كل اللحظات ...

======

أحلامكِ ملكٌ لكِ

ولي وحدي هذا المساء ....

عذوبة عينيكِ لن تجاري مرارة قهوتي

ولفافة تبغي تختصر الزمان ...

=====

لم تتجاهلني هذا الصباح

كانت استثنائيةً على غير عادتها

يبللها الندى ..

يراقصها نسيم الرياح..

=====

لا ضباب يلف أفكاري هذا المساء

واضحةٌ أنتِ ...

خطواتكِ تضبط ايقاع قلبي

=====

حدثني قائلا:

لقد انتصرنا على التاريخ والبشرية والأساطير

تماماً كما انتصرنا على المستحيل ..

ولكن هذا الانتصار قد أورثنا جروحاً

بعضها سهل النسيان

وبعضها الاخر الوقت كفيل بشفائه

وبعضها جراح تتسبب بهزيمة على المستوى الشخصي ....

صمت قليلاً وتابع قائلاً:

وجرحي

قد تسبب لي بهزيمة وخسارة

لن يعرف طعهما إلا من هم مثلي ....

*****

*الصيدلي والطبيب الميداني قتيبة عمر المزعل، انتمى للثورة في بداياتها، وأسهم بتشكيل ما يسمى "أحرار الجولان"، نشر الكثير من القصائد والنصوص في "الفيس بوك" قبل استشهاده.

نصوص جولانية

عفاف محمد الرشيد

قاصة وشاعرة وحقوقية سورية، النصوص الثلاث من مجموعة قيد الإصدار بعنوان: "من سلال الذاكرة".

1- اغتراب نازح لاجئ

طبرية أيتها البحيرة الوادعة، أما زالت فيق تحتضنك؟

أخبريني عن البوح الذي وشت به عنك عصافير الحقول في يومٍ ربيعي غابر، و عن الغزل الشفيف والحنان الأسطوري القديم بينك وبين فيق ، آه من حنين يكبل الضلوع يا وطني (يُحدث نفسه كعادته منذ أن غادر مسقط رأسه نازحاً ثم لاجئاً) إن علاقتي بذاكرتي قوية لم تضعف رغم تقدم العمر وضعف البصر، وهذا يبشر بالخير والصحة الذهنية الجيدة، لكن مواقع الذكريات التي تخص مسقط رأسي وملعب طفولتي وريعان شبابي ترهقني إلحاحاً، ما زالت الصور صافية نقية الألوان كجمال الجولان البهي، لم تبهت ملامحها، رغم الزمن الطويل الذي مر على الفراق، فهل نسيتُ قدماي في سهول الياقوصة، وتركتُ أشرعتي في بحيرة طبرية؟

أه ما أجمل الوطن، فهو المكان الذي قد تغادره أقدامنا لكن قلوبنا تظل فيه ساكنة، لقد تجولت بين البلاد البعيدة الواسعة، ورأيت فيها من جمال إبداع خلق الله ما يسحر اللب والفؤاد، وكم خفق فؤادي إجلالاً لخلق الله في كل مكان، لكن روحي تحلق هناك، حيث البحيرة والسهول والتلال، مرارةُ الحنين

لا تكاد تفارقني، أه يا أمي ما زال صوتك موسيقى ملائكية تعصف بوجداني، ورائحة الزلابية التي كانت تغمر الياقوصة تستنهض كل الذين غادروها في مخيلتي، أهازيجك الحزينة تنثر عبق الحضارة العتيقة المعتقة العصية عن الوصف، أه يا أمي فالحنين والانتماء إلى هاتيك السهول والوهاد والتلال هو استمرار حنيني وانتمائي إليك، يا وجع الحنين يا أمي ويا وطني.

يقلبُ صفحة من دفتر أفكاره وهو الذي نهل الكثير الكثير من مناهل العلم قائلاً:

أعلم جيداً أن علاقة الإنسان وثيقة بالأرض، و أن هذه العلاقة لا تنفصل عنه ما دام على قيد الحياة، مررتُ في دراستي الجامعية على أكثر العلوم الإنسانية تفاعلاً مع نفسي وطبيعتي، فكان علم النفس والفلسفة الأقرب إلى ميولي، وأعرف جيداً لماذا الكثير من الأشخاص يوصي أهله بأن يدفن في أرض وطنه في حالة توفاه الله خارج حدوده، لكني حزين لأجلك يا أبي، لم أتمكن من دفنك كما أوصيتني في فيق، لقد وافتك المنية في أحد مخيمات النازحين بعد ضياع فيق وما حولها من الجولان، وكنا جميعا حينئذٍ في دمشق نازحين، رغم أن حب الوطن من الأمور الفطرية التي جُبل الإنسان عليها، لكن للجولان نكهة من المشاعر مختلفة لا يعرفها إلا من عاش فيها وشرب من مائها، لم أنس كلماتك يا أبي عندما أعود من دمشق بعد انتهاء السنة الدراسية الجامعية مثقلاً بالحنين:

لا عجب يا حميد أن يُحب الإنسان وطنه الذي نشأ على أرضه، وشبَّ على ثراه، وترعرع بين جنباته، ولا عجب أن يشعر الإنسان بالحنين الصادق لوطنه

عندما يُغادره إلى مكانٍ آخر، إنه الارتباط وصدق الانتماء، الأرض تشد الأبناء إليها أينما راحوا وحلوا يا ولدي.

رفع رأسه نحو السماء، يقول في نفسه، لكن العجب يا أبي أن يخذلك من يشاركك العيش والهواء والماء، فكيف يهون عليه الوطن، لقد هان الوطن على الخائنين يا أبي، وها نحن بعد النزوح الأول أصبحنا لاجئين، تمزقت أوصالنا في الشتات، لكن لن أفقد الأمل كما كنت توصيني، سأزرع القمح في قلبي كلما أشتد الحنين، وأنتظر اليوم الذي أمر به من دمشق متجهاً نحو درعا، وإلى مقبرة مخيم النازحين، حيث ترقد أنت وأمي، وأنثر حبات القمح كما أوصيتني، ثم أتابع إلى فيق نحو بحيرة طبرية، لأعوم في مياهها الفضية كعهد طفولتي، وأبلغها رسالتك بأنك ما زلت تعشقها، لن أحتاج المرور من الحواجز الأمنية القاتلة، ولا إلي تأشيرة دخول، ولعلي أزور قبر جدي تحت شجرة التوت الشامخة في حاكورة بيتنا القديم بالياقوصة.

كانت عيناه غائرتين وقد غطى وجهه الاصفرار، وابتسامة خافتة تشرق من بين ثنايا تجعدات وجهه، كشمس الغروب في شتاء ملبد بالغيوم، رفع يداه نحو السماء، ينظر من نافذة غرفته التي المقابلة لسريره في المشفى، والذي لم يغادره منذ شهور، طال تحديقه في الأفق المتاح أمامه، ثم بدا مُرحباً كمن يستقبل ضيوفاً بعد غياب طويلٍ

يا أهلاً، يا أهلاً، تفضلوا

غطى الغمام الأبيض أجواء المكان، وازدحمت الغرفة بالنوارس البيض التي صفقت بأجنحتها حول سريره، وهو كالطير الذي يفرد أجنحته ليطير، يغيبُ

بيان طيات الضياء الأبيض والغمام، بينما صمت الحقيقة يغمر المكان، والعالم بأسره وما يزال !!!!

2- المغارة

مغارةٌ تقع على هضبة من مرتفعات بلدة فيق المطلة على بحيرة طبرية، وهي صخرة عظيمة مجوفة كأنها غرفة صخرية أسطورية، باتت هي الملاذ الأمن لسكان مدينة فيق والقرى التي حولها، بعد أن شنت الطائرات المعادية الكثير من الجولات في سماء المدينة، تُرعب الناس بصوتها، وترمي صواريخاً هنا وهناك، أصوات صافرات الإنذار تزعق، والناس يتدافعون نحو باب المغارة الجبلية كأمواج البحر الهائج، يتعثرون وينهضون مذعورين، الطريق وعرة تغزوها الأشوال، والصخور البركانية المتفتتة المبعثرة الحادة تغطي الطريق، وتعيق المرور.

من داخل المغارة بدت السماء كالمِرآة تعكس مشهداً مرعباً، هو ليس فلماً سينمائياً، وليس محضاً من الخيال القصصي، الظلمة تغمر المكان، وكأن الناس معلقون على لوحة جدارية، تبدو وجوههم كالأشباح كلما اشتعلت النار بالسماء، لا أحد يجرؤ أن يضيء المكان كي لا تكشفه الطائرات، الدخان لا يكاد يُرىَ من العتمة، لكنه يفسدُ الهواء، فتضيق الصدور، وترتفع أصوات السعال والشهيق، بعض المسنين أصمتهم السعال ، الحشرات تخرج من بين شقوق الصخور مذعورةً، فيزداد الأطفال رعباً، ومنهم صمت صوته أبداً، ليلةٌ صاخبةٌ ومدينةٌ تحترقُ ، أعمدة الدخان تتكاثف وتزداد، والمغارة تتسع رويداً رويداً حتى أصبحت بحجم هذا العالم الحزين

3- الغارة جوية

يتذكر بيته الذي يطل على أجرافٍ تنحدر غرباً إلى شواطئ بحيرة طبريا ، وأن هواءً بارداً يصعد إلى داره حاملاً رطوبة البحيرة التي تشبه صحناً من فضةٍ تحفه الجبال الخضر من كل جانبٍ، وفي ليلة خيم الخوف على بلدته ،سمع من نافذة غرفته المطلة على الشارع أقوالاً متلاطمةً تخبرُ بأن اليهود قادمون، ويجب أن يغادر الناس بيوتهم مسرعين، ثرثراتٌ في الشارع وصافرات الإنذار تزعق كما لو كان يوم الحشر، ذعرٌ مباغتٌ، يفاجئ الناس ،اتجه نحو فسحة الدار يسربله الذهول، منكمشاً على نفسه، يحدق حوله بعينيين محمرتين، شيع داره بنظرات حزينة ، رفع رأسه عالياً نحو السماء وقد هجرها القمر، أشعل قناديل روحه، استطلع جميع ملامح داره، وغَرَفَ بعينيه من خضرة أشجار الزيتون التي تحيط الدار غَرّفَةً، ثم فرد ذراعيه على أقصى مدى فصارت أجنحة، وتطاولت رويداً رويداً، حتى احتضن الدار والعيال والأشجار وأراجيح الصغار، وزهور الحديقة، وصولاً إلى المدخل الرئيسي وضم أجنحته محتضناً تاريخه ثم غاب بين عتمة الليل، ودخان الطائرات، وغبار الذكريات.



فـي الطّريق إلى بيتِنا .. ربيــعٌ عَـبَـر

عمر المزعل

شاعر نازح من الجولان، كتب ونشر بعض الشعر والقصة في ثمانينات القرن الماضي، وهذه قصيدة رثاء لولده الدّكتور قتيبة عمر المزعل شهيد الثّورة السوريّة.

(1)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

هنا بيتُنا يا حبيبي

وأمُّكَ تُحصي الفناجينَ

أربعةً

خمسةً

ستّةً

وتسكبُ شايَ الصباحِ

لِمَنْ سافروا ..

لِمَنْ ركبوا الريحَ

مَنْ غادروا ..

غادرونا

ولم يبرحوا القلبْ

فقد صارَ موطنَهم أبدا

(2)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

أراكَ هنا .. يا حبيبي !

أراكَ هنا تدخلُ البيتَ ..

تُلقي السلامْ ..

وأمُّكَ تَسقي الحمامْ ..

أراكَ هنا ..

أرى بردى

أراكَ .. كنهرٍ مِنَ الحبِّ

أراكَ هنا .. لا أرى أحدا

(3)

أرى إخوةً لكَ يا ولدي! ..

شربوا شايَهمْ

غادروا وقتَهمْ

يعبرونَ الطّريقَ لأحلامِهمْ

يركبونَ الخطرْ

(4)

أرى إخوةً لكَ يا ولدي! ..

شربوا شايَهمْ

في مساءاتِهمْ

سافروا

نثروا

ذكرياتِهمُ في الطّريق إلى بيتِنا

وعذاباتِهمْ

والصّورْ

(5)

أرى أمَّكَ الآنَ تفتحُ (ألبومَها)

تعانقُ كلَّ الصورْ

أرى أمَّكَ الآنَ تفتحُ (ألبومَها)

يهطلُ الدّمعُ من عينِها

والنّدى والمطرْ

أرى أمَّكَ الآنَ تفتحُ (ألبومَها)

تعانقُ كلَّ المآذنِ .. كلَّ الشّوارعِ ..

كلَّ الشّجرْ

فيخضرُّ بستانُ مجدِكَ في بيتِها

ويسكنُ في القلبِ منكَ

ربيعٌ عَبَرْ

ويسكنُ في القلبِ منكَ

ربيعٌ عَبَرْ

- اسطنبول 20/1/ 2014

دمُكَ الغالي .. مجدٌ كتبْتَهُ

(1)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

هنا الشّامْ

هنا الحجرُ الأسودُ

هنا ينبتُ الشّهداءْ

هنا ينبتُ الوردْ

ينادونَ هذا قتيبةُ

يعبرُ من ها هنا ساحةَ المجدْ

ينادونَ هذا قتيبةُ

من ها هنا يدخلُ المدرسةْ

ومِنْ دمِهِ الحرِّ

يسقي هنا وردةً يابسةْ

(2)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

هنا الشّامْ

هنا بيتُنا يا حبيبي الحنونْ

هنا يهطلُ الدّمعُ

يغسلُ قلبي

وينزلُ يسقطُ ورداً

على قاسيونْ

(3)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

هنا دمعةٌ شمعةْ

هنا دمعةٌ دمعةْ

هنا شمعةٌ شمعةْ

تنيرُ الطّريقَ إلى بيتِ جدّكِ

هناكَ .. بحبٍّ وروعةْ

(4)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

هنا ألفُ دمعةْ

هنا ألفُ شمعةْ

هنا ألفُ باقةِ حبٍّ

هنا ألفُ مجدٍ كتبْتَهْ

هنا ألفُ ديوانِ شعرٍ قرأْتَهْ

وألفُ روايةْ

هنا ألفُ صورةْ

هنا ألفُ ألفِ حكايةْ

(5)

قتيبةُ ! .. يا ولدي ! .. يا طبيبي ! ..

أراكَ هنا .. يا حبيبي !

أرى دمَكَ الغالي

أرى دمَكَ العالي

وأنت تربّي الحمامْ ..

تربّي الغمامْ ..

ليولدَ فجرُ الكرامةْ

أراكَ هنا .. يا حبيبي !

وأنت تربّي الحمامْ ..

تربّي الغمامْ ..

ليهطلَ عطراً

ووردا على قاسيونَ

على الشّامْ

ليهطلَ عطراً

ووردا على قاسيونَ

على الشّام

اسطنبول 24/1/ 2014

أوراق المسرح

من يبدد ظلام السجن!.. فليتقدم

عبد الناصر حسو

كاتب وناقد ومدرس سابق في المعهد العالي للفنون المسرحي.

عندما وصلت إلى سجن صيدنايا في نيسان من العام 1992، كان كل شيء قد انتهى مع بداية محاكم أمن الدولة، إلا أن أصداء النشاطات الثقافية ظلت عالقة كذكرى جميلة في الذاكرة النابضة بالحياة، وبدا الملل يعلو وجوه ساكني سجن صيدنايا، الملل ليس بالمعنى الحرفي بل بمعنى القلق والتوتر في معظم المواقف لدى السجناء كمرحلة ليست طويلة مع البدء بتحويل ملف المعتقلين إلى محكمة أمن الدولة سيّئة الصيت، ومع وصولنا (كنا مجموعة معتقلين)، ناصب البعض العداء لنا ليس لشيء إنما كانوا قد حزموا أمتعتهم بانتظار اطلاق سراحهم بطريقة ما، ووصولنا كان فأل غير جيد بالنسبة لهم. كانت تعقد جلسة مناقشات طويلة لمجرد تسريب خبر من الخارج يتعلق بوضع المعتقلين وإحالتهم إلى محاكم أمن الدولة، والافراج عن المعتقلين، وزيارة لجان الدفاع عن المعتقلين، وعن حقوق الإنسان إلى السجون السورية وربطها هذه الاخبار بمفهوم الديمقراطيات في البلدان العربية.

خلال أقل من اسبوع، أحضر بدر زكريا (المتفائل دائماً) مسرحية (معجزة عادية)( ) لي بهدف العمل عليها في السجن كوني القادم الجديد (كنت قد تخرجت من قسم النقد للتو)، أراد بدر زكريا أن يستأنف العروض المسرحية، او ربما كانت لديه رغبة لمعرفة إلى أين وصلت تجربته المسرحية في

السجن!. كنا نجتمع في المهجع الاول ونناقش النص ساعات (بدر زكريا، أيمن قاroوط، وأنا) لم يدم الأمر اسبوعاً، ثم توقفنا إلى غير رجعة. أنا لم أشارك ولم أشاهد عروضاً مسرحية في السجن، لكن سمعت عنها الكثير، رواها لي كل من كان يمشي معي بمتعة، خاصة جمال رضوان الذي يملك خاصية الحكي، وكأن العرض يجري أمامه، لكنني شاهدت روح التعاون والمشاركة في بعض الفعاليات الاخرى كالاحتفال بعيد ميلاد أحدهم أو رأس السنة أو العزف على العود مع أسعد شلاش وعبد الرحمن يونس وكسرى كردي بشكل فردي لكل واحد أو معرض فني تشكيلي في نهاية الجناح، لم يمض على وجودي عدة أشهر حتى استلمت مكتبة الجناح الثقافية.

جرى الحديث عن تجارب مسرحية داخل السجون من وجهة نظر المتلقي بهدف البحث عن مواقع جديدة لم يرتادها الجمهور من قبل في سياق نظريات التجريب أو محاولات الخروج عن العلبة الايطالية وخلع الأثواب البالية والمثقلة عن العرض، بطبيعة الحال هي تجارب مثيرة للاهتمام والدهشة لدى البعض، خاصة إذا كان فضاء اللعب سجناً، لدرجة أن إدارة المهرجان الدولي لأيام قرطاج المسرحية والسينمائية في إطار فعاليات الدورة 20، في كانون الاول 2018. اختارت أن تقدم بالشراكة مع الادارة العامة للسجون والاصلاح في تونس، بعض عروضها داخل السجن للسجناء (غير سياسيين) والأهالي بموافقة إدارة السجن لهدف تربوي من خلال وجهة نظر ادارة السجن وبمشاركة 40 ممثلاً سجيناً. قدمت الإدارة خمسة عروض مسرحية أبطالها من السجناء، كمسار إصلاحي جديد يعطي السجين حقه في حياة ثقافية واجتماعية على اعتباره مواطناً فقدَ حريته، لكنْ له حقوق إنسانية كاملة.

قبل سنوات، وتحديداً في عام 2009، قدم سجناء حلب المركزي في سورية مسرحية (صرخة أم) بمناسبة عيد الأم، من إخراج وتمثيل السجناء القضائيين (غير سياسيين) أنفسهم، بحضور مدير السجن والفنان عمر حجو، انتهى العرض بجملة (والله ندمان) كما في برنامج علاء الدين الايوبي، استحسن السجناء فيما بعد تجربة المسرح، وقدموا عروضاً بموافقة وزارة الداخلية ومدير السجن، وبدأت الفرقة (تختار النصوص المسرحية الهادفة وأعضاؤها من النزلاء وكذلك مخرجوها وفنيوها وتجري هذه الفرقة بروفاتها المسرحية بشكل مستمر، وكل عرض مسرحي تقدمها الفرقة يشكل إبداعاً مسرحياً متكاملاً) يدخل في اطار الاصلاح والتربية.

قد يجد الباحث تجارب أخرى متشابهة ومتقاربة من حيث البحث عن أماكن جديدة للعرض في أوروبا وفي الوطن العربي تثير خيال المخرج أولاً، ثم خيال الممثلين والجمهور، أماكن خارج العلبة الايطالية في التاريخ المسرحي حول العروض المسرحية في السجون، ولهذه التجارب ميزتها وفرادتها، رغم أن السجون العراقية كانت من أولى السجون في الوطن العربي التي شهدت عروضاً مسرحية متكاملة فنياً وتقنياً في خمسينيات القرن العشرين، قدمتها مجموعة معتقلين سياسيين من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي بموافقة إدارة السجون، (يذكر لطيف حسن، كان يُخصص شهرياً ثلاثون ديناراً من مالية السجناء الحزبية في (سجن الكوت)، تحت باب (صرفيات الندوات والنشاط المسرحي... كان السجناء يحصلون على أدوات الماكياج، والإكسسوارات المسرحية عن طريق ذويهم أثناء الزيارات الشهرية، وكانوا يعدّون بأنفسهم الملابس الخاصة بالمسرحية عادة، أو يكلفون خياط السجن بذلك، وينجزون

أيضاً الديكور بمعاونة نجار السجن، مثل مسرحية: (المفتش العام) ومسرحية (بزوغ القمر)، في سجن الكوت في العام 1953، وذلك قبل ان تُعرض هاتان المسرحيتان خارج السجن بعشر سنوات تقريباً، بالإضافة الى مسرحيات يوسف العاني وشهاب القصب الانتقادية الساخرة ذات الفصل الواحد، كان المتفرجون أيضاً معتقلون سياسيون، إضافة الى شرطة السجن، ويحضرها في أحيان كثيرة مدير السجن نفسه)( )، كانت العروض تندرج في سياق التثقيف الفكري والوعي الاجتماعي الثوري كالتزام ايديولوجي، بمعنى عروض ملتزمة بخط ايديولوجي للحزب الشيوعي. كما تمكن السجناء الشيوعيون من كسب العديد من أفراد السجانين الى جانبهم فيما بعد واستفادوا من خدمات كبيرة قدمها لهم السجانون.

تختلف تجربة المسرح داخل السجون في سورية تماماً عن سابقاتها في البلدان العربية، من حيث الأهداف والوسائل والنتائج، ما جعلها مغامرة جنونية غير محسومة العواقب، تعاقب عليها المجموعة الفنية عقاباً شديداً في حال اكتشافها من قبل إدارة السجن، التي كانت تمنع أي نشاط صغير داخل السجن، فكيف بالنشاط المسرحي المعتمد أساساً على مجموعة جهود (تعاونية) مبدعة!، وتأتي ميّزتها من أن جميع المشاركين الممثل والمخرج والمؤلف والجمهور معتقلين، (الجمهور مشارك فعّال في الدراسات المسرحية الحديثة) في التجربة، هم معتقلون سياسيون دون محاكمات، أوقفوا عرفياً، والميّزة الأخرى أن جميع المشاركين في العروض لم يمارسوا مهنة المسرح في الخارج، بل البعض منهم لم يشاهد عرضاً مسرحياً من قبل، لذا كان عليهم أن يبذلوا جهداً مضاعفاً للقيام بعمل كهذا. (من الصعب على المرء

أن يتخيّل أن صناعة مسرح في السجن (السوري) أمر عادي أو بسيط أو ممكن، لقد تمّ كل شيء في الخفاء عن عيون السجّان الذي كان يسكن في عقولنا في أثناء إعداد كل تفاصيل القصّة من النص إلى الديكور والملابس والإضاءة والماكياج والكواليس، وتقسيم (المهجع/ المسرح) إلى منصّة وصالة. كل شيء يجب أن يكون معداً بدقة وذكاء بحيث يمكن إخفاؤه أو تدويره إلى شيء لا يثير شكوك السجّان، وإلا كانت العواقب وخيمة، إذ علينا حينئذ أن نستعدَّ لأيامٍ لا تنتهي من عذاب الزنزانات، في كل يوم ثلاث حفلات دولاب)( ). لا يمكن لأحد التكهن بها

بداية، جميع المشاركين في هذه التجربة يدركون أنها ستنتهي يوماً ما، ستنتهي في حال الخروج الجماعي، عفو عام أو إجراء محاكمة عادلة، وحظوظ استمراريتها لم تكن كبيرة إلا في حال بقي البعض منهم في السجن، لذلك كانت التجربة بحد ذاتها تأكيد على الحضور الفاعل لهذه المجموعة في تلك الفترة، لكن الخوف من أن تُجهض التجربة في أية لحظة من قبل ادارة السجن. أخيراً انتهت، (ستة عروض مسرحية، تمّ إخراجها وتقديمها خلال ثلاث سنوات (1988–1990)، منها (اللجنة) عن رواية صنع الله إبراهيم، و(موت فوضوي صدفة) لداريو فو، و(البيت الذي شيده سويفت) و(انسوا هيروسترات) لغريغوري غورين، إضافة إلى محاولة لإخراج نص (الباب) من تأليف أحد زملائه المعتقلين وهو محمد إبراهيم.) بدر زكريا، قلمون العدد17، هل يمكن القول إنها انتهت أم أُجهضت بفعل الشائعات المتسربة من خارج السجن وتحويل المعتقلين إلى محكمة أمن الدولة؟.

لم يكتب أحد عن هذه التجارب المسرحية داخل السجون السورية، لا من باب التوثيق ولا من باب النقد ولا من باب التأريخ المسرحي، في المجلات والصحف العربية داخل وخارج سوريا ولا صحف المعارضة السياسية آنذاك بما في ذلك صحيفة حزب العمل الشيوعي باعتبار أن النشاط لأعضاء حزب العمل، ولا حتى الصحفيين الذين كانوا يزورن ذويهم في السجن بطريقة يحتال على الرقابة المتشددة، بحيث أن ما يجري هو في السجون الاسرائيلية، كما كتب أحد الصحفيين المرموقين عن (الاحتفال بخطوبة شاب فلسطيني سجين أثناء زيارة أهله إلى السجن في صحيفة تشرين)، رغم أن أخبار العروض كانت تتسرب إلى الخارج، ورغم أن العديد منهم خرج من السجن بعد أن توقفت التجربة، ورغم أن ثائر ديب الذي ترجم مسرحية (البيت الذي شيّده جوناثان سويفت)( )، و(كتب في إهداء الطبعة الثانية من المسرحية بعد خروجه من السجن: إلى تلك الفرقة التي أدّت هذه المسرحية على خشبة مستحيلة، دون ذكر المكان والزمان والفرقة)( )، وثائر ديب ترجم المسرحية داخل السجن وهي من اصدارات سلسلة عالم المسرح الكويتية.

الكتابة عن تجربة المسرح في السجن بعد مضي أكثر من ثلاثين عاماً كما يرى بدر زكريا الذي كان وراء التجربة من ألفها إلى يائها، عملية تتطلب وقفة تأملية ونبشاً في قاع الذاكرة، والذاكرة تتعرض لأمراض النسيان والشيخوخة دائماً رغم أنها تعيد إنتاج صورها الماضية بصيغة الحاضر، وبالتالي هي الحاضر فقط، فقد أجرت مراكز الأبحاث في أمريكا، دراسات حول الذاكرة والتذكّر بعد انهيار البرجين العالميين، التقت بعدة أشخاص كانوا شهود عيان على الحادثة مرات متتالية على مدى سنوات كلما حانت المناسبة، كانت

النتيجة مذهلة، حيث وصلت نسبة التغيير في الحقائق إلى 50 % بعد مرور خمس سنوات على وقوع الحادثة. كلما ابتعد المرء على التجربة المسرحية، ضاعت التفاصيل، وما يمكن تذكّره، الرغبات وليس الحقائق، رغم ذلك كانت تجربة مثيرة للاهتمام، تتطلب الكتابة عنها.

يرى بدر زكريا أنه على الرغم من بعض محاولات متفرقة هنا وهناك، للكتابة عن التجربة ورغم بدء العمل منذ عام 2014 على مشروع يهتم بتجربة مسرح سجن صيدنايا (المسرح داخل السجن) من وجهة نظر نقديّة قبل أن تكون تأريخية، بوصفها جزءاً من تاريخ المسرح السوري، على راهن ظروفها وشروطها الخاصة جداً، الذي بدأها وما زال يعمل عليها، المخرج المسرحي السوري (وائل علي)، لا يمكن تقييم هذه التجربة من الناحية النقدية، هذا اجحاف بحقها، وبحق من مارسها نظراً للظروف الانتاجية التي نشأت فيها والسياق الثقافي والأمني الذي كان يهددها في كل لحظة، لذا يمكن القول إن الاهتمام بها من الناحية التاريخية نظراً لخصوصيتها هو الاهتمام بالذاكرة التي تقاوم النسيان.

بدأ الكاتب مالك داغستاني، بفتح نافذة يسلّط من خلالها شعاع ضوءٍ على تلك التجربة التي غمرها غبار أكثر من ربع قرن من التناسي خلف ظهر كثير من همومنا، السياسي منها والاجتماعي وربما الوجودي (أستطيعُ الادعاء الآن دون الخوف من أن يتهمني أحد بالمبالغة، أن هذه التجربة لا يمكن أن تكون قد حدثت بهذا الشكل المتميز في أي مكان مشابه من العالم. ويوماً ما، سيكون من الإجحاف الكتابة عن تاريخ المسرح السوري دون أن تحتل هذه التجربة الاستثنائية الحيز الذي تستحقه، ليس فقط كمحطة تمتلك

من الخصوصية ما يجعلها تجربة إنسانية وجمالية وإبداعية لا تشبهُ ما يمكن أن يُقارنَ بها، بل بصفتها المجردة كتجربة مسرحية سورية، من الواجب (إنصافاً للمسرح السوري) أن تتبوأ موقعها المستحق بجدارة ضمن التجارب المسرحية السورية المميزة)( ).

إلّا أنه من الحق أن نذكر مشاريع طموحة في الكتابة حول تجارب مسرحية داخل السجن، كانت تُعَدُّ قبل وأثناء ذلك، كمشروع المخرج المسرحي غسان الجباعي( )، الذي أصدر مؤخراً كتاباً بعنوان (المسرح في حضرة العتمة)( ) الذي خاض غمارها بنفسه عام 1990 كتجربة أولى له بعد تخرجه، مع مجموعة من الشباب المتحمّس لمشروع مسرحي لم يكتمل (العنبر رقم 6) لأنطون تشيخوف، يسجل الكتاب شهادات عن تجارب مسرحية في سجون سورية، ممن كان يعمل في التجربة (علي الكردي، بدر زكريا، وجدان ناصيف، هند قهوجي)، أربع شهادات تحتل هذه مساحة هامة في الجزء الثاني من الكتاب.

تجربة المعتقلات في سجن دوما

جرت تجارب أخرى في السجون السورية كتجربة معتقلات سجن دوما (شهادة هند قهوجي – وجدان ناصيف)، وهي تجربة مسرحية بغض النظر عن تصنيفاتها إن كانت تجربة نسائية أو رجالية، فهي تجربة تنتمي إلى المسرح، وإن لم تكن كاملة العناصر بالمعنى الحديث للمسرح، ألم تقدم الفرق والأندية الفنية في فترة الاحتلال الفرنسي عروض فنية تتضمن فقرات غنائية وراقصة

ومونولوج كوميدي أقرب إلى التهريج، فاعتبرها نقاد المسرح في الوطن العربي، مسرحاً.

قدمت وجدان ناصيف شهادتها حول النشاطات المسرحية التي شاركت فيها، خاصة بمناسبة الأعياد الثلاث التي شكلت حيزاً مهماً في حياتهن، تقول: (خلال أربع سنوات كنا نقدم ثلاث حفلات سنوياً على الأقل، عيد الأم، عيد العمال العالمي، عيد الحزب في آب. كانت احتفالية عيد الحزب خاصة وسرية، وكنا نقدم اسكتشات مسرحية قصيرة غالباً، نكون وحدنا الجمهور، كانت تحتوي رسائل نقدية ساخرة أو تحمل رسالة سياسية، وفي عيد الام نحضر حفلة كاملة تتكون من مشهد مسرحي وغنائي فردي وغناء كورال)( ) ونشاطات ثقافية وفنية عديدة.

لعل العمل الأكثر إثارة وجدلاً بين المعتقلات في السجن، هو (حورية البحر) لـ هنريك ابسن، خاصة امتعاضهن للنهاية غير المتوقعة، رغم الجدل، كانت تجربة جديدة بحيث أثار اهتمام جميع المعتقلات بما فيهنّ القضائيات. واشتط الخيال في سجن دوما وحلّق باحثاً عن أماكن الفرح، فكتبت رماح بوبو وناهد بدوية مسرحية شعرية، بينما أم فدوى (قضائية) كتبت حوارية كوميدية أشاعت جو الضحك والفرح في السجن.

لم تكن تجربة مسرح سجن صيدنا بجديدة، فقد تحدّث الرواة عن تجارب كثيرة سابقة، في سجون عديدة، أمّا ما ميّز هذه التجربة- بحسب الذين عاصروا التجربتين، وهم كثر- بأنها حاولت قدر المستطاع، ولأول مرّة، أن تكون مكتملة العناصر (كان الصديق بدر زكريا على الرغم من كونه هاوياً وليس

محترفاً، هو أول من بادر في هذا المجال، ربما بسبب طبيعته الشخصية الأكثر تفاؤلاً أو ربما لأنه ليس مكبلاً بعبء الأكاديمية، كانت فكرة المسرح حينما اقترحها، تعد فكرة مجنونة، لاسيما يفكر بعرض مسرحي كامل، توفير كل عناصر العرض المسرحي)( )، تحولت مهاجع السجن الى مدارس للفكر والثقافة والمناقشات بعد التجربة الاولى. بدا المعتقلون يعيشون جواً مسرحياً حقيقياً، أو هكذا أراد رئيس الفرقة المسرحية أن يعيش هو وجمهوره أجواء عرض مسرحي، فصنع تذاكر الدخول بأرقام، (أثناء الدخول لحضور عرض سويفت كان كل فرد من الجمهور يحمل بيده قصاصةً من الورق عليها بعض الكتابات وما يشبه الختم لتبدو كتذاكر دخول المسرح، مع وجود أحد أعضاء الفرقة على الباب ليتسلم التذاكر ويتأكد من صحتها. «أبو زياد. ما هذه الأوراق التي تحمل ختماً أيها المجنون؟»، سألتُ بدر. (إنها تذاكر الدخول من أجل تحديد العدد اليومي للحضور، ومن أجل تلافي أي فوضى، أما الختم الذي صنعناه من الخشب فهو للتأكد من البطاقة ولعدم حدوث أي خلل.. في ندوة تالية للعرض سيذهب محمد ابراهيم أبعد من ذلك: «لقد أحسست وأنا أمسك بالبطاقة أنني فعلاً على باب مسرح، وأن صديقتي كانت ستصل بعد قليل، لندخل ونشاهد المسرحية معاً)( ).

كتب الكاتب والصحافي، وائل السواح على صفحته في الفيسبوك: على أن تاج اختراعاتنا كان إعادة إنتاج المسرح. الفكرة بدأت، في فرع التحقيق العسكري، عندما حدّثت الرفاق مرّة عن مسرحيات شاهدتها، أو شاركت فيها أو كتبت عنها، ثم جاءت فكرة أن نقدّم عملاً مسرحيا، في المهجع. بدت

الفكرة مجنونة بحد ذاتها. فأنت تريد تقديم عمل مسرحي، بدون نص ولا ديكور ولا مكياج ولا منصّة ولا مكان للتدريب.

يقول وائل السواح في موقع آخر: (بعدها كرّت السبحة. قدّمنا عدداً كبيراً من المشاهد المسرحية الضاحكة منها الفيل ياملك الزمان، كوميديا عطيل، أعددته عن النص نفسه، حوّلت فيه تراجيديا شكسبير إلى ملهاة.. كان الوضع في صيدنايا أفضل بما لا يقاس. في أيدينا ملابس وأقمشة وألوان للمكياج وعلب كرتون للديكور وقد أخذنا مهجعاً كاملاً للبروفات والعروض..).

قد يكون الأمر مغامرة بالنسبة لمجموعة شبان متحمسين ربما، أو يرغبون تبديد ظلام السجن بإضاءة عتماته، غير محسوبة العواقب. ليست لدى الباحث معلومات عن عروض مسرحية قُدمت في السجون، خاصة في السجون السورية، قد تكون هذه أول تجربة مسرحية من داخل سجن صيدنايا في منتصف ثمانينيات القرن العشرين. المدهش أنّنا في فضاءات السجن (نكتشف أن حاجتنا لإعطاء الحنان هي أكثر من حاجتنا لتلقيه من الآخرين) المانح للحنان، يمنح السعادة والفرحة لجميع أصدقائه، لذلك اجتمعت ارادة مجموعة من الشباب داخل السجن بتقديم عرض مسرحي كوسيلة للخروج فعلاً من الألم والعزلة، هي وسيلة سياسية، ترفيهية، اجتماعية معناها الالتقاء والمشاركة مع الاخرين في نشاط ما، والوصول إلى الوعي لتغيير الواقع الذي تعيش فيه المجموعة داخل السجن. حيث الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة، بالأشياء التي قد تكون تافهة خارج السجن، لكنها تجذب اهتمام الاخرين، وبالتالي يركز السجين تفكيره بها. هل كانت المجموعة تمارس التطهير بالمعنى الارسطي في التجربة المسرحية أم بالمعنى البريختي أم أنه تدريب على الاستمرارية في الحياة، أم كانوا يواجهون مصيرهم بقتل الوقت؟. يختلف العرض المسرحي عن النشاطات الاخرى الفردية كالرسم والشعر والكتابة،

المسرح مؤسسة تعاونية، تعتمد على جهود مجموعة كبيرة تتفاعل فيما بينها وبين المعتقلين الآخرين، تمنحهم فرصة التعايش والديمومة، هذا هو المطلوب في جو ثقافي اجتماعي معزول نوعاً ما.

سأصنع مسرحاً... أشرقت روحي المُحبَطة من هول الشعور بالهزيمة.. رأيت الألوان من جديد. وانتشرت أخبار العرض إلى باقي أقسام السجن، وطالب المعتقلون بحقهم في المشاهدة. بحقهم! ياللغرابة، معتقل سياسي في سجن صيدنايا العسكري يطالب بحقه في مشاهدة عرض مسرحي؟، كان الأمر عظيماً، هذا الحق، جعلت المجموعة أن تستمر وتقدم الأفضل باعتبار أن هناك واقع جديد، لم يألفه الذين يعيشون خارج السجن. للمناسبة كان جمهور باريس يطالب بحقهم في مشاهدة عروض بيتر بروك أيضاً.

حوّل المعتقلون السجن إلى مدرسة للتثقيف، إلى مركز ثقافي لتبادل النقاشات الحادة لدرجة الخصومة المؤقتة أحياناً، لقد تجمعت في السجن مكتبة كبيرة ومتنوعة بالكتب، حتى الممنوعة أيضاً من دخولها إلى سورية، كمثال، رواية (آيات شيطانية) بترجمتها العربية.

لا شك أن لكل زنزانة مسرح من نوعٍ ما، ابتداءً من السيناريوهات المفترضة قبل حفلات جلسات التحقيق، كأن يستحضر المعتقلون المحقق أو مجموعة منهم، ثم ما يلبث أن يَنشأ حواراً منمقاً يحبكه المعتقلون بناء على رغباتهم وأحلامهم، باختصار القول من روايات يخالها مقنعة.. يبني فيها أماكن وديكورات مع إكسسوار، ربما تحضر بعض السيمفونيات، كانت الشخصيات معتقلون، رفاق في الحزب، أصدقاء الحزب، ينتظر الأهل في الخارج، أمام لجنة من جلادين يُنهون العرض بحفلة تعذيب تُنسي المعتقل كل ما نسجه خياله الخصب من مشاهد، لتعود الكرّة من جديد.

من مسرح إيماتا الروماني في الحمة
إلى سينما دنيا والأندلس في القنيطرة

مروان عبد الرحيم

طبيب أسنان ومهتم بحياة الجولان الثقافية ومن أبناء القنيطرة

تبعت الحمة السورية في العصر الروماني البيزنطي لجدارة "أم قيس أو الحمة الأردنية"، والتي كانت ضمن تحالف المدن العشرة (الديكابوليس)، ويعود أول استيطان بشري في الحمة إلى خمسة آلاف عام، ووجدت فيها بقايا تعود للعصر الحجري والبيزنطي، وكانت تتمتع بأهمية كبرى في حماماتها وينابيعها المعدنية الساخنة، وتحتل المرتبة الثانية في القيمة الطبية والصحية، بعد حمامات نابولي بالعصر الروماني البيزنطي، كما رممها معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول.

ضمّت الحمة السورية والتي تعرف يحمة جادير، بالعصر الروماني البيزنطي معالم رئيسة، منها تل صناعي وآخر طبيعي، إضافة إلى مسرح وكنيسة ومجمع حمامات وأحياء سكنية وشوارع وأعمدة تعلوها تيجان، إلى جانب مسيلين ينتهيان إلى نهر اليرموك، وقد وجد المهندس غوتليب شوماخر حين زار الموقع أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، بقايا المعالم الصناعية، ورسم مخطط للموقع، أوضح فيه المعالم الطبيعية وبعض المعالم الصناعية، وأكد فيه أن الموقع كان مأهولاً بالسكان والزوار.

مسرح الحمة (مسرح إيماتا):

شهدت الحمة حركة ثقافية نشطة، منذ العصر الهلينستي، وقد عثر في الموقع على بقايا مسرح، يشهد على مدى الاهتمام بالمسألة الثقافية والترفيه في تلك العصور القديمة، وبني في الجانب الشمالي الشرقي لتل صناعي يقع شمال شرق مجمع القاعات/ الحمامات، وهو مسرح لافت للنظر بحجمه وسعته، رغم أنّه يُعد مسرح أوديون أو من نمط المسارح الرومانية الصغيرة، إذ يتألف مدرجه من 15 صفاً من المقاعد بقي منه 11، في شكل نصف دائرة يبلغ قطرها 30 متراً، ويرتفع الصف العلوي للمدرج عن حلبة المسرح بنحو 6.60 متراً، ويضم حلبة دائرية كانت مخصصة للأوركسترا التي كانت جزءاً من الدراما اليونانية، والتي فقدت جزءاً من دورها في العصر الروماني، حتى ألغيت لاحقاً، ويضم كذلك منبراً يبلغ طوله 30 متراً، وعرضه 6 أمتار، إضافة إلى ملحقات المسرح، منها بناء قوي ذو أقواس وأعمدة وتيجان أعمدة.

مقاعد المسرح من الحجر البازلتي، وهي مقاعد مريحة إذ يبلغ ارتفاع المقعد 45 سم، وعرضه 76.25 م، وهناك مقاعد مميزة بالمساند، ويُعتقد أنها كانت مخصصة للأثرياء والوجهاء، ولا يزال يقوم في الموقع مبنى قديم مع ثلاث قناطر، وإلى جواره مبنى مقنطر آخر، ويشار إلى أن هذا المسرح كان يستوعب-جلوساً- ما بين 1500 و2000 شخص.

سمي مسرح الحمة السورية بمسرح إيماثا أو مسرح إيماتا، وقد وجدت العديد من النقوش المكتوبة باليونانية، التي تخلد الأشخاص الذين كرسوا أنفسهم لخدمة مسرح إيماتا بعد تماثلهم للشفاء في حمامات الحمة الصحية. نذكر

منهم الفنانون هيورتاسيوس وتيغرانوس قدموا الفن والتمثيل الصامت، والراقصة كالاموليس، وعازف الناي نيكاسيوس.

وفي نقش كتب عليه: " في هذا المكان المقدس والفني لكليبانوس ... فكر في التمثيل الصامت لكل من ناسيوس وكل من يحبونه، وإخوته داغالييفوس وكاليونيستوس".

وفي آخر كتب: "في هذا المكان المقدس، تذكر عازف الفلوت تيغرانيس، وزوجته توماسيا وطفليهما أوسيبيا وكوسماس، وصديقيهما كوسماس وغينايدوس."

ونقش: "أوفيميا، الممثلة".

سينما الأندلس والدنيا والسينما العسكرية المتنقلة في مدينة القنيطرة:

هناك مثل في الجولان يقول: "راح دورك يا ابو رغيف"، وهو يتحدث عن قصة رجل كان يدور في قرى الجولان ويحمل معه صندوق الدنيا، وكان تلامذة المدارس يستمتعون برؤية هذا الصندوق مقابل قروش قليلة في تلك الأيام، وذات مرة جاع صاحب صندوق الدنيا، وكان تلامذة الجولان يحملون معهم زوادتهم إذ كانت المدارس بعيدة مثل أرغفة الصاج الساخنة، فتصادف جوع صاحب الصندوق بمرور أولئك التلامذة وأصبح يتشمم رائحة ذاك الرغيف الساخن فطلب من صاحب الرغيف التازة أن يشاهد صندوق الدنيا مقابل رغيفه، وبالفعل كانت فرحة الطفل لا توصف، وبعد أن شبع طلب المشاهدة مرة أخرى. فأجابه صاحب الصندوق "راح دورك يا ابو رغيف"

وانتشر مثلاً شعبياً في الجولان وكلما تزحزح رئيس سوري استخدم أبناء الجولان ذاك المثل.

الجميل في الحكاية أن الجولان لم ينقطع عن الثقافة ولا تغير عروض المسرح وصولاً للسينما بدليل حكاية صندوق الدنيا، وهناك من تذكر عروض كراكوظ وعيواظ وعروض الحاوي كملاعبيّ النسناس والدببة، وحتى الرقصات الشركسية والدبكات الشعبية وحكايات الزير سالم وعنترة والملك الظاهر، ورقصة السيف لدى البدو في الجولان، إذ كانوا يلبسون أحد الرجال لباس المرأة ليقوم بأداء تلك الرقصة الخاصة بالنساء في الأصل. وعروض الخيول أيام الأعياد الدينية والوطنية والكرنفالات.

وفي عام 1960 أفتتح المشير عبد الحكيم عامر نيابة عن جمال عبد الناصر سينما "الأندلس" التي تقع في الجهة الغربية لمدينة "القنيطرة" على طريق قرية "المنصورة"، والتي كانت تعد من أفضل دور السينما في المنطقة، حيث وصل عدد الأفلام المعروضة فيها قبل عدوان حزيران عام 1967 إلى ما يزيد عن 300 فيلم.

تربعت هذه السينما على مساحة كبيرة من الأرض في القسم الغربي من مدينة "القنيطرة"، وإلى جانبها نادي "الضباط" الذي دشن بتلك الفترة أيضاً، وهذه السينما تتألف من طابقين اثنين شيدت على الطريقة الهندسية الحديثة، إذ تتسع لما يزيد عن 700 زائر، ومزودة بتقنيات التبريد والتدفئة وفق حالة الطقس، وكان يقدم بها الكثير من الأنشطة الثقافية، بالإضافة إلى العروض السينمائية والمسرحية المختلفة، كما كانت تُشكل لأهل المدينة وضيوفها

مساحة من الراحة والاستجمام؛ لاسيما في نهاية كل أسبوع، إذ كان روادها من الطبقة المثقفة ورواد من كافة قرى الجولان ودمشق ودرعا والسويداء.

وإضافة لسينما الأندلس كانت هناك سينما الدنيا وهناك صورة شهيرة لحضور فيلم "حكاية حب" لعبد الحليم حافظ في سينما الدنيا عام 1959 بحضور قيادة وضباط الجبهة.

وهناك من يتذكر فيلم عنترة بن شداد الذي عرض بسينما الدنيا عام 1965، وبالألوان واستمر عرضه شهراً، وفيلم ماسح الأحذية الهندي الشهير الذي يعد أحد أهم كلاسيكيات السينما الواقعية الهندية.

كما كانت الفرقة الفنية للجمعية الخيرية الشركسية تقدم الرقص الشركسي بالمناسبات الوطنية، ومن أبرز الراقصين وليد أباظة وشكيب ذولكفل وممدوح قازنج وخالد البيزو في سينما الأندلس وكانت آخر هذه الحفلات في نيسان 1967، وهناك من يستمتع بحضور أفلام اسماعيل يس وسانتو المصارع المقنع. عدا أنها كانت تصدح بأغاني عبد الحليم وأم كلثوم لتنصت لها القنيطرة وحتى أبناء قرية المنصورة المجاورة كان يصلهم الصوت ليطربوا بتلك الأغاني الخالدة.

كما كانت في القنيطرة سينما عسكرية متنقلة للدعاية الحربية والسياسية، وآخر أخبار الجبهة في الجولان.

تاريخ المسرح في القنيطرة

عبد الحميد خليفة

ناقد مسرحي.

اعتباراً من عام 1871 تعرف السوريون على يد أحمد أبو خليل القباني، الذي يُعتبر المؤسس الحقيقي للمسرح السوري، وبالتالي تتوالى التجارب والمحاولات لتنتقل من دمشق إلى باقي المحافظات السورية. وتنتشر التجربة رويداً رويداً، حيث بدأ الشعراء والكُتّاب بكتابة نصوص مسرحية على السياق الذي عرفوا المسرح به، وهو السياق الشعري ومنذ ذلك التاريخ بدأت أيضاً فكرة تأسيس الفرق المسرحية وانتشارها في المحافظات السورية كما ذكرنا ومنها إقليم الجولان وعلى الأخص عاصمته القنيطرة، ورغم شُحّ وقلة المعلومات المتوفرة التي تدل على انتشار المسرح في الجولان قبل عام 1967، إلا أنّ المعلومات المتناثرة كانت تدلّ على وجود حركة ثقافية متنوعة، وكان الفنّ أحد أشكال التعبير في الجولان، وعلى الأخص السينما حيث كانت هناك صالتين مخصصتين لعرض الأفلام في القنيطرة، واحدة خاصة وواحدة عامة، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على نشوء حراك ثقافي وتقبّل من أهالي المنطقة للفنون عموماً ولفن البصر خصوصاً.

"النفير" أول مسرحية مكتوبة في الجولان

وخلال البحث في المراجع لا نجد إلا إشارات قليلة تدل على بعض العاملين في هذا المجال من بينهم الشاعر المرحوم عبد الرحمن جبر الخالدي، وتشير

المراجع إلى أنّه كتب مسرحية "النفير" وتمت طباعتها ونشرها، وهنا يتم التأكيد على أن مثقفي الجولان كانوا على اطلاع ومعرفة بفن المسرح وبطرق صناعته وإبداعه وقد حاولوا أن يجاروا نصوصاً ويصنعوا نصوصاً تشبه ما تعرفوا عليه من نصوص أجنبية.

قسمي مسرح الجولان بعد 1967 وتأسيس مسرح عمال القنيطرة:

إلا أن المشكلة تزداد هوةً وعمقاً بعد عام 1967 إثر هزيمة حزيران وانقسام الجولان إلى قسمين:

قسم بيد المحتل الإسرائيلي بحيث بقي الكثير من أبنائه متمسكين بأرضهم، ورفضوا الرحيل وبدأوا ينسجمون مع واقعهم الجديد، ويتابعون نشاطاتهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية، ولكن دون أن يصل للطرف الآخر أياً من المعلومات الموثقة حول النشاطات والأعمال المسرحية التي كانت تتم، أو أسماء الفرق المسرحية التي تأسست وأسماء الكُتّاب والمخرجين والممثلين الذين أدوا التجارب المسرحية المحلية والعالمية الأجنبية الموجودة في المنطقة.

والقسم الثاني الذي نزح وانضمّ إلى دمشق وحولها وبعض المحافظات السورية مثل ريف دمشق ودرعا والقنيطرة وحمص، حيث نشأت حركة فنية مسرحية مميزة تنوعت بتنوع الجهات المشرفة والمنظمة. فتأسست فرق مسرحية للعمال لأن اتحاد العمال في سوريا كان قد أقرّ إقامة مهرجان مسرحي سنوياً مركزياً في دمشق وعلى كل الفروع أن تشارك في هذا المهرجان، فاجتمع مجموعة من الشباب المتحمسين والمحبين للمسرح والذي اطّلع على التجارب المسرحية

الأخرى في دمشق مثل المسرح القومي والجوال ومسرح اتحاد الطلبة، اجتمعوا جميعاً وبدأوا يفكرون في تأسيس فرقة مسرحية تابعة للمسرح العمالي في القنيطرة. وكانت هذه الفرقة مشكلة من قسمين: القسم الأول هم اللاجئون الفلسطينيون الذين توافدوا من فلسطين إلى دمشق، والقسم الثاني هم النازحون الذين كانوا قد حضروا من الجولان والقنيطرة إلى دمشق أيضاً.

بدايات مسرح عمال القنيطرة ونشوء فرق مسرحية أخرى:

توافد الشباب المتحمسين الذين يرغبون بتأسيس فرقة مسرحية واجتمعوا في مقر اتحاد عمال القنيطرة، حيث كان هناك مقر بسيط، وهو عبارة عن صالون شقة وبهذا الصالون بدأت أول بروفات مسرحية لشباب ينتمون إلى القنيطرة وفلسطين. وكانت هذه الفرقة "فرقة عمال القنيطرة" بإشراف الفنان الفلسطيني المخضرم زيناتي قدسية، حيث أشرف على إخراج وإعداد واقتباس مجموعة من النصوص المسرحية حوّلها إلى عروض مميزة، ونالت الاستحسان في المهرجانات العمالية حتى أن بعضها أخذ المراكز الأولى.

وكان هناك تنافس شديد بين فرقة عمال القنيطرة وفرقة عمال حمص التي كان يقودها الكاتب والمخرج المعروف فرحان بلبل، واستمر هذا التنافس إلى أن توقيف المهرجان من القيادة لأسباب سياسية لا أحد يعرف حقيقة هذه الأسباب.

إلى جانب فرقة عمال القنيطرة كان هناك أيضاً فرق أخرى هي فرقة اتحاد شبيبة الثورة وفرقة القنيطرة للشبيبة وبعض النشاطات التي كانت تتميّز بها فرقة الطلائع أيضاً.

كان الشباب قد توزعوا أيضاً وانتقلوا من فرقة عمال القنيطرة إلى هذه الفرق، وبدأوا يؤسسون ويدربون الشباب الصغار على التعلم وتعويدهم على التجارب المسرحية وكيفية صناعة العروض المسرحية.

الفنانين المؤسسين لمسرح عمال القنيطرة ودورهم في الساحة الفنية السورية:

طبعاً من بين الفنانين الذين ساهموا في إنشاء وتأسيس فرقة عمّال القنيطرة كان الفنان الفلسطيني المخضرم كما ذكرنا وصاحب التجربة الكبيرة الفنان الكبير زيناتي قدسية، والفنان التشكيلي والمسرحي في آنٍ معاً محمود خليلي، وكان أيضاً إلى جانبهم الفنان يوسف المقبل ابن الجولان الذي أصبح ممثلاً معروفاً وعلى الساحة الفنية في سوريا، وأيضاً كان إلى جانبهم الفنان الفلسطيني عبد الباري أبو الخير، الذي ساهم أيضاً في العديد من المسرحيات للفرقة وفي تأسيس فرق مسرحية أخرى مثل تأسيس فرقة القدس المسرحية، وفي النهاية كان عبد الباري قد وصل إلى مستوى مخرج في التلفزيون، وقدم مجموعة من الأعمال المميزة والمهمة أيضاً.

والفنان المبتسم دائماً والضاحك دائماً وابن الجولان الفنان جمال العلي، كان أحد أعضاء هذا الفريق وله تجربة مميزة فنية ومبدعة، في فن يحتاج أن يكون دائماً في حركة ونشاط.

إضافة لذلك كله كان الفنان كاتب هذه المادة عبد الحميد خليفة، حيث كان لي شرف المشاركة مع هذه الكوكبة من المبدعين والتعاون مسرحياً وتلفزيونياً، وساهمنا في الإخراج والتأليف أيضاً، ولي مجموعة من النصوص المسرحية

المؤلفة من بينها: جواهر الأميرة السبع، قطر الندى، والشمعة، والصديق الوفي.

وأخيراً لا يمكن أن ننسى الفنان المرحوم حاتم علي الذي تميز على الجميع بأن قدم الكتابة المسرحية، فقد كتب ثلاث مسرحيات وهي: مات ثلاث مرات عام 1996، والبارحة اليوم وغداً عام 1998، وأهل الهوى أيضاً. كما تعاون مع زيناتي قدسيا بكتابة نص مسرحي عن حصار بيروت وتم نشره بعنوان الحصار.

وأيضاً ما يميز حاتم علي رحمه الله أنّه أخرج للمسرح لفرقة المسرح العمال ومسرح الشبيبة، وتفانى بعمله إلى أن انتقل للعمل بالتلفزيون حيث أخذ التلفزيون كل وقته وسخّره له، ولم يعد يستطيع أن يوازن بين عمله وحبّه للمسرح وعمله في التلفزيون.

كما أنه رحمه الله أخرج مشاريع تخرج للمعهد العالي للفنون المسرحية، وبهذا كان لأبناء الجولان تأثير إيجابي وكبير على منجز الحركة المسرحية في سوريا من بداية الثمانينات حتى يومنا هذا.

بهذا نكون قد تصدّينا لمرحلة مر بها أبناء الجولان في تأسيس الحركة المسرحية منذ عام 1967 حتى يومنا هذا في دمشق وما حولها، ونتمنى أن نوفق في المرات القادمة في تأمين مواد كافية لنتحدث عن النشاط داخل أرض الجولان المحتل ونتحدث عن الفرق والممثلين والمخرجين والكُتّاب المسرحيين الموجودين في الداخل.

أوراق النقد

الشاعر ياكوف أورلاند ومعركة تل الفخار بين الأسطورة والواقع

من الأدب العبري في الجولان

الحقيقة، الأسطورة، الشعر

محمد زعل السلوم

شاعر وكاتب ومترجم سوري له أكثر من 18 كتابا مطبوعا بين الشعر والرواية والدراسات.

هذه الدراسة عن بحث باللغة الإنكليزية لجامعة عبرية عن شاعر اسرائيلي قضى خمس سنوات ليكتب ديوانه ضمن تفاخره وتعظيمه لملحمة تل الفخار التي سقط فيها حوالي الستين شهيد سوري مقابل 43 جندي اسرائيلي، وهي إحدى المعارك القليلة الملحمية التي خاضها جنود سوريون رفضوا قرار الانسحاب وفضلوا الموت على تسليم أرضهم، بالمقابل كان هناك إصرار من الجانب الآخر على الاحتلال، وكم تشبه هذه المعركة ملحمة ميسلون. ورغم أن الشاعر ياكوف أورلاند يعظم تلك الملحمة ويرسخها في الأدب العبري وتعد تحول فيه، إلا أن من قام برسومات الديوان عبر عن خيبته ومستوى التشوه الملحمي المزعوم لدى الشاعر فيراه عبثي بلا جدوى وأن الضحية سواء كانت سورية أو اسرائيلية فهي واحدة، وأنهم مجرد ضحايا لحرب أخرى في الصراع العربي الإسرائيلي.

مناقشة التكوين الشعري الضخم الذي كتبه ياكوف أورلاند على أساس بحث تاريخي مكثف في واحدة من أكثر الأحداث دموية وأكثرها إثارة للقلق في

حرب الأيام الستة – معركة تل الفخار في هضبة الجولان السورية – تستكشف هذه المقالة الطرق التي سعى بها للتعامل مع الأبعاد الأسطورية للحدث. يتم إيلاء اهتمام خاص لحقيقة أورلاند الشعرية وحوارها المعقد مع الحقيقة التاريخية وكذلك الحقيقة الأسطورية التي تشكلت في العقل القومي للدولة العبرية.

المقدمة:

في أوائل السبعينيات، عمل الشاعر ياكوف أورلاند في مشروع ضخم تضمن جمع البيانات التاريخية والتوثيق لإعادة تخطيط المعركة التي دارت في بؤرة تل الفخار القتالية في مرتفعات الجولان في 9 حزيران يونيو 1967. بناءً على هذا التاريخ بدأ البحث، وكان موضوعه يوم تل الفخار.

كان قرار أورلاند بالتركيز على هذه المعركة الدموية المقلقة التي خاضها لواء غولاني مثير للاهتمام في حد ذاته، ففي ضوء النشوة التي اجتاحت إسرائيل في أعقاب حرب الأيام الستة. تجاهل أورلاند جميع المعارك الأخرى للحرب، تلك التي كانت بمثابة مصدر لألبومات النصر العديدة التي نُشرت في السنوات التي أعقبت الحرب مثل معركة احتلال مدينة القدس القديمة، واحتلال الضفة الغربية، أو القتال على الجبهة الجنوبية في سيناء.

قرر بدلاً من ذلك أن يروي قصة معركة ساء فيها كل شيء، معركة لم يتم خوضها وفقاً لتخطيطها المبكر، حيث تم اتخاذ قرارات خاطئة ودفعت القوات الاسرائيلية في النهاية ثمناً باهظاً من الدم، حيث خسرت الكتيبة معظم قياداتها والعديد من جنودها.

كان أورلاند مدركاً تماماً للتعقيد العاطفي الكبير الذي أحدثته معركة تل الفخار الجولانية في الذاكرة الوطنية الجماعية لدى الدولة العبرية، وكذلك الفروق بين سرد الحقيقة الواقعية، والتي تكمن في قلبها الإخفاقات والأخطاء التي أدت إلى تعقيدات المعركة ونتائجها المروعة، ورواية "الحقيقة التاريخية"، التي صاغت المعركة في العقل القومي على أنها أسطورة إعجازية وشجاعة عليا؟

أثناء العمل على القصيدة الملحمية، قام أورلاند بتدوين التعليقات والأفكار التي أزعجته فيما يتعلق بالتفسير الصحيح لمسار المعركة ونتائجها: المعركة هي أفعال تقنية في مواقف معينة في لحظة التجربة .... ولكن ما هي قيمة معركة تاريخية بدون دوافعها ومعانيها؟ "لا يسعى الطفل الصغير إلى إعادة بناء مسار المعركة من وجهة نظر واقعية، على الرغم من تشابكه في مقتطفات أصلية من التقارير الصادرة عن قسم التدريب التاريخي في جيش الدفاع الإسرائيلي ومن الكتيبات الصادرة عن رئيس قسم التعليم في جيش الدفاع الإسرائيلي، وكذلك مقابلات مع الضباط والمجندين الذين شاركوا في القتال.

في القصيدة، سعى أورلاند إلى تسليط الضوء على المعضلات الداخلية للمقاتلين والجوانب الوجودية لهويتهم الوطنية على خلفية الواقع الإسرائيلي في أواخر الستينيات.

سيحاول هذا المقال فهم "الحقيقة الشعرية" التي قدمها أورلاند في قصته القصيدة، وهي حقيقة يستند تأطيرها في النص إلى حوار معقد مع كل من السرد الواقعي، ويحكي قصة مشكلة معركة أصلية، و"الرواية التاريخية"، التي

تؤكد المكانة الأسطورية للمعركة في الإرث القتالي لجيش الاحتلال الإسرائيلي والتغييرات الدراماتيكية التي أحدثتها، سواء في صورة جنود اللواء في ذلك الوقت وفي المستقبل في نظرهم وفي هالته ومكانته في أعين المجندين المحتملين لوحدات المشاة الأخرى.

2. معركة تل الفخار: "تُمنح ميداليات كبيرة للمعارك التي وصلت لحالة من الهلع"

وقعت معركة تل الفخار في 9 حزيران 1967، في اليوم الخامس من حرب الأيام الستة، كجزء من الخطة الشاملة للاستيلاء على الجزء الشمالي من مرتفعات الجولان من السوريين.

كُلّف لواء غولاني بتخليص سكان الجليل الشمالي ووادي الحولة من القناصين السوريين المتمركزين في بؤرتي تل العزيزيات وتل الفخار، الذين عكفوا طوال سنوات على تشتيت حياة سكان تلك المناطق.

كان من المقرر أن يسيطر اللواء على منابع نهري حاصباني وبانياس التي حولها السوريون في منطقة تل الفخار.

وبحسب خطة المعركة، كانت الكتيبة 51 ("حبكيم") تحت قيادة المقدم بيني عنبار، تهدف إلى الاستيلاء على تل العزيزيات، وكان هدف الكتيبة 12 ("براك") بقيادة المقدم موشيه كلاين.

كانت البؤرة الأمامية لتل الفخار. ومنذ البداية، كان هناك قلق في قيادة المنطقة الشمالية من نتيجة القتال في تل العزيزيات، الذي أطلق عليه اسم "الوحش"، بسبب حجمه الكبير نسبياً ودرجة ترويعه للسكان الإسرائيليين.

تم التخطيط لمعركة تل العزيزيات بدقة وتنفيذها بفاعلية، واستسلم السوريون بسرعة دون قتال، وفقدت قوات الجيش الإسرائيلي جندياً واحداً فقط.

في النهاية، اتضح أن تل الفخار، البؤرة القتالية على خط الدفاع الخلفي للسوريين، والتي تقع على عمق أبعد في أراضيهم، كانت محصنة بشكل أفضل وأنها تحتوي على قوة قتالية سورية أكبر من تلك الموجودة في تل العزيزيات.

كانت الخطة الأصلية هي مهاجمة الغرب في اتجاه "التابلاين" عبر خط الأنابيب العربي وأخذ الجنود السوريين في تل الفخار على حين غرة من الجنوب الغربي.

ومع ذلك، فقد ثبت أن الطريق الذي كان من المفترض أن تسلكه القوات غير سالكة للدبابات التي انضمت إلى الكتيبة 12، وتعرض رتل الدبابات الذي يتحرك ببطء والآليات المرافقة لنيران كثيفة.

وقرر قائد الكتيبة موشيه كلاين تغيير المسار وشن هجوم أمامي على تل الفخار لكنه لم يبلغ مركز قيادة اللواء بالخطة الجديدة التي قطعت الاتصالات معها.

انحرفت المعركة باتجاه مختلف تماماً. بدأت السرية "أ" التي يقودها الملازم أهارون فاردي المعركة بثلاثة أنصاف مسارات فقط بخمسة وعشرين رجلاً فقط من أصل ستين.

انقسمت القوة المتبقية إلى قسمين، أمر أحدهما بالاستيلاء على الجزء الشمالي من التل والآخر، الجزء الجنوبي.

القوة الثانية علقت بالأسلاك الشائكة التي تفصل بينها مسافة عشرة أمتار، وفيها حقل ألغام حي.

وبمبادرة منهما، استلقى الجنديان عمرام شطريت وديفيد شيرازي، على سياج من الأسلاك الشائكة وأشاروا إلى رفاقهم أن يدوسوا عليهم من أجل العبور. بعد ذلك، عاد الشيرازي إلى المعركة وتمكن بسلاحه الرشاش من إخماد النيران السورية. ليسقط صريعاً بنيران الجانب السوري. وكان من آخر القناصين المتبقين وتم منحه وسام البسالة بعد وفاته لأفعاله الشجاعة.

بمجرد وصولهم إلى التل، اشتبكت القوة الإسرائيلية مع السوريين في قتال وجهاً لوجه. وخلال القتال قتل قائد الكتيبة موشيه كلاين بنيران قناص. فقط بعد ثلاث ساعات ونصف من المعركة الدامية أعيدت الاتصالات أخيراً مع قيادة اللواء، الذي أرسل وحدة استطلاع تحت قيادة ريفكي إليعاز لتعزيز الكتيبة 12. أودت المعركة بحياة ثلاثة وأربعين جندياً إسرائيلياً، وجرح عشرون جندي آخر ثلاثة منهم من الكتيبة. أولئك الذين نجوا تُركوا ملطخين بالدماء وكدمات نفسية. مع حلول الشفق كانت القوات السورية قد فقدت ستين جندياً. فيما تم أسر 26 جندياً سورياً. وتمكن عدد قليل جدا من الجنود السوريين الذين يدافعون عن البؤرة الاستيطانية (بالمفهوم الإسرائيلي كانت تطلق على البؤرة العسكرية بؤرة استيطانية) من الفرار دون إصابات.

بالإضافة إلى الإخفاقات العملياتية والتقييمات الخاطئة والتكلفة الهائلة من حيث القتلى والجرحى، كانت معركة تل الفخار نموذجاً للتصميم والتضحية بالنفس من جانب جنود كتيبة غولاني 12 ومن جاءوا لمساعدتهم.

على الرغم من كل شيء، انتهت المعركة بالنصر الاسرائيلي بفضل قدرة القوات على التقليد وتقنيات البقاء على قيد الحياة، والصداقة الحميمة بينهم، والمبادرة الشخصية التي اتخذها الجنود من الرتب الدنيا، الذين أظهروا استعدادهم للقتال حتى النهاية من أجل كسب اليد الجماعية العليا على الرغم من إدراك أن غالبية أركان القيادة قد قُتلوا أو أصيبوا في المراحل الأولى من الاشتباك.

لقد أكسبت المعركة الجنود الذين شاركوا فيها ميداليات شرف أكثر من أي ميداليات أخرى في التاريخ الإسرائيلي، واستمرت لتصبح واحدة من أكثر الحلقات التي يتم إحياء ذكراها وتسجيلها على نطاق واسع من الإرث القتالي للجيش الإسرائيلي.

قال يونا إفرات، قائد لواء غولاني، بعد الحرب. إنه مقتنع بأن جنود الكتيبة كان يجب أن يحصلوا جميعهم على ميداليات. وفي تجمع للواء عقد بعد الحرب، قال رئيس الأركان اسحاق رابين، "لقد نفذت واحدة من أصعب معارك الاختراق في تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلي، وهي تجربة يجب أن تكون بمثابة نموذج وقدوة لكل جيش الدفاع الإسرائيلي."

3. بين الحقيقة والوهم

أمضى أورلاند خمس سنوات في أرشيف جيش الدفاع الإسرائيلي، حيث قرأ التحقيقات الداخلية وكذلك الكتيبات التي نشرها قسم التدريب التاريخي في جيش الدفاع الإسرائيلي ورئيس قسم التعليم.

زار تل الفخار عدة مرات من أجل الحصول على معرفة مباشرة بمسار المعركة وأجرى مقابلات مع عدد من القادة والمجندين، بما في ذلك يونا إفرات، وريفكي إليعاز (قُتل إليعاز بعد أسبوع من حرب يوم الغفران عندما مرت مركبته على لغم أرضي. شعر أورلاند بألم شديد لوفاة صديقه المقرب)، والصحفي ياكوف هيليون، الذي قاد دبابة لدعم الكتيبة 12، وأصيب بجروح خطيرة إثر إصابة الدبابة مباشرة.

يحتوي أرشيف الشاعر الواقع في جامعة بار إيلان على دفاتر وصفحات متباينة من المسودات والكتابات التي توثق لقاءاته مع ضباط وجنود.

تثير حقيقة أن حبكة يوم تل الفخار تستند إلى التاريخ في تفسير الواقع الفعلي عدداً من الأسئلة الأساسية. ما هو المكان الذي تحتله المواد الواقعية في الإطار الروائي، وكيف يجب أن نتعامل مع الأرقام الفعلية الملحوظة في الحياة العامة الإسرائيلية، مثل الصحفيان ياكوف هيليون ودان شيلون، اللذان تم دمجهما في القصيدة كشخصيات مسرحية؟ ما هو دور تقارير قسم التدريب التاريخي، وتوثيق مسار المعركة، وهل هي مادة خام يقوم عليها النص الروائي، أم ينبغي اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من السرد الأدبي؟

ويُطرح سؤال آخر بشأن تأثير الأحداث التي تحدث في الوقت الفعلي أثناء كتابة القصيدة: كما لوحظ، بدأ أورلاند بحثه التاريخي في أوائل السبعينيات، وتم نشر القصيدة في عام 1976. أي بعد حرب يوم الغفران 1973، والتي ربما أثرت أيضاً على الشاعر.

تثار أسئلة أخرى حول الدور الذي لعبه أورلاندو نفسه بصفته "المؤلف الضمني" وشخصية "المؤلف" التي تلعب دوراً نشطاً في سرد القصص، هل يتداخل هذان الدوران، أو يمثلان بعضهما البعض، أو يؤديان وظيفتين سرديتين منفصلتين؟ قام أورلاند بملاحظة مباشرة حول مدى تعقيد تجربته الأدبية، حيث شارك القارئ بأفكاره "الذاتية الشعرية" في المقدمة التفصيلية للقصة:

قصيدة "يوم تل الفخار" لها مساران، على الرغم من أن إحداها فقط مليئة بالحياة: خط القصة الصحيح من ناحية، وردود أفعال المؤلف من ناحية أخرى. في حبكة القصة، استخدم الشاعر المواد الوثائقية الكبيرة التي أتيحت له، مثل المقالات الصحفية العديدة والمفصلة المكتوبة في ذلك الوقت، وكذلك نشرة الكتيبات التي أصدرها قسم التدريب في مكتب التعليم الرئيسي في جيش الدفاع الإسرائيلي، بالإضافة إلى العديد من اللقاءات الشخصية التي أجراها مع عدد كبير من الضباط والجنود والرجال المدرجين في القائمة والذين كانوا حاضرين جسدياً في ساحة المعركة. في ردة فعله يقول أورلاند: "حاولت التعبير عن المشاعر والآراء المختلفة والمستقطبة أحياناً التي يتبناها أفراد جيلنا، سواء بعد حرب الأيام الستة مباشرة أو الآن، بعد حرب يوم الغفران. بقدر ما أود أن أبقى موضوعياً عند تقييم روح العصر وما الذي دفع الأحداث التاريخية التي تشغل أفكار الجيل – فمن الطبيعي أن بعض الفتات من تقديري الشخصي ربما تسللت تحت النسيج المعلق على الجدران".

من الواضح أن أورلاند كان مدركاً جيداً للمخاطر والإشكاليات التي ينطوي عليها خلط الشهادات الواقعية وتفسيره الذاتي للأحداث والخيال الأدبي الذي

أنتجته روحه الإبداعية. لا يمكن للواقع الخيالي أن يكون مستقلاً لأنه يخضع له باستمرار من خلال اتصال مع الواقع الفعلي. حتى الحقيقة الملموسة ليست ذاتية المنشأ لأنها تنتقل عبر مرشح أورلاندو التفسيري الذاتي.

كان اعتذارياً إلى حد ما، كما يشير أورلاند إلى أن الشخصيتين الرئيسيتين في القصة – يوآف ويوسفل – خياليتان، على الرغم من أنهما يمثلان مجموعة من السمات النموذجية للشباب الإسرائيلي في أوائل السبعينيات، وتجسد تجارب حقيقية رواها الجنود الذين شاركوا فيها. من ناحية المعركة، الخبرات التي تجرأ على عدم طرحها أو الإضافة إليها. يضيف أورلاند كذلك في المقدمة أن وقائع الأحداث، التي تشارك فيها الشخصيتان – أطلال كنيس يهودي قديم – هي أيضاً خيالية، ويوضح أنه من المشروع وضع مثل هذه الآثار بالقرب من تل الفخار لأنها توجد في أماكن أخرى من مرتفعات الجولان.

إن الحاجة، الواضحة هنا، لشرح ما هو بديهي عادة في النص الرسمي يدل على التوتر المتأصل في القصيدة، والتي لا تحلها المقدمة فحسب، بل تكثفها في الواقع. ينبع هذا التوتر من اختلاط الواقع والخيال والأسطورة.

بعد حوالي عام من نشر القصيدة، ظهر مقال في عدد خاص بمناسبة يوم الاستقلال من معراشوت، كتبه الكولونيل يتسحاق غولان، الضابط المسؤول ورئيس تحرير المنشور، "رداً على أسئلة مختلفة أثيرت مؤخراً بعد نشر معراشوت لكتاب "يوم تل الفخار". وتفحص أورلاند المقال بدقة، إذ أزال العديد من الحجج والتفسيرات من نص مانو الذي أرسله غولان إليه وأضاف أخرى.

النسخة المعدلة والموسعة من مخطوطة غولان الموجودة في أرشيف أورلاند متطابقة تقريباً مع المقالة التي نشرتها معراشوت (الجريدة الرسمية للجيش الإسرائيلي).

تُظهر القراءة المتأنية لهذه النسخة أنها توسع وتطور ما كتبه أورلاند في تقديمه للقصيدة، وبالتالي كان تأثير أورلاند على محتوى مقال غولان جوهريا:

كانت معركة تل الفخار بمثابة الخلفية الواقعية والمواد الخام التي استمد منها المؤلف قصته. لم يكن الدافع لكتابة القصيدة هو تقديم تصوير حقيقي للمعركة أو وصف تاريخي علمي وموضوعي للخطوات العسكرية الدقيقة المتخذة للسيطرة على التل. سيتعين على المهتمين بهذه الأمور (وهذه التفاصيل بشكل أساسي) البحث عنها في الأدبيات العسكرية المهنية الأصيلة التي كتبها قسم التدريب التاريخي في جيش الدفاع الإسرائيلي أو في منشورات أخرى في معراشوت ... كان الغرض من هذا الكتاب دائماً هو العرض الوجودي (ديني، إنساني).

المشاكل الفكرية والفلسفية التي يتم تهميشها في الغالب في حياتنا اليومية العادية والتي تظهر أحياناً على الساحة بكثافة كبيرة في المعارك من أجل الحياة والموت وتترك بصماتها لعدة أيام.

سيكون من الخطأ (أو على الأقل سوء فهم أولي لطبيعة الفن) إذا قمنا بقياس هذا الكتاب مقابل معايير الموثوقية التاريخية والحقيقة الواقعية .... موقع ووصف المعركة يخدم فقط كقاعدة نشأت عليها الأحداث، والجوانب المهمة حقاً في القصيدة ليست التكتيكات والعمليات العسكرية، بل الآثار العاطفية

والفكرية .... هذه هي المرة الأولى في الأدب الإسرائيلي التي كتبت فيها قصيدة أصلية حول موضوع "خام" يتعلق بالقتال، ويصف "بشكل رئيسي ليس" المعركة الخارجية والفورية للأحداث، بل بالأحرى المعركة العاطفية الداخلية للجندي الإسرائيلي في سياق مفهوم الزمن التاريخي اليهودي.

فيما بعد، أشار غولان إلى التفاوت بين "الحقيقة الواقعية" المبنية فقط على المعطيات التاريخية، و "الحقيقة الأسطورية" المعبر عنها في العقلية الثقافية:

ميّز أحدهم بين "الحقيقة الأثرية" و"التاريخية"، "الحقيقة" بالنسبة له "الحقيقة الأثرية" تشمل جميع التفاصيل الفنية للواقعة، الذي لا يضيف ولا ينتقص من أي شيء من معناها الفريد، في حين أن "الحقيقة التاريخية" هي الحقيقة التأسيسية والتربوية والمخلقة مشحونة بقوة تعبيرية مكثفة .... هذه هي الحقيقة الفريدة الموجودة في مختلف الحكايات الشعبية والملاحم الوطنية".

إلى هذا أضاف أورلاند في النسخة المسودة فقرة أخرى بيده لم يتم تضمينها في النهاية في النسخة المنشورة من المقال:

يجب على الأشخاص الذين شاركوا بنشاط في الأحداث أو الوقائع التي أصبحت في نهاية المطاف جزءاً من التاريخ، عندما يقرؤون – ربما أكثر من غيرهم – أن يبقوا أنفسهم بعيدين عاطفياً قدر الإمكان عن الحدث كما يصفه الكاتب. هذا لكي تستطيع القطعة الكتابية نفسها (في هذه الحالة، يوم تل الفخار) أن تعيش حياتها الفنية المستقلة في أذهانكم كقراء (وليس كمشاركين) وتتاح لها الفرصة للظهور أمامك كتحفة موضوعية، دون أن يُنظر إليها على أنها تتدخل في الأحداث الشخصية.

تشير التصحيحات والتعليقات العديدة التي أدخلها أورلاند على المسودة التي كتبها رئيس تحرير صحيفة معاراشوت إلى أن أورلاند قد تحمل الطبيعة الإشكالية الكبيرة للتجربة الأدبية التي قرر الشروع فيها، من وجهة نظر كل من الخيال والواقع التاريخي.

في الواقع، استخدم مقال غولان كمنطلق لنقل تفسيره للقصيدة، وكذلك لكتابة نوع من "دليل القارئ" حول كيفية الارتباط بها على خلفية الأحداث الفعلية.

4. القصة الصهيونية كملحمة حديثة

تتميز القصيدة قيد المناقشة بثلاث ظواهر شعرية وظواهر تاريخية. الأولى هي التباين بين زمن السرد والزمن المروي. تم تخصيص مائة وتسع وأربعين صفحة لإعادة إحصاء الأحداث التي تكشفت في أربع ساعات ونصف فقط. في حين أن القصة مليئة بالانطباعات التي تتيح قفزات إلى المستقبل، فإن محور الحبكة الرئيسي ينقلب على تقدم المعركة كما حدث في الواقع.

يتيح التفضيل الواضح الذي يُعطى للوقت السردي تفصيل الحقائق ودمج الأحداث التاريخية للتقارير العسكرية، ولكنه يسمح أيضاً بفترات وصفية غير محدودة تقريباً، تتخللها نقاط المراقبة، وأوصاف المناظر الطبيعية، ونقل الأفكار، مقتطفات من الفلسفة والفكر، وأكثر من ذلك. من خلالهم جميعاً، سعى أورلاند إلى إنشاء ملحمة حديثة من شأنها أن تحكي قصة الصهيونية بعد قيام الدولة، حيث تم تشكيلها بين محطتين بارزتين للغاية: حرب الأيام الستة وحرب يوم الغفران.

يُقاس الوقت الحالي للقصيدة من خلال ارتباط مماثل عميق بالزمن اليهودي التاريخي، إذ اعتبر أورلاند قصة الخفاش في تل الفخار نقطة أرخميدس في تاريخ كفاح الشعب اليهودي من أجل وجوده. تم تصميم الطريقة التي يعيد بها أورلاند إنشاء أحداث المعركة في قصيدته لإخبار قصة ذات معنى رمزي يوفر منظوراً واسعاً للهوية اليهودية وعرضاً لتاريخها، والذي يتمثل جوهره في الترابط بين الأجيال. تتيح الفواصل الزمنية الكتابية إمكانية التعبير عن خصائص القصيدة، بما في ذلك استخدام العناصر الفولكلورية، والحوار بين الأحياء والأموات، والعناصر الدرامية والسردية التي تنقل مؤامرة الحارس إلى نهايتها الصادمة والمأساوية. في نفس الوقت، يقومون بتحويل التركيز من العناصر الخارجية والفعالة للحبكة وتحويلها إلى البعد العاطفي والداخلي للمقاتلين.

الظاهرة الثانية التي تنفرد بها القصيدة هي مزيج من الأساليب والأنواع، بما في ذلك التقارير الصحفية والتحقيقات التاريخية بناءً على حقائق موثقة، وشعر غنائي، وفلسفة، وحوارات تتميز بلغة دون المستوى – وكلها متداخلة ومطعمة ببعضها البعض في سلسلة متواصلة. هذه الظاهرة ليست جديدة في عمل أورلاند. كما أنها حاضرة في أعماله الدرامية والشعرية المبكرة، مثل قصيدة حنال من دوروهوي، وبالطبع في كتابه الضخم مدينة النوادر. جميع هذه الأمور تتوقف، لكنها في نفس الوقت تعلق عن طريق القياس أو التوسع أو التناقض مع الموضوع المركزي، أي وصف المعركة.

إن تعدد الأنماط في القصيدة له تأثير إرهاق للقارئ. وصف الشاعر حاييم جوري تجربة قراءة القصيدة كما يلي: "إنك تتنقل من أسلوب إلى آخر، من

مونولوج إلى آخر، فجأة تأتي أقسام الشهادة، وعندما تنتهي من قراءة الكتاب بأكمله، فإنك ستخرج متعباً كما هو الحال بعد رحلة شاقة".

النغمة والتعبير، الغرض الشعري من تعدد الأنماط مرتبط بالمشروع الذي سعى أورلاندو لوضعه في قلب القصيدة، لإعادة سرد القصة الصهيونية باعتبارها ملحمة حديثة وذلك لإجراء بحث عميق في الروح مع ريادة التاريخ اليهودي على مر القرون وطرح الأسئلة الكبيرة حول مستقبل الشعب اليهودي وهويته اليهودية.

ولهذه الغاية، يستخدم أصواتاً متعددة، جنباً إلى جنب مع شخصيات خيالية مختلفة، مثل يوآف ويوسفيل، نسمع خطابات ملموسة وحقيقية لأشخاص حقيقيين، مثل ياكوف هيليون، مراسل معاريف الذي أصيب بجروح خطيرة في المعركة، أو دان شيلون، الذي رافق القوات كمراسل لراديو إسرائيل والتقى بطريق الخطأ صديقه وزميله هيليون بينما كان يركب في مدرعة موشيه كلاين.

وطبقاً لشيلون، فإن أحد الجنود الجرحى الذين كان يعتني بهم أصيب بجروح خطيرة لدرجة أنه لم يكن من الممكن التعرف على وجهه. حاول شيلون إقناعه بأن يقول شيئاً، ودهشته، أخبره الجندي أن اسمه هو ياكوف هيليون.

في تلك اللحظة، أصبحت الحرب شخصية جداً لشيلون، لدرجة أنه نسي واجباته كمراسل عسكري. عندما شاهد إصابات هيليون الشديدة صدمته لدرجة أنه تخلى عن دوره كمراقب نزيه وانضم إلى الجهود لمساعدة المصاب. بعد أن تم إخلاء هيليون بطائرة هليكوبتر، أجرى شيلون اتصالات مع راديو

إسرائيل وقدم لهم رواية مروعة مدتها سبع دقائق عن الوضع المروع في تل الفخار.

قطع الرقيب العسكري أجزاء من القصة من أجل حماية عائلات الجنود القتلى والجرحى، لكن الجزء الذي تم بثه تردد صداه القوي للغاية وفاز لاحقاً بجائزة جمعية الصحفيين لأفضل تقرير تم بثه بشكل أصلي من ساحة المعركة.

تكرس قصيدة أورلاند اهتماماً كبيراً بأصوات شيلون وهيليون. يتم تقديم صوت شيلون في سياق حوار أجراه المؤلف معه في أحد المقاهي، هذا إعادة بناء للاجتماع الفعلي الذي حدث في عملية البحث الذي أجراه أورلاند أثناء العمل على القصيدة.

في المحادثة الدرامية، يقتصر دور المؤلف على حث شيلون على التحدث عن طريق أسئلة مركزة وواقعية تمكنه من إعادة صياغة وجهة نظره حول ما حدث في تل الفخار حسب التقارير.

ومع ذلك، بقدر ما يتعلق الأمر بالعروض، فهي تتميز بنمط نغمة غني وقافية دقيقة، مما يزيد من حدة التوتر الدرامي ويحول المونولوجات إلى "شعر سردي":

... أبحث عن يانكيل، افحص الجثث. جمد لحظة. ذوبان.

جمود.

شخص ما يصرخ، "دكتور!"

ماتي، مساعد اللواء، يظهر في العربة بين الجرحى

ويتعرف عليّ: "يا دان، لنحمِّل الجرحى."

نقوم بتحميل اثنين في نهاية العربة.

أحدهم يجر ساقه المحطمة،

يمسك الرابع في يده فوق رأس رفيقه فاقد الوعي.

ظهر طبيب فجأة في مكان قريب.

يداه حمراوان.

وجهه مرتبك.

يأمر: حمّلوا اثنين آخرين، "انتبهوا لأنهم مبتوروا الأطراف".

وهو يركض خلف الدبابة.

يهرع السائق في العودة للعنابر.

هناك خطأ.

المركبات

تقفز بشكل رهيب.

اختفت الفرامل.

تعمل فرامل اليد فقط.

مريع.

كل عثرة صرخة.

كل هزة جحيم.

أنظر إلى الجرحى.

كل شيء متخثر ومشوه.

من الصعب التعرف على الوجوه.

أحمل زجاجة بلازما فوق واحدة

من المجهولين،

ممزق إلى أشلاء، يلهث من أجل الهواء، يبصق الدم،

ورغوة مختلطة بالغبار.

إذا كان الله على صورته قد خلق الإنسان،

فكيف يكون شكل الله عندما يصاب؟

في تعليقاته في حفل الاستقبال بمناسبة نشر يوم تل الفخار، ناقش حاييم غوري تغطية أورلاند المكثفة للحلقة التي تضمنت هذين الاثنين: "ربما يقول أورلاند: سيمضي جيل أو اثنان، وسيصبح شيلون وهيليون مثل أسماء الأبطال المذكورة في الأساطير والقصص والمواعظ التوراتية، وقد أرسل القصيدة في رحلة طويلة بمعنى "ارمِ خبزك على الماء".

يتم تقديم قصة ما حدث من وجهة نظر هيليون بعد فجوة، مع بعض الحوارات الأخرى التي تفصل وجهة نظره عن وجهة نظر شيلون. يتيح هذا التوقف المؤقت وجهة نظر جديدة تماماً لنفس الحدث تم تقديمها بالفعل في شكل

تقرير في نثر غنائي. اختار أورلاند أن يبدأ في وقت لاحق، عندما يزور هيليون في مكاتب التحرير في معاريف لإجراء مقابلة معه لأغراض البحث.

لغوياً، فإن خطاب هيليون كما هو معروض في النص ليس بالعامية، بل إنها تتميز بلغة غنائية للغاية محملة بإشارات إلى المصادر القديمة، إلى حد خلق انطباع بأن الكلمات وضعت في فمه بواسطة أورلاند. هذا واضح بشكل خاص في وصفه لإصابات موشيه دريمر. تعرضت مدرعة دريمر لضربة مباشرة وبدأ في الاحتراق، وأمره قائده بالخروج بكفالة. ومع ذلك، أصر دريمر على الاستمرار في إطلاق النار من المدفع الرشاش من الآلة المحترقة، من أجل توفير غطاء لرفاقه، حتى استهلكته النيران:

مثل شعلة ملتهبة، محترقة، مشوية حتى العظم والرماد،

مثل فتات المخطوطات القديمة

المتدلية في أرشيف أهل الكتاب،

منذ النار والخشب وصورة قوسنا البطري الملزم،

والملاك – الذي هذه المرة لم يمنع الحصة والسكين.

ها هو هنا أمام عينيك،

الابن، الغلام، الوحيد الذي قيل عنه: "هكذا يكون نسلك ..."

هكذا يكون نسلك؟

آل المطارق في النار؟

كن دائما بين المطرقة والسندان؟

في تصوير هيليون، يضفي أورلاند على موت دريمر صفة أسطورية، بناءً على تشابه مع ربط اسحق في تكوين 22. يؤدي هذا التشبيه المعقد إلى استطراد نصي لا علاقة له بقصة هيليون ويخلق سلسلة متوالية من الوحدات النصية التي تناقش السؤال من "التضحية التي لم يتم التخلي عنها". يضع هذا تجربة التضحية اليهودية بدءاً من تل الفخار في سياق تاريخي يهودي عام.

لم يكن هيليون مرتاحاً تماماً لمحتوى الكلمات. وأن ينسب إليه في القصيدة. في رسالة أرسلها إلى أورلاند بعد أن قرأ الشاعر له عدداً من المقتطفات، كتب:

أطلب بشدة أن يحتوي الكتاب بالفعل على تلك المقدمة التي تحدثت عنها قبل قراءة مقتطفات من القصيدة لي، لتوضيح أن المؤلف أعطى الحرية لإطلاق خياله وإلهامه. هذا ضروري لتمكين القارئ من فهم أن الدقة التاريخية لم يتم الحفاظ عليها في مواجهة روح وانعكاسات المؤلف (بما في ذلك الملاحظات المنسوبة إلى أبطال القصيدة). في الواقع، أخشى أنني يجب أن أصر على أن يتم ذلك كشرط لموافقتي ليتم تضمينها في الكتاب.

وفي رسالة بتاريخ 28 يوليو 1975 (أرشيف أورلاندو 1/1120). في هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أنه في الرسالة نفسها إلى أورلاندو، صرّح هيليون: "لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يُنسب إليّ أي تكهنات أو شك فيما يتعلق بدور الحرب (" تضحية أم مذبحة؟ "). واضح تماماً في ذهني ما الذي نحارب من أجله، وأفكاري خالية من أي انعكاسات تحتوي حتى على تلميح من

الانهزامية". (رسالة بتاريخ 28 يوليو 1975 من أرشيف أورلاند 1/1120). عاد أورلاند إلى قصة هيليون فقط في إطار نصي منفصل، التطبيق على (حلم يعقوب) أورلاندو، في ديوانه (يوم تل الفخار، ص 107–116) والذي يتحول من وجهة نظر وقت السرد إلى اللحظة التي يتحول فيها هيليون حيث تم إحضاره بطائرة هليكوبتر إلى مستشفى رامبام في حيفا ورأوا ما بدا وكأنه نسخة مقلوبة من حلم يعقوب (تكوين 28: 10–22): تم إنزاله إلى الأرض، وزارته الملائكة للاعتذار عن إصاباته. كما وصفه أورلاندو في يوم تل الفخار، ص105.

لا تجسد هل القتلى في تل الفخار "تضحية أم مذبحة"؟ هذا هو السؤال الذي يحوم في الأجواء، ويمثل نقطة انطلاق لأعمال أورلاند اللاحقة مثل (طاعة الشعوب). ففي بَركة يعقوب لأبنائه (سفر التكوين 49:10): "لا ينفصل الصولجان عن يهوذا، ولا تنحرف عصا الرئيس من بين رجليه، فيأتي إلى شيلوه ويكون له طاعة للشعوب". لا تجسد الإشارة الجوهر الأيديولوجي للقصيدة فحسب، بل أيضاً القصيدة التي نوقشت هنا، من حيث أنها تقوي الصلة بين معركة تل الفخار والتاريخ اليهودي عبر القرون، بكل تقلباتها وانعطافاتها. ترتكز الحرب الحالية في القصيدة على سلسلة متعاقبة من الأسباب والتفسيرات المتجذرة بعمق في التجربة الأساسية لكونك "يهودياً مضطهداً".

ومع ذلك، بدلاً من أن يؤدي هذا إلى استنتاج متشائم، فإن هذا يقود القارئ إلى الاعتراف الذي يؤكد الحياة بأن القصيدة بأكملها تسعى جاهدة إلى القول:

"لا توجد أمة لديها قوة على الريح لتقييد الروح، ولا يمكن لأي هاوية أن تبتلع الريح/ ولا الأمة يمكن أن تموت إذا كان لها روح".

5.الأداء اللغوي للشخصيات

الظاهرة الثالثة التي تنفرد بها "يوم تل الفخار" هي الخليط المدروس والمتعمد من السجلات اللغوية المختلفة وشكلها، والذي يحدد أيضاً المكان الذي ينتمي إليه المتحدثون اجتماعياً.

وهكذا، على سبيل المثال، يتجادل يوآف ويوسف بينما يرقدان مصابين في أنقاض كنيس يهودي قديم.

يصف يوآف الموقع باستخدام لغة عالية تشير إليه. الكتاب المقدس والصلوات: "نعم، هذا بيت الله/ حيث تم مدح عظمة اسمه وحيث يمجده يهوده ولا يمكن للخالق أن يتخلى عن عمل يديه". تمثيل أصيل للطريقة التي يتحدث بها الرفاق في السلاح مع بعضهم البعض أثناء تعرضهم للنيران، ويمثل الدور الثقافي الاجتماعي المسند للشخصية المتجذرة بعمق في التراث والأدب اليهودي والتي يتردد صداها في اللغة العبرية مع طبقات الكتاب المقدس والتلميحات إلى عيد الأعياد المقدس حيث الصلاة. كما هو الحال مع خطاب شخصية هيليون، فمن الصعب مع يوآف تخيل جندي جريح تحت النار ويقدم سجلات أحادية مضمنة مع اقتباسات من التوراة، ومع ذلك، يمكن للشخصية أن تقول فقط الكلمات التي يضعها أورلاند في فمه. من ناحية أخرى، يتحدى يوسيفل كلاً من يوآف وغاد، مستخدماً لغة عامية طبيعية:

هذا ما تسمونه ببيت الله هذا ما تقولوه .. وماذا في ذلك؟

إذن ماذا، أيها القطعة من تراب الأرض؟

إذاً صلوا وتلفظوا واسجدوا لساعة من الرحمة؟

أنظر، إنها هنا، هذه هي الساعة، ها هي فضلات الأغنام

والبول الذي يحول الجدار إلى اللون الأصفر، والدم يتكتل ويتخثر ...

إلى أين انتقلت جميع الصلوات من هذا المكان المقدس؟

لذا أغلق فمك المقدس، يا مُقبِّل المزوزوت، أن أفكر في أنني أقاتل من أجله؟

حسناً، كل ما يناسبك/ لكن الحقيقة أنه ليس عدلاً. أنا لست منذوراً من أجل هذا".

يزخر خطاب يوسفل بالعامية والكلمات الأخرى التي تنتمي إلى السجلات اللغوية العامية ولغة الشارع. ليفتقر إلى أي صقل أو صياغة منمنمة:

لقد تبرزت في سروالي.

جمود مفاجئ.

نوع من الفراغ

أسفل بطني.

قد يتوقع المرء أن يؤدي تركيز يوسفل على أحاسيسه الجسدية وخبراته الحسية إلى زيادة في العاطفة والتعبير، مما يتسبب في أن تتخذ القصيدة نغمة خجولة. ومع ذلك، بدلاً من الإسهاب في المشاعر، يمنحنا أورلاند السخرية والتهكم، التي تنقل الفجوة بين الامتلاء الخارجي والفراغ الداخلي. تستقبل

المفارقة تعبيرها الجمالي في نمط النغمة المكثف والقافية الداخلية mayim ماء، أيدي yadayim والقافية الخارجية lakahat تناول latahat دُبُر، مما يولد تبايناً بين الأشخاص المتواضعين ومنظومة المواد الوصفية، التي تكشف الوجه القبيح للحرب، تعرض القارئ لمناظر مروعة ومرعبة. ومع ذلك، لا تثير مشاعر الاشمئزاز أو الرغبة في الابتعاد عن الشيء، بسبب أن الإنسان عنصر ينبثق منها، ليوقظوا في القارئ شعوراً بالتعاطف مع الجندي الجريح وإحساس عميق بالشفقة تجاهه.

دفعت إلى اليسار ومزقت القطعة من الحجر وتمكنت من اقتلاعها

استدرت بنفسي إلى اليمين على ظهري وفجأة شعرت أنها خلفي،

المَطَرة ... نعم، ورائي، اللعنة، متصلة بالورك.

تخيل، لدي ماء،

لدي مَطَرة مليئة بالماء – وليس لدي يد ...

ليس لدي لآخذها.

حياتك كلها لا تستحق الهراء (حرفياً المؤخرة)

عندما يكون لديك ولا يمكنك.

تمثل لغة يوسفل العامية طابعه في النص ولكنها تنتمي في الوقت نفسه إلى السجل اللغوي الذي يميز لواء غولاني، أو بالأحرى صورته الاجتماعية والثقافية.

يوفر التوتر اللغوي بين لغة يوسفل العامية واللغة المنمقة والغنية بالتلميحات التي استخدمها يوآف وشخصيات أخرى في القصيدة انعكاساً درامياً ومتطرفاً للنطاق الذي ميز الواقع اللغوي في اللواء في حرب الأيام الستة.

في الستينيات، لم تكن غولاني وحدة مرغوبة. المجندون لم يتطوعوا لذلك. تم تعيينهم، في بعض الحالات بعد الفشل في أعمال عسكرية، في مكان آخر يتم إرسالهم إلى لواء غولاني بمعنى المغضوب عليهم في الجيش أو المنسقين بلا فائدة، على سبيل المثال، عكس لواء شبيه بالقوات المرموقة أو في دورة تدريب الطيارين. معظم مقاتلي الكتيبة 12 التي قاتلت في تل الفخار لم يكونوا من مواليد "إسرائيل"، بل جاءوا من مناطق مختلفة من الشتات – رومانيا، سوريا، العراق. حتى موشيه كلاين، قائد الخفافيش، هاجر إلى إسرائيل من المجر في سن الثانية عشرة بعد فراره من الهولوكوست. جاء معظمهم من خلفية اجتماعية اقتصادية متوسطة إلى متدينة. يجب أن يأتي، لذلك، ليس من المستغرب أن صورة لواء غولاني العامة حتى حرب الأيام الستة سيئة نسبياً. من منظور تاريخي، أحدثت معركة تل الفخار تغييراً جذرياً في الموقف المهني والاجتماعي على حد سواء، تجاه اللواء وفي الصورة الذاتية لجنوده، الذين شعروا لأول مرة أنهم ليسوا بأي حال من الأحوال أقل شراسة من القوات الأخرى سواء في الحيلة أو الشجاعة. في الوقت نفسه، تم الحفاظ على رؤية اللواء على أنه يمثل جميع مستويات المجتمع.

6. التمثيل المرئي للمعركة

كتاب "يوم تل الفخار" مصحوب بعشرات الرسومات ليورام روزوف، كلها بالحبر على الورق، دون تفاصيل محددة. لا تشغل الزخارف مكاناً مركزياً أو

بارزاً في الكتاب، من ناحية أخرى، فقد دفنوا فيه تقريباً. هذه الحقيقة تثير بالضرورة عدداً من الأسئلة. ما هو نوع الحوار بين الرسوم والنص الشعري؟ هل الأول يتوافق مع الأخير؟ هل الرسوم التوضيحية مرافقة للقصيدة فقط؟ أم أنهم يقوضونها من خلال تمكين تفسير مختلف؟

يمكن فهم مساهمة روزوف الفنية بشكل أفضل في سياق سلسلة من الرسومات بالحبر على الورق التي أنتجها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات. ركزت السلسلة الفنية من اللوحات على الخسائر الفادحة التي تلحقها الحروب بالمجتمع الإسرائيلي، على خلفية أشياء تجسد القوة العسكرية مثل الطائرات والدبابات والبنادق والخوذات. تعرض هذه الرسومات القوة الجسدية كمصدر للضعف بدلاً من القوة: تم تصوير المقاتلين على أنهم 45 شخصية مهزومة وثابتة ومقيدة بدروعهم ومحاصرون بمصيرهم. "مع وضع هذا في الاعتبار، فإن قذيفة وعجلات الدبابة لا تظهر في اللوحة كرموز للقوة التي تُظهر إحساساً بالحماية والأمن، ولكن بالأحرى كمثال على فوضى الحرب وتشوه روح الإنسان ذاتها. يظهر الرسم الثاني أعلاه ممزقاً، حيث تبدو فتحة الدبابة كمدخل إلى حفرة عميقة أو هاوية، لا يمكن رؤية قاعها ولا مفر منه.

يثير رسم الجندي أيضاً مشاعر متناقضة. بينما يبدو أن رأسه وجسمه العلوي مغطيان تماماً، وبالتالي، يبدو أن هناك أشياء مدببة محمية جيداً من نوع ما، ربما أسهم، تخترق كتفيه. لا يوجد شيء للتعرف عليه. ليس من الواضح حتى ما إذا كان إسرائيلياً أم سورياً. هذا الغموض هو الذي يشير إلى الجانب الإنساني للحرب، الذي يطمس الخلافات بين المقاتلين من الجانبين.

تكشف رسومات روزوف عن التوتر بين الموثوقية الوثائقية والتفسير الذاتي، بين الرغبة في إبراز الوجود للرعب والموت والميل إلى وصفهما فقط بالإشارة وبإصرار إلى معركة تل الفخار كما تنعكس في الرسومات التي تفتقر إلى البعد البطولي وتعبيرات الشجاعة. إلى جانب تصوير الدبابات وأنصاف المسارات، التي تتمتع بجودة تصويرية تقريباً، يقدم روزوف الموت والرعب الذي صاحَبه بطريقة مجردة أو ضمنية تميل إلى الأسطورية. القصة التي يرويها، مع التركيز على واقع مليء بالرعب والموت، مختلفة عن قصة أورلاند. لا تُلمّح رسوماته إلى ماضي الأمة ولا تسعى إلى إنشاء اتصال بأي شيء يتجاوز المعركة نفسها. وبهذا المعنى، فإنهم يجرون حواراً تخريبياً مع الذات، والذي، كما ذكرنا سابقاً، يسعى إلى استخدام تل الفخار كنقطة أرخميدس في تاريخ الشعب اليهودي من خلال تأطير المعنى الرمزي للمعركة في هذا التاريخ.

7.كارثة شعرية أم أعظم ملحمة في جيلها؟

كان يوم تل الفخار تجربة أدبية جريئة ومبتكرة. مما لا يثير الدهشة أنه أثار أنواعاً مختلفة من ردود الفعل. قارنه البعض بشعر الحرب لشموئيل هناغيد، واصفين إياه بأنه "أعظم ملحمة في جيلها".

كتبت اللجنة التي منحت جائزة جابوتنسكي لأورلاند في عام 1976 في قرارها: "قصيدة يوم تل الفخار بمثابة صوت لتجديد الشجاعة اليهودية. إنها قصيدة صريحة وغامضة في نفس الوقت، قصيدة عبرية للغاية وفي نفس الوقت هي أيضاً إسرائيلية للغاية"، ووصف يوسيف نيدافا القصيدة بأنها: "رجل صهيوني ذو مغزى كبير". وأنها "الوثيقة البشرية، وأحد أروع الأعمال

الأدبية في اللغة العبرية الحديثة". (وقد تقاسم اورلاند الجائزة مع الجنرال عوزي ناركيس عن كتابه "اورشليم الموحدة").

ومع ذلك، حتى أولئك الذين أعجبوا بقصيدة أورلاند كانوا مدركين للهيكل الإشكالي والجودة غير المتكافئة والصعوبات المرتبطة بالتحولات الأسلوبية التي تكمن في مصدر الشخصية الفريدة للكتاب.

أكد دان ميرون، الذي انتقد القصيدة، أن أورلاند قد أخذ على عاتقه مهمة جريئة: أن يكتب شيئاً مستحيلاً، ليس فقط من وجهة نظر الأسلوب، ولكن أيضاً من المنظور الفلسفي والثقافي. بلغ المشروع ذروته، كما كتب في تحليله، في "فشل فني"، والذي في النهاية "يرتفع إلى مستوى الكارثة الشعرية". ثم خفف من حدة انتقاداته: "أنا لا أخفي وجهة نظري القائلة بأن البنية الفكرية والأسلوبية ليوم تل الفخار ليست قابلة للحياة، على الرغم من أجزاء القصيدة العديدة الجميلة".

"في رأيي، سعى أورلاند إلى التعامل مع قصته مع البعد الأسطوري لتل الفخار، مع حقيقة أنها محفورة في التاريخ العسكري للجيش الإسرائيلي كمعركة تأسيسية، على الرغم من كونها مليئة بالإخفاقات العملياتية – أو ربما بسببها. الحقيقة الشعرية في ذات أورلاند في حوار معقد مع الحقيقة التاريخية والحقيقة الأسطورية التي تشكلت في العقل القومي والثقافي. لا تحاول أن تقرر أي منهما لأنها غير قادرة على القيام بذلك. إنها تسعى فقط إلى إدامة التوتر بينهما لأن المحادثة المستمرة بين الشعر والواقع والأسطورة هي مصدر قوة وحيوية شعر أورلاند.

وفي الضمائر لعبة لغوية لها بعد شعريّ

قراءة في ديوان الشاعر الفلسطيني الأسير أحمد عارضة

فراس حج محمد/ فلسطين

شاعر وناقد من فلسطين، مواليد مدينة نابلس 1973، من أعماله: "رسائل إلى شهرزاد"، "من طقوس القهوة المُرّة"، "ما يشبه الرثاء"، "وأنتِ وحدكِ أغنية."

تعود أصول الشاعر أحمد تيسير العارضة إلى فلسطين المحتلة عام 1948، وتحديداً قرية اليازور التابعة لمدينة يافا، ولد الشاعر العارضة في نابلس عام 1983، وهو من سكّان مخيم عسكر سابقاً، قبل أن تنتقل أسرته للعيش في مدينة نابلس، اعتُقل بتاريخ 2004/11/2، وحكم عليه بالسجن المؤبد ثلاث مرّات، وله ثلاثة دواوين: "وشم على قارعة العدم" 2012، و"خلل طفيف في السفرجل" 2013، و"أنانهم"2021. وما زال الديوانان الأوّلان مخطوطين.

استطاع الشاعر المنافسة بديوان "خلل طفيف في السفرجل" والوصول إلى مرحلة أفضل اثني عشر ديواناً في جائزة الشاعر الشاب ضمن جائزة عبد الرحيم محمود للإبداع عام 2013. وقد أشادت لجنة التحكيم بالديوان وبتميّز "اللغة الشعرية الثرة والصورة الفريدة والتأمل العميق" ، كما وصف الروائي إبراهيم نصر الله قصائد الديوان بأنها "نموذج رائع لصورة شعب يصر على التمسك بجمال روحه بالأدب والفن، كما يتمسك بتراب أرضه". ويضيف نصر الله "أن هذا الشاعر استطاع أن يتطوّر أكثر مما تطورت أقلام شعرية كثيرة، تنعم بالهواء خارج قضبان السجن وحلكة لياليه" . أما ديوان "أنانهم"

فإنه يثير شهيّة الحديث منذ عنوانه حتى آخر جملة فيه، فكلما تأملت صنيعه في هذه البنية اللغوية غير المألوفة تفتقت في الذهن معانٍ تلو أخرى.

يشكّل العنوان بؤرة تأويل معنوية غنيّة في هذا الديوان، فهو مكوّن من تركيب اسميّ مأخوذ من توليف إيقاعي لثلاثة ضمائر مبثوثة في ثنايا القصائد أو عناوينها: أنا ونحن وهم، فأصبحت "أنانهم"، موظفا ما تُتيحه اللغة وقوانينها من قواعد للنحت، المسمّى في عرف بعض اللغويين "الاشتقاق الكبّار"، فقد نحت الاسم- أيْ صاغه- من ثلاث كلمات، وقد وزع تلك العناوين على ثلاثة أقسام في الديوان، فضم القسم الأول "أنا" تسع قصائد، واحدة منها بعنوان "أ ن ا"، في حين جاء القسم الثاني "ن" مكونا من سبع قصائد، وأما القسم الثالث "هم" فضمّ ستة قصائد، وبذلك يتكون الديوان من اثنتين وعشرين قصيدة، التزم فيها الشاعر التفعيلة، وجاءت متنوعة على خمسة بحور شعرية، وهي (الكامل، والمتقارب، والوافر، والمتدارك، والهزج)، ولا يخفى ما في هذه البحور الشعرية من غنائية واضحة.

تذكّر هذه اللعبة الشعرية من توظيف الضمائر بلعبة مقاربة نوعا ما لما فعله محمود درويش، فكان هناك أربعة ضمائر جاءت عنواناً لأربع مجموعات من قصائد ديوان "كزهر اللوز أو أبعد"، فكل ضمير من هذه الضمائر (أنت، هو، أنا، هي) تندرج تحتها مجموعة من القصائد. ويعيد إلى الأذهان كذلك ما فعلته الشاعرة نداء يونس في مجموعتها الشعرية "أنائيل"، فكان صنيع العارضة شبيهاً في تقنية التسمية بما فعلته نداء، مع الاختلاف في عناصر النحت وتأويلاته الشعريّة بكلّ تأكيد. وبما فعله محمود درويش من الاستفادة من اللعب بالضمائر وتفجير ما فيها من إمكانيّات شعريّة داخل النصوص

ذاتها. فلكل تجربة إبداعية خصوصيتها وإن التقت في بعض الخيوط مع تجارب الآخرين.

لعلّ اللافت للنظر، ولا أدري هل كان الأمر مقصوداً أم محض صدفة إبداعيّة غير واعية ولم تخطر على بال الشاعر، أن يكون هناك علاقة بين "أ ن ا" المكتوبة بهذا الشكل المتقطع وبين المعنى المبثوث في القصائد أولا، وثانياً بين الحرف "ن" الذي يومئ إلى الضمير "نحن"، ويُكتفى به مثلا في أول الفعل المضارع المسند إلى هذا الضمير ليدلّ على جماعة المتكلمين، وبين "نا" الذي يأتي في ذيل الأسماء والأفعال الماضية للدلالة على مجموعة الفاعلين مرة، ومفعولا بهم مرة أخرى عند الاتصال بالأفعال، ويكون هذا الضمير "نا" سببا في تعريف الأسماء إذا اتصلت بها. كأن هذا الحرف (ن) قد ارتقى ليكون اسماً ليس مجرّد ضمير يدل على الاسم ضمناً، بل له مآرب آخرى.

وتتوالى الدلالة لتذهب حيث القرآن الكريم، وقوله تعالى "نون، والقلم وما يسطرون"، أو إطلاق النون على الحوت في القرآن الكريم كذلك في وصف سيدنا يونس عليه السلام كما في قوله تعالى "وذا النون إذ ذهب مغاضباً، فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات". كأنه يستعير في اللاوعي تجربة سيدنا يونس في بطن الحوت وهو في بين جدران السجن، فثمة ما هو متشابه جدا بين التجربتين الإنسانيتين وتلتقيان عند الوحدة والانعزال القسري. وصولا إلى معنى النون الصوفي بوصفه حرفا تتجلى فيه معانيَ شتى، أفاض في شرحها الصوفيون، كأمثال ابن عربي والسهروردي الذي قال في يدل هذا الحرف على: "نزوع إلى المطالب لأجل ثمرات المأرب".

عليّ أن أقتنع أن الشاعر قد تأمّل كل ذلك؛ فخرج بهذه الصيغة من العنونة الأساسية، عنوان الديوان، والعنونة الداخلية؛ عنوان الأقسام وعنوان واحدة من القصائد. فثمة رابط لغوي– إذاً– يجمع بين الأقسام الثلاثة، ويصبح النحت في الضمائر لتشكيل بنية اسمية جديدة، دالّاً على نحت كليّ من مجموع القصائد لتُشكّل ديواناً واحداً ذا عنوان مشتق من العناصر المكونة له بوصفه كتاباً.

هذه الكيفية المتوهمة–ربّما– لهذا الدالّ بصيغته المشار إليها أعلاه، قد تحمل– كما ألمحت سابقا– إلى شيء من المضمون، بمعنى أن طريقة الكتابة هي طريقة واعية ينحاز إليها الشاعر وهو مدرك لصنعته الشعرية، فالعلاقة اللغوية الحرْفية المتصلة بين أنا بطرق كتابتها المختلفة لها علاقةُ معنى بالحرف/ الضمير "ن"، فالأنا الفردية هي جزء من نحن، سواء على مستوى الخطاب الجمعي للشاعر، أو على مستوى الانتماء الفعلي القوميّ المكوّن للهوِيّة، فعلى ذلك فالأنا الفردية حاضرة على مستويين، المستوى الفردي الخاص بالشاعر والمعبر عنها بـ "أنا"، وكذلك فإن هذه الأنا هي جزء من هذه الـ "نحن". هذه قراءة محتملة خاصة بالعنوان. قد يعززها أو يعصفُ بها ويجعلها غير منطقية ألبتة طريقة كتابة العنوان على الغلاف الخارجي بحيث كتبت "أنانهم" بلونين مختلفين، فأبرز العنوان الشق الأول "أنا" باللون الأحمر وجعل "نَهُمْ" باللون الأسود. ماذا يعني كل هذا سيميائياً؟

لا بد من أن أذكّر أولا بالعلاقة التي تحكم الضميرين أنا ونحن، فهما واحد في حقيقة الأمر، فكلّ "نحن" مكونة من "أناوات" متعددة منصهرة في مكوّنٍ جديد، يكتسب هويته الجمعية من جميع صفات أفراده، لكنّ لهذا الطرف من

العنوان مضادّاً يقف نقيضا له على الدوام، وهو "هم"، ولذلك يبدو لي أنّ هذه العنونة بهذه الطريقة مؤشر لقراءة العنوان ضمن ثنائية أنا– الآخر، وأنا هنا ستكتسب المعنيين الفردي والجماعي، الفردي الشاعر أو الأسير، كما تؤكد ذلك قصائدُ هذه المجموعة، لكن دون أن تقول ذلك صراحة، فعلى سبيل المثال يقول الشاعر في قصيدة "أ ن ا":

أنا رأس الحرابِ

إذا أراد من تولوا سوقنا

إعلان خطتهم

لترسيم السحاب (ص23)

ففي هذا المقطع تحضر الضمائر الثلاثة (أنا، ونحن، وهم)، وتراوح القصيدة بين هذه الضمائر، مع حضور مركزي لأنا فيها، حيث يبدأ كل مقطع من مقاطع القصيدة السبعة والعشرين بهذا الضمير "أنا"، فمرة يكون مؤشرا على أنا الشاعر، ومرة على أنا ضمن الجماعة "نحن"، وهو في كلتا الحالتين: الفردية والجماعية مضاد ونقيض لهؤلاء المعبر عنهم بـ "هم"، فثمة صراع يظهر مرة ويبدو مرات، ويشتد حينا، وحينا يخفت بين هذين الطرفين، ولأن الشعر يومئ ولا يقرّر، ويصوّر، ولا يقدّم معلومات جاهزة، ويقوم على القلق والشك، وليس على اليقين، جاءت الصور مخاتلة في معانيها وما تبدو عليه، ولعلّ هذا القلق الإبداعي المسيطر على الشاعر في لاوعيه جعله يكتب أنا بطريقة مقطعة (أ ن ا)، غير متصلة، على ما في ذلك من لفت انتباه القارئ، ودفعاً له ليتأمل ما وراء هذه الصورة الخطية من خطاب مستتر، وكأنه لا

يريد من قارئه أن يأخذ خطابه المعلن في القصائد فقط، فهناك معانٍ أخرى على القارئ أن يبحث عنها. فلعلّه يشير إلى حالة من التشظي التي تعيشها الذات الفردية بهذا القلق، وتشظي الذات الجماعية وما تعانيه من انقسام وضياع.

قصائد هذا الديوان لا تعطي القارئ معناها مباشرة، لكنها أيضاً لا تجعله عاجزاً، وأمام أعتاب القصائد محتارا يبحث عن ظلال من المعاني في طلاسم دون مفاتيح، فقصائد هذا الديوان تحثّ القارئ وتستدرجه وتنبهه، وتأخذ بيده نحو دهليز مضاء بالصورة الشعرية الرائقة، تدفعه ليقرأ فينسى المعنى ليجري وراء هذا الانسياب الإيقاعي الهادئ في هذه النصوص، إذ تنمّ هذه الإيقاعية الهادئة عن شاعر قادر على استدراج قارئه، فثمة شعر تحسّ معناه وتفهمه في داخلك، وترتاح إليه، ولكنك إن شرحته قاومك المعنى، وتفلت منك، هذا النوع من القصائد يصنع شاعريته ببنيته اللغوية ومن ترديد هذه البنية، فكأنها بنية قائمة بذاتها، مستقلّة عن غيرها تصنع تأويلاتها من داخلها، ولا تستند على ما هو خارج النص لفهمه. سأختار فيما يلي هذا المقطع من القسم الثاني من قصيدة بعنوان "عطر مدينة– أو أمّ الغريب":

من أين جاءوا

كيف يفترشون فيء العشق

في سحَر الطريق؟

وروائح السمك الذي ملّ الغيابَ

لعاشقين بشاطئٍ

سلبوا حصاه)

- يتذكر السمك الذين قضوا هنا بيد الغزاةْ-

في هذا النص عودة لحنين ما، لمدينة ساحلية فلسطينية هي "أم الغريب"، مدينة يافا- مدينة الشاعر المحلوم بالعودة إليها- وسيعود الشاعر إليها في قصيدة "خذي يافا" في القسم الثالث من الديوان (ص111). يرسم المقطع تلك العلاقة المشار إليها أعلاه بين نحن وهم، نحن العاشقون، ومعنا أشياؤنا ومتعلقاتنا وأخصّ ما يدلّ على مدينة ساحلية، الصيد والسمك ورائحته، وهم الذين فرضوا سيطرتهم على المكان، فصرنا نحن ضحايا-هم.

كما تبدو أنا الشاعر هنا بوصفه سارداً لملمح من ملامح المأساة الفلسطينية، وعليه، فقد تحولت الأنا المركزية شاهدا على هذه المأساة مرتين، مرة بالسرد الشعري، ومرة أخرى كونه أحد أفراد العاشقين الذين ينتمون لأم الغريب (يافا)، ووقع عليه ما وقع على الآخرين، فالسارد للحكاية يتحمّل مسؤوليتين، مسؤولية السرد وتبنّي رواية ما، ومسؤولية الحكم القدري بحكم أنه ضحية أيضاً فعليه أن يقاوم، فيتلمّس عطر هذه المدينة في كل أشيائها، ومحيلا أيضا إلى ذاك الصراع الذي ما زال محتدما بين نحن وهم، أو بين الأنا والآخر.

ربما يلحظ القارئ لقصائد القسم الثالث معنى آخر للضمير هم، إنهم ليسوا فقط المضادّ والنقيض/ الغزاة، إنهم ليسوا ذلك الآخر الذي دخلنا معه في صراع طويل الأمد. إنّ "هم" تعني كذلك نحن بصيغة ما، تعني جزءنا الراحل عنا أو البعيد الذي لا نستطيع رؤيته، ويثير في الشاعر الحسرة والألم إنهم: "الأمّ" كما في قصيدة "شتاء" (ص91)، و"الأب" كما في قصيدة "عليكَ

السلام" (ص101)، و"أنتِ" المرأة المعشوقة كما في قصيدة "إليك وقد نضج النخيل" (ص107) وقصيدة "سلام هي" (ص115)، و"أنتنّ" في قصيدة "أنتنّ أجمل". (ص87) فما المقصود بهذا الضمير "أنتنّ"؟ ربما جاء مدلول الضمير غائماً؛ إذ قد يؤولها البعض بالنساء الجميلات؛ فأنتنّ تستخدم لمخاطبة جمع المؤنث العاقل، وربما تفسّر بالمدن الفلسطينية، أو بالقصائد. يقول في أحد المقاطع:

أنتنَّ شمسُ أناملي،

في الليل تمنحن الأراجيح الطفولةَ

والخرافة والنعاسْ (ص87)

أظن أن الشاعر يتغزل بقصائده التي افتتن بها، ورأى فيها أجمل من النساء ومن النجمات ومن كل شيء عداها، فقد وصفها بأجمل ما يصف عاشق محبوبته بلغة شعرية عالية ومكثفة وصور طريفة، تدعو للتأمل والتحليل، مانحاً تلك القصائد الحياة والعقل أيضاً عندما عدل عن الضمير "هي" في مخاطبتها ليخاطبها بأنتنّ. ويختم قصيدته مؤكداً هذه المنزلة لتلك القصائد- إن صحّ فهمي- بقوله:

أنتنّ أرخمُ من ترنّم جدولٍ

صافٍ

يحاور صورة الله البهيّةَ

بالخريرْ (ص89)

يا لله! ما أبدع هذه الصورة! بكل صور هذه القصيدة التي تدعو إلى التأمل وتشير إلى علاقة الشاعر بشعره، ولشدة تعلقه الوجداني بهذا الشعر، فقد جعل القصيدة مجموعة من المقاطع، وكل مقطع يبدأ بالضمير "أنتنّ" متبوعاً باسم التفضيل، عدا مقطعين اثنين، واللافت للنظر في بناء هذه القصيدة تكرار "أنتنّ أجمل" أربع مرات، من المقاطع الثمانية المتبقية. ثمة هندسة – إذاً– يقوم عليها بناء هذه القصيدة التي تُعلي من شأن الشعر وبنات أفكاره المسماة "القصائد".

هذه بشكل عام تجلّيات حضور الضمير في ديوان "أنانهم" للشاعر الأسير أحمد العارضة، وقد كان للضمير المنفصل حضور واضح في القصائد، (أنا ونحن وهم وأنت وأنتن وهي)، فقد جعل من تلك الضمائر مركزية في النص الشعري من خلال التكرار الذي صاحب حضور هذه الضمائر، الأمر الذي يعلي من شعريتها، أو محاولة تثويرها شعرياً للاستفادة من إمكانياتها الإيقاعية والمعنوية.

ومن خلال ما بينه الناقد وين بوث فإن الديوان يظهر صورة ضمنية لكاتبه، وتتجلى هذه الصورة في كون المؤلف شاعراً ينحاز إلى القصيدة بكل متطلباتها الفنية؛ من مجاز، ولغة وصورة أدبية مبتكرة، شاعر منحاز إلى شعر التفعيلة الموزون، وبذلك فهو يحقق التجريد المطلق كونه "كائناً لغوياً" كما سبق للشاعر محمود درويش أن وصف نفسه. وهذا أهم ما يميّز الشاعر– أي شاعر. عدا هذا أيضاً، فالعارضة يعيد إلى الذهن ملامح الشعر المقاوم بأسلوب شعري رصين، مفتوح على المأساة الخاصة التي أحذت منحى جماعياً، وأما الملمح الثالث في صورة الشاعر الضمنية في ديوان أنانهم

فبدت في تأكيده الانتماء إلى بلدته، اليازور، من أعمال مدينة يافا أم الغريب، بكل ما يتصل بيافا أيضا وبحرها، وخاصة الصيد، كأننا أمام صيّاد سمك فلسطيني، يتنزه على شواطئ يافا ويستمتع بهوايته المحببة لديه.

وبعيداً عن أحكام القيمة التي لا يحبّذها النقد المعاصر، أكتفي بالقول إن ديوان "أنانهم" ينبئ عن ولادة شاعر "يجري ولا يجرى معه" ، على الأقل بين أبناء جيله من الكتّاب الأسرى، بل وأن تقرأه وتتأمل ما فيه من جماليات وصور وتعابير تبعث على الدهشة المكتنزة بالمعنى، فولادة شاعر بهذه الكيفية من قلب السجن، استطاع أن يروّض اللغة لتصبح جداول ماء هادئة، ولم تجرفه عواصف النضال لقرقعة اللغة المباشرة والصوت العالي، ليستحقّ أن يوصف بأنه "شاعر"، وشاعر مقاومة أيضاً بحسّ إنسانيّ مرهف، عذب وحسّاس، يضيف إلى مدونة الشعر الفلسطيني نصوصاً قادرة على البقاء، مفتوحة على التأويل، وأن يحقّق نوعاً من التعويض في مواجهة "الفيضان السردي"- بأنواعه كافة- المتدفق شلالا عذبا منبجساً من عتمة الزنازين، فإذا ما كان السرد مصباحا بيد الساردين الروائيين يضيء الطريق، فإن الشعر هو الشمس التي تطلّ من عليائها، تكشف عن بهاء جمالها، لتضيء الروح والوجدان والطريق كذلك، فإن لم تُضأ الطريقُ والأرواحُ واللغةُ بمثل هذا الشعر، فلا شيء يمكنه أن يفعل شيئاً إذاً. ولذا، وجرياً على عادة العرب القدماء الذين لم يكونوا يحتفلون إلا بفرس تنتجُ أو بغلام يولد أو شاعر ينبغُ، فإنه لمن الجدير بأحمد الاحتفال به، فقد نبغ شاعراً، أسس لشاعريّة مميّزة في دواوينه الثلاث، وخاصة ديوان "أنانهم". وآمل أن يستمرّ شاعراً وألا تجرفه سيول السرد، فيضيع صوته، وتتبخّر شاعريته في الغابة المزحمة.

قراءة في رواية سيناريو لسليم البيك

نور عباس

كاتبة وناقدة سورية، ماجستير أدب عربي.

يمكننا تقسيم الرواية إلى ثلاثة مراحل نصية:

المرحلة البصرية:

تبدأ الرواية في سياق مكاني محدد وهو المقهى، ويتميز هذا المكان بأنّه مكان وظيفي، خدمي، متجدد بشرياً، إذ يحتضن أفراداً متمايزين، مدة زمنية محددة، ليُستبدلوا، تباعاً، بأفراد آخرين، وذلك بصورة تلقائية طبيعية، وقد يحدث أحياناً أن يرتبط شخص ما، نفسياً، بهذا المكان، فيغدو تواتره عليه مستمراً، ويتحول عنده إلى مكان ارتيادي ثابت نسبياً.

وقد التقى في هذا المكان شخصيتان: كريم، وشخصية _ سنعرف اسمها لاحقاً_ شارلوت، هاتان الشخصيتان متمايزتان، فكريم شخصية طارئة على السياق المكاني العام، فهو ذو خلفية لجوئية متراكمة، أوصله التراكم اللجوئي الممتد إلى فرنسا، وشارلوت هي ابنة المكان العمومي، إذ لم تختبر الحركة اللجوئية التي اختبرها كريم.

ويتميز هذا اللقاء، بدايةً، بأنّه لقاء تواصلي، بصري، متأثر بهندسة المكان، فكريم كان يحاول التقاط تفاصيل شارلوت، بصرياً، من دون أن تنتبه لهذه الحركة البصرية المراوغة التي تحاول التقاطها،

إلا أنّ التوزع الهندسي للشخصيتين داخل المكان منع كريم من التقاط الصورة البصرية لشارلوت التقاطاً كاملاً من دون أن يثير انتباهها، لذلك كان لا بدّ له من أن يتموضع، مكانياً، في سياق أبعد قليلاً يمكنه من رؤية شارلوت بصيغة غير مجتزأة.

ويحضر أيضاً عنصر هندسي آخر ضمن الفراغ المكاني ألا وهو الحاجز الزجاجي، الذي يفصل الحيز الداخلي للفراغ عن الحيز الخارجي، هذا الحاجز الزجاجي لم يكن يراقب كريم من خلاله حركة الذوات المجهولة المتحركة خارج الحد الزجاجي، بل كان يراقب أيضاً حركة شارلوت المُنتقلة من فضاء المكان الداخلي إلى فضائه الخارجي لتسير مثل أي ذات مجهولة في السياق العمومي، والمُنتقلة أيضاً انتقالاً عكسياً من الفضاء العمومي الممتلئ بالآخر إلى فضاء المقهى الداخلي الأكثر حميمية.

تتحول الرواية إلى مستوى آخر عندما ينقل كريم هذه العلاقة البصرية البدائية بينه وبين شارلوت من المستوى الواقعي إلى المستوى التخييلي، إذ سيقرر إدخال شارلوت إلى مذكراته اليومية، وجعلها تعيش معه، نصياً، حياة موازية للحياة العلائقية السطحية ضمن المقهى.

إلا أنّ هذا القرار اصطدم عند كريم بعدم معرفته لاسم شارلوت ، فهو يعرف تفاصيلها الشكلية، وطريقة جلوسها، ومشروبها المفضل، لكنه لا يعرف هويتها الاسمية، لذلك كان لا بدّ له من أن يسألها عن اسمها، فهو لا يريد أن يبدأ نصه التخييلي باسم متخيل، بل يريد أن ينسج حياة تخييلية لذات لها هوية اسمية واضحة.

إنّ هذه العلاقة البصرية التواصلية المنتقلة إلى المستوى النصي التخييلي وضحت لنا إشكالية مهمة في حياة كريم، فمنذ وصوله إلى فرنسا كانت له علاقات عدة مع نساء مختلفات، ولاسيما كلارا، إلا أنّ هذه العلاقات كانت فقط على المستوى الجسدي من دون أن تمر بالمستوى العاطفي، لذلك بقي لديه جانب مهمش، حاول ملأه من خلال رغبته بإقامة علاقة مبنية على الجانب العاطفي، وكانت شارلوت هي الفتاة التي من الممكن أن تكون بالنسبة له موضوعاً لعلاقة عاطفية وجسدية.

قد يظهر أنّ اختيار كريم لشارلوت بوصفها موضوع حب ممكن الحدوث اختيار اعتباطي؛ إلا أنّ هذا الاختيار هو اختيار داخلي منظم، نابع من منطقية خاصة كامنة في البنية النفسية الداخلية لكريم.

فهذه المرحلة النصية من الرواية يغلب عليها: تفعيل القيمة البصرية التواصلية، وتخفيض أكبر قدر من التواصل اللغوي السمعي، وبروز الرغبة في نقل الآخر غير القادر على التواصل السمعي اللغوي معه إلى حياة نصية تخييلية موازية، وحضور إشكالية الحب: الجسد، المحركة أساساً لتفاعلات كريم مع شارلوت.

مرحلة المصادفة المُغيّبة مؤقتاً:

تبدأ هذه المرحلة في الرواية عندما يقرر كريم اللحاق بشارلوت للتواصل معها، متجاهلاً رغبته الدفينة في أن يكون هذا اللقاء التواصلي المباشر مبنيّاً على المصادفة؛ إذ تحضر مقولة المصادفة حضوراً جوهرياً في البنية العميقة لنفسية كريم، فهو يرغب بعلاقة حب مبنية على المصادفة النموذجية مكتملة

الشروط، وموازية لقصص الحب المتمحورة حول اللقاء التصادفي في الأفلام، إلا أنّه تجاوز، هنا، هذه الرغبة، وقرر القيام بحركة محورية لكسر الحاجز التواصلي المباشر بينه وبين شارلوت.

ستكون نتيجة هذا اللحاق المفاجئ غير المخطط لقاء تواصلياً، ترافقياً، عبورياً، ممتداً من المقهى إلى القرب من منزل شارلوت، من دون أن يؤدي هذا اللقاء التواصلي إلى ما يرغب به كريم، إذ كان يريد التقرّب من شارلوت والدخول إلى منزلها، إلا أنّ عناصر المصادفة النموذجية لم تكن متحققة كاملة، إذ كان المنزل مُناراً مما يعني أن صديقة شارلوت في المنزل، وبالتالي لا يمكن لكريم أن يحقق ما يرغب به من هذا التواصل العبوري.

ستنقطع شارلوت عن الكافيه، تاركة كريم في خضم سيناريوهاته التي سيؤلفها عن معنى هذا الانقطاع وأسبابه، سيمتد هذا الانقطاع فترة زمنية طويلة نسبياً، وسيفقد كريم الأمل في عودة شارلوت، موضوع حبه المأمول تحقيقه، لذلك سيغادر المقهى وينقطع عنه، إذ غاب العنصر الجوهري الذي يربطه بالمقهى (شارولت).

هذا الانقطاع المزدوج، أي انقطاع شارلوت وغياب الفعل التواصلي الممكن معها، وانقطاع كريم عن المقهى أحدث فجوة فراغية في حياة كريم، في خضم هذه الفجوة سيتعرف على ريما، فتاة قادمة إلى باريس من حيفا، تلك المدينة التي لم يختبرها كريم واقعياً، والمرتبطة عنده بتصورات ذهنية عن ماهية الحياة فيها، هذا اللقاء مع ريما كان لقاء تصادمياً، إذ لم يفضي إلى إمكانية تواصل فاعل وحميمي بين الشخصيتين.

ومن هنا فإن هذه المرحلة النصية من الرواية يغلب عليها: التغييب المفاجئ لبنية المصادفة المتعلق بها كريم نفسيا، حدوث فعل تواصلي عبوري تلاه غياب غير مفسر حرك السيناريوهات المتخيلة في ذهن كريم، وبروز فجوة فراغية أدت إلى فعل تواصلي غير نموذجي مع ريما.

المرحلة الثالثة: في العودة الصدفوية

تتمحور هذه المرحلة حول مبدأ المصادفة؛ فبعد أن استسلم كريم لغياب شارلوت وابتعادها، ستحدث مصادفة جديدة في السينما، إذ سيلتقي هناك مع شارلوت. فما كان غير محقق في المرحلة السابقة؛ أي اللقاء الصدفوي التلقائي، سيحدث في هذه المرحلة، معيداً البنية الصدفوية النموذجية إلى سياقها الطبيعي المأمول.

سيعرف كريم، في أثناء هذا اللقاء، أن غياب شارلوت عن المقهى لم يكن غياباً مقصوداً للابتعاد عن لقائه، بل كان بسبب رحلة قامت بها مع صديقتها، وأنها، بعد عودتها من الرحلة، ارتادت المقهى، وانتبهت إلى غيابه، وافتقدت وجوده.

هذا اللقاء الصدفوي سيوصل كريم إلى ما كان يرغب به، أي علاقة جسدية مع شارلوت لها جانب عاطفي ومختلفة عن علاقته السابقة مع كارلا. كما سيفضي به إلى سلسلة من اللقاءات الصدفوية العفوية مع صديقة شارلوت وريما؛ إذ ستكون ريما التي دخل معها في أثناء المرحلة السابقة بعلاقة تعارفية صدامية على معرفة بصديقة شارلوت.

فغدا كريم محاطاً بثلاث نساء، هذه الإحاطة ستدخله بمقارنة بين علاقته هو بالمكان وعلاقتهن به، فهو عاش تراكماً لجوئياً ممتداً، أوصله إلى فرنسا، وهذا التراكم أثر في علاقته بالمكان، وتعريفه لهويته المكانية الخاصة، فهو فلسطيني لكنه لم يختبر مكانه الأول المفترض، بل اختبر مكان اللجوء، أي المخيم في سوريا، لكنه ليس سورياً ايضاً، ذلك على الرغم من اختباره للمكان السوري بوصفه لاجئاً فلسطينياً، هذه العلاقة بالمكان لم يجدها عند شارلوت وصديقتها المنتميتان تلقائياً لسياقهما المكاني، وكما لم يجدها عند كلارا التي تعيش في فرنسا، أي في بلد غريب عنها، ولكنها تمتلك سياقاً مكانياً محدداً اختبرته وتعرف تفاصيله، ويمكنها العودة إليه، ولا يجدها أيضاً عند ريما الآتية من حيفا والرافضة العودة لها والمختلفة نظرتها للمكان عن نظرة كريم.

ومن هنا فإن هذه المرحلة النصية في الرواية تقوم على مبدأ: اللقاء الصدفوي النموذجي المعوض عن اللقاء السابق، وإشباع إشكالية الجسد: الحب، وظهور إشكالية العلاقة بالمكان من خلال اللقاء الصدفوي مع شخصيات عدة لها علاقات مكانية مختلفة.

فالرواية تتكون من هذه المراحل النصية الثلاثة، واضعة إيانا أمام ذات فقدت علاقتها التطورية بالمكان، وانتقلت إلى سياق مكاني غريب، فتجعلنا نشاهد إشكالياتها مع الحب: الجسد، ونذهب معها في علاقتها البصرية المراوغة مع الآخر، ونتحسس تعالقاتها مع المكان ورؤيتها لاختلاف علاقتها المكانية عن علاقات الآخر.

رواية الشيخ والفول*.. دمشق بلا أسماء

حسين جرود

شاعر وكاتب سوري، صدرت له مجموعة شعرية بعنوان "فلسفة القاع".

في روايته الأولى، الفائزة بجائزة حنا مينة للرواية 2019، يسرد مازن النفوري على لسان بطل الرواية –طالب جامعة، 20 عاماً، نازح مع عائلته إلى دمشق منذ سنوات، ويعمل على عربة فول– حكاية المدينة بعيون هذا الصبي الغريب، لنرى حال المدينة بعد سنوات الحرب، وقسوتها، وروحها التي لا تموت.

هذه الرواية التي تدور أحداثها سنة 2016، وتبدأ بصراخ الشيخ (صاحب بسطة الكتب) على جاره بائع الفول، لأن أصابع الزبائن الذين يتناولون الفول هي ذاتها التي تلوّث كتبه، ثم يرمي له علبة مناديل ورقية ليقدمها للزبائن ويهديه آخر كتاب تضرّر (1984 لجورج أورويل)، قبل أن يتوقع الشيخ دون سابق إنذار هطول المطر ويغادر... قد لا تزيد عن هذه الصورة البسيطة المعبرة.

«رحل الحجي ولكن كلماته لم ترحل... أخرجت كتابه الذي أعطاني إياه أمس من بين كتبي... كنت قد بدأت قراءته ليلة الأمس عازماً على إنهائه وإعادته حسب مبدأ الشهامة الذي عوّدنا عليه والدي... الكتاب كان مليئاً بالسواد والتشاؤم فالبطل يعيش في عالمٍ موازٍ غريب، واليأس هو سيد الموقف... انتظار الموت أو الأسوأ هو ما يشغل بال الشخصيات... هل تقصّد الحجي إعطائي هذا الكتاب؟... أم أن القدر هو ساق زبوناً لا يتحلّى بآداب اللباقة

من شيء ليلطخ صفحات هذا الكتاب بالتحديد؟... أو هل حقاً كان الحجي كما يُشاع؟... (مخاوي)...!». (الرواية ص 38)

يتجنب الراوي تسمية الشخصيات، فنقرأ: الأم، العروس (الأخت الكبرى)، الأخت الصغيرة، العم، زوجة العم، الشيخ. وبعد توطد علاقته مع الشيخ تكثر الأسماء ولكنها تدور كلها في الفلك ذاته وتخضع للمنطق نفسه، فكما كان أفراد الأسرة قسمَين، الأول يضم الجميع تقريباً حيث الطيبة والمحبة والأسرة، والثاني يضم العم وحده بوصفه تاجراً من تجار الحرب. يضم القسم الأول – بعد ذلك– جماعة الشيخ حيث الطيبة والمحبة والأسرة، والقسم الثاني الزعيم وصبيانه.

يتخبط الراوي بين عزو (صديق الطفولة الذي أمَّن له عربة الفول ولكنه طلب أجرة شهرية مرتفعة تُقدَّم للزعيم من أجل الحماية)، والشيخ الذي تدور حوله شائعات كثيرة بأنه «مخاوي» أو مدعوم أو أحد الأولياء أو محتال يجمع حوله بعض المتسولين والعاهرات ويحوي بيته عدداً كبيراً من الأطفال يرسلهم في النهار للعمل ويستخدمهم في الليل لإشباع نزواته. إذ يطلب الشيخ من بائع الفول أن لا يدفع لعزو، وعندما يقرر المضي مع كلام الشيخ، تتغير حياته كلها.

الأولاد الكثر في منزل الشيخ، هؤلاء المشردون الذين عليهم العمل على إشارات المرور وبيع بعض البضائع البسيطة لتأمين قوتهم، لا يستطيعون الالتحاق بالمدرسة، رغم أن الشيخ أمن لهم البيت والعائلة. ومع انتقال بائع الفول للعمل مع الشيخ، يعطيه غرفة من منزله ليحولها إلى مدرسة مسائية.

إضافة إلى الأولاد المشردين، يعيش في البيت سكان كثر، يتغيرون كل عدة سنوات، إذ نرى أم مريم التي أنقذها الشيخ من مصير تعس بعد تخلي زوجها عنها، وابنتها مريم التي تدرس الفلسفة، ويوسف عازف العود المدرس في المعهد العالي للفنون المسرحية، وعبدو الأخرس الذي يعمل على عربة لنقل البضائع في سوق الحميدية، وآخرون... وتصف مريم ذلك بقولها: «كلنا هنا عائلة واحدة رغم عدم وجود صلة قرابة واضحة بيننا».

التدريس؛ مهنة الوالد المفقود، لها مع الراوي ذكريات حلوة ومرة، وأعطته لكونه طالب اللغة العربية فرصة عمل تفوق توقعاته، بعد أن أنهكته الحياة. وبعد أن يعرف الراوي من هو الشيخ، ويصبح جزءاً من عائلته، يرافقهم في نزهاتهم وأفراحهم وأحزانهم، ويحل له الشيخ مشكلاته مع الزعيم، يبقى السؤال قائماً: من أين أتى الشيخ؟ وأين كان قبل عشر سنوات قبل قدومه ليحوِّل هذا المنزل القديم إلى ما هو عليه؟

هنالك أمور لم يمهد لها الكاتب كفاية، كقرار الشيخ ترك أولاده وثروته ومشروع عمره (دار النشر)، ليختفي بعد موت زوجته، ويعود إلى هذا البيت الدمشقي القديم، ويتحول إلى أسطورة. وكذلك علاقة الراوي بدانة زميلته في الجامعة، فهذه العلاقة التي تتبع مزاجاً خاصاً من قبله، بين الإقبال والصد، تُنسى في نهاية الرواية، ولا يذكرها القسم الأخير أبداً.

قد يعود غياب الجرأة في تشريح المجتمع إلى كونها المحاولة الأولى للكاتب في فن الرواية الذي يدخله بحذر، ولكن ذلك لم يمنعه من تقديم صورة رمزية

جميلة لحياة شريحة واسعة تعاني من النزوح والفقر والخذلان وخسارة أحد أفراد الأسرة، وتصوير علاقتهم بالمدينة التي تعذبهم دائماً وتسعدهم أحياناً.

إنها لحظة من عمر المدينة، امحت فيها وجوه الجميع، ولم يبق سوى هذا الحزن الطاغي، فقد غيّرت الحرب كل تفاصيل المدينة ولم تعد الحياة كما كانت أبداً، مثلاً: بدل أن تذهب عائلة الشيخ في النزهات إلى طريق المطار أو الربوة يذهبون إلى عقدة مرورية قريبة، حيث تفترش العائلات العشب الأخضر في مكان خالٍ من الأشجار.

في منزل الشيخ حول مائدة العشاء، وفي النزهات، وفي الطريق الطويل بين حارات دمشق الذي يسير به الراوي والشيخ عائدين من عند الزعيم، تدور أحاديث فلسفية كثيرة عن الله والحياة ولكنها ليست الهدف من الرواية، إذ تنتهي الرواية بموت مريم –التي تحمل اسم زوجة الشيخ، وتموت مثلها بقذيفة طائشة– كأن على بقية الشخصيات أن تمر بالاختبار الذي مر به الشيخ سابقاً لتفهم لغز هذا الرجل.

*(الشيخ والفول، رواية، مازن النفوري، الهيئة العامة السورية للكتاب 2019، عدد الصفحات: 296).

أوراق الحوار

مذكرات تاجر دمشقي في القنيطرة

حسب شهادة تاجر القنيطرة المعروف عز الدين الهردوف القديمي

سليم عطا الله

باحث اقتصادي من الجولان مقيم في أونتاريو/ كندا

مقدمة:

قبل 12 عام نُشر مقال عن حكاية تاجر دمشقي عاش في القنيطرة في ثلاثينيات القرن الماضي وتوفي قبل أعوام قليلة للكاتب محمد زعل السلوم ولكن وللأسف لم ينتبه أحد لقيمة تلك المذكرات التي عكست حيوية مدينة القنيطرة وأهميتها بالنسبة لدمشق من جهة ولسوق الخالصة في الجليل الأعلى من فلسطين حالياً "مستوطنة كريات شمونة"، وهو شاهد على التحولات العمرانية لمدينة القنيطرة عندما كانت مجرد سرايا حكومية فحسب لتصبح مدينة بكل ميزات المدينة المكتملة، والأجمل من خلال عمله كتاجر قماش يكشف أنواع أزياء الجولان، وعمله بالمواد الغذائية أنواع منتجات الجولان الهامة بالنسبة لسوق دمشق والخالصة، ويجود في وصف وتعداد محلات الأغذية والأقمشة، عدا دوره الاجتماعي وتحولات السوق في القنيطرة وأنه عاش عصرين من ناحية تطور النقل وكيف كان ينقل بضاعته لدمشق وليومين بالجمال ثم تحول للنقل وعصر السيارات والشاحنات وهنا أعيد عرض هذا المقال بعد استئذان كاتبه الأصلي الذي التقى التاجر عز الدين هردوف في منزله في الفيلات الغربية بالمزة جبل عام 2010.

البداية والتأسيس من النقل على الجمال الى النقل على الشاحنات ومن بيت الشعر الى المباني

عزالدين عيد القديمي الشهير بالهردوف أبو عدنان

مواليد 1929مدينة القنيطرة كان لديه 30 سمان بالجولان

قدِم والده عيد الهردوف الى قرية السمك عند الشيخ عفاش بن عبد العزيز حيث لم تنشأ مدينة القنيطرة آنذاك وانما كانت مجرد سرايا (قرية السمك كانت قرب واسط في القطاع الشمالي من الجولان وكان فيها عمرة الشيخ عفاش ثم انتقل مقر قبيلة الهوادجة زبيد إلى قرحتا قربها بعد وفاته نهاية القرن التاسع عشر ولازالت أطلال تلك العمرة ليومنا هذا قرب نبع ماء)

أما عيد وليد القديمي الهردوف مواليد 1858 فكان يستقبل البضاعة على الجمال من دمشق الى قرية السمك وكانت المحلات عبارة عن بيوت شعر عربية اذ لم يكن هناك إعمار باستثناء عمرات الشيوخ. وتزوج عيد أربع نساء.

كان لعز الدين عيد الهردوف مبنى بمدينة القنيطرة بساحة بانياس وبعد هزيمة 1967 خرج كبقية أهل الجولان حفايا عرايا.

كان أهل القرى يأتون للقنيطرة ويحصلون على حاجياتهم، وكانوا يسددون ديونهم للتجار حسب المواسم وهي بالجولان 3 مواسم وهي الربيع بعد بيع الخراف والصوف والسمن والخريفي والصيفي للذرة البيضاء والقمح.

تجارته للقماش بالقنيطرة وتنوع أزياء الجولان بين عرب وفلاحين وتركمان وشركس ودروز ونصيرية:

كان الهردوف يبيع القماش أيضاً ليقول:

البدوية ترتدي الشرش ويبقى لسنة كاملة وكذلك انواع الاقمشة والملابس كرامنطو والملس والترغال وكل شخص حسب امكانياته.

وهناك رداء الزبون عند البدو أو القنباز عند الدمشقيين وهو لباس تركي وهو حرير بالصيف وجوخ بالشتاء

أما الشيوخ فيؤمن لهم لباس الجوخ وكان مصدره الأساسي دمشق التي تزوده بكافة أنواع الأقمشة وبالمقابل يقوم تجار دمشق باستيراد هذه الأقمشة من انكلترا أو الصين أو اليابان.

وكان لكل تاجر عميل بصاغة الذهب فعندما يأتي الزبائن فإنهم يتوجهون إلى التاجر ليقوم بتأمين ذهب للعروس، وكل تاجر له منطقة خاصة به.

أما فلاحي الجولان فيرتدون الشروال والقميص والجاكيت والحطة السوداء، وغالبية تلك الأقمشة وطنية أي صناعة سورية.

أما لباس نساء شيوخ البدو فهي شمبر بلدي وفرملية جوخ وعصابة حرير بلدي، كذلك كان يقوم بتجهيز ملابس وذهب العروس من عصبة وفرملية وذهب كل حسب امكانياته، وهناك مبرك ألماني للفلاحات وقميص وصدرية وجاكيت.

وترتدي الفلاحات بالعادة ألوان زاهية ومورّدة فضلاً عن الشاش الأبيض والروب البويلين المزهر والمخمل وهو إما محلي الصنع أو ألماني أو فرنسي أو ياباني وذلك حسب الامكانيات.

كذلك الشراكس كانوا يرتدون كالعرب من أهل المنصورة والخشنية من حطات وعقل، وكذلك التركمان والنصيرية فكان لباسهم كالعرب من حطات وعقل وزبون.

كان لعز الدين بنفس البناية محلين مساحة كل محل 25م مربع مع مستودعات بنفس البناية.

كان يقوم أيضاً بتأمين الحبال لأيام الحصيدة ومَرَسْ وكانت من نوع الكتان حيث لم يكن هناك النايلون بتلك الأيام.

أدوات التاجر كبائع قماش فهي الادوات التقليدية الاعتيادية من مقص ومتر ويبيع القماش جملة ومفرق

أما من أنواع القماش الذي انقرض فهو القماش اليمني كما يسمى ولم يعد له وجود.

أما الاسعار فكانت بسيطة جداً وكذلك المرابح بالنسبة للتاجر عكس هذه الأيام، فثمن علبة الراحة مثلاً كانت بفرنك سوري وكان هناك قناعة عند الناس.

وكان بالقنيطرة مابين 30-40 محل لتجار الأقمشة، و4-5 أصناف أقمشة كانت تباع ولم يكن هناك منافسة، وكانت خياطة القماش محلية واليوم معامل تصنع الجاهز، وكان اللباس مختلفاً بين المدينة والقرية عكس أيامنا هذه، حيث أصبحت الأزياء غربية وواحدة.

خياطات القنيطرة وأشهرهن أم عز الدين:

كما كان هناك نساء متخصصات بالخياطة وموجودات بالبيوت ولديهن مكنات يدوية يخطن السروال بنص ليرة وربع ليرة كامرأة مشهورة بالقنيطرة هي أم عز الدين وغيرها، وكنّ يقمّن بالخياطة بذات اليوم وفوراً وكانت سريعة جداً وليس كأيامنا هذه حيث يأخذ المصمم عدة أيام وحتى أسابيع لإعداد التصميم.

التجارة الغذائية وسمانيه الثلاثين بقرى الجولان وقرى الحولة الجولانية

أما بالنسبة لعمله بتجارة المواد الغذائية فيقوم بتأمين السمن العربي من نفس المنطقة والناس لا تشتري الزيت.

أما البقر الجولاني فيصفه عزالدين بأن لحم الغنم الجولاني ولحم البقر الجولاني يمتاز بلذة طعمه.

وللبقرة الجولانية شكل جميل ولون أبيض وأسود وتحلب من 5-6 أرطال يومياً باليوم الواحد وسمنها دسم ويعد لحم أغنام الجولان الأفضل عالمياً.

بالنسبة لبضاعة عزالدين الهردوف فكانت تصل للقرى الأمامية بالجولان قبل 1948، مثل المفتخرة وغرابة والبارجيات وخيام الوليد (من أشهر قرى سهل الحولة بفلسطين وكانت تدعى قرى الحولة الجولانية لأن ملاكيها جولانيون فالمفتخرة والبارجيات وغرابة للهوادجة والبكارة وخيام الوليد لعشيرة الويسية، وهناك الخصاص والمالكية والعباسية والمنصورة بالحولة وجميعها لقبيلة الفضل وخربة السمان وعين زاغة والفرواني للعجارمة، وبالفعل لم يكن هناك فرق بين الجولان والأراضي الفلسطينية فالسوق واحدة والعشائر ذاتها).

وقبل 1948 كانت تصل بضاعته إلى الخالصة شمالي فلسطين بقضاء صفد، وكانت سوقها كبيرة ومركزية بتلك المنطقة أي سهل الحولة، وكانت الخالصة مركزية للجولان ولجنوب لبنان وجبل عامل وصور وصيدا وعكا والناصرة وحتى من حيفا يتبضعون منها.

سوق الخالصة

وكان سوق الخالصة يستقبل بضائع من الجولان وجنوب لبنان وتجار القنيطرة يرسلون بضائعهم إليها آنذاك، وكان عزالدين يغطي قرى الحولة الجولانية وهي الدردارة وعين التينة والصيادة والدرباشية وعين مامون والمفتخرة وغرابة والعقدة والبارجيات وتل عزيزيات وصولاً لبانياس.

ويعتبر عزالدين نفسه منتسباً لعشيرة الهوادجة زبيد الجولان، وكانت هذه العشيرة تمتلك الكثير من الأغنام والابقار وبالتالي السمن العربي الأصيل.

وبالنسبة لوضع التاجر القادم من القنيطرة إلى سوق الخالصة بفلسطين فكان السمن البقري هو المرغوب بشكل كبير أكثر من سمن الغنم، أما في سوريا أي القنيطرة ودمشق فيفضلون سمن الغنم.

كما كان التاجر يقوم بتأمين الجميد والهقط للمليحي أي الشاكرية باللهجة الجولانية للقطاع الشمالي، أما المليحي في منطقة الزوية الجولانية وحوران فتعني الدعيك، وكذلك تأمين الشنينة او اللبن الرائب لتحضير المليحي أو الشاكرية.

تأمين مواد المطبخ الجولاني المتنوع وأشهر الماركات الغذائية بذلك العصر:

ومن أنواع الطبخ الشهير بالجولان فهناك الصاجية والتي تختلف عن المليحي فيغمر اللحم بالماء ثم تقلب بالصاج حتى تصبح حمراء وهناك الهفيت وهو خبز يوضع تحت اللحم ثم يضعوا فوقه البرغل أما أشهر أكلات الشركس فهي الفطائر بالجبنة والشيبس والباسطة ولكن الشركس تعودوا بعادات العرب أو البدو.

كانت الجبنة بالبداية جبنة محلية الصنع من القنيطرة أي البقر أو الغنم أو الجاموس وبعد انتشار الجيش بالجبهة بعد الاستقلال فأصبح التجار يحضرون المعلبات الخاصة بالجبنة وهي من ماركات البنت والكارباريتار وكرافت.

كما كانت معلبات اللحمة تستورد لحمة الخروف من يوغسلافيا ورأس الثور من هولندا والطون الأمريكي والطون الياباني.

أما السكاكر بأشكالها وأنواعها مثل الصباح وأمية وناشد إخوان والتمور والعجوة من سوق الهال.

والحلويات بالأعياد حيث كان هناك 4 معامل للراحة بدرعا وكان عزالدين الهردوف يشتري بهذه المناسبات حوالي 4 طون راحة، ويأتي سمان من كل قرية ويأخذ 100 علبة راحة ويعود بعد 10 أيام.

اما علب الحلاوة فكانت من التنك والنصاصي تزن الواحدة 8 كغ وهي مخصصة للعائلات الغنية بالجولان مثل السلوم والفاعور والعفاش والطحان.

ويتم شراء الحلويات بالجولان لغاية الأعياد وزيارة الأرحام.

تأمين مواد متنوعة أخرى تعكس تطور السوق في القنيطرة وعادات الناس:

كما كان أبوعدنان يقوم بتأمين أسرجة الخيول والعتاد العسكري والجنادات وكان يقوم بالحصول على هذه البضاعة من سوق السروجية بدمشق وسوق الهال وسوق الحريقة بدمشق.

أيضاً كان يعمل على تأمين المقشات وأكياس الورق وكل الحاجيات وحتى الذهب عن طريقه.

فكل عائلة كبيرة بالجولان لها تاجرها او يسمى عميلها الذي يؤمن كل شيء.

الطريق لدمشق خلال عصرين:

في السابق يقول أبوعدنان الهردوف أن الذهاب إلى دمشق يحتاج أيام ثم جاء عصر السيارات والبضائع من نقلها بالجمال من دمشق إلى الجولان إلى الشاحنات وقد عايش العصرين.

أما البضاعة التي كان يبيعها من القنيطرة إلى دمشق فكانت السمنة وتحدث عن حادثة طريفة حصلت معه أنه من كثرة خيرات الجولان وقوة تصدير السمن العربي سواء غنم أو بقري لم تعد سوق دمشق قادرة على استقبال المزيد فاضطر أبوعدنان الهردوف إلى توزيع هذه السمنة على مطاعم دمشق والتسديد حسب استخدامها.

كما كان له دلّال يمر على أسواق الشام ويؤمن الزبائن وأيضا الحسبة من بندورة وبطيخ حيث يصدره إلى مدينة دمشق فيصدر البطيخ بمعدل 14 طن سنوياً. كما يحصل غالب الأحيان على تصاريح داخل الجولان ذاته لتوزيع البضاعة وكيلو البطيخ تلك الأيام كان ب9 قروش ويربح من الكيلو قرش واحد ليصل إلى الزبون بعشر قروش.

أما القمح الجولاني فكان له حواصل ويرسل إلى الشام بوايك أما العدس الجولاني فمميز ومطلوب جداً ويباع بالمد ومد العدس يعادل 23 كيلوغرام، أما مد القمح فيعادل 16 كيلوغرام.

وكان أبوعدنان يعتمد على قرى أقاربه الهوادجة حيث ينتسب إلى عشيرتهم رغم أصله الدمشقي إلا أنه يفتخر بانتسابه إليهم فكان يقوم بتأمين العدس من قرية قرحتا وعدس الجولان يختلف عن عدس حوران. وكان يبيع التجار في القنيطرة من عائلتي أبوشعر وفرواتي بسوق الحبوب بالقنيطرة، فباع كيلو العدس حين انقطع موسمه ذات عام ب17 قرش وقام بتأمين 12 طن كانت دمشق بحاجة إليها وأرسلها بشحنة اسماعيل رباح التي تعمل بين الشام والقنيطرة كما يرسل القمح معه.

أما زيتون الجولان فلم يكن مرغوباً حتى عند الجولانيين لأنهم لم يزرعوه بكثرة وكانوا يشترون السمن على الغالب.

وكانت هناك معصرة للزيتون ببانياس الجولان فيأخذ أبوعدنان من قرحتا التي زرعت الزيتون بوقت متأخر قبيل النزوح ويرسل زيتونها إلى معصرة بانياس وأعاده لقرحتا دون بيعها حيث تقوم عائلة العفاش بتوزيع الزيتون على الأهل والأقارب دون منفعة تجارية كما يذكر أبوعدنان.

كما كان أبوعدنان يقوم بتأمين جميع المعلبات بأنواعها للجيش وبكافة الاوقات من تموين كامل.

يتحدث أبوعدنان عن المونة بالجولان وخاصة مدينة القنيطرة، فيتحدث عن الكشك والهقط والقاورما التي كانت توضع بجرة بمكان بارد.

والمقرن الشمالي من الجولان كان بارداً لذلك كان الدروز أكثر من اشتهر بالقاورما.

أبو عدنان ورمضان وبرد القنيطرة:

يتحدث أبوعدنان أيضاً عن أجواء رمضان بالقنيطرة وما الحاجيات التي يؤمنها فكان يقوم بتأمين قمر الدين للسحور والحواضر والجبنة كانت توضع بمطربانات والزيت البلدي والمقدوس بالزيت وإن كان منزلي الصنع غالب الوقت.

أما عن البرد الذي تشتهر به القنيطرة فكانوا يضعون المنقل الفحم وفيه نصف كيلو أو كيلو فحم فقد كانوا لا يعرفون البرد ولا يشعرون به، فيتحدث عن قصة طريفة أنه عندما كان طفلاً وإخوته يذكر أنهم كانوا يخرجون بلباسهم الداخلي بأرض الديار في بيتهم بالقنيطرة بل ويخرجون بها إلى الثلج بخمسينية الشتاء.

أبوعدنان الهردوف بعد عام 1967 سيرة ذاتية مابعد النزوح:

بعد النزوح ذهب أبوعدنان إلى بشير العاص (وهو ابن جباتا الزيت في الجولان) وكان محافظاً لدمشق آنذاك فأمن له وظيفة براتب 200 ليرة سورية بالشهر فلم تعجبه الوظيفة وهو التاجر المعروف، فذهب إلى لبنان إلى نوري الحكيم والذي كان وزير سابق للاقتصاد في سوريا، وزار أبوعدنان ببيروت بيت الغازي الذين عاشوا بقرحتا عام 1915، وهم أصدقاء له ولعائلته فقدم له نوري الحكيم وظيفة ب200 ليرة لبنانية فلم يعجبه ذلك، وعاد إلى دمشق، ثم ذهب إلى أصهاره بسوق مدحت باشا وكان المحل يبيع ب20 ليرة سوري

فأصبح يبيع بين 500-600 ليرة سورية يومياً لأن الرعيل الأول من أبناء الجولان من النازحين أصبحوا يشترون من عنده وأصبح محله معروفاً وعليه رجل أي قدم، ومع ذلك لم يعجبه لأنه تاجر جملة فقرر السفر إلى الكويت فاتفق مع أصهاره من بيت المعراوي.

وحتى عندما توجه إلى الجوازات وجد شخص داغستاني من القنيطرة وهو ابن خليل سلطان الداغستاني وأخرج له جواز السفر فوراً، وكان هناك طائرتين متوجهتين للكويت هما داكوتا ونفاثة فسافر بالداكوتا إلى الكويت، وكانت الكويت آنذاك تتفوق على جميع دول الخليج وبدأ باستيراد البضائع من دمشق إلى الكويت ثم أصبح يستورد بعد ذلك من الصين واليابان وبريطانيا.

بسنة 1976 اشترى منزل بالمزة جبل بمساحة 260 متر ثم اشترى طابق ثاني لابنه.

بقي 22 سنة بالكويت وأثناء اجتياح الكويت عام 1990 كان لديه أموال ببيت التمويل الكويتي وبعد تحرير الكويت قام البنك بالتعويض عليه.

أما محل مدحت باشا فباعه.

عمل بدمشق بمعمل تطريز كشراكة من 6-7 سنوات وهذا المعمل اليوم (عام 2010) مؤجر ببوابة الصالحية ببناء مجذوب.

عدد أولاده 4 تخرجوا مهندسين

معلومات أخرى عن أهم التجار بالقنيطرة

كان شيخ سوق القنيطرة محي الدين الهردوف، وهو مختار القنيطرة بذات الوقت ومستشار المحكمة لحل قضايا التجار كخبير.

من أشهر تجار القنيطرة قبل 1967 هم:

- عز الدين قديمي الهردوف.

- ديب ناجي وهو تاجر جملة.

- محمد سعيد أبوشعر وشتيوي محمود وهما تاجرا الكترونيات شهيران.

-عبدالرحمن شحادة وهو أكبر تاجر أغنام بالقنيطرة، وكان يملك عشر آلاف رأس غنم.

- أبو صياح الحرستاني وأولاده موفق وممدوح وصلاح.

- حسن شتيوي وعادل البيتموني وكان لديهما كازية القنيطرة وحسبة.

-إيليا صنيج وهو صائغ ذهب وهو الأشهر بالقنيطرة.

مخاتير القنيطرة

مختار الداغستان هو علي زرو.

مختار العرب محي الدين الهردوف.

مختار الشركس خالد طوموق.

مختار المسيحيين أبو نمر.

أوراق الترجمة

بيير فرانس: حربان مرهقتان: المجال الضعيف

"أشكال السرد ووقت طويل في كتابة الحروب الأهلية في سوريا ولبنان" *

النقل عن الفرنسية: إبراهيم محمود

باحث ومفكر ومترجم كردي سوري، له العديد من الترجمات والكتب المطبوعة.

"لم يتعب [والدي] أبداً من تسجيل شعارات الحرية في صفحات دفاتره، وعدد الضحايا والسكان ممن قتلوا في المدن المدمرة، ووجهات نظر المحللين، والمواقف التي اتخذتها دول العالم"

[...] لماذا تتعب؟ سألتُه.

أجاب: لا أستطيع أن أفعل أي شيء آخر.

(معروف، 2014، ص 179)

بالنسبة لأي شخص يعمل على الحرب الأهلية في لبنان "1"، فإن المقارنة ليست خياراً بقدر ما هي واقع مفروض، يجري ضبطه بانتظام من خلال أخبار أخرى تلاحقها: الصراع في يوغوسلافيا والحروب في أفريقيا في التسعينيات، والعراق في 2000، وسوريا اليوم. وتظهر المقارنة في عدة مناسبات، بين المستجيبين الذين حشدوا المقارنات في خطاباتهم، والبرامج الدولية التي تنتج هذا النوع من الجسور (على سبيل المثال برامج ذاكرة النزاعات)، أو حتى بشكل خاص في مواجهة العلماء مع هذا الموضوع الآخر. وتؤدي حقيقة كون المرء معاصراً لبعض النقاشات إلى إعادة النظر في موضوعات المرء وفقاً لهذه الموضوعية، ويوفر سياق الأزمة السورية فرصة جديدة للتفكير في هذا. "2"

أما بالنسبة للآخرين من قبل، فقد تدخل الصراع في مسار بحثي الخاص الذي أجري حول الحرب الأهلية اللبنانية منذ عام 2011. وقد أثار الصراع السوري مشكلتين مصاحبتين: مشكلة مقارنة الديناميكيات الاجتماعية والجهات الفاعلة في اللعبة في كل من الصراعات، وإنما أيضاً، تلك التي قد تبدو ثانوية، من مصادر تنفيذ مثل هذا المشروع. وقبل الخوض في قلب الخلافات، فإن شروط المقارنة والمواد اللازمة لذلك هي التي تثير التساؤلات، لأنه على بعد أربعين عاماً عالم الجامعة (نماذجها، نظرياتها، أساليب كتابتها، ولكن أيضاً لم تعد الحدود هي نفسها تماماً، ولم تعد الأعمال في بعض الأحيان تتحدث اللغة نفسها (أحياناً بالمعنى الحرْفي، كما سنرى في مسألة استخدام اللغة العربية). وإذا واجهت بعضُ المناقشات الفكرية عودة متطابقة تقريباً من صراع إلى آخر – على سبيل المثال تلك المتعلقة بالأهمية النسبية لمسائل الهوية / المجتمع أو الأسئلة الاجتماعية والاقتصادية"3"، فإن العناصر الأخرى تؤدي إلى التغيير. ففي لبنان، لم تُطرح الانعكاسيةréflexivité ، ولا مسألة "المجالterrain " أو حتى مركزية الشاهد centralité du témoin، على سبيل المثال في الأعمال التي تم فيها حشد النظريات الماركسية (في وقت كانت فيه الحرب الباردة لا تزال حيةً)، إعادة اكتشاف ابن خلدون، العلاقة مع اللغة والتشدد اليساري الملحوظ (LePotolec،2010). من ناحية أخرى، فإن ظهور الإنترنت الآن يغير التضاريس الممكنة بقدر ما يغير أماكن المناقشة (مثل مدونة Joshua Landis Syria Comments المركزية لسوريا اليوم).

ومن المحتمل أن تكون خطوط المقارنة متعددة، ولكن تمتْ هيكلة اثنين منها في هذا العمل. الأول هو الظل الذي يلقي على الأعمال اللبنانية من قبل جميع الأدبيات العاكسة اليوم عن سوريا وعلى نطاق أوسع على الثورات العربية (كاتوس، سيغنولز وسيينو، 2015). ونادراً ما أدت هذه الانعكاسية الجديدة في لبنان إلى التساؤل عن العوائق التي واجهتها الحرب الأهلية اللبنانية، خاصة وأنها تغذّيها اليوم، في صورة انعكاسية مقارنة لاحقة بسلسلة من السّير الذاتية (خلف، 2017؛ خزام، 2016)، بحث محدد، غالباً ما يكون انضباطياً (ريمون، 2013؛ ريفوال، 2014)، وآخذ الخُطُب العامة "4". وتبدو الحالة اللبنانية أكثر إثارة للاهتمام من حيث إنها محورية في مسألة الاقتراب عن كثب من أشياء معينة تتميز بالعنف، بينما تطرح في المقابل سؤال المخاطر الشخصية للباحثين (دوكلوس، 1988، ليكا 1985). حقيقة أساسية منذ البداية في سوريا.

والجانب الثاني، الأكثر براغماتية في المظهر، هو التقاطع بين ملاحظة الحجم المتزايد للمنشورات حول سوريا، والصراع اللبناني الذي يُقدَّم غالباً على أنه يخلو من تأريخ جدير بهذا الاسم، على الرغم من كونه أدى كذلك إلى بروز عدد كبير من المنشورات من عام 1975 حتى سنوات ما بعد الحرب. وفي سياق البحث، بينما تضاعف العمل حول سوريا، أثارت مجموعة هائلة من المنشورات حول الحرب الأهلية اللبنانية، والتي تُركت جانباً إلى حد كبير اليوم، سؤالين في المرآة. من ناحية أخرى، كيف يمكن استيعابها والاستفادة منها في ضوء حجمها (وما الفائدة؟ من المصادر أو التحليلات التي ستجري مناقشتها؟)، خاصة لأي شخص يعمل في الحرب الأهلية، مع مسافة زمنية

كبيرة عن تلك الفترة. ومن ناحية أخرى، كيفية تفسير هذا التنصل وفهمه، وهذا النسيان لكل الأدب أو لجزء منه، وبالتالي طرح السؤال عن مستقبل الأدب المكتوب أثناء صراع بين أيدي أجيال أخرى من الباحثين. وبهذا المعنى، يكون هذا العمل قريباً من عمل المؤرخين الذين يسألون أنفسهم سؤال "مع من نكتب التاريخ"، مع مصادر تكون أحياناً متزاملة/ متصاحبة (ماريو، 2014، 2017).

وقد أثارت إعادة قراءة الأعمال اللبنانية في ضوء سوريا، والأعمال من السبعينيات إلى التسعينيات في ضوء النقاشات الحديثة في العلوم الاجتماعية، بدورها بعضَ التساؤلات والاستفهامات حول ما جرَتْ كتابته مباشرة عن سوريا. وإذا كانت القضية اللبنانية تستفيد من إعادة التفكير في ضوء بعض النقاشات المعاصرة، فيمكن أن تثار بعض النقاشات "القديمة" مرة أخرى بالنسبة لسوريا. وعلى هذا النحو، فإن هذه المقالة تشهد على حركة ذهاب وإياب بين كتابين تاريخيين: إنها ليست ملاحظة غير مباشرة لتطور (سعيد أم لا heureuse ou non) بين حقبتين، أو شيخوخة العلوم الاجتماعية أو تقدُّم لا يمكن إصلاحُه للمعرفة، كما تمكَّن بعض الباحثين من فعل ذلك بأنفسهم، على سبيل المثال من خلال انتقاد عملهم، الذي يعتبر ماركسياً للغاية، بعد بضع سنوات (جونسون، 2002). وعلى العكس من ذلك، فإن الأمر يتعلق بالتحديد بالتشكيك في هذا الدليل، وإظهار ما يمكن أن ينشأ من المقارنة في أجزاء متساوية.

واستناداً أولاً إلى عمل مكثف من التكرار الطويل للمحتوى اللبناني، وتكوين تقييم تاريخي في شكل قاعدة بيانات، تم استكمال هذه المقالة بعمل مراقبة

المنشورات وقراءتها عن سوريا. فهي قبل كل شيء سلسلة من فرضيات العمل وسبل التفكير، حيث كان التحدي الرئيس هو توضيح الوضع الاجتماعي الناتج عن الحرب – كلاً من ديناميكيات الصراع نفسها، والحالة التي ينخرط فيها أولئك الذين يقدّمون تقارير عنها – بالنسبة لأشكال الكتابة، وهو جانب لم يتم تناوله إلا قليلاً في الأدبيات المنهجية حول النزاعات، والتي تضاعفت في السنوات الأخيرة.

(أيّمبام وبوجو، 2015، بومازا وكامبانا، 2007، سيفاي وأميروكس، 2002، الاثنولوجيا الفرنسية، 2001، هاغبيرغ وكورلينغ، 2015، على سبيل المثال لا الحصر الأعمال الفرنسية).

في هذا السياق، بدا من الجوهريّ، طرح الأعمال التي تهمُّ المعاصرين المباشرين للصراع كأشياء ذات امتياز، شهوداً مُدرجين في فضاء من قيود معينة، مما يثقل كاهل ما يمكن رؤيته وكتابته من هذه الصراعات. ويتسم تأريخ الحرب في سوريا بشكل خاص بـ "حقبة الشاهد" (ويفيوركا، 2013) ومركزية الشهادة كمصدر، والتي لخصها ياسين الحاج صالح في جملة صادمة "لقد أصبح كل فرد سوري تقريباً شخصاً عاماً" (الحاج صالح، 2017، ص 2). وكما أشارت دراسات أخرى (معين، 2008)، فإن هذا النظام لا يقتصر على الممثلين أو الشهود المباشرين للحرب. وحتى لو كانوا أجانب ومقيمين خارج البلاد، فإن المؤلفين ليسوا أبداً في موقف غريب ومختلف جذرياً عن الشهود، ممَّن يمثلون مصادرهم. هم وهم يتأثرون ويعذبهم الصراع، وحتى ممارسة الانعكاسية أو تسليط الضوء على أكثر المجالات الاثنوغرافية الممكنة، لا تجعل من الممكن السيطرة عليه بالكامل: تعتزم هذه

المقالة العودة إلى هذه العناصر التي تفلت بشكل أساسي من إمكانية "تطبيع" تضاريس الحرب تماماً لمن هم معاصروها، لا سيما في سياق لا يكتب فيه المرء بمفرده، بل وأكثر من ذلك حيث تتحرك أهداف الدراسة (ريفوال، 2014).

خذ ببليوغرافيا كشيء

نقطة البداية في هذا العمل هي ببليوغرافيا الحرب في لبنان، وهي جزء من أطروحة دكتوراه حول أشكال بقاء المؤسسات العامة خلال هذه الفترة. وللوهلة الأولى، ظهر التأريخ لفترة الخمسة عشر عاماً (1975-1990) في عدة أشكال: اعتراف بغياب شبه كامل (لورنس 2014)، إلى جانب التحريض على المضي قدماً لأن الحرب أعادت ذكريات لا يمكن التوفيق بينها. أو سياسة الصمت (المرتبطة بقانون عفو ما بعد الحرب) (هوغبول، 2010 ب)؛ مؤلفات تاريخية انتقائية وقصيرة إلى حد ما دون معرفة المعايير المستخدمة لإيقافها (هوغبول، 2010 أ، بيكار، 2012، صليبي، 2002)؛ أو، وهذا هو الشكل الأكثر كشفاً لما يلي، قوائم طويلة تضم مئات المنشورات، بعيداً عن كونها أكاديمية فقط. هذا هو الشكل الأخير الذي حاولنا أن نأخذه على محمل الجد في عمل التأريخ.

ويبدو أن هذه القوائم تتوافق مع واقع يومي على الأرض: أن نواجه، من مكتبة إلى مكتبة، بمجموعات متباينة وضخمة للغاية، لم يجرِ إغلاقها أبداً. ومن خلال إضافة بيان شخصي إضافي إلى القوائم الأولى التي جرى تجميعها بالفعل، تجاوز عددُ المراجع عدة مئات وتم تقسيمها إلى العديد من المنشورات المختلفة (الشهادات والتحليلات والأدب الرمادي littérature

grise ، والأدب المتشدد.. إلخ). والمنشورات التي ليست مقروءة بالكامل ولا مثيرة للاهتمام بشكل متجانس (بعيدة كل البعد عن ذلك)، ولكن حجمها يعكس عدة جوانب من هذا الصراع: الحاجة الشديدة للتفسير الخاص بكل فترات الأزمة (دوبري، 2009)، إنما بعد ذلك، وبشكل أكثر تحديداً، السياق حيث يرتبط التشدد (حتى المسلَّح) ارتباطاً وثيقاً بالعديد من الانعكاسات الفكرية الصارمة، تماماً مثل حقيقة أن عدد الكتب يعكس مكانة بيروت المركزية في اقتصاد الكتاب على المستوى الإقليمي (ميرمير، 2005). إضافة إلى ذلك، فإن هذا المجلد هو في الواقع جانب مشترك حول الحروب، سواء كانت مدنية أو غير مدنية، والتي يمكن العثور عليها في كل من حالة 14-18 وآلاف المنشورات (بروست ووينتر، 2004)، وفي الحرب. في إسبانيا(غوديشو، 2007)، أو مؤخراً في يوغوسلافيا(راميه، 2005) .

على هذا النحو، تتيح هذه القوائم إمكانية تقدير مجموعة متنوعة من المنشورات حول الحرب الأهلية، سواء كانت أكاديمية أم لا، بل والأكثر من ذلك عدم تقييد دراستها هذه المرة على أساس أكاديمي صارم. من خلال عدد ثابت من التخصصات: على سبيل المثال، بافتراض أن علماء الأنثروبولوجيا، وعلماء الاجتماع، والجغرافيين "5"، أو علماء السياسة (بمعنى آخر، العلوم الاجتماعية المعاصرة) هم من كتبوا أكثر من غيرهم. وتشكل هذه الببليوغرافيا قاعدة بيانات، وهي وسيلة لمسح جوانب عديدة من الحرب اللبنانية وكتابتها: ترميز الكتب والعمل على شبكة الاقتباسات بين هذه النصوص يعطي فكرة عن تطور هذه الببليوغرافيا وخطوطها. القوة.

العمل على التأريخ من خلال قاعدة بيانات

قاعدة بيانات 489 كتاباً ومقالاً هي قائمة بثلاث لغات من المنشورات المكرسة صراحةً للحرب والتي أنتجها معاصرو الصراع (اختيار بسيط، حيث تم إنتاج غالبية المنشورات بين عامي 1975 و 2010، فقط أو بشكل حصري تقريباً من قبل شهود الصراع). اعتمد النهج جزئياً على قاعدتي بيانات تم إنشاؤهما سابقاً: المسح الذي جرى إجراؤه في عام 1981 في الجامعة الأمريكية في بيروت، والمسح الذي تم إجراؤه في IFPO أثناء برنامج ANR "ذكريات الحربmémoires de guerre ". سعينا إلى إضافة منشورات أخرى إلى هذه القوائم (خاصة تلك المنشورة في 2010 والمزيد من المنشورات الصحفية) وإبراز تلك الأعمال التي تم الاستشهاد بها على مر السنين. في مواجهة عدد المنشورات غير المرئية في Worldcat أو Sudoc (جزئياً بسبب اللغة العربية)، أو المنشورات ذاتية النشر والتي لم تتم الإشارة إليها مطلقاً، حدث إجراء جزء من الاستطلاع يدوياً. ولتجنب المنشور الكتابي البحت، والذي لا يأخذ في الاعتبار على وجه الخصوص ما هو الأكثر اقتباساً والأكثر قراءة، تمت إضافة حوالي مائة مقالة إلى قاعدة البيانات. لم يكن القصد منه أن يكون شاملاً، بل أن يكون أداة لإبراز الملامح العامة لهذا التأريخ والتأمل في حدوده.

وجرى بعد ذلك ترميز الكل بمتغيرات من النوع، المهنة، الانضباط (إن أمكن)، اللغة، الجنسية، سنة ومكان النشر، موضوع (مواضيع) الكتاب، الفترات التي تم تغطيتها، المجال الذي يمكن تحديده في لبنان والاقتباس من قبل مؤلفين آخرين. ثم تم استكمال هذا الاستطلاع بالعمل على شبكة التداخلات بين

بعض هذه الكتب. وأخيراً، أجريت عدة مقابلات مع باحثين (8)، لبنانيين أو أجانب، وصحفيين (15)، كتبوا عن الحرب، للتعرف على وجودهم في البلاد، ونوعية العمل الميداني الذي تم القيام به، وأي كتابات غير منشورة.

وليس من المستغرب أن تُظهر مثل هذه الببليوغرافيا أولاً جانباً معروفاً من تأريخ الحروب الأهلية: تنوع التفسيرات، وانفجار الإطارات، و"حروب الذكريات" التي تثيرها، وهو موضوع يدور حوله العمل الرئيس كتابة الحرب (مورلون وتريبو، 2017). ومن ثم فهي أداة لفهم آثار بعض التحركات حول الحرب، وفي بعض الأحيان دراسة زمنية بشكل أكثر دقة، مثل الأدب المؤيد للمسيحية، غالبا ما تكون منغلقة على نفسها عندما نلاحظ شبكة الاقتباسات، والتي تظهر بالأحرى. بعد سنوات قليلة من الصراع (ينظر على سبيل المثال لبكي، 1986). كما يُظهر إيقاعاً عاماً للنشر يتميز بتوافق شديد بين الأعمال في فترات قصيرة جداً (الأعوام 1976-1977، أو تلك الخاصة بفترة ما بعد الحرب مباشرة)، ولكنه يُظهر أيضاً فجوات في ما تمت دراسته (فترة ما بعد 1982 بأكملها). على سبيل المثال، أو الموضوعات التي تمت مناقشتها على نطاق واسع مقارنة بالآخرين.

ومع ذلك، فإن التحدي هنا لا يكمن في تفصيل نتائج قاعدة البيانات هذه "6"، إنما في معالجة ثلاثة عناصر تعكس ببليوغرافيا الحرب الأهلية الناشئة في سوريا: أولاً، التشكيك في الندرة المتناقضة لبعض الموضوعات في الحالة اللبنانية، ولكن أيضاً على النقيض من حقيقة أن أشياء أخرى جرى العمل عليها إلى حد كبير، وهي أقل من ذلك اليوم في سوريا، وأخيراً تظهِر أن

هذين الأدبين يميلان إلى الالتقاء، حول نوع معين من الأدب وسلسلة من الصعوبات الشائعة.

أرض مخفية

بالنسبة لشخص على دراية بالأدب الحديث عن الحروب الأهلية، فإن أول شيء واضح في هذا التقييم التاريخي يمكن أن يكون ببساطة غياباً (وبالتالي خيبة أمل): دراسات يمكن أن تقترب من الإثنوغرافيا للحروب الأهلية التي ظهرت منذ العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. (بازينغويسا –غانكا ومكّي، 2012، وهويه، 2015)، وقمنا بتعديل دراسة هذه الأشياء بشكل كبير. هناك، على سبيل المثال، عدد قليل جداً من الأعمال المكرسة للمقاتلين (راجع على سبيل المثال في هذه الأدبيات (ديبو، 2013، هوفمان، 2011، فاينشتاين، 2007)، ولكن ليس بدون مفارقة معينة: بينما من المستحيل الآن القيام بذلك في سوريا، في الحالة اللبنانية، تم مسح هذا النوع من التضاريس قبل فترة طويلة من كونها شرعية وعلى جدول أعمال البحث، ولكن دون ادعاء، وحتى بالنسبة لبعض المؤلفين من خلال تجنب تشكيل هذه التجربة (أحياناً يعيدها نقادها إلى الجنون الشخصي) (خزام، 2016) إلى كائن علمي. إنها مفارقة متقاطعة بين لبنان وسوريا: الكثير من الكتب المكتوبة بطريقة مجردة إلى حد ما وذات رؤية شاملة عن لبنان تتغذى في الواقع من تجربة مباشرة وطويلة للحرب، وهي تجربة لم تُذكر قط، في حين أن الحالة السورية تم نسجها من أدبيات الشهادات والتجارب المباشرة، على الرغم من إغلاق المجال، أو إن لم يكن قصره وصعوباته.

وكان لبنان ساحة معركة تم مسحها من قبل باحثين في العلوم الاجتماعية: إذا عرفنا شخصية مثل ميشيل سورات، التي يمثل نهجها بدقة نقطة تحول أولى نحو حقيقة الاقتراب من الأشياء التي تعتبر خطيرة للغاية حتى ذلك الحين، يجب التأكيد على أنها كذلك لا الشخص الذي اقترب من المعارك والمقاتلين أكثر من غيره، وحتى أقل من ذلك الشخص الوحيد الذي فعل ذلك. وهكذا شارك المؤرخ جان بيير ثيك الحياة اليومية للمقاتلين والجبهة "7". ميشيل سورات، من ناحية أخرى، هو الوحيد الذي فعل ذلك علانية، والذي كان جديداً في ذلك الوقت "8". بل أكثر من ذلك، لبنان حالة خاصة لحرب أهلية مصاحبة لصعود جيل من الباحثين المحليين (فافيير، 1997) الذين استفادوا بعد ذلك من افتتاح الجامعات وتطويرها في البلاد. نتيجة لذلك، شارك العديد من الباحثين اللبنانيين في القتال أو عانوا من القتال، كمسلحين أو مواطنين، دون أن يكتبوا في الغالب عن هذه التجربة بشكل مباشر "9". هذا، بدوره، يعرض عملاً لفهم بعض الأعمال فيما يتعلق بتجربة مؤلفها، خاصة عندما يكون هذا العمل مكتوباً بطريقة نظرية (مع لغة ماركسية على وجه الخصوص بين الاقتصاد والتاريخ)، أو يتعلق بـ مثال لكل الأشياء بخلاف الحرب (مثل مؤرخي العهد العثماني الذين درسهم كانديس ريمون) (ريمون، 2013).

إذا كتب البعض عن الحرب، ولكن دون التحدث مباشرة عن تجربتهم الشخصية وموقفهم (لا يزال النهج النظري والسيرة الذاتية لمؤرخ مثل فواز طرابلسي نادراً جداً) (طرابلسي، 1993)، والبعض الآخر، ومعظمهم ببساطة لم يفعل ذلك. وحالة علماء الأنثروبولوجيا في لبنان – الذين توقع المرء منهم

تحولاً مشابهاً للتحول الذي واجهه زملاؤهم الآخرون (في إفريقيا وأمريكا الجنوبية) مع أول "أعمال ميدانية تحت النيران" (نوردستروم وروبن، 1995) – مثيرة للاهتمام بشكل خاص حول هذه النقطة ، كما تشير إيزابيل ريفوال: بعيداً عن أن يكونوا في طليعة الكتابات عن الحرب، يرى علماء الأنثروبولوجيا أن كتاباتهم "معلقة" (ريفوال 2014)، والتي تميزت برفض الكتابة أو حتى تأجيل النشر (بيانات ما قبل الحرب بعد انتهائها، أو عناصر في الحرب بعد انتهائها بوقت طويل). يواصل الآخرون ببساطة العمل على ما لم يتأثر بالحرب ويتعلق بأشياء أنثروبولوجيا أكثر كلاسيكية (كنفاني-زهار، 1999).

هذه "التضاريس" (المصطلح سابقاً لم يستخدم بعد في حالة لبنان) المتضمنة في الحرب الأهلية اللبنانية تثير تساؤلات حول حدود "التضاريس الصعبة": كونها محصورة في قلب نزاع، بعيداً عن تشكيل الأرض غير العادية والصعبة التي يتوقعها المرء، هي أيضاً أرضية معطلة محتملة حيث تكون قيمة العمل العلمي نفسها موضع تساؤل. كما يشير سمير خلف في الحالة اللبنانية، "عندما يُحتمل أن تكون جميع القيم التي تحمِلها [...] مهدَّدة، من الصعب الحفاظ على رباطة جأشك، ناهيك عن الطابع النزيه وقيم الحياد التي يتطلبها انضباطك. أكاديمي" (خلف، 2017، تمهيد). والملاحظة مشابهة لسوريا: "لا يوجد مكان محايد للوقوف فيه، وأي احتمالية للمسافة النقدية أصبحت نادرة. والرهانات هائلة: الاختلافات في المنظور هي مسائل حياة وموت الآن" (سالاماندرا، 2014). وفي هذا الصدد، يمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الحالة اللبنانية لا تمس حدود "الاثنوغرافيا" للنزاعات، والتي، لتشكيلها

كموضوع، تستفيد من كونها، وغالباً ما تكون في الواقع، مجالات ليست اثنوغرافيا بشكل صارم. ويتحدث ويتطلب مسافة، كما يتضح من عدد من الأعمال عن سوريا اليوم. وبالتالي فهي تتميز بمجالات قصيرة، متشابكة مع ذهاب وإياب، وتعمل على هامش الصراع (مع اللاجئين في البلدان المجاورة على سبيل المثال في حالة سوريا، أو المسافة المادية عبر استخدام الإنترنت أو الهاتف (في نزاع آخر)، براجع بوجو، 2016). إن الأسف المحتمل لعدم القدرة على القيام بعمل ميداني في سوريا يستحق التساؤل في هذا الصدد، حيث تُظهر الحالة اللبنانية أن مثل هذا العمل الميداني، لا سيما عندما يتم نشره على مدى فترة طويلة من الزمن (يراجع الجزء الثاني) يمكن أن يصبح أيضاً أرض صامتة ومستحيلة.

الحرب خارج الشاشة

ومع ذلك، فإن التركيز على هذا الغياب سيكون قراءة متحيّزة، مما قد يؤدي إلى نسيان كتابات أخرى. ولأن جانباً بنيوياً آخر للتأريخ اللبناني هو تكاثر الدراسات، التي لا يُستشهد بها عموماً، على الشاشة أو خارج الشاشة للحرب، سواء كان هذا هو ما لا يتعلق بالقتال، ولكن أيضاً ما تم لعبه قبل اندلاع الأعمال العدائية. مع اتجاه يعكس ثلاث ظواهر: أولاً، الشلل الذي ذكرناه سابقاً، وترددَ الوقت في الاقتراب كثيراً من المعارك والمقاتلين، الذين نبتعد عنهم. إن فضاء العلم هو بالأحرى مجال دراسة الأسباب طويلة المدى من خلال أخذ البيانات الخاصة بالفرد أو الأدب (هاريك، 1982، أوين، 1976)، ومن خلال العمل بطريقة مميزة في الصحف أو المنشورات (انعكاس للفرنسية بالإضافة إلى الباحثين الأنجلو ساكسونيين في مجال

الإرساء اللغوي، على سبيل المثال، بالنسبة للفرنسيين، تم إجراء تدريب باللغة العربية غالباً في دمشق). ثانياً، هناك تقسيم للعمل – أقل صرامة في سوريا"10"– وترك تغطية المقاتلين لمهنة أخرى، وهي الصحافيون"11". ثالثاً وأخيراً، إنه انعكاس لديناميكيات صراع منسوج من مناطق نادراً ما يتم لمسها أو يتم لمسها قليلاً، حيث تظهر فضاءات الاستقرار: وهي ظاهرة تجعل هؤلاء الأعضاء من الطبقة المتوسطة العليا اللبنانية التي صورتها جينيفر فوكس يقولون، "إنها ليست الحرب، إنها طريقة حياة ce n’est pas une guerre c’est un mode de vie " (فوكس، 1991).

ويمكننا أن نبتسم اليوم على الأسبقية المعطاة لدراسة أسباب الحرب، ونعتبرها قديمة (دوبري، 2009)، فقط إذا لم نجدها أيضاً في سوريا"12"، ويبدو أنها أقل اختياراً. فالمجال أو النظرية من تأثير أمر قضائي للنشر السريع في الأيام الأولى للصراع، الأمر الذي فرض شكلاً محدَّداً من أشكال النشر، ألا وهو التدقيق اللغوي (للبيانات والمصنفات) (لورنس، 2014). إنما قبل كل شيء، فإن أحد الجوانب الأكثر إثارة للدهشة في هذه المنشورات هو تنوع المقالات حول جوانب أخرى من الحرب، والتي قد نصنفها أحياناً بسرعة كبيرة في شذوذها أو تفاصيلها أو كنوادر للسرد المضاد. وهكذا نجد، لنأخذ بعض الأمثلة، في هذا التأريخ سلسلة من المقالات حول الخدمات الحضرية أثناء الحرب، أو صعود مدينة هامشية، أو دراسة الظواهر الاجتماعية الصغيرة (عواده، 1985، بيضون، 1993، إ. لونغينيس، 1986)، الجوانب التي يمكن العثور عليها أيضاً في بعض كتب الصحفيين (باجيه، 1985؛ سارنر، 1985). نوع من المقاربات التي تساعد قاعدة البيانات تحديداً في إبرازها

ككل، والتي يكون وجودها قبل كل شيء انعكاساً لانتظام معين للمجتمع في الحياة اليومية للحرب (مما يجعل من الممكن علماً أكثر اعتيادية).

وهذه بدورها كلها أشياء لا يتم تناولها كثيراً في الحالة السورية، ويمكننا عمل سلسلة من الفرضيات في هذا الصدد. وسواء من خلال الخطوط العريضة المختلفة لهذا الصراع مقارنة بلبنان، يبدو أن الخطاب الذي يؤكد الطبيعة الهمجية للغاية لهذا الصراع، يشير إلى أن خارج نطاق الحرب أقل، وأقل وضوحاً محدداً في الزمان والمكان (سوى أن الفرضية ليست كذلك. واضح جداً، بقدر ما أظهرت العديد من الأعمال وجوده بالفعل) (خضور، 2014). أو، وسنعود إلى هذا، حقيقة أن هذه الأشياء التي تظهر على الشاشة ليست أشياء يمكن للمرء أن يفهمها بسهولة من خلال كونه معاصراً للصراع (وهو ما يفسر ظهور هذه المنشورات في لبنان بعد 10 سنوات من الصراع). أو، أخيراً، تأثير الزاوية المميتةangle mort في النموذج الجديد لدراسة الحرب الأهلية، والتي، من خلال وضع مسألة العنف، المقاتلين ومنظماتهم في المركز، غالباً ما تتجاهل الديناميكيات الأخرى التي تُنسج الحروب بسببها. ومع ذلك، فإنها تجذب المزيد والمزيد من الاهتمام وتظهر تحولاً كبيراً في أهداف الدراسة في دراسات الحروب الأهلية (بي 2013، بيلّيغ ولينهارد، 2013).

ومن الناحية النظرية، يُظهر هذا الجزء غير المعروف من الببليوغرافيا عن لبنان ظاهرة الحرب من منظور آخر، حيث لا يبدو فقط أنها مندمجة في مجموعة من الأشياء ذات الامتيازات (الجبهة، العنف، الفاعلون المسلحون، الفاعلون السياسيون، الضحايا، وما إلى ذلك)، أو يمكن اختزالها إلى مجموعة

من الديناميكيات الاجتماعية التي من شأنها أن تكون خاصة بالحرب (استقطاب الصديق والعدو، والارتقاء إلى التطرف، والجشع والشكوى، وما إلى ذلك)، على الرغم من أن هذه هي العناصر التي تضرب المعاصرين، وهي منتشرة في كل مكان في الخطب التي تم جمعها. إن هذا الجزء من البحث حول لبنان هو بالتالي أقرب إلى خطوة مفيدة جانباً تجعل من الممكن التعامل بشكل أفضل مع الحرب كظاهرة اجتماعية، ليس كسلسلة من كائنات البحث المحددة (في الواقع أكثر مما يمكن أن يكون السلام)، ولكن السياق الذي يتم فيه نشر البحث، حقيقة اجتماعية كاملة والتي بحكم تعريفها تفسح المجال لإدخالات متعددة.

وإلى هذا التظاهر النظري البحت الأول، يجب أن نضيف عرضاً ثانياً أكثر عملية: دراسة الحرب هي بالتحديد الاعتماد في معظم الوقت على هذه الأشياء خارج الشاشات (إلى درجة جعل البعض نفسه موضوعاً للدراسة في لبنان). وفي الواقع، نادراً ما تكون الاثنوغرافيا للحرب ملاحظة (حتى أقل مشاركاً) للقتال"13". وفي سوريا كما في لبنان، يعتمد العمل على الحرب في الغالب على واقع اجتماعي مكوِّن لها، فضاءات وأزمنة فترة ما بين الحربين (ديبوس، 2013)، أي الجزء الخلفي من القتال، الأنظمة السياسية والاجتماعية التي وضعتها الميليشيات، فترات الهدنة، الشبكات خارج البلاد (والآن على شبكة الإنترنت)، حيث الخطاب حول ما يحدث في "قلب" الحرب. على عكس ما كرّره الأدب في التسعينيات، فإن تفكك حدود الحرب، بين الجبهة والمؤخرة على وجه الخصوص، في حرب أهلية ليس مطلقاً

(مارشال وميسيانت، 2006)، وهو بالتحديد من أجل لهذا السبب من الممكن عمليا دراستها.

حيث تجعلنا حالة لبنان نأسف لعدم كتابة المزيد عن المقاتلين والقتال، فإن التأريخ الناشئ عن سوريا يشير إلى احتمال ظهور مأزق معاكس (على سبيل الاستثناء، يراجع لونغينيس وكارّاسكال، 2016) وهو نسيان كل شيء، هذا ليس القلب الواضح للحرب، والذي لا يثير اهتمام الكثير من خارج الباحثين، باستثناء عدد قليل من الصحف غير البديهية في الصحف. لذلك من الضروري توضيح جانبين في دراسة الحروب الأهلية: أولاً، تبديد ضجيج الخطابات حول تجربة العنف، وبالتالي عدم ترك دراسة أشياء معينة للمهن (الصحفيون، المنظمات غير الحكومية، المعلومات ...إلخ). لاسترجاعها لاحقاً (إما بعد النشر للصحفيين، أو في الأرشيفات المستقبلية لمؤرخي المستقبل). بالنسبة لهذه الأشياء نفسها، يتعلق الأمر بتبني طريقة علمية أخرى أكثر صرامة، ولكن أيضاً الاستفادة من لحظة معينة من تكثيف الاجتماعي، حيث تؤدي الظروف على سبيل المثال إلى تحرير مكثف للكلام، كما في الحالة التي أبلغ عنها فنسنت روماني Vincent Romani في فلسطين، حيث تصبح المقابلة أكثر حميمية مع الاقتراب المفاجئ من الاشتباكات (روماني، 2007). إنما ثانياً، يكمن التحدي أيضاً في التعامل بجدّية مع ما هو غير مذهل في الحرب. هذه الجوانب لا تهم العديد من الممثلين في ذلك الوقت، كما أنها لم تتم مناقشة الجوانب بشكل عفوي في الشهادات، وغالباً ما تكون محصورة في مرحلة الحكاية. إذا كان الحديث فقط عن هذه الشاشات الخارجة عن الشاشات يمثل مخاطرة كبيرة، ليس من دون

تذكر ما كان يمكن أن يحدث في تأريخ 14-18 والذي ترك لبعض الوقت دراسة القتال (كازالس، 2002) أو قبل كل شيء تحوَّل إلى بذاءة، متناسياً من ناحية أخرى، فإنهم يمثلون تنازلاً كبيراً جداً عن بعض الاستشراق المهووس (أنا أستلف هنا مصطلحاً استخدمه كريستيان كولون، 1997) والذي ينتظر دراسات حول المنطقة.

مجال ضعيف؟

بالنظر مرة أخرى إلى قاعدة البيانات الببليوغرافية هذه، وقبل كل شيء من خلال دراسة تلك الأعمال التي يتم الاستشهاد بها بشكل متكرر والأكثر بروزاً، ومع ذلك نرى عنصراً ثالثاً ينشأ: نقطة وسط للأعمال الأكثر الاستشهاد بها. والتي تثير أيضاً في الوقت نفسه مسألة حدود القاعدة. ففي الواقع، هذه الأعمال لها طابع هجين إلى حد كبير، بعيداً عن كونه عملاً للباحثين فقط، وبعيداً عن نهج يعتمد على هذا المجال أو ذاك (أو حتى المجال فقط) أو تخصص معين. علاوة على ذلك، تبين أن هذه الأعمال تتشابك مع الأسئلة وشكل من أشكال الجدل المشترك، والتي سنسعى لتحديد بعض التوبو هنا. يبدو أن كل هذه العناصر تشير إلى وجود سبب وشرط مشترك بين مجموعة من الفاعلين، وانطلاقاً من "حقل ضعيف" في دراسة الحرب الأهلية، والذي يبدو أنه متشابه تماماً بين لبنان وسوريا. ملاحظة تتطلب تحويل السؤال ليس فقط إلى النماذج والميدان، ولكن إلى حالة معينة، تتعلق بالزمانية المشتركة مع موضوع الدراسة (ريفوال 2014)، حيث ينخرط أولئك الذين يكتبون.

ومن المفارقات أن تنشأ مسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية وأنواع الأدب الأخرى في صميم قاعدة البيانات. لأن الأدبيات العلمية يتم نشرها من قبل الناشرين لعامة الناس، وتمزج العمل الصحفي مع البحث (دالّي وغلاسمان، 2016)، والأدب، وتنقسم بين المنشورات العلمية وما يمكن وصفه بـ "المنشقين": الأدب الرمادي المتشدد و / أو داخل المنظمات الدولية، المواقف المتخذة أو التدخلات في الصحف ...إلخ "14". ويحتمل أن تكون جميعها بعدة لغات وعلى العديد من الوسائط (مكتوبة، فيديو، رقمية الآن ... إلخ). علاوة على ذلك، يصعب تصنيف العديد من الأعمال، أو تتجاوز المعايير الأكاديمية (بينما في الوقت نفسه يحتكر بعض الصحفيين أحيانًا شكلاً أكاديميًا نموذجياً) "15". وفي الحالة السورية، يمكن للمرء أن يفكر بشكل خاص في عمل (بيرلمان، 2017) الذي يجمع 87 شهادة خام دون تعليق، مع عرض موجز لهوية كل من الشهود (الاسم، المهنة، المدينة الأصلية، ضمنياً الجنس)"16". وقد أكد المحرر العلاقة مع الكتب الأخرى ذات الشهادات الأدبية البحتة (تلك الخاصة بالحائزة على جائزة نوبل سفيتلانا أليكسييفتش)، مما أدى إلى تراجع الحجة العلمية لصالح التأثير الحقيقي للشهادات، والتي يتم تقليلها أحياناً إلى بضعة سطور قوية. يمكن الإبلاغ عن العديد من الرسوم التوضيحية الأخرى لهذه "المنهجينة" والافتراضات من عالم إلى آخر، أو سلسلة من شهادات الفيديو (دوناتي، 2014)، أو "سرد" أدبي لشخصية متشددة مثل رزان زيتونة (أوجييه، 2017). وهي تردد صدى إنتاجات مماثلة من الجانب اللبناني، حيث نجد، على سبيل المثال، كتب "روائية" "17" كتبها أثناء الحرب اللبنانية (قرم، 1992 أ؛ إغناطيوس،

1987؛ لارتيغي، 1987) لصحفيين أو باحثين، أحياناً تحت أسماء مستعارة. بينما تُنسب بعض الأعمال الطموحة إلى الصحفيين أو لأشكال أخرى، مثل العديد من الأفلام الوثائقية في حالة لبنان (العيساوي، 2002؛ البغدادي، 2013؛ فوكس، 1991؛ صعب، 1976).

ويجب أن نضيف إلى هذا العناصر العديدة التي لدينا في أماكن أخرى حول تقاطع الممارسات في العديد من حالات الحرب الأهلية: يعتمد الباحثون على مؤسسات مثل المنظمات غير الحكومية للوصول إلى الميدان (لو بابي سيميان وفيدال، 2007، فيلّينوف، 2018)، الذين ينتحلون شخصية (وود، 2006) أو يتم الخلط بينهم وبين المهن الأخرى (أخصائي اجتماعي، دبلوماسي، جاسوس ... إلخ). (كرونين فورمان ولايك، 2018؛ مازورانا، جاكوبسن وجيل، 2013)، المنافسة والتواجد المشترك على نفس الشيء الأرض، مما يؤدي بشكل خاص إلى حالات البحث الزائد) (باسكوتشي، 2017، سكريه وتنوّك، 2013) ، أو حتى الاعتماد على الممثلين أنفسهم (الوسطاء على سبيل المثال).

في الواقع، يتم خلط العمل البحثي بعمل الخبراء والصحفيين والناشرين والمترجمين والناشطين والعاملين في المجال الإنساني والفنانين والدبلوماسيين (إلخ)، أي إن كلا من البيانات والمقالات تستخدم كمواد إجمالية، سواء كانوا مطلوب منهم العمل معاً"18" أو ما إذا كان هناك تداول من مهنة إلى أخرى"19". لقد سلطت الأدبيات المنهجية حول النزاعات والتضاريس المتطرفة الضوء على هذه الظاهرة إلى حد كبير، ولكن يبدو أن كل عمل قبل كل شيء يقوم بتحليل بعض المسامية الخاصة بتضاريس معينة، أو

أكثر وضوحاً من غيرها، على سبيل المثال مع عالم المنظمات غير الحكومية (لو بابي وآخرون، 2007)، أو التشدد، أو المنظمات الدولية (صيفاي وأميروكس، 2002) (بينما يؤكد الأدب الأنجلو ساكسوني من جانبه على المزيد من الروابط العديدة مع الصحافة (مازورانا وآخرون، 2013). وبالطبع تختلف هذه المسامية باختلاف جنسية المؤلفين أو الحالة أو الفترة المدروسة، ولكن لكل ذلك نكتسب من خلال التفكير بها في سلسلة كما يبدو أنها موجودة – من خلال عبور الأدبيات إلى الوراء من سوريا إلى لبنان، وتمر بالصراعات الأفريقية في التسعينيات، أو حالة يوغوسلافيا السابقة – باستمرار.

وما تُظهره هذه الأنواع من الأنواع الهجينة ضمنياً (سيميان– غيرمانوس، 2002)، والذي يوجد أيضاً على سبيل المثال في الحالة الجزائرية (ليبيرليه، 2016)، هو إلى أي مدى نادراً ما يكون العمل العلمي، حتى لا يكون من المستحيل القول، "نقي"، في حالة الحرب الأهلية هذه. يعتمد على أعمال مهن أخرى سواء أحببناها وسواء عرضناها أم لا: في كتابه عن الحرب اللبنانية سمير قصير بينما انتقد كتاب الصحفي جون راندال (راندال 1984) لكنه استخدمه لاحقاً. في عدة فقرات (قصير، 1994 أ). بل أكثر من ذلك، يقدم كتابه على أنه محاولة للكتابة ضد رؤية معينة للحرب، على وجه التحديد غير أكاديمية "20". بعبارة أخرى، ما إذا كانت العلاقات طوعية أم نزاع أم معروضة أم لا "21"، هي مجرد مسألة شكل هذه العلاقات، والتي لم يتم اختيارها بأي حال: لدراسة حرب أهلية يجب أن تواجه هذا الفضاء المشبع. مع المترجمين والخطابات التي ليست علمية فقط، ولا يمكن أن يعتمد التأريخ في الواقع على إنتاجات معينة على المعيار الوحيد للتسمية المؤسسية

"علمي". إلى حالة الحرب ذاتها وصعوبة الميدان التي نوقشت على نطاق واسع في الأدبيات، تمت إضافة هذه الديناميكية الاجتماعية الأخرى، تماماً مثل الهيكلة، والتي لا تؤثر فقط على المجال، ولكن لاحقاً بشكل خاص على الكتابة.

وفي النهاية، يكون مكان أولئك الذين يبلغون عن الصراع محدداً، وغالباً ما يكون على حافة العديد من المساحات الاجتماعية. وبالتالي يصعب فهم الإنتاج دون الأخذ في الاعتبار الاضطرابات الداخلية التي يسببها الصراع في العمل العلمي (على مستوى النظريات والتخصصات والأشياء ومن ثم التسلسل الهرمي بين الباحثين، الذين يتذبذبون بشكل أو بآخر)، وهي الجوانب التي نحن نغادر هنا طواعية، وإنما قبل كل شيء، وبالتوازي، مع تقاطع المنطق العلمي مع أجندات المجالات الأخرى والأكوان الاجتماعية. وهذه ليست وطنية فقط. وهكذا، وبطريقة نموذجية مثالية، يمكننا وضع الفرضية القائلة بأنها تتكون، على مفترق طرق المجال العلمي اللبناني (أو السوري)، في المجالات العلمية لبلدان أخرى (فرنسا، الولايات المتحدة، المملكة المتحدة... إلخ). ولكن أيضاً المجالات والخبرات الصحفية والأدبية والفنية المحتملة، وهي منطقة "مجال ضعيف"، تتمحور حول دراسة الحرب الأهلية وتهتم عموماً بإنهائها. بعيداً عن التطابق مع مجال علمي محدد، على المستوى الوطني، تبدو دراسة الحرب الأهلية في هذا الفضاء مختلطة بشكل أساسي، على مفترق طرق المنطق المختلفة. يبدو هذا الوصف للمجال الضعيف مناسباً بشكل خاص لوصف هذا النوع من الفضاء الاجتماعي الدولي (إيال، 2013)، بقدر ما يردد صدى ملاحظات عالم اجتماعي "مقسم"

في الأزمات السياسية (دوبريه، 2009)، وأخيراً إلى تحليل أداء المجالات الجامعية في المنطقة، بمنطق مريح للغاية (روماني، 2008). وهذا المجال الضعيف هو مساحة من الفهم المشترك ومنطقة توتر بين العديد من المنطق، ويمكننا أن نجد عدة تجسيدات له: المناقشات وطرق تفسير الصراع الذي يبدو متشابهاً (والذي سيركز عليه هذا المقال)، أرضية مشتركة، مهن مختلطة (باحثون أو نشطاء يصبحون خبراء، صحفيون، والعكس صحيح)، مساحات أو مؤسسات تضفي الطابع الرسمي على وجودها (مراكز بحثية، مؤتمرات، ندوات، إلخ). دون الرغبة في تقديم تحليل تاريخي "22"، أو تقويم الإحداثيات داخل هذا الفضاء لكل مؤلف عمل عن الحرب الأهلية - فإن التحليل من حيث المهن المتقاطعة للباحثين في لبنان وسوريا بعيد المنال لمقال بسيط - وجودها هو فرضية مفيدة لتوضيح شكل المنشورات في مثل هذا السياق بشكل أفضل، والقيود التي تؤثر عليها.

موضوع الحرب الأهلية

يستحث هذا الحقل الضعيف نوعاً معيناً من الخطاب، حيث تتقاطع سلسلة من أشكال السرد العلوي للحرب. حتى لو لم تكن موجودة بالضرورة في جميع الكتب التي تمت مناقشتها هنا، ويبدو أن بعض الكتب على العكس من ذلك، هي شبه أشكال للمقاومة العلمية لهذه اللغة "23"، يُظهر التكرار الطويل لهاتين التأريختين أنهما متكررتان وغالباً ما تكونان مجتمعتين. وبالقدر نفسه في لبنان وسوريا، وبالتالي يبدو أنها "تلك الأشكال" تشير إلى قضايا أخرى غير مسألة التضاريس أو النماذج (وبالتالي الاختلافات بين هذه الصراعات).

استحالة تحديد هدف الحرب

النقطة الأولى، التي سبق ذكرها، هي الميل إلى جعل تحليل الحرب على أنه تحليل لنوع معين من الديناميكيات والممثلين، الأكثر إثارة: من ناحية الرجال في السلاح، وفي كثير من الأحيان القادة أكثر من الرجال في الجبهة وحتى أقل المستويات بين الاثنين (نصر، 1990)، من ناحية أخرى، الضحايا، غالباً مع استقطاب قوي جداً، وترك جانباً العمل على الهيئات الوسيطة، وقبل كل شيء ظواهر التداول بين هذه الفئات (المدنيون الذين يقومون على مساعدة الجنود والجنود الذين يصبحون مدنيين، وما إلى ذلك). في لبنان، على مدار خمسة عشر عاماً من الصراع، نشهد بالتالي استبدالاً كاملاً لموضوعات الدراسة (بالإضافة إلى النماذج "24": على سبيل المثال في العلوم السياسية وعلم الاجتماع، لا يكاد يكون هناك أي سؤال حول العمل على النقابات أو العمال أو النخب الاقتصادية أو المؤسسات الكلاسيكية للحكومة، ولكن على الميليشيات والعنف والطائفية وقريباً الإرهاب. وتختفي بين عشية وضحاها (أبي حبيب، 1996)، وأن إعادة تشكيل المجتمع حول هويات جديدة، إذا كان ذلك حقيقياً، هو ليس مطلقاً أيضاً: لا يصبح الجميع فجأة حاملاً بسيطاً لعلامة طائفية في لبنان منذ عام 1975 بالتوقف عن كونه مهندساً أو أستاذاً أو عاملاً، ينحدر من هذه المنطقة أو تلك، ويمتلك رأس المال والمهارات هذا أو ذاك، إلخ. حيث أن الميليشيات أو المؤسسات الخاصة التي تظهر لا تعود لا تحل محل مؤسسات الدولة التي كانت موجودة مسبقاً في مجملها (فرنسا، 2019؛ ستانيلان، 2012).

ويضاف إلى هذه الصعوبة الأولى تأطير آخر، في شكل إغراء دراسة الحرب في شبه كليتها. وهكذا يتم تقديم العديد من الكتب على مفترق طرق التاريخ، والاقتصاد، وعلم الاجتماع (إلخ)، بمهنة تكاد تكون شاملة. انعكاس نظام التاريخية (هارتوغ، 2015) في أزمة حيث يختلط الماضي والحاضر والمستقبل بشكل خاص، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الفاعلين السياسيين يستحضرون ويعبئون التاريخ أو الأنثروبولوجيا على سبيل المثال، ولكن أيضاً (في داخل المجال العلمي) بسبب عدم وجود تخصص تُترك جانباً، بما في ذلك تلك التي تركز على دراسة الماضي. هؤلاء يرون الأهمية المادية لمصادرهم متأثرة بالصراعات، مثل المؤرخين للأرشيف أو حتى علماء الآثار في مواقعهم (غوينو، 2015). إنه أيضاً انعكاس لطبيعة الحقيقة الاجتماعية الكلية للحرب التي سبق ذكرها، وهي موضوع لا يتوقف فعلياً عند أي نظام، وليس له نهاية تقريباً. وأخيراً، وبطريقة أكثر عملية، يكون تأثير الكتابة المصاحبة بدلاً من الكتابة التراكمية، كما يتضح من تواريخ النشر القريبة للغاية: يجب ملاحظة في هذا الصدد الجدل الصغير بين الأعمال التي علاوة على ذلك لها شكل كتابي مميز بشكل خاص.

خطاب شبه قضائي

الجانب الثاني هو الميل إلى تبنّي خطاب يُصبح فيه معاصرو النزاع "شهوداً" بالمعنى شبه القضائي. لا يخفي جزء من الأدبيات على الإطلاق هذا الطموح لتوثيق الصراع من هذا المنظور (لو كيسني، 2015؛ ياسين كساب والشامي، 2016)، الذي يعبُر أحياناً عمل المهنيين في هذا القطاع (وهو ما يعيدنا إلى الآخرين. مناقشات حول التعبئة المتزايدة للباحثين في قاعات المحاكم)

(أتلاني- دوالت ودوفواكس، 2014). علاوة على ذلك، فإن هذا الخطاب الفردي، المهتم بالبحث عن صانعي القرار، ينتشر بشكل أكبر لأنه أيضاً عبارة عن تحليلات من حيث "الاختيار العقلاني"، وهو نوع من النهج المعمم في التفكير الاستراتيجي، وشكل من الخطاب اليومي بالنسبة لـ الفاعلين في الصراع أنفسهم (راجع على سبيل المثال الشكل، بين التبرير والعروض الإستراتيجية، التي تأخذها الشهادات في الفيلم الوثائقي حرب لبنان) (العيساوي، 2002). سواء في الحالة اللبنانية أو السورية، هناك عدة أحداث تبلور هذا النوع من الاستجواب: عين الرمانة، الدامور (1975)، أو جسر الشغور (2011) والغوطة (2013)، هي بالتالي موضع امتياز لهذه الخلافات. كل جانب. والأمر برمته يشبه إلى حد كبير النقاشات الكلاسيكية حول المسؤوليات في تأريخ الهولوكوست"25". ومع ذلك، فإن مثل هذا النهج له تأثير في جعل الناس ينسون الأبعاد غير المنضبطة للصراع، وجعل الأدب بياناً للمواقف المتقاطعة والبحث عن المسؤوليات التي تكون أحياناً غير مجدية.

لأن تأريخ المحرقة يظهرها بدقة (برايار، 2009): هذا البحث عن المسئوليات يأتي ضد عمليات منسوجة من أشياء أخرى غير القرارات الواضحة والشخصية. بادئ ذي بدء، فإن لعبة الأفعال – ردود الفعل – التوقعات هي أكثر تعقيداً نظراً لأن عدد الفاعلين المتورطين كبير جداً في هذين الصراعين. ومن المحتمل أن تكون هذه الاشتباكات بين المعسكرين بالإضافة إلى الاشتباكات الداخلية (في لبنان هذا هو الحال بشكل خاص منذ بداية القتال في عام 1975، حيث تم تحديد الفصائل الفلسطينية

المعارضة ولها أجندات مختلفة تماماً من قبل الميليشيات المسيحية على أنها الجبهة المشتركة) (شيخ، 1997). كما تتضمن أيضاً قنوات متعددة للاتصال والمفاوضات التي تحيد وتتقاطع مع بعضها بعضاً، مما يوفر الكثير من المعلومات المتناقضة لصنع القرار. علاوة على ذلك، نادراً ما يتم اختزال القرارات في هيكل اجتماعي وإلى الأداء الفعال للتسلسل القيادي: بعض القرارات، عندما تكون موجودة، يكون لها تداعيات سيئة في سلسلة أوامر جنينية في كثير من الأحيان، مع وجود عدد كبير من القادة المتنافسين. ومما يزيد الأمر صعوبة عندما يتعين على الأخيرة أن تؤيد جزئياً، في المقابل، المبادرات المحلية (التي تستند أحياناً إلى إرهاق الجنود الذين لا يفعلون شيئاً، كما روى أحد رجال الميليشيات اللبنانية الذي انتهك أحياناً وقف إطلاق النار كلعبة) (بازي، 2007). يميل البحث عن المسئوليات إلى التقليل من هذه العمليات، وإلى تجسيد الهياكل التي لا تمتلك التماسك والمركزية التي ننسبها إليها والتي نسعى إليها هناك: هذا هو الحال في الميليشيات اللبنانية، ولكن هذا يخص الدولة السورية أيضاً، نظام "استبدادي" ولكنه أكثر تفككاً وتعقيداً (غلاسمان، 2013) أكثر من المركزية الشديدة والتماسك "26".

زيادة الاتجاه بشكل عام

هناك أيضاً اتجاه متكرر نحو التعميم والتجريد، والذي يبدو على وجه التحديد أنه يتعارض مع الحاجة إلى تأسيس دراسة الحرب على المستوى الجزئي. وقد أصبحت "الأزمة" و "الحرب الأهلية" و "لبنان" و "سوريا" في حد ذاتها موضوعات للدراسة، تتجاوز التخصصات التي تعمل عادة على هذا النطاق ومع مثل هذه المفاهيم (العلاقات الدولية، العلوم السياسية، وخاصة الأمريكية،

والجغرافيا السياسية). إنها بالطبع حقيقة الأرضية التي تصبح صعبة، وتقطع من ترسيخ موضعي، وهي أيضاً بطريقة أكثر واقعية، احتياطياً للكتابة المستخدمة للغاية، مما يجعل من الممكن عدم الاقتباس بالاسم، أو الكتابة المجردة. يسمح لك بفصل نفسك عن الحياة اليومية لأولئك الذين عانوا من الصراع عن قرب. ولكن بشكل أكثر عمومية، من تأثير حوافز التعميم التي تعمل في إطار المجال الضعيف. انعكاس لتدويل حقيقي للصراع (وللحسابات الجيوسياسية الحقيقية من جانب الفاعلين المشاركين فيه)، ولكن أيضاً انعكاس للتساؤل حول استدامة أو مستقبل الكيانات الكبيرة مثل "لبنان" أو "سوريا". هذا الخطاب (الجغرافي) السياسي هو، أكثر من ذلك، واقع اجتماعي، خطاب يومي: إنهم يتحدثون عن سوريا. سوريا، سوريا، سوريا "(بيرلمان، 2017، ص 328) يشكو أحد من قابلتهم ويندي بيرلمان، دون أن يتذكر الإرهاق الذي يمكن أن يكون، في الببليوغرافيا اللبنانية، من العثور على كتب غريبة، والتي كان يمكن للمرء أن يتخيلها في البداية البصر لتكون شهادات مباشرة في ضوء مؤلفيها، وهي في الواقع تحليلات بمستوى عالٍ من التعميم (يراجع على سبيل المثال، عزام، 2005).

ومع ذلك، فإن هذا الارتفاع في العموم غالباً ما يكون موضوعاً للدراسة أكثر من كونه إطاراً ضمنياً للفكر. خاصةً أنه يحتوي على أدلة مصاحبة لتدويل المهن، حيث تساهم تجربة المؤلفين (في مواجهة المنفى على سبيل المثال) في إثبات هذا التأطير. وهنا يجب أن نعمل من مهن الباحثين، حتى لو أظهرت ذلك الكتب في بعض الأحيان: عندما أشاع غسان تويني مصطلح "الحرب من أجل الآخرين" (تويني، 1985) في لبنان، وهي أطروحة تصر

على مسؤولية دول الجوار، وهكذا في أعقاب الاجتياح الإسرائيلي، عندما شغل منصب ممثل لبنان في الأمم المتحدة، وكتب كتابه في باريس. قبله وبعده، كتب العديد من اللبنانيين عن بعد، وأحياناً مسافة مزدوجة، جغرافياً ولغوياً (التحول من العربية إلى الفرنسية أو العكس) (ريمون، 2013).

لغة مشتركة

وبالتالي فإن المجال الضعيف له تأثير على اللغة المستخدمة، وتقسيم الدراسات في اللغة العربية والدراسات بلغة أجنبية (أي، في سياق هذه المقالة، باللغتين الإنجليزية والفرنسية) هو في هذا العنوان اللافت للنظر. في سوريا، حتى الآن، تمت ترجمة عدد قليل جداً من التحليلات المكتوبة باللغة العربية (تمت ترجمة المزيد من الكتب الأجنبية إلى العربية)، ولم يظهر أيٌّ كتاب باللغة العربية عن الأزمة السورية كمرجع مشترك. إن شبكة التداخلات بين الأعمال تكشف بشكل كبير عن هذه النقطة: مثل كتاب نيكولاوس فان دام، المستعرب، يتضمن مصادر قليلة في هذه اللغة (فان دام، 2017)، بينما ثلاثة كتب باللغة العربية، مذكورة في 2014 في كتاب آخر ليست كذلك. أكثر من ذلك في جميع المؤلفات التي تمت دراستها في هذه المقالة (ماجد، 2014). هذه الظاهرة هي نتيجة للهشاشة البنيوية للبحوث في المنطقة (حنفي وأرفانيتس، 2015)، ولكن أيضاً نتيجة لتفوق شخصية أخرى، شخصية المثقف. وهذا يعني أن هذا الرقم مرتبط أيضاً بمساحات نشر أخرى، لا سيما الصحف (الافتراضية أو الورقية)، وهو إطار يتم تداول الكثير من التفكير بشأن الحرب في سوريا فيه اليوم باللغة العربية. من ناحية أخرى، تم استثمار شكل الكتاب بشكل كبير من قبل أنواع أخرى من المنشورات، الصحفية

والعامة أولاً، ولكن بشكل خاص "شهادات" و "يوميات"، شهادات مباشرة عن الصراع (ديك، 2016؛ الخطيب، 2017؛ لاريسا، 2016؛ صابر، 2015)، وأخيراً التخيلات (حيث غالباً ما تكون الحدود واهية مع الشهادة) (الحاج صالح، 2016). فاللغة العربية إذن هي لغة نوع معين من التحليل السياسي، مترجمة قليلاً، وفي الوقت نفسه لغة الشهادة والمعلومات الأولية، لكنها ليست لغة علمية، ويشك البعض في احتمالها الآن: يستمتع ياسين الحاج صالح من مقدمة كتابه برغبة في الحديث علمياً عن الحرب الأهلية (الحاج صالح، 2017).

ويبدو أن لبنان يلعب دوراً محورياً في هذا الاتجاه، نحو سحب اللغة العربية المكتوبة كلغة تحليل: عندما بدأ الصراع في عام 1975، كانت بيروت لا تزال مركزاً للناشرين العرب، في فترة تطور النظام الجامعي اللبناني و(الإقليمي) ونتيجة لذلك تتكاثر المطبوعات في شكل كتب وكذلك في الصحف. اللغة العربية هي أيضاً اللغة المفضلة، وخياراً واعياً للكتابة للأشخاص الذين تدربوا مع ذلك في جامعات أمريكية أو فرنسية، وكذلك للعديد من المجموعات السياسية، القريبة من القومية العربية أو الحركات اليسارية التي تعمل بعد ذلك على المستوى الإقليمي. مقياس. لاحظت إليزابيث بيكار في ذلك الوقت، أن "أعنف انعكاس لتطور البلاد، كان كلوفيس مقصود، من أدونيس، قد تم باللغة العربية" (بيكار، 1977). ومع ذلك، سيُكتب الصراع تدريجياً بلغة أخرى، باللغتين الإنجليزية والفرنسية، حول تدويله وظهور مجال ضعيف. في التسعينيات، اختفت الإشارات العربية للنزاع تدريجياً من المراجع ونادراً ما أعيد طبعها ومن ثم يصعب العثور عليها. في

عام 1981، أشارت قائمة المنشورات إلى 572 مرجعاً باللغة العربية و 338 مرجعاً بلغات أخرى (صدقة وسلام، 1982)، يصعب العثور على جزء كبير من هذه الأعمال باللغة العربية وغير معروف اليوم تقريباً (انعكاس أوسع أيضاً "إزالة الماركسية" [روماني، 2009] من الأعمال باللغة العربية على نطاق المنطقة، التي اعتمدوا عليها إلى حد كبير) "27". أكثر من ذلك، خارج نطاق التداول، أو حقيقة كونه قديماً، فإن الإنتاج أيضاً هو موضع تساؤل: الكتب نادرة، معظمها عامة، كما أنها تعتمد بشكل كبير على مصادر أجنبية (الأرشيفات الدبلوماسية أو الصحف على سبيل المثال) (سِنو، 2008)، أما بالنسبة لسوريا فالمنشورات القصيرة في الصحف مفضلة الآن على الكتب "28". وفي الواقع، فإن الكتب المتعلقة بالحرب التي نوقشت في السنوات الأخيرة في لبنان هي في الأساس ترجمات من الإنجليزية أو الفرنسية "29" ...، بينما أصبحت اللغة العربية قبل كل شيء لغة الشهادة للعديد من المحاربين القدامى أو السياسيين الذين ينشرون مذكراتهم.

الحرب الأهلية كمشكلة زمنية

بعض هذه الموضوعات هي من بين أشكال سرد الحرب التي تمت تنحيتها جانباً من قبل الإثنوغرافيا المعاصرة للصراع، لكن البعض الآخر لا يزال كامناً في التحليل، ويبدو التحايل عليه أكثر صعوبة، لأنها تعكس حالة اجتماعية معينة مرتبطة بزمنية الحروب الأهلية. ولا تكمن المشكلة فقط في الألم الناتج عن التعرض لأحداث صادمة، ولكن أيضاً بمعنى آخر، حقيقة أن ما يدرسه المرء يتحرك (ريفوال، 2014). بالمعنى الأول، يتعلق الأمر بمسألة النظر في ما لا يمكن للمرء كتابته بسهولة عن الحرب عندما يتم القبض عليه،

وفراغات هذه الأعمال، ليست فقط الأشياء الأقل دراسة مقارنة بتلك التي سبق ذكرها والتي تبدو مركزية، ولكن الأشياء التي يصعب، بحكم التعريف، أن تكون قادراً على استيعابها. وإن دراسة الحرب الأهلية هي جزئياً أن نضع أنفسنا على ثبات أو عدم ثبات الأشياء المدروسة، في سياق يتغير فيه المجتمع بدقة (بونيلّا، 2014). وبالتالي، فإن الأسئلة التي يتم توجيهها إلى الصراع هي رهانات جزئية، وتعتمد على التخوف من الحاضر، وكذلك توقع المستقبل. هناك مشكلة تم تناولها بشكل خاص في الأنثروبولوجيا، منذ بداياتها، تتعلق بوفاة المجتمعات المدروسة (بواسّيير، 2015).

وبالمعنى الثاني، يواجه الباحثون مسألة إطالة أمد الصراع، والتي تؤدي أيضاً إلى تغيير جذري في أوراق ممارساتهم وطريقة كتابتهم. وتتطلب ملاحظة الصفحات السابقة، التي أبلغت عن حالة معينة في وقت t، أن يتم النظر فيها على مستوى ثانٍ، أكثر ارتباطاً بالتزامن. لإعادة صياغة فلورنت برايار، فإن الطبيعة الصعبة للموضوع مثل "الارتباط الطويل بالموتى" هي التي تؤثر على ما يمكن كتابته عن الحرب "30" (2009) وهي ليست مجرد أحداث. وهكذا تثير هاتان الحربان مشكلة منهجية كبرى مرتبطة بالزمن: مشكلة زمنية طويلة، حتى بالنسبة للباحثين الذين لا يكفي عملهم طويل الأمد بحكم التعريف لتغطية فترات 15 سنة للبنان أو الآن 8 سنوات لسوريا. حتى أبعد من هذا المجال المحدد، نادراً ما يُثار السؤال المتعلق بمجال قد يكون طويلاً جداً في الأدبيات المنهجية بشكل عام، أي أكثر من آثاره السلبية المحتملة (نتيجة البحث أو الباحث أو المستجيبين له) "31".... ومدة النزاعات هي مشكلة يتم تناولها بشكل شائع في نظريات الحروب الأهلية، ولكن كمتغير

يجب تفسيره (غالباً ما يتم البحث عن أسباب طول النزاع) (فيارون، 2004) دون اعتبار المدة عاملاً في حد ذاته، والذي يغير إطار التحليل وفقاً لذلك. منذ البداية، يتسبب طول الأزمة في حدوث مشكلات عملية، وقبل كل شيء انقطاع في متابعتها الملموسة: حتى لو كان الوصول إلى الأرض ممكناً، فهل هذا ممكن بالفعل؟ على هذا النحو، إذا وُلد الممثلون والديناميكيات أو اختفوا في الصراع نفسه، فهذا هو الحال أيضاً لمن يتحدثون عنه. نادرون هم أولئك الذين يتابعون الأزمة بأكملها بطريقة مستمرة، حتى أقل من أولئك الذين لا يتطور موقعهم بمرور الوقت (فقط في بعض الأحيان بالانتقال من مهنة إلى أخرى في هذا المجال الضعيف). في هذا السياق، يمكن للعديد من المؤلفين متابعة بعضهم بعضاً بمرور الوقت، وإعادة النظر في الموضوع نفسه بعد بضع سنوات، وتعمل عدة "أجيال" (كل منها يحمل نظريات وأغراض دراسة جديدة) واحدة تلو الأخرى. للأسف، كان التأثير الأكثر شيوعاً لهذا الوقت الطويل هو إغلاق عدد كبير من المشاريع دون متابعة أو استئناف، مثل مشروع تيليكوميكس لأرشفة مقاطع الفيديو الخاصة بالحرب الأهلية السورية، الذي توقف بعد عام"32"، أو حتى مجموعات أو مجموعات عديدة من "التسلسل الزمني" (أو يوميات) للحرب اللبنانية، والتي غطت الفترة بأكملها عدد قليل جداً منها.

إذا بدا أنه من الضروري عدم ترك قلب الأحداث (كاتوس وآخرون، 2015) لنوع معين من الممثلين أو الصحفيين أو الخبراء، فإن ما يمكن أن تساهم به العلوم الاجتماعية هو بالتأكيد، إن لم يكن أكثر، على المدى الطويل، التي يمكنهم التحكم فيها بمفردهم. ولكنها تطرح على وجه التحديد مشاكل عملية

ومشاكل في التفسير، والتي لا يتم ملاحظتها في كثير من الأحيان، وبالتالي يمكن العثور على آثارها بشكل عشوائي في الأدب في سوريا ولبنان على حد سواء.

تحريك الأشياء، أشياء مستحيلة؟

لذلك من الصعب أن نأخذ هذه "الهدنات trêves" وهذه الفترات الفاصلة بين الحروب والأماكن التي لا نقاتل فيها، والمذكورة في بداية هذا العمل، موضوعاً للدراسة. وإذا كانت هذه الهدنات دائماً أكثر عددا من فترات القتال الفعال، وهذا في جميع الحروب (المدنية أو غير ذلك) (كلاوزفيتز، 1959)، فإن هذا الوضع الطبيعي في الحرب يطرح مشكلة تخوف: إما أنه يُنظر إليه أساساً على أنه فضاء–زمان سريع الزمان، "بين مواجهات entre les combats"، انتظار، بدون محتوى حقيقي؛ أو موضوع مرحلة طبيعية، مما يجعل دراستها محفوفة بالمخاطر أو منحازة، هذه هي حالة عرض "الحياة الطبيعية" للحياة الدمشقية في الصحف الأجنبية، على غرار عرض الحياة الاحتفالية والعاطلة في "المعقل المسيحي" في لبنان في ثمانينيات القرن الماضي، وأخيراً، فإن الهدنة هي قبل كل شيء عملية مكانية وزمانية وليست موضوعاً كما سبق وأشرنا. في الواقع، لقد جعلوا من الممكن إجراء مقابلات أثناء فترة الهدوء أو الكتابة، كما فعل العديد من المؤلفين في عام 1977، أول انقطاع في الصراع.

هناك قضية أخرى ذات صلة وهي العمل على شيء آخر غير الثوار والمسلحين، وتغطية جميع الفاعلين في أزمة: النظام وأنصار بشار الأسد (لاستثناءات قليلة ينظر، فورن، 2013، خضّور، 2015) لا يزالون طي–

دراسات sous-étudiés، بسبب الصعوبة العملية للمجال، المحظورات الأخلاقية والسياسية للمجال، ولكن أبعد من ذلك أيضاً بسبب الندرة التقليدية للأدب حول هذا النوع من الأسئلة (كومبيس وفيلّييل، 2011). لكن الأمر الأكثر جوهرية هو أنه جزئياً لأنه يبدو قبل كل شيء أنه من غير المجدي في البداية دراسة الجانب الآخر من الصراع، حيث يُطلب من النظام أن يختفي سريعاً في الرواية النبوية للخطوات الأولى للأزمة. سواء مع الجيش السوري من عام 2011، أو مع اللبنانيين في 1975-1976، فنحن ندرس على سبيل المثال الانشقاقات بشكل أساسي. على العكس من ذلك، فإن العديد من المقالات التي تتناول المؤسسات المدنية التي أنشأها الثوار، الجيش السوري الحر، الكتائب المسيحية أو منظمة التحرير الفلسطينية، تهدف صراحة إلى جعل هؤلاء الفاعلين موجودين منذ ولادتهم، ثم الإصرار لاحقاً على حقيقة وجودهم. (دورّونسور وكويسناي، 2016؛ ليجراند، 2014؛ روبنبرغ، 1983). إن الحد الفاصل بين تصحيح الرؤية الخاطئة، خاصة في وسائل الإعلام، والخطاب الأدائي هو في هذا النوع من الحالات المتغيرة. وهنا يتقاطع الموقف السياسي والقلق من فكرة فقدان أرضها والمستجيبين.

هل يمكننا فعلاً العمل على شيء آخر غير "العالم الجديد" الخارج من أزمة سياسية أو حرب؟ على نطاق واسع ولاحق، يتم التعبير عن كل هذا بالضرورة مع استمرار من ناحية الهياكل الاجتماعية، "[الحرب] تؤثر بالفعل في المجتمع وتغيره، ولكن ليس بعد إلى درجة تجعله غير معروف ويقلل تماماً من كفاءة هياكلها ومؤسساتها الاجتماعية" (بواسيير 2015). والملاحظة عامة في أي حالة من حالات الأزمة السياسية، ولكن من الناحية العملية لا

يمكن للمرء أن يحدد إلى أي مدى سيذهب الصراع وأي من هذه الهياكل والمؤسسات سيستمر في النهاية. بعبارة أخرى، يبدو من الخطير جعله موضوعاً للبحث، باستثناء جعل المجال شكلاً من أشكال الرهان العلمي، نادراً ما يتم طرحه على هذا النحو. في لبنان، انتظر عالم الأنثروبولوجيا مايكل جونسون (جونسون، 1986) عشر سنوات ليحكم على صلابة وتطور نظام الوجهاء السنة في بيروت الغربية الذي درسه في أوائل السبعينيات، ويبدو أنه أول من فوجئ بإصراره. في سوريا، فقط في عام 2017 طرح نيكولاوس فان دام فكرة أن سوريا لم تنقسم إلى عدة دول، في وقت يبدو فيه الآن احتمال التقسيم غير مرجح (فان دام، 2017). وغالباً ما يتم التأكيد على أنه لم يختف كل شيء إلا بعد الحرب، عندما يُترك الأمر للمؤرخين. لذلك يجب التأكيد على أنه لا يمكن للمرء، بحكم التعريف، كتابة كل شيء، بما في ذلك خطر أن يصبح العكس العلمي فاحشاً، عندما يكون المرء معاصراً للصراع.

التفسير المواجه مراراً

من ناحية أخرى، يشير طول هذه المرة إلى أنه لا توجد طبقة واحدة من التفسيرات النافذة، أو ليس فقط التفسيرات المتنافسة والمتزامنة، ولكن العديد من التفسيرات المتتالية والتي تجيب بعضها البعض، تعيش داخل التفسير "33"، بينما الكائن المدروس لا يزال متحركاً. إنها ليست فقط مسألة تأطير النضالات في لحظة يتبعها الآخرون لاحقاً يعيدون تفسير الحدث، بل يتعلق بالأطر التي تستجيب لبعضها البعض في الوقت المناسب، غالباً من زاوية الانعكاس الجذري، وتغذي التغييرات في تصورات الصراع الذي تطور. لقد

شدد نيكولاس بيوبري بالفعل على هذا في حالة حرب 14-18، من خلال إظهار كيف أن الانطباع بأن الحرب لم تنتهِ أبداً أعقب الانطباع الأول حيث بدا النصر سريعاً موعوداً (بوبريه 2013). وهكذا، بين لبنان في الأعوام 1975-1982 و 1982-1990، لم يكن هناك تطور للحرب فحسب، بل كان هناك أيضاً فقدان للأمل فيما يتعلق بإمكانية حل النزاع (خلف، 1982). التي لها تأثير أكبر على طريقة تحليلها. لدرجة أنه لا أحد يرى أنها تنتهي في بداية عام 1990 (نورتون، 1991) أو حتى أن الحرب لا تزال مستمرة بالنسبة للبعض. في وقت سابق من الصراع، بعد عام 1978، كان هناك ظهور لخطاب أكثر تفضيلاً للكتائب اللبنانية (بيرونسيل-هوغوز، 1985) في سياق كتابات مؤيدة جداً للفلسطينيين، تم تقديمها حتى ذلك الحين على أنها خطأ جانب من التاريخ. وأخيراً، هذه المرة بطريقة أقل سياسية، تجدر الإشارة إلى أن ظهور الدراسات على الشاشة "خارج الشاشة" للحرب، والتي ذكرناها في الجزء الأول، ظهر في لحظة معينة، في منتصف الثمانينيات، أي في وقت سئم من تحليلات بداية الصراع والنموذج الماركسي الذي بدأ يضعف.

وفي سوريا، كان الأمل الأولي "34" الذي نسج منه جزء من الأدب متبوعاً بخطب تشبه شكلاً من أشكال فشل نبوءة بعد سنوات قليلة: يروي الشهود خيبة أملهم، وانقلبت الآمال الماضية في الاعتراف بالفشل أو تمارين الخطأ: التفكير الحكيم للدبلوماسية الأجنبية في سوريا (فان دام، 2017)، أخطاء الغرب (جيرار، 2014)، إلخ. بعبارة أخرى، فإن الجانب الآخر من هذه الرهانات العلمية الموصوفة في الجزء الأول، هو أن تكون قادراً على العثور

عليها بهذه الطريقة. يكمن الخطر في اختزال التاريخ الماضي للصراع كل مرة من إلى الوضع الأخير، وعلى سبيل المثال وصف النظام السوري الذي لم يسقط لأنه لم يستطع السقوط منذ البداية (مالبرونو وشيسنو، 2014)، متناسين المواقف حيث كانت هشاشتها، على العكس من ذلك، واضحة جداً (وبالتالي الحشود لإنقاذه) "35". وهكذا ترتّب هذه التفسيرات كل منها بطريقة جديدة، الماضي والحاضر والمستقبل، وتعيد إلى المركز أو تهمش جوانب معينة من الصراع، وتفكك بعضها البعض، وتمحو بانتظام في تمرير كل الاحتمالات التي لم تحدث. إذا كان الانتقال من تفسير إلى آخر أمراً شائعاً في المجال العلمي، فإن السرعة التي يحدث بها هنا تبدو رائعة "36"، مما يتطلب مراقباً لاحقاً لكشف هذه الطبقات المختلفة.

مرض الزمان

على مستوى آخر، يؤدي الوقت أيضاً إلى تراكم كتل من المعلومات، أكثر وأكثر عدداً، خاصة وأن المنطق الداخلي لهذين الصراعين يميل إلى أن يصبح أكثر وأكثر محلية، مما يؤدي إلى تشتت المعرفة بشكل أكبر. بحكم التعريف، يتطلب العمل البحثي في الأزمات فرز كمية كبيرة من المعلومات ذات الصلة بشكل أو بآخر (سواء تم جمعها بشكل مباشر أم لا)، كما أظهرت العديد من الدراسات حول الشائعات (كوفاكس، 1998): على المدى الطويل، يصبح هذا العمل مذهلاً في الحجم. إن عملية المراقبة هذه، التحديث المستمر لإحداثيات الأزمة أو الجمع اللامتناهي للشهادات والحقائق، جانبٌ لم يكن بحاجة إلى أن تكون شبكة الإنترنت موجودة بالفعل، فهي أكثر وضوحاً وتأكيداً اليوم في سوريا. إن طول المدة والتدفق المستمر للمعلومات لهما

عواقب عديدة. أولاً، يمكننا تحويل العمل العلمي إلى عملية أرشفة. ثم يصحبها الإرهاق المعرفي والتعب: إرهاق الجهات الفاعلة في الصراع الذي لوحظ في السنوات الأخيرة بالنسبة لسوريا، لا يخلو من القلق لمن يغطيه. وهكذا فإن جميع الشهود على هذه الحروب محاصرون في شكل من أشكال "مرض الوقت": "يدرك الناس أنهم أخذوا صحيفة أول أمس ليومنا، ويجدون صعوبة في تذكر حالة الأمان خلال الأسبوع السابق [...] (بيضون، 1993، ص 171).

وفي هذا السياق يجب فهم التخفيض التدريجي في تغطية هذين التعارضين، فهو يعكس إرهاق المؤلفين والناشرين والقراء. على سبيل المثال، كانت فترة ما بعد عام 1982 من الصراع اللبناني موضع دراسة أقل بكثير، بينما كانت بداية الحرب، 1975-1976، موضوعاً لمعظم الأدبيات. وعلى الرغم من كل الأدبيات التي تدفع لدراسة الأزمات السياسية في محتواها اليومي، ونقد المسببات، يتكرر الأمر نفسه بالنسبة للأزمة السورية. يغطي كتاب واحد فقط حتى الآن الصراع حتى عام 2016 (أبو زيد، 2018)، وتوقف الآخرون في الغالب في عام 2013. ومن الواضح جداً أنه إذا كانت هذه الحدود الزمنية في الحالة السورية تبدو مرتبطة على ما يبدو بإغلاق الحدود، فهي ليست موجودة على الإطلاق. في الحالة اللبنانية، حيث يمكن التواجد في البلاد حتى 1984-5. وقع مرة أخرى على أن الوصول إلى الأرض ليس هو السبب الوحيد.

الفكر العفوي لوقت طويل

أخيراً، هذا الوقت الطويل له نتيجة أخرى: فهو يشجع على تطوير أنواع معينة من التفكير والحجج البروتستوريتين التي تدمجها أو تتحايل عليها. في لبنان، تم تناول دراسة العقد الذي بدأ مع الغزو الإسرائيلي في حزيران 1982 وفقاً لمنطق جدلي محدد للغاية، والذي نجده اليوم في حالة سوريا: تلك المتعلقة بالحدث المفرط المذكورة أعلاه، والتي من شأنها أن تؤدي إلى ميل إلى تسجيل الأحداث بشكل سلبي أكثر فأكثر، والاشتراك في شكل من أشكال الأسباب الزمنية، والخرائطية والنمطية، ولكن أيضاً تأثير الأثر التراكمي، الذي يميل إلى أن يُقرأ من حيث الفوضى والجنون، و/ أو الطبيعة الدورية لـ الأحداث التي لا يبدو أنها تتطور، لكنها تكرر نفسها بلا كلل وفقاً لمصفوفة معينة. من هذا الإطار النظري، غالباً ما يكون ضمنياً، يستمد ما يبدو أنه من الممكن دراسته أو القيام به حيال الصراع.

أولاً، يمكن أن تؤدي الفعالية المفرطة l’hyperévénementialité إلى شكل معين من التحويل إلى عمل عصور البروتوستر، نادراً ما يتم التفكير فيه على هذا النحو، والذي، أيضاً بسبب الطبيعة المتزامنة للبحث، يميل إلى القيام به في الوقت نفسه وبطريقة مماثلة من قبل العديد من الناس. في لبنان، تم تسجيل جزء من الإنتاج الثقافي والعلمي جزئياً عن الحرب في العديد من "اليوميات" و "التسلسل الزمني" و "الموسوعات" المخصصة للحرب (شامي، 2003 الشامسي، 1978؛ الخالدي، 1979؛ مسعود، 2006 ؛ سركيس، 1993). ويمكن العثور على نفس الاتجاه في الحالة السورية، من خلال

نشر العديد من "الوثائق" أو الكتب التي تسلسل الشهادات (مجموعة، 2017)، مواقع الويب التي تقدم التسلسل الزمني والمراقبة (الأرشيف السوري) "37" وهذا يبدو بقدر ما هو وسيلة. للتصدي للممارسات العرفية (التي تهدف إلى إنتاج الجهل) للجهات الفاعلة في النزاع، ولا سيما في الحالة السورية، كطريقة عملية للغاية لإدارة التضاريس التي لا نهاية لها، أو حتى التخفيف في الواقع المفرط لأي احتمال لاتخاذ موقف جزئي. بعبارة أخرى، يتحول العمل العلمي إلى عمل تجميعي، وأرشفة، وتصنيف للشهادات والحقائق. وهذا بدوره يعرض الكتابة لخطر سرد الوقائع، بل وأكثر من ذلك، على المدى الطويل، مخاطر تحديد المواقع التي تتكون في متابعة الأخبار على الدوام: يستمر جزء من البحث عن لبنان، بعد الحرب وحتى اليوم البحث عن "لبنان" المعاصر جدا، الذي أصبح تخصصا في حد ذاته، يحافظ على علاقة مع الخبرة والصحافة.

ثانياً، يميل التأثير التراكمي إلى إعادة سلسلة الأحداث إلى ملاحظة مجتمع فوضوي بشكل متزايد و"منتشر" (ياسين، كساب والشامي، 2016) وخطّي للأسوأ. ضمنياً، يحتوي هذا الشكل من التفكير على مفهوم تبسيطي للوقت والأزمات السياسية كما لو أن استمرارها بمرور الوقت كان مجرد مرادف للتدمير الإضافي. بعبارة أخرى، لا يمكن للأزمات والحروب أن تختبر أبداً ديناميكيات إعادة الهيكلة، أو ظهور أنظمة جديدة، أو مد العنف، أو حتى فترات أو مسافات بين الحروب، في لحظات قصيرة من تدفق السيولة (دوبري، 2009). ومع ذلك فهي مكونة إلى حد كبير (ولكن لأسباب أوضحناها أعلاه، بالكاد يمكن التعبير عنها في سياق الحرب). يتجاهل هذا النوع من

التفكير بشكل خاص جانباً رئيسياً يحدث بمرور الوقت: وهو على وجه التحديد تكاثر الهدنات والمساحات التي تتميز باستقرار اجتماعي معين. هذا الأخير يجري تعهدات جديدة محتملة في المقابل الأراضي.

والجانب الدوري، أخيراً، هو وسيلة للتحايل على الظهور المستمر للأحداث من خلال جعلها تحقق الهياكل أو الديناميكيات العالمية "38": صراع يكون أساساً بين الصديق X والعدو Y، أو (لاستخدام المصطلحات المستخدمة في لبنان) "نظام الحرب" أو "نظام الميليشيات". في نسخة غير مجدية بشكل خاص، هذا النوع من شبكة القراءة له طابع رجعي بلا حدود، كما في الحالة اللبنانية حيث تمكنا من البحث عن نموذج توضيحي في حرب أخرى عام 1860 "39"، عندما لا يصبح مجرد غير تاريخي، لأنه مثال في الأدبيات التي ترى في الحرب الأهلية مثالاً على مواجهة كبيرة بين المسلمين والمسيحيين (بيرونسيل- هوغوز، 1985). وينتمي أيضاً إلى هذا النوع من الحجج الوظيفية - وظيفة تقليل الحدث - شبكة القراءة الأخرى هذه من حيث نظرية المؤامرة، حيث الأحداث ليست سوى البراهين المتتالية لتنفيذ خطة أولية عظيمة: في لبنان الجدل حول "خطة كيسنجر plan Kissinger " (سليمان، 2013)، في سوريا الخطاب حول مؤامرة دولية.

ومع ذلك، فإن هذا النهج الفكري له أيضاً جانب إيجابي. في أفضل الحالات، يكون مشابهاً لمقاربة من النوع المثالي للتكوين الاجتماعي (دوبري، 2007)، مما يجعل من الممكن ترتيب الواقع بطريقة مفيدة بشكل خاص. وهذه هي حالة مفهوم "نظام الميليشيات" (نصر، 1990) المطروح في حالة لبنان، والذي يمثل في الواقع تنظيماً اجتماعياً مستقراً ومتكرراً جزئياً (مما أدى إلى

استقرار الجبهات، وتحديد الجهات الفاعلة بشكل أكثر وضوحاً ومؤسسية، جداول المعارك أو الفنون التي يجب القيام بها للحماية منها). ومع ذلك، فإن الخطر هو أن تكون غير تاريخي وأن تقوم فقط بعمل آراء مقطعية في وقت t دون شرح المرور من تكوين إلى آخر، وتأثيرات الترسيب بين كل موقف: هذا هو الحد المحتمل للفكر من حيث المصطلحات من النظام أو النظام.

وفي الأساس، القضية أوسع من مجرد هذه الحروب وتبين أنها مشكلة العلوم الاجتماعية بالمعنى الدقيق للكلمة: كيف تفسر الأزمات السياسية الطويلة، من الناحية النظرية ومن حيث الكتابة (غوريسّي، 2012)؟ هو التشكيك في التعبير عن البنية والتغيير، لإعطاء المرء الوسائل الفكرية لفرز التسلسل الزمني وتجاوز التدفق المستمر للأحداث، ليس فقط لاختزال العالم الاجتماعي إلى أحداث، أو للتساؤل عما تفعله الأحداث الهيكل الاجتماعي (أبوت، 2015؛ سيويل، 2005)، ولكن أيضاً لطرح مسألة تسلسل الأحداث باعتبارها تشكل مشكلة هيكلية في حد ذاتها.

خاتمة: صورة للباحث كأخصائي أرشيف؟

انطلاقاً من مقارنة بين سوريا ولبنان لفهم الصراع اللبناني وإنتاجه الفكري بشكل أفضل، انتقل هذا العمل إلى مسألة الخطوط العريضة المحتملة للتأريخ المستقبلي للحرب في سوريا، وبعض أشكال الجدل المتكررة. صراع لآخر. الهدف الأساسي هو توفير الوسائل لتجنب شكل من أشكال سرد القصص للحرب الذي سيصبح عتيقاً سريعاً: الخطاب الواقعي، والعقل الزمني (مع كل مخاطر الوهم بأثر رجعيrétrospective)، والعمل المنسوج من القرارات السياسية، والمقاتلين والعنف، والقراءة في شروط المصالح والحسابات،

ومستوى التحليل الكلي. ومثل هذا النهج يترك جانباً فترة ما بين الحربين، والتعقيد والمفارقات في عالم اجتماعي في حالة حرب، حيث يدمر المرء ما يحمي، أو يستفيد، أو يبني روابط اجتماعية. إنه ينقل عالم الحرب إلى جانب واحد، ويترك جانباً أي احتمال للصدفة والآثار الضارة وعدم سيطرة الجهات الفاعلة على الأحداث. على وجه الخصوص، يستبعد كل المستقبلات التي لم تحدث، كل "تذبذب الاحتمالات" (الشاذلي ورابنر، 2018)، مما يجعل الممثلين يقولون "[نحن] نغير آراءنا طوال الوقت. وما أكتبه يوماً ما لم أعد أفكر به في اليوم التالي "(معروف، 2014، ص 170-1). وبشكل أساسي، ظهور الويب، وتطور النماذج، والإغلاق السريع جداً للحقل السوري، والعديد من العناصر التي قد يعتقد المرء أنها تحدث تغييرات جذرية، والتي تميل إلى التجمع بمجرد وضعها في بُعد زمني مزدوج (لسياق متغير وسياق طويل الأجل) يشتركان فيهما.

لكن بشكل عابر، يدعونا هذا العمل أيضاً إلى التفكير في إمكانية إعادة التفكير في العمل العلمي على نطاق أوسع قليلاً في مثل هذا السياق والنتائج التي ينطوي عليها موقف "الشاهد" هذا، حتى المتميز أو الأكثر اطلاعاً. بعيداً عن شغل منصب متدني، يكون الباحث، قريباً أو بعيداً، عالقاً في موضوعه في الحقل أو حتى من مسافة، مُدرجاً في حزمة من القيود التي تحتاج إلى توضيح بما يتجاوز المنهجية الوحيدة. على أرض الواقع، وتقاسم "الحيل" العملية في مثل هذه الحالة. إن طرح فرضية مجال ضعيف يجعل من الممكن التساؤل عن الحاجة إلى عدم إعادة، كباحث، نفس الحقول مثل الجهات الفاعلة الأخرى (على العكس من ذلك من خلال المرور بجوانب أقل

استكشافاً في عالم الحرب؟ والظواهر التي تترك أقل آثار؟). إنها سياسة كاملة لحدود البحث التي يجب إجراؤها: تحديد المنهجية والأرضية المتروكة من الموضوع والمهربة (سيميان–غيرمانوس، 2002)، للبحث في أوقات الحرب الأهلية شيء مختلف تماماً عن المطالبة بوجودها أو تطورها. التحدي هو إعادة بناء شعور جديد بالحدود لتكامل وخصوصية العمل العلمي.

إنها أولاً وقبل كل شيء فرصة للتساؤل عن إمكانية إعادة النظر فيها، وما وراء تقسيم العمل العلمي بين الباحثين (من مختلف الأجيال و/ أو التخصصات)، وماذا تعني الكتابة مع العلم أنك ستُقرأ في المستقبل بواسطة زملائك. وبالتالي، فإن الأمر يتعلق بتحضير زيارة المرء مرة أخرى أو زيارة باحثين آخرين (بوراويو، 2010): مهما كانت التضاريس أو جودة العرض النهائي، وأن تكون قادراً على إتاحة البيانات يوماً ما، دون محوها لصالحها. من التفسير، فإن الأخير، كما أوضحنا، مُدرج في حزمة ثقيلة من القيود. ينبع هذا من سياسة المجال (ساردان، 2008) ولكن هذا لا يكفي: النطاق الإثنوغرافي للمنشور أو ترسيخه في نظام ما ليس في حد ذاته ضماناً للمستقبل "40"، كما أوضحنا هذا في صعوبة الملاحظة الفعلية لأشياء معينة من الدراسة، ويجب استكمالها بسياسة كتابة وأرشفة البحث (لافيرتي، 2006). بالنسبة إلى معاصري الصراع، سيكون من الضروري كتابة كتابين تقريباً، وتحليل فوري، وثاني بعد بضع سنوات (أو تركه للمؤرخين).

ابتكار أشكال وسيطة للكتابة؟

ويظهر الشكل الأصلي الذي اتخذته بعض الأعمال في لبنان أو سوريا بوضوح، أن الوضع يساعد على اختراع الكتابة المبتكرة. ومن موقع الشاهد هذا، ربما ينبغي للمرء أن يتوقع أقل من توليفة بارعة ومنطقية، من الملاحظات، والمحاولات، والمقالات الوسيطة، والفرضيات المطروحة بوضوح على هذا النحو. وإذا جرى تفضيل الشكل الكتابي بالطبع في سياق الحرب الأهلية، من خلال المطلب التحريري بقدر الرغبة في تنظيم وتبرير انطباع الفوضى للشهود، فمن الواضح أنه ليس الأنسب لواقع المجلد ونوع المعلومات المتاحة. ومن المؤكد أن الشكل المخطوطة للصحيفة، أو الشكل المختصر للمقالة هو في الواقع الأنسب لمثل هذه الحقيقة المتمثلة في المقتطفات والشائعات، والمعلومات الخاطئة (التي كانت موجودة في مارك بلوخ قبل الأخبار المزيفة) للإدارة والفرز، ولكن أيضاً دليل كل يوم لا يمكن تدوينه عند التحدث إلى معاصريه.

في كتابه المرجعي عن الحرب، يمكن لسمير قصير أن يكتب الجملة التالية، "بالنسبة للعمل بأكمله، بدا لي أن هناك نوعاً من مجموعة الأفكار والمعلومات الدقيقة في كثير من الأحيان، لأنه تم التحقق منها، ولكن لا يمكن التنازل عنها لمصدر معين "(قصير، 1994 أ). يتميز سمير قصير نفسه بخصوصية إنتاجه المزدوج الذي يستحق الاقتراب منه، يعكس أحدهما الآخر: مقالات كتبت أثناء النزاع وتوليفاً في فترة ما بعد الحرب مباشرة "41" وبالتالي لا يزال هناك ابتكار كتابة للشك والفرضيات، سيناريوهات متفائلة إلى حد ما

والتي تتبع بعضها البعض (والتي ينسى المرء كتابتها)، وحتى نظام تصنيف لهذه المعلومات "42" (حتى من مصدرها).

وفي سياق تكون فيه المعلومات غزيرة ويصعب تفسيرها (وبالتالي من المحتمل أن تكون هشة)، فإن الأمر يتعلق باختراع أشكال من الكتابة أو الأرشفة تجعل من الممكن ترك النصوص "مفتوحة" والتحضير لمراجعة أخرى، أو توقع توفر ما لم يكن قابلاً للنشر. في الواقع، نظراً لأنه يضع الباحثين في المواقف التي يكون لديهم فيها إمكانية الوصول إلى البيانات الحساسة، فإن حالة الحرب تنطوي على ممارسات تنسيق محددة مثل إخفاء هوية المصادر، والأسماء المستعارة للمؤلفين، والمصادر غير المذكورة لأسباب أمنية، وحتى، وهذا هو أحد أكثر الجوانب تعقيداً بعد ذلك، تحت "43" أو عدم نشر بيانات معينة أو حتى المزيد من الأعمال بأكملها. وهكذا في لبنان، نادراً ما يُستشهد بعمل نبيل بيهوم، وهو أحد أهم أعمال فترة ما بعد الحرب، لأنه لم يُنشر أبداً "44". وما يصلح للنصوص هو بالأحرى الشخصيات التي يستحق إنتاجها المزيد من التساؤل، بحكم طبيعتها نفسها والقوة الاجتماعية التي تنسب إليها، تبدو صلبة وتنتشر بسرعة: في لبنان يبدو أن هناك عدة تقديرات كمية للناتج المحلي الإجمالي، لأموال المليشيات أو حتى عدد رجال الميليشيات، مؤكدة اليوم "45"، معززة بشبكة من الاقتباسات لسنوات. ومع ذلك، لا تزال أساليب بناء مثل هذه الأشكال مشكوك فيها حتى يومنا هذا في السياق الذي تم إنتاجها فيه. يبدو أن بعض الشخصيات المتداولة حول سوريا اليوم متجهة إلى مستقبل مماثل، مثل

استطلاعات العينة، أو أرقام حول عدد المقاتلين الأجانب، أو حتى البيانات الاقتصادية.

وستكون أرشيفات البحث مهمة لتهيئة الظروف لرفع هذه القيود في المستقبل، والعودة إلى البيانات الأولية، بما يتجاوز هذا التنسيق وهذه القيود الظرفية. من الضروري التأكيد هنا على فائدة امتلاك مهنة، حتى لو كانت تأخذ شكل مهنة وعمل شخصي في كثير من الأحيان، فهي مدعومة أيضاً من قبل المؤسسات، التي كانت تتساءل منذ عدة سنوات على وجه التحديد عن فائدة ونطاق أرشفة البحث. ومع ذلك، فقد تم تقديم المنطق المؤسسي قبل كل شيء على أنه مقيد واستمر في الآونة الأخيرة، لأنه مقيد بشكل متزايد على ما يسمى بالتضاريس "الصعبة".

أرشيف البحث

هناك بالطبع تناقض في سؤال أولئك الذين يواجهون فيض مستمر من المعلومات أن يضعوها جانباً: أليس عددهم كبيراً لدرجة أنه حان الوقت للعثور على أثر لهم لاحقاً؟ الحقيقة هي أنه إذا بدت هذه المعلومات كثيرة جداً بالنسبة للشهود، فإن المعلومات على العكس من ذلك نادرة للأجيال التالية التي وصلت بعد الحرب، بما في ذلك كاتب هذا المقال الذي لم يختبر الحرب الأهلية التي يدرسها. سواء تم منع الوصول طوعياً من قبل سلطة استبدادية"46"، أو "اختفوا" فعلياً أو تمت خصخصتها من قبل جهات فاعلة معينة في لبنان، أو فقط أرشيفات الحرب غير المباشرة (المحفوظات الدبلوماسية في المقام الأول)، فإن المصادر الأساسية للحرب من قبل المدنيين اللبنانيين نادرة اليوم، والسؤال هو وقت الافتتاح أقل من وجودهم

ذاته. لقد ذكرت أغنيس فافيير بالفعل أنه في مثل هذا السياق، "يخصص جزء كبير من العمل البحثي [وبالتالي] لإنتاج البيانات" (فافيير، 2004). في مواجهة هذه الندرة، تعتبر أرشيفات الباحثين أو مراكز البحث، عند وجودها وتكوينها، مصادر ثمينة: أرشيف ميشيل سورات في حالة لبنان، أرشيفات فلاديمير غلاسمان في حالة سوريا، إلخ. علاوة على ذلك، فهي تتعلق بالمعلومات غير المنشورة التي أنتجها البحث كصندوق تتراكم فيه وثائق الفترة الأخرى، والتي أصبح يتعذر تعقبها: الصحافة، والأدب المتشدد، ومقالات من المجلات التي اختفت "47".

الأدب الرمادي والوثائق الرسمية وما إلى ذلك.

قد يبدو النقاش خاصاً بالحالة اللبنانية، فهو في الواقع أكثر أهمية في الحالة السورية، حيث قيل الكثير عن الأرشيفات في أماكن أخرى (ماجد، 2014). أولاً، لأن مكانة الباحث الشاهد ليست واضحة بأي حال من الأحوال، ويجب توضيح الاهتمام بتكوين هذه المحفوظات والحفاظ عليها. ثانياً، نظراً لأن أساليب تمويل البحث الحالية أكثر تشتتاً، حسب المشروعات، أو المهن الأقل خطية والأقل أكاديمية حصرياً (نقص الوظائف)، أو حتى البرامج التي يُطلب فيها محو البيانات صراحة بمجرد انتهاء التمويل "48"، على الفور يضعف الدستور المستقبلي للمحفوظات ويمكن أن يتسبب في اختفاء هذه المصادر بسهولة أكبر. من الصعب معرفة مصير 161 مقابلة في كتاب واحد، و87 مقابلة في كتاب آخر، والتي نُشرت مقتطفات معينة منها فقط (بازكو وآخرون، 2016، بيارلمان، 2017). علاوة على ذلك، على البيانات التي جمعها الباحثون، تظهر مشكلة أرشفة المصادر، تماماً كما تظهر للمسلحين: حيث

يتم تداول جزء كبير من المعلومات حول الصراع السوري اليوم من خلال وسائل الإعلام، الويب، حيث المعلومات موجودة. لزمن محدود فقط، مع لغة عربية مفهرسة بشكل سيئ، وظروف الأرشفة التي لا تزال غير واضحة، والسؤال هو الأكثر تعقيداً: كيفية أرشفة مقاطع الفيديو "49"؟ "خريطة جوجل" لنقاط التفتيش في ريف دمشق؟ "50" أحاديث على صفحات الفيسبوك؟ "51". فقط عدد قليل من المشاريع، ضعيفة التمويل، أدت إلى حملات أرشفة وجرد حتى الآن (الذاكرة الإبداعية للثورة السورية أو سوريا لا توصف)، إنما مسألة أرشيفات الباحثين أنفسهم لم تُطرح في هذا الإطار، حتى على الرغم من أنها مجمعات للمصادر الثمينة. وبالتالي، فإن توسيع نطاق الأسئلة المنهجية حول النزاعات طويلة الأمد يعيدنا إلى نقاش آخر: وهو إعادة الطابع الجماعي والمؤسسي للعمل العلمي في جوهره إلى صميم تخصصاتنا، وخصوصياته فيما يخص المهن الأخرى، وأخيراً تكامل العمل والتخصصات على المدى الطويل.

مصادر وإشارات

1-أود أن أشكر المشاركين في مؤتمري "العلوم الاجتماعية في حالة الحرب" (MMSH، 19 حزيران، 2015)، و"لبنان - سوريا: الالتزامات في زمن الحرب" (MMSH، 20-19 حزيران، 2017)، وكذلك لورا رويز دي إلفيرا، على ملاحظاتهم، وكندا شاب، ولورنس دوفرسنيس أوبيرتين، وإليزابيث بيكار، وماثيو ري، والمراجعين المجهولين في RIPC لتصحيحهم اللغوي الدقيق. ولقد أسهمَ الجميع إلى حد كبير في تغيير هذا المقال الذي ما زلت مسئولاً عنه إلى حد كبير.

2-على سبيل المثال، في كتاب صدر مؤخراً، يوضح بشير سعادة أن حزب الله اللبناني لم يفكر أبداً في إقامة دولة إسلامية في لبنان، على عكس التفسير الحرفي والمثير للقلق للغاية الذي تم تقديمه لرسالة عام 1985 التي تضفي الطابع الرسمي على ولادة الحركة. وبين السطور، من الواضح أن صعود الدولة الإسلامية ومشروعها لتماثل الدولة هو الذي يبرر إعادة النظر في هذه التعبئة الأخرى لمصطلح "الدولة الإسلامية". (سعادة، 2016).

3-انظر على سبيل المثال النقاش بين إليزابيث بيكار وفابريس بالانش حول سوريا (بيكار، 2018).

4-هذا ما نظمناه مع إيف ميرمان في IREMMO ثم في IFPO في عام 2015 مع إليزابيث لونجينيسي وجون راندال ومارلين نصر وأندريه بورجي وملحم شاول.

5-الجغرافيا تخصص حاضر بشكل خاص في لبنان في السنوات 1960-1970.

6-أسمح لنفسي بالرجوع إلى الجزء الأول من رسالة الدكتوراه الخاصة بي حول هذه النقطة لاستغلال أكثر اكتمالاً.

7-"يقضي وقته في بيروت بشكل خاص في الحرب. هذا المجتمع تسليمه إلى الفوضى، إلى أشد الاضطرابات تطرفاً يسحره. تصبح المغازلة هناك الشكل الأكثر اكتمالا للأنثروبولوجيا: من وقت لآخر، يأتي للاستحمام ووجبة ساخنة مع ميشيل وماري سورات، اللذين يخبرهما عن عالم رجال الميليشيات، مزيج العنف والجنس، اللصوصية وسياسة البنية التحتية للمجتمع "(كيبيل،

2000، ص 7). من الواضح أن جان بيير ثيك لم يترك أي كتابات على هذا "الأساس".

8-في الوقت نفسه، يبدو أن باحثاً مثل كريستيان جيفراي لديه نهج مماثل في إفريقيا. على هذا النحو، فإن علم الأنساب "للتضاريس الصعبة" وممارسيها، الذي يكون مهماً جداً في بعض الأحيان بالنسبة لمعاصريهم مثل تقرير أوليفييه روي عن ميشيل سورات (روي، 2014)، لا يزال يتعين القيام به.

9-أو على الأقل لم تُنشر أبداً، فلا يُستبعد أن ترى دفاتر الملاحظات الشخصية للباحثين ضوء النهار. مثل المذكرات التي تم العثور عليها لأمل مكارم (مكارم، 2015).

10-ربما يكون هذا، في حالة فرنسا، انعكاساً لتدريب أولي مماثل لجيل جديد من الباحثين والصحفيين، لا سيما من خلال المرور عبر العلم الحيوي.

11-كما في بعض الأبحاث في سنوات ما قبل الحرب، كان الباحثون اللبنانيون مسؤولين عن جمع البيانات والباحثين الفرنسيين لتحليلها. أو أنه خلال الحرب، ذهب طلاب الماجستير إلى الأرض نيابة عن مدير أطروحتهم. لا يخلو من إثارة الانقسامات الجندرية والجيلية الظاهرة في أماكن أخرى (بود، 1996).

12-في شكل مقالات تدرس تباعاً الجذور الدينية، والجذور المناخية.. إلخ.

13-يجب أن نلاحظ حتى ندرة الدراسات الاستراتيجية التي من شأنها أن تسمح لنا بفهم ذخيرة وأنماط عمل المقاتلين، سواء في سوريا أو لبنان.

14-ومن المثير للاهتمام أن أحد الكتب عن سوريا يجادل بأن المؤلفين يفصلون تصريحاتهم العامة عن أعمالهم العلمية. (بازو، دورونسور، وكويسناي، 2016).

15-في بعض الأحيان إلى حد الكاريكاتير، كما هو الحال في بعض الكتب حيث يكون عدد الهوامش في بعض الأحيان مذهلاً.

16-لذلك، باستثناء المتغيرات والمعلومات الكلاسيكية والأساسية في البحث: لا يُشار إلى العمر ولا مكان أو تاريخ الاجتماع، ربما من أجل الأمن.

17-لارتيغي يقول بمتعة: "أود أن أذكرك أن لور دي بعل هي رواية من الخيال الخالص. فقط الأرواح الشريرة هي التي يمكن أن تخلط بين المغامرات التي أنسبها إلى الأب أنطون وبين الأحداث الأخرى التي وقعت في ميازارا بالقرب من زغرتا "(ص 109).

18-هذا هو الحال، على سبيل المثال، في أحد الكتب الجماعية باللغة الفرنسية، حيث يلتقي الصحفيون والخبراء والباحثون. (بورغات وباولي، 2013).

19-الجانب الذي لا يقتصر على لبنان أو سوريا، بدأ داني هوفمان، الذي يعمل في سيراليون، حياته المهنية كصحفي، وكذلك سكوت ستراوس في رواندا.

20-"اعتقدت أنه من الممكن كتابة سرد موضوعي للحرب بقصد القول إنني كنت مفهومة. أعتقد أن هذا كان بسبب إقامتي في باريس حيث سمعت آراء

تشير إلى أن الحرب كانت غير منطقية. اخترت منظوراً تاريخياً لإثبات أنه كان من الممكن فهم هذه الحرب". (قصير، 1994 ب، ص 123).

21-وهكذا حافظ الباحثون والصحفيون في لبنان على القليل من الروابط.

22-ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه في السياق الأخير حيث أصبحت الوظائف الجامعية أكثر ندرة، فإن الحوافز لترك الإطار الأكاديمي الصارم تكون منطقية أكثر عدداً.

23-نفكر هنا في العمل الدقيق للغاية لأحمد بيضون في وسط الصراع. (بيضون 1984).

24-بعض النظريات، مثل النموذج التنموي لـ "التحديث" في السبعينيات، والذي وعد بمستقبل مشرق للبنان، تجد نفسها تقريباً خارج اللعبة بين عشية وضحاها. تماماً مثل التحديث السلطوي في سوريا، على سبيل المثال، الذي وعد هذا النظام، مثل غيره في المنطقة، بأفق مستقر. حقيقة أن الأشياء والنظريات تتغير في الوقت نفسه لا تخلو من مشاكلها في السماح، في العمل، بطرق جديدة للرؤية وتطور ظاهرة اجتماعية.

25-غالباً ما تظهر المقارنة مع الهولوكوست، على سبيل المثال في فكرة "نظام الميليشيا" ذات النزعة الشمولية التي يندد بها جورج قرم في لبنان، تماماً كما تؤكد سلوى إسماعيل على مقارنة الذكريات بين معسكرات الاعتقال والسجون السورية. ومع ذلك، نادراً ما يتم إجراء المقارنة كمصطلح كمنهج في حد ذاته، ويمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان لا يعمل في كثير من

الأحيان على الأعمال بطريقة ضمنية بدلاً من كونه مقارنة مفتوحة. ينظر (كورم، 1992 ب، اسماعيل، 2018).

26-وببساطة أكثر، فهو يشير إلى إنجاز أساسي للعلوم السياسية فيما يتعلق بالطبيعة المجزأة وغير العقلانية للعمل اليومي داخل أي منظمة، بل وأكثر من ذلك داخل الدولة.

27-ينظر على سبيل المثال مقال كمال حمدان ومروان عقل، الذي تم الاستشهاد به على نطاق واسع في السنوات الأولى من الصراع. (حمدان وعقل، 1979).

28-مثل مقالات الخبير الاقتصادي ألبرت داغر أو عالم الاجتماع ملحم شاول حول السؤال، على التوالي في جريدتي الأخبار والمشرق اليوم.

29-شاهد على سبيل المثال سلسلة "كيف بدأت واشنطن الحرب الأهلية"، في جريدة الأخبار عام 2016 مختصرة من كتاب. (ستوكر، 2016).

30-التشديد منّي.

31-يصبح السؤال أقل سماعاً في سياق الأطر الزمنية المخفضة لتمويل البحث والتي تطرح مشكلة معاكسة.

32-"سوريا: صوروا الحرب من ألم"، التحرير، 2016/03.

33-أقوم بتحويل مصطلح استخدمته كريستين روس. (روس، 2005).

34-الكتاب الذي شارك في تحريره كل من فرانسوا بورغات وبرونو باولي يأخذ هذا في الاعتبار بشكل خاص، بقدر ما تم الانتهاء منه قبل صيف 2013، وهو نقطة تحول في الصراع.

35-هذا ما يذكرنا به جدل حديث: ("رد على ستيفن هايدمان" تقييم نيكولاس فان دام حول مصير سوريا "، بقلم نيكولاوس فان دام، 2017) (مدونة لـ جوشوا لانديس)، تشرين الثاني 2017.

36-ويرتبط إلى حد كبير بحقيقة أنه ليس المجال العلمي هو الذي يملي الإيقاع.

37-https://syrianarchive.org

38-يجب أن يُنظر إليه أيضاً على أنه طريقة مثيرة للاهتمام للتوقف عن التفكير في الوقت من وجهة نظر اتجاهية، والتي تنطبق بشكل خاص على التكوينات حيث يكون المستقبل غير مؤكد على وجه التحديد، عندما لا يبدو السلام موعوداً وتبدأ الحرب.

39-تاريخ حرب سابقة في الجبال بين الدروز والمسيحيين.

40-لا يبدو من الطبيعي بالنسبة لنا، على سبيل المثال، أن "التحليلات [من النوع الإثنوغرافي] ستشكل، مهما حدث، مصدراً يمكن أن تستخدمه أجيال من الباحثين الذين سيقترحون نماذج تفسيرية لـ" الربيع العربي "على مدى عقود. ليأتي". (علال وبيريت، 2013، ص 14)

41-في كتابها "لا عودة للوراء"، تذكر رانيا أبو زيد أيضاً، بجانب الكتاب، الـ150 ألف صفحة التي تمكنت من كتابتها سابقاً في شكل مقالات.

42-يعتبر تصنيف المعلومات بهذه الطريقة، على مقياس الموثوقية، عملية فكرية يومية بين العديد من المهن الإعلامية أو وكالات الأنباء أو خدمات الاستخبارات.

43-وهذا لا يعني عدم تداول: هكذا استدعت مارلين نصر خلال ندوة IFPO بيروت مقالاً مشتركاً مع زوجها سليم نصر حول الصلة بين المجتمع والطبقة في ضواحي بيروت، لم يُنشر قط ولكن تم تداوله في الأوساط المتشددة.

44-لم تُنشر حينها، بحسب مؤلفها، لأسباب "أمنية". (بيوم، 1990).

45-مثل المقال المقتبس على نطاق واسع بعنوان "لبنان: أموال الميليشيات" المنشور في مجلة دفاتر الشرق عام 1988، (العدد 10، ص 271-287).

46-هذا ما يمكن أن نتوقعه بالفعل في حالة سوريا، حيث يعرض بعض الأشخاص المقربين من السلطة إعادة النظر في تاريخ سوريا من الأرشيفات التي يتعذر الوصول إليها. ينظر شعبان، 2017.

47-إنها أيضاً مشكلة بارزة جداً في الحالة اللبنانية أن نواجه المجلات التي اختفت ولم تتم رقمنتها، وبالتالي يصعب العثور عليها أحياناً.

48-هذا هو الحال مع بعض التمويل من مجلس البحوث الأوروبي. أشكر سيريل بلونديل على لفت انتباهي إلى هذه النقطة.

49-شاهد عمل سيسيل بويكس حول هذه النقطة.

mid=1QV0TL6؟ttps://www.google.com/maps/d/viewer50
gd5aboEPddL8HQgY2vhjc&hl=ar_US&ll=33.477450866
2C36.2460854999999936&z=8٪55156

51-الناصر و...، الاستخدامات السياسية للفيسبوك: إطار الظلم ومنطق التعبئة. حالة صفحة "الثورة السورية 2011"، أطروحة في العلوم السياسية، بروفانس -IEP Aix-en، 2017.

*- Pierre France:Deux guerres lasses" « Champ faible », formes de narrations et temps long dans l'écriture des guerres civiles en Syrie et au Liban " Dans Revue internationale de politique comparée 2018/1-2 (Vol. 25)

***بيير فرانس: حربان مرهقتان "• "المجال الضعيف"، أشكال السرد ووقت طويل في كتابة الحروب الأهلية في سوريا ولبنان "في المجلة الدولية للسياسات المقارنة 2018 / 1-2 (المجلد 25).**

أما عن كاتب المقال بيير فرانس، فهو كاتب وصحفي فرنسي

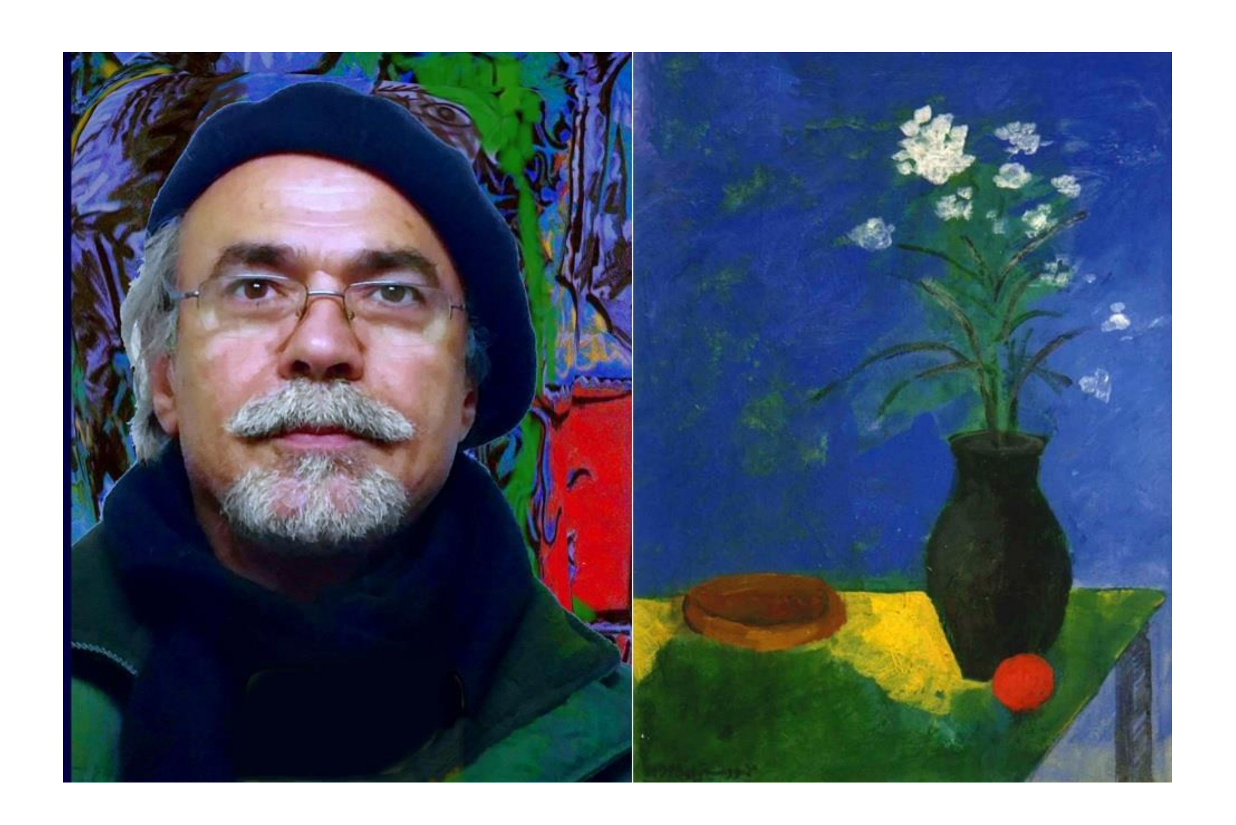
أوراق التشكيل

مع الفنان التشكيلي السوري محمود شيخاني

من (الطبيعة الصامتة) في حمص إلى (التجريد) في برلين

علاء الدين عبد المولى

علاء الدين عبد المولى شاعر وناقد سوري .



طويلة لائحة الفنانين التشكيليين الذين ولدت تجاربهم ونمت في مدينة حمص السورية، وكما كانت حمص مدينة الشعر فهي أيضا مدينة الفن التشكيلي. والمتابع للحركة التشكيلية تلك سوف يكتشف ملامح مشتركة لفناني حمص بمختلف أجيالهم، وهذا ما بدأنا به حديثنا مع واحد من هؤلاء الفنانين وهو محمود شيخاني، الذي قال:

هذا يفتح مجالا للحديث عما يسمى المدرسة الحمصية، وهذا اكتشفته حين بدأت دراستي في كلية الفنون، من الفنان التشكيلي الياس زيات، حيث كنا نرسم ونمارس بالريشة (لطشات) بمنتهى الحرية في حين بقية الطلاب كانوا حريصين على ألا يشرشروا الألوان ويوسخوا ملابسهم، ما لفت نظر الفنان الياس فسألنا ولم يكن يعرفنا بعد: أنتم من حمص أليس كذلك؟ واضح أنكم من المدرسة الحمصية. سلموا لي على أحمد دراق السباعي.

حين وعينا وبدأنا بتقديم معارض اكتشفت أنه هناك فعلا طابعا يسمُ فناني حمص وقد توارثناها عن المرحوم أحمد دراق السباعي الذي استلمها بدوره من صبحي شعيب. ثم جاء من بعدهم عبد الغني مراد، ومصطفى بستنجي وفيصل عجمي. هذا جيل أول. تلاه جيل عبد الله مراد وعبد القادر عزوز وعون الدروبي وبسام جبيلي كرم معتوق... الخ ثم جيلنا نحن (مثل: غسان نعنع ومرهف حاكمي). هذه المجموعة بشكل خاص التي جاء بعدها عبد الله خان واسماعيل الحلو هؤلاء كلهم من خريجي كلية الفنون، منهم من درس الفنون ونجح لكنهم ليسوا من المدرسة الحمصية، لا ترى فيهم ملامح المدرسة الحمصية في طريقة الشغل. كيف نحن كنا نعمل بعفوية وانطلاق وعدم خوف؟ هذه أخذناها من أحمد دراق السباعي الذي كان يردد علينا: (ارسموا ومزقوا). كان يشاهد لوحة رسمناها فيقول لنا: نعم لكن ارسم غيرها. اشتروا أوراقا كثيرة ارسموا عليها ومزقوا فسوف ترسمون أفضل مما رسمتم ومزقتم. شجعنا دراق السباعي على ألا نخاف ولا نخشى من أن نفسد الورق الذي نرسم عليه ونمزقه مما كان له تأثير نفسي علينا. حين يخاف الفنان أن

(يوسخ) فسوف يفقد القدرة على أن يرسم بشكل مختلف، ويفقد اندفاعه وطاقته.



* هذا درس فني عظيم...

* محمود شيخاني نعم بالضبط، إضافة إلى ملمح آخر من ملامح المدرسة الحمصية كما سموها، وهو أن الحماصنة تعاملوا مع الفن بروحانية بعيدا عن شروط التجارة والمهنة، كنا نحاول تمثّل حياة الفنانين فان غوخ، سيزان، كيف كانوا يعيشون ويعملون. الشيء الآخر المرتبط بروحانية الفن كنا نمارس النقد البناء بين مجموعة الفنانين وعدم الانسياق وراء المجاملات. هذا شيء بقي

فينا واستطعنا تثبيته كهوية لفناني حمص. كان ضروريا ألا نخجل من الوضوح في إبداء الرأي القاسي لصديق ولا نشعر بالحرج تحت أي سبب حتى لو تقدم في العمر والتجربة.

كان واحدنا حين يطلع الآخرين على لوحة جديدة نتناولها أولا بإظهار السلبيات فيها، مثلا لو كان هذا اللون غير، لو كان هذا الخط مختلفا عما هو عليه الآن. لم نكن بحاجة لنجامل بعضنا بعضا.

كنا نهدف لتحسين شغلنا ومستوانا ونريد من خلاله تطوير أنفسنا. جعلنا هذا ميزة. وكنا نظن أن الآخرين كلهم هكذا. حين كبرنا وشكلنا مجموعة حمص التي يمكن اعتبار انطلاقتها من 1985 واستمرت حتى سنة 2000 حيث بدأنا نستفيد من توظيف أحد أصدقائنا الفنانين بوظيفة مهندس له ميزة الحصول على سيارة من جهة وظيفته، فكنا نضع عدة الشغل في صندوق السيارة البيك آب. على سبيل المثال في سنة 1986 قمنا بمشروع سميناه صيف 86 مع غسان نعنع الذي وظف في مؤسسة الإسكان، نتوجه نحو المناطق القريبة من حمص (تير معلة، تل الشور، مرمريتا، عيون الوادي)... وهي أماكن قريبة من مدينة حمص. كنا نرسم في الطبيعة حتى اشتداد الشمس بعد الظهر. وبعد تناونا الغداء في مكان قريب نعود إلى حمص ومعنا ما أنجزناه من عمل لنكمله في مراسمنا. كان هذا يتكرر كل يوم جمعة. نتيجة ذلك كان تكوين معرض من اللوحات التي رسمناها طيلة صيف 86 كان يذهب معنا أيضا الفوتوغرافي د. عبد الرحيم خان، والفنان التشكيلي فاروق قندقجي.

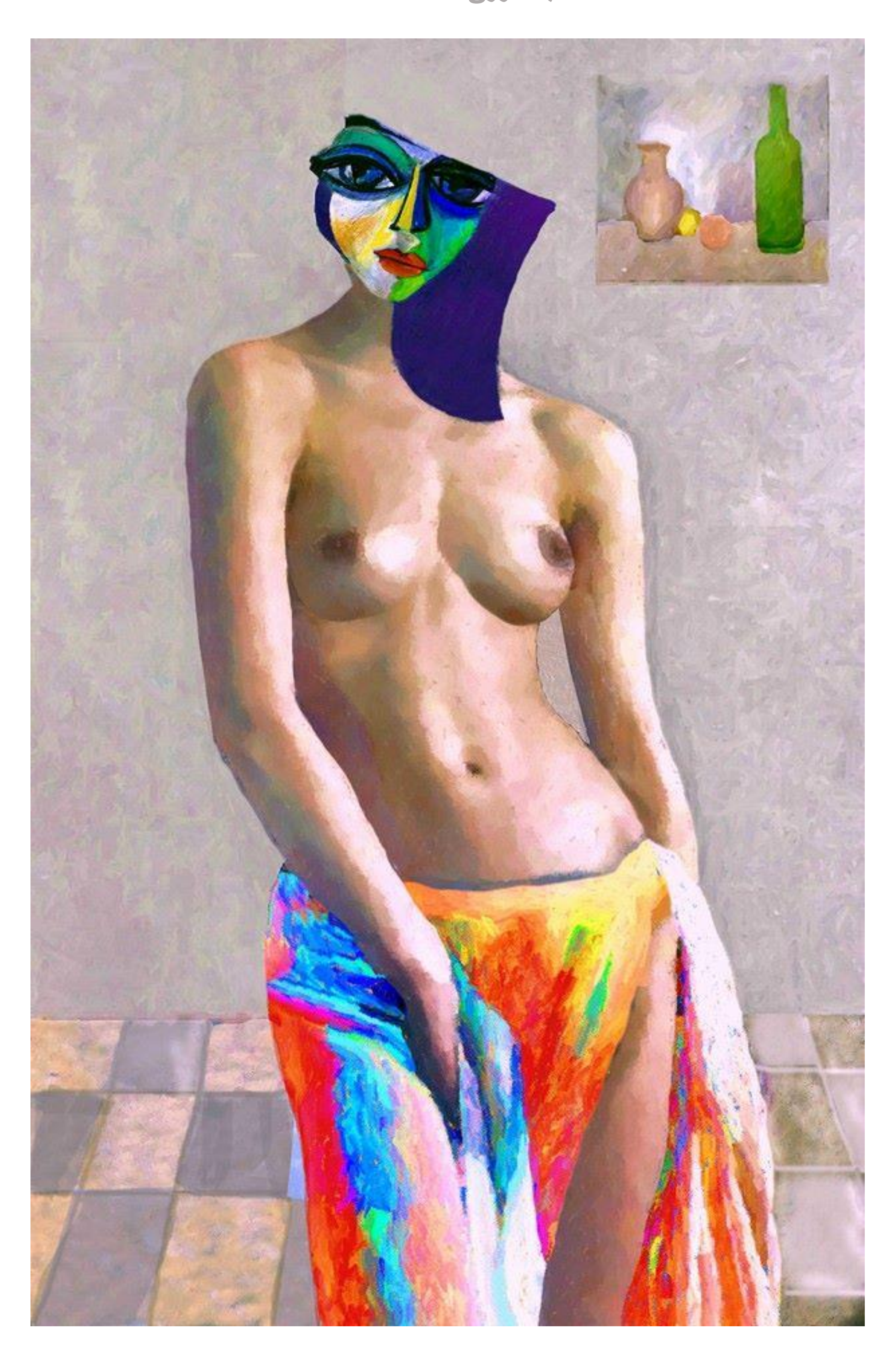


* ماذا عن مميزات الطريقة الحمصية ضمن التشكيل السوري؟ فكثير من فناني حمص صاروا أسماء كبيرة في التشكيل السوري؟ متجاوزين إطار المدينة؟

* محمود شيخاني كما قلت انشغلنا باحترام خصوصية الفن، غير مكترثين بفكرة (البيع) التي ما كانت هاجسا ملحّا نبحث عنه. كان يشغلنا أكثر كيف نتوجه لمكان نجد فيه أناسا يتذوقون الفن ونعتبر هذا نجاحا للمعرض. صرنا ننتبه لطريقتنا في التعامل مع اللوحة والمعرض. حين كنا نذهب لمعارض فنية في محافظات أخرى ففي العاصمة دمشق كان موضوع بيع اللوحة هاجساً حاضراً للفنانين هناك. في دمشق لاحظنا عدم استقرار الفنان في مجموعة معينة، كان يترك مجموعته حين يرى جهة ذات شروط أفضل. ربما تميزت مجموعة أصدقاء دمشق فقط، لكن لم يكن يجمعها سمات مشتركة. وفي حين كنا في حمص نشكل فريقا جماعيا نهتم بأعمال ومعارض بعضنا، كنا نلاحظ في مدن ثانية حلب مثلا أن كل فنان جيد يكون وحده في معرضه، وكنا نشعر بأن هناك حساسيات وكراهية بين الفنانين.

في حمص كان لدينا فكرة العرض الجماعي دائما. حتى حين تتاح فرصة لمعرض فردي تجد بقية مجموعته يدعمونه ويساعدونه ويعلنون للجمهور مشجعينه على الحضور. في حلب كنا نرى مثلا الفنان وحده من دون أصدقائه. الذين كانوا إذا حضروا يحضرون بصورة فردية وليس كفريق متعاون كالحماصنة. كان أهل حلب يحسدوننا على ذلك. حتى يستغربون منا أننا نحضر من مدينة ثانية لنشاهد معرضا لفنان من حلب.

* هذا يحدث في عالم الشعراء أيضا. قد لا يكترثون بعضهم ببعض. أتساءل عن فناني حمص الموجود عندهم موضوع التجريد. هذا ملمح من فناني حمص. كيف يمكن أن نسمي أساليب أخرى؟ لدى بسام جبيلي مثلا؟



* محمود شيخاني: الأسلوب الواقعي الانطباعي. مثل رسم عصر النهضة. ليس واقعيا بالحرف الواحد، بل هناك خلط بين الواقعية والانطباعية. حرية الانطباعية مع شكل واقعي وتحرر من الشكل الكامل مع تبسيطه وبالألوان.

بالنسبة للتجريد كان عبد الله مراد من يوم يومه يشتغل تجريداً، حتى حين كان في كلية الفنون كان يشتغل بعض التجريد.

* سؤال: أيمكن اعتبار عبد الله مراد من أصعب فناني حمص؟ الصعوبة لغير المختصين طبعا؟ تشعر أن عمله يتحدى المشاهد الذي يحتاج وقتا طويلا ليفكك علاماته الفنية ودلالات لوحاته.

* محمود شيخاني: صحيح يتميز بأن هناك جمالية وهناك نغم لونيّ. كأن هذا يميز فناني حمص. كان مراد إنساناً متواضعاً وبسيطاً جداً.

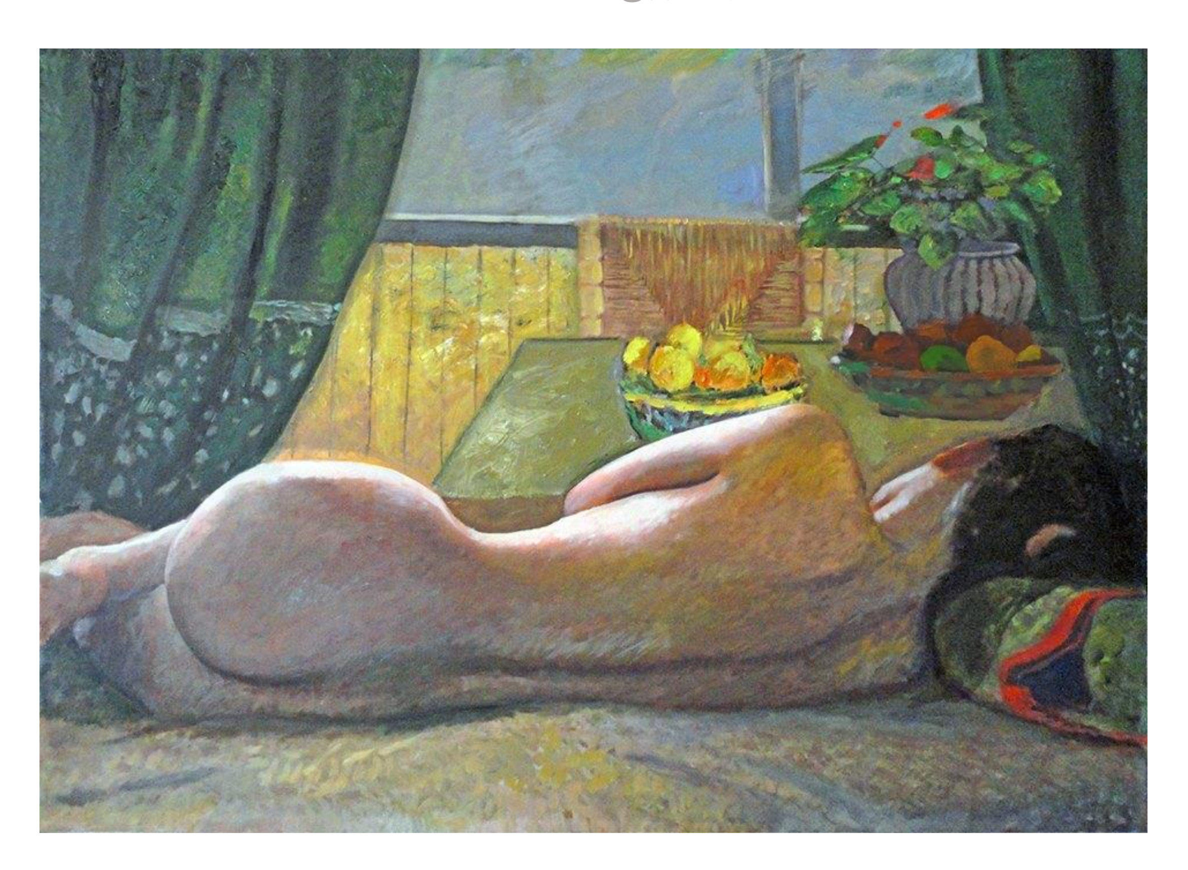
* سؤال: أين مكان مصطفى بستنجي في هذا السياق؟

* محمود شيخاني: بستنجي معلم جيد. يعطي ملاحظات جيدة. لكن ظروفه الخاصة أجبرته في الفترة الأخيرة ألا يشتغل. وما أنجزه كان أعمالا جيدة. أول معرض قام به في حمص سنة 70.

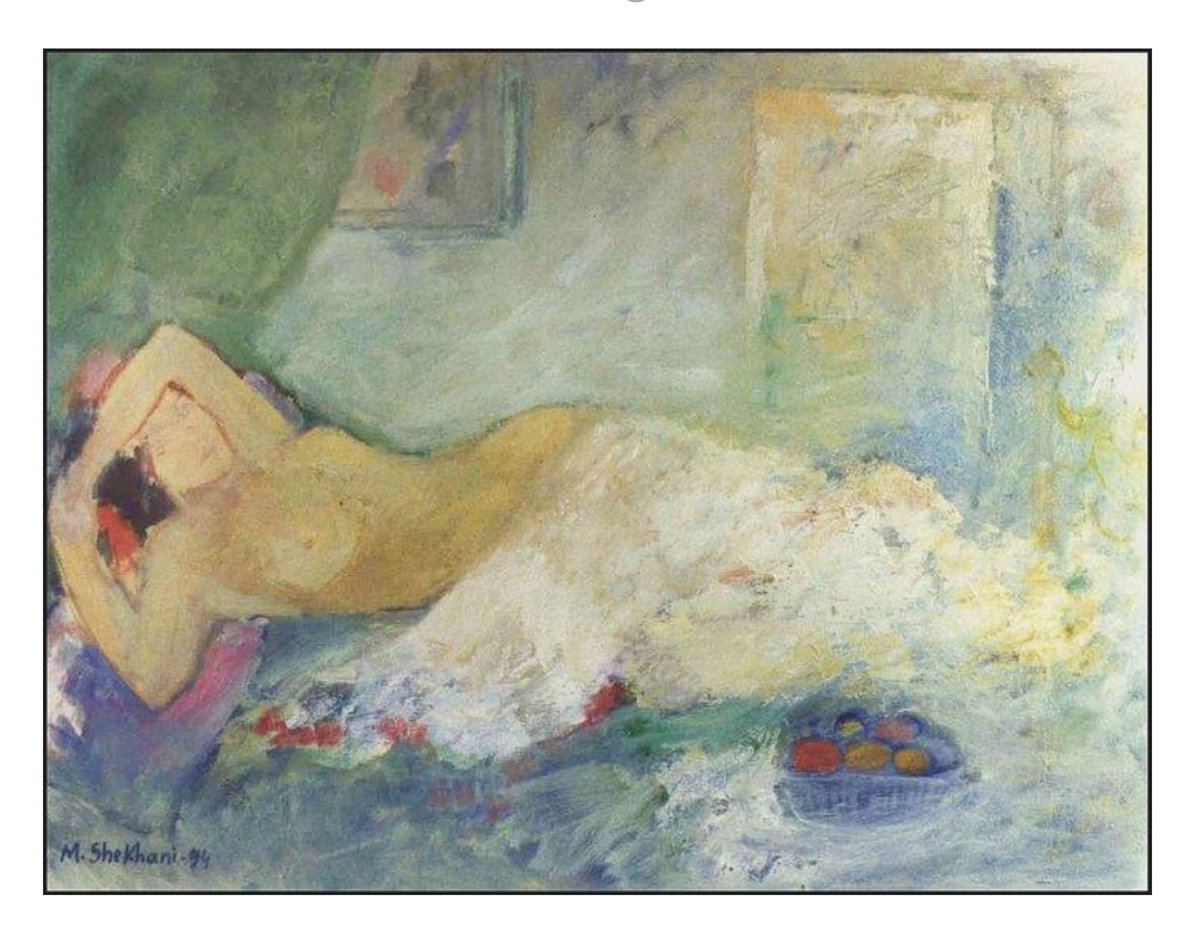
* هل هو واقعي – انطباعي؟

* محمود شيخاني: لا هو تجريدي. حتى معرضه ذاك إذا لم يكن أهم معرض تجريدي فهو واحد من أهمّ المعارض التجريدية

* خلال تواجدك في حمص لم تكن ترسم تجريداً. كنت ترسم طبيعة صامتة.



* محمود شيخاني: لم أجد مانعا أن أشتغل بالتجريد. بدأت به حين بدأت أعمل بطريقة تقنية الديجيتال. وهذا يعود لسنة 2001 في حمص حيث عملت معرضا بتقنية ديجيتال كان عبارة عن معرض تجريدي. كان فيها تحوير عن الواقعيّ. الذي يعمل بالواقعي يصبح سهلا عليه القيام بالتجريد. يبقى محافظا على التكوين، محافظا على اللون، أما من ليس له خبرة بالواقعي فسوف يقوم بـ (تلطيخ ألوان). مقدمة التجريد تبدأ من عنصر تكوين اللوحة. تعلمنا أن نصنع اللوحة الواقعية ذات تكوين تجريدي. إذا شاهدنا لوحة واقعية ولكن نظرنا في حركة اليد وحدها مثلا، نكتشف أنها حركة جميلة، فيها نغم وخطّ وحركة. هنا لم نعد أمام شخص في اللوحة، بل عن خطّ كيف تعامل مع اليد. أي في اللوحة الواقعية نفسها تكتشف لمعة لون هنا، يقابلها لون مناسب في الطرف الآخر. هذا عمل في التجريد في قلب لوحة واقعية. لهذا لم يكن قصدنا أن نعمل تجريداً بحد ذاته. هنا الشكل لم يعد له لزوم.



* عن خصوصية وحداثة الفن التشكيلي. لا يوجد نمط معروف تشتغلون بتقليديه. تخترعون الخصوصية اختراعا.

* محمود شيخاني: الخصوصية تأتي وحدها. كنا نردد حين كنا طلابا عبارة أنا لي أسلوب. ونتحدث عن أسلوب فاتح المدرس، أسلوب الياس زيات، ويذهب البعض ليقلدوا هذا الأسلوب أو ذاك. لكن كلمة أسلوب ليست بهذه البساطة. الأسلوب يأتي من الخبرة والشغل المستمر فيصبح شغله أسلوبا. لكن حين ترسم مثله بشكل مقصود فسوف تتقيد به والتقيد يعني أنك لا تمتلك شيئا خاصا. ربما تجد فنانا جيدا تعجب بلوحاته، لكنه قيد نفسه بأسلوب مكرر حتى لو كان يرسم بصورة جميلة. وسوف تأتي فترة عليك ترى أن كل لوحاته متشابهة. يجب ألا ينقلب الأسلوب إلى قيد حتى على صاحب

الأسلوب نفسه. ربما هذه الطريقة تفيد لتقديم معرض واحد فيه تشابه. لكن لا تفيد التجربة كلها.

* سؤال: بعض الفنانين يصيبهم كسل. يصل لمرحلة يستطيب ما وصل إليه ويفقد حس المغامرة والتجريب. ويقول لنفسه لقد وصلت هنا وسوف أبقى قاعدا هنا.

لأتوقف هنا عند موضوع الطبيعة الصامتة التي تحدثتَ فيها عدة مرات ورسمت فيها أعمالا مختلفة. أنا منذ وعيت على الفن التشكيلي أسمه بعبارة طبيعة صامتة...قد يسأل البعض: أين هو (الإبداع) في لوحة طبيعة صامتة؟ إذا كان موضوع اللوحة طبيعة أعرفها وأحفظها؟ وهل الطبيعة الصامتة هي فقط ليظهر الفنان مهاراته الكلاسيكية ومهاراته بالتعامل مع الألوان؟

* محمود شيخاني: هذه نظرة يَعتقدُها الناس وهي نظرة سطحية. أعطيك مثالاً سيزان. نحن حين اكتشفنا سيزان خلال فترة الدراسة، وكل لوحاته طبيعة صامتة تقريبا. موراندي أعماله طبيعة صامتة. الطبيعة الصامتة تعلم الفنان الحرية والتحرر من الشكل، أو بالأحرى تعديل الشكل. لما غيرتُ التفاحة جعلتها كبيرة أو صغيرة فأنا تصرفت بشكلها. لما أرسم شخصا واقعيا يمكن أن أغير في أذنه فقد أرى أنه يجب أن تكون أكبر أو بلا أذن، فسوف يكون هذا تشويها ضمن المنطق الواقعي. بينما إذا رسمت زجاجة ووجدت حاجة لتكون أطول فيمكن أن أفعل ذلك وتبقى محافظة على طبيعتها كزجاجة. الفنان حين يرسم طبيعة صامتة يكون وكأنه يلعب ومن خلال اللعب يكتشف شيئا آخر يعمله.

هناك لوحة لصبحي شعيب مرسوم فيها قناني مائلة. نتساءل هل يوجد قنانٍ مائلة؟ لكن عرفنا فيما بعد أن هذا شكل من أشكال الحرية في الرسم. القنينة هنا اختلفت، لم يعد الهدف منها أنها مرسومة بشكل جيد كما هي بل صارت أداة ليعبر بها الفنان عن شيء ما. أنا كنت من هذا المنطلق أرسم طبيعة صامتة. أشعر أن فيها حرية. المنظر الطبيعي نفس الشيء. أرسم هذا البيت مثلا. أشعر بحاجة أن أرسم إلى جانبه شجرة. بهذا أعدّل في التكوين. بينما لو رسمت وجها بلا أنف فسوف يكون مشوها. بعكس الطبيعة الصامتة حيث يمكنك التعديل بحرية. كنت ضمن الشكل اللاإنساني. أما الشكل الإنساني فلا يمكن أن أرسمه إلا واقعيا.

* هل تعتبر المرأة طبيعة صامتة؟

* محمود شيخاني: هنا صار إضافة أخرى. هذا حدث في فترة بعد التخرج حتى صرت في مجموعة حمص بعد حوالي 15 سنة. رسم المرأة كان عبارة عن موديل عارٍ كنا نفرح به ونريد إبراز الجمالية التي فيها فلا ينبغي أن نغير في شكلها وكلما كانت واقعية أكثر نحس بجماليتها أكثر. في الوقت نفسه صار هناك مهارة برسمها ضمن الشكل الواقعي. ضمن النظرة الجمالية تأتي المرأة. المرأة كائن جميل لا أحب استعماله استعمالات للخصب والأمومة. لم أكن أستسيغ هذا ولم أرغب بتحميل هذه الأشياء للمرأة. طبعا هذا الكلام لستُ معه الآن.

* لكن الخصب والأمومة جزء من تكوين المرأة، بل جزء من جمالها...



* محمود شيخاني: نعم ولكن لماذا كنت أقول هذا؟ لأنه كان هناك نصب كثير على موضوع المرأة. فنان يقول لك: أقصد بالمرأة كذا واقصد كذا.

* ربما تقصد أنت أنهم كانوا يتخذون المرأة رمزاً لشيء معين، رمزاً للوطن، للمدينة، للمستقبل...

* محمود شيخاني: نعم. مرة سئل فنان سوريّ صديق في ألمانيا من قبل مجموعة نسوية: أنت ترسم المرأة عارية، لماذا لا ترسم الرجل عاريا؟ لماذا لا ترسم امرأة ورجلا معا عاريين؟ لماذا المرأة وحدها؟

* كأنهم يعتقدون أن ذلك اهتمام بشكل المرأة، وأجد هناك مبالغة في هذا الرأي. فطوال التاريخ المرأة تُرسم وتنحتُ من أيام اليونان...

* محمود شيخاني ربما هذا سببه أنهم صاروا يؤدلجون المجتمع في كل شيء. يمكن في سبيل ذلك أن تتحايل على الموضوع. كما فعلت في لوحة قديمة. نقلتها من جو واقعي كموضوع جمالي إلى جوّ آخر أنا مقتنع بالجانب التشكيلي فيه. لكنه صار عملا جديدا. سمتيها (التشيؤ). كانت اللوحة القديمة طبيعة صامتة، غيرت فيها الآن. أنا الآن تغيرت نظرتي طبعا في ألمانيا.

* على ذكر الألمان أنت حكيت لي كيف ساعدك الغرباء وبينما في حمص سرقوا لوحاتك وحرقوا لك المرسم...

* محمود شيخاني: ساعدني الألمان دون أن يعرفوا شيئا عن انتماءاتي الدينية مثلا. هذا أثر عليّ في إعادة تقييمي لكيفية تعامل الآخرين المختلفين عنك. خاصة هناك أطراف متعصبة ترى الأمور بشكل تكفيريّ مغلوط. لقد سرقت لوحاتي لأنها لوحات عارية ومن أجل أن يتم بيعها فقط وليس لسبب جمالي فيها. مرسمي سرق على مرحلتين أولا تمت سرقة اللوحات العارية ثم بقية اللوحات. ثم تم حرق المرسم. مرسمي كان ضمن بناية في مركز المدينة. الحرق شمل الجميع. ولكن السرقة تمت للأعمال الفنية. مرسمي لم يكن مستقلا بل ضمن مجموعة مكاتب أخرى. حين أتذكر هذا أتذكر الناس الذين فقدت بيوتهم. والأهم فقدُ البشر أنفسهم. رغم خسارتي الكبيرة فقد فكرت فيها بشكل عقلانيّ فهناك مصائب أكبر وقعت على السوريين.

* هؤلاء الذين صاروا في عداد الشهداء، القتلى، المعتقلين... هل رسمت لهم شيئا؟ هل فعلوا في لوحاتك أثرا ما؟



* محمود شيخاني: عبرت عن هذا من خلال لوحة أجريت فيها مقارنة بين ما كنتُ عليه وما صرت إليه. لوحة فيها حريق، هو حريق بلادي، ثم وجوه لرموز فنية وأدبية من ألمانيا كتعبير عن مرحلة قدومي لألمانيا. ورسمت وجهي مقلوباً فأنا وصلت إلى هنا بصورة غير طبيعية.

* حكيت لي أمس عن لوحة المواطن الحذاء...

* محمود شيخاني: هذه لوحة رسمتها في مرحلة قدومي هنا. حيث صرت قادرا على تحليل شغلي وفهمه أكثر. هذه لوحة الحذاء كانت صورة حذاء عليه جوارب. استعدتُ هذه الصورة حديثا على ضوء ما حصل وما تطورت إليه نظرتي الفنية. حيث وجدنا أننا أمام مئات الحوادث التي تجبرنا على السؤال ما هي قيمة المواطن؟ إنه مجرد حذاء.

* المواطن السوري طول عمره قيمته حذاء. مهما كان وضعه مهمّش أو مثقف أو أيا كان.

* محمود شيخاني: نعم حتى هي تعبر عن السوري بكل انتماءاته. سواء أكان مواليا أم معارضا. إنه حذاء.

* كيف نعبر عن ما تعرضنا إليه؟

* محمود شيخاني: أريد الحديث عن موضوع القبح والجمال. أشعر أن هناك تكريساً مقصوداً للبشاعة. نشرا للقباحة على أنها جمال. يتحدثون عن الجمال في مواضع البشاعة والتي ليس فيها أدنى حضور للجمال. أنا أرى أن الجمال مرتبط بالخير. تكرار مشاهد القتلى والأشلاء تخلق في المشهد حالة الاعتياد والبلادة. في الفن التشكيلي حين يُصبح الواقع بشعا علينا إظهار النقيض.

الفنان ماتيس خلال الاحتلال النازي. تم اعتقال زوجته وابنته. كيف أراد الردّ على ذلك؟ صار يرسم الأزهار وأشكالاً جمالية. لامه الناس أنه لم يهتم بالحرب واعتقال زوجته وابنته. أنا أعتبر ذلك قمة في الإحساس بأنه قدم نقيض الحرب والبشاعة. هناك فنان آخر تفاعل بصورة مختلفة هو بيكاسو حين رسم غيرنيكا. حتى الأشكال البشعة التي تمثل الشر لم تكن مقرفة. تتذوقها جماليا. وتقرأها ضمن تاريخ علم الجمال.

* سؤال: أحياناً تجد لوحات تافهة، فارغة من أي شيء. يأتي أصحاب رؤوس الأموال يشترون هذه اللوحات بمبالغ هائلة على أنها تعبير عن الفن الحديث.

* محمود شيخاني: نعم هناك تكريس للتفاهة. بعد أن كان هناك مقاييس للفنّ والقيم. الآن صار هناك معرض مثلا للوحات فارغة، ثم تطور الأمر وصرنا نسمع عن معرض نحت فارغ ليس فيه منحوتات! بحجة أنه يتحدث عن الفراغ.

* هذه يسمونها فنون ما بعد الحداثة...

* محمود شيخاني: نعم يجدون لها تسميات. هذا نوع من الفن له استهداف لشرائح ما...

أوراق الدراسات

الجولان في تحولات الموقف الإسرائيلي من الثورة السورية

د. عبد الله تركماني

كاتب وباحث سوري

العديد من مراكز التفكير والأبحاث الإسرائيلية تعوِّل على اعتبار الفوضى القائمة في سورية فرصة يتوجب على إسرائيل أن تجبي نتائجها في الجولان، وعلى صعيد كامل المنظومة الأمنية، انطلاقاً من خيارها المعروف "الأمن قبل السلام". فعلى مدى أحد عشر عاماً ونيّف من الثورة السورية، ومنذ تحولت سورية إلى ساحة للحرب بالوكالة بين أطراف إقليمية ودولية، ظلت إسرائيل على مسافة ما من هذا الصراع، وإن استغلته لتحقيق بعض الأهداف المحددة. وقد تمثلت هذه الأهداف في الضغط من أجل تجريد سورية من أسلحتها الكيماوية، وتوجيه ضربات جوية لطرق إمداد حزب الله بالسلاح، ومحاولة إحياء " وديعة الرئيس الأميركي فورد " ذات العلاقة بتبعية الجولان لإسرائيل، وهذا ما حققه لها الرئيس ترامب.

القلق الإسرائيلي من الثورة السورية

ارتاحت إسرائيل عندما أيقنت أنّ البديل لسلطة آل الأسد ليس ديموقراطياً قادراً على تجميع قوى المجتمع وإعادة إنتاج الدولة الوطنية السورية الحديثة، طبقاً للأهداف التي أعلنها الشعب السوري في آذار 2011، وإنما سلفية دينية وقبلية اجتماعية. ولذلك، بعد أن تخلصت من الكيماوي السوري ركزت على الجانب السياسي من دورها في سورية، انطلاقاً من تصميمها على إنهاء

الثورة، إن بقيت متمسكة بالحرية وإقامة نظام ديمقراطي بعد إطاحة الأسد، ورفضها أي نظام إسلامي، لا ينضوي في الصراع السني/الشيعي، ويكون "جهاده" موجهاً ضد إيران، وإصرارها على الضمانات الأمنية نفسها التي منحتها لها سلطة آل الأسد منذ سنة 1974، ومكّنت رئيس وزرائها الأسبق، اسحق رابين، من أن يقول لمستوطني الجولان: أنتم هنا أكثر أمناً من سكان تل أبيب.

فكلما تعمقت الطائفية في سورية وتعززت الكراهية بين مكوّنات المجتمع، وتحويلها إلى شروخٍ، يصعب رأب صدوعها، تستطيع إسرائيل استغلالها لطي موضوع احتلال الجولان بصورة نهائية، والتخلص من "الإطار المفاهيمي" الذي تم التوصل إليه في أيار 1995، والعودة إلى فكرة " الأمن قبل السلام "، بما ينطوي عليه ذلك من أنّ بقاء المستوطنات الإسرائيلية، بل توسيعها، في الجولان بما يضمن أمن إسرائيل. وقد ورد في برامج الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة " هضبة الجولان منطقة حيوية لوجود إسرائيل، والجولان قطاع استيطاني هام في الدولة، حيوي لأمنها وللحفاظ على مصادر المياه، وستصر الحكومة على السيادة الإسرائيلية في الجولان، وستعزز المشروع الاستيطاني ". وصولاً إلى انتزاع اعتراف سوري من النظام الحالي، أو الذي سيليه، باعتباره أرضاً إسرائيلية، وجزءاً عضوياً من دولة إسرائيل، لا يقبل الانفصال عنها.

الأسد مصلحة قومية عليا لإسرائيل

تتفق مراكز البحوث والتفكير الإسرائيلية على أنّ نظام بشار الأسد في سورية، أو ما تبقى منه ومنها، بحسب ما قد تؤول إليه الأمور في اليوم التالي من توقف الصراع في سورية وعليها، أو استمراره، هو الأكثر إفادة للأمن

الإسرائيلي. فقد أكد باحثون إسرائيليون على ضرورة بقاء نظام الأسد في سورية في هذه المرحلة، حيث بات يُمثِّل، بحسب تعبيرهم " مصلحة قومية عليا لإسرائيل ". وأنّ " الأسد أفضل الخيارات الممكنة لنا، على الرغم من أنه سيسقط في نهاية الأمر". ناهيك عن أن " المصلحة الإسرائيلية الحالية تكمن في أن يستمر القتال في سورية، والوجود الروسي هناك سيضمن هذا الأمر".

تفكك سورية ومستقبل الجولان

دعا مركز " أبحاث الأمن القومي " الإسرائيلي التابع لجامعة تل أبيب في تقرير أصدره في كانون الأول 2015، القادة الإسرائيليين، إلى ترك الموقف الرسمي المعلن بعدم التدخل في الملف السوري، لصالح آخر أكثر نشاطاً وفاعليةً. ويوصي التقرير الذي حرّره وأشرف عليه الجنرال احتياط، أدوي ديكل، أن تتجه الحكومة الإسرائيلية نحو إقامة علاقات واتصالات، ووضع خطط عمل مع " لاعبين إيجابيين " داخل سورية، وآخرين إقليميين ودوليين لهم مصالح مشابهة لتلك التي تخص إسرائيل. وبحسب التقرير، فإنّ هؤلاء اللاعبين يؤثرون في الواقع المتبلور والمستقبل عند رسم ملامح سورية في المرحلة المقبلة.

وليس سراً أنّ إسرائيل سعت خلال السنوات الاخيرة الى مدّ جسور مع قوى المعارضة، التي تمركزت بالقرب من السياج الحدودي في الجولان، ومع المجموعات المحلية المسلحة الأخرى التي تقاتل نظام آل الأسد، كما أقامت مستشفى ميدانياً لاستقبال المصابين في المعارك، وقدمت خدمات طبية للسكان.

ورغم أنّ سورية، حتى قبل سقوطها في مستنقع الحرب الأهلية، كانت فاقدة لأية قدرة عسكرية لشن حرب ضد إسرائيل بهدف استعادة هضبة الجولان المحتلة، إلا أنّ إسرائيل كانت تدرك أنّ ذلك لن يرتب تغييراً في وضعها كأراضٍ محتلة وفقاً للقانون الدولي. وطالما أنّ سورية كانت قد أبدت منذ مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 استعدادها للدخول في مفاوضات مع إسرائيل لأجل تسوية الصراع معها، فإنّ احتفاظها بالجولان إلى الأبد سيظل محل شك كبير، إلا إذا تفككت الدولة السورية وأصبح من الصعب أو المستحيل تحديد الجهة التي يمكن أن تطالب بهذه المنطقة مستقبلاً.

من هذا المدخل رأت إسرائيل أنّ دفع سورية نحو الانقسام والتفتت، وإن كان سيزيد من المخاطر الأمنية على حدودها الشمالية لفترة طويلة، إلا أنه سيضمن التشكيك في المشروعية القانونية لمطالبة أي من الدويلات التي ستنشأ – حال تفكك سورية – بالجولان، وبالتالي يصبح ضمها ليس فقط أمراً واقعاً بحكم الاحتلال الإسرائيلي لها منذ عام 1967، بل أمر بالإمكان إعطاءه شكلاً شرعياً وفق القانون الدولي في مرحلة لاحقة. وقد يكون السيناريو الذي تأمله إسرائيل هو نشوء دويلات على أنقاض سورية الموحدة، وبالتالي يصبح من السهل المحاججه بحق إسرائيل قانونياً في ضم الجولان إليها بشكل نهائي.

ولأنّ سورية لن تعود كما كانت، وأنّ مفعول التسويات، التي رسمت الحدود والدول في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى قد أوشك على النهاية، وأنّ المنطقة ستدخل في حالة من عدم الاستقرار لسنوات طويلة. يدعو صانعو القرار الإسرائيلي إلى أن تصوغ إسرائيل – من جديد – مصالحها الجيو – استراتيجية، من خلال النظر بعيداً إلى الغد وليس إلى الأمس، حيث أنّ هذه

" الفرصة الفريدة " لتغيير المكانة الدولية لهضبة الجولان، نشأت بفضل تضافر عمليات تاريخية ونضوجها في النقطة الزمنية الحالية. حيث أنه لا أفق آخر في الجولان باستثناء الأفق الإسرائيلي، ولن يتاح الاستقرار الإقليمي من خلال " البدائل الإسلامية "، ولا من خلال موطئ قدم لإيران وحزب الله في بحيرة طبرية.

إنّ الضمانات الاستراتيجية المطلوبة إسرائيلياً هي " وديعة أمريكية " شاملة بشأن الجولان، بما في ذلك ضمانات رئاسية وتشريعات في الكونغرس الأمريكي، تضمن السيادة الإسرائيلية هناك. بالاستناد إلى أنه في العام 1975 صدر تعهد رئاسي مكتوب من الرئيس الأمريكي في حينه، جيرالد فورد، لرئيس الحكومة الإسرائيلية، اسحاق رابين، تضمن اعترافاً أمريكياً في شأن حاجة إسرائيل الماسة لهضبة الجولان حتى في وقت السلم. إنّ الإنجاز المطلوب والممكن لإسرائيل هو تحديث الموقف الدولي، وإعادة المصادقة على الموقف الأمريكي بشأن الجولان، وهذا بالضبط ما حققه لها الرئيس الأميركي ترامب.

إنّ المراهنات الإسرائيلية هي على مزيد من التفاعلات السلبية – أمنياً وسياسياً – وعدم التوصل إلى أي حل في القريب العاجل. وفي هذا السياق يبقى للجنوب السوري وضع خاص، نظراً لمتاخمته للحدود الإسرائيلية، التي تمثل بيضة القبان في الأمر برمته. فمن ناحية تستحيل إعادة سيطرة النظام على كامل درعا والقنيطرة، ومن ثم عودة النظام لممارسة وظيفته الرئيسية بحراسة حدود إسرائيل. ومن ناحية أخرى لن تسمح بسيطرة طرف لا تستطيع التأكد من نواياه تجاه إسرائيل على تلك المنطقة الحيوية.

ويعتقد قادة إسرائيل أنّ استمرار الصراع السوري قد قوّض مطالب سورية بالجولان وعزز قبضة إسرائيل، ومن هنا يسرّعون الخطى لتوسيع نطاق الوجود الإسرائيلي في الجولان، من خلال بناء مساكن إضافية، وتشجيع السياحة، والاستثمار في البنية التحتية والصناعة.

خروج سورية من معادلة التهديد الاستراتيجي لإسرائيل

لم تترك الدراسات السياسية والاستراتيجية المختلفة التي صدرت في إسرائيل في الأعوام الأخيرة، ولا تصريحات قادة إسرائيل، لا سيما في أجهزة الأمن والجيش المختلفة، مجالاً للشك في تقديراتها بأنّ خطر الجيش السوري على إسرائيل قد زال مع امتداد أمد الثورة السورية والثورة المضادة عليها.

لكنّ الدراسات والمتابعات الإسرائيلية لم تتوقف عند تقدير تداعيات الحرب والأزمة السورية في الجانب العسكري، بل امتدت لتشمل محاولة استشراف حالة سورية بعد انتهاء الصراع الدامي فيها والخراب الذي خلّفته الحرب المجنونة التي شنها النظام السوري على شعبه، بدعم من حلفائه الروس والإيرانيين.

وهكذا، تقف إسرائيل اليوم موقف المراقب ظاهرياً للمسألة السورية، ولكنها تعتبر أنّ طريقة تعامل النظام مع الأزمة أنتجت عدة حقائق تصب في مصلحتها، وأهمها:

1. تراجع شديد في حصانة الأمن الوطني السوري، من الناحية العملية، بفعل انهيار الوحدة الوطنية السياسية وتشظي بنية المجتمع والدولة.

2. تفكك الجيش السوري، بسبب صدامه مع شعبه، الأمر الذي له تبعات كبيرة على الروح المعنوية والانضباط والبنية التنظيمية ومنظومة الولاء ومنظومة الإدارة والسيطرة.

3. تراجع القدرات التعبوية للجيش والمجتمع ضد أي خطر خارجي.

ونعتقد أنّ إسرائيل ستحاول تحقيق اختراقات في المستقبل وترتيب أوراقها لمرحلة ما بعد الأسد، لتكريس عملية سياسية قائمة على مبدأ المحاصصة الطائفية، بحيث تجعل نظام الحكم القادم نظاماً غير قادر على الفعل.



"جودت سعيد" علّامة الجولان

داعية اللاعنف .. ترموميتر متأرجح بين مطرقتين

محمد فتحي المقداد

كاتب سوري، مقيم في الأردن

"جودت سعيد" رحمه الله وأحسن إليه، أسلم روحه لبارئها(2022/1/30) كانت مجالس قريته "بير عجم" في محافظة القنيطرة (الجولان) السوريّة، محجة لطلّابه وأحبابه والباحثين عن تحصيل العلم، يتتلمذون عليه بما يُملي عليهم من قضايا فكريّة مُهمّة، وتُغازل بقوّة حالة الاحتكاك الشديد من التجارب العمليّة والنظريّة على السّاحة السّوريّة، منذ مرحلة ما بعد الاستقلال 1945، وجلاء آخر جنديّ فرنسيّ عنها.

حمأة الصّراعات المُتأجّجة ما بين التيّارات القومية والدينيّة، ولكلّ تيّار أجنحته المُتعدّدة، ولم يتوقّف السَّعي الحثيث الدؤوب لدى أيّ طرف؛ لإثبات نفسه بقناعات مُؤدلجة بأحقيّته في إدارة دفّة قيادة الدولة والمجتمع، تحت ستار مصلحة الوطن والمواطن، وهو ما تجلّى في البيان الأوّل لكلّ انقلاب من إذاعة دمشق، بعد موسيقا المارش العسكريّ منذ انقلاب "حسني الزعيم"، وهو الأوّل في تاريخ سورية والشرق. مئة وسبعة وثلاثون يومًا كانت فترة حكمه (حسني الزعيم)، رغم قصرها؛ فقد تركت أثر العكسرتاريا بساطيرهم الثقيلة المقيتة وَسْماً سوريّاً مُميّزاً، وُصولاً إلى الرّئيس "حافظ الأسد" وانقلابه الأشهر على الإطلاق المُسمّى (الحركة التصحيحيّة) 1970م.

الفعاليّات الفكريّة الفاعلة والمُنفعلة بتأثيراتها جزء لا يتجزّأ من المعمعة السوريّة. المفكر والباحث الإسلاميّ "جودت سعيد" أحد الذين ألقوا بدلائهم في مياه جارية، حاول جاهداً الإمساك بالحبل بقوّة للمحافظة عليه من التيّار الجارف، فالاتجاه الإسلاميّ هو ابن المجتمع السوريّ، نتاج ولادة طبيعيّة لمجتمع إسلاميّ ذي تقاليد وأعراف قائمة على مستندات إيمانيّة وعقائديّة، تولّد من ذلك خليط من الجماعات الصوفيَّة والسلفيَّة، حتّى المدرسة الفكريّة الإخوان المسلمين كانت الأبرز بمُخرجات ذات أثر عميق بأبعاد ذات خطوط واضحة في مسارها الدعويّ؛ فتبدو أنّها نسيجاً مُتجانساً متناغماً، لكنّ الحقيقة أنّ التيَّارات الفكريَّة السلفيَّة الجهاديَّة والصوفيّة والدعويّة هي مُكوّنات الجماعة، وهو ما انعكس سلباً بالانشقاقات الفكريّة التي كانت الأقرب للمناطقيّة الحلبيّة والحمويّة والدمشقيّة، كما أنّ النزعة المناطقيّة كانت حاضرة عند التيَّار الوطنيّ والقوميّ أيضاً.

كانت أبرز كلمات جودت سعيد: "لا توجد قوَّة على وجه الأرض تستطيع تغيير قناعات وأفكار أحد باستخدام الضغط والقوّة، وأنّ القرآن يوصينا بعدم استخدام الإكراه في الإقناع.. الضغط يولّد ردود فعل قويّة".

مؤلّفاته وآثاره الفكريّة أبرزها: "حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم"، و"فقدان التوازن الاجتماعي" وكتاب "مذهب ابن آدم الأول" الذي نُشر أواخر ستّينيّات القرن الماضي، والذي ذاع صيته وقتها، حيث كان "جودت سعيد" يردّ على توجّه بعض التيّارات الإسلاميّة نحو العُنف السياسيّ.

انطلاقاً ممّا تقدّم لا بدّ من التوقّف في محطّة أولى لبناء فكرة تُوضّح الأسُس الذي قام عليه التشكيل الفكريّ لدى "جودت سعيد"، المستندة بأصولها العميقة على مُرتَكز قرآنيٍ؛ فمن خلاله تكوّنت رُؤاه للعالم من حوله، ولوجوده كفرد واعٍ لمُهمتّه الإنسانيّة المُنطلقة في عوالم الأفكار المفتاحيّة، لتُشكّل ملامح عالمه الفكريّ، الذي دخله من باب التوحيد؛ فهو يرى أنّ: (التوحيد مسألة سياسة اجتماعيّة، وليست مسألة ميتافيزيقيّة إلهيّة)؛ فالتوحيد لله الخالق في عليائه، من المُفترض أن يتساوى به جميع المؤمنين من البشر لإيجاد العامل المُشترك الذي يجتمعون حوله وعليه، وبذلك يتساوون في بشريّتهم المُنضوية بعبوديّتها لهذا الخالق العظيم؛ ليجعل من معطيات الآية الكريمة أساساً للقاء وتواصل إنسانيّ: (ألّا نعبد إلا الله، ولا نُشرك به شيئاً، ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله). وبعد إرساء القاعدة الأولى، يخطو في انطلاقة فكريَّة واثبة في مجالات عمليّة، وتطبيقيّة في سبيل إقامة حياة سعيدة في ظلّ نواميس الكون الأزليّة؛ بثباتها وفق حكمة إلهيّة في طريقة تسيير الكون وجميع المخلوقات، لتكون الآية القرآنيّة (سنُريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم حتَّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ) مرجعيّة إنسانية عامّة. وفي تفصيله للمعاني الواضحة والخفيّة التي تحتاج للبحث والتأويل، وهو ميدان "جودت سعيد" التي عرض فيه رُؤاه: (آيات الآفاق والأنفس، أي سُنَن الله في الكون، وتجارب البشر والأحداث والتَّاريخ البشريّ، كلُّ هذه ستكون الدليل على صحَّة وصدق القرآن. ممَّا يعني أنَّ التاريخ والتجارب هي مرجع القرآن، ودليل صدق ما فيه من قوانين). البعض من المفكّرين والمُتابعين يطيب لهم الوقوف في الجهة المقابلة للمُحاججة القائمة على اعتباره مُفكّرا مُتأثراً بالمذاهب الماديّة، التي

تُفسّر الوجود وفق نظريّاتها المُتناقضة لعالم الرّوح والإيمان بخالق واحد مُدبّر قادر. وربّما ذهبت طائفة أخرى لاعتبار "جودت سعيد" مُبشّراً بالفكر الماديّ، وعند آخرين هو "غاندي العرب" باتبّاعه سياسة اللا عنف.

أحد المُرتكزات الأساسيَّة وفق رؤيته، وفتحت له آفاقًا جديدة، فكرة (الزيادة في الخلق) فالعالم بحسب فهمه للقرآن (لم يُخلَق وانتهى، أي لم يكتمل خلقه، وإنّما لا يزال يُخلَق)، مُستنِدًا للآية القرآنيّة: (يزيد في الخلق ما يشاء)، و(يخلق ما لا تعلمون).

وفق ما تقدّم من إيراد لبعض مُنطلقاته؛ لاستخلاص نُقطة مهمّة، ومحطّة أساسيّة يتوقف في رحابها الموافق والمعارض لما كان يقول "جودت سعيد"، حين اعتبر ذلك على أنّها مرتبة جديدة من مراتب الوُجود، وأطلق عليه مصطلح "الوجود السُنَني". أي وجود الشيء كقانون، وسُنّة حتّى قبل وجوده بالفعل.

وللإيجاز هذه تمحوُرات وتمظهُرات مجالس "بير عجم" التي اشتُهرت بها، وفيها ألقى المفكر والباحث "جودت سعيد" أفكاره وأماليه على تلامذته القادمين من أماكن بعيدة وقريبة، حيث كان محجّة لهم، وهي كالآتي:

المجلس الأول: تأملات في اللغة – نشأتها – تدوينها – علاقتها بالواقع.

المجلس الثاني: سياسة الإسلام – الصدق – بناء الثقة – نبذ العنف – الرشد.

المجلس الثالث: الرشدُ شريعة الله والغيُّ شريعة الطاغوت.

المجلس الرابع: القانون – تأسيسه – حمايته – الالتزام به.

المجلس الخامس: الإسلام ومفهوم التغيير.

ومن هذا انبثقت الكتب النتيجة الطبيعيّة للتدارس والنقاش المُعمّق المُقنع للمريدين، والمنتقد من المناوئين والمعارضين له، وصار عُرضة لتجاذبات محلّ اجتماع واختلاف.

ومادام النهج لـ"جودت سعيد" إسلاميّ الفكرة والطريق؛ فهو يتناقض بطبيعة تكوينه مع مشروع نظام حكم عسكريّ علمانيّ مُؤدلَج، تحت ملاءة قوميّة أتيحت لها بروباغندا إعلاميّة ديماغوجيّة ساعية لتعميق أثرها مُجتمعيّاً، وكنتيجة حتميّة؛ تتأجّج الصراعات بين أصالة إسلاميّة، ومُحدَثَة قوميّة وعلمانيَّة بأحزابها الكثيرة. ومن الطبيعيّ تصنيف "جودت سعيد" مُعارضاً إسلاميّاً صبر عليه النظام طويلاً، لخصوصيّته ذات الخلفيّة الشركسيّة أولًا، ثمّ لأنّه لم يكن محسوباً على الإخوانيّة العنيدة بمعارضتها للنظام ونهجه.

ومع حلول العام 2011، انفجرت الاحتجاجات ضدّ الرئيس "بشار الأسد" على خلفية شرارة أطفال درعا، واتّساع نطاقات الهتاف ضدّ النّظام؛ طالب "جودت سعيد" المتظاهرين: على التمسّك بسلميّة التظاهرات الغاضبة المُطالبة بالحريّة والكرامة، وشدَّد على ضرورة نبذ العنف.

ردّة الفعل المُضاد بعنفه العنيف غير المسبوق، ممّا جعل إصرار "جودت سعيد" ليؤكّد مرّة تِلْو المرّة على الالتزام بالنِّضال السلميّ، أخيراً وأمام النهج الأعمى الاستئصالي للنظام ممَّا اضطره إلى النُّزوح إلى تركيا.

إصراره على سلميّة الثورة السوريّة كان موقفاً لا لبْسَ فيه، مُؤكّداً على ذلك في لقاءاته ومشاركاته الاحتجاجيّة، ومقابلاته الصحفيَّة المقروءة والمسموعة؛

ففي لقاء مُتلفَز له قال: (إذا نجحت الثورة السورية بالسلاح، سنظلُّ محكومين بالسلاح... وكل من أُخذ بالسَّيف بالسَّيف يهلك، والديمقراطيَّة لا تحلُّ في بلد إلَّا إذا قال: جميع الفرقاء لن نلجأ إلى العنف).

يضيق المقام من خلال مقال تقييم تجربة فكرية قائمة على تأسيس من مشروع فكريٍّ إسلاميّ على مستوى جماعات وأحزاب وأفراد مُستِّقلين مهما كان حجم تأثيرهم. ويبقى مفهوم التغيير في مجمله، فكرة انطلقت من رحاب المساجد وحلقاتها الدَرْسيّة والوعظيَّة، من خلال التواصل بين الشيخ ومُريديه وأحبابه، بتلقّي أفكاره وحفظها وتدوينها، ومن بعد محاولة التبشير الإصلاحيّ للمجتمع، لتعميم فكرة التواصل البناء بين أفراد المجتمع، وبناء علاقتهم المتينة بالخالق، واستعادة الدّوْر البنّاء للمسجد في الحياة، والحفاظ على الخصوصيَّة الدينيَّة في وجه رياح التأثير الغريبة. وهو الدُّور الذي قام به المُفكّر "جودت سعيد"، كما أقرانه ومُجايليه من علماء الدِّين السوريّين، بترشيد الفكر والسُّلوك بما يُكرّس تجذير ثوابت المجتمع؛ مقابل نهج الاغتراب والتغريب الممنهج بأساليبه الكثيرة.



حافظ أسد استثمر هزيمة 1967 ليفوز بالسلطة

مصطفى الولي

كاتب وقاص وناقد فلسطيني سوري.

أنجزت إسرائيل في حرب حزيران 1967 ما يعادل إنجاز الحركة الصهيونية بإقامة دولة إسرائيل في العام 1948. وفي هذا الخصوص، وصف أكثر من محلل، انتصار إسرائيل في تلك الحرب بأنه ولادة ثانية "للدولة".

نظر البعض لمكاسب إسرائيل، في حزيران 1967 بشكل مبسط، مكتفياً بالتوسع الجغرافي الذي حققته قواتها في ميدان المعركة. لقد أصبحت فلسطين بكامل مساحتها في قبضة إسرائيل. وزادت سيناء المصرية والجولان السوري.

إنه وعلى أهمية الأرض التي وقعت تحت قبضة قواتها، لكن الأمر الاستراتيجي الأهم، الذي تحقق لإسرائيل بانتصارها العسكري على جيوش ثلاثة بلدان عربية (مصر وسوريا والأردن)، هو نجاح مؤسستها السياسية باحتلال الموقع الأساسي في الحلف الأميركي دوليا، متفوقة بذلك على حلفاء أميركا في آسيا وأميركا اللاتينية والشرق الأوسط.

في الربع الأخير من الستينيات كانت الحرب الباردة في ذروتها. الاتحاد السوفييتي يعتمد على حلف وارسو وحلفائه في "العالم الثالث" من قوى الثورة والتحرر، والولايات المتحدة توظف حلف النيتو وإلى جانبه الدول الحليفة لها في أميركا اللاتينية والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا. ولعل الحرب الفيتنامية شكلت في حينه مسرح الصراع المحتدم، كما تُعد السيطرة على مصادر الطاقة (النفط في الجزيرة العربية والخليج) هدفاً أميركياً، تسعى واشنطن إلى حماية

أنظمته من أي تهديد سياسي. وما قدمه انتصار إسرائيل على الدول العربية في حزيران جاء خدمة للاستراتيجية الأميركية. فبعد الحرب، بدأ دور المملكة السعودية وإمارات الخليج، يتعزز أولاً بأول على حساب المد الناصري في مصر والقومي عموما في البلاد العربية، مشرقها بالذات.

في ظل هذه التناقضات، كانت سوريا محكومة بسلطة عسكرية تنتمي لحزب البعث، وهو الحزب الذي كانت تتفاعل في داخله التناقضات بين تيارين رئيسيين، يقف على رأس أحدهما حافظ أسد، وكان يشغل موقع وزير الدفاع في سوريا.

روايات كثيرة، واكبت أحداث حرب حزيران على الجبهة السورية، أكثرها اعتبر أن الإعلان عن سقوط مدينة القنيطرة، مركز هضبة الجولان، دليل على تواطؤ من حافظ أسد مع إسرائيل، ليتمكن من القبض على السلطة في سوريا.

لن نعتمد هذه الرواية في تناولنا لمسار الإعداد للانقلاب الذي جاء بحافظ أسد للسلطة، دون أن نستبعد بشكل قاطع أن قرار الانسحاب من الجولان، والإعلان عن سقوط القنيطرة قبل سقوطها الفعلي، ارتبط بشكل ما بالتطورات اللاحقة داخل السلطة السورية. أي بالتحضير للانقلاب في 1970، وحسم الصراع مع التيار الآخر في موقع القرار السياسي في سوريا، التيار المتعارف عليه "جماعة صلاح جديد"، بعد سنتين من الهزيمة، مرتكزا إلى عدد من الترتيبات العسكرية والأمنية، خلف ستار إعادة تأهيل "القوات المسلحة" من أجل "الدفاع عن البلاد"، وبصياغة أخرى "حماية سلطة البعث".

بعد الهزيمة وسقوط الجولان، شرع حافظ أسد في خطوات تمكنه من الفوز بالسلطة، وتمنع معارضيه من إحباط أطماعه للتحكم بالبلد ومقدراته. فأبعد الضباط غير الموالين له شخصيا، وأعاد توزيع المراكز القيادية، في فرق الجيش وألويته وأسلحته، خاصة سلاح الطيران، تمهيدا للتخلص من خصومه في السلطة (صلاح جديد، نور الدين الأتاسي، يوسف زعين) ومن يدور في فلكهم.

كما أطلق يد شقيقه رفعت لبناء قوة عسكرية خاصة باسم "سرايا الدفاع"، لتتولى دورا حاسما في حسم الصراع في تشرين ثاني 1970، ولم تكن هذه القوة تأتمر بقيادة الجيش وهيئة الأركان. كما أن اختيار عناصرها قد تم اعتمادا على ضمان الولاء المطلق لرفعت وحافظ.

وعلى مستوى أجهزة الأمن أو المخابرات، شرع حافظ أسد من موقعه كوزير للدفاع، بتجاوز قرارات "القيادة القطرية للحزب" التي كانت الأكثرية فيها تناوئ توجهاته، واستطاع بسط نفوذه على تلك الأجهزة بعد أن تم التخلص من الرجل القوي عبد الكريم الجندي. وزاد عليها فرعا جديدا، تحت مسمى "المخابرات الجوية"، بعد أن كانت جزءاً من المخابرات العسكرية، محدودة المهام والصلاحيات.

في الجانب الاقتصادي، برزت بعد هزيمة حزيران وسقوط هضبة الجولان بيد الجيش الإسرائيلي، مؤشرات على تدهور ما يدعى "النظام الاشتراكي"، الذي لم يكن اشتراكياً إنما "تشريكياً"، سيطرت فيه السلطة على القطاع العام، واحتكرت العمليات التجارية، وتقاسمت مع البرجوازية البيروقراطية، التي نمت

في ظل سلطة البعث، كل عمليات الاستثمار، فتشكلت فئة جديدة لا صلة لها بالبرجوازية السورية التقليدية، وأصبح الاختناق الاقتصادي سمة ظاهرة في الوضع السوري العام. في الغضون أدى التداول الداخلي للأزمة إلى ظهور توجهين داخل سلطة البعث، أحدهما يطرح أيديولوجيا جذرية "لتعميق الإجراءات الاشتراكية"، والثاني يناور داخليا مع الطفيليين البيروقراطيين، وخارجيا يغازل بخجل دول النفط التي تقودها السعودية. حافظ أسد وقف على رأس هذا الاتجاه.

هكذا، وباستثمار منه للخطاب "الأيديولوجي القومي" للصراع مع إسرائيل، مضى الأسد بخطوات مدروسة استعدادا لحسم الصراع على السلطة. ففي الوقت الذي سعى تيار جديد- الأتاسي إلى بناء قوة عسكرية "شعبية مسلحة" وتأسيس منظمة "الصاعقة" كفرع للبعث السوري في العمل الفدائي الفلسطيني، مضى الأسد في ترتيباته داخل الجيش النظامي، ومعه أجهزة الأمن والأجهزة العسكرية الخاصة، غير آبه بتأثير "الصاعقة" والجيش "الشعبي" وما يدعى "كتائب البعث" على ميزان القوى في حسم الصراع في اللحظة المناسبة. ولقد نقل عن محسن ابراهيم، أمين عام منظمة العمل الشيوعي في لبنان، تصريحا، بعد لقاء له مع قادة التيار المناهض للأسد، قال فيه لرفاقه من أعضاء الوفد المرافق، معلقاً على استعراض جماعة جديد لقوتهم وقدرتهم (الحزب، المنظمات الشعبية، الاتحادات، كتائب البعث، قوات الصاعقة) كلها معهم، وليس مع الأسد سوى الجيش وأجهزة الأمن، فقال محسن، وبلهجة تهكمية "اهربوووا". إشارة منه إلى عدم التكافؤ في موازين القوى إذا انفجر الصراع. كان ذلك في أواخر 1969 أو مطلع 1970. حينها كانت القوى السياسية

في البلاد العربية تتابع المعلومات الواردة من دمشق حول تطور التناقضات داخل السلطة في سوريا.

أما على المستوى الدولي، فلقد كان تيار صلاح جديد محسوباً كمناهض جذري "للإمبريالية"، في خطابه ودعايته الأيديولوجية، بينما كان حافظ أسد يظهر امتعاضه من هذا الخطاب، ويبني حوله شبكة من أصحاب المصالح الخاصة، وهؤلاء كانوا نافذة له على دول الخليج، وعلى الأنظمة العربية ذات الارتباط بأميركا ودول الغرب. ويذكر في هذا الخصوص أن الجنرال عبد الكريم الجندي، قبل موته الغامض، ما انفك يعلن: أن حافظ أسد رجل أميركا، وسوف لن يسمح له بإلحاق سوريا بالسياسة الأميركية.

في الفترة بين حزيران 67، وتشرين الثاني 1970، بلغت التناقضات الداخلية في سلطة البعث بسوريا ذروتها. ويشير بعض العارفين، بما كان يجري في أروقة الحكم، أن السيطرة الفعلية على مقاليد الأمور في دمشق، تم في أيلول 1970، أي قبل الإعلان الرسمي والسافر لانقلاب حافظ أسد في (16 تشرين الثاني 1970) والذي أطلق عليه اسم "الحركة التصحيحية".

ويربط أكثر المحللين والخبراء السياسيين، بين توقيت الانقلاب، وما سبقه من أحداث دموية في الأردن، الذي تفجرت فيه أعنف حرب بين المنظمات الفلسطينية وقوات الجيش الأردني.

في حينه، لم يستجب حافظ أسد لقرار القيادة القطرية، ورفض تقديم الإسناد العسكري، خاصة من سلاح الجو، لحماية منظمات الفدائيين الفلسطينيين. يومها كان القادة الإسرائيليون يحذرون من أي تدخل سوري في الأردن،

تحديدا من سلاح الجو السوري الخاضع لقرار حافظ أسد. ولقد تلقت الدروع السورية، التي دخلت شمال الأردن، ضربات قوية من سلاح الجو الأردني، وكانت تلك القوات تتبع لتيار جديد- الأتاسي، وتحركت دون قرار من حافظ الأسد وزير الدفاع في حينه. ورفض الأسد إسناد تلك القوات وحمايتها من القصف والتدمير.

لا شيء يؤكد ما ذهب اليه كثير من المحللين والمراقبين، بأن الجولان سقط "باتفاق" بين الأسد وإسرائيل عبر طرف دولي، يتم بموجبه "تسليم الجولان مقابل السماح للأسد بالسيطرة على السلطة في سوريا". غير أن التطورات التي تداعت في المنطقة، بعد هزيمة حزيران، جعلت تلك الرواية أقرب إلى أن تكون واقعية.

عموما، وفي الواقع الموضوعي الناشئ بعد الهزيمة، وفي تداعيات الوضع السياسي في المنطقة (وفاة عبد الناصر وصعود السادات، خروج الفدائيين من الأردن، انقلاب الأسد وسيطرته على السلطة)، ثمة رابط بين تلك التطورات وبين هزيمة 1967.

مع انفجار ثورة الحرية في سوريا 2011، ظهرت إلى العلن "مكانة سلطة آل الأسد" في التفكير الاستراتيجي لقادة إسرائيل. في مؤتمرات هيرتسليا السنوية التي تعقدها إسرائيل لتقييم الوضع الأمني الاستراتيجي للدولة، كان الاستخلاص الأهم في المناقشات للوضع السوري بدءا من هيرتسليا في العام 2012:

"لا توجد أية ضمانة لنظام جديد بديل لنظام الأسد. التجربة على الجبهة الشمالية، خلال أربعة عقود، أثبتت أن لا تهديد من هناك لأمن إسرائيل".

قابلها قادة ومسؤولون في النظام بإعلانهم:

"إن تعريض أمن سوريا للخطر سيهدد أمن إسرائيل".



أوراق الرواية

رواية

"الغروب الأخير"

مضر عدس

كاتب سوري، صدر له روايتان: رحلة إلى إسطنبول. وساعة واحدة في ضوء النهار.

الصعلوك

(رامي قهوجي)

كنت أسير في ظلّ الأشجار، وإن انقطعت أقفز محاولاً الهرب من أشعة الشمس، فقد غدوت طريدها بعد يوم النحس ذاك، وبعد عشرين يوماً من الاختباء والتخفي والمطاردات أقنعت نفسي ألّا أغادر غرفتي القابعة في القبو حتى تغيب عيون الشمس الكثيرة ويسيطر الظلام على الأحياء وتظهر روائح البول بقوة في الأزقة المعتمة المخيفة المحيطة بدمشق.

خرجت في أول ليلة، أي اليوم الحادي والعشرون، أبحث عن مصدر جيد للطعام، مصدر يقبل بأخذ النقود الورقية، فكما تعلمون بأن النظام المالي مراقب في الشراء والبيع، وإذا اشتريت قطعة خبز صغيرة سيسجل اسمي على الفور، والملعونة لديها علاقات أكثر من السيد الرئيس، وأنا ومنذ ثلاثة أشهر تقريباً تحولت إلى صعلوك وضيع، والمصيبة أنني من استحدث هذا النظام المعيشي، فالصعلكة وجدت لتعيد الكرامة لنا، لكن أن يملأها أحدنا بالدناءة، فهذا ما أجبرتني الأيام عليه، هذه هي حقيقتي.

منذ ثلاثة أيام أو أربعة وبعد منتصف الليل، لا أذكر، جلست مع بائع خضار، رفعت يدي مرحباً، أشار هو الآخر سعيداً وكأنه رأى والده خرج من قبره، ثم قلت له بصوت رقيق هادئ:

– أنا صعلوك .. ولن أدفع لك إلّا

نظر إليّ بنظرة استغراب ثم استكشاف، اقترب دون أن يلفظ حرفاً واحداً ثم انفجرت أساريره بضحكة لم أرَ مثيلاً لها، ثم قال بعد أن تمالك نفسه:

– رامي قهوجي عندي في الدكان!.. أهلاً وسهلاً بك.. كيف استطعت أن تخفي وجهك عن الكاميرات حتى تصل إلي؟!.. ولك يا هلا.. اعذرني فأنا كثير الكلام عندما أقابل أحداً

وتكلم لخمس دقائق دون توقف، كالمجانين، وأنا لم أوقفه تركته يكمل حديثه وأنا أحاول أن أتذكر، أين قابلت هذا الرجل سابقاً! لكنه أسعفني قبل أن أتذكر:

– ما بك يا رجل.. ألم تذكرني

– بالطبع ولووو.. ولكن كيف لك أن تعلم بأنني مطارد؟!

– له يا رجل.. نحن الجيل السادس

– أهلاً بالعم رأفت ذكريا

– يا أزعر.. لم تستطيع أن تتذكرني في البداية.. هاااا

– بلا.. تذكرتك ولكن.. أنت تعلم.. كيف.. يعني

– المهم.. خذ ما شئت الآن وعد متى ما أردت.. المحل محلك

– طبعاً محلي

ثم انفجر ضاحكاً، وأمال يديه ووضعهما على كتفي وقال:

– ياااااه.. كنا ننتظر هذه المعركة منذ زمن طويل.. للأسف أصبح عمري أكثر من سبعين عاماً.. وكما تعلم القانون.. اجتماعات ومشاورات فقط.. هذه مهمتي

- بالتأكيد

يا إلهي كيف نسيت وجهه نهائياً، لي ذاكرة قوية لكنها مشوشة للغاية في هذه الأوقات السعيدة من حياتي، أبو فؤاد، يا إلهي، من الجيد أن الاجتماعات العامة تبقى خياراً وإلّا لكنت تلقيت توبيخاً شديداً من قيس.

المهم، أخذت ما اشتهيت لحظتها دون خجل، فالدكان لي حرفياً كما قال، وبعد أن ملأت أكياساً من الطعام والشراب والفاكهة ودعته على أمل نصر قريب يعيدني إلى حياتي السابقة، القليل من الإثارة والكثير الكثير من الاسترخاء، والعمل الممتع الحر.

في طريقي إلى القبو تذكرت قول الشاعر "إن هذي العاهرة.. حببتني بالغريق والحريق.. والمجانين"، والمجانين، كم أحب أن أبدو أحد المجانين أمام الغرباء، أو لأقل لأبدو واضحاً، صريحاً، البشر يكرهون الصراحة، ولماذا لا أعلم.

كنت أعمل حلّاقاً في صالون لا بأس به، جيد، وفي إحدى الأمسيات وبينما كنت أستعد لأحلق لحية أحد الشباب، قلت له:

- أتدري ما أكثر المهن احتراماً عندي؟!

- لا.. (سألني من دون حتى أن يفكر)

- بائعة الهوى؟!

قلتها له بيع الهوى بالفصحى، رغم أني بالطبع لست من الصعالكة السخفاء الذين اقتنعوا بكلام طارق رعد بعد أن أدرج فكرة الحديث بالفصحى، لا لا،

أنا أتكلم اللهجة العامية، عندما قلت له "بائعة الهوى"، هزّ رأسه مستغرباً من هذه المهنة، يبدو أنه قليل القراءة والاطلاع، وقال لي بكل برودة:

- ماذا تعني.. هذه.. بائعة الهوى؟!

ثم هرب كالمجنون خائفاً من معرفتي بأن أخته تعمل في بيت دعارة محترم، الحيوان يدع أخته تعمل عاهرة، ثم يخرج سعيداً ليحلق في محل محترم، ويريد أن أسايره لأنه يملك المال.

بالمناسبة إني أرفض أن تُنشر شهادتي دون هذا المقطع، حتى ولو كنت حينها عظاماً، فأنا أصرّ، المهم بعد هذا الحوار اللطيف السريع طردني صاحب الصالون لوقاحتي مع الزبائن، فصراحتي لا تطاق، كما وصفني وهو يلقي المال المتبقي لي في ذمته.

في الحقيقة وإكمالاً للموضوع الذي دار في خلدي وأنا أسير من دكان رأفت زكريا إلى منزلي الحقير فإن أكثر ما يثير دهشتي بأن الصراحة تعد مؤلمة دائماً، أنت تعرف الحقيقة فلِمَ الخجل، أو الانزعاج، الخجل منطقي نعم منطقي، فأنا إن كنت بخيلاً بالتأكيد سأخجل أن يذكر هذا الشيء أمام الفتاة التي أواعدها، ولكن لن أشعر بالانزعاج، ألست سعيداً بأن مالي لم ينقص إلّا ما ندر في آخر النهار، بل نعم أنا أرقص إن دخلت منزلي ونقودي ما زالت صامدة في جبهتها، بالمناسبة البخل كان مضرب المثل ولا أقصد نفسي وأنا هنا لا أشعر لا بالإحراج ولا بالانزعاج، ولكن لو شئت وصف الحقيقة وتشبيهها بشيء فبالتأكيد أول ما يخطر على بالي السكين، التي يقال عنها

بصوت مرتجف "يا إلهي لقد جاءت من العدم"، وكأن الإنسان عندما يقول هذه الجملة فإنه يثبت لنفسه وللآخرين بأنه لا يعلم الحقيقة.

عودة للموضوع الأساسي الذي يجب أن لا أشتت سعادة القارئ العزيز وأنا أقصّه عليه، الموضوع الذي طُلب منّا كتابته في أرشيف سيوضع في صندوق ولن ينشر إلّا بعد سنوات طويلة ليظهر للعلن كشهادة أو كتاب وثائقي، وبالطبع فقد اختار قيس أن يكتب رواية سخيفة، المهم عودة للموضوع أنا الآن أهرب من الشمس، اللعنة التي ستحرقني أو أحرقها، ولهذا السبب العظيم أنا لا أخرج إلّا ليلاً حتى أستطيع إخفاء وجهي بسهولة في وجه الكاميرات اللعينة، في إحدى الليالي التي كانت بعد ثلاث ليالي من لقائي برأفت، قابلت رجلاً سكيراً يدعى عكرمة الصموأل، قيل بأنه يحب الشعر ولا يلقيه إلّا وهو في قمة سكره، فسماه أحدهم الصموأل لاعتقاده بأنه اسم أحد أهم شعراء العرب الجاهليين، هذا الرجل السكير يعرف والدي ويعرفني جيداً، وهو مسؤول عن البحث عن أحدنا، ويبدو أنه مسؤول عني أنا شخصياً، وقد علمت لاحقاً بأني دون قصد أعدت شاربي الزائف إلى موضعه أمام إشارة للمرور فاستطاع أحد المراقبين أن يرسل إلى الصموأل الذي بدوره تكفل بمطاردتي، المراقب عن طريق كاميرات الشارع الذي كنت فيه والصموأل يجري خلفي ويتلقى تعليمات عبر هاتفه النقال.

عكرمة هذا يعمل لدى الشمس، أو لأكون أكثر دقة لأنها لن تكون امرأة مشهورة في يومكم القادم، كما هي الآن، فالشمس هو لقب امرأة ذات سلطة كبيرة، وفي الحقيقة نعم لقبها مع أل التعريف، الشمس، الشمس الشموسة هي سيدة كبيرة في السن لكنها تبدو في الثلاثين من عمرها الذي لا ينقضي

بسهولة أعماركم، يقال بأنها من نسل ضابط روسي قاتل في سوريا وقُتل عام 2016 وبالطبع لم يُعترف بها إلّا سورية، فهي ابنة إحدى المحظيات، والمحظية هذه وكما يقال، لكي تدافع عن شرفها قالت بأن ابنتها هي من نسل ذاك الضابط المغوار الذي حرر البلاد والعباد، كما صرعوا رؤوسنا في زمنهم، من الإرهاب والتشظي والزوال، ويقال في رواية أخرى بأنها حفيدة أبو جعفر، أبو جعفر هذه سيدة أيضاً يقال إنها عملت تاجرة سلاح مع فصائل ثورية كانت تقاتل قوات النظام زمن الثورة السورية، وأؤكد لكم أنها –ومن أيّ المصادر الجينية جاءت– آخر ما تبقى من الاحتلال الروسي، كما أسميناه لاحقاً في البرلمان السوري بكل رحابة صدر.

أنا –كما قلت لكم– كنت مطارداً منها، لمَ؟ وكيف؟ ومن هي؟ هذا ما ستعرفونه في بقية الشهادة، ولأنها خطيرة وصاحبة نفوذ وسلطة وقدرة في البلد اللطيف سوريا فأن تكون واقفاً في وجهها فهذا شيء لا يحمد عقباه.

ولأني وعدت قيس أن أكون كثير الدقة قليل السرد، ولأني أنا الهيكل الأساسي في الحرب التي نشأت بيننا وبين الشمس وحاشيتها، فمن المهم أن تكون شهادتي متناسقة ومتسلسلة، لذلك سأدع الكلام الذي لا فائدة منه وأكمل قصتي مع الصموأل.

مساء ذلك اليوم شاهدته قادماً من بعيد، وقفت أفكر، هل رآني؟! أم هي صدفة لا أكثر؟ أو أنه يعلم أين أنا، ثم أمسكت الشارب المزيف وخلعته من مكانه وبصقت عليه وحاولت الفرار، لكنه وكما كنت أسمع بلحظة واحدة هرب من السكر فغدا أكثر صحوة مني، ورشاقة وهمّة ودقة، ركضت فركض

خلفي ولحق بي حتى حاصرني في حيّ لا مخرج من طرفه الآخر. وفي لحظة المواجهة وكان لا مفر لي إلّا بمواجهته، عاد فجأة إلى سكره، وصاح قائلاً:

- ألستَ ابن العقربة.. صاحب العلم والمعرفة.. أم الصعلوك سارق الأرغفة؟!.. قل يا ابن الحيوان الذي أعلن الحرب ضد السيدة.. شمس الشموس وربة الأرباب.. أيهما أنت؟!

- أتسرق الشعر يا صموأل؟!

- لا هذه لحبيبك.. أتعتقد بأننا لا نعرف عنك كل شيء؟!.. كلّ شيء

- بالطبع تعلمون يا أبناء الصرامي

المؤرخ

(حازم قهوجي)

يوم سمعت الخبر كنت قد بدأت بكتابة مشروع تأريخ جديد، بقيت أياماً بلياليها بعد الواقعة العجيبة وأنا أحاول استجماع قواي منتظراً أن يأتي دوري، مهمة ما توكل لي أو عالأقل أن تصلني الأخبار بوضوح، في اليوم الأول كنت مذهولاً لا أجيب، في اليوم الثاني نصحني الجميع أن أغادر شقتي إلى مكان لا يعلمه إلّا الله، وهم أكّدوا لي ما أعلمه بالطبع بأن الشمس ورجالها لن يستطيعوا أذيتي فهم يقفون وقفة رجل واحد.

- ولكن قد تتسع دائرة الصراع وعليك أن تكون مستعداً

كما أشار لي حسام الدين علي قبل أن يقبلني على خدي الأيمن ثم يغادر.

في ذلك اليوم استقبلت وودّعت كثيرين، أصدقاء وأقارب، مقربون وغرباء، لا رابط جمعني بهم جميعاً إلّا وجودنا في جبهة واحدة نقاتل منذ سنوات طوال.

توالت الأيام وزادت مخاوفي كثيراً، فلا أخبار جديدة عن قيس وأخي، ورغم أني في بلد تحكمه القوانين، لا تزال السيدة المجنونة ذات صلاحيات جيدة رغم ما حققناه خلال السنوات السابقة، لذلك كان من الجيد أن أختفي حتى تنقشع الغمامة، فالقصة هذه المرة لا نجاة منها، فإمّا أن ننتصر فتكون حربنا هذه هي الضربة القاضية وتأذن الدولة للشمس أن تغيب أخيراً أو أننا سنعلق في دوامة لا ندري متى نهايتها.

بعد أسبوع انتقلت إلى منزل زوجتي السابقة، فالعلاقة لا تزال جيدة بيننا، بل كنت أعدّ العدّة لأغزو قلبها من جديد، قصدت مأوى الحبيبة فلبتني، وبعد استقرار أموري في ركنها الذي انتزعته مني في المحاكم الطويلة –لن يكون منطقياً أن يقرأ أحدكم بأنني دخلت دوامة محاكم، دوامة لئيمة، إن كنت أكثر صراحة– عادت علاقتي بها شبه طبيعية ثم طبيعية ثم أنتم تعلمون ما الذي يأتي بعدها.

المهم بعد استقرار أموري تأكدت بأنني لست هدفاً لرجال الشمس كما ذكر في التقارير التي تواردت لي يومياً، فعدت إلى العمل على المشروع الجديد، مع متابعة أخبار قيس الذي لم يعلم وقتها أحد منّا مكانه، إلّا الصديق الأول لوالدي فراس الفرّان وهذا ما اكتشفته لاحقاً، وفي تلك الأثناء تواصلت مع أخي رامي مرة واحدة حيث أخبرني بأنه يستطيع أن يتدبر أمره جيداً، وهكذا وبكل بساطة كما كتب بخطه الرديء عليّ ألّا أقلق أبداً، وبالمناسبة كان

التواصل من طريق رسالة ورقية جاءتني بها امرأة أربعينية العمر، قرعت الباب أعطتني الرسالة ثم غادرت دون أن تلقي السلام، لكني لا أزال أذكر رائحة العرق القوية التي لاحت منها بقوة ثور لا يخشى اللون الأحمر.

شهر كامل مضى، ثلاثون يوماً، أصبحت الأخبار روتينية، قيس لم يظهر بعد، أخي مطارد بقوة والشباب على استعداد كامل لتقديم الأوراق والأدلة كلها وكشف المستور في اللحظة المناسبة، ولكن الاستعدادات والخوف المرافق والصفقات والقلق مما فعله أخي البارحة زاد الطينة بلّة، وفوق كل ما جرى ويجري خلال المحنة السعيدة وللآن أنا خارج كلّ شي وقد زادت معاناتي بإخفاء الانزعاج الذي بدأ يلوح في وجهي كلّما قابلت أحد الأصدقاء، ولا أدري ما قصتهم وكأني من الجيل الأول، أو كأني معاقب وممنوع من العمل، وفعلاً أنا ممنون للقواعد العظيمة فالطرد ممنوع وإلّا لعشت في خوف دائم من أن أكون في موقف مشابه ولم يصلني الخبر بعد.

في كل صباح أستيقظ على صوت جرس المنزل، أقبّل طليقتي النائمة قربي، أرتدي شيئاً مناسباً فأنا أحب النوم كما خُلقت، أحياناً ألبس بيجاما بسرعة كي أجيب وأحيانا أتثاقل لأرتدي ملابس رسمية، فكما تعلمون طريقة رنّ الجرس تظهر أهمية الزائر، أستقبل الزوار تباعاً، نتفاوض ونتناقش ثم أودعهم عند الظهيرة، أتناول وجبة إفطار خفيفة بعد أن أقضي على علبة سجائر كاملة خلال الساعات الأولى للنهار، ثم أجلس خلف مكتبي أو مكتبها أو مكتبي الذي أخذَتْه مني، ثم أبدأ الكتابة، منذ عشرين يوماً عندما بدأت الكتابة وأنا أبحث عن مصدر موثق لما جرى في دمشق صيف 2012، كل الأخبار مبالغ فيها، كم عدد الذين حاولوا اقتحام العاصمة لا أدري، ومن يدري، لا

أحد، الكثير يقول لي وما أهمية ذلك الحدث، لكني أرى لكل حدث ضرورة ومكانة، وأنا قررت أن أكتب عن أول ساعات الحصار الاقتصادي التي واجهها الدمشقيون إبان الثورة، ثم سأكمل وأوثق الحصار السوري الكبير حيثما جرى خلال السنوات التي عبرت بالبلاد من ضفة إلى أخرى.

شقة طليقتي تقع في جوبر، في البرج التاسع، أنا الذي أحاول أن أوثق أحداثًا جرت منذ أكثر من سبعين عاماً، لا أدري إن كانت للذكرى أهمية، ولكن للآن الألمان يذكرون الحربين العالميتين، ثم يبتسمون بمرارة وكأنهم هم من قرر ما جرى، لكن عبء التاريخ يحمله الأحفاد، ويبقى لأهل العصر ذاك الخوف والتشرد والموت، منذ سبعين عاماً في هذا الموقع بالذات كانت القذائف تتطاير في الفضاء الذي تغطيه غرفتي الآن، منذ سبعين عاماً، رقم مهول.

المنظر الذي أتخيله كل مرة حين أقف أمام النافذة وأنا أدخن، محاولاً سماع أصوات المقاتلين، رجل يرتمي خلف حائط نصف مهدوم، يصيح برفاقه، أنقذوني (وأنا كما تعلمون أكتب الوثائقي أو الوثائقي الروائي)، يصيح بصوته القلق المرتجف أنقذوني أنا مصاب، نسي أنه لا يأبه للموت؛ فما المشكلة إن تعرض للإصابة، لا يدري قبل أن يصاب بأنه سيغدو هكذا، يتحول من آلة للقتل إلى إنسان في غضون ثوانٍ تفصل بين الرصاصة المتطايرة في الهواء ولحمه الذي تستقر الرصاصة داخله، وهو وقبل أن يصاب ومنذ ساعات قلائل تشاجر مع والده الأعمى.

- لا تذهب يا ولدي.. فالموت أخذ مني أربعة من إخوتك.. ولم تبقِ لي الحياة سواك.

غادر وهو يصيح في وجه أبيه:

- أنا لا أخشى الموت.. سأنتقم لإخوتي من الأوغاد.

كم أشعر بالسذاجة عندما أتخيل مشهداً عاطفياً مباشراً، أبتسم محاولاً أن أتظاهر أني لم أبكِ، وفي الحقيقة أحاول فعلاً تخيل مشاهد ولو كانت سخيفة، مشهد إنساني ما، قد يكون وداع أب لابنه المقاتل، أو حرقة أم على ابنها المسجى أمامها غريقاً بدمائه، وقد أتخيل قصيدة عشق بلهاء كتبها شاعر سوري، ساذج أكثر مني، يعيش في ألمانيا، لحبيبته في دمشق، أتخيل أي مشهد محاولاً أن أدخل في صلب الحياة التي عاشوها علّني أقاوم رغبتي في رمي الكتاب ثم الارتماء إلى سرير ممزقاً ثياب الحبيبة وهي تقاوم مبعدةً الكاتب نصف السكران.

والآن وهو يجلس خلف الحائط، وبعد أن تلقى بجبن رصاصة في صدره، يصيح بصوت يثقب أذني، يصيح بقوة ثلاثين رجلاً:

- مشان الله إسعاف

ويهمس إخوته الأربعة في أذنيه بسخرية القدر الذي أخذهم في تلك الحرب القذرة:

- نحن بانتظارك يا عرصا

فيرد والدمع يأكل وجهه:

- لا أريد الموت

أتخيل المشهد كاملاً، هذه هي القذيفة، صوت صفيرها قوي يخدش صفاء الشقة، سقطت بالقرب منه فأردته قتيلاً، بالمناسبة أنا أتخيل بعض المشاهد وبعضها أحاول إعادة تشكيلها في مخيلتي بعد أن أقرأ عنها أو أن أسمع عنها من لسان أحد ما، فالمشهد السابق لم يكن محض خيال، لا أبداً، فقد سجل شهادة موته أحد المقاتلين في فيلم وثائقي صوِّر بعد الحرب بسنوات، ذكر المقاتل قصة صديقه، جلس أمام الكاميرة محاولاً منع ظهور انحناء ظهره، عجوز يكاد لا يستطيع تذكر أي شيّ، لكنه وما إن بدأ يقصّ بعض الأحداث التي لا تزال تلطخ رأسه بدماء لا يدري لمن تعود حتى اغرورقت عيناه عندما ذكر أن صاحباً له كان الشهيد الخامس في العائلة، ثم ذكر بعض التفاصيل التي جرت عندما سقط صريعاً.

ابتعدت عن النافذة في اليوم الذي انتظرت أخي فيه، ابتعدت بعد أن امتلأت كرّاستي بالأفكار، وبعد أن دوَّنت الكثير من المشاهد في رأسي، كتبت وتخيَّلت ثم ابتعدت وأنا أتذكر نصوصًا كثيرة لكتّاب معاصرين للثورة وهم يقولون بأننا نحن، أي من سنأتي بعدهم بسنوات، لن نتذكر معاناتهم إلّا بالأرقام، لن نذكر الألم الذي عانوه، الأصوات التي أرهقت نومهم والجوع الذي نهش أجسادهم، ولهذا السبب أنا أبحر في شهادتي هنا، كي أنقل صورة لمحبي قراءة القضايا، أو للعرصات الذين ظنوا بأن الألم لا ينتقل عبر السنين أو الأسطر أو الأغاني.

أعددت القهوة التركية، أشعلت لفافة بانتظار مجيء رامي ثم جلست على أريكة في منتصف الصالة، أملت رأسي وعدت لأفكاري، في المنطقة المقابلة للحائط دبابة كبيرة الحجم، تي 72، تحاول التقدم، خلفها مباشرة يجلس أربعة

شباب، بالمناسبة هذا المشهد من مخيلتي، أحاول أن أتخيل منذ أيام كيف كان المقاتلون يتصرفون عند رؤيتهم دبابة عملاقة تنفجر في وجوههم، ولم أعثر للآن على أي شهادة مصورة أو مكتوبة عن هذا الموضوع.

أذكر أني قرأت منذ أيام رواية تسمى "ذكريات مقاتل" لروائي سوري عاش الحرب والحصار، ولكني وللحقيقة التاريخية لم أستطع إكمالها لسذاجة الحبكة، صديقان من داريا كبُرا سوية، ثم، وفي أثناء الحرب الأهلية يقاتل أحدهما مع الثورة والآخر مع النظام، وقد استشرت صديقاً ناقداً بعد أن ألقيتها أرضاً فأخبرني بأني لن أجد ضالتي فيها.

أنهيت فنجان القهوة ثم اتجهت إلى المطبخ لآكل ولو لقيمات، أخرجت من البراد صحن شنكليش حمصي، وأخرجت علبة لبنة، ثم جلست على المنضدة، وبدأت بالأكل، ورحت أفكر بجمل أصوغها، فأنا أحاول منذ أيام كتابة مئتَي كلمة عن معركة جوبر الأخيرة، قبل أن يضع المقاتلون السلاح، مئتي كلمة فقط، أصف المشهد بشكل أدبي محترف، ولكن لا أستطيع.

- استسلم.. ونعدك بعرضنا وبديننا بأنك لن تمسّ

أأبدأ بهذه الجملة؟!

قيل بأن مجموعة من الفرقة الرابعة حوصِرت، عشر مقاتلين، وقد استسلمت بعد دفاع دام ثلاثة أيام بلياليها، قتل من العشر أربعة رجال، وبعد أن استسلم الباقي قبيل انتهاء ذخيرتهم انتهت معركة جوبر، يُقال إنهم عادوا ليلتها إلى ثكناتهم في الجبل، ويُقال أيضاً إنهم عادوا بعد صفقة التبادل الكبرى.

- لا لن أدخل هذه الجملة المتخيلة

قلت هذه الجملة بصوت عالٍ، فأنا أكلّم نفسي في كثير من الأحيان، وقد تبعتها قبلة لطيفة من ليال، وهذا بالمناسبة اسم طليقتي، ثم ودَّعتْني وذهبت إلى عملها.

لا أستطيع التفكير، أخي الأحمق اختفى بعد أن قتل أحد رجالها، وأختي، آآخ من أختي، ثم قرِع الجرس في اللحظة التي بدأت أفكر بأختي.

اللقاء الأول

(رامي قهوجي)

قرعت الباب ثم أملت جسدي المنهك على حائط شقة أخي، ثم انتظرت العادة الغبية، فأخي كعادته عليه أن يهيء نفسه قبل فتح الباب، لكني استمتعت برائحة قهوة قوية قادمة من الشقة المجاورة وقد رافقها أصوات بكاء طفل فزادت المتعة أضعافاً مضاعفة، كان ينقص المشهد وقتها رائحة ياسمينة قوية وشعر ساذج قادم من مكان ما بصوت أنثوي وقح، يعلم بأن القصيدة محض هراء لكنه سعيد بتملّق دائم للأوغاد، وإن أضفنا للجو اللطيف صرخة امرأة تلد، أو تعيش لحظات مؤلمة مع عشيق عابر، سيكون الأمر أكثر إمتاعاً، ولن أنزعج أبداً إن أصبح الموقف أكثر متعةً وضوضائيةً بإضافة موسيقى وتأوهات من فيلم بورنو تصدر من كمبيوتر مراهق تخترق غرفته منطلقة إليّ من آخر الرواق.

أعدت قرع الباب بقوة وفي المحاولة الثالثة فتح حازم الباب وصاح في وجهي بكل وقاحة قائلاً:

- صرعتني

- لشو أكل هالخرا.. ساعة لتفتح الباب!.. من سيأتي في هذا الوقت من الجيل الخامس هاااا!

أبعدته عن طريقي ودخلت مكملاً حديثي:

- ولمَ كل هذا العطر حازم بيك!

- انتظر حتى أقول لك تفضل عالأقل يااا.. قليل الأدب

- ما الذي يبقيك في الشقة حتى الآن.. ألا تدري أن الصموأل ودّع الحياة منذ يومين!

ثم رفعت يدي اليمنى عندما قلت بصوت عالٍ "ودّع الحياة" فأنزلها قائلاً:

- ألا تعلم بأن القتل ممنوع.. حتى.. ولو.. دفاعاً.. عن.. النفس.. أم نسيت القوانين؟

- يا رجل ألم تمل الجمل المقطعة.. حتى.. ولو.. دفاعاً.. أخي العزيز.. أنا أبداً وقطعاً وبتاتاً لن ألتزم بقوانين كتبت منذ مئة وثلاثين عاماً وأترك الحيوانات يقتلونني ثم ينجون بفعلتهم.. لا لاااا.. مستحيل يا أخي العزيز.. مستحيل

- أولاً لن ينجو أحد من فعلته.. ثانياً ما هذا التخريف مئة وثلاثين عاماً.. أتعتقد بأنك تريد أن.. (فقاطعته)

- بالطبع أنا كنت وسأبقى.. ولكن.. سأ.. أخي لا توجعلي راسي.. جهز حقيبة سفر صغيرة.. نحن مغادران

- لا عندي مشروع وأنا منهمك به.. تشرب قهوة؟

– ما هذا الغباء ووو برودة الأعصاب التي لا مبرر لها.. ألم تسمع ما جرى!!.. الصموأل

– الصموأل قُتل.. البارحة جرى اجتماع كبير هنا في هذا الصالون.. حتى أنه جرى بحضور خمسة من الجيل السادس

– خمسة من الجيل السادس!

– نعم نعم.. الجيل السادس.. القصة أصبحت أكبر مما تتخيل يا قاتل السكارى.. يا صعلوك

– يا لطف الطف.. الطف أو لا تلطف تسطفل.. أوووووه الجيل السادس.. هذا الكلام ممتاز.. هيا جهّز نفسك عليك أن تبتعد عن هذه الشقة.. فقد غدا القتل مجازاً في هذه اللعبة بعد مقتل الصموأل، وعلى هذا الأساس سيصبح أي أحد من الأصدقاء مستهدفاً... فتخيل أنت.. أخي.. وابن أبي.. يا عيني.. أنت هدف سهل

– أولاً الملافظ سعد يا حجي.. بلاها كلمات غباء وخرا.. عيب أخوك الكبير أنا.. وبالمناسبة هذه الشقة لا تزال باسم ليال لن يتوقعوا بأنني موجود هنا

– فعلاً.. معك حق.. فنحن نتعامل مع عصابة حمير

– أنا لن أغادر المنزل عندي شغل.. وللآن لم يوكل لي شيء.. ولن أضيع وقتي بالتشرد.. من الآخر أنا لست رامي قهوجي.. الصعلوك.. أنام في أي مكان.. وأعيش كيفما كان

- ولك يا فهمان.. القضية هي حياة أو موت.. وهم محترفون في عمليات الاغتيالات.. والقصة غدت قضية وجود لا تحتمل الحلول الوسط أو نجاة الطرفين بعد صراع كما كان يحدث سابقاً فقد امتلكنا رقبتها ولن نتراجع

- رقبتها؟!.. مااا!

- نعم نعم.. كل شيء في وقته يا حازم الحبيب.. في وقته.. ولكن ليكن في علمك أنه الآن يا نحن يا هُم.. لا حلّ لديها.. ولن تسمح لي أو لقيس بأن نتصرف بشيء وأنت ستكون كحجرة في دربها.. وقد تصبح حياتك مقابل التراجع.. لا تكن عامل تخريب يا حجي.. وأنت تعلم بأننا لسنا قتلة وهذا سيجعل لها اليد العليا بعد مقتل الصموأل

- لأنك قصير نظر.. كيف لك أن تقتله هااااا

- ما جرى قد جرى

- لعمى.. أين نسكن!.. وفي أي عصر نحن؟!

- أخي.. مشاكل ويجب أن تحدث.. ستنتهي وسننتهي من عقبة كبيرة لا تقلق

- لكنّ العنف.. (قاطعته)

- لك خلصني من التنظير والعلاك وأكل الخرا.. اذهب والبس وجهز حقيبتك.. عامل فيها كاتب ومثقف.. وااااو وياااااي.. غابة ويجب أن تقّص.. بالعنف بالسلم بالصرامي سنقوم بتشذيبها

- طيب تشرب قهوة؟!

جلست ولم أجبه، نظرت إلى الأفق، إلى دمشق، يا سلام الشباب الطيبة في هذه الأحياء تبحث عن رأسي كي تهديه لشمس، وأخي يماطل، مؤرخي آخر زمن.

"استسلم.. ونعدك بعرضنا وبديننا بأنك لن تمسّ"، قرأت العنوان بصوت منخفض من دفتر موضوع على منضدة أمام الكنبة، ثم صحت بأعلى ما أملك من طاقة وأنا أهزأ من حازم:

– ألا تزال تكتب عن حقبة الثورة.. صرعت الجماهير بك وبكتاباتك.. أخي غيّر قليلاً.. اكتب عن صراع السنوات العشر.. أو عن أي شيء.. أو عن حسين جيرود

ثم نهضت وبدأت أتلو عليه مقطعاً من قصيدة للجيرود، شاعري المفضل، وأنا أحرك يديّ:

– قضيتُ نهاري أسبح في كومةٍ من القش.. لم أتذكر وقتها النار أو الماء.. ولا الإبرة.. ولاا ماذا الإبرة.. اكتب عن الإبر وقمم القش.. كَوني الآن أنا كالإبرة في كومة من القش والخراء.. والخراااااااء

عاد أخي من غرفته وهو يحمل حقيبة صغيرة سوداء اللون وهي الحقيبة نفسها التي عثر عليها في السلمية، المهم، قال لي ساخراً:

– أخي اكتب أنت عن حسين جيرود أمّا أنا فتخصصي في الثورة السورية.. أنا جاهز.. أين ديما الآن؟

– تقصد القحبة.. (أضفت ساخراً)

- أختك هي يا خرا.. ما كنا نخلص من هذا الموضوع الغبي

- لا أبداً.. حتى مماتي

- لا بأس أنت حر.. أما أنا فقد انتهيت من القصة فلا تلقبها بهذه الألقاب التافهة يا تافه.. على الأقل أمامي

ابتعد حازم عني قليلاً، استدار واضعاً يده على رأسه ثم أكمل يوبخني:

- أنا كاتب.. مؤرخ.. لي اسم في البلد بحجمك ووزنك بعشرة أضعاف.. وأنت تدفعني كي أتكلم كأولاد الشوارع

- يا أخي اي حبيبي.. الشب والكلام البذيء صديقان لا يفترقان.. أعطي العنان لك يا أخي

تحدثت إليه وأنا أدخل إلى المطبخ ثم أكملت الجملة بصوت أعلى:

- أين البيرة.. لم البراد فارغ؟!

- إلى أين الوجهة؟

- إلى مدينة صغيرة في القلمون.. تدعى الرحيبة

- وديما!

- ستلحق بنا لا تقلق

خرجنا من الشقة التي تمتلكها ليال، طليقة أخي، التي لا تزال على علاقة معه، طليقة يا لهذه التفاهة وكأنها كانت عبدة فأطلقها، وتخيلوا يا أحفاد الثورة، العظيمة، للآن تُستخدم هذه الكلمة، نعم لها معنى واضح ولكن حرفياً

فالمعنى كال...، المهم، في الكراج انتظرنا جورج الصبّاغ الذي تكفَّل بمهمة إيصالنا إلى مزرعة لصديق قيس في الرحيبة، وهو بالطبع أحد الأصدقاء ومن الجيل السادس.

بعد أن قطعنا جوبر وعند ساحة العباسيين وقبل أن نعبر المفرق الذي يصلنا إلى طريق دمشق حمص استوقفتنا مظاهرة لجمعية قدامى الثوار.

- قدامى الثوار؟.. (سألني أخي)

- نعم.. كالعادة قطع للطريق وحرق إطارات وبعض الشعارات التاريخية المنقرضة

- مهووسون

- نعم.. (أجبته ساخراً) وكأنك لا تتمنى أن تكون معهم

- بعد أيام سيكون عيد الثورة الثامن والسبعون

اقتربنا من مكان التجمع خلف حشد هائل من السيارات التي تسير ببطئ شديد قاتل، فقد غدت العادة بعد أحداث شغب 2080 بأن تؤمن قوات ضبط الشغب جزءاً من الطريق كي تمنع الانقطاع الكامل وبهذا تتحول الطرقات العريضة إلى خط سير واحد، سرنا خلف السيارات وعندما اقتربنا من المظاهرة فتحت النافذة كي أستمع.

فزاد الصوت الواحد المندفع من حناجرهم

- الشعب يريد إسقاط النظام

- يريدون إسقاط النظام إذن.. (قال المؤرخ ساخراً)

- نعم.. (ثم ضحكت ساخراً منه ومنهم).. ما رأيك؟؟.. رجال هااا

- لكااان.. لو عاشوا يوماً واحداً من الثورة لشابت رؤوسهم.. سيدي

- أستاذ حازم قهوجي؟!.. (أردف جورج مستأذناً أن يتكلم)

- بدها استئذان!.. ألست من الأصدقاء!؟

بعد سؤال حازم رفع جورج سبابة يده اليسرى ثم نقر على صدغه الأيسر نقرتين وهو يقول مبتسماً:

- بالطبع أنا صديق

- فاسأل إذن.. دون استئذان

- بالتأكيد.. هل تعتقد أستاذ حازم أن لحزب البعث فرصة في انتخابات السنة؟!

تنهد أخي ثم أغلق النافذة هرباً من هتافات المتظاهرين الحجرية، ثم أردف:

- لا أعتقد ذلك.. ولكن سيبقى المناصرون والأعضاء يحاولون حتى الرمق الأخير ثم سيعترفون بأنه توفي منذ خمسين عاماً.. لا أمل لديهم البتة

- وهل الوقت مناسب لأحاديث السياسة!

أضفت والسعادة تطغى على محيّاي، فرمقني حازم بنظرة مزعجة لكني واجهتها بابتسامة عريضة ثم أكملنا متابعة المظاهرة صامتين.

ابتعدنا عن المظاهرة وانطلقنا حتى قطعنا مدينة القطيفة، عند المفرق المؤدي إلى الرحيبة مررنا من لافتة كتب عليها مدينة جيرود، فأضاف أخي شارد الذهن:

– ذكرني عندما تنتهي المصيبة أن نزور قبر مضر عدس

– بالتأكيد

المهندسة

(ديما قهوجي)

منذ شهر تقريباً جاءني اتصال من أخي الأكبر، العصبي أحياناً واللطيف كثيراً، الكاتب والمؤرخ السوري الأشهر حازم قهوجي، صرخ في وجهي موبخاً:

– أين اختفى قيس فمنذ الأمس لا أثر له.. هل لديك أية فكرة؟!

– قيس!.. لا.. لا علم لدي مطلقاً.. وما أدراني أنا.. كعادته اختفى في مكان ما ليجهز لمشروع جديد أو مشكلة جديدة أو

لكنه قاطعني قبل أن أكمل قائلاً بغضب مكبوت:

– مممممم.. لا بأس.. ألا تعلمين أين رامي إذن؟

– ومن أين لي أن أعلم أين رامي!!.. رامي باشا تبدأ سهرته في دمشق وبعد سكرة طويلة تجده أصبح في حمص يغني في دار الأوبرا مع سارة.. الحبيبة الحمصية.. في صباحية ربنا يغني في دار الأوبرا.. ثم يكمل الطريق إلى

اللاذقية وأحياناً لا أستغرب إن أكمل الطريق مع أحد الأصدقاء إلى ألمانيا ليعود بعد شهر

- هل انتهيت من الردح؟

- نعم.. انتهيت

أجبته بصوت خجول أحرجه لطف حازم المفاجئ، وسرعان ما تبخر الخجل بعد أن انهال عليّ موبخاً بغضب وتأفف:

- اي عيب.. أخوك الأكبر أنا.. احترميني على الأقل ولا تتلكمي على أحد أفراد العائلة أمامي بهذا الشكل المشين

- اعذرني ولكن فعلاً مزاجي معكر

- لا بأس.. اليوم سيقام اجتماع من المستوى السادس في منزلي

- السادس!.. سوف آتي

- لا لاا.. الاجتماع بدعوة

- لكن.. حازم قهوجي أنت

- كوني بخير وسنتكلم لاحقاً.. إلى اللقاء

- إلى اللقاء

أغلقت السماعة وعدت إلى حياتي الطبيعية، فيومي يبدأ بعمل ثم عمل ولاحقاً في آخر النهار بعض التسلية والمشاوير اللطيفة والقليل من القراءة المسلية قبل النوم، ولكن السماء كانت قد انفجرت وراحت الأمطار تنهمر وبدأت

القصص تكبر ككرة ثلج، وراحت المصائب تتوالى، لم يخبرني حازم يومها عن الحدث الجلل الذي جرى مع قيس، في ذلك الوقت لم يتورط في القصة إلّا رامي كما اعتقدت بعد أيام ولكنه اختفى مع قيس، أو عالأقل اختفيا في وقت لاحق، لاحقاً علمت بأن القصة ضمّت مجموعة كاملة من الأصدقاء الذين عملوا في القضية سويّةً.

بعد أيام عديدة بدأت تتكشف القصص ورحت أحضر بانتظام اجتماعات الأصدقاء في منزل طليقة أخي، ليال خانم، وراحت الأمور تتضح رويداً رويداً حتى جاء ذلك اليوم الألطف، أيّ منذ يومين، إذ إن الظريف رامي، الشاعر الشريد، أو الصعلوك المهذب، قتل الصموأل ففتح بوابة للجحيم.

بعد يومين من مقتل الشاعر السكير غفوت على أصوات صراخ الجيران، اكتشفت بعد دقائق من التنصت، وهي عادة قديمة ملاصقة لي منذ الصغر، بأن العريس الذي قضى ليلة دخلته البارحة قد اكتشف بأن عروسته قد خسرت غشاء البكارة في جولة سابقة، فهاجت أصوات العريسين وبدأ المتخلف بضربها وشتم عائلتها، إذ إنها لاذت إلى الشرفة التي تلاصق شباك غرفة نومي، وفجأة كأني سمعت اسمي يلفظ على لسان العريس وقد ألحقه بالجملة التالية:

- ناقصنا شرموطة تانية بالبناء

ثم ضعف صراخها وغدا بعيداً، وكأنها استطاعت أن تباغته وتهرب خارج المنزل ثم فجأة سمعت صوت دق الباب، وبعد دقيقة واحدة انفجر الجار بالصراخ وقال كالمجنون وهو يدق على باب منزلي:

- طبعاً القحبة لا تلفي إلّا على قحبة

وهكذا انتقل الشجار إلى الممر أمام باب شقتي، وبعد دقائق توقف الطرق ثم تلته ضربة قوية أعتقد أنه صوت ضرب رأس العروس بالباب وبعد لحظات عمّ الهدوء إذ تدخل الجيران في فض الخلاف، ولم تمضِ دقائق حتى أتت الشرطة واختفى الجار في بضع ثوانٍ.

بعد خروجي إلى الشرفة لألقي الوداع على جارنا الجديد عدت إلى سريري وخلدت إلى النوم، في صباح اليوم التالي، أعددت إبريقاً كاملاً من القهوة اليمنية ثم جلست خلف مكتبي ممسكةً دفتراً وقلماً وبدأت أحضر خطة للأسبوع القادم، زيارة طبيب الأسنان، مراجعة المحامي أنا وسوزان، زيارة المزارع للتشييك على محاصيل البطاطا، كنت ساعتها منهمكةً جداً في تحضير الخطة فقاطعني اتصال حازم.

- مرحبا

- أهلاً أستاذ حازم.. الحمد لله أنك تذكر أن عندك أخت

- الوقت غير مناسب للعتاب فأنت تعلمين المصائب التي حصلت.. ومنذ يومين حصلت الواقعة الأهم ولهذا حان الوقت كي تستعدي

- واقعة!.. أية واقعة؟!

- قتل أخوك العزيز رامي الصموأل

- الصموأل!.. الصموأل المشهور؟.. الصمو

- نعم نعم هو.. الصموأل.. المهم.. لا وقت لنضيعه.. نحن في مدينة الرحيبة وقد أرسلت جورج الصبّاغ كي يقلّك إلى المزرعة.. وبالمناسبة

- بوجود وقت أو عدم وجود وقت.. أنا لا أتلقى الأوامر منك.. وعليك ألا تتصرف بنفسك

قاطعته بصوتٍ أقوى من صوت جاري الموتور، فأردف قائلاً:

- أنا في مزرعة فراس الفرّان الآن

- مزرعة فراس الفرّان؟!.. في المكتبة الأم؟!!

- نعم نعم.. في المكتبة الأم

- إذن فقد غدوت.. (لكنه قاطعني)

- نعم نعم

- إذن أخبر السائق أني في منزل سوزان

- لا بأس سأخبره.. أبلغي تحياتي لسوزان

- بالتأكيد

أغلقت الهاتف ثم عدت أكمل العمل على الخطة، غداً بعد عودتي من مزرعة فراس الفرّان، هذا إن تمكنت من العودة غداً، عليّ زيارة مزرعتي الخاصة في صيدنايا، صحيح بالمناسبة أنا مهندسة زراعية أملك شركة كبيرة نوعاً ما، كما أعتقد وأتفاخر أمام الجميع، تمتلك هذه الشركة عشرين مزرعة في أرجاء سوريا وتراخيص تصدير واستيراد للعديد من المنتجات مثل القمح والقطن، بعد زيارة المزرعة عليّ أن أقابل سوزان في مكتب المحاماة كي نراجع أوراق

القضية المرفوعة ومتابعة موافقة زواج المثليين، ثم سأعود إلى المنزل لأجهز نفسي لحضور حفل زفاف صغير في باب توما، بعد أن أنهيت كتابة الخطة أعددت حقيبة صغيرة وارتديت ملابسي وانتظرت، وبعد ساعة من اتصال أخي وصل جورج، حملت الحقيبة وخرجت.

على باب الشقة رأيت كالعادة ورقة بيضاء كبيرة معلقة كتب عليها:

- هنا تسكن القحبات

أمسكت الورقة وقد زادت من ابتسامتي الصباحية التي لا تقاوم، ثم عدت بها أدراجي حيث يقبع مكتبي الخشبي، وضعتها مع باقي المجموعة وانطلقت إلى جورج.

المزرعة

(حازم قهوجي)

أمام بوابة كبيرة توقفت المركبة، انتظرنا حتى يتعرّف جهاز الاستقبال على الهويات ثم فُتحت البوابة على مصراعيها، تنقسم المزرعة إلى قسمين واسعين يفصلهما خط الفرات العرضي الثالث، عبرنا البوابة وسرنا إلى أن قطعنا ما يزيد عن كيلو متر داخل المزرعة، أحاط الطريق الداخلي بصفوف متتالية من دوالي العنب التي تشتهر بها المنطقة، عنب أحمر كبير الحجم حلو الطعم، بعد مدة وجيزة وصلنا حيث يقطع الخط الفرات المزرعة، وقد عبرنا الخط من طريق جسر مخصص للمركبات، ثم سرنا ما يزيد عن مئة وخمسين متراً حتى وصلنا إلى موقف للسيارات بالقرب من الفيلا.

كان في انتظارنا صديق والدي فراس الفرّان، يقف مرتدياً بدلة تعود إلى ثمانينيات القرن الماضي على حسب ما اعتقدت وهو يحمل عصا من خشب الصنوبر مطلية بلون بني غامق كما توقعت، هبطنا من السيارة على أصوات ترحيبه الشديد والمتقن والملفت، ثم قادنا إلى داخل الفيلا، التي رجع بأن تسمية قصر أنسب إلى الحقيقة والواقع.

علّق على أحد الحوائط داخل البهو الكبير الذي يحتل مساحة كبيرة من القصر صورة كبيرة لرجل يرتدي بدلةً تشبه البدلة التي يرتديها فراس بيك، وقد رفع الرجل عصا اكتشفت لاحقاً بأنها العصا نفسها التي يحملها فراس.

وقف المضيف أمام اللوحة ثم قال لي بفخر كبير:

– هذا جد جدي توفيق بيك الفرّان.

– الله يرحمو.. ولو.. غني عن التعريف.. من لا يعرف توفيق بيك أو أخوه رشيد بيك الفرّان.. وأخص بالذكر بالطبع دورهم الكبير في التأسيس

– بالطبع.. بالطبع.. شكراً للطفك.. تفضلا من هنا من فضلكم.. أمّا أنت يا جورج فمهمة جديدة بانتظارك.. السيدة لانا تنتظرك في المطبخ.. تفضّلا.. أهلاً وسهلاً

قادنا فراس إلى غرفة مكتبه، مكتب خشبي يتربع داخل غرفة ضخمة عالية تقع في الطرف المقابل لباب القصر، عبرنا البوابة بسعادة لا توصف فنحن، أنا وأخي رامي، على وشك أن نشاهد معلماً من أهم المعالم التي لا يسمح إلّا للقليل منّا بأن يراها.

– إنها المكتبة الأم إذن

- بالتأكيد .. تفضلا اجلسا

- شكراً لك

أضاف رامي بعد أن فضّل الصمت منذ وصلنا.

على يمين الباب إلى الأمام تقبع منضدة اجتماعات صغيرة مع أربعة كراسي خشبية تحيط بها، جلسنا أنا ورامي بعد أن أشار فراس لنا بذلك ثم استأذن وغادر، ما إن غادر حتى وقفت وبدأت أحدّق في الكتب الكثيرة التي تتجاوز حسبما قال لي والدي المئة ألف، كنت أقترب منها محاولاً قراءة عناوين الكتب الموجودة على الرفوف دون أن ألمسها.

لم تمضِ دقائق حتى قاطعني أخي، قائلاً:

- تستطيع قراءة ما شئت.. لمَ الحياء؟!

- لا حياااء.. لا حياء يا رامي.. ولكني.. ولكني أفكر أن أرشح نفسي كي أكون الوريث لهذه المكتبة.. ما رأيك؟

- أعتقد بأن وضعك مؤهل جداً لتكون الوريث القادم.. ولكن عليك أن تكسب العديد من الأصوات

- نعم نعم.. هذا ما سأبدأ بفعله

- صوت قيس بالتأكيد سيكون لك.. ولكن دعنا ننتهي من قصتنا اللعينة أولاً

- بالتأكيد

أنهيت كلمتي ثم عدت إلى شرودي، في هذه الأثناء نهض رامي واتجه إلى المكتب، جلس خلفه وأخذ لفافة سجائر موضوعة على صحن السجائر ثم

أشعلها وبدأ يدخن بهدوء لم أعهده من أخي، حتى أنه لم يبتسم، بعد ثلاث سجائر متواصلة فُتح الباب ودخل فراس.

- سيد رامي.. جورج في الخارج ينتظرك

- بالتأكيد

غادر رامي، ثم جلس فراس قبالتي، أخرج علبة سجائره، دخن سجارة بصمت مطبق ثم بدأ يكلمني.

- المشاكل لا تنتهي

- بالتأكيد.. والأفضل أن نواجهها نحن في وقت مبكر.. حتى ننتهي منها قبل أن تصبح كرة ثلج كبيرة جارفة

- حكيم.. رأي حكيم.. بالطبع هذا الذي يجري.. بالطبع

عاد إلى صمته بعد أن كلمني شارد الذهن وبعد لحظات أكمل يقول:

- بالمناسبة أعجبني كتابك الأخير

- فدرلة الثورة؟

- عنوان ذكي.. كتاب لا يوصف.. كل الأصدقاء فخورون بك

- هذا من دواعي سروري فراس بيك

- بالمناسبة أنت أحد المرشحين للتفرغ

- للتفرغ؟!

قلتها بسعادة حاولت كتمها

- بالطبع.. فأنت تستحق هذا الشرف

- شكراً لك

عاد الصمت، أشعل لفافة جديدة، دخنها وهو يفكر، ثم قال شارد الذهن:

- عندي دفعة كرمنتينة جديدة لروسيا والموضوع استهلكني كثيراً

- هل تعلم أنه في ثمانينيات القرن الماضي اعترض السوريون على إرسال الكرمنتينات إلى جوعى الاتحاد السوفيتي.. اييييه.. أمّا الآن فقد اختلف الموضوع.. يجب أن نساعد الروس

- بالتأكيد.. دولة صغيرة والبرد يأكل أهلها.. والثورة أنهكتهم.. علينا أن نساعدهم

- ولكن عندنا من المشاكل ما!

- هذا دورونا يا حازم.. دورنا

- بالتأكيد.. أعتذر منك

عاد فراس إلى شروده وأفكاره وقد كنت منهمكاً بإخفاء خجلي من اعتراضي له، وبعد لحظات أكمل حديثه وكأنه كان ينتظرني أن أتمالك خجلي، وقد أضاف لحظتها بحزم بعد أن طرد الشرود بطريقة غريبة:

- مشكلة قيس معقدة ولكنها كانت ضرورية حتى ننتهي من الشمس نهائياً، الخطر الذي وضعنا قيس فيه ضروري، وقد وافق، ولكن تطورت الأمور بعد أن أقدم رامي على قتل الصموأل، وسوف نناقش هذا الموضوع في وقت لاحق ولكن الآن علينا أن نزيد من تحركاتنا وانتشارنا حتى ننتهي من القصة..

نحن في المراحل النهائية والمتبقي فقط الإيقاع بها.. ومن ثم ستنتهي حقبة ما بعد السنوات العشر نهائياً وندخل مرحلة جديدة

- بالتأكيد

- نعم بالتأكيد.. (ابتسم فراس ثم أردف) أرسلت رامي في مهمة.. ونحن بحاجة إلى ديما أن تكون معنا هنا.. جورج الآن في الطريق ليحضرها.. أمسك هذا الهاتف واتصل بها

ثم رفع هاتف نقال في وجهي، أمسكته وطلبت رقم ديما وانتظرت الإجابة، طلبت منها القدوم إلى المزرعة حالاً ثم أعدت الهاتف له.

أغلقه وأعاده إلى جيبه ثم باغتني بسؤال مفاجئ وابتسامة خفيفة تزيّن محياه:

- ما أخبار سوزان؟

- جيدة

- والدك صديق مقرب جداً.. نحن لا نعمل كالمخابرات.. لا تقلق

- بالتأكيد

- لانا بانتظارك في المطبخ

- شكراً لك فراس بيك

أومأ لي برأسه لحظة شكرته ثم أخرج سيجاراً من درج المنضدة وأشعله في أثناء مغادرتي.

***

إعلان الحرب

(قيس قهوجي)

في عام 2025 أعلنت هدنة شاملة في سوريا، لكنها لم تشمل مناطق سيطرة التنظيمات المصنفة إرهابية، ثم أعلنت هدنة كاملة عام 2026 بعد أن أعلن الرئيس الأمريكي انتصاره على الإرهاب بالكامل، بالمناسبة أنا الآن أجلس في منزلي الصيفي أيّ قبل ثلاث سنوات من اجتماع رامي وحازم، أولادي، مع فراس الفرّان، أجلس الآن وأنا أحتسي فنجان شاي مع منظر غروب شمس رائع أمام حديقة عظيمة من الورود كثيرة الألوان والأنواع، أجلس منتظراً رامي كي أنقل له مهمته في الحرب الجديدة.

المهم، في عام 2026 أعلنت الأمم المتحدة انتهاء الحرب في سوريا بالكامل، ثم بدأت مرحلة انتقالية جديدة، كانت تشترط المرحلة بقاء الأسد رئيساً ذو صلاحيات تشريفية كما سمتها وزارة الدفاع الروسية حتى عام 2028 أي انتهاء رئاسته، ثم سيتم الإعداد لانتخابات رئاسية جديدة ستكون تحت مراقبة الأمم المتحدة وبإشراف مباشر من روسيا وأمريكا بوصفها دولاً مفوضة من الأمم المتحدة.

وقد جرى تأجيل الانتخابات أكثر من مرة لأسباب مختلفة، منها مفتعلة ومنها حقيقية، حتى جرت عام 2030، ثم...

لقد رن الجرس وفتح الباب مباشرة، وصل الصبي.

- مرحبا بابا

- مرحبا مسيو رامي.. اعتقدت بأنك لا تحمل المفتاح

- من سابعة المستحيلات أن تعتادنا.. ما الأخبار؟

- جيدة.. اجلس.. تشرب شاي؟

- وسكي

- شاي؟

- اي.. بشرب شاي

صببت له الشاي ببطء شديد وأنا أراقب بانزعاج لفافة التبغ التي أشعلها، ثم أكملت شرب الشاي دون أن أنطق بحرف واحد، حتى بدأ يتململ، إلّا أن قاطع الصمت.

- ما القصة؟

- ما القصة

قلت الجملة شارد الذهن وأنا أهزّ رأسي، ثم نهضت على قدمي قاصداً الحديقة، أحضرت وردة جورية ووضعتها داخل فنجان من الماء، ثم جلست وأنهيت احتساء الشاي ونظرت إلى عيني رامي بعيني أعتقد بأنهما كانتا تلمعان كشمس لاهبة.

- أأنت مستعد حتى ننتهي من العلاك؟

- بالطبع.. ولكن أيّ نوع من العلاك؟

- جبهة الأحزاب العشرين

- جبهة الأحزاب العشرين!.. هل تقاطع سفري إلى أوروبا.. من أجل الدخول في جبهة ضد هذه الجبهة!

- وما المانع؟

- الجبهة تعمل سوية منذ خمسين عاماً ولديها علاقات جيدة.. لا لاا.. ابحثوا عن طريقة أخرى

- المهم أريد منك أن تعمل على

- يعني ممنوع الاعتراض

- طبعاً ممنوع.. أريد منك أن تتابع العمل على اختراق ثلاثة أحزاب منهم.. حتى نستطيع أن نسحب ترخيص حزب واحد على الأقل

- اختراق!.. وعلى الأقل.. من صاحب هذه الفكرة الذكية؟!

قال رامي الجملة ساخراً بعد أن أمسك لفافة تبغ جديدة، وبدأ كعادته السخيفة يصدر همهمات لا معنى لها، فقاطعته:

- سخيف

- من صاحب الخطة؟!.. مستحيل أنت

- أووووف.. أتمنى أن أكون أنا

فانفجر الملعون ضاحكاً لحظتها، لكنني قاطعته قائلاً:

- فراس الفرّان

- فراس الفرّان!.. فراس فراس

- نعم فراس

- طبعاً أنا وأنت من سيتورط في القصة

- نحن وآخرون.. القصة كبيرة

- هذا اختراق خصوصة.. خصوصية.. أوراق.. مكاتب.. تنصت.. دون إذن حكومي.. ستنهي مستقبلي وووو.. مستقبلك

ضحكتُ حتى تلامس طرفا فمي، ثم أضفت قاطب الحاجبين:

- تقصد آخرتي.. أنا نهايتي ستكون سوداء إن مت والشمس لا تزال ممسكة زمام الأمور.. سنعلن حرباً سريّة حتى إشعار آخر

اقترب رامي مني ثم قال بصوت منخفض هادئ ساخر:

- وأنا سأكون في الواجهة كالعادة.. ما؟!

- شبكة ستمسك بها أنت.. من أصدقاءك الصعاليك.. ولك لعمى.. تفه.. لم أكن أتوقع بأنك جبان لهذه الدرجة

- لا لاااا.. بالعكس أنا أول المتورطين إذا أردت.. ولكن من أجلك فقط لا غير

- تمام.. اذهب إلى لانا الخطيب.. هي بانتظارك في النادي

- لانا الخطيب؟.. ومن لانا الخطيب هذه؟!

- السكرتيرة الأولى

- عم تمزح.. السكريتيرة الأولى!.. يا ويلتاه.. تبدو القصة كبيرة جداً.. أنا ذاهب إلى اللقاء

- مع السلامة.. بانتظار أخبار جديدة

نهض رامي وهمّ بالمغادرة لكني صحت قائلاً:

- بالمناسبة الحرب ستكون على ثلاث جبهات.. فلا تقلق

فنظر إلي رافعاً رأسه بثقة جبل لا يخشى أية ريح قادمة، ثم قال ساخراً:

- وأنا كالعادة في الواجهة وحيداً

- كلنا سنكون في الواجهة

لم يجب اكتفى بالابتسامة الساخرة المعهودة، وكأني استشعرت قلقاً منه، ثم رفع يده مودعاً وغادر.

المهم فلنعد للموضوع الأول، انتهت الانتخابات الرئاسية الأولى دون مشاكل تذكر، ثم ظهرت النتائج في أول عام 2031، في البداية كان عدد المرشحين يزيد عن العشرين، ولكن تنافس في النهاية مرشحين اثنين، جميل القادري وقد كان مدعوماً من روسيا وايران مقابل سليم الحمصي المدعوم من أمريكا وبعض دول أوروبا.

خسر جميل الانتخابات أمام سليم الحمصي ونتيجة لذلك رفض النتيجة وطالب بإعادة الانتخابات، لكن الإعادة رفضت، وبعد الرفض بأسبوع قُتل سليم الحمصي بانفجار سيارة مفخخة وأعلَن بعدها جميل عن تشكيل حكومة مؤقتة بوصفه رئيسًا طبيعياً للبلاد بعد مقتل الرئيس المنتخب، وقد اتخذت

الحكومة القادرية، كما أحب أن أسميها، مدينة اللاذقية مقراً لها مدعومة من الوجود الروسي القوي في المنطقة، وبعد شهر شكلت حكومة موازية لحكومته في دمشق برئاسة صبري كريم نائب الرئيس الذي تقلد منصبه قبل مقتل سليم بأيام.

اعترفت الأمم المتحدة بحكومة دمشق، لكنّ هذا الاعتراف الهزيل والمخادع لم يحلّ المشكلة السياسية في سوريا، وهكذا انقسمت البلد إلى ثلاث فدراليات كبيرة بعد أن كانت مقسَّمة إلى سبع فدراليات بعد الحرب الأهلية، ولاية في شمال شرق البلاد رفضت التورط في الحرب التي لاحت في الأفق، فأدارت منطقتها بنحو منفصل مع الإبقاء على علاقات تضمن مصالح الأقاليم الثلاثة، وولاية تابعة لحكومة دمشق والثالثة لحكومة اللاذقية، ورغم التصريحات والبيانات الواضحة والصريحة التي أعلنتها الدول للاغتيال السياسي لسليم الحمصي ووقوف الدول مع حكومة دمشق واعترافها بها، فإن دول العالم انقسمت وراحت كل منها تدعم الإقليم الذي يناسب مصالحها ويحقق لها ما أردات كما جرى في الحرب السابقة.

في تلك الأزمة رفضت قيادة الجيش التدخل في الصراع، فاعتزل الجيش السوري السياسة لأول مرة في تاريخ البلد، تقريباً، فتحولت الحرب التي كانت متوقعة أن تكون مليشيوية إلى حرب مخابراتية بامتياز، فانتشرت الحواجز بين الأقاليم وداخلها، وكثرت التفجيرات وشاع الخطف والتشويش والتحقير، وبدأ الطرفان يقتلون ويصفون القيادات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وقد جرى كل ذلك دون حرب معلنة واضحة، اجتماعات سياسية نهاراً للوصول

لحل ما، حكومة مركزية واحد تعترف كل الأقاليم بها، وبعد كل اجتماع فاشل عملية اغتيالات ليلية ناجحة.

خلال هذا الصراع تشكّلت أفرع مخابرات جديدة بعد أن انقسمت القديمة إلى أحد الطرفين، وقد كان لهذه الأجهزة الدور الأبرز خلال هذا الصراع الذي سمي فيما بعد صراع السنوات العشر، وقد دامت الحرب حتى انتهت باغتيال جميل القادري عام 2040 بعملية جرت في ظروف غامضة لم تكتشف حتى يومنا هذا.

بعد عملية الاغتيال العجيبة تشكل مجلس وطني سريع قام بعزل أعضاء الحكومتين، وكأنه حل جاهز أخفته دول العالم كما حدث في الحرب الأهلية حتى حققت هدفها، ثم شُكلت حكومة وطنية حافظت على استمرار الفدرالية التي دفعت أميركا للإبقاء عليها ضمن الظروف التي أنشأتها من أكثر من خمسة عشر عاماً.

بعد انتهاء الصراع، أعلنت الحكومة الجديدة عن تعديل دستوري جديد، بعيداً عن ضغوطات الروس القديمة الرافضة للتعديل الدستوري، فأعلنت عن إلغاء الصلاحيات التي حازت عليها الأفرع الأمنية مسبقاً، فحولت صلاحياتها إلى...

رنّ الجرس مرة ثانية، هذا أكيد فراس الفرّان، سأكمل لاحقاً.

....

الجبهة الأولى

(رامي قهوجي)

استمعت ساعة كاملة وكلي آذان صاغية للسيدة لانا الخطيب، السكريتيرة الأولى. راحت تشرح لي تفاصيل الخطة، ورحت أنا وبكل صدر رحب أحرك رأسي دليلاً على تفهمي وقناعتي وسعادتي، إلّا أن سألتني عن رأيي، فقلت لها بكل وضوح:

- لكني لا أريد أن أعمل داخل منزلي.. على الأقل أريد مهمة مختلفة.. ممكن أن ألتحق بأحد الأحزاب العشرين.. مثلاً؟!.. ما رأيك؟

أول الأمر لم تجبني، بل أشعلت لفافة تبغ وانشغلت بمضغ قطنتها وهي تسحب الدخان منها في الوقت نفسه، عليّ أن أكون صريحاً، لم أرَ طريقة للتدخين أظرف من طريقتها، وبعد أن أطفأتها، قالت لي بصوتها الجاف:

- لا لاا لاااا.. الخطة أقرّت ولن تتغير.. وأنت عليك أن تكون بعيداً عن الواجهة.. نعم بالتأكيد أنت شجاع وتحب المغامرات وأنا عندي علم بهذه التفاصيل وتفاصيل أخرى.. وكل هذه الأمور واضحة.. ونحن في المجلس الأول نشكرك كثيراً لكل ما قمت به مسبقاً.. لكن هذ الموضوع نهائي ولا رجعة عنه.. فأنت معروف الوجه والتوجه ولا ينقصنا أية ثغرة.. سنوات ونحن نعدّ للخطة.. فهل الأمر واضح؟

- ولكن أنا!

- ولكن أنت ماذا!..

أجابتني بغضب شديد وصوت مرتفع، ولكنها عادت على الفور لصمتها، ثم ابتسمت ابتسامة صفراء زادت من تعكير مزاجي، ثم أضافت بصوت هادئ متزن:

- الخطة موضوعة ولك دور واحد وصريح.. لك الحق في أن تضيف وتعترض ولكن على أن تكون ملاحظاتك جيدة وتخدم الخطة.. ولذلك أدعوك بصدر رحب لدراسة الخطة بنحو أفضل ثم تعال وناقشني.. أنا متأكدة بأنك ستغير رأيك عندما تتعمق في قراءة الملفات المخصصة لها.. ولا تقلق فلا استغناء عنك أبداً.. وانتبه جيداً أي غلط قبل أن نحرز التقدم

- سيودي بي إلى السجن ثم سأجرد من حقوقي المدنية لسنتين

- وهكذا لن تستطيع الذهاب إلى حمص متى شئت

"الملعونة وما أدراها؟!" قلت في نفسي، بعد أن أنهت جملتها بابتسامة صفراء جديدة.

- المهم

قالت كلمتها ثم عدّلت من وضعية نظارتها الطبية، وأكملت تقول:

- عليك أن تنجز المهمة في غضون ثلاث سنوات

- أوووف ثلاث سنوات؟!

- أخرج من دمك عجلة الشباب كي تحقق ما تريد وما نريد.. (ثم تنهدت وأكملت).. نعم ثلاث سنوات.. اعمل على مهل أنت والشباب ريثما نشعل الجبهتين الثانيتين

- التي هي؟

- التي لا علاقة لك بها

ثم أخرجت لفافة تبغ جديدة، أشعلتها ونظرت إلي بابتسامة صفراء ثالثة، وقالت:

- كن بخير رامي قهوجي

- إلى اللقاء

ودعتها وأنا أقول في نفسي:

- يا لوقاحة جيلهم.. على الأقل نحتسي شاي.. أو ادعيني مجرد دعوة عابرة.. قال شو "كن بخير" دون حتى مقدمات.. تقليعة محترمة.. يا عيب الشوم.. لكنها تبقى صديقة.. لا بأس

خرجت من النادي الثقافي الدمشقي متجهاً إلى الشقة المخصصة للإقامة بها خلال السنوات الثلاثة القادمة، تقع الشقة في داريا، في برج يبلغ ثلاثين طابقاً وقد كان مقري في الطابق الأخير.

في الشقة انتظرت قدوم الشباب الثلاثة، في أثناء الانتظار أعددت قهوة يمنية ثم جلست خلف مكتب خشبي موضوع في غرفة مليئة بالكتب، جلست خلف المنضدة ثم بدأت أدرس ملفاتهم قبل وصولهم.

علاء الحمصي، شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، عضو في مكتب التخطيط والإعداد في الحزب العربي منذ عشر سنين، ذو ثقة كاملة بين

أعضاء الحزب وبدأ منذ عام في العمل داخل صفوف الحزب التنظيمية الأولى.

إبراهيم الطويل، شاب في الثلاثين من عمره، عضو فعّال في حزب الجمهور منذ سبع سنوات ويعمل في مكتب الدعاية الحزبية، وله رصيد كبير عند الهيئة القيادية في الحزب، وقد استطاع أن يكون مسؤول الشباب الأول لديهم.

بتول السمكري، عمرها تسع وعشرون عاماً، عضوة في حزب سوريا المستقبل، تعمل باحثة في مكتب الدراسات والأبحاث، القسم الذي ينتج عشرات الدراسات التي يستحي المرأ أن يُرى وهو يقرأها، وقد رشحت منذ أربعة أعوام للانتخابات البرلمانية لكنها انسحبت من الانتخابات بعد تعرضها لحادث سير.

بالطبع كل ملف يحتوي على عشرات الأوراق، مثلاً علاء الحمصي خريج علوم سياسية، ذكي جداً، حائز على ثلاث شهادات ماجستير، له رواية كُتب على الهامش أنها فاشلة لم يبع منها سوى طبعة واحدة ثم اشترى حقوق التعديل كاتب آخر، إبراهيم الطويل خريج إعلام وصناعة تلفزيون، طويل، طويل وما أهمية هذه المعلومة، يجيد "الكيك بوكسينغ" توج مرة واحدة بطلاً للجمهورية وشارك في بطولة العرب لكنه تلقى هزيمة مخجلة في أول مبارياته فاعتزل القتال إلّا في ليلة شتوية ممطرة أمام بار في باب توما حيث اشتبك مع خمسة أشخاص أدماهم وخرج كالفحل من بينهم، كالفحل!! من صاحب هذا الخط السيِّئ والنفسية الجيدة، أمّا بتولاية الجميلة خريجة علم اجتماع، تجيد خمس لغات حيّة، وواحدة تحتضر ولكن المعلومة لم تكتب بالطبع هذه من عندي، المهم، لها بحث نشر خارج الحزب في مجلة محكَّمة فنالت عقوبة

من الحزب كونها نشرته خارج منصاتهم وباسمها الشخصي، ثم عادت ونشرته في المجلة الحزبية باسم رئيس الحزب، طبعاً بعد أن أجرِيت عليه بعض التعديلات، التي يعتقد صاحب التقرير المرفق في ملف بتول، بأنها ليست من أجْرَتْها... جميل، وبالطبع لديهم صفة مشتركة، كلهم أصدقاء من الجيل الثاني، ولهذا أنا الأصغر بينهم أحظى بقيادة الفريق.

- كم أكره هذا القانون لكنه سيعدل بعد عشرين عاماً وهذا شيء ممتاز.

قلت الجملة بصوت عالٍ قاطعه رنين الجرس، نهضت نحو الباب، وما إن فتحت الباب حتى رأيت أجمل سيدة في التاريخ السوري المعاصر، هي كما يقولون "قم يا قمر حتى تجلس هالحلوة في مكانك"، سيأتي الوصف لاحقاً فالجماعة صاروا في صدر البيت.

- أهلاً بالشباب.. دعوني أتوقع.. أكيد أنت بتول

- ذكي ما شاء الله

قالت لي بتول مع ابتسامة ساحرة، لكنها لا تدري بأني تقصدت هذه النكتة السمجة كي أكتشف أهي ذات ابتسامة فاتنة أم عليّ ألّا أتخيل مستقبلاً جميلاً لنا، وأريد ممن سيراجع إفادتي في ملف القضية ألّا يحذف شيئاً منها عند النشر العام، وشكراً، المهم، أكملت أقول:

- أمّا أنت فإبراهيم الطويل كالكنية.. وأنت علاء

- صحيح

أجابني إبراهيم، ثم أردف:

- فلنبدأ العمل سيد رامي

- رامي حاف.. قهوة؟

- بالتأكيد

وتحب القهوة بتول الجميلة، أعددت القهوة على عجل، ثم عدت إلى المكتب حيث ينتظرني الجميع، جلسنا متحلقين حول منضدة للاجتماع تشبه التي في مكتب فراس في المزرعة التي سأزورها بعد ثلاث سنوات من الآن للمرة الثانية، المهم، وفي لحظة دخولي ألقيت بيتاً من قصيدة عصماء:

- لا تُطبقي عينيكِ.. إني كم قُتِلْتُ.. ولم أزَلْ؟!

- حسين جيرود؟.. (قال علاء متردداً من صحة معلومته)

- أحسنت.. الشاعر العظيم حسين جيرود.. المهم.. جمعتكم الآن لنعلن الحرب.. وفي لحظات الحرب التضحيات كثيرة.. لذلك

ثم نهضت على قدمي وابتعدت، نظرت من النافذة ثم عدت وأكملت بصوت عالٍ متكلماً وكأني ألقي شعراً:

- في الحروب.. إياك من التقاعس.. فالضحية الأولى من نصيب الطرف الخاسر

- حسين جيرود بالتأكيد.. (قال علاء الجملة بسعادة المنتصر)

- لا.. هذا أنا.. المهم.. لنا أصدقاء في كل الأحزاب.. وبالطبع لنا في كل حزب من جبهة الأحزاب العشرين عضو داخل الحزب.. والآن نحن بحاجة إلى العمل معكم على فتح جبهة مع الشباب الطيبة

– وباقي الأحزاب العشرين؟.. (سألتني بتول)

– أنتم الأصدقاء الوحيدون الذين نلتم مرتبة عالية وثقة مع هذه الأحزاب من ضمن الجبهة

– وعادل القائد؟!.. رئيس الحزب الديمقراطي

– الأصدقاء في الأحزاب التي خارج الجبهة هم أعضاء حقيقيون وفعّالون في أحزابهم.. المهم

ثم بدأنا الكلام الفعّال، قمت بتوزيع مجموعة من الأوراق على الجميع، ففي كلّ ملف من ملفاتهم مجموعة أوراق كتب فيها مهمة محددة وجدول للتوقيت الزمني اللازم لكلّ خطوة على حدة، وزّعت المهمات، ثم أمضينا شهراً كاملاً نناقش الخطة والتفصيلات في منزلي الواقع في داريا.

الجبهة الثانية

(قيس قهوجي)

أعلن الجرس قدوم الصديق الوفي، فراس الفرّان، المخطط الأول، والعقل المدبر لكل شي، رجل أعمال كبير، رجل أعمال أباً عن جد، صديق من الجيل السادس، أعرق الأجيال وأقدمها، سيكون المسوؤل عن الجبهة الثانية، كان يقف أمام منزله مرتدياً بدلة الحرب التي ارتداها جده رشيد بيك الفرّان عندما أحضر ابن أخيه ممدوح الفرّان من المعتقل، في ثمانينات القرن الماضي، لا أدري كيف استطاعت بدلة قديمة أثرية كهذه أن تنجو حتى الآن، أشار لي بعصاه الخشبية ثم دخل دون أن يلقي أو ألقي السلام.

- قرأت كل الملفات؟!

- طبعاً

قال جملته بعد أن جلس على الكرسي الذي غادره رامي لتوه، ثم بدأ بسكب كوب شاي، ارتشف منه رشفة ثم قال:

- عليك أن تتأكد من كل شيء.. كل الخطوات يجب أن تكون دقيقة بدقة محرك ساعة سليمة التوقيت

- بالتأكيد.. بالتأكيد

- عليك أن تمسك الخيوط من جميع أطرافها.. وهذه ستكون قوة الخطة ومتانتها.. سننتظر الآن قدوم فؤاد ثم سنكمل الحديث

- فلننتظر

- الشاي بارد.. (قال فراس جملته ثم أبعد الكوب عنه)

- شاي جديد أم قهوة؟

- قهوة

- دقائق وسأعود

سأكمل من حيث توقفت ريثما يصل السيد فؤاد بكر.

بعد نهاية صراع السنوات العشر أعلنت الحكومة الجديدة عن تعديلات دستورية تقوّض سلطة الأفرع الأمنية، التي كان لها اليد الطولى في الخراب الحاصل، حصل التعديل بعد صراع آخر؛ فقد حافظت أفرع المخابرات على

رجال أشداء داخل مؤسسات الدولة مقابل أعداء قلائل، فلم يتمكن مؤيدوه من إغلاق الأفرع وإلى الأبد، ولم يتمكن معارضوه من رفض تمرير التعديل وإبطال القرار الذي رافقه حراك سلمي في شوارع المدن والقرى، فكان الإبقاء عليها ضمن ظروف تحمي الحقوق العامة للمواطن السوري ضرورة لا رغبة.

وعلى هذا الأساس تحولت إلى أجهزة أمن محدودة الصلاحيات ذاتية الإنتاج، أو فلنقل وبنحو أكثر دقة وكأن الفرع غدا مؤسسةً خاصةً يمتلكها شخص أو مجلس إدارة، فحددت مهام الفروع وقوننت لتكون ضمن حدود ثابتة نصّ عليها الدستور، وهكذا شُكلت لجنة انبثقت عن مجلس النواب مكونة من خمسين عضواً، عضو واحد عن كل حزب أو جماعة أو تيار إضافةً إلى عشر شخصيات مستقلة، مهمة اللجنة إعطاء الترخيص أو إلغاؤه بعد جولة تصويت في جلسة مغلقة داخل مجلس النواب، وكأي قانون كان؛ فقد وضعت بنود عدّة تراقب عمل الفرع؛ فإذا خالف أحدها فستسبب المخالفة بسحب الترخيص منه ومصادرة جميع أملاكه وإلغاء كلّ عقوده وأعماله.

وهكذا ولكي تحافظ على وجودها واستمراريتها عملت أجهزة الأمن على مدار سنوات طويلة على تأمين عقود تجارية حكومية، ووسعت شبكة علاقات مع تجار ومسؤولين، فقدمت خدمات للحكومة مقابل عقود محدودة، خدمات أمنية وحماية مؤسسات وحقول نفط.

بعد الثورة السورية وصراع السنوات العشر تحول رؤوساء أفرع المخابرات إلى رؤساء شركات أمنية خاصة، ثم وعبر السنوات إلى زعماء يمتلكون امبراطوريات لها تجارتها وعلاقاتها مع دول بنحو مستقل عن الجيش أو

الحكومة السورية، وهذا أساساً ما حافظ على وجودهما عبر السنوات التي لم تهدأ الأحزاب الوطنية والشخصيات المستقلة على مراقبتهم ومحاربتهم والتقليل من صلاحياتهم، وقد شكلت وزارة الداخلية السورية قسماً للتفتيش لمراقبة أعمال هذه الأفرع والتحقيق بنحو دائم من أجل سحب ترخيص الفرع، وبهذا أصبحت الأفرع خاضعة للدستور مع الأيام.

وانطلقت مرحلة جديدة بين الوطنيين وبين بقايا الأنظمة البائدة في سوريا، وقد استغلا أخطاء الطرفين والقوانين أو الثغرات الموضوعة في الدستور، ولنتكلم باختصار عن الأخطاء القاتلة لأي فرع أمن، أولاً استخدام عنف غير مبرر أو الكشف عن أي سجون سرية، ثانياً العمل ضد قوانين البلد أو ضد مصلحة البلد في الشكل الأعم للمخالفة، ثالثاً –وهو السبب الأكثر إسقاطاً لها– التخابر مع دول أجنبية والتعامل معها دون وجود عقد من الحكومة يسمح لها بذلك.

مع مرور السنوات بدأ الترهل يصيب المؤسسات التي انبثقت عن الأفرع القوية الجبارة، وأصبح إسقاطها أمراً يسيراً بعد أن كان أمراً يستحيل تحقيقه في الأعوام الاولى، فتساقطت الأفرع واحداً تلو الآخر حتى عام 2085، حيث لم يبقَ في الميدان سوى فرع مخابرات واحد يدار من قبل امرأة تُسمي نفسها "الشمس".

منذ سنوات ونحن نحاول إسقاط هذه الشمس اللعينة ومؤسستها، وللآن لم نستطع، فكما استطعنا أن نكتسب خبرة في إسقاطهم، اكتسبت هي خبرة في

الصمود في وجهنا، لا عمل مع دول أجنبية بنحو سري، عقود نظامية ضمن قوانين البلد.

استطاعت السيطرة على سوق العمل إلى حد كبير مخرجةً الكثير من الأفرع الأمنية من المنافسة حتى أعلن كثيرون عن إفلاسهم، سيطرت على زراعة القمح وتصديره، وأخذت ضمان أراض واسعة للدولة، تزرع بها الخضار والفواكه الموسمية، توزعها في السوق وتصدر منها ما أرادت، ونافست في ميدان الصناعة، واحتكرت لها عقود الحماية الأمنية وخطوط النفط، مستغلة في عملها علاقات مع تجار ورجال سياسة ومسؤولين في البلد ممن لا يزال مخلصاً للعقود السابقة من الفساد، ورغم القضايا الكثيرة التي استطعنا إمساكها على الشمس ورجالها لكنها لا تزال ضمن قانون التصرفات الشخصية التي لا علاقة لإدارة المؤسسة الأمنية بها.

ورغبة في تشتيت الشمس عن الجبهة الأساسية وتجفيف مصادرها المالية، أعلن فراس الفرّان أن الجبهة الثانية تكمن في السيطرة على عقود التجارة والتصدير التي تمتلكها الشمس ومحاولة تأميم عقود الحماية الخاصة بمؤسسات الدولة، وسيسعى إلى تحقيق ذلك بالتعاون والشراكة والتوحد في جبهة اقتصادية قوية مع الكثير من رجال الأعمال الذين أبدَوا استعدادهم للخسارة المادية مقابل تصفية أعمال الفرع المخابراتي الأخير.

وفي المقابل لعملها التجاري الأول، فقد استطاعت السيطرة، كما اعتقدت، على تجارة الحشيش في البلد، حتى الآن.

رنّ الجرس، يبدو أن فؤاد قد وصل، سأعود إليكم.

ساعة الصفر

(رامي قهوجي)

سنتان ونصف ونحن نعمل ليلاً نهاراً لنقل كلّ ما نستطيع نقله من أرشيف الأحزاب الثلاثة إلى شقتي حتى غدت مستودعاً مليئاً بأراشيف كامل للأحزاب تقريباً، كانت غالبية الوثائق لا قيمة حقيقية لها، وللأسف لم نستطيع استخدام أية ورقة أو معلومة في سحب ترخيص أي حزب منهم، ومع الأيام بدأ الإحباط يتسرب إلى الفريق، فقد بدا لنا أن العمل المضني الذي نقوم بلا فائدة، حتى جاء يوم خميس على غير عادة أي خميس آخر خلال الأشهر السابقة.

إنه يوم الخميس، منذ أشهر طويلة فقد هذا اليوم طعمه كيوم يخرج فيه الأصدقاء، وقد أمضيت أيام الخميس كلها، كاملة، أعمل دون كلل أو ملل، أنا الآن أجلس في شقتي أقرأ آخر الوثائق التي وصلتني، أوزعها وأؤرشفها بنحو صحيح ومأتمت، ولم يبق لي سوى ملف واحد وأنتهي، وقد اقترب منتصف الليل، وفجأة وقبيل أن أصرخ في وجه الكمبيوتر سعيداً بانتهاء العمل رنّ جرس المنزل، رفعت جسدي ومشيت بخطوات متثاقلة نتيجة خدر أصاب ساقي.

- مرحبا

- أهلاً بالفاتنة التي

- لا وقت للغزل الآن رامي بيك

- ولم هذا الوجه التعيس؟!

- لم؟!.. لم؟!.. لأننا وأخيراً عثرنا على ضالتنا

كلَّمَتْني أول الأمر بتعاسة امرأة تخلّى عنها حبيبها في مفترق طرق معتم، حتى أنني قرفت لحظتها من اللون الذي تضعه على شفتيها، على غير عادتي، ثم قفزت وهي تنطق بالجملة التي ابتدأت بها "لأننا وأخيراً".

- ما!! .. هاااا .. شوووو!!!

- ضالتنا

جلسنا خلف منضدة الاجتماعات ثم انتظرنا وصول علاء وإبراهيم، فقد رفضت البوح بكلمة واحدة قبل وصولهم، نصف ساعة كانت المنضدة مليئة بثلاثة وجوه مفتوحة الفم، منتظرةً أن يبدأ الوجه الرابع بالكلام.

- حزب الجمهور وكما هو مذكور في سجلاته يحتوي على نصف مليون عضو فعّال قادر على الانتخاب.. وهذا كما تعلمون يا شباب ما أعطاه الفرصة كي يفوز بثلاث مقاعد إضافية على حصته في الانتخابات السابقة.. ولكن.. ما أثار انتباهي عندما بدأت مراجعة الملفات.. ملفات الأعضاء

- راجعتِ نصف مليون ملف؟!.. (قالها علاء متحجر العينين)

- نعم الأمر بسيط لدينا دراسة كاملة عن كل شيء في الحزب حتى نستغل كل الأعضاء بأحسن وجه.. ولكن.. لدينا دراسات عن كل شي إلّا عن أمر واحد وهذا ما دعاني للاستغراب.. فشرعت أعمل.. وقد ذهلت.. ذهلت حدّ

الجنون عندما علمت بأن الحزب يمتلك أعضاء كثيرين تزيد أعمارهم عن الخمسة والسبعين عاماً

- كيف!

قاطعها إبراهيم، أمّا أنا فقد اضطررت أن أعود لأرشيف الاجتماعات التي نسجلها دائماً على كاميرا موضوعة بالقرب منا، فقد كنت لحظتها شارد الذهن أبحث عن أيّ عيب فيها، في بتول، ولا أدري لِمَ! فأنا فعلاً أحب هذه المهووسة بالعمل، ولكني أحب دائماً البحث عن عيب في المتحدث كي أسخر منه لاحقاً، ولكن أسخر دائماً بلطف، فمثلاً، إنها تلفظ حرف الثاء سليماً دون أن يؤثر ذلك في لهجتها، فهي تقوم ثور بدل تور، ثوم بدل توم، وبعد ذلك أنا أمسك العادة الخفية ثم أخبئها داخلي، لاحقاً أسخر منها حتى تختفي نهائياً، المهم، فلنعد إليها.

- تخيلوا لديهم أكثر من خمسين ألف عضو فوق المئة سنة.. لذلك بدأت أشك بالقصة.. فأخذت كاميرا وانطلقت إلى منزل أحدهم في حمص.. وبدأت أتقصى على أساس أني أقوم بصناعة تقرير عن أحد معمري الثورة السورية.. يعني تقريباً عمر الشخص مئة وعشر سنوات أي كان يبلغ عمره ثلاث وثلاثين عاماً عند اندلاع الحراك.. ولكني لم أعثر له على أثر.. هو يقيم في منزل في قرية تبعد ساعتين ونصف عن قريته الأصلية.. قالت لي ابنته بأنه في دمشق.. ذاهب للعلاج.. وأعطتني اسم المشفى.. ذهبت فلم أعثر عليه.. عدت إلى القرية وقمت بزيارة النفوس.. والأمور على أفضل حال.. على قيد

الحياة.. وبعد بحث طويل.. لم أعثر على أي شيء يدل على أنه ميت أو حي.. فقط

- فقط يبعث للحياة وقت الانتخابات.. ليدلي بصوته لحزب الجمهور ثم يعود لقبره.

قلت لها هذا الجملة الذكية، أو في الحقيقة إبراهيم قال هذه الجملة، فأنا مضطر أن أسلّم أشرطة الفيديو كاملة للأرشيف، ولكني تمنيت أن أكون من قالها، فلمعة عينيها عندما قال الأزعر الجملة جعلتني أغتاظ شهراً كاملاً، المهم.

- هذا هو.. تخيلوا لديهم كل هذه الأصوات.. ومن هنا نستطيع إسقاطهم من هذه الهفوة

- لا لا.. علينا أن نجمع معلومات كاملة عن كل الملفات.. يجب أن نتأكد من منهم على قيد الحياة ومن منهم توفي.. حتى لا نسقط في دوامة لاحقاً.. فإذا سلّمنا أسماء في الملف وهي على قيد الحياة فقد يعرقل هذا التحقيق.. وعلينا أن نحضر ملفات موّثقة من النفوس تدل على أنهم على قيد الحياة في هذا التوقيت كي لا تقوم الشمس ورجالها بتزوير أي ورقة وفاة لهم تعود إلى ما بعد الانتخابات الأخيرة.. وبهذا نعود إلى نقطة الصفر إضافةً إلى أن المعركة ستصبح مفتوحة.. وفاشلة.

أنا، العبقري، من قال هذه الجملة، فلم يستطع أحد أن يسبقني إليها، وقد لحقني مباشرة كل من إبراهيم وعلاء وبتول بالثناء والموافقة على الخطة، وبهذا انقسمنا إلى فريقين، فريق أخذ على عاتقه الأقاليم الشمالية والفريق

الآخر الجنوبية، وبدأنا البحث والتقصي متنكرين بأزياء مخرجي أفلام وثائقية عن الثورة السورية.

وضعنا خطة لكي يكون بحثنا عشوائياً فلا يدرك أو يلحظ أو تتم ملاحقته، ولكن، اتضح لاحقاً بأن الخطة التي عمل عليها حزب الجمهور كانت بالتنسيق مع رجال الشمس، فقد تكفّل الفرع بدفع رواتب مالية جيدة للعائلات مقابل سكوتهم، وقد نقلوا جميع العائلات من أماكن سكنهم الأصلي إلى أماكن ومدن أخرى حتى لا يصبح الأشخاص الأحياء الأموات مثار تساؤل عن اختفائهم.

ولذلك كان من المنطقي والطبيعي أن تتواصل هذه العائلات مع رجال الشمس لإخبارهم بشكوك تدور حول استفسارتنا عن عدم وجودهم في المنزل، ولذلك قمنا بإعداد قوائم عن المعمرين الذين لا يزالون على قيد الحياة، من غير المنتسبين للحزب، وانطلقنا نجهز لسلسة أفلام وثائقية عظيمة، وهكذا استطعنا التغطية على هدفنا الأساسي من التصوير، إلى أن جاء خميس آخر.

الجبهة الثالثة

(قيس قهوجي)

- الحشيش!

- نعم الحشيش

نهض فراس على قدميه وابتعد نحو الورود وراح يقطف منها ويشمّ، كنت أجلس لحظتها على الأرض قبالة المنضدة محاولاً مد ساقي اليمنى بعد خدر طفيف أصابها، بينما أمال فؤاد ظهره ودخل في صمت عميق استمر ساعة كاملة، قاطعها بصراخ عالٍ ثم أضاف:

- هاااا.. هيك لازم يا رجال.. منذ البداية علينا أن نعدّ خطة محكمة كهذه.. وتجارة الحشيش.. تجارة الحشيش يجب بالطبع، دون تفكير، أن تكون من اختصاص وزارة الصحة.. وحصراً

- بالتأكيد

صاح فراس بعد أن التفت مرحباً بقول فؤاد، ثم عادا للصمت، قاطعه بعد دقائق قليلة فؤاد بصوت خفيف قائلاً:

- ولكن ما الفائدة إن كان القانون بحاجة إلى دعم سياسي كامل.. بالطبع أستطيع أن أجمع جبهة صحية قوية داخل المؤسسة الصحية في كل الأقاليم.. ولكن.. ولكن.. (فقاطعه فراس)

- لا تقلق.. الأمور بخير عزيزي الدكتور فؤاد.. لا تقلق.. أنا سأتكفل بكل شيء.. وأنت عليك أن تبدأ منذ الآن بإعداد الجبهة بالكامل حتى نهاجم

بالمناسبة الدكتور فؤاد مدير الصحة العامة في وزارة الصحة المركزية، وهو المسؤول عن تقديم أي قوانين صحية للتعديل في رئاسة مجلس الوزراء، ثم ترفع للتصويت، بالمناسبة القانون لا يحتاج إلى أغلبية ساحقة ليعدل، ولكن بحاجة إلى تفوق ولو بصوت واحد، والمشكلة الأساسية تقتصر بالطريقة التي سنصل بالقانون إلى مجلس النواب، ولذلك نحن بحاجة إلى جهد كبير وتكتل

لا مثيل له في المؤسسة الصحية كي نتمكن من تأميم قانون تجارة الحشيش، ولكي يصل القانون إلى التصويت علينا أن نحصل على موافقة سبع من وزارات الصحة الثمانية في سوريا، الوزارات الخاصة بكل إقليم ووزارة الصحة المركزية، وقد تمكن فراس، كما قال لنا خلال هذا الاجتماع، خلال السنوات العشرة أن يكسب إلى جانبه ودّ كل وزراء الصحة في البلد ولم يتبق إلّا الانقضاض الأخير.

وهنا عليّ أن أوضح الأمر الأهم، كيف نستطيع أن نسحب الترخيص من أي فرع أمن، ولكي تصل الفكرة بوضوح، سأختصر الكلام بالشكل التالي:

أولاً، حتى نتمكن من سحب ترخيص من فرع مخابرات فنحن بحاجة إلى أن نقدم أدلة كاملة لمخالفات الفرع للقضاء ثم لجنة التفتيش حتى نصل إلى لجنة مجلس النواب المخصصة للتوصيت على إلغاء التراخيص، وبهذا نستطيع أن نأخذ الفرع إلى ما وراء الشمس الحقيقية، ولأننا ومنذ سنوات لم نتمكن من وضع الشمس وجماعتها في مكان الاتهام، على عكس باقي أفرع المخابرات، وضع فراس القرّان الخطة البديلة التي تتلخص في تقديم مشروع تغيير في الدستور فيما يخص الأفرع.

وهنا تأتي ثانياً، ولأن الدستور ومنذ سنوات طويلة أعطى تراخيص عمل لأفرع المخابرات، وخطط قوانين خاصة تحدّ من الصلاحيات المطلقة السابقة وتراقب عملهم، فقد كان من الممكن التخلص من المؤسسات الأمنية الجديدة بنحو فردي إلى أن مضى أكثر من خمسين عاماً على القانون الصامد في وجه التعديل الدستوري الكلي، ومن منطلق ثانياً فقد أصبح لدينا أمل وحيد

في القضاء على الشمس ورجالها وهو الحصول على أغلبية ساحقة في التصويت داخل اللجنة المخصص للقانون داخل مجلس النواب، فإذا صوتت اللجنة على حل نفسها فسينتقل التصويت إلى المجلس بالكامل ليكون نصف الأعضاء زائد واحد كاف للقضاء على الشمس وأفرعها وتاريخها الأسود وإلى الأبد.

وهنا نأتي لثالثاً، جبهة الأحزاب العشرين، والمكونة من ثمانية عشر حزباً وتيارين فكريين بائدين، وكما هو مقرر في الدستور ولحماية الأفرع من السقوط فقد أعطي لكل حزب مقعد في اللجنة وعشر مقاعد لشخصيات مستقلة، وبهذا تمكنت الأفرع ورجالها في المؤسسات من البقاء والاستمرار والنجاة من الانقراض مقابل تخفيف سلطتها وسطوتها استجابة لمطالب الشارع، فلم تتنازل الأحزاب العشرين عن علاقتها مع الأفرع ولم نستطع كسر الطوق المشدد الذي خلق بينهم، وهكذا كان عدد العشرين صوتاً المخصص للجبهة كفيلاً برفض حل اللجنة ولكن لم يكن كفيلاً بإبطال سحب الترخيص، وهكذا فشلنا عبر السنوات في إحداث تغير دستوري حقيقي.

وهنا تكمن الخطة في سحب ترخيص من أحد الأحزاب الثلاثة الذي يؤدي بنحو طبيعي لخسارة صوت من العشرين صوتاً لتكون نسبة التصويت بعد أن حزنا كلّ الشخصيات المستقلة إلى طرفنا، واحد وثلاثين صوتاً مقابل تسعة عشر صوتاً ما يسمح لنا بتجميد عمل اللجنة، فالأصوات لم تكتمل لتكون غالبية ساحقة ولم تكتمل لفعل قرار اللجنة، وبهذا يرفع التصويت إلى مجلس النواب الذي يكفل لنا قضاءً مبرماً.

وعلى هذا الأساس انطلقت خطة الجبهات الثلاث، سيبحث رامي وفريقه عن سبب وأدلة تقوم بسحب الترخيص من أحد الأحزاب العشرين، وستكون مهمة الجبهتين إلهاء وتشتيت الشمس ورجالها وإفقارها مادياً حتى نتمكن من الضرب في الجبهة الاولى بقوة لا مثيل لها، ولذلك كان هدف فراس محاولة السيطرة على تجارة الفرع وذلك بتقديم أسعار تكسر السوق في المناقصات، وسيقوم فراس بالتعاون مع مجموعة من الشباب الطيبة للتأكد من أن الرقم الذي قدمه المنافسون سيصل إلى الشمس، وبهذا إمّا تكسر رقمها لتأخذ العمل فتقع في حيز الخسارة بعيداً عن الربح، أو تنسحب تاركة الساحة للآخرين.

في المقابل، سيعمل فؤاد لجعل العمل على تجارة الحشيش وتراخيص العمل في هذا المجال خاضعة بالكامل لسيطرة البلد، وتعد هذه التجارة هي المورد الأكبر للشمس، وبالحديث عن هذا الموضوع؛ فقد سمح بتجارة الحشيش في سوريا قانونياً عام 2040، وأصبحت تجارة شرعية على أن تزرع بالكامل في سوريا وتخضع لمراقبة أجهزة الدولة، وقد خُصصت لها مزارع معينة من الحكومة لزراعتها، وقد استطاع جد الشمس أن يسيطر على هذه التجارة خلال الأعوام الطويلة الماضية، وإن تمّ لنا ما نريد فستخسر الشمس أكثر من خمسين بالمئة من دخلها، ولكن للحصول على قانون مماثل فنحن بحاجة إلى العمل لسنتين أو ثلاثة لنصل إلى مبتغانا وكانت هذه مهمة فؤاد.

أمّا أنا فقد كانت مهمتي متابعة عمل رامي وتأمين الموارد الخاصة به، ومراجعة العمل دورياً، كل شهر عليّ زيارتهم في الشقة كي نراجع آخر المستجدات ثم أعود إلى النشاط السياسي لنصل إلى مبتغانا، وهذا ما حصل خلال السنوات الثلاثة الماضية، حتى حصل لعلاء ما حصل.

الضحية الأولى

(رامي قهوجي)

كنا في صيدنايا نجري مقابلة مع أحد المعمرين، يبلغ من العمر مئة عام، أخبرنا عن المعارك التي خاضها، ثم استفاض في معركة وبدأ يشرح لنا كيف تمكن مع رفاقه من تحرير إحدى النقاط، في منتصف القصة أمال ظهره إلى الوراء ثم تنهد قائلاً "اييييييه سأ الله" وبدأ يبحث عن شيء ما، ثم رفع صوته منادياً:

– حمودة.. تعال يا ولد.. (ثم نظر إلي وقال).. هذا حفيدي الأصغر.. يا حمموودة

بعد لحظات دخل حمودة، صبي في العاشرة من عمره، لم ينتهي من إلقاء السلام حتى رحّب به جده بضربة عكازة على رأسه.

بعد نقاش عقيم دار بين الجد وحفيده استطاع حمودة أن يقنع حمودة الكبير، محمد خاونجي، بأنه موجود داخل جيب بنطاله، وهكذا بعد أن غادر الشاب الصغير أخرج العم خاونجي هاتفاً قديماً وبدأ يقلّب بين الفيديوهات حتى أخرج لنا فيديو فيه رجل أشقر يقف أمام دبابة تحترق.

– هذا أنا.. (قال العجوز)

– لكنه أشقر يا عمي

على الفور لكزتني بتول بكوعها، فالعجوز أسمر البشرة، ونحن لسنا بصدد التقصي عن الحقائق هنا، وبعد أن أسكتتني قال العجوز وكأنه معتاد على تعليق مشابه:

- كنت أشقراً في شبابي ثم سمّرتني الدنيا.. اييبه سأ الله وقت كنت أخدم مع الفرقة الرابعة

وبقي مصراً أن الفرقة الرابعة كانت إحدى فصائل الجيش الحر، دار نقاش حاد رفضتُ فيه الانصياع لنكزات بتول إلى أن خرجنا من الدار مطرودين بعد إفراغ العجوز حقده بضربات متتاليات من عصاه على رأسي.

- أكان من الضروري أن نخرج مطرودَين؟

- لا بأس.. الرجل خرفان وهذا يسقط عنه حق التصويت

- على الأقل على قيد الحياة.. اييبه.. هذا أول عجوز حي في القائمة

- لا بأس

ثم قاطعنا اتصال من علاء:

- ألو علاء باشا.. كيف الشغل في حلب؟

- ممتاز جداً.. تعال في الحال.. أو سيودع صاحبك الموندیال

لم يكن صوت علاء من قال الجملة الأخيرة، بل صوت جاف حاقد أخذ الهاتف منه وبدأ يهدد ويتوعد.

- نحن بانتظاركم الآن.. تعال أنت وبتول السمكري

- بتول يا عرصا.. بدك بتول معي.. خسئت

- يا ابن القحبة.. لمَ وجع الراس.. أنت أردت أن تلعب بالنار.. تعال وأحضر صاحبتك معك ولا تسأل كثيراً فقد كان علاء متعاوناً جداً الصراحة.. ولا نريد أي وجع رأس.. فلننتهي من القصة

ثم أغلقت الهاتف بعد أن بصقت في وجهه الرقمي.

بعد عدة شكاوى ومخاوف جاءت من أهالي الأحياء الأموات، الناخب الزومبي، بدأت مجموعات تابعة للشمس تتعقب حركتنا، ولذلك وضعت بتول خطة زيارات شديدة الإحكام، وكما قالت لي بأن العشوائية تحكم الزيارات وقد استخدمت معادلة فريدج في التوزيع العشوائي للمتتاليات اللاخطية، وقد أكون مخطئاً في كتابة اسم المعادلة أو اسم العالم فأنا لا أذكر الاسم بوضوح، ولكنكم ستجدونه في شهادتها الخاصة، وبهذا أكّدت لنا بأن أحداً لن يستطيع توقع حركتنا، إضافةً إلى خطوات أضافها فراس الفرّان على الخطة، التعاقد مع مجموعة من العاملين في مجال صناعة الأفلام الوثائقية، إرسالهم في رحلات لجمع معلومات من منازل من تزيد أعمارهم عن الثمانين عاماً في كل الأقاليم السورية السبعة، إرسال المعلومات لشاب يدعى جابر كورديلو، ثم سيرسل جابر المعلومات إلى ليلى رافع المنتج التنفيذي في المشروع، كمال النبواني المشرف الأول، ووفاء الصبّاغ مديرة المشروع، ليلى رافع (صديقة من الجيل الأول) سترفع المعلومات لبتول تدريجياً لنزور المعمر المنتسب للحزب وندع المعمر غير المنتسب يترك لأحد الأعضاء الوهمين في العملية، وقد خضعت هذه الزيارات لعشوائية فريدج.

ولكن لم نكن نعلم، للأسف، أو لأكن أكثر دقة لم يخطر على بال أحدنا أن يكون أحد أولاد المعمر الفقيد من رجال الشمس، وبعد أن أصرّ الشباب، علاء الحمصي وإبراهيم الطويل، على مقابلة والده، ثم وعدهم بالعودة بعد أن يحضر والده، خرج الابن البار وعاد بمجموعة من الرجال، وقد واجهوا تعذيباً سيأتي وقت الحديث عنه.

- أمسكوا بالشباب؟!

- اي نعم.. أمسك الأوغاد بالشباب

- يا إلهي.. يا إلهي.. لم تكن محكمة خطتي

- محكمة.. ولا ينقصني أبداً.. أبداً تخاذلات عاطفية

- لا لاا.. الأصدقاء لا يسقطون

- يااااااه.. محمود الخياط.. الاجتماع التأسيسي الرابع

- نعم نعم.. إني أحفظ كل أقواله.. ولكن!

- لا لاا.. بالتأكيد محكمة حبيبتي.. ولكن يبدو أن لديهم الآن تورنغ خاص بهم

- من!

- من استطاع أن يكسر شيفرة الألمان في الحرب العالمية الثانية.. عرص ماكن من عرصات العبقرية الكومبيوترية.. تخيلي أنه استطاع

- الآن وقتك ووقت تخيلي.. أخو حازم بيك.. علينا أن نفكر في المشكلة

- فكر.. فكر.. فكر.. (كلمت نفسي وبدأت أهزّ رأسي)

- فكر وأرني براعة الجيل الخامس

كان التفكير سريعاً، لم ننتظر أو نُضِع وقتاً، ركبنا السيارة وانطلقنا، في الطرق أخبرت قيس أن يختفي حتى نتبين ما القصة، فالغريق لا يتعلق بقشة، بل يقتل كي ينجو من الغرق، وبالتأكيد لم يكن قيس ظريفاً عندما أخبرته متقبلاً للفكرة.

- ارجع وكفاك صعلكة.. سيقتلك رجال الشمس

- أنا عند الرستن وسأكمل.. إلى اللقاء

ثم أغلقت هاتفي النقال حتى لا أتلقى أي هاتف مزعج.

نظرت إلى بتول، ابتسمت مستخفاً من خوف قيس وقلت بلا مبالاة:

- لا أستطيع التسكع بعيداً.. ولن أترك الطريق العام يقتلني.. فهو لا يأبه لبصاقي وصراخي.. بل سأكمل.. سأكمل وألاقي الأوغاد.. الأوغاااااد

- حسين جيرود؟

- نعم.. ولكن بل سأكمل من تأليفي.. عظيم هاااا؟

- وقت الشعر لأنو

- الشعر في كل وقت.. حتى وقت السكر والموت

- مممممممم.. لنرى

أنهت بتول جملتها وغرقت في صمت طويل لم ينتهي حتى غروب الشمس، حيث كنا نقف أمام المنزل الذي اتفقنا أن نلتقي فيه، ضربت الباب ثلاث مرات ثم عدت إلى الوراء.

- أتعلمين

- قل

- سأخطبك عندما ننتهي من القصة

- بكير يا بعدي.. فلنبقى على علاقة عشر سنوات أخر

في الحقيقة لم يكن جوابها هكذا، هذا الجواب الذي تمنيت سماعه.

- هذا وقت الكلام الفارغ؟!

هذا كان جوابها الحقيقي، المهم، أنهت جملتها مع صوت المفتاح وهو يلتف داخل حجرته، ثم فُتح الباب وخرج منه رجل أعتقد ولن أكون مبالغاً أبداً إن قلت أنه يبلغ ثلاثة أمتار ونصف، نظر في وجهنا بقرف ثم بصق على جنب، وبعدها مباشرة أمال جسده وأخرج كل ما تحتويه معدته، ثم استوى وقال بصوت عالٍ حاد كصراخ امرأة تلد:

- الصعلوك وصاحبته هنا.. أهلاً

ثم أشار لنا أن ندخل، يتكون المنزل من ممر طويل وعلى طرفيه أبواب مغلقة كثيرة، بابين متقابلين كل ثلاثة أمتار، وأعتقد أن الممر كان بطول عشرين متراً أو أكثر بكثير، لا لا بل كان أربعين متراً، سرنا خلفه حتى آخر الطريق، ثم فتح باباً في نهاية الممر وأشار لنا بيده كي ندخل، عند عبوري

الباب قام بضربي على مؤخرة رأسي فألقاني على الأرض، ثم أشار لبتول أن تدخل قائلاً:

- بليز ست الكل تفضلي

غادر "فسوة" بعد أن أغلق الباب، نعم "فسوة" هو اسمه كما سمعت لاحقاً، في الغرفة لمحتُ وجه علاء المحطم، عين زرقاء وعين مغلقة، وقد لفت يده اليسرى إلى رقبته، وعند رقبته آثار لحرف العين، الانتفاخ والاحمرار المحيط يدل على أنه وسم منذ وقت قريب.

- مرحبا شباب.. (قلت بصوت واثق)

- الصعلوك رامي قهوجي.. أهلاً وسهلاً.. وصاحبته بتول.. يا عيني ع ها الجمال يا عيني

صحيح، في الغرفة أيضاً رجلان، أحدهم قزم ذو لحية طويلة وشامة سوداء مشعرة على أنفه، وقد بقي صامتاً حتى قامت القيامة، والرجل الثاني متوسط الطول ذو أكتاف عريضة جداً ولكن الكتف الأيمن مرتفع عن الأيسر بشكل واضح ومضحك، ولعينيه لونين مختلفين، وقد حلق شاربه كشارب هتلر.

جلس الرجلان على منضدة خشبية مهترئة، عليها آثار طلقات نارية، وحريق على أحد أطرافها، وآثار للمتة والشاي، وأمام المنضدة يجلس علاء مبتسماً وقد بدا بأنه تخلص من ضربهم منذ قليل.

عندما رحب بنا فشكة وبينما كنا ندخل الغرفة، هكذا دعاه فسوة لاحقاً، ضرط بقوة جعلتنا نتعثر بخطانا فالموقف كان غريباً، وبالتأكيد لم يحرك القزم ساكناً،

فقط بصق من فمه، بعد أن تحول وجهي لتعبير يدل على أن الرائحة أزعجته بشدة.

– شو يا أستاذ رامي.. أزعجتك الضرطة.. صعلوك وتقرف؟!

– أولاً الصعلوك لا تعتبر مسبة يا جاهل.. ثانياً وهي الأهم بتول خطيبتي وليست صاحبتي.. مفهوم؟.. احترام قليلاً يا بهايم

لم يتكلم الرجل بعد بهايم، للأسف، بل وقف وسار نحوي، ثم وجّه لكمة قوية، قمت بصدها وردها بيدي الأخرى، فأصبته على فمه وجعلته يترنح ويتراجع، فوقف القزم وصاح وركض نحوي ثم قفز حتى غدت قدمه ملاصقةً لرأسي وركلني على وجهي فارتميت أرضاً بالقرب من علاء، ثم عاد إلى مكانه قبل أن يفتح فمه.

– تفضلي بتول خانم.. اجلسي.. (قال فشكة لها بعد أن بصق دماً من فمه)

– شكراً لك

جلست بتول بالقرب مني وهي تصدر صوت قرقعة من فمها لتسخر مني ومن منظر وجهي الملطخ بالدم، وما إن استقرت على الأرض حتى اقترب فشكة وقام بتكبيلنا بأصفاد مشتركة ثم عاد إلى موضعه الأول، بعد أن جلس الجميع في مواضعهم دخل فسوة ومعه حديدة الوسم وموقد كهربائي، وضعهما على الأرض بالقرب من المنضدة ووصل السخان إلى الكهرباء، وقال في أثناء ذلك:

– يبدو بأن الفروج الذي أكلته خربان.. ما هذا يا رجل!.. ألم مزعج في المعدة.. عليّ زيارة الطبيب اليوم.. سأغادر.. إلى اللقاء

- انقلع.. وأحضر معك علبة متة

- حاضر.. والزعيم أيريد شيء؟

كان يقصد القزم بالزعيم، لكن الزعيم أشار برأسه بالرفض ثم بصق ونظر إلى وجهي، فبادلته بابتسامة صفراء، ثم مسحت الدم من فمي، وقلت:

- طيب.. لماذا لا نزال هنا؟!.. أين جماعتكم؟!

- وتريد أن نأخذك للسجن ونورط الفرع بكم؟!.. أتعتقد بأن هذا الكمين السخيف لم تجربوه مسبقاً؟!

- هااا.. لهذا لا يزال علاء محتجزاً في هذا البيت الحقير.. وما المطلوب؟

قالت بتول الجملة بصوتها الرقيق، لكني قاومت شرود الذهن هذه المرة، ثم أكملت عنها:

- هل أخبرتم الفرع عنا؟.. أم تريدون المال؟

- يا صعلوك.. يا حمار.. أتعتقد بأننا قررنا من أنفسنا المراقبة وانتظار قدوم أحدكم إلى أحد أحبابنا الناخبين كي نأخذ المال.. هذه الأوامر من أعلى إدارة في الفرع..

قاطعته:

- ستقتلوننا؟

- لا.. شو نقتلكم.. له يا رجل.. عيب.. سنستضيفكم قليلاً ثم نرسلكم إلى أمهاتكم بعد أن نتفق

ثم قاطع نفسه الظريفة وعاد لنفسه اللئيمة:

– طبعاً سنقتلكم يا أوباش يا حيوانات.. ولكن ليس قبل أن نأخذ منكم كل المعلومات.. والتعذيب مهنتنا يا أكابر.. ولكن قل لي كيف اتفق وصار لك ما صار.. صعلوك وتعمل مع الشباب الطيبة

– الصعلوك يا غبي هو من اعتزل عالم التكنلوجيا وعمل بمهن بعيدة عن النظام المالي الغبي.. ونحن من أطلق هذا الاسم.. في عام ألفين وخمسين

لكنه قاطعني قبل ان أكمل الجملة:

– لك كول خرا.. هذا ما كان ينقص.. محاضرة في التاريخ

– بالمناسبة إبراهيم الطويل في منزل آخر

– إبراهيم أيضاً!

– بتول تقصد.. من إبراهيم هذا؟!.. لا نعلم عنه شيئًا

بالمناسبة، لقد اتفقنا أنا وبتول أن لا نأتي على ذكر إبراهيم، لعله استطاع النجاة بنفسه قبل أن يلاحظوه، وهذا سيعطينا أولوية ما، وأنا لغبائي الشديد نسيت أن أعطي عنوان المنزل لقيس، وبهذا غدا إبراهيم فرصتنا الوحيدة للنجاة.

– إنه في بيت مشابه لهذا البيت.. وبالتأكيد يجري التحقيق معه.. لكنه صلب البنية كالجحش.. لذلك للآن لم يعترف بأي معلومة لكن لا بأس فالشرس مسؤول عن تعذيبه

– يبدو بأننا علقنا مع مجموعة بهائم.. (أضافت بتول ضاحكة)

- شباب بلا مستحى من حضرتكم.. أيستطيع علاء أن يستحم لقد اختنقت من رائحته

قلت الجملة بعد أن لكمني فشكة على وجهي بسبب كلمة بهايم التي نطقت بها بتول، بالمناسبة يبدو أن الجماعة قد تبوّلوا على علاء قبل قدومنا، وقد ذبحتني رائحته لدرجة أنني لم أعد أستطيع احتمالها ويا ليتني استطعت، فقد فقدت ضرساً غالياً على قلبي، فكافور، اسم القزم بالمناسبة كافور، نهض بسرعة برق لا صبر لديه وخلعني لكمة جعلت الدوار من رائحة علاء يذهب مباشرةً بعد قولي "من رائحته".

- المهم يا شباب.. أولاً.. أنت تدعى رامي قهوجي من الجيل الخامس ابن الحبيب والصديق والأخ السياسي المناضل قيس قهوجي

- نعم

- اي كس اختك عاختو

- تسلم يا طيب

- وأنت بتول السمكري.. من الجيل الثاني.. الثاني وقد سلموك مهمة كهذه.. برافو.. أحسنت يا غالية.. والدك.. والدك.. والدك

يبدو أن ذاكرته خانته عند هذه النقطة، ثم أكمل دون ذكر بعض صفات والدها:

- أريد أن تخبروني بالفريق الذي يعمل معكم كاملاً.. وكل المعلومات التي لديكم.. وموقع عملكم.. وماذا أيضاً يا شباب؟

- الهدف من العمل.. (أجبته)

- لا يا غبي.. الهدف معروف

لم يكمل جملته، سمعنا طلقتين ناريتين تبعهما أصوات أبواب تفتح وأرجل كثيرة تتحرك، ثم بدأت أصوات صراخ عالٍ ينطلق من الخارج، وكأن شجاراً قد اندلع، ثم زاد الصراخ ولكن بدأت الأصوات تبتعد وتختفي خلف جدران ظلام ذلك المساء، حتى أصبحت تبدو بعيدة ولا تفهم.

نهض القزم ثم اتجه إلى الباب، خرج وأغلقه خلفه بعد أن أشار بوجهه لصاحبنا فشكة أن يأخذ حذره.

- كافور هو الزعيم؟

فكر قبل أن يجيب، ثم قال:

- نعم.. تقريباً.. لنا الرتبة نفسها ولكن

- ولا يزال لكم رتب في الفرع؟

- بالتأكيد

ثم صمت وكأنه شعر بأنه يخبرني أكثر مما ينبغي، ثم بدأنا نسمع أصوات إطلاق نار عالية بعد أن اختفى الصراخ، في هذه اللحظة كنت أحاول إقناعه بفك قيدي مقابل المال الذي يريد، لكنه رفض وبشدة عجيبة، عدنا إلى صمتنا واستماعنا لأصوات إطلاق النار.

- لن تشارك في المعركة؟!

- لاا لاا.. فأنا عندي.. (ثم قاطع نفسه بنفسه).. اخرس يا بجمة.. قبل أن

ثم انشقت الأرض وقاطعتنا جميعاً، خرج منها مسنَّن مخروطي كبير، يبلغ قطره متراً واحداً، ثم خرج المسنن كاملاً وبدا من ورائه رجل أشاهده أول مرة، يمسك بمقبضٍ عرضي ملتصق بمؤخرة المسنَّن، لم يحرك فشكة ساكناً فقد كان، كما نحن، متحجر العينين فاغر الفم، يشاهد المشهد العجيب بدقة متناهية.

خرج الرجل من الحفرة مُسلحاً وتبعه قيس على الفور

- قيس!

- ألم أقل لك لا تذهب!.. سنناقش هذا لاحقاً

- أبي!

نظر إلي قيس وعينيه تقدح شرراً، فمن الممنوع أن أقول "أبي" في عملية وفي أثناء وجود الغرباء، فإن اكتشف الشباب هويتي فلا ضرورة أن تُكشف هويته، بل هذا الخطأ سيدخلني في جولة تحقيق لاحقاً، وبالطبع لم نكن نعلم، وكيف لنا أن نعلم، أن الغرفة مراقبة بأكثر من أربع كاميرات، ويا ليتنا لم نعلم.

المهم، بينما كنا نتشاجر رفع دياب ظريف، الرجل، مسدساً في وجه فشكة ثم أمره بأن يفكّ قيدنا، ثم قيده وأغلق فمه بقطعة قماش أخرجها من داخل علبة كانت موضوعة في بنطال جيبه، وبعد ثوانٍ من وضعها في فم فشكة سقطاً نائماً.

هبطنا في النفق وسرنا قرابة المئتي متر ثم صعدنا في حفرة مشابهة كالتي في الغرفة تلك، عند الحفرة انتظرتني يد ممدودة كي تحملني خارجها، وإذ أكتشف عند خروجي أنها يد "فسوة".

- قسوة؟!

- عدي.. طارق عدي من فضلك

- إنه من الأصدقاء

قال لي والدي بعد أن ربت على كتفي ثم أكمل:

- الحمد لله على سلامتكم يا أولاد

غادر طارق عدي خارج الغرفة التي في منتصفها بالتمام تقع الحفرة التي خرجنا منها، غرفة واسعة لدار أرضية تقع قبالة بناء الفرع، ولا يفصل بين بنائنا وبنائهم إلّا شارع باتجاهين، نظرت عبر النافذة مشدوهاً مما شاهدت.

وقد سيطر على عقلي تساؤل واحد:

- كيف استطاع قيس في وقت قليل أن يعرف أين نحن ويحفر هذا النفق!

في اللحظة التي نظرت بها عبر النافذة أخرج قيس من جيبه هاتفه النقال وأرسل رسالة صوتية قال بها:

- انتهت العملية.. يعطيكم العافية يا أصدقاء

ثم توقف إطلاق النار على الفور، كالسحر، وبدأت تصل سيارات الشرطة وحاصرت المقر الخاص بهم، وبينما رحنا نتابع دخل طارق ومعه إبريق شاي ومجموعة من الفناجين النظيفة.

- تفضلوا.. الشاي جاهز

عملية الإنقاذ

(قيس قهوجي)

- رامي المتصل؟

- نعم رامي

- وهو في طريقه إلى مارع إذن

- نعم إلى مارع

- من الجيد أنك لم تطلب العنوان الذي اتفقوا عليه

- بالطبع لاا.. تخيل أن أخطئ خطأً كهذا يا رجل.. الأمور تحت السيطرة لا تقلق

كنّا أنا وفراس الفرّان مجتمعين في مزرعة الرحيبة عندما اتصل بي رامي ليخبرني بما جرى مع إبراهيم وعلاء، لا أدري هل يعتقد رامي بأننا لا نمسك بكلّ خيوط القصة! بعد أن عملنا سويّةً في عشرات المهام تحت قيادة فراس، ولكن يبدو أن المشاعر لا تزال تتغلب عليه في الأوقات الصعبة، للأسف هكذا هم الشباب.

المهم، كنّا قبيل الاتصال نتشاور حول اعتقال علاء واختفاء إبراهيم، وقتها لم نكن ندري ما الذي حلّ بإبراهيم؛ فبعد أن عاد ابن المعمّر برجال الشمس اصطدم بهم إبراهيم رافضاً الانصياع واشتبك معهم بالأيدي تاركاً الفرصة لعلاء كي يحاول الهروب، وقد اتفقا على هذه الخطة في حالة انكشف أمرهما، وهذه القصة ستأتي في وقتها لاحقاً، ولكن أعتقد.

أو سأقصّ عليكم القصة بشكل مختلف.

تمّ الإمساك بعلاء وإبراهيم، ونحن مثل أيّ لاعب آخر في هذي الحياة له أوراق كثيرة يخفيها كي يستخدمها لحظة تصارع الأقدار، وإحدى أهمّ الأوراق التي في حوزتنا هم رجال من الجيل الأول يعملون في كلّ الأماكن الفاسدة في البلد، في كلّ مكان دون مبالغة، رجل من الجيل السادس مسؤول عن هذه الشبكة العملاقة، وأنا مرشح يوماً ما لأكون في موضعه، وعندما أقول كلّ مكان فأنا أقصد الأفرع الأمنية والأحزاب وبعض الشركات والمؤسسات، مؤسسات خاصة وحكومية بالطبع، وبالتأكيد كان لنا في كلّ مركز أو مقر أو مصنع أو معمل للشمس رجل من الأصدقاء.

ولأنهم أصدقاء من الجيل الأول، فهوياتهم سرية حتى للأصدقاء إلّا بعض من يعمل معهم، ولا تُكشف هويتهم للعلن حتى تنتهي مرحلة الإعداد، ولأكون أكثر دقّة أو بساطة فإن أكثر ما ساعدنا على إنجاح الزراعة هي المؤسسات، نعم المؤسسات، فرغم خبرتها في البقاء والاستمرار والفساد والإفساد لكنها لا تزال تحتفظ بأسلوب اختيار الأفراد ذاته، الأسلوب القديم البائد، فالرجل المناسب غالباً لا يشغل المكان المناسب فيها، مع بعض الاستثناءات لأكون أكثر صدقاً، وفي جُلّها بقيت المراكز المهمة والمناصب الكبيرة لعوائل أو أفراد بعينهم، ولهذا وللأسف لم نتمكن بالتأكيد من زراعة رجال في مناصب حساسة، وقد ورثت الشمس الأسلوب من جدها الأكبر، فالمناصب الحساسة لأشخاص معينين موثوقين عملوا معه ثم ورث أولادهم ما كسبوه هم من مراكز وأموال وتناقل أفراد الأسرة الإرث معهم.

المهم، وكي لا أشتتكم سأكمل القصة، في مارع لنا رجل يدعى طارق عدي، أو كما أسموه "فسوة"، شاب في الثلاثين من العمر، صديق منذ عشر سنوات، من الجيل الأول ولكن كما قلت لا يزال في طور القبول، وبالتأكيد سنوات الطور متراوحة، وحتى عملية الإنقاذ كانت لا تزال هويته الحقيقية مخفية، هو بالتأكيد يتعامل بهويته الحقيقة أمام رجال الشمس ولكنهم لا يعلمون ما يخفي في قلبه، حتى جاءت لحظة الحقيقة، فاتصل بنا وأخبرنا بما جرى، ثم أكمل العمل على أساس الخطة البديلة المستخدمة دائماً.

أمّا ما هي الخطة البديلة؟

هي خطة لإنقاذ من يسقط في يد الشمس، وضعها سالم كوكش، من الجيل السادس بالطبع، وضابط متقاعد، تتكون الخطة من ثلاث خطوات، أو أربع أو خمس على حسب الظروف الطارئة، أمّا في ذلك اليوم فقد اعتمدنا الخطوات الثلاث لحسن الحظ.

ولمَ هذه الفروق في عدد الخطوات؟

الجواب بسيط، هذا التعداد يتمّ وفقاً لما يعتمده رجال الفرع من إجراءات عند القبض على غريمٍ لهم، فهم يضعونه في القسم الذي اعتقلوه فيه حتى تجري له التحقيقات الأولية، إن لم يكن معروف الهوية، ثم يحوّل للقسم الرئيسي في الإقليم بعد التحقيق، أو يحوّل فوراً إن عرفت هويته أو كان مصاباً دون أن يمرّ بالقسم الفرعي، ثم يرسل إن كان ذلك ضرورياً إلى القسم الرئيسي في العاصمة دمشق بعد التحويلين الأولين أو يرسل فوراً إلى دمشق إن كانت الشمس قد رفعت باسمه تقريراً كاملاً، وكان لخطره تأثير من الدرجة الأولى.

ونقل المعتقل إلى دمشق من القصص النادرة جداً، طبعاً كل هذه التحويلات والتحقيقات ممنوعة قانونياً، إلّا بأمر قضائي أو مهمة متفق عليها، ورغم تكرار أفعال مشابهة من رجال الشمس لم نتمكن حتى الآن من إسقاطها، ولكن لأكون أكثر تفاؤلاً فقد استطعنا إغلاق بعض الأقسام المخالفة أو وضع بعض رجالها في السجن؛ فالقانون الدستوري واضح وصريح ومباشر، كما قال لنا القاضي شكيب عرفة يوماً:

- تُحدَّد المخالفة وفقاً لمرتكبها وعلى هذا الأساس يتم اختيار العقوبة.. فإن كانت من المؤسسة الأمنية فالعقوبة عامّة.. وإن كانت فقط فعلاً متهوراً لأحد الأفراد أو الأقسام، فتكون العقوبة وقتها على عاتق فرد أو جماعة أو قسم داخل المؤسسة.

عودة للخطة الموضوعة، الخطوات هي:

أولاً، استنفار كافة الأصدقاء المفروزين للخطة في المنطقة التي جرت فيها الحادثة، ثم إرسالهم للتجمع في أحد منازلنا في الجوار، وقد كانت مارع هي المنطقة المحظوظة، وبالمناسبة لتسريع أي عملية فقد طلبنا من رامي وإبراهيم أن يخبرنا كل منهم ما الهدف في اليوم التالي حتى نكون على أهبة الاستعداد، وبالمناسبة هم لا يعلمون بهذه الخطة خوفاً من أي ارتباك في أثناء التحقيق فتذهب استعداداتنا أدراج الرياح، ولهذا أشار عليّ فراس بأن لا أطلب العنوان من رامي، فيكون مستعداً لتدخل مفاجئ يقلب الطاولة.

وهكذا كان الجزء الأول من خطوتنا الأولى استنفار الشباب، أمّا الجزء الثاني فهو انطلاقنا أنا ودياب ظريف بطائرة خاصة إلى حلب ثم مارع، لإتمام

المهمة في أسرع وقت ممكن، حتى قبل أن يعلم رامي بالقصة، لنجهز للخطوة التالية.

ثانيًا، هااا هااا، وهي الأهم وكل الاعتماد عليها، ولكي أشرحها لكم عليّ أن أجيب عن السؤال التالي:

لمَ دياب ظريف هو، وفقط هو، من سيذهب معي؟

الإجابة وبكل بساطة، هو خبير حفر أنفاق، ومالك شركة الحفارات السورية الألمانية، الشركة الأهم كما تعلمون، وقد خصصنا أهم حفارة في العالم من أجل مهام مشابهة، سيقوم طارق عدي بإشعال جهاز تعقب في المنزل حتى لا نخطئ العنوان أنا والشباب المستنفرة، وسنأتي لذلك قريباً.

ثالثاً: إثارة شغب خارج الموقع المستهدف، سيتجمع الشباب أمام البناء، ثم سينطلق شجار يتحول لإطلاق نار، لاحقاً ستشتد الاشتباكات حتى تغرق الحي ببحر من الضوضاء العظيمة، وهكذا سنفرغ المنزل المستهدف، وسنزيد التشتت الذهني الذي سيصيب السجانين ويوقعهم في ارتباك لا نظير له، وسنقلل عددهم في الداخل إلى أقل ما ممكن. ثم نحفر النفق حتى نصل إلى موقع الإشارة الموجودة، بالطبع بدأنا الحفر قبل وصول الإشارة فنحن نعلم أين المقر ولكن لم نكن نعلم في أي غرفة سيكون رامي والشباب، ولذلك حفرنا حتى بداية البناء ثم انتظرنا الإشارة من طارق، التي زرعها في الغرفة المستهدفة، وبعدها حفرنا حتى غدونا أسفل الهدف، وقبل الانقضاض سنعطي الإشارة للشباب كي يبدؤوا المشاكل، ثم سننتظر إشارة منهم تؤكد بأن الهدف

قد أكل الطعم، ثم سنحفر شاقولياً لنخرج من النفق ونحرر الشباب ونعود أدراجنا.

وهكذا زرع طارق جهاز التعقب في الموقد الكهربائي الذي أدخله إلى الغرفة، ثم غادر متذرعاً بوعكة صحية أصابته، وقد طلب منه ألّا يكشف هويته لرامي والأصدقاء مهما جرى، حتى ولو كان الموت نصيب أحدهم، ثم خرج واتجه بسيارته إلى شقتنا القريبة من الحدث.

في هذه الأثناء وصل العشرات من الأصدقاء وتجمعوا بأسلحة الصيد في موقع بعيداً عن الفرع في مارع، ثم أرسلوا ثلاثة شباب ادعّوا السكر، تشاجروا مع الحراس، فطردهم الحراس بعد مجموعة شتائم لا تذكر هنا، وبعد أن طُردوا توعدوهم بالقصاص، وهكذا بدأ الشباب يطلقون النار من بعيد بأسلحة حقيقية مليئة بأعيرة مزيفة لا تجرح أرنباً.

هكذا بدأت الاشتباكات واستدعيت التعزيزات واشتعلت المعركة الزائفة، ولكي نضمن عدم إصابة الأصدقاء بأيّ أذى اشترينا المرهم المضاد للرصاص، الذي كلّف ثروة بالمناسبة، هذا مرهم يُعدّ من أحدث التقنيات العسكرية الهندية، إذا دهنه الإنسان فإنه يشكل طبقة جلدية جديدة أعلى الجلد الأساسي، تعمل الطبقة الجديدة مضاداً للرصاص لا مثيل لقوتها، فعند اصطدام الرصاصة بها ترتد دون أن تحدث خدشاً واحداً ويبقى التأثير مقتصراً على الرضوض وكأنها رصاصة مطاطية.

وفي المقابل عملنا مع الصديق الدكتور فوزي الشلق محافظ مارع على تأخير وصول قوات الشرطة مدة نصف ساعة، حتى نستطيع إنهاء المهمة ثم

الانسحاب بنجاح، ولأن المعركة دون أي قطرة دم ستدون في السجلات من فعل مجهول وستعد على أنها أعمال شغب، ولاحقاً سيتم إحضار الشباب الثلاثة السكارى إلى القضاء ليسجن كلّ واحد بحدود الثلاثة أشهر بعد أن يتم التأكد بأنهم لا يعلمون شيئاً عن ليلة المعركة، وهم فعلاً لم يشاركوا؛ فمن يثق بسكران يحمل بندقية، لذلك بعد أن أنهوا المشاجرة نُقلوا إلى حلب بسيارة مرفهة.

وهكذا دخلنا بسرعة وخرجنا من الغرفة بخمس دقائق، كما ذكر الأزعر رامي في قسم شهادته، ثم عبرنا النفق المزود بآلة سحب، تفرغ التراب الناتج عن الآلة في أثناء الحفر ثم سُحبنا خارج النفق بسرعة لا توصف، ولن أنسى الإحساس الرائع الذي أعطتني إياه، يربط بها الرجل بحبل ثم يستلقي على غطاء معدني مرن يستطيع الإنسان ثنيه كالمطاط، ويفرد ليكون صلباً بقوة جبل قاسيون، المهم استلقيت عليه ثم سحبت وكأني أمتطي بساط ريح عظيم.

أمّا فيما يخص الوقت الذي أنهينا به المهمة منذ اختراق الغرفة حتى هروبنا فتقريباً خمس وعشرون دقيقة، وفي اللحظة التي خرجت فيها أرسلت الإشارة المتفق عليها ليهرب الشباب قبل وصول الشرطة بدقيقتين تقريباً، وللعلم والمعرفة والتاريخ والأرشفة فالنفق يبلغ طوله خمسمئة متر وعرضه متر واحد.

- فسوة؟!.. (قالها رامي مستغرباً من وجود طارق معنا)

- عدي.. طارق عدي من فضلك

- إنه من الأصدقاء

قلت له بعد أن ربتّ على كتفه، ثم أكملت:

- الحمد لله على سلامتكم يا أولاد

بعد أن احتسينا الشاي وانتهينا من تجهيز أنفسنا، قال لنا دياب:

- هيا لا وقت لدينا لنضيعه

ثم خرجنا من الدار إلى حيث تنتظرنا المركبة، وانطلق بنا طارق عدي ونحن نتنفس الصعداء سعداء بالنصر المؤزر، لا ندري ما المصيبة التي تنتظرنا، مصيبة سترتب لها الشمس في الساعات القادمة وستصلنا على شكل رسالة مكتوبة بخطها لتقرئنا السلام ثم تنقل لنا تطور الأحداث، التي ستحيلنا لمطاردين أنا ورامي والشباب الآخرين.

- من أنت؟

سأل رامي طارق ونحن في طريقنا إلى دمشق، فأجاب وهو يقرع صدغه الأيسر بسبابته اليسرى:

- أنا الصديق طارق عدي

- من فسوة إذن؟!

- أحد رجال الشمس بالطبع.. (قلت له ساخراً)

- نعم نعم.. أنا أحد رجالها الأوفياء

- خازوق مبشَّم أكلت الحجة.. (أضاف علاء وصوته يتقطع من الألم)

- يوجد الكثير من طارق عندنا داخل الفرع

لحظتها سألت بتول بصوت أنثوي لطيف جعلني أكتشف سبب رغبة ابني في خطبتها:

- ولماذا لم تستخدمهم في حربك!

- لاا.. لا يمكن أبداً.. كلهم من مستوى فسوة

ثم دخل الجميع في موجة ضحك قاطعها رامي:

- الله يرحمو

- عفواً!

- رحم الله إبراهيم.. قتل وهو يدافع عن نفسه رافضاً الاستسلام

- إبراهيم توفي؟

قالت بتول الجملة بصوت مخنوق، بينما غرق رامي داخل قوقعة صمت أعرف ماهيتها جيداً، في ثوانٍ معدودات راح القلق يحلّق في الأرجاء منتظراً الانقضاض على فريسة ينهش عينيها بدموع الخوف والجزع، لكني أخرجت هاتفي النقال قبل أن أضطر لرؤية مشهد مقرف، وبعد لحظات من العودة إلى السجل الطبي الخاص بإبراهيم صحت بأقوى ما أملك طارداً اللعين من حيّنا.

- مستحيل.. (ثم أردفت بعدها بصوت هادئ متزن).. لا أزال أستقبل إشارة من الخلايا الإلكترونية.. كل المؤشرات الحيوية جيدة.. دقات القلب منتظمة.. السكر.. الكريات الحمر والكريات البيض.. ووو.. ولكن بالطبع لا يزال الكوليسترول مرتفعًا قليلاً ولكن في المستوى المقبول.. ثم.. (وسكتت)

- قل!.. (صاح رامي)

- يبدو أنه نائم.. أو فاقد للوعي.. لا إشارات حيوية من دماغه عن عمل أعصاب الرؤية.. ولكنه قد فقد القليل من الدم.. هو بخير.. فقط عدد الخلايا الإلكترونية ناقصة بنحو مقبول.. لا بأس.. لا خطر على حياته.. فهو كما يبدو قادر على

- أنا جائع

قاطعني رامي بعد أن نفخ من فمه إرهاق سنواته الطويلة في العمل معنا.

- سوف تأكل.. (أجابته بتول، ثم أكملت) ما الذي جرى معكم علاء

- قصة طويلة

- كلنا آذان صاغية.. (قلت)

- لا بأس.. سأبدأ من حيث بدأت تتداعى الأمور.. كنّا في منزل معمّر يدعى أبو رباح.. رجل مقيم في مارع منذ سبع سنوات.. أي منذ سنة وفاته المتوقعة.. طبعاً كالعادة لم نستطع أن نعرف من أي البلاد هو.. هوية جديدة له ولعائلته.. فقد نقلت العائلة نفوسها منذ أن وصلت إلى مارع.. ولذلك لم نستطع أن نعرف من أين هو أبداً مع أني خبير لهجات ولكن كل شيء يبدو كامل التحضير.. لذلك وكالعادة لم نستطع التعرف على أي أحد من معارفهم القدامى.. سمعتهم جيدة في مارع ولكن كما تعلمون دائماً يقول الجيران.. همّ في حالهم لا يزعجون أحداً ولا أحد يزعجهم ولا علاقات لهم في المدينة.. حالة المنزل جيدة جداً.. أثاث جيد.. ويبدو عليهم البحبوحة.. كل العائلة تعمل.. كل العائلة تتقاضى أجوراً جيدة.. ولا ندري كم تتقاضى حتى تُبقي

سرها محبوساً داخل تلك الجدران.. بينما كنا نجالس ابنة المعمّر الكبرى دخل شاب قوي البنية طويل القامة له بطن كبير وصدر متراجع إلى الوراء وكأنه عالق بوضعية رجل تلقّى كرة قدم على صدره فعاد إلى الوراء كي يمتص الضربة.. المهم.. جلس ورحّب بنا.. ثم بدأ يسأل أسئلة كثيرة.. أولاً من أي القنوات نحن؟.. شركة خاصة؟.. ماذا تريدون أن تعلموا؟.. هو بأسوأ أيامه وصحته متدهورة.. أكد لنا أنه في المستشفى.. ثم في دار رعاية.. ثم عند أحد الأقارب ثم في منزل آخر في مكان أقل برداً في الشتاء ترعاه ممرضة مختصة برعاية العجزة.. ثم أصرّ أن يرى هويتي وهوية إبراهيم.. ثم حاول أن يضيع الوقت كثيراً وهو يسأل ممسكاً بهاتف النقال.. ولم أكن أدري بأنه كان يعدّ لنا فخاً.. فجأة بعد ساعتين من الحديث معه قال لنا.. لا بأس سأخرج وأحضر والدي.. لقد وافق.. ثم رفع هاتفه النقال في وجهنا.. استأذن منا وغادر.. بعد دقائق دخل هو وشقيقين.. وقف قبالتنا ثم قال بصوت هادئ.. تفضلوا معنا يا جماعة.. الشباب من الأمن وعليكم أن توضِّحوا أهدافكم لهم

- قال الأمن!.. (سأله رامي)

- نعم نعم.. قال الأمن

- وأين يعتقد نفسه هذا الأحمق؟!

- لا أدري!.. هالمجنون.. المهم.. وقف إبراهيم رافضاً المثول لهم.. فرفع أحد الرجال يديه ليمسك إبراهيم من كتفه لكنه وفجأة غدا تحت قدم إبراهيم اليمنى

- حلال عليه.. (قال رامي)

- المهم.. (فأردفت أنا)

- انقضَّ الرجل الثاني فأكل لكمة في وجهه من إبراهيم.. في هذه اللحظة صاح إبراهيم وأمرني أن أغادر على الفور وسيلحق بي.. كما تعلمون اتفاقية الافتراق مهمة ولا مناقشة فيها

- أي أنك لم تكن خائفاً!.. (قال رامي ساخراً منه)

- بالطبع لاا

- المهم يا شباب.. تفاصيل المراهقين عن الخوف والمشاعر حتى ننتهي.. (قلت لهم مقاطعاً)

- المهم.. عندما خرجت من باب الدار استقبلتني ضربة على رأسي فسقطت على الأرض مدعياً الإغماء.. في هذه الأثناء خرج إبراهيم من باب الغرفة إلى أرض الدار وحاول.. استطعت أن أرى بعينين مغبشتين كيف أنه قاوم بشراسة مقاتل قادم من كوكب آخر.. لا قلب لديه يا رجل.. ولحسن الحظ أخطر سلاح استخدموه

- السكين.. (قاطعته)

- كيف علمت؟

- خبرة سنوات طويلة بالصراع مع الشمس ورجالها.. لا يستخدمون الأسلحة الخطيرة القاتلة أبداً.. هذا هو أسلوبهم.. تفضل أكمل

- ثم غدر أحد الرجال بإبراهيم وضربه بالسكين في كتفه فترنَّح ثم سقط بعد ضربة سكين ثانية في خاصرته.. عندما سقط -وكما الأفلام- جانبت عيني عينيه فرأى عيني مفتوحة قليلاً.. أعتقد ولست متأكداً.. لقد غمز غمزة لطيفة مع ابتسامة ساحرة ثم لا أدري ما حدث.. فقد استيقظت في غرفة التحقيق الخاصة بهم.. غرفة مجاورة للتي كنا فيها

- يبدو أنهم علموا أنك تدَّعي الإغماء.. (قالت بتول)

- نعم هذا صحيح.. (أضاف طارق).. كنت موجوداً في المعركة.. قاتل إبراهيم بصلابة عشرين رجلاً لكنه سقط في النهاية.. وأخذوه إلى المشفى الخاص بالفرع.. لم يأتوا به فهذه الحالة تستدعي إرسالها إلى فرع مدينة حلب.. ممنوع أن نتعامل مع مصاب.. أخذنا علاء إلى فرع مارع الذي كنتم فيه.. جميعنا كنا فيه جميعنا.. يا إلهي كم نحن أقوياء.. ياااااه لا أصدق ما الذي جرى.. أنا الآن رسمياً من الجيل الأول؟

- بالطبع.. (أجبته)

- سأكمل أنا.. (قال علاء)

- لا لاا.. دعني أنا أكمل.. (أردف طارق)

- تفضل

- شكراً لك.. في غرفة التحقيق جلس فشكة ومعه كافور للتحقيق مع علاء.. أمّا أنا فقد كانت مهمتي أن أحضر الموقد الكهربائي ومعه حديدة الوسم.. ثم علي أن أحمّي الحديدة حتى يطلب مني أن أوسم المعتقل

- ولم هذا التصرف البربري!.. (سألت بتول بقرف باد على محيّاها)

- لا أدري.. عادة قديمة لكافور.. وقد أعجب بها قاسم الطالح مدير الفرع في حلب وأثنى عليها في أحد الاجتماعات الإقليمية.. هكذا قال لنا كافور في اجتماع صباحي ما.. المهم.. بدأ التحقيق بكلمة واحدة.. أأنت من الأصدقاء؟.. فأجاب علاء "لا علاقة لك".. فانهال عليه بالضرب.. يرفع يداً وينزل الأخرى حتى أغمي عليه.. اقتربت كي أوسمه فنهرني كافور قائلاً "عليه أن يستشعر الألم جيداً".. ثم أمرني أن أحضر دلواً من الماء.. عندما عدت رأيت علاء وهو يفرغ كلّ ما احتوت عليه معدته وقد غزت بركة من البول مجلسه.. اكتشفت لاحقاً أنهم أيقظوه بالتبول عليه.. المهم قذفت الماء عليه محاولاً أن أنظفه قليلاً.. أعتذر منك يا علاء.. لم أستطع أن أفعل أفضل من ذلك

- لا بأس

- المهم يا أصدقاء.. هنا أمرني كافور أن أوسم علاء قائلاً.. "حان وقت زينة العروس.. هيااا".. فقمت بتزينه عند رقبته كما ترون.. أنا آسف مرة ثانية.. ما باليد حيلة

- لا بأس.. ستزول لا تقلق.. (أردفت أنا بصوت المثقف الواثق)

- حقاً!

- وأين تظن نفسك تعيش.. في أميركا في القرن الثامن عشر!.. طبعاً ستزول يا رجل.. مرهم واحد كفيل بإزالة كل الخلايا الجلدية التالفة.. يومين وستقشطها جميعها لتنمو خلايا جديدة.. لا تقلق.. أكمل طارق العزيز

- ثم ابتعد عنه ونفسي تتخبط من الداخل.. سنوات وأنا أوسم الناس ولم أستطع حتى الآن أن أعتاد الموقف.. فجأة رّن هاتف كافور.. كان المتصل أحد الحرس.. أخبره بأن رامي وبتول ينتظران عند الباب الرئيسي.. فخرجت.. وفي اللحظة التي فتحت الباب خرج كلّ شيء من فمي كنت قد أكلته.. أنا آسف بتول.. آسف رامي

- أنا سأكمل من هنا.. (قال رامي)

السبت الأسود

(قيس قهوجي)

مضت أيام قبل أن نجتمع مجدداً في مزرعتي في الزبداني، حضر الاجتماع فراس الفرّان وأنا ورامي وبتول وعلاء، وثلاثة ممن تابع العمل من الجيل السادس ورافقتهم لانا الخطيب، نهض فراس وتحرك ذهاباً وإياباً بعد وصول آخر المدعوين للاجتماع، كان يحدّق بكل تفاصيل الغرفة، في وجوهنا وملابسنا وفي كلّ شي تمكنت عيناه من التقاطه، لكنه بقي صامتاً.

صمت زاد من توترنا، ففراس لا يتصرف بطريقة مماثلة إلّا في حال وقوع مصيبة، هو دائم التهيؤ والاستعداد ولكنه يفضل أسلوباً يساعدنا، كما يقول دائماً، على استقبال المصائب، وإذا انتهى من دورانه وذهابه وسبر الغرفة وتفقد الوجوه والتفاصيل، يقف رافعاً عصاه، ثم يبدأ بدق آخرها بالمنضدة إن وجدت أو بأي شيء خشبي آخر، في اجتماعنا هذا كنا نجلس خلف منضدة خشبية مربعة طويلة.

ثلاثون دقّة كما أذكر، ثم توقف وقال لنا بصوت قوي وواثق:

- كما تعلمون يا أفاضل.. كما تعلمون.. إبراهيم لا أثر له.. بحثنا عنه طويلاً.. حتى أننا صرفنا خدمات من معارف واستهلكنا علاقات من كل حدب وصوب.. استهلكنا طاقة ومعرفة اعتقدنا بأننا لن نهدرها قبل عشرين عاماً.. والنتيجة!.. لا أثر له.. فص ملح وداب.. ولكن.. صباح اليوم

ثم توقف عن الكلام وأخرج من معطفه ظرف رسائل، فضّه للمرة الثانية، ففراس يحب إعادة الرسالة إلى وضعها الأول بعد القراءة الأولى، ثم أخرج مجموعة أوراق ورفعها في وجهنا، وقال بغضب:

- ولكن صباح اليوم وصلتنا هذه الرسالة.. رسالة طبيعية.. ورقية.. من يستخدم هذه الأسلوب القديم غيرنا!

- لا أحد

قالت الجملة لانا بعد أن أبعدت نظارة القراءة عن وجهها، فيبدو أنها أنهت قراءة الورقة التي طلب منها فراس قراءها في اللحظة التي وصلت فيها إلى قاعة الإجتماعات.

- نعم لا أحد.. إلّا

ثم فتح الورقة وبدأ يقرأ:

- تحية طيبة لك يا فراس بيك الفرّان.. أيها الصديق العزيز.. أيها المقاتل اللطيف.. منذ أيام اقتحم السيد المغوار قيس قهوجي.. من الجيل الخامس إن لم أكن مخطئة.. مقرنا في مارع.. لم تكن مشكلتنا في اقتحامه أحد

مقراتنا.. لا لاا.. أهلا وسهلاً به متى شاء.. العزيز صديق العزيز.. نعم.. ولكن أيضاً كن على ثقة بأن مشكلتنا لم تكن طريقة الدخول.. لا لااا.. صحيح أنه أتلف أرضية الغرفة بعد أن اقتحم بحفارة أظن أنها على حسب ما أظهرت الكاميرات من

– الكاميرات!.. (قال رامي)

– نعم الكاميرات.. وكيف لك أن ترى كاميرا بحجم نملة!.. بحجم نملة وبلون صباغ الغرفة وموضوعة في السقف

– لكنها تقنية ممنوعة!.. (أضافت بتول)

– عفواً.. إنها الشمس التي نتعامل معها.. (أردف فراس، ثم أكمل يقول).. فلنعد إلى الرسالة.. أظن أنها على حسب ما أظهرت الكاميرات من الطراز ألفا واحد ومن التقنية السابعة عشر.. ولكن لا بأس.. حتى أنني لم أنزعج من الضرر الذي قد يسببه النفق الصغير المتواضع.. ولكن ما أزعجني فعلاً هو جريمة القتل التي حدثت داخل الفرع

– جريمة القتل!.. ما هذا الهراء

قاطعت فراس بصراخ دوّى في أنحاء المزرعة، نظر فراس إلي مبتسماً وكأنه يذكرني بأن أتدارك الغضب غير المبرر، ثم قال:

– اسمع يا قيس.. اسمع حتى النهاية ولا تغضب.. المهم.. جريمة القتل هذه التي حدثت بدم بارد.. أخي اقتحمتم مركزنا وقررتم تحرير السجناء.. هذا حق ونحن المخالفون هنا.. لقد أخطأ محمد علواني الملقب بكافور وهو الآن ينال عقاباً منا.. وإذا أردتم ارفعوا دعوى ضده فهو تصرف بمفرده وأخطأ وأنا على

كامل الاستعداد لإغلاق قسم مارع نهائياً فالشباب في ذلك المكان مصدر إزعاج حقيقي.. وأخص بالذكر "فسوة".. صحيح ما أخباره سمعت أنه نال شرف الجيل الأول أخيراً.. انقل له قولي "ألف مبروك" وقسم المحاسبة لدينا بانتظاره لصرف مكافأة نهاية الخدمة.. المهم.. ولكن جريمة القتل!.. ما هذا!.. أين نقطن نحن وفي أي العصور.. أنت تعلم بأن إقليم حلب هو الوحيد الذي لم يوقف حتى الآن حكم الإعدام في سوريا.. وجريمة القتل هي جريمة قتل ولم يكن من اللازم الدخول عنوة إلى الفرع وقتل الحارس وأخذ الشباب

- وكيف لها أن تحسب جريمة قتل؟!.. ومن القتيل أصلاً؟!

- اسمع ولا تتعجل يا رامي

صاح فراس ثم عاد ليكمل القراءة، لكنّ رامي أكمل كلامه:

- لاا لاا.. تقصد فشكة بالتأكيد.. لقد وضع دياب قطعة قماش فيها مخدر.. لم يضع سماً.. التحقيقات.. لا يوجد تحقيقات.. ما هذا التخبيص الذي

- رامي!

صاحت لانا كي تسكت رامي، ثم نظر فراس في عينيها مميلاً رأسه ليشكرها ثم أكمل القراءة:

- فلدي مكتب مفتوح أربع وعشرون ساعة.. لم كل هذه السرية.. خوفاً على انكشاف الخطة!.. أتريدون إسقاط جبهة الأحزاب العشرين ثم تغيير الدستور.. لا بأس.. فلنفعلها سوية.. أنا مستعدة أن أكون شريكة يا جماعة.. المهم.. أرفقت مع الرسالة فيديو ستشاهدون فيه فشكة -بعد أن وضع قيس على فمه

قطعة القماش- يسقط صريعاً.. ما هذا الدم البارد الذي يقتل به صديقك الوفي قيس أحد رجالي الأوفياء.. ولماذا!.. المهم.. الوثائق التي تمتلكونها.. كلها والفيديوهات المصورة مع المعمرين.. وكل ما جمعتموه.. أريدها كلها عندي.. دون زيادة أو نقصان.. كلها.. ومن ثم أريد معها قيس ورامي فلنقل كرهينتين حتى أتمكن من محو الأدلة جميعها ثم تصحيح مسار الحزب وإرسال الموتى إلى مقابرهم شاكرين تعاونهم خلال السنوات السابقة.. ثم فلنتكلم بصراحة مالي ومال الحقيبة الوزارية فمنذ اليوم لا أريدها لا بأس فخسارة يد أفضل من خسارة الجسد كاملاً.. هذه قضية خاسرة .. وبهذا سنصمد لسنوات قادمة هذا إن لم نستمر حتى يرث الأرض وما عليها.. ولم لا!.. لم لاا!.. بالمناسبة سأكون أكرم منكم وستكون المهلة المطلوبة شهر واحد قبل أن تقدم الأدلة إلى المحكمة العليا في حلب ليتم الإقرار بجريمة القتل.. أو سنغلق ملف الجريمة وملف جبهة الأحزاب العشرين.. ولا أظن بأن دم قيس ورامي قهوجي وباقي الشلة رخيص عليكم.. وبالمناسبة لن يُعدم كافور بل سيُسجن في أسوأ الأحوال خمس سنوات وسيُغلق قسم مارع.. ولكن لا مبرر لقتل فشكة.. المهم أنتم تعرفون القانون.. وإن أكمِلت القضية لمعرفة أسباب اعتقال علاء وإبراهيم.. هاا صحيح أين إبراهيم؟!.. سمعنا أنكم تبحثون عنه.. هل وجدتموه؟!.. بحثت أنا عنه أيضاً.. لم يكن يومها مع علاء.. ولا ندري أين هو.. لا أثر له أبداً أبداً.. تخيلوا.. فص ملح وداب.. داب كفص ملح.. المهم.. إن استُكمل التحقيق في القضية فستدخل جبهة الأحزاب العشرين المعركة القضائية نتيجة اختراقات طالتها منكم وهذا لن يكون جيداً لكم أبداً.. وقبل أن تسقطوا الأحزاب العشرين سيحال كثيرون إلى القضاء

وسيدخلون السجون ومن ثم ستسقط الجبهة وتليها باقي القصص.. أجِّلوا المعركة واستسلموا في هذه الجولة.. ولتكن المواجهة لاحقاً.. بعد عشرين سنة مثلاً.. وإلى أن تقرروا يا صديقي فراس بيك الفرّان إلى اللقاء.. قبلاتي

- وباقي الأوراق!.. (قلت له)

- باقي الأوراق نصائح كتبَتْها وخطوات تُفصِّلها لكي نقوم بالعمل سوية.. تسليم آل القهوجي ومن ثم تشكيل لجنة مشتركة لمتابعة القضية.. ومن ثم العمل على تدمير جميع الأدلة التي يحملها الطرفان.. بعد التأكد بأن جبهة الاحزاب محمية سيسجل في تقرير وفاة فشكة أنه مات منتحراً وهكذا تصبح جميع الأدلة لا طائل منها وتبدو وكأنها مزوَّرة بعد أن تُسجَّل القصص في أوراق رسمية ويكتب الطرفان إقرارًا بخلو المسؤولية كاملة من كل شيء وبأن أي ورقة ستظهر لاحقاً هي محض تزوير

- تزوير؟!.. (سألت بتول بصوت قلق)

- نعم نعم.. تزوير

- وما قصة الوزارة!.. (سألت بتول)

- ألم تسألي نفسك يا بتول.. ما فائدة تزوير أصوات المعمرين.. ولماذا لا تزوَّر أصوات الشباب الذين توافيهم المنية!

- لا

أجابت بتول بخجل، فأردف فراس يكمل:

- في عام 2070 أصدر البرلمان قانوناً يقضي باحتساب أصوات الثوار القدامى بنحو منفصل في الانتخابات البرلمانية المركزية.. على أن يكون عمر المعمر في عام 2011 تجاوز الثامنة عشر وهذا شرط ضروري.. وبهذا يبدأ الحساب في عام 2070 لكل من تجاوز عمره سبع وسبعون عاماً.. عند الفرز يحصل من تجاوزت أصواته من الأحزاب الخمسين ألف صوت من أصوات الثوار القدامى على حق المشاركة في تشكيل الحكومة المركزية القادمة فيحق لهذا الحزب أن يأخذ حقيبة وزارية واحدة على الأقل.. وضع هذا القانون تقديراً لجهود المعمرين واحتراماً لرغباتهم بعد أن ضحوا لنصل إلى ما وصلنا إليه

- ألا يعد الخمسون ألفاً رقماً متواضعاً؟.. (سأل رامي)

- أشارت الإحصائيات إلى أن عدد الثوار القدامى في تلك السنة نصف مليون تقريباً.. وعلى الحزب أن يجمع خمسون ألف صوت منهم ليضمن مشاركته في الحكومة وغالبية الناخبين القدامى منتسبون لأحزاب قديمة.. لقد كان قانوناً منهكاً فقد اضطررنا للعمل ليلاً نهاراً لنجذبهم للأحزاب الجديدة وقد تمكنا من أن نبعد الكثير منهم عن جبهة العشرين.. المهم.. وهكذا مع الأيام وكل أربع سنوات وعند كل دورة جديدة لانتخابات البرلمان يقل العدد المطلوب عشرة آلاف.. أي يؤخذ بعين الاعتبار الوفيات.. في الدورة الثانية التي تلت القرار أي في عام 2078 قرر عدد لا بأس به من مناصري أحزاب جبهة العشرين أن يلتحقوا بحزب الجماهير فقط ليصنعوا تكتلاً لأصوات الثوار القدامى فيضمنوا دخول الحكومة.. بالمناسبة تم تأسيس حزب الجماهير في سنوات الثورة الأولى خارج سوريا في دولة مجاورة وكان له مراكز في العديد

من الدول العربية والأوروبية.. ومنذ تأسيسه ركّز على استمالة السوريين الفقراء ممن بحاجة إلى مساعدة.. إضافة إلى فئة الشباب وبهذا شكّل بماله معروف المصدر في ذلك الوقت جماهيرية عريضة استمرت مع الأيام بسبب ما كان له من علاقات مع شركات ساهمت في إعادة الإعمار.. وقد حاولت الكثير من الأحزاب الوطنية الحقيقية التي تشكلت بعد عام 2040 القضاء على جماهيرية حزب الجماهير.. كان الهدف صعب المنال إلا على الزمن.. فالوقت كان كفيلاً بذلك.. لكي أكون واضحاً فالمختصر المفيد في السؤال التالي.. ما أهمية الحزب بالنسبة للشمس؟.. بكل بساطة كي تستطيع بتحالفها مع جبهة العشرين دخول الحكومة.. فهذا التحالف يساعدها على استمرارية الحصول على عمل وعقود.. ومنذ سنوات ونحن نحاول دون فائدة تأميم تجارة الحشيش وزراعته.. ونحاول أن تكون عقود حماية المنشآت النفطية والبحرية لصالح وزارة الداخلية المركزية.. وهذا ما كان صعب المنال بسبب مشاركة حزب الجماهير في الحكومات المتعاقبة.. ولذلك سيمكننا الكشف الحاصل في التزوير من إسقاط جبهة الأحزاب العشرين مما يساهم في القضاء نهائياً على قانون الأفرع الأمنية وإلى الأبد.. قصة معقدة لا تهمكم يا شباب.. والآن اقرئي الورقة التي بيدك لانا خانم

– بالتأكيد فراس بيك.. هذه الورقة هي تقرير من قيادة الشرطة في إقليم درعا.. وهي تقول: عثر في صباح يوم الجمعة الموافق 5 شباط 2089 على جثة شاب دون تشويه.. أكد تقرير الطب الشرعي أنه قتل بسبب جرعة زائدة من الكوكائين.. وبعد التحقق من صاحب الجثة تبين أنها تعود لشاب من ريف دمشق.. القلمون.. يدعى إبراهيم محمود الطويل ويبلغ من العمر

– مستحيل!

صاحت بتول بصوت قوي ثم نهضت واتجهت إلى الشرفة وهي تحاول كبت دمعتها الواقفة على شرفة أخرى.

مقتل الصموأل

(رامي قهوجي)

كما قلت لكم سابقاً فإن المسؤول عن ملاحقتي هو عكرمة الصموأل، أو هو المسؤول عن البحث عنّا في دمشق، الفريق كاملاً، ولكن وقبل الدخول في صلب قصة مقتله الظريفة سأخبركم ما الذي جرى بعد الاجتماع في ذلك السبت الأسود، كما أسماه فراس بيك الفرّان.

بعد يوم النحس ذاك تكررت الاجتماعات على مدى ثلاثة أيام متتالية، وبعد اجتماعات على مدار أربع وعشرين ساعة قرر المجلس الأول ما يلي، وسأكتب كما يكتب والدي العزيز:

أولاً: عليّ أنا وقيس أن نختفي عن الوجود، بَحْ، دون أيّ أثر لنا، بالطبع لن تزوِّر شهادات موت أو أي شيء من هذا القبيل، فقط ممنوع أن يعلم أي إنسان أين نحن إلّا قليلون جداً، لانا الخطيب وفراس الفرّان وشاب سيجلس معنا في الشقة ليؤمن احتياجاتنا ويدعى فواز حديد، وستختفي عن الوجود أيضاً المجموعة كاملة ومعهم دياب ظريف، ولكن خارج البلد فمهمتهم قد انتهت الآن ولا حاجة إليهم، وقد جاء وقت إجازة النقاهة، وفي كل مهمة لا

أدري لماذا أنا رامي قهوجي أكون أول المتطوعين وآخر المنسحبين، وقد حاولت أن أقنع قيس على الأقل أن يغادر هو وأبقى أنا.

- لاا لاا.. هذه هي النهاية.. إمّا أن نكمل حتى نهاية الحرب هذه أو سيؤجَّل موتها عشرين سنة تالية إن انسحبنا.. أبداً لن أسافر

هذا كان جوابه بالطبع، المهم، وتتضمن الحركة الأولى بعد اختفاءنا رفضنا تسليم الوثائق الخاصة بالأحزاب الثلاثة، رفض لن يعلن خلال مدة الشهر، وأكد فراس الفرّان بأنه بالطبع، وقد قالها ثلاثة مرات متتاليات.

- بالطبع.. بالطبع.. بالطبع لن يُدفع أحد بساقيه إلى الموت

- فالإقدام على الموت مرفوض في قوانينا

كما أضاف الدكتور طلال حيدر رئيس المجلس الأول.

ثانياً: ستشكل لجنة من كبار المستشارين والخبراء من الجيلين الخامس والسادس لمتابعة القضية، وسيُعلن استنفار كامل لكل الأصدقاء، الكل، ومن جميع الاختصاصات للتفرغ والعمل في قضيتنا، ومنهم ستُشكَّل فرق كاملة تعمل ليلاً نهاراً في أثناء شهر المهلة.

وللفرق العاملة مجموعة من الأهداف المتعلقة بالوصول إلى خيوط جديدة وجيدة في القضية لتستخدم في الهجوم الأخير، كما وصفه قيس قهوجي، وهي: كيف قتل فشكة؟ فالمادة المخدرة الموضوعة في قطعة القماش لا تقتل قطة لطيفة، كما أكدت الدكتورة سلمى قصب باشي، خبيرة تخدير وعارضة أزياء محتملة إن سُحبت منها الشهادة -لا سمح الله- إن سقطنا في المحاكم، وأضافت في أول اجتماع عقدناه.

- من المستحيل أن تكون الكمية زائدة عن حدها فهي تجهز بأيدٍ خبيرة

وهكذا بدأتْ بوضع احتمالات شتّى، أيهما الصحيح: هل مات نتيجة مرض يحمله مسبقاً وكان للمخدر أثر قاتل، أم قتلته الشمس ورجالها بعد هروبنا ومن ثمّ زوّروا وثيقة مخبر الطب الشرعي وباقي الوثائق؟ والجميل في القصة أن الوثائق بلا تواريخ، خبيرة فساد وعلينا القضاء عليها. من ثم، كيف قتل إبراهيم؟! كيف قتل! بالتأكيد ليست جريمة كاملة، لا جرائم كاملة في هذه الحياة، ومن هنا ننطلق إلى الفكرة الثانية، ما الأدلة الممكن جمعُها لحل قضية موته؟! فقد عُثر عليه في منطقة اللجاة، مرميّ بين الصخور، جثة هامدة وبالقرب منه سيارته التي سافر بها إلى حلب، ووثائق المركبة تؤكد أنها انتقلت من إقليم حلب إلى إقليم درعا بنحو طبيعي، راكب واحد، ولقطات له يعبر الحدود بين الأقاليم في اليوم الذي سبق موته بيوم واحد، والأنكى أن الشمس قد وضعت فيديوهات قديمة، فساد في فساد.

ولكن من الجيد أننا لا نعيش في زمن السطوة الكاملة لأفرع المخابرات وإلّا كنا الآن موتى كلنا، المهم، في موقع الجثة لا وجود لكاميرات مراقبة، ولا إنسان، فقط وكما ذكر في تقرير موته، عَثر عليه راعي غنم وقد فارق الحياة ساعتها.

أمّا ثالث مهام الفرق، متابعة أخبار الشمس وتحرُّكاتها، من يراقب من، وما هي آخر أخبارهم، تنشيط الارتباطات والأصدقاء داخل الفرع، جمع المعلومات، الكثير من المعلومات، حتى العثور على مدخل أو نقطة ضعف ما، وهذا ما حدث لاحقاً.

ثالثاً: وهي خطة الانقضاض، وسيأتي وقتها لاحقاً، فقد قال فراس الفرّان في آخر اجتماع:

- أمّا ثالثاً .. فهي خطة الإنقضاض

- وهي؟!.. (سأل والدي)

- وهي التي سنتعرف عليها لاحقاً بعد تحقيق أولاً وثانياً

فلنعد للسرد اللطيف الذي عُرفت به منذ أن صرت صعلوكاً،

مساء ذلك اليوم شاهدته قادماً من بعيد، مساء ذلك اليوم الذي واجهت به عكرمة الصموأل، يوم قتل، يومها وقفت أفكر، هل رآني؟! أم هي صدفة لا أكثر؟ أم أنه يعلم أين أنا؟ ثم أمسكت الشارب المزيّف وخلعته من مكانه، بصقت عليه ثم ركضت محاولاً الفرار، لكنه وكما كنت أسمع عنه، استطاع وبلحظة واحدة الهروب من السكر؛ فغدا أكثر صحوة مني، وأكثر رشاقة وهمّة ودقة، ركضت فركض خلفي ولحق بي حتى حاصرني في حيّ لا مخرج من طرفه الآخر.

وفي اللحظة مواجهتنا وكان لا مفر لي إلّا بمواجهته، عاد فجأة إلى سكره، وصاح قائلاً:

- ألستَ ابن العقربة.. صاحب العلم والمعرفة.. أم الصعلوك سارق الأرغفة؟!.. قل يا ابن الحيوان الذي أعلن الحرب ضد السيدة.. شمس الشموس وربة الأرباب.. أيهما أنت؟!

وكان العرص يعلم من أكون، ابتسمت ثم أجبته براحة بال:

– أتسرق الشعر يا صموأل؟!

– لا هذه لحبيبك.. حسين جيرود.. أتعتقد بأننا لا نعرف عنك كل شيء؟!.. كلّ شيء

– بالطبع تعلمون يا أبناء الصرامي

ثم اقترب أكثر، بين المسافة التي تفصلنا وفي أثناء اقترابه أخرج زجاجة ويسكي من جيبه، شرب منها ثم رفعها وقال لي:

– تشرب يا عرصا؟

فأجبته بقرف مبالغ به:

– أكيد لأ يا خرا

– حرام؟

– لا.. حلال.. ولكن مشكلتي أني أقرف منك

– مشكلة بسيطة.. يا رجل أتعبتني حتى عثرت عليك.. معلومات معلومات معلومات

ردد كلمة معلومات وهو يترنح من السكر أو الطرب أو القرف، فأضفت مقاطعاً تمايله:

– معلومات.. برافو.. أأنت وحدك تعمل في القضية؟

– لا بالطبع فريق كامل.. (ثم جلس على الأرض وقال لي).. انقبر اقعد.. (ثم راح يكمل بعد أن جلست بالقرب منه).. ولكن أمن المعقول يا رجل..

كل يوم في بيت شكل.. ومكان شكل.. تستيقظ في شقة وتنام في شقة ثانية.. وتتحرك كثيراً ونحن نتابعك.. هلكت ربنا

في أثناء حديثه أخرجت قطعتي شوكولا من كيس الأغراض:

– تأكل؟

– أكيد.. (أخذ القطعة وأكمل حديثه) والمصيبة أنه ممنوع أن نمسك بك.. ممنوع منعاً قاطعاً حتى تنقضي الأيام الثلاثون.. هكذا هي الأوامر.. ولكني لم أفهم ما الذي أخرجك من جحرك؟!.. خليك مقبور أنت ووالدك في منزل عربين

– حتى قيس يغير منزله باستمرار

– ولكن بطريقة أخف منك.. فنحن بحاجة إلى أيام كي نكتشف موقعه؟

– وكيف استطعتم مع دقة تصرفاتنا الكشف عن موقعه؟

– مراجعة سجلات الصرف الصحي في دمشق كل يوم.. أي تغير غير منطقي لأي منزل يغدو مراقباً حتى نستطيع رصد المنزل الذي.. (فقاطعته)

– يا إلهي.. الشيطان الرجيم لم تخطر على باله فكرة كهذه.. لكن كيف تكشف لي سر كهذا!

– لا سر ولا بطيخ.. يومين وستنتهي المهلة ولن نتواجه إلّا بعد عشرين سنة.. وقتها ستتطور الأدوات والأفكار..

– كان علينا أن نغادر البلد

– حجي ألا تعلم أنك وقيس قهوجي.. والدك.. ممنوعان من السفر؟!

- ما هذا الكلام التافه

- على أساس لا تعرف

- نعم.. تخيل أني لا أعلم بهذا الموضوع

صحيح، إبراهيم عندما عثر عليه منتحراً، كما جاء في التقرير، قرر محامي الدفاع أننا (أنا وقيس) من المقربون، يبدو أنه محامي فاسد ومن رجال الشمس، بالطبع ثلاث سنوات كاملة من العمل سوية تحوّل العدو إلى صديق، فكيف بصديق كإبراهيم، لكنه لم يضَع بتول أو علاء في القائمة، وهذا ما يؤكد أنه فاسد يعمل لصالح الشمس بعد تعيينه من قبل المحكمة للتحقيق، فبتول وعلاء يساوي وزنهم صفراً في القضية المشتعلة، بالطبع ضمَّت القائمة أصدقاء له وأهل وأقارب، وكما ينص القانون السوري فإن الانتحار يعد جريمة غير مباشرة، يعيَّن بعد الحادث محامٍ يدير فريقاً من المحققين للبحث عن أسباب الانتحار ومسبباته، والبحث عن مسببين أو دافعين، أو حتى عمن سمع عن نيته بالانتحار لكنه لم يفعل شيئاً، ويترتب على هذه القضية، حظر للسفر لكل الأشخاص المدرجة أسماءهم في القائمة، ومجموعة واسعة من العقوبات تبتدئ بالأعمال الاجتماعية ودفع غرامات وسجن لسنوات يحددها القاضي.

بالطبع كان بالإمكان ذكر القصة سابقاً عندما قلت لكم أن والدي قال:

- لاا لاا.. هذه هي النهاية.. إمّا أن نكمل حتى نهاية المغامرة أو نؤجل موتها عشرين سنة ثانية.. أبداً لن أسافر

بالطبع قيس قصد ما قاله بالتحديد أن مهام كل من سافر انتهت إلّا نحن، ولكن الحظر هو سبب ثانٍ وقد اتفقت مع قيس أن أذكره أنا زيادة في التشويق، فوافق.

فلنعد إلى حديثي مع الصموأل،

- أنت تكثر من الشرب يا صموأل.. ضع الزجاجة جانباً ودعنا نحتسي فنجان قهوة في مقهى ما كي تصحصح ونتكلم رجلاً لرجل..

- لا أستطيع أن أتوقف عن الشراب يا رجل.. مستحيل

- صحيح سمعت عنك كثيراً.. ولكن ما السبب؟!

- اييييييه.. (قال اييييه ثم ارتشف رشفة كبيرة وأكمل).. أسمعت يوماً بدوار اليابسة؟!

- هاااا.. أتقصد من يعيش في البحر طوال حياته ثم

- وهل هنالك من يعيش بالبحر طوال حياته يا جحش.. (قال جملته بغضب ثم أردف) لا لااا.. أنا عندما أكون صاح أشعر بدوران الأرض حول نفسها.. أرى كل شيء يدور ويدور.. كل شيء.. أشعر بها.. المباني تتحرك والناس تتحرك وأنا.. يا إلهي أنا.. أخاف وأنقبض وأتمسك بالأرض.. كل شيء يتحرك.. دوار الأرض ألعن مرض.. ألعن من ألعن فوبيا في الوجود.. أصعب من فوبيا التنفس

- فوبيا التنفس؟!

- الرجل الذي يخاف من نفَسه.. أيأخذه ثم يموت.. أم يخرجه ثم يموت.. ناس مجنونة يا رجل

- بالفعل.. (ثم ابتسمت ساخراً من حاله)

- لم تقل لي.. ماذا تفعل هنا قرب منزلي؟!

- منزلك! إذن منزلك اليوم هنا.. في حيينا.. يا أهلاً ويا سهلاً.. قل لي الآن.. لماذا تركت والدك وبدأت تترحل.. خلاف بينكما؟.. مستحيل.. ولا تقل لي بأنك صعلوك.. يعني شي بخري الصراحة وهذا السبب كذب.. أتدري بحثنا كثيراً عن هذا السبب.. لماذا كل هذا التحرك والتجول.. ما الذي دفعك لكل هذا.. والمشكلة.. تحركاتك عشوائية ومن المستحيل أن يكون عملك مدروساً.. يا رجل كلفت عالم رياضيات ليكتشف وجود أي متتالية عشوائية تعمل عليها.. ولكن لاا.. كل شي عشوائي بالكامل.. دون أي متتالية.. قل لي ما السبب؟.. فوبيا اليوم الكامل!.. وأين كنت أول ثلاثة أسابيع!

بالمناسبة فوبيا اليوم الكامل، هو اضطراب البقاء في أي مكان مغلق مدة تزيد عن الأربع وعشرين ساعة.

- الأسابيع الثلاثة.. عشت على الأدوية والمنومات.. ولكن لأكون صريحاً معك.. هكذا هي الأوامر وهذا هو المطلوب مني

- أكيد

ثم ابتلعَنا الصمت لدقائق، قاطعه الصموأل:

- أنت تعلم بأنه ممنوع أن نمسك بك.. وأنت لن تهرب من القضية أبداً وأنا أعلم هذا الشيء جيداً.. فقوانينكم واضحة.. القانون السوري أولاً

- لا لاا لن أهرب بالتأكيد.. ولكن

أخرجت لفافة تبغ ثم أشعلتها، وبعد نفس ثانٍ أكملت:

- أتعلم أن التعامل مع مجرم أمر مقلق

- أتخاف أن أقتلك؟.. بالطبع لن نقتلك.. أصلاً يدنا هي العليا.. (ثم رفع يده وأنزلها بسرعة وكأنها آلمته من الخدر)

- أدري أني لن أقتل.. ولكن أنت تعلم سر المهنة

- ايييييييه.. ولكن لم أقتنع بفوبيا اليوم الكامل.. سيدي.. الأوامر أن نراقبك فقط.. وإلّا كنت اقتلعت رأسك من مكانه

ثم أخذ رشفة أخرى، نهض وراح يغني مبتعداً عني، وفي هذه اللحظة أخرجت، من كيس الأغراض التي اشتريتها من عند العم رأفت زكريا، مسدساً ورفعته ثم أطلقت النار منه ثلاق طلقات متتاليات.

لا لااا، أنا لا أغدر، أبداً، فالقصة ناقصة، سأعود بكم إلى الوراء قليلاً حيث كنت أجلس أنا وقيس وفراس الفرّان قبل أسبوع واحد من مقتل الصموأل.

- أمّا ثالثاً وكما أخبرتكم سابقاً فقد أصبحت الخطة جاهزة

قال الجملة فراس وهو يقف حاملاً عصاه كالعادة، قالها متفاخراً بما أنجر في مهمته الأخيرة قبل أن يصبح رئيساً للمجلس الأول، ثم أكمل يقول:

- باقي عشرة أيام لنهاية مهلة الشهر.. بالطبع لا جديد بالنسبة لقصة موت فشكة ولا يمكن حتى الآن أن نقدم دلائل تثبت ماهية المادة التي وضعت في قطعة القماش تلك.. ولكن

ثم تحرك من مكانه محركاً عصاه للأمام والخلف، وراح يكمل:

- ولكن تمكنا من إمساك خيط ثانٍ أو أهم.. أهم بكثير.. إن تمكنا من إحضار فيديو كامل من منطقة اللجاة لحظة وضعت جثة إبراهيم هناك

- لا يوجد كاميرات في تلك المنطقة.. (قلت أنا ثم قال قيس مؤكداً)

- ولا حتى كاميرا واحدة

- أعلم.. هذه المعلومة قديمة جداً جداً.. ولكن أنا أتحدث عن أقمار صناعية

- أقمار صناعية!.. واتفاقية برلين الثانية!

لمن لا يعلم، اتفاقية برلين الثانية أو كما تُسمى أيضاً اتفاقية حظر التكنالوجيا جاءت بعد أزمة المعلومات التي حدثت بعد خلل عظيم بسبب أنظمة الذكاء الصنعي متعدد الاستخدامات، التي انتشر استخدامها في كل المرافق العامة والخاصة، تلك الأزمة سببت ضياعاً كبيراً وخطيراً في المعلومات، فحظر تطوير واستخدام التكنلوجيا إلا في مجالات محددة وضمن أنظمة مراقبة دولية، كما حظرت الأسلحة النووية قبل عقود.

وهكذا عاد التباطؤ في التطور التكنلوجي إلى طبيعته، وأعتقد أنا وكل صعاليك العالم، أنه ضمن قرار أممي كبير لمحاولة ضبط العولمة والتطور الذي سبب موجة وعي عالمي لم تكن موضوعة بالحسبان.

المهم، في الاتفاقية فقرات أخرى، منها أن صناعات الفضاء والسلاح من المحظورات على قائمة دول منها سوريا لمدة مئة عام، أي حتى عام 2135، وبهذا نحن لا نمتلك أقماراً صناعية واستخدامها أو الولوج إليها من المحظورات علينا.

فلنعد إلى الحوار بيني وبين قيس وفراس،

- فيديو كامل

قال فراس بصوته الواثق المتفاخر، ثم أردف بعد أن نهض على ساقيه وتحرك جيئة وذهاباً:

- هبط عكرمة من السيارة ثم أخرج منها كيساً أسوداً.. فتح الكيس وأخرج منه جثة إبراهيم وألقاها قرب السيارة.. ثم بدأ بكاشف البصمات فمحا كل دليل على وجود بصمة لغريب ما.. ثم برمج الصندوق الأسود ليتناسب مع إبراهيم.. وزن السائق وطوله ووو.. ثم غادر

- وهل الفيديو مفيد؟

- أكثر من اللازم.. ندبة يده اليمنى.. ملابسه.. صلعته.. أنفه.. ضحكته.. كل شيء.. بصمة حركته ومشيته وأفعاله اللاإرادية.. وبصمة حرارته وهي المعلومة الأهم

- وكان وحيداً.. (سألت)

- نعم

- كيف؟.. هل باستطاعته أن ينفذ مهمة ك.. (لكن فراس قاطعني)

- هذا عكرمة بركات يا رجل.. عكرمة الصموأل.. إنه السوبرمان.. شديد القوة والملاحظة.. ذكاؤه في السكر أكثر من غالبية البشر في صحوتهم

- ينقصه أن يكون صديقاً

قال قيس، ثم أكمل فراس:

- ستتعرف عليه

- أنا.. (قلت وعيني متحجرتان)

- نعم.. المهم.. فلندخل في صلب ثالثاً.. سوف تذهب إلى شوارع دمشق.. وستحمل معك ملفاً كُتبت فيه الخطة كاملة.. أين ستنام كل يوم وأين ستكون كل ساعة.. وماذا ستقول ومن ستلتقي.. كل ساعة وكل دقيقة مخططة.. حتى كلامك.. سيجري تعيين مجموعة كاملة لتعلم أين أنت وتُلاحقك.. الخطة كفيلة بتضييعهم.. ستتحرك في أزقة مظلمة لا تحتوي على كاميرات لتضيّعِهم وستسير في شوارع مراقبة وفي أوقات مناسبة ليعثروا عليك.. سنعطيهم اليد العليا معك.. ستكون صعلوكاً كامل المواصفات

- أنا صعلوك بالأساس.. (قلت جملتي متفاخراً)

- وهذا هو المهم.. أن خروجك وتصرفاتك مقنعة

- لا أعتقد بأنها مقنعة

- بلى.. كل المنازل التي ستتنقل فيها ملك لصعاليك.. سيكتشف الصموأل هذه المعلومة ولكن متأخراً.. ثم لا تنسى بأن لديك فوبيا اليوم الكامل

- أنا!

- نعم بدأنا بنشر الشائعة.. ولكن المهم عليك أن تكون شديد الالتزام بخطوات الدفتر وأهمها التوقيت.. لا تقلق لن يعتقلوك ولن يتعرضوا لك إلّا في اليوم الحادي والثلاثين وفي ذلك اليوم ستكون في مرحلة تنفيذ الجولة الثانية من الخطة

- ممتاز.. (قلت بصوت كله ثقة)

- المهم.. في اليوم التاسع والعشرين سيقتل الصموأل

- ما!.. ماذا!.. من.. من سي.. من سيق.. أنا!

- نعم أنت ستقتل الصموأل

- ممنوع القتل.. لن أخالف العهد.. لن.. لاا لاااا.. لاااا

- سيُقتل الصموأل هذا هو الحل.. اسمع لا وقت لدي.. كل شيئ موجود في الملف.. ولكن لا تقلق.. فالأصدقاء لا يقتلون

- الأصدقاء لا يقلتون.. (ردد قيس وراءه بابتسامة لطيفة أراحتني)

- والخطوة الثانية؟!.. (سألت)

- سيأتي وقتها لاحقاً.. الآن اذهب ونفِّذ ما كتب في الملف بكل حذافيره

في الملف أوراق وصور وخرائط، في ورقة التعليمات كتب أنه وبالصدفة البحتة عليّ أن أزور دكانة رأفت زكريا، وهو سيتكفل بالحديث اللطيف حيث أنني قد اخترت المكان مصادفةً، وسيزودني بما أريد من طعام وشارب، إضافة إلى مسدس من نوع خاص، سأستخدمه في إطلاق النار على الصموأل

من الخلف، كغدار وغد، ولكني لست غداراً ولا وغداً والدليل ما ستقرؤون، سأكمل لتعلموا من هو رامي قهوجي يا أعزائي.

أطلقت النار فسقط كخرقة قماش بالية، لم تفده عضلاته ولا خبرته الإجرامية ولا حتى نسبة الكحول المرتفعة في دمه، سقط فقط، لم يعطس حتى، ركضت اتجاهه، حملته كما كتب ثم انطلقت إلى سيارة مركونة مقابل الحارة المغلقة التي حاصرني بها الصموأل، بالطبع الحارة المغلقة لا تحتوي على كاميرات مراقبة على عكس الشارع الذي فيه السيارة، وهكذا التقطت الكاميرات صوراً لنا وللسيارة ولكل تفصيل مهم.

فتحت الباب ثم وضعته وانطلقت، وبالتأكيد اتبعت الطريق المرسوم في الدفتر بحذافيره، وفجأة وعند تقاطع الشعلان اصطدمت بي سيارة من طرف الباب المقابل لي فقلبت سيارتي، وكما تعلمون المقاعد الرجاجة وأكياس الصدمة كان لها عامل الأمان الكامل.

وهكذا غبت عن الوعي واستيقظت تقريباً بعد ساعتين حين بدأت الشمس الحقيقية بالشروق، وقد طُلب مني أن أذهب إلى منزل أخي، أو طليقة أخي، لنتوجه إلى مزرعة فراس بيك الفرّان في الرحيبة.

بالمناسبة ستعلمون أني لست بغدار ولكن لاحقاً، فقد قام قيس بحذف شهادتي التي كتبتها هنا عمّا جرى عندما كنت غائباً عن الوعي، وقال بأنه ليس من اللائق أن أكتب شهادة لم أرها بأم عيني حتى إن كانت حقيقية.

اللقاء الثاني

(ديما قهوجي)

على الطريق الواصل بين حمص ودمشق تقع منطقة تسمى القلمون، يقسم الطريق الدولي الأول القلمون إلى منطقة شرقية وأخرى غربية، في كلتا المنطقتين لدينا مزارع تعمل ليل نهار في زراعات متنوعة، في القلمون الغربي الكرز والمشمش والتين والزيتون، أمّا في الشرقي فزراعة البطاطا والعنب هي الرائجة، تتبع المزارع لشركة تسمى "الفرات"، تأسست الشركة عام 2035 بالشراكة بين والد جدي صلاح قهوجي وتركيا مع الحكومة المركزية، تأسست الشركة بعد مشروع تقدم به جدي في البرلمان لشق نهر الفرات بخطوط طولية وعرضية لتغطي مساحات واسعة من سوريا لاستغلال الأراضي الزراعية طولاً من دير الزور إلى الغوطة ودرعا وعرضاً من تدمر إلى حمص ثم طرطوس، وغدا الفرات يحتوي على حلقات تنطلق إلى الجنوب ثم تعود لتلحق به مرة أخرى، ومن الحلقة الأساسية تخرج حلقات فرعية تغطي العرض السوري، وافقت الحكومة التركية على دعم المشروع على أن تنال نسبة أربعين بالمئة من استثمار الأراضي الزراعية البور التي تملكها الدولة على أن تنال دولة قطر الأربعين بالمئة الثانية من المشروع وتتكفل بدفع التكاليف كافة، والعشرين بالمئة المتبقية تنالها شركة صلاح قهوجي.

وافقت دمشق على المشروع على أن تستثمر الدول مدة خمسين سنة في المشروع منذ لحظة توقيع العقد ثم تنتقل ملكية المشروع بنسبة ثمانية بالمئة للدولة وتحافظ الشركة على نسبة العشرين بالمئة.

توفي والد جدي وأخذ عنه جدي عاتق العمل جدي، ثم جاء دوري، توليت العمل في الشركة وإدارتها منذ ثماني سنوات، أي منذ أن كنت في الثانية والعشرين من عمري، مع متابعة من عمي الأكبر مرتضى قهوجي، وبالطبع منذ أربع سنوات انتهت مدة الخمسين عاماً وانتقلت ملكية الثمانين بالمئة للدولة، وأكملنا العمل على إرثنا كما يجب، حتى حصلت القصة التالية.

كنت أركب السيارة مع جورج متجهة إلى مزرعة فراس الفرّان كما اتفقت أنا وأخي الذكي، كنت لحظتها مشغولة البال على والدي، صحيح أني ابنته وأني من الجيل الخامس ولكن هذا لا يعطيني الحق بمعرفة ما يجري، حتى أخي حازم أعتقد أنه لا يعلم أكثر مما عليه أن يتولّى، هذا الشيء مقلق، لا يختفي قيس بهذه الطريقة اللئيمة إلّا إن حدث أمر جلل، والمصيبة أن رامي قتل أمس الصموأل وهذه المصيبة الأكبر

- رامي قتل الصموأل.. يا إلهي.. (قلت الجملة بصوت عالٍ)

- عفواً.. (قال جورج)

- أسمعت بخبر مقتل الصموأل؟

- بالتأكيد

بالطبع أشار لي بابهامه الأيسر عندما نقره على صدغه وكأن حازم سيرسل غريباً في وقت عصيب كهذا.

- الجيل الاول؟

- بكل فخر

- ألف مبروك

- الله يبارك فيك

- إذن عندك خبر؟

- تقريباً.. سمعت أن الصموأل مات ولكن الخبر لم ينتشر بعد في دمشق.. عندي مهمة ثانية

- همممممم.. الجيل الأول وأخطاؤهم المعتادة.. (حدثت نفسي ثم قلت بصوت عالٍ) أستخبرني بمَ كلفت؟!

- لا بالطبع.. ولكن أنا كنت سائق سيارة الإ.. (قاطعته قبل أن يكمل ماذا فعل)

- لا تكمل

- أرجو ألّا تخبري السيد فراس

- بالطبع هذه الشيء معتاد.. ولكن الثقة مطلوبة.. تعلِّمكَ من كيسك يا جورج

- بالتأكيد.. شكراً لك

ثم ابتسمت في وجهه بلطف وكأني أخبرته بأني غير قادرة على مواصلة الحديث، إنه لطيف ولكن كما يقال "متلازمة الجيل الاول".

بعد نصف ساعة من الحوار عبرنا بوابة المزرعة حيث ينتظرني الخبر اليقين، هبطت من المقعد حيث يقف فراس بانتظاري بردائه المعتاد، رفع عصاه مرحباً:

- وأخيراً وصلت السيدة الأولى

- شكرا لك فراس بيك الفرّان

- تفضلي يا عزيزتي.. مزرعتك هذه

- قل قصراً وحدائق.. ما شاء الله.. منظر رهيب.. والجسر فوق الحلقة الفراتية.. شيء عظيم

- نعم نعم.. أحجار فرنسية أصلية تعود إلى القرن الثالث عشر.. تفضلي

في الصالة الكبيرة داخل القصر لوحة كبيرة رسمت بخط يد ماهرة لا توصف، تبخرت الكلمات ولم تخرج، فقط وقفت أمامها محدقةً متعجبة حتى قاطعني قائلاً:

- جميلة؟

- يا إلهي.. هذه صورة جد جدك؟!

- نعم.. توفيق بيك الفرّان.. رحمه الله

- يااااه.. في أي عام توفي؟

- عام 1980.. بعد عام من وفاة ابنته.. عمتي أسماء الفرّان

- الله يرحمهم

- تفضلي إلى مكتبي

- شكراً لك

بعد أن دخلنا وقبل أن يغلق الباب وراءه قال وبصوت مختلف عمّا سبق:

- والآن.. حان وقت العمل.. تفضلي اجلسي

- شكراً لك.. (ثم جلست وبدأ يتكلم)

- طبعاً أول زيارة لك للمكتبة الأم؟

- ممم

حركت شفاهي ووجهي وكل عضلة في وجهي ولم أستطع النطق، المكتبة الأم، يا إلهي لم أحدق جيداً بالجدران الأربعة المحيطة بالمكتب الكبير، المكتبة الأم! هذه هي إذن.

- المهم

- أكيد

- تعلمين بأن الصموأل قُتل؟

- طبعاً.. أنت تعلم فقد وصلتني الرسالة البارحة

- بالطبع أعلم.. المهم.. القصة طويلة جداً جداً.. ولكن والدك

- أين هو؟!.. أعتذر على المقاطعة الوقحة؟

- لا بأس.. لا تعتذري.. والدك بخير.. إنه في حلب الآن

- في حلب؟!.. وماذا

- ستعلمين كل شيء في وقته.. لا تقلقي.. المهم.. ما أخبار شركة الفرات؟

- جيدة جداً.. أرسلت لك الدراسة الأخيرة

- بالتأكيد.. قرأت كل شيء.. المهم.. عند مكتب لانا الخطيب

- السكرتيرة الأولى؟!

- نعم نعم.. على مكتب لانا توجد أوراق عليك توقيعها

- بالتأكيد سأوقع.. ولكن ما هي.. إن أمكنني السؤال؟

- بالتأكيد تستطيعين السؤال.. هي أوراق تنازلك عن حصتك من شركة الفرات

- تنازل؟.. لمن؟

- ستعلمين لاحقاً كل شيء.. موافقة؟

- طبعاً.. أكيد موافقة

- جميل جميل

ثم نظر إلى ساعة يده وقال:

- أعتقد بأن اجتماع حازم ولانا قد انتهى.. فلنذهب إلى مكتب لانا.. تفضلي

نهضت ثم نهض ورائي واتجهنا إلى مكتب لانا الواقع في الطرف الآخر من الردهة، وفي الطريق إلى مكتبها، قال لي:

- صحيح.. البارحة تناولت الغداء مع القاضي مازن عزّ الدين.. وقد أخبرني أنه سيوافق على طلبك أنت وسوزان

- عنجد؟!

- نعم.. علينا أن نعترف.. نحن في عام 2189

- بالتأكيد

ثم أكملنا صامتين حتى وصلنا أمام باب مكتب لانا، ولحظة غدونا أمام الباب خرج حازم يحمل ظرفاً وكله سعادة لا توصف:

- ديما هنا.. يا أهلاً ويا سهلاً

- أهلا.. ما الأخبار؟

- ألم تسمعي الخبر.. المجنون رامي قتل الصموأل

ثم قبلني على جبيني كالمجانين الذين تلقوا خبراً عجيباً، ثم أكمل يقول:

- أنا ذاهب إلى اللقاء

- إلى اللقاء

غادر بسرعة كما خرج من المكتب، ثم أشار لي فراس بيده كي أدخل.

- تفضلي

الانقضاض

(حازم قهوجي)

بعد حديثنا الطويل أنا والسيد فراس توجهت إلى مكتب لانا الخطيب حيث يقع في الجهة المقابلة تقريباً إلى اليمين من المكتبة الأم، دققت الباب ثلاثاً ثم انتظرت، وبعد لحظات خرج رامي دون أن ينطق بحرف واحد، نظر إلي حرّك رأسه مودعاً ثم غادر، لأول مرة أراه قلقاً إلى هذا الحد، بعد ابتعاده وما

إن هممت بالدخول حتى لامست يد كتفي، نظرت إلى الخلف وإذ رامي قد عاد وقد علت ابتسامة وجهه وقال لي:

- قررررررربت

ثم أكمل طريقه وهو يقول:

- يسعد الله .. أنا دائماً في الواجهة

ثم دخلتُ،

- السيدة لانا الخطيب .. تحياتي

- أهلاً.. تفضل سيد حازم

- ما الأخبار؟

- جيد

كانت إجاباتها مختصرة وسريعة دون أي تعابير تذكر على وجهها، وقلت في قلبي لحظتها "فعلاً تستحق منصبها بجدارة".

- هذا الملف يحتوي على مهمتك

- بالتأكيد.. أنا مستعد لأيّ.. (لكنها قاطعتني)

- نعم.. أعلم.. رامي قتل الصموأل وحتى الآن لم تُنشر القصة.. في الملف كل تفاصيل الجريمة.. وفيديوهات كاميرات الشارع عندما حمل جثته وانطلق بها في سيارته.. حتى وصوله إلى المستشفى.. وبالطبع يوجد وثائق من المستشفى قد تفيد أيضاً.. وفي داخل الملف ستجد ورقة بأسماء صحفيين

وكتاب وروائيين وإعلاميين.. عينة من المجتمع الثقافي ممن له متابعين كثر.. عليك أن تتواصل معهم كي تبدأ بحملة تنشر بها تفاصيل الجريمة كاملةً في وسائل التواصل والإعلام كافة

- ماذا!

- كما سمعت

- ننشر خبر مقتل الصموأل ونفضح أخي؟!

- أعندك أي اعتراض؟

- طبعاً لا.. ولكن أريد أن أعرف ما القصة

- وهل تعتقد بأننا قتلة؟

- أكيد لاااا.. مستحيل

- إذن ثق بي

- وكيف سأثق بالقائمة؟

- كلهم من الجيل الأول ولم يعلن بعد عنهم

- أووووه.. ممتاز

- وبالمناسبة يوجد مهمة أخرى.. عليك أن تسجل شهادات لهم

- شهادات بماذا؟!

- كل شيء موجود بالتفصيل في الملف.. لا تقلق.. أما الآن فقد أصبح الوقت لألتقي بديما قهوجي.. ستجد جورج في الخارج كي يأخذك حيث تريد

ثم نهضت وتحركت إلى المكتبة التي خلفها، أخرجت كتاباً، فتحته وأخرجت من داخله ورقة، ثم عادت إلي، رفعت الورقة في وجهي كي آخذها، ثم قالت:

- في هذا المنزل ينتظرك عكرمة الصموأل.. إلى اللقاء

- الصموأل؟!.. من؟!.. جثته؟

- في الملف.. في الملف يا حازم بيك قهوجي

- إلى اللقاء

خرجت والتقيت بأختي في الردهة،

- ديما هنا.. يا أهلاً ويا سهلاً

- أهلين.. ما الأخبار؟

- ألم تسمعي الخبر.. المجنون رامي قتل الصموأل

ثم قبلتها على جبينها بسعادة لا توصف؛ فالحقيقة الآن بين يدي، سعادة مؤرخ حصل على حقيقة عجز لسنوات عن الوصول إليها، هذا أنا في هذه اللحظة، ثم أكملت أقول:

- أنا ذاهب إلى اللقاء

- إلى اللقاء

أكملت طريقي عبر الردهة إلى أن خرجت فرأيت جورج ينتظرني، انطلقنا إلى دمشق، كما كتب على ورقة التعليمات، أولاً عليّ زيارة الأشخاص الموجودين في القائمة، كلهم في انتظاري، وكل واحد له وقت محدد ومكان مخصص

له، في أول القائمة علي حمزة، الروائي الأشهر في الوطن العربي، الأزعر صديق مقرب ولم يقل لي شيئاً.

من منزل حمزة انتقلت إلى منزل خالد الهجانة، إعلامي كبير في التلفزيون السوري، ومن منزله إلى منزل آخر ثم آخر، أعطيت كل شخص فيهم نصاً أو فيديو أو مهمة ما، عليهم كلهم أن يخرجوا الجريمة للعلن، على سوريا أن تعلم الحقيقة في تمام الساعة الثامنة مساءً، في هذه الساعة تقرر انطلاق الأخبار المتتالية بنحو مدروس ومعلوم، خبر كإشاعة، ثم سينطلق خبر وتعليق ثم لقاء مع طبيب، ثم سيظهر الفيديو المتعلق برامي عندما كان يحمل جثة الصموأل، وهكذا حتى يصبح أخي مطلوباً في جريمة قتل.

أنهيت كل القائمة الطويلة ثم كُتب في آخر ورقة التعليمات "زيارة العنوان المكتوب على الورقة المنفردة"، وهكذا فعلت.

يقع المنزل المتواضع في يبرود، يقبع في وسط مزرعة زيتون بسيطة لطيفة، يقف أمام البوابة الصغيرة الصدئة من الداخل رجل يبلغ الثمانين من العمر إن لم أكن مخطئاً، عندما تجاوزنا البوابة بسهولة لا توصف، على عكس ما اعتقدت، وتوقفنا أمام باب المنزل، اقترب الرجل من نافذتي ورحب بي، قائلاً:

- أهلاً بالسيد حازم قهوجي

- أهلاً بالعم

- الضيف ينتظرك في الداخل.. تفضل من فضلك

- أنا بانتظارك هنا.. سيد حازم.. (قال لي جورج بلطف مبالغ)

ترجلت من السيارة، أملت جسدي للأمام قليلاً كي أرحب بالعجوز بلطف، ثم دخلت حيث أشار لي بيده.

فتحت الباب الرئيسي للمنزل؛ فلم أجد سوى غرفة كبيرة نسبياً، يتكون المنزل من غرفة واحدة فقط، تحتل الغرفة مساحة المنزل كاملة، في نهايتها عند الزاوية اليمنى باب صغير، اعتقدت أنه لحمام صغير وقد كان اعتقادي صحيحاً، داخل الغرفة لا يوجد سرير خشبي صغير يعود لحقبة قديمة وضع عليه رداء ما، وأمامه كرسي خشبي صغير وبجانبه منضدة يوجد عليها كتاب قديم وقرب المنضدة وعلى الأرض يوجد صحن داخله حبة بندورة كاملة وأخرى مأكول منها قضمتين مع رغيف خبز بالقرب من الصحن.

في المنتصف بالتمام والكمال، يجلس على أرض الغرفة رجل ضخم الجثة كثيف اللحية، يرتدي ملابس زرقاء كالتي يرتديها المرضى في المستشفيات، كان ينظر إلى الأرضية عندما دخلت، لكنه رفع رأسه عندما سمع صوت الباب يفتح وفي اللحظة التي دخلت التقيت عيناي بعينيه.

- مرحبا.. حازم قهوجي معك

- أهلاً حازم بيك.. تفضل على الغدا.. حبتي بندورة كما ترى ورغيف خبز.. أعتذر فأنا أشعر بالدوار وهذا الطعام.. فقط هذا الطعام يريحني.. طلبت

لكنه سكت وبدأ يفرك رأسه كمدمني المخدرات، ثم حاول الوقوف لكنه سقط، ساعدته على الفور ونقلته إلى السرير، وبعد أن استلقى أكمل كلامه.

- طلبت أن يحضروا لي ويسكي وبيرة ونبيد.. نبيد أحمر.. يا إلهي مشروبي المفضل.. ما هو مشروبك المفضل؟

- فودكا مع ليمون والملح

- ايع.. ما هذا القرف يا رجل.. ملح؟

- نعم نعم.. من أنت؟

- أنا من.. لا تعلم من أنا؟

- لا.. أعتذر.. ولكن لم.. لم أستطع أن

- أنا عكرمة الصموأل يا رجل

اللقاء

(قيس قهوجي)

كنا نتابع العملية أنا وفراس الفران عند الصديق غياث علي، رئيس قسم شرطة دمشق، أمامنا شاشة تعرض ما تصوره الكاميرات التي تغطي الشوارع التي تجري فيها العملية، ولابتوب فراس يعرض كاميرا ثبتناها في الحي المغلق.

بعد أن اصطدمت السيارتان فقد رامي وعيه بسبب نظام الحماية، ثم وصلت سيارتا إسعاف، إحدى السيارتين أسعفت رامي ومعه الصموأل إلى المستشفى، سُجلت شهادة وفاة الصموأل في المستشفى وسُجل دخول رامي، ثم خرجا دون تسجيل الخروج بسيارة لنا كان يقودها جورج، وانطلقت إلى يبرود حيث يعمل والد غياث علي في مزرعته الصغيرة.

في عملية القتل استخدم رامي مسدساً يطلق رصاصاً يخترق الجلد في حدود سنتيمتر واحد ويخرج مخدراً قوياً يخفض سرعة دقات القلب لدرجة لن يتمكن طبيب من قياسها، ولكن لا بأس ففي المستشفى التي يمتلكها فراس الفرّان ينتظره طاقم طبي من الأصدقاء، سيقومون بالإجراء الروتينية كلها ثم سيخرجون الشابان دون –كما قلت– تسجيل خروجهم، ثم كانت الخطوة التي لم تسجَّل على الورقة التي سلِّمت لرامي، إذ إن نهاية المهمة هي وصوله للتقاطع في الشعلان.

عند استيقاظ رامي صباح اليوم التالي في يبرود حيث كنا نجلس منتظرين، خرج مع جورج إلى منزل حازم من أجل إكمال بنود الجزء الثاني من الخطة، وخرج فراس إلى الرحيبة، سيصل الشابان إلى المزرعة، سيلتقي كل منهما مع لانا الخطيب كي يتلقى جزأه من الخطة ثم ستلحق بهما ديما لتأخذ جزأها المخصص.

في ذلك الوقت، ذلك اليوم، وهو اليوم الثلاثون، أي نهاية الشهر، المدة الموضوعة لنسلم أنفسنا مع وثائق الأحزاب كاملة، استقليت سيارتي وانطلقت إلى حلب، إلى الفرع الرئيسي للشمس، حيث مكتبها الموجود في برج عالٍ يتكون من مئة طابق، هو المقر الرئيسي للفرع.

سأصل في الساعة الثامنة مساءً إذ إن خبر مقتل الصموأل قد انتشر في كل مكان، خبر مقتل الصموأل على يد الصديق رامي قهوجي، سينشر الخبر مجموعة كبيرة من الأصدقاء، من الجيل الأول، مجموعة موثوقة المصدر

وكثيرة المتابعة، ستنقل جميع المحطات الخبر، وسيتداول الجميع الفيديوهات والوثائق.

في هذا الوقت العصيب على الشمس ورجالها سأصل أنا، المقاتل العنيد، إلى مقرها، إلى مكتبها حيث تجلس مشغولةً تخطط هي ومجلسها الأول، ما الحل؟ سؤالهم الذي سيشغل المجلس، فبعد هذه المفاجئة من العيار الثقيل جداً قُلبت الطاولة على رؤوسهم، أمن المعقول نحن نقتل؟! لاا هم يعلمون ولكن ما الهدف؟ سيتساءلون، وهذا أنا، هنا، الآن أقف منتظراً السماح لي بالدخول إلى مكتبها لنجتمع في موعد لم يحدد ولم يكن متوقعاً، أبداً، وبالمناسبة، أنا لا أحمل الملفات المطلوبة، ولم يأتي رامي معي، بل أحمل ملفاً صغيراً سيكون هو الحل الأخير لها؛ فأنا من سيجد لها الحل وليس رجالها عديمي الفائدة، كما صرخت في وجهها يوماً في إحدى المحاكم التي سجنتني سنة كاملة مع بعض الأعمال المجتمعية.

دخلت، إنها أمامي تقف مبتسمة بسعادة لا توصف، هي تعلم أني أحضرت الخازوق العثماني معي، وأنا أعلم بأنها تعلم بأني لم آتي إلى هنا كي أفاوض بل كي أقاتل، وقفت بجسدها الرشيق أمامي وبوجهها الناصع اللطيف، لم أرَ أيّة تجاعيد، اللعينة يبدو أنها تستخدم تكنولوجيا محرمة، لا بأس، جرمها مبلغ كبير من المال، ولكن أنا أحضرت لها جرماً سيدخلها في دوامة لن تخرج منها إلا إلى مكبٍ لنفايات الأنظمة البائدة.

- مرحبا بالرفيق.. (قالت لي)

- أهلاً بالرفيقة

- انصرفوا

بالمناسبة عندما دخلت، كانت تقف في الجهة المواجهة لي، وراءها لوح كالألواح الدراسية البيضاء، لكنه كبير جداً، يغطي الحائط تقريباً، ثم ضغطت زراً من الجهاز الذي كانت تحمله فارتفع اللوح واختفى، ثم قالت "انصرفوا"، كانت تكلّم عشرة رجال تقريباً يجلسون على يميني، على منضدة خشبية كبيرة جداً، في وضعية لطيفة ينصتون لها قبل أن تسمح لي بالدخول، عندما قالت لهم "انصرفوا" وقف الجميع باحترام لا يضاهيه احترام ثم غادروا مكتبها على الفور، وقد أشار لي كل رجل برأسه عند الخروج، ثم

- الجبان قاتل الأصدقاء.. (بابتسامة لطيفة صفراء قالت الجملة)

- هذه المشاهد.. انصرفوا.. ثم ينصرفون.. حتى أسوأ الأفلام العالمية لم تعد تستخدم مشهداً مماثلاً

- أنا كلاسيكية.. تفضل

- شكراً لك

- شاي أم قهوة؟

- مع أو دون سم؟

ابتسمت وقد استشعرت قرفاً يلوح من عينيها، ثم قالت:

- دون ولكن إن شئت.. لا بأس.. تكرم عيونك صديق قيس قهوجي

- من فضلك.. رفيق أفضل من صديق.. قال

- أعلم.. أعلم.. المهم.. أين رامي؟.. وأين الملفات.. أنا أعلم بأنها كثيرة جداً.. وهي لا تتسع في جيبك الصغير.. أليس كذلك؟

- حاولنا أن ندخلها في جيبي ولكن فشلنا.. عزيزتي ال

- رفيقة أيضاً.. عزيزتي هذه لا أحبها

- رفيقة الشمس.. رفيقة شمس أفضل.. فرفيقة الشمس ثقيلة على اللسان

- ولكن أفضل.. وأوجب يا رفيق.. تفضل

- نحن رفقاء بماذا؟

- هذه عادة

- أعلم.. المهم يا رفيقة.. جلبت معي.. في هذا الجيب.. فقط أمراً بسيطاً.. رقم تسلسلي

- ذاكرة رقمية

- لا لااا.. لا تسمى هكذا

- ولكنه الأفضل أعتقد

ثم نهضت واتجهت إلى باب المكتب، فتحته وأخذت صينية موضوع عليها كوبي قهوة، وعادت بها.

- أهلاً وسهلاً بك.. منزلك الصغير

- فرعي الصغير

- نعم هو فرعك.. نعلم أنك تحب القهوة السادة.. تفضل

- شكراً لك

- إذن جئت لنناقش مقتل الصموأل

- نعم

- إذن رجل برجل؟

- لا أبداً.. المهم.. ادخلي إلى الذاكرة المخصصة له.. وانظري جيداً.. جيداً في الفيديو الموجود

فعلت ما قلت لها وهي تبتسم كامرأة منتصرة، لكني درستها كما درستني، هي كذابة، خائفة، مرتجفة القلب، ولكن لا بأس، في الفيديو الموجود صورة واضحة للصموأل وهو ينزل جثة الصديق إبراهيم الطويل، ثم يمسح أي أثر له، ويغادر سيراً على الأقدام وهو يترنح سكراً، بالطبع كما تعلمون هو سكران دائماً، يستيقظ لحظة العمل ثم يعود لسكرته.

- جميل.. وهل نشرتم الفيديو؟

- لا لاا.. الفيديو لا يزال بحوزتنا

- ومن أين لكم.. أن.. أنت تعلم بمسألة الحظر

- نعم بالتأكيد.. لفراس علاقات مضحكة

- فراس الفرّان؟

- نعم.. فراس الفرّان.. له علاقات كثيرة

- نعم.. يحسد عليها

- بالطبع.. المهم تخلى عن ثروته مقابل أن يأتي بهذا الفيديو من طريق صفقة عقدها مع مخابرات دولة ما

- دولة ما.. وهي؟

- لا أعرف.. قلت لك كل ما لدي

- فساد دولي.. يا سلام.. أعتقد بأنك ستواجه سجناً طويلاً أنت وفراس بيك

- بالطبع لا.. اتفاق بين حكومتين.. أخذ فراس الفيديو بعد اتفاق شخصي مع الحكومة على ثمن معين وقد جرى ذلك بإشراف رجال من الحكومة السورية.. وهم بالمناسبة من الأصدقاء.. ولكن لم يكن الأمر على نطاق موسَّع.. ثلاثة رجال سوريون وحكومة أجنبية أبقت الأمر سراً.. على أن تكشف الحكومة الصديقة الصفقة على أنها طلب رسمي من حكومة دمشق كي تكمل تحقيقاً ما.. وهذا أصلاً ما جرى.. ولكن لم نكشف فقد لا نضطر.. كما أعتقد

- واثق بنفسك يا رفيق.. ولكن المهم.. الصموأل لقي ما يستحق

- بالطبع.. لقي ما يستحق.. ولكن

- ولكن؟

- اعتقد بأننا مضطرون أن نتصل بأحدهم

الانطلاق إلى المواجهة

(رامي قهوجي)

خرجت من عند لينا الخطيب قاصداً عصام الفرّان، ابن فراس الأصغر، حيث كانت مهمته أن يوصلني حيث أريد، لكن وقبل التوجه إلى الوجهة الأساسية انطلق إلى دمشق، العدوي، البناء السادس والخمسون، الطابق الثالث، الشقة الأولى، حيث تقطن بتول السمكري.

دققت الباب ثلاثاً ثم تراجعت إلى الوراء، فتح الباب وخرجت منه السيدة الأولى، لي، بالطبع، لا يوجد في سوريا لقب السيدة الأولى حتى الآن، يوجد لدينا زوجة للرئيس ولكنه ليس لقباً رسمياً، هذه المعلومة كي لا يتفذلك حازم حين يقرأ شهادتي، ولكن سأطالب بذلك كي أعِدَ بتول بهذا المنصب، المهم، اقتربت منها فابتسمت كالعادة، لكنها تراجعت عن ابتسامتها قائلة:

- ما بك؟

- هااااا

- عيناك

كنت أعلم، لم ترى لهما مثيل من قبل، بالمناسبة، ورقة التعليمات -أي الخطة الموضوعة التي سلمتني إياها لانا مسبقاً في صباح اليوم- لا تشمل المرور لرؤية بتول، وهذه مخالفة سأبعد بسببها سنة كاملة عن الأصدقاء، ولكن لا بأس، لن أكون متفرغاً وقتها، فسأكون مع بتول في سنة العسل، فالاتفاق أن نتزوج بعد انتهاء المهمة، وذلك كي لا يبعد أحدنا عن الآخر، وبالطبع هي

ستبتعد فأنا البطل، والقصة كالتالي، الحبيبين، مسموح، ولكن الزوجين، ممنوع، وهذا القانون سأحاول أن أعدله إذا أصبحت يوماً ما، وهذا مستحيل، رئيس المجلس الأول، المهم.

أمسك يدها، ثم رفعتها للأعلى، حتى وازت مستوى شفتي، فقبلتها، فتراجعت الجميلة إلى الوراء، فلحق بها جسدي لا إراديًا، فقالت:

- ممنوع.. لم تنتهي المهمة بعد

صحيح، بتول لم تسافر خارج سوريا، هي فقط سافرت قانونياً –أي في السجلات– خارج البلد، حيث تقضي إجازة غير معروفة النهاية في هاواي، ولكن يحق للصديق أن يسافر أو يبقى في البلد، بعد أن يسافر ورقياً، وهي قررت البقاء.

عودةً إلى القصة:

- ممنوع.. لم تنتهي المهمة بعد.. أتريد أن؟!

- فلتذهب المهمات إلى الجحيم

- خطر؟

- لاااا.. خطر وأنا موجود.. لا لاا.. شوق

ثم غافلتها، وقبل أن أغافلها في الحقيقة، مسموح الحب ولكن فقط الحب العذري، قال لأسباب مدروسة، والقصة تؤثر ووووو، المهم، ثم غافلتها، رفعت يدي ووضعتها خلف رأسها ثم دفعت رأسها إلي ودفعت جسدي إليها حتى تقابلت شفاهنا، ثم غطست وارتويت ولم تقاوم، ثم اقتربت أكثر واقتربت حتى

انطوينا كمجرتين وليس جرمين في هذا العالم الاحمق، مولاي الشاعر، ولكن لحسن الحظ قاطعنا اتصال.

– ماذا تفعل في شقة بتول؟

– هاااا.. (إنه فراس الفرّان)

– ارتفاع في الهرمونات في دمك

– كريات الدم الزرقاء اللعينة.. (بصوت عالٍ صرخت)

– انقلع إلى الهدف.. وعند انتهاء المهمة سأخرج منك الخلايا الإلكترونية وتعود إلى طبيعتك

– أمرك فراس بيك الفرّان

وعدت بتول بقبلة على وجنتها اليمنى، وطلبت منها انتظاري على أحر من الجمر، ففعلت كما قلت لها، أشعلت الموقد وانتظرتني في شقتها حتى عدت، وانطلقت أنا ووصلت بعد الموعد بساعة تقريباً فخصم من رصيدي عديد من النقاط.

أتمنى ألّا تُحذف القبلة من الشهادة عندما تتحول إلى كتاب، وشكراً.

المواجهة

(رامي قهوجي)

مساء ذلك اليوم، عندما وصلت إلى المكان المقصود بعد القبلة العظيمة، دخلت إلى المرحاض لأقضي حاجة خاصة، وعندما خرجت.

- رامي؟

- نعم نعم.. أهلاً بك يا حازم بيك قهوجي.. أراك في موعدك.. يا أهلاً ويا سهلاً.. ما الأخبار؟

- جيد.. وأنت؟

- لا بأس

- أحضرا لي ويسكي.. ويسكي من فضلكم.. أو نبيد.. أو خرا.. خرا مخمر مسكر.. لا مشكلة.. المهم أريد أن أسكر.. رجاءً يا عرصات

- هل الأحمق هكذا طوال الوقت؟.. (سألني حازم)

- نعم نعم.. طوال الوقت.. عكرمة الصموأل.. الخرا.. هل أتممت المهمة يا أخي العزيز؟

- كل سوريا تعلم الآن أنك من قتل الصموأل؟

- أنا ميت؟.. (سأل الصموأل كالأبله)

- على الورق

- وجئت كي تأخذ.. وتكتب.. في كتاب للتاريخ؟

- بالطبع لاا.. أعطه شيئاً ليشربه.. يبدو أنه شديد الغباء

- نعم.. نعم.. هذا أنا.. غبي وأحمق.. دون سكر

- أعلم.. وهل تدري أننا لا نعلم

قلتها بصوت الواثق وأنا أتجه إلى صندوق خارج المنزل، أو الغرفة الكبيرة، ثم حملته وعدت إلى الداخل، وأنا أصيح:

- تفضل.. اسكر

ثم بدأ يشرب كالحيوان المصاب، يكرع الزجاجة دفعة واحدة، يعيدها ثم يلتهم واحدة أخرى، وعندما أنهى الزجاجة الخامسة وهو يقف كالجبل الذي نقف نحن عليه، سقط مغشياً عليه، وبعد لحظات رفع رأسه مبتسماً وبدأت ألاحظ الصموأل الذي قتلته، هذا هو وهذه هي ابتسامته، ثم أخرج من معدته بعضاً مما شرب وبعد أن انتهى انقض على الرغيف والبندورة وأكلها على دفعات كبيرة وكالمجنون.

أنهى الصموأل طعامه ثم قام بتنظيف المكان كما أمرته، وعاد، وفي هذه الأثناء تلقى أخي حازم اتصالاً هو الأهم خلال مسيرة حياتي المهنية.

- ألو.. هل تسمعني؟

كان اتصال صوت وصورة بالمناسبة.

- مرحبا.. حازم ورامي قهوجي.. ما الأخبار.. (هذا قيس ومعه الشمس من حلب)

– أهلاً وسهلاً قيس بيك.. معك.. (وفي كل مرة ذكر اسماً وجَّه كاميرا الهاتف إليه).. هذا رامي.. وهذا.. الصموأل

وعندما قال الصموأل سمعنا صوت شهقة خفيفة من الشمس.

– الشمس.. أتريدين الاطمئنان على رجلك التافه.. الصموأل.. (قال قيس بصوته الواثق الثابت)

– لا لاا

– أنا بخير سيدتي.. أنا بخير.. (قالها الصموأل بعد أن قذف السكْر عن وجهه)

– أحسنت صنعاً.. (قالتها له وكأنه كانت تتمنى لو أنه ميت بالفعل)

– المهم.. (قال قيس ثم تنحنح وأكمل).. الصموأل بخير كما ترين وهو.. (فقاطعته الشمس)

– وما أدراني بأن هذه المحادثة مسجلة؟!

وفي هذه اللحظة رن هاتف الشمس، وقد كنت أنا من يتصل، فقد توقع قيس هذا الشيء، ولمدة دقيقة واحدة راح الصموأل يعتذر منها، ثم أكمل قيس كلامه.

– كما ترين على قيد الحياة

– والتقارير والفيديوهات.. وسجل المستشفى؟.. (سألت)

– كل شيء مزيف.. كما تمّ تزييف شهادة وفاة إبراهيم وشهادة وفاة فشكة.. كما تعلمين.. فشكة ما هذا الاسم الغريب.. (قيس كعادته يقاطعه نفسه لذكر

معلومة لا أهمية لها).. اسم غريب.. المهم.. كل تفاصيل الموت الذي زورتيه لفشكة وإبراهيم تمّ تزويره للصموأل.. وإذا كنت تريدين.. لا بأس.. هل الفيديوهات جاهزة على الذاكرة يا حازم؟

- نعم يا قيس

- هيا فلنتابع.. (قال قيس بسعادة)

وخلال ساعتين شاهدنا فيديوهات لكل من عمل على تزوير المعلومات المخصصة بجريمة مقتل الصموأل، الإعلاميون والصحفيون والكتاب، كلهم ظهروا يؤكدون تورطهم في هذا التزوير، وقد أكدوا بأنهم دُفعوا من الشمس كي يقوموا بما قاموا به، منهم من أجل الخدمة ومنهم من أجل المال فقط.

- وهكذا أنتِ قمت بتلفيق جريمة مقتل فشكة.. صاحب الاسم المقرف.. وكما تعلمين فيديو الصموأل يبرِّئنا من الانتحار.. ويورطك.. وإضافة إلى ذلك كل من شهد ضدك في الفيديوهات مقربون منك.. أصدقاء معارف.. أشخاص يعملون معك.. وكلهم من الأصدقاء

- الجيل الأول؟

- طبعاً.. الجيل الأول.. المهم.. (لكنها قاطعته)

- وما المهم.. أنتم قتلتم ونحن قتلنا.. ولا دليل لديكم بتورطي في قتل إبراهيم.. تصرف فردي

- لاا لاا.. لن أتورط وحدي يا ست الكل.. (قال لها الصموأل)

- بالتأكيد.. (أجابته الشمس)

- حسناً.. المهم.. أنت زورتِ وفاة فشكة كما زورنا نحن وفاة الصموأل وهذه تؤدي إلى تلك وستتورطين.. وأنا مستعد أن يتم إعدامي في حلب

- وأنا مستعد

هذه أنا قلتها وقد أمرني قيس أن أقولها عندما يقول هو ذلك، المهم.

- ورامي كذلك.. أنا ورامي نعدم مقابل مقتل فشكة فرضاً إذا لم نستطع أن نقنع القاضي بقضية الصموؤل وفشكة.. وكيفية التزوير مع أن القضية واضحة.. نموت نحن وأنت قتلت إبراهيم وجبهة الأحزاب العشرين تنتهي.. والفرع يغلق.. وتنتهي الحرب بانتصارنا.. أو

ثم صمت قيس فجأة وأشعل سيجاره الكوبي، وأعتقد أنه تقصد ذلك ليكسب بعض الوقت فقد تأخرت الضربة الأخيرة.

- أو؟

- أو

ثم رن جرس السكرتيرة قائلة:

- سيدتي..ضيف جديد

- جميل.. ضيف.. فليتفضل.. (قال قيس)

- حسناً فليتفضل.. (أجابت الشمس)

التوقيع

(ديما قهوجي)

في الطريق إلى حلب عشرون مزرعة ومقراً تتبع لشركة الفرات، عددتها وودعتها خلال رحلتي الطويلة نفسياً، القصيرة زمنياً إلى حدّ ما، أمام بناء في الساعة التاسعة والنصف مساءً تقريباً هبطنا أمام بناء ضخم، أعتقد أنه مكون من عشرين طابقاً ثم اكتشفت أنهم اثنان وعشرون من المصعد.

لم يكن الدخول هيناً، فقد أوقفني الحرس، وهذا أصلاً ما توقعته، تحققوا من هويتي ثم أدخلوني إلى قسم الاستقبال حيث رحّب بي رجل يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، متوسط الطول، لا شعر لديه أبداً، ويرتدي بدلة سوداء وتبدو عليه علامات الغضب، ولا أدري لماذا، ولم يجبني عندما مازحته لحظة سمح لي بركوب المصعد.

أول الأمر، طلب مني هويتي ثم سبب الزيارة، أعطيته ورقة موجودة داخل الملف الذي سلمتني إياه لانا الخطيب، أخذ الورقة وهويتي ثم غادر القاعة التي أجلسوني فيها، انتظرته قرابة العشرين دقيقة قضيتها أحتسي قهوة سيئة الصنع، أعتقد أن المسؤول عن البوفيه بخيل، أو أحمق، أو ذائقة الجمهور العامل هنا في البناء سيئة، أو طلبوا منه أن يصنعها لي، فأنا ديما قهوجي وهذا شيء سيء بالنسبة لهم.

بعد أن عاد طلب مني بلطف شديد أن أتبعه إلى خارج القاعة، ثم سرنا إلى قرب المصعد لكننا لم نستخدمه، ثم سرنا إلى باب مقابل للمصعد فتحه وأدخلني، بين الباب الذي عبر منه وباب آخر ممر طويل جداً، يبلغ الأربعين

متراً والغريب أنني لم أرَ باباً واحداً أو مخرجاً واحداً من الممر إلّا البابين الأول والثاني، سألته فابتسم مخرجاً مقدمة أسنانه ثم أكمل طريقه.

فتح الباب ثم دخلت إلى قاعة كبيرة مرتفعة السقف، ثم رفع يده مشيراً لي أن أتقدم إلى أحد المصاعد التي تبلغ الثلاثين، على ما أعتقد، بالتأكيد اتبعت إشارة يده ثم تبعني، أمام المصعد أعطاني مفتاحاً وأمرني أن أستخدمه عندما يتوقف المصعد، ثم غادر بعد أن تأكد بأني قد انطلقت في رحلتي إلى الأعلى.

دقيقة واحدة ثم توقف المصعد، بحثت عن مكان لأضع المفتاح فيه، فلم أجد شيئاً، ثم فجأة خرج نتوء صغير من منتصف الباب وفيه غمد المفتاح، أدرت المفتاح، ورجعت إلى الوراء حتى فتح الباب، في الطابق الذي وصلت إليه يوجد شجرتي نخيل أمام المصعد وخلفهما حائط زجاجي يطل على مدينة حلب، على يميني قاعة كبيرة جداً لا تحتوي على شيء أبداً، وفي نهاية القاعة باب خشبي يميل لونه للسواد، عندما وصلت إلى منتصف القاعة فتح الباب، فعبرت إلى الطرف الآخر حيث رأيت منضدة خشبية تجلس فتاة جميلة القد قبيحة الوجه تجلس خلفه.

- مرحبا.. أنا

- ديما قهوجي.. أهلاً وسهلاً بك.. إنهم بانتظارك

- شكراً لك

طبعاً على يسارها باب خشبي مشابه للأخير، فتح لحظة وقفت قبالته، وخلف الباب كما أعتقد أنكم غدوتم تعلمون، يجلس قيس ومعه الشمس.

- أهلاً بالرفيقة.. (رحبت بي الشمس بصوتها الثقيل الهادئ)

- أهلاً بالرفيقة

- مبروك موافقة القاضي.. (قالت لي)

- الله يبارك فيك

نظر قيس إلي وعلامة استفهام كبيرة تعلو وجهه، موافقة القاضي هكذا أظن راح يكلّم نفسه.

- الملف ديما.. (قال قيس)

أخذه على الفور، ثم جلست بالقرب منه، أخرج منه الأوراق وراح يتكلم.

- عزيزتي الشمس.. من الواضح لك بأني انتصرت تقريباً.. تقريباً

- لا تقرر.. أكمل وفقط .. (قالت الشمس لوالدي بنبرة أخفت خلفها توتراً يساوي الجبل التي تجلس عليه قلعة حلب)

- المهم.. يا عزيزتي.. ما الذي سيجري لو أن المعركة استمرت.. حسناً.. سأقول لك.. أولاً أنا ودياب سنموت لجريمة قتل ارتكبناها.. أمّا رامي ورفاقه سيدخلون السجن والقضية تتراوح من سنة لعشرة وسيرافقهم فراس الفرّان بسبب اختراق بيانات خاصة بهم.. أنت والصموأل ستقتلون وبضعة رجال ممن تورط بقتل إبراهيم الطويل.. ثم سيقضي بقية الأصدقاء على الجبهة العشرين ثم سيقضى على الفرع.. في البداية

ثم نهض وراح يتكلم ملوحاً بكلتا يديه.

– في البداية.. أعترف.. لم أكن مستعداً أنا أو أي أحد أن نموت.. نموت!.. لا لاا.. وأن يعتقل ابني لعشر سنوات وفراس.. ما هذه الخسارة القاتلة.. قاتلة لنا.. ولكن لباقي الأصدقاء.. فلا.. العمل سيستمر وسوريا ستكون بخير.. نعم كنا فرضاً قررنا التضحية.. لا بأس.. ولكن أنت ستنجين بفعلتك.. ستتأخر عملية الإيقاع بالأحزاب العشرين لأن أطراف القضية ذهبوا ولكن ستبقى الجبهة وهذا أكيد.. ثم سيُقضى على الفرع.. ولكن المصيبة كانت فيكِ وبرجالكِ وبمعارفكِ وفسادك.. ستبقين وستعملين إلى الأبد.. وستورثي عائلتك الخراء الذي تعملين فيه.. ولكن.. اكتشفنا قضية مقتل إبراهيم فكان هذا سبيل القضاء عليك.. ولكن.. نحن لا نفعل شيئاً واحداً يودي بحياة أحد حتى ولو كانت تضحية.. فنحن لا نضحي بالحياة بل نعمل للإبقاء عليها.. نحن لا نعبد آلهة نحن نعمل من أجل الغد.. ولذلك.. أمسكي هذا المظروف.. ستوقعين على أوراق تنازل بشركة الفرات.. ستكون لك.. على أن لا يعمل

– موافقة

الغروب الأخير

(قيس قهوجي)

نعم وافقت، وافقت دون أن أكمل الاتفاقية، وقعت الشمس على الأوراق بعد دقائق من موافقتها، هي أذكى مما يتخيلها أحد، عبقريتها جعلتها تصمد خلال سنوات طويلة من الحرب.

نعم وافقت، ووقعت على اتفاقية استسلام تخرجها بأقل الخسائر، خسائر تبقيها على قيد الحياة، تتمتع هي وعائلتها ببعض المال والوقت الذي كانت ستخسره لو أكملت الحرب حتى النهاية.

نعم وافقت، كما يوافق الشجعان لحظة يعلمون الحقيقة، لحظة يرون أن النهاية أتت، وأن الهزيمة باتت وشيكة، وافقت وقد اعترفت بهزيمتها، هي تعلم بأني على استعداد أنا والجميع أن نموت أو ندخل السجن، فلا حل آخر، وهي تعلم بأن كل شيء أصبح واضحاً ووشيكاً، فوافقت.

بعد أيام من التوقيع، نُقلت ملكية شركة الفرات إلى اسم الشمس الحقيقي، رائفة حيدر، وأصبحت شريكة حقيقية للحكومة الاتحادية، ثم رفعت الدعوة ضد حزب الجماهير، وبعد عشرة أسابيع من القضية سُحبت رخصة الحزب وأغلِق إلى الأبد مع زج الكثيرين في السجون، رُفعت القضية على شكل فيلم وثائقي لمجموعة من الصناع الشباب، كفضيحة إعلامية جرى الإعداد لها من داخل المحاكم وخارجها، وهكذا سقطت جبهة الأحزاب العشرين.

لاحقاً وبعد شهر واحد طُلب من البرلمان التصويت على إلغاء قانون الأفرع الأمنية فلم تستطع اللجنة المخصصة البت بالقرار بسبب نقص العدد فسقطت

اللجنة وألغيت، وتقرر أن يجري التصويت في البرلمان، وقد جرى ما خططنا له، وتمّ إلغاء قانون الأفرع الأمنية إلى الأبد.

كانت تنص الاتفاقية مع الشمس ألّا تعمل مع أحد رجالها، وأن تعطينا قائمة بالرجال الذي يعملون معها داخل الحكومة، قوائم برجال الفساد وقضايا تسقطهم، ثم سيتم الأمر بالمغافلة، لن تستلم عملها الجديد إلّا بعد أن يتم القضاء على الجميع، سيُلاحق الفاسدون في قضايا متنوعة، ستخسر في وقت لاحق ترخيصها الأمني، ثم عملها في تجارة الحشيش وستسحب منها جميع المناقصات والمشاريع والعقود الموقعة.

وبعد أن تستقر الأمور وبضمان منا أنها لن تمّس أبداً بسوء ستعود إلى منزلها لتدير كما تشاء شركة الفرات.

بعد ثلاثة أشهر طويلة في أروقة المحاكم والبرلمان، وفي اليوم الذي تقرر فيه إلغاء قانون منح التراخيص الأمنية للأفرع جلسنا أنا وأولادي الثلاثة في مزرعتي في الزبداني، ورحنا نراقب الغروب الأخير، الغروب الذي سيودع دمشق، لتأتي شمس تشرق على سوريا لأول يوم منذ مئات السنوات دون أفرع أمنية تجثم على صدور أهل هذا البلد العظيم.

كانون الأول 2017

(تمت)



"قواعد النشر في مجلة أوراق"

ترحب مجلة أوراق بإسهامات المفكرين والكتاب والادباء والباحثين في الاتجاهات الثقافية الفكرية والسياسية إضافة للنقد والإبداع والترجمة، وتقتصر شروط النشر في المجلة على النقاط التالية:

- ان تكون المساهمات المرسلة غير منشورة سابقا.

- أن تخلو المادة من أي إساءة لأشخاص بعينهم، وألا تتعرض لقضايا شخصية، كتصفية حسابات أو تجريح خارج سياق الموضوع.

- أن تكون المواد المرسلة بصيغة ملف وورد منسّق، وتعتذر هيئة التحرير عن الملفات المرسلة كنص عبر الهاتف أو تنسيقات أخرى غير الوورد.

- نأمل من الزملاء في الدراسات الموثقة بمصادر ومراجع أن يلتزم المساهمون بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان النشر وتاريخه واسم الناشر، وفي حالة الاحالة الى مجلات يذكر اسم كاتب المقالة وعنوانها ورقم العدد وتاريخه ورقم الصفحة.

- أن لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن خمسة آلاف كلمة إلا باتفاق سابق مع ادارة تحرير المجلة، ويفضل ارفاق الدراسة بملخص صغير عنها لا يتجاوز 50 كلمة.

- أن لا يزيد حجم مراجعات الكتب عن 1500 كلمة ويدوّن في أسفل المراجعة عنوان الكتاب واسم مؤلّفه ومكان نشره وتاريخه وعدد الصفحات.

- يرفق مع كل دراسة أو مقالة أو نص تعريف بالكاتب وعمله الحالي.

- نرجو أيضا إرفاق صورة شخصية للكاتب/ة أو صورة أو أكثر تتعلق بموضوع المادة.

- لا تعاد المواد المعتذر عن نشرها إلى أصحابها.

- يجري إعلام الكاتب بقرار هيئة التحرير خلال شهر من تاريخ تسلم النص.

- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص المجازة للنشر وفق خطتها التحريرية.

- تلتزم المجلة بنشر كل المواضيع التي توافق عليها هيئة التحرير والتي تستوفي معايير النشر الموضوعية (بالنسبة للدراسات) أو الابداعية (بالنسبة للنصوص الادبية).

- تستلم المجلة النصوص مطبوعة على بريدها الالكتروني:

awraq@syrianwa.net

ونشكر تعاون جميع الزملاء والأصدقاء الكتاب والمثقفين وأعضاء الرابطة في هذا الصدد.

هيئة التحرير: 15/ 08/ 2022